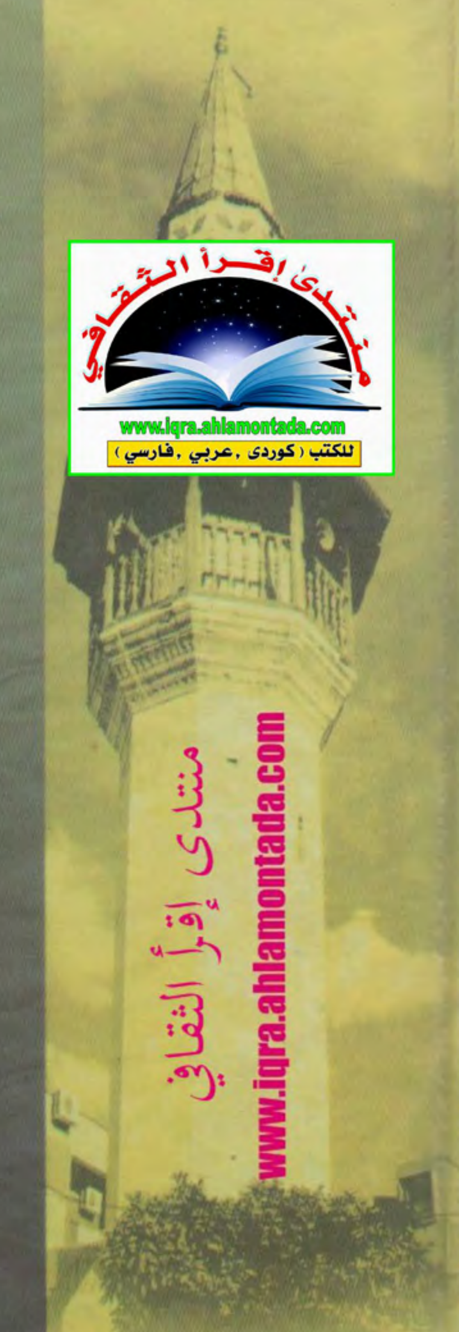
الأستاذ الدكتور

محمد راتب النابلسي

موسوعة أسماء الله الحسنى

الجزء الثالث



دار المكتبي

مَوْسُوعَةُ
أَسْمَاءِ ٱللَّهِ ٱلْحُسْنَى

الأستاذ الدكتور
محمد راتب النابلسي

ٱلْجُزْءُ ٱلثَّالِثُ

دَارُ ٱلمَكْتَبِي

البَاعِثُ

من أسماء الله الحُسنى الباعث.. وقد ورد هذا الاسم في أحاديث رسول الله ﷺ التي ذكر فيها أسماء الله الحُسنى.

البعث في اللُّغة.. الإثارةُ والإنهاض.. يقال: بعث بعيره فانبعث أي استنهضه فنهض.. أنهضه، وبعثه: أرسله، وانبعث فلانٌ لشأنه أي سار لشأنه، بعث الناقة: أثارها، بعث فلاناً من نومه: أيقظه، البعث: بعث الجنود إلى الغزو، البعث هو الجيش، البعث: الإحياء من الله عزَّ وجلَّ، البعث: النشر. هذا ما ورد في معاجم اللغة حول معنى كلمة البعث كمصدر في اللغة.

وأما الباعث في حقِّ الله تعالى.. فلهذا الاسم معانٍ كثيرة، ومن هذه المعاني أنَّ الله سبحانه وتعالى باعث الخلق يوم القيامة كما يقول في سورة الحجّ، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ [الحج: ٧].

أي أنَّ الله سبحانه وتعالى يُنهض الموتى من قبورهم ليحاسبهم، وقد قال تعالى في سورة الزلزلة:

﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا ۝١ وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوۡمَئِذٖ يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ أَشۡتَاتٗا لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [الزلزلة: ١-٦].

هذا هو البعث.. فالمؤمن يؤمن بيوم البعث .

المعنى الآخر لاسم الباعث أنَّ الله جلَّ جلاله باعث الرسل إلى الخلق ، يقول تعالى في سورة النحل :

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا ﴾ [النحل : ٣٦] .

إنهاض الناس من قبورهم باعث ، وإرسال الرسل إلى الناس كافَّةً باعث .

والمعنى الثالث أنَّه تعالى يبعث عباده على الأفعال المخصوصة أي أنَّ الله عزَّ وجل يُلهم الإنسان في حركاته وسكناته.. وذلك بالطبع لصالحه مكافأةً أو تأديباً.. قال تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ [يونس : ٢٢] .

ألم يقل النبيُّ عليه الصلاة والسلام :

« إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ » ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ » [رواه مسلم] .

هذا التقليب لصالح العباد ، فالإنسان أحياناً يُلهَم أن يتحرَّك ، يُلهَم أن يسير في هذا الطريق ، يُلهم أن يشتري ، يُلهم أن يبيع ، وقد يستجيب أحياناً لوسوسة الشيطان . والله سبحانه وتعالى لا يسمح لفعلٍ إلا إذا كان فيه صالحٌ للعبد نفسه ، الله تعالى يُقلِّب قلوب العباد بين أصبعيه .

فمثلاً لو أنَّ الإنسان اختار طريق الحق أو اختار طاعة الله عزَّ وجلَّ ، أو اختار التوبة النصوح ، ربُّنا سبحانه وتعالى يشرح له صدره ، شَرْحُ صدره إعانةٌ لهذا العبد على طاعة ربِّه ، فقد قال

تعالى : ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف : ١٣] .

فالإنسان مثلاً إذا تحرَّك نحو الله قليلاً فالله سبحانه وتعالى يبارك حركته ويشجِّعه ويشرح له صدره ويُعينه على طاعته ، ألم يُجمَع القرآن كلُّه في الفاتحة ؟ ألا تُجمَع الفاتحة في آية ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

ولو أنَّ الإنسان اختار طريق الباطل ، أو طريق الشهوة ، أو طريق المكاسب الماديَّة ، أو طريق الأذى ، فالله سبحانه وتعالى كيف يُعينه على أن يبتعد عن هذا القرار ؟ يجعل صدرهُ ضيِّقاً حرجاً كأنَّما يصَّعد في السماء كما ورد في قوله تعالى :

﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام : ١٢٥] .

فهنا وقفة دقيقة . . إن اتخذت قراراً صحيحاً شرح الله لك صدرك وهو بهذا أعانك على متابعة هذا القرار ، وإن اتخذت قراراً خاطئاً ضيَّق الله عليك نفسَك ﴿ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ لعلَّك ترتدع عن متابعة هذا القرار .

فالله سبحانه وتعالى حينما جعل قلوب العباد بين أُصبعيه ما جعلها كذلك إلا ليعين عباده على الخير ، وليبعدهم عن الشرِّ ، فالباعث أحياناً يبعث هذا الانشراح ، والمثبِّط يبعث له هذا الضيق ، فالله سبحانه وتعالى يبعث عباده على الأفعال المخصوصة .

هناك معنى آخر : إنَّ الله سبحانه وتعالى أمر ونهى وكلَّف ،

وأعطى الإنسان حريّة الاختيار ، ولو أن الإنسان اتخذ قراراً خاطئاً وتابع خطأه إلى ما لا نهاية حتى جاءه الموت وهو متلبّسٌ بالمعصية والكفر ، لاستحقَّ جهنَّم إلى أبد الآبدين ، هذا محض العدل ، ولكنَّ الله سبحانه وتعالى رحيم يربِّي هذا العبد ، فلو أنَّه اتخذ قراراً خاطئاً وأراد أن يُؤدِّبه بعثه إلى عملٍ يستحقُّ عليه عقاباً شديداً. . فإذا أراد ربُّك إنفاذ أمرٍ أخذ من كلِّ ذي لـبٍّ لُبَّه .

فمثلاً : إذا اتخذ إنسانٌ قراراً في أن يؤذي الناس ، كأن يَغُشَّهم في بضاعته ، وأن يغتصب بعض أموالهم ، وحاز هذا المال ؛ فلو أنَّ الله تركه إلى نهاية المطاف لاستحقَّ النار ، لكنه يتحرَّك حركةً خاطئة فيبعثه إلى عملٍ يستحقُّ عليه العقوبة كي يؤدَّب ، فقد قال تعالى :

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام : ١٤٧] .

إذاً إنَّ الله تعالى يبعث عباده على الأفعال المخصوصة إما تحقيقاً لاختيارهم ، أو تأديباً لهم ، أو مكافأةً لهم ، فلو أنّ إنساناً أدَّى زكاة ماله يبعثه لشراء صفقةٍ رابحة ، يُعوِّض عليه كلَّ ما دفع ، بينما إنسان آخر بخل أن يُزكِّي ماله يبعثه إلى صفقةٍ خاسرة .

فالله عزَّ وجلَّ يبعث. . بالمعنى الأول يُحقق لك اختيارك ، وبالمعنى الثاني يُكافئك على حسن اختيارك أو يؤدِّبك على سوء اختيارك ، هذا التسيير الأول. . لتحقيق الاختيار. . أما الثاني فهو لدفع ثمن الاختيار .

التسيير الأول هو أن تحقق اختيارك. . أما التسيير الثاني فهو تسيير

تربوي ، فإما أن يشجع وإما أن يعاقب ، وهذا هو معنى يبعث عباده على الأفعال المخصوصة .

يبعث من في القبور . . ينهضهم .

يبعث الأنبياء والمرسلين . . يرسلهم .

يبعث عباده على الأفعال المخصوصة . . أي يخلق الإرادات والدواعي في قلوبهم .

والمعنى الرابع . . أنَّ الله سبحانه وتعالى يبعث عباده عند العجز بالمعونة والإغاثة .

فالإنسان بين حالين لا ثالث لهما ، حال الاعتداد بالنفس كما حدث للصحابة الكرام يوم حنين فقد قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة : ٢٥] .

وحال الافتقار إلى الله مثلما حدث للصحابة الكرام في بدر ، فقد قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ [آل عمران : ١٢٣] .

أنت بين حال الاعتداد بالنفس أن تقول : أنا ، وبين حال الافتقار إلى الله أن تقول : الله ، إن قلت : أنا ، تخلَّى عنك ، ﴿ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ .

والحالة الثانية حال أن تقول : الله ، وعندها يتولاَّك الله بالرعاية والتوفيق . في حياة كلٍّ منا كل يوم عشرات الدروس ، إن قلت : أنا تخلَّى الله عنك ، وإن قلت : الله ، تولاَّك ورعاك وأيّدك ونصرك وأعانك وألهمك وحفظك ودافع عنك ، شتَّان بين أن تقول : الله ،

وأن تقول : أنا ، ولا يخفى عليكم أنَّ . . أنا ، ونحن ، ولي ، وعندي أربع كلماتٍ مهلكات ، فقد قال إبليس : أنا ، فأهلكه الله ، في سورة ص مخاطباً ربه :

﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [ص : ٧٦] .

وقال قوم سبأ : « نحن » فأهلكهم الله تعالى :

﴿ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ [النمل : ٣٣] .

وقال فِرعون : « لي » فأهلكه الله :

﴿ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ ﴾ [الزخرف : ٥١] .

وقال قارون : « عندي » فأهلكه الله :

﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ [القصص : ٧٨] .

فالمعنى الرابع . . أنَّ الله سبحانه وتعالى يبعث عباده عند العجز بالمعونة والإغاثة ، وعند الذنب بقبول التوبة .

هذا مجمل المعاني التي وردت في الكتاب والسنَّة عن اسم الباعث ، وقيل : الباعث . . الذي يبعث مَن في القبور ، باعثُ السّاكنِ ، ساكنٌ يبعثه الله فيتحرَّك ، كلُّ شيءٍ ساكن يبعثه الله فيتحرَّك ، فالنبات في الشتاء ساكن يكون حطباً ، ويأتي الربيع فيبعثه الله فيزهر ويورق ويُثمر ، بعض الحيوانات تنام في الشتاء فإذا جاء فصل الربيع بعثها الله .

البذرة . . فيها رُشيم ، فيها جُذَير ، فيها سُويق ، فيها حياةٌ يمكن أن تُخزِّنها آلاف السنوات ، القمح الذي وجد في الأهرامات زُرِع فأنبت وقد مضى عليه ستَّة آلاف عام ، فلما وضعت هذه البذرة في الأرض بعثها الله ، نبتت .

وهذا معنى اسم الباعث مطلقاً.. باعث الشيء الساكن ، شيء ساكن فيتحرَّك .

باعث الهمم.. فالإنسان أحياناً تضعف نفسه ، فإذا استعان بالله عزَّ وجلَّ أعطاه همةً ، وأعطاه قوةً وأعطاه اندفاعاً ، لذلك فالمؤمن الصادق يدعو ويقول :

« اللهمَّ! تبرَّأت من حولي وقوَّتي ، والتجأت إلى حولك وقوَّتك ياذا القوَّة المتين » .

يقول أحد العلماء : **« الباعث ».. هو الذي يحيي الخلق يوم النشور ، ويبعث من في القبور ، ويحصِّل ما في الصدور » .**

كلُّ أعمالك مسجَّلةٌ عليك ، سوف نُبعث ونراها أمامنا واحدةً واحدة فقد قال تعالى :

﴿ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ [الإسراء : ١٤] .

والبعث هو النشأة الآخرة ، فالنشأة الأولى في الدنيا ، والنشأة الآخرة يوم القيامة .

قال بعض العلماء : **« الإنسان أحياناً يتوهَّم أنَّ الموت عدمٌ ، وأنَّ البعث إيجاد ابتداءً »** ، والحقيقة غير ذلك ، الإنسان يموت ولكنَّه في القبر إما أن يكون من أهل النعيم ، وإما أن يكون من أهل الجحيم ، إما أن يكون القبر روضةً من رياض الجنَّة ، وإما أن يكون القبر حفرةً من حفر النيران ، والدليل قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾ [آل عمران : ١٦٩] .

الموت ليس فناءً ونهايةً ومن ثم يوم القيامة فيه بدءٌ جديدٌ ، لا ،

بل هناك حياة برزخية ، ألم يقل الله عزَّ وجلَّ في فرعون وقومه يصفهم في قبورهم :

﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر : ٤٦] .

مضى على عذابهم أكثر من ستَّة آلاف عام وإلى يوم القيامة غُدوّاً وعشياً ، هذه الآية أصلٌ في عذاب القبر أو عذاب البرزخ مطلقاً .

الموتى إما أن يكونوا أشقياء ، وإما أن يكونوا سعداء ، إن كانت أعمالهم سيِّئة كانوا أشقياء في القبور وإلى يوم القيامة ، وإن كانت أعمالهم صالحة كانوا سعداء في القبور وإلى يوم القيامة ، لذلك فإن القبر روضةٌ من رياض الجنَّة ، أو حفرةٌ من حفر النيران .

ورد في بعض الآثار : « **أنَّ روح الميِّت ترفرف فوق النعش تقول : يا أهلي ويا ولدي لا تلعبنَّ بكم الدنيا كما لعبت بي ، جمعت المال من حِلِّه ومن غير حلِّه ، ثم خلفته لغيري فالمهناة له والتبعة عليّ فاحذروا ماحلَّ بي** » .

عن أبي طلحة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « كان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال » . وعن أبي طلحة قال : « لما كَانَ يومُ بَدر ، وظهَرَ عليهم نبيُّ الله ـ ﷺ ـ ، أَمَرَ ببضعَة وعشرِينَ رَجلاً ـ وفي رواية ؛ بأربعَة وعشرِينَ رجلا ـ من صناديدِ قُريش ، فأُلقُوا في طَوِيّ من أَطْوَاءِ خبيث مُخْبِث ، وكان إذَا ظَهَرَ على قوم أقامَ بالعَرْصَة ثلاثَ ليال ، فَلَما كانَ ببدر اليومَ الثالث أمرَ براحلَته فَشُدَّ عليها رَحلُها ، ثم مَشَى ، وأتبَعَهُ أصحَابُهُ ، قالوا : ما نرى يَنطلَقُ إلا لبعض حاجته ، حتَّى قامَ على شَفَة الركيِّ ، فجعل يُناديهم بأسمائهم ،

وأسماء آبائهم : يا فُلان بن فُلان ، ويا فُلان بن فُلان ، أَيَسُرُّكم أَنَّكُم أطعتمُ الله ورسولهُ ؟ فَإِنَّا قَد وجدنا مَا وَعَدَنَا رُّبنَا حقًّا ، فَهَل وجدتُم مَا وعدَ ربكمْ حقًا ؟ فقال عمر : يا رسولَ الله ، ما تُكلِم من أجساد لا أرواحَ لها ؟ فقال النبيُّ ـ ﷺ ـ : والذي نفس مُحمد بيدِه ، مَا أنتُم بأسمع لِمَا أقولُ منهم . قال قتادة : أحياهم الله حتى أسمعهم قولَهُ ، تَوبيخاً ، وتصغيراً ، ونِقْمة ، وحسرة ، وندماً . [أخرجه البخاري ، ومسلم] .

قالت عَائِشَةَ لَمَّا أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ بِأُولَئِكَ الرَّهْطِ فَأُلْقُوا فِي الطُّوَى عُتْبَةُ وَأَبُو جَهْلٍ وَأَصْحَابُهُ وَقَفَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ : « جَزَاكُمُ اللهُ شَرًّا مِنْ قَوْمِ نَبِيٍّ مَا كَانَ أَسْوَأَ الطَّرْدِ وَأَشَدَّ التَّكْذِيبِ » قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ : كَيْفَ تُكَلِّمُ قَوْماً جَيَّفُوا فَقَالَ : « مَا أَنْتُمْ بِأَفْهَمَ لِقَوْلِي مِنْهُمْ أَوْ لَهُمْ أَفْهَمُ لِقَوْلِي مِنْكُمْ » [مسند الإمام أحمد] .

إذاً الإنسان يحيا والموت عمليّة انفصال نفسه عن جسده عن روحه . . روح الإنسان هي القوَّة المحرِّكة ، وجسده وِعاؤه ، ونفسه ذاته . النفس خالدةٌ إلى أبد الآبدين ، إما في جنَّات النعيم وإما في أعماق الجحيم ، فقد قال تعالى :

﴿ وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ﴾ [الزخرف : ٧٧] .

فأنت خُلقت لتبقى ، إما في نعيمٍ مقيم وهذا ما نرجوه إن شاء الله تعالى ، وإما في جحيمٍ لا تطاق ولا تحتمل ، فلذلك عندما يُؤثر الإنسان الدنيا على الآخرة يكون أحمق وغبياً .

مَن آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً ، ومن آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً .

إني وجدت ما وعدني ربِّي حقاً ، فهل وجدتُّم ما وعد ربُّكم حقاً ؟ خاطبهم. . رايموند ماودي ألَّف كتاباً عنوانه الحياة بعد الموت. . وكان الباعث على تأليف هذا الكتاب أنَّ مريضاً توقَّف قلبه أمداً طويلاً ثم عاد ونبض ، فذكر هذا الإنسان كيف أنَّه تصوَّر أعماله كلَّها ، وكيف أنَّ نفسه ابتعدت عن جسده ، وكيف أنَّه ندم على أعماله السيِّئة ، هذا الوصف جعل مؤلِّف الكتاب يتحرَّك إلى أكثر المشافي ، وأراد أن يأخذ تقارير مشابهةً عن هذه الحالات ، وقام بجمع هذه التقارير وألَّفها في كتاب .

والملخَّص. . أنَّ الإنسان حينما يموت تبتعد نفسه عن جسده ، المؤمن يستعرض أعماله كلَّها طوال حياته ، ويُقيِّم أعماله كلَّها وفق مقياسٍ واحد هو مدى ما ينتفع بها عباد الله ، ويرى أن أعماله ولو عظمت إن لم ينتفع بها أحد فلا قيمة لها فإن خير عباد الله أنفعهم للناس .

فالإنسان حينما يُدقق ، أو حينما يعلمُ علم اليقين أنَّه سوف يدخل في القبر ، وأنَّ هذا القبر حياةٌ برزخيَّة تسبق الحياة الأُخرويَّة ، وأنَّ هذه الحياة في القبر نعيمٌ أو جحيم ، ينبغي أن يعُدَّ ألف مرَّة قبل أن يقترف المعصية .

أحد الأئمة يقول : « **الباعث. . هو الذي يبعث الخواطر الخفيَّة في الأسرار ، فمن دواعٍ ما يبعثها إلى الحسنات ، ومِنْ دواعٍ ما يبعثها إلى السيِّئات** » .

كما قلت قبل قليل. . العمل أساسه إرادة ، الإرادة تتحرَّك بالباعث ، والباعث هو الله سبحانه وتعالى يبعثنا إلى أعمالٍ اخترناها

صالحة ، أو إلى أعمالٍ اخترناها سيئة ، فلذلك قال الله عزَّ وجلَّ :

﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ ﴾ [البقرة : ٢٨٦] ، ما هو الكسبُ ؟ أنت حينما تقول : أنا سأُصلِّي ، هذا هو الباعث ، هذا هو الكسب . الله سبحانه وتعالى يُمِدُّك بقوةٍ منه ، فالله جلَّ جلاله حينما يراك تريد أن تُصلِّي يعينك على أداء الصلاة ، هو الذي يحقق أفعال العباد ، الأفعال بيد الله ، والإنسان يملك الانبعاث ، يملك الإرادة ، يملك الاختيار ، يملك الكسب ، وما سوى ذلك من خلق الله عزَّ وجلَّ ، وهذه هي العقيدة الصحيحة .

وقيل : « **الباعث . . . هو الذي يبعث الهمم إلى الترقّي في ساحات التوحيد** » .

فالإنسان أحياناً إذا وصل إلى مستوى معيَّن ولم يتجاوزه إلى مستوىً أعلى قد يصاب بالسأم والضجر والملل . . من لم يكن في زيادة فهو في نقصان ، فقرار الهُدى قرارٌ مستمرٌّ فكلَّما ازددت علماً ارتقيت عند الله ، وكلَّما ارتقيت عند الله ارتفع مستوى عملك ، وكلَّما ارتفع مستوى عملك زاد إقبالك ، فهي سلسلة متتابعة ، فالذي يبقى في مرتبةٍ واحدة هذا معرَّض لأن يقول : مللت ، والله سبحانه وتعالى لا يملّ حتى تملّوا ، فإذا لم يكن هناك ازدياد علمي وازدياد عملي فلن يكون رقي حقيقي ، ولن يكون هناك عمل صالح ترقى به . وربَّما انعكس هذا سلباً على مكانة الإنسان عند الله عزَّ وجلَّ .

وقيل : « **الباعث . . هو الذي يبعثك على عليّات الأمور** » ، أي إذا أراد ربُّك إظهار فضله عليك خلق الفضل ونسبه إليك .

الحقيقة أن هناك في الدين حقيقة خطيرة جداً ، أنت لا شيء ،

أنت ضعيف ، أنت فقير ، أنت جاهل ، ولكنك إذا أقبلت على الله أصبحت عالماً ، وإن أقبلت على الله عزَّ وجلَّ أمدك بقوةٍ من عنده ، إن أقبلت على الله علمكِ مالم تكن تعلم .

فالإنسان بذاته ضعيف ، أمّا بالله فهو قوي ، بذاته جاهل ، أمّا بالله فهو عالم ، بذاته فقير ، أمّا بالله فهو غني .

وبعد فملخص التوحيد ألا ترى مع الله أحداً ، وألا ترى لنفسك شيئاً ، حينما تفتقر ذاتُك إلى الله ، تستحق كل مكرمة. . لذلك قالوا : الأبواب إلى الله كثيرة ، وباب الانكسار : هو أعظم هذه الأبواب ، فكلما ازددت افتقاراً إلى الله ، رفعك الله إلى أعلى المراتب ، والأمر هو أمر متعلق بالتوحيد . كلما رأيت أن الله هو الإله العظيم الذي لاندّ له وهو الواحد ، وهو المعطي ، هو المانع ، هو المغني ، هو الممد ، هو القابض ، هو الباسط ، هو المعز ، هو المُذل ، تتوحد وجهتك .

وبعد. . . من أين يأتي الإخلاص ؟ من التوحيد ، هناك علاقة بين التوحيد والإخلاص ، كلما ازددت توحيداً ازددت إخلاصاً ، لأنه مادام هناك جهات أخرى تعطي وتمنع ، ترفع وتخفض ، تعز وتذل ، فأنت موزع بين ما تعتقده في هذه الجهات من أنها تعطي وتمنع ، أما إذا أيقنت يقيناً قطعياً أن كلَّ الجهات عاجزة وهي لا تعطي ولا تمنع ، لا ترفع ولا تخفض ، لا تعز ولاتذل ، وأيقنت أن الله هو وحده لا شريك له ، وبيده كلّ شيء ، إليه يرجع الأمر كلّه ، فعندئذٍ تعبده وتتوكل عليه .

إذاً. . . ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد ، قال الله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٣] .

أحدُ أكبرِ أسباب عذابات النفس ، أنْ تدعوَ مع الله إلهاً آخر ، وأحد أكبر أسباب الخوف أن تشرك بالله مالم ينزِّل به سلطاناً ، فمثلاً قال الله تعالى : ﴿ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ﴾ [الأحزاب : ٢٦] .

الرعب متعلِّق بالشرك ، فهذا قانون إلهي ، أنت تخاف بقدر ما تبتعد عن التوحيد فإذا وحَّدت الله عزَّ وجلَّ نُزع من قلبك الخوف ، لأن أمرك كلَّه بيد الله ، والله وليّك ، فلا خوف ، ولا حزن . . ولذلك فالإنسان إذا وحَّد أخلص ، وإذا أخلص ارتقت همته .

ورد : أن اصنعِ المعروف مع أهله ، ومع غير أهله ، فإن أصبت أهلَهُ أصبت أهله ، وإن لم تصب أهله فأنت أهله .

الموحِّد لا يعلِّق أهمية على ردود فعل الناس ، أما غير الموحد فإن أسدى إليهم معروفاً ولم يتلقَ منهم استحساناً أو ثناءً يتألم ، أما الموحد فإنْ أسدى إلى الناس معروفاً فهو يدرك أنَّه مافعل ذلك إلا ابتغاء وجه الله . . قال الله تعالى : ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ [الليل : ١٩ـ٢١] .

وبعد ، فليعلم المؤمن أنّ التوحيد طريق مختصر ، والإخلاص مسرِع ، إلاّ أن التوحيد كلمة واحدة ، وتلخِّص الإيمان كلّه ، وتلخص العمل كلّه ، وتلخص مجاهدة النفس والهوى كلّها ، والتوحيد ملخص معرفتك كلها بالله ، وهو الهدف الكبير لهذا الدين ، والآية الكريمة تقول : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥] .

إذاً : الباعث أيضاً هو الذي يبعثك على عليّات الأمور ، ويرفع عن قلبك وساوس الصدور ، وهذا من تعريفات اسم الباعث .

وقيل : « **الباعث الذي يصفّي الأسرار عن الهوس ، ويسمو بالأفعال عن الدنس** » ، أيْ أنّ الله عزَّ وجلَّ إن أقبلتَ عليه طهَّر قلبك من الأدران .

وإني لأذكر هذه الآية : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ ، فأجد فيها معنًى دقيقاً شفافاً . . ذلك أن الله سبحانه وتعالى حينما قال :

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ الباء باء السبب أي بسبب رحمةٍ استقرت في قلبك يا محمد ، من خلال اتصالك بالله لنت لهم ، فلما لنت لهم التفوا حولك ، وأحبّوك وأقبلوا عليك .

لو أن الإنسان انقطع عن الله خلا قلبه من الرحمة ، فكان فظاً غليظاً ، فلما كان فظاً غليظاً انفضَّ الناس من حوله ، فهل بالإمكان أن نستنبط قانوناً ؟ القانون : هو اتصالٌ . . رحمةٌ . . لينٌ . . يعني التفافٌ من حولك ، انقطاعٌ . . قسوة . . غلظة . . يعني انفضاضاً عنك ، هذا هو القانون .

إن اتصلت بالله عزَّ وجلَّ تستقر الرحمة في قلبك ، مُنْعَكَسُ هذا الرحمة لين ، وتواضع وإيناس وذوق ، عندئذٍ يجتمع الناس حولك ، فلو أن القلب أقفر من الاتصال بالله عزَّ وجلَّ ، أصبح قاسياً وعندئذٍ يصبح فظاً غليظاً ، وينفض الناس من حوله .

هناك حقيقة : هي أن الدعوة إلى الله ليست المعلومات وحدها ، بل هي الشرط اللازم لها ، إن المعلومات شرط لازم وغير كافٍ ، لكنَّ القلب الكبير الذي يسع الخلق ، القلب الكبير الذي يرحم

الخلق ، والقلب الكبير الذي يتواضع للخلق ، القلب الكبير الذي يعطف على الخلق ، هذا القلب هو أساس الدعوة إلى الله ، لأن أصحاب النّبي عليه الصلاة والسلام أحبوه حباً لا يوصف .

سيدنا ربيعة بن كعب الأسلمي حينما كان يخدم النبي ﷺ ، وانتهت خدمته ذات ليلة وأمره أن ينصرف ، بقي على عتبة دارهِ حتى الفجر من شدة التعلُّق به ، مامعنى ذلك ؟ التعلُّق له علاقة بالكمال ، كلّما كنت أكثر كمالاً تعلَّق الناس بك ، وكلما ابتعدت عن الله عزَّ وجلَّ انخفض مستوى الكمال ، وعندئذٍ ينفضُّ الناس من حولك .

قيل : « **الباعث هو الذي يبعثك على عليّات الأمور ويرفع عن قلبك وساوس الصدور ، والباعث هو الذي يصفّي الأسرار عن الهوس وينقي الأفعال من الدنس** » .

وقيل « **الباعث . . باعث الرسل بالأحكام ، فبعث الله النبيِّين مبشرين ومنذرين ، وباعث الموتى بالقيام** » .

قال الله تعالى :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ ﴾ [البقرة : ٥٦] .

وباعث النيام بيقظةِ الأجسام . . الإنسان ينام ، ماهو النوم ؟ موتٌ مؤقَّت ، قال الله تعالى :

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ [الزمر : ٤٢] .

النوم موت مؤقت ، لهذا كان عليه الصلاة والسلام إذا أوى إلى فراشه ، يقول :

« **إِذَا اضْطَجَعَ فَلْيَقُلْ بِاسْمِكَ رَبِّي وَضَعْتُ جَنْبِي وَبِكَ أَرْفَعُهُ ، فَإِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ**

الصَّالِحِينَ ، فَإِذَا اسْتَيْقَظَ فَلْيَقُلِ : الْحَمْدُ للهِ الَّذِي عَافَانِي فِي جَسَدِي وَرَدَّ عَلَيَّ رُوحِي وَأَذِنَ لِي بِذِكْرِهِ » . [سنن الترمذي] .

وكان عليه الصلاة والسلام إذا استيقظ يقول :

« **الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ** » [متفق عليه] .

وفي الآثر : « **مامن يومٍ إلا وينادي يا ابن آدم! أنا خلقٌ جديد ، وعلى عملك شهيد ، فتزود مني فإني لا أعود إلى يوم القيامة** » .

ولقد ورد في بعض الأدعية : أن لا بورك لي في طلوع شمس يومٍ لم أزدد فيه من الله علماً ، ولا بورك لي في طلوع شمس يومٍ ، لم أزدد فيه من الله قرباً ، والإنسان بضعة أيام كلما انقضى يومٌ انقضى بضعٌ منه .

فالله هو الذي يبعثك من نومك ، فإذا استيقظ الإنسان ينبغي أن يعلم أن الله سمح له أن يعيش يوماً جديداً . . إذاً فهو يبعث الموتى ، ويبعث الرسل ، ويبعث النيام ، ويبعث كلَّ ساكن .

عند بعض العلماء تجد أن حقيقة البعثِ . . هي إحياء الموتى بإنشائهم نشأةً أخرى .

والحقيقة ـ كما أقول دائماً ـ أنَّ أسماء الله سبحانه وتعالى محققةٌ كلها في الحياة الدنيا ، كلُّ الأسماء الحُسنى الكون مظهرٌ لها ، إلا أن اسم العدل لا يتحقق كاملاً إلا في الدار الآخرة ؛ لأن الله سبحانه وتعالى يبدأ الخلق ثم يعيده لتُجزى كلُّ نفسٍ بما كسبت .

في الدنيا قد يعاقب الله بعض المسيئين عقاباً تربوياً تأديبياً لبقية المسيئين ، وقد يكافىء الله بعض المحسنين مكافأةً تشجيعيةً لبقية المحسنين ، ولكن قد تجد مسيئاً لا يعاقب ، ومحسناً لا يكافأ ، لأن الحياة

الدنيا دار عمل ، ودار ابتلاء ، ودار تكليف ، أما الجزاء الأوفى ، والحساب الكامل ، والرصيد فهو في الآخرة . . قال الله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ ﴾[آل عمران : ١٨٥] .

أي فأنت في دار عمل ، ثم هناك دار جزاء ، هنا عمل ولا جزاء ، وفي الآخرة جزاء ولا عمل ، أنت في دار تكليف ، والآخرة دار تشريف ، فإذا اختلطت عندك الأمور ، وإذا ظننت أن الدنيا دار تشريف ، وأن القوي مكرمٌ ، والغني مكرمٌ ، وقعت في وهمٍ كبير .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ مِنْهُمُ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ » .

[سنن الترمذي]

أنت في دار ابتلاء ، لا دار قرار ، الآخرة هي دار القرار ، والآخرة هي دار الجزاء ، الآخرة هي دار النعيم ، الآخرة هي الدار التي تُؤتى فيها ما تشتهي دون عمل . . قال تعالى :

﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [ق : ٣٥] .

أما الدنيا فهي دار سعي ، لا بدّ من أن تسعى حتى تصل ، لذلك الله عزَّ وجلَّ قال :

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴾ [النجم : ٣٩ـ٤٠] .

فحقيقة البعث عند بعض العلماء : هو أن الله سبحانه وتعالى يحيي الموتى بإنشائهم نشأةً أخرى .

وقد قيل : « الجهل هو الموت الأكبر » ، أيْ الجاهل يفعل في نفسه مالا يستطيع عدوه أن يفعله به ، والعلم هو الحياة العُليا ، أيْ أعلى درجات الحياة أن تعرف الله ، وأدنى درجات الموت أن تجهله

فلا تعرفه ، وقد ذكر الله تعالى العلم والجهل في القرآن وسماهما ، حياةً وموتاً : قال الله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال : ٢٤] .

﴿ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ أي كنتم موتى بالجهل ثم أحياكم بالعلم ، وكنتم موتى بالبعد وأحياكم بالقرب ، كنتم موتى بالضياع فأحياكم بالوجدان ، كنتم موتى بالإدبار فأحياكم بالإقبال ، كنتم موتى بالتفلُّت فأحياكم بالانضباط .

لذلك فإن العلماء يقولون في تفسير هذه الآية : « **إن أعلى درجات الحياة أن تعرف الله وأن تتصل به** » ، فقد قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ .

ليس مَنْ مات فاستراح بميْتٍ إنما الميْـتُ ميِّـت الأحيـاء

سيدنا علي يقول : « **العلم خير من المال العلم يحرسك وأنت تحرس المال العلم يزكو على العمل والمال تنقصه النفقة ، العلم حاكم والمال محكوم عليه ، وصنيعة المال تزول بزواله ومحبة العالم دين يدان بها ، العلم يكسبه الطاعة في حياته وجميل الأحدوثة بعد مماته ، مات خزان المال وهم أحياء والعلماء باقون ما بقي الدهر ، أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة** » .

يقول أحد العلماء : « **الجهل هو الموت الأكبر ، والعلم هو الحياة العليا ، وقد ذكر الله تعالى الجهل والعلم في القرآن فسماهما حياةً وموتاً** » .

هناك معنى يضيفه أحد العلماء : « **أنه مَنْ رقَّى إنساناً من الجهل إلى العلم ، ومن البعد إلى القرب ، ومن الإدبار إلى الإقبال ، فقد**

أنشأه نشأةً أخرى » ، هناك نشأة حيوانية : جسم ، قلب رئتان معدة أمعاء فم سمع بصر يتحرك يأكل ينام يتزوج ، هذه حياة لا تليق بالإنسان ، إلا أنّ هناك حياة أرقى ، أن تفكر وأن تعرف الله وأن تعرف منهجه وأن تعرف من أين. . وإلى أين. . ولماذا ؟ هذا أكبر سؤال ، فعندما يعرف الإنسان سرَّ وجوده وغاية وجوده ويعرف ربّه ويعرف منهج ربّه ، وأن هذه الحياة حياة دنيا ، إعدادية لحياة عليا أبدية عندئذٍ يصبح في أعلى درجات الحياة. . قال تعالى : ﴿ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ ﴾ .

قالوا : هذا هو التعليم الحق. . نقل الناس من الموت إلى الحياة ، من الجهل إلى العلم ، من الإدبار إلى الإقبال ، من الضياع إلى الوجدان ، فهذه رتبة الأنبياء والمرسلين ، ومن ينوب منابهم من العلماء الصادقين ؛ لذلك قال الله تعالى : ﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [فصلت : ٣٣] .

اسم الباعث لم يرد في القرآن الكريم بصيغة الباعث ، ولكن ورد بصيغة الفعل. . قال الله تعالى :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٦٠] .

هذا الاسم ورد ﴿يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ﴾ أي أن تبعث من النوم إلى اليقظة ، وهو المعنى الأول ، وفي سورة النحل قال تعالى : ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴾ .

المعنى الثاني : إرسال الأنبياء .

وفي سورة الإسراء قال تعالى :

﴿ أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ الَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۝ وَمِنَ الَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء : ٧٨-٧٩] .

وفي سورة الكهف قال تعالى عن أهل الكهف :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا أَمَدًا ﴾ [الكهف : ١٢] .

وفي الحج :

﴿ وَأَنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى الْقُبُورِ ﴾ [الحج : ٧] .

المعاني كلها التي وردت عن اسم الباعث وردت في هذه الآيات . . وفي سورة التغابن قال تعالى :

﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [التغابن : ٧] .

ثمّ إنّ هناك نقطة دقيقة الدلالة ، فالله عزَّ وجلَّ عندما قال :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ الْفِيلِ ﴾ [الفيل : ١] .

من منّا رأى هذه الحادثة ؟ لا أحد . لعل أحدهم يقول : لو أن الله عزَّ وجلَّ قال : ألم تصدق ، ألم تسمع ، بدل قوله : ألم ترَ .

العلماء قالوا : « إنَّ إخبار الله عزَّ وجلَّ ـ لمصداقيته المطلقة ـ ينبغي أن يقع منك موقع الرؤية ، إن مصداقية الله عزَّ وجلَّ في أخباره ينبغي أن توقع هذه الأخبار منك موقع الرؤية ، بل إن الفعل الماضي الذي يستخدم في القرآن الكريم في التعبير عن المستقبل كقوله

تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ ﴾ [المائدة : ١١٦] .

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ . . هذا لم يقع بعد ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ ﴾ ، استخدام الفعل الماضي من أجل أن يقع هذا الخبر في نفسك موقع الوقوع الحتمي اليقيني ، أتى أمر الله فعل ماض فلا تستعجلوه إذاً : لم يأتِ . أتى أمر الله فلا تستعجلوه ، الفعل الماضي حينما يعبر به عن المستقبل وحينما يقول الله عزَّ وجلَّ : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ الْفِيلِ ﴾ ، أي يجب أن تقع أخبار الله التي أخبرك بها في كتابه موقع اليقين الشهودي .

بقي من البحث فقرةٌ أخيرة وهي ما حَظُّ العبد من هذا الاسم الباعث ؟ كيف أن الله سبحانه وتعالى يبعث الموتى ؟ والإنسان قبل أن يعرف اللهَ ، ميتٌ ، فإذا أحيا قلبه بالمعرفة ، وبالطاعة فكأنه تخلَّق بكمالات الله هذا أول معنى . . ففي الآية الكريمة قال تعالى : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام : ١٢٢] .

وفي سورة النحل قال تعالى : ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَٰٓئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوٓا أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ [النحل : ٢] .

فالعبد إذا سعى لمعرفة الله ، وطاعته والإقبال عليه ، والاستنارة بنوره ، فقد بعث نفسه من الموت إلى الحياة ، هذا من تخلُّق أخلاق العبد باسم الباعث .

التخلّق الثاني : المتخلّق باسم الباعث ينبغي أن يبعث نفسه دائماً كما يريد مولاه فعلاً وقولاً ؛ أي أنْ تأتي أفعاله مطابقة لكتاب الله .

عَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامٍ قَالَ : سَأَلْتُ عَائِشَةَ فَقُلْتُ أَخْبِرِينِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَتْ : كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ . [مسند الإمام أحمد] .

قالوا : الكون قرآنٌ صامت ، والقرآن كونٌ ناطق ، والنّبي ﷺ قرآن يمشي .

فمن تطبيقات اسم الباعث على العباد أنّهُ مِن تأدُّبِ العبد باسم الباعث أن يبعث نفسه بما يُرْضي ربّه ، وأن يجعل أعماله متوافقةً مع منهج ربّه .

الأدب الثالث : مِن أدب المؤمن مع اسم الباعث أنه إذا تحقق وأيقن ، أن الله سبحانه وتعالى يبعث الناس بعد الموت ثم يجزيهم بالثواب والعقاب ، فعندئذٍ يشغل وقته كلّه بطاعته ، والتزود للدار الآخرةِ وتصفُّحِ أعماله ومحاسبة نفسه حساباً دقيقاً .

رسول الله ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه وضع يده ـ يعني : اليمنى ـ تحت خدّه ثم قال : « **اللهم! قني عذابك يوم تبعث عبادك** » [رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه] ، وكان ﷺ يقول عند الاستيقاظ : « **الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور** » [متفق عليه] .

وأخيراً فملخّص الملخص. . . اسم الباعث من أسماء الله الحُسنى ، يبعث الله الرسل ، يبعث الله من في القبور ، يبعث الله العباد لأعمالٍ تحقق اختيارهم ثم تربيهم ، ويبعث الله تعالى كلَّ ساكن ، وأدب المؤمن مع الله عزَّ وجلَّ بالنسبة لهذا الاسم ـ كما ذكرت قبل قليل ـ أن يبعث نفسه دائماً كما يريد مولاه فعلاً وقولاً .

* * *

القَادِرُ والمُقْتَدِرُ

مـن أسمـاء الله الحُسنـى القـادر والمقتـدر. . وهمـا اسمـان مـن أسماء الله الحُسنى وردا في الأحاديث التي ذكرت أسماء الله الحُسنى .

أكثر المصادر التي تحدَّثت عن أسماء الله الحُسنى أوردت هذين الاسمين معاً في موضوعٍ واحد ، إلا أنَّ بعضهم فصل ، لكنَّ أغلب المفسرين ودارسي هذا الموضوع جمعوا هذين الاسمين في موضوعٍ واحد .

الحقيقة : القادر والمقتدر. . إما من القدرة أو من التقدير ، وفرقٌ بين القدرة والتقدير ، القدرة القوة ، التقدير متعلِّق بالعلم والمهارة ، فلذلك جاء في بعض المعاجم أنَّ القدير والقادر من صفات الله عزَّ وجلَّ ، يكونان من التقدير ويكونان من القُدرة .

فمثلاً يجب على الطبيب أن يضع مبضع الجرَّاح في هذا المكان بالذات ، لو أخَّره قليلاً لانقطع العصب ولشُلَّ الإنسان ، فوضع هذا المشرط في المكان المناسب من التقدير. . أمّا أن يحتاج الشيء إلى قدرةٍ قادرة. . هذا من القدرة ، فاسم القادر والقدير والمقتدر ترد إلى موضوعين ومنهما اشتقت ، من موضوع التقدير ، ومن موضوع القدرة .

العلماء لهم بعض الملاحظات حول الفرق بين هذين الاسمين. . فالقادر هو الذي يقدر على إيجاد المعدوم وإعدام الموجود .

ومعلومٌ أنّ الكون كلّه ممكن الوجود ، فالذي أوجد الممكن هو الله عزَّ وجلَّ ، والذي سينهي هذا الممكن هو الله عزَّ وجلَّ ، هو قادرٌ على إيجاد المعدوم ، وإعدام الموجود .

أما المقتدر ـ كما قال العلماء ـ فهو الذي يقدر على إصلاح الخلائق على وجهٍ لا يقدر عليه إلا الله ، فأحياناً تشعر بمشكلة ليس لها حلٌّ ، لكنَّ الله سبحانه وتعالى عنده حلها ، فهو مقتدر على أن يصلح الخلائق على وجهٍ لا يستطيعه إلا هو .

إذاً. . . القادر من مادة القُدرة ، فهو قادرٌ ذو قدرةٍ ومقدرة ، والقادر من التقدير ، وفي التنزيل ورد اسم القادر في آياتٍ كثيرة ، ففي سورة الأنعام قال تعالى :

﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾ [الأنعام : ٩١] .

﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾ . . أي ما وصفوه حقَّ صفته . وقدَرَهُ : أي عرف قَدْرَهُ ، قَدَرَهُ من التقدير ، قَدَرَهُ من التعظيم ، ومنها ليلة القدر فقد قال تعالى :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴾ [القدر : ١ـ٢] .

والقادر. . أيضاً في صفة الله تعالى معناه المتمكِّن من الفعل بلا واسطة ، نحن جميعاً نقدر على أن نصل إلى حلب في خمس ساعات عن طريق السيَّارة ، وفي نصف ساعة عن طريق الطائرة ، نقدر أن نقطف ثماراً عن طريق زرع نباتاتها ، نقدر أن نصل إلى الماء عن

طريق حفر البئر ، فالإنسان من خصائصه أنَّه ضعيف ، فإذا وصل إلى غايته فمن خلال وسيلة أو واسطة ، لذلك فالعلماء يقولون : « **إنَّ العِلَّة الغائيَّة لا تليق بالله عزَّ وجلَّ** » .

فنحن مقهورون بالوسيلة . . فإذا أردنا أن نرى الجرثوم نحتاج إلى مجهر ، وإذا أردنا أن نرى الكواكب البعيدة نحتاج إلى مرصد ، وإذا أردنا أن نصل إلى الماء نحتاج إلى حفر البئر ، إذا أردنا أن نأكل نحتاج إلى أن نزرع ، إذا أردنا أن نصل نحتاج إلى أن نركب ، فالإنسان الذي يصل إلى أهدافه عن طريق وسائل ووسائط ، هذا ليس مقتدراً ولا قادراً ، لكنَّ الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢] .

الإنسان ضعيف يكمِّل ضعفه بالأدوات . . الميكروسكوب يكمِّل به ضعف بصره ، والتليسكوب يكمِّل به قصر بصره ، والمركبة والقطار والطائرة يكمِّل بها بُطْءَ سيره ، والأداة التي بيده يكمِّل بها ضعف يده كالمفك ، هذه أدوات ووسائل ، فالله سبحانه وتعالى منزَّهٌ عن العِلَّة الغائيَّة ، منزَّه عن أن يصل إلى أهدافه بوسيلة ، أما الإنسان فليس منزَّهاً . . فالله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ [الزمر : ٦٧] .

أيضاً قال تعالى :

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام : ٣٧] .

والسؤال الذي يفرض نفسه الآن هو : لماذا ينبغي للإنسان أن يعرف الله ، وأن يحِبّه ؟ لأنَّه قادر.. فالإنسان يحب القوي ، وأذكر مثلاً توضيحيًا منتزعاً من حياة الناس ، فإذا كان هناك إنسانٌ قويٌ تجد الناسَ ملتفّين حوله ويصادقونه ، ويدعونه إلى ولائمهم ويهدونه الهدايا من أجل أن يطمئنّوا إلى أنَّهم على صلةٍ معه .

فالإنسان يزيل عن نفسه الخوف والقلق باعتماده على قوي من بني البشر ، فكيف إذا كان اعتماده على الله خالق البشر ، الحقيقة : إنَّ الإنسان يحبُّ القويَّ . والقويُّ محترم ، وأقوى الأقوياء هو الله عزَّ وجلَّ ، لذلك سر قوَّة المؤمن لا لأنَّه قوي . هو أضعف الضعفاء ، لكنَّه يحتمي بقوي .

فأحياناً تجد طفلاً صغيراً لا تستطيع أن تتكلَّم معه بكلمة قاسية أو بحرفٍ واحدٍ لأنَّ أباه كبير ، وإنَّ الطفل ضعيف يمكن أن تضربه لكنَّك تخشى والده ، فهذا الطفل قويٌّ بأبيه لا بذاته ، المؤمن سرُّ قوَّته رغم ضعفه يشعر أنَّه قويٌّ فهو مستمدٌّ قواه من قوة الله ، فإذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكَّل على الله .

هناك نقطة دقيقة الدلالة.. وهي أنك لو احتككت مع مؤمن ترى معنوياته عاليةً جداً ، فما سر ذلك ؟ لا أحد من الناس يدعمه ، وليس معه مال كثير يعتمد عليه ، وليس حوله أناس يتّكىء عليهم ، فما سر قوَّته ؟ سرُّ قوَّته اتكاله على الله ، فإذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكَّل على الله .

فَتَصَوَّرْ جيشاً ضخماً على رأسه قائد فذ ، وفي هذا الجيش ابن القائد ، برتبة جندي عادي ، وعلاقة الابن مع الأب متينة جداً ، فهذا

الجندي الذي أبوه قائد الجيش لا يخشى أحداً في هذا الجيش كل مهما علت الرُّتب ؟

فحال المؤمن مع الله أنّه يرى ويعلم أنَّ كلَّ الخلق بيد الله ، وهو مع الله ، فسرٌّ معنويَّاته العالية آتيةٌ من هذه النقطة ، فقد قال تعالى على لسان أحد أنبيائه : ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود : ٥٦] .

وهكذا صار واضحاً أنَّ الإنسان إذا شعر بالقوة يقوى على خصمه ، ويقوى على شهواته ، ويقوى على أعدائه ، أما إذا شعر بالضعف يصبح منافقاً ، فمع الضعف نفاق ، ومع الضعف كذب ، ومع الضعف مجاملة ، وكلام الضعيف كلامٌ مخزٍ تجده يتصاغر يتذلل يخنع ، الخنوع والتذلل والشعور بالنقص والخوف وبذل ماء الوجه سببه الشعور بالضعف ، لو كنت مع الله لرفعت رأسك دون كبر ، ودون استطالة على أحد ، ودون عدوان ، ولكنَّك تشعر أنَّ الله معك وأنَّ الله لن يتركك ولن يسلمك إلى خصومك .

ومعنى القادر أي ذو القدرة التامَّة الذي لا يُعجزه شيء ، ولا يتقيَّد بأسبابٍ أياً كانت . هو المقدِّرُ بقضائه ، المدبِّر لشؤون الكون بقدره وحكمته ، فقد قال تعالى :

﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴾ [المرسلات : ٢٣] .

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر : ٤٩] .

إن الإنسان قد تُجرح يده ، فإذا تناول طعاماً فيه حمض شعر بلذعة في يده ، معنى ذلك أنَّ الأعصاب مقدَّرة تقديراً دقيقاً جداً ، والإنسان له عينان يرى بهما ، فلو أنَّ الرؤيا تضاعفت لرأى الجراثيم وأنواع

البكتيريا في الماء فعاف شرب الماء ، ولرأى جلد وجه الأنثى كله نتؤات وأخاديد ، لكن . . ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ .

ولو أنَّ عتبة السمع ازدادت لسمع الإنسان حركة أمعائه ولم ينم الليل كله فبالأمعاء حركة ، فإذا وضع الإنسان أصبعه بأذنه انتقل الصوت عن طريق العظام فيجد دوياً كأنَّ معملاً بجسمه .

فالعين لها قدرٌ معلوم ، والأذن لها قدرٌ معلوم ، وحساسية الجلد لها قدرٌ معلوم . . ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ .

وقال تعالى أيضاً : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنعام : ٦٥] .

وهنا نقطة دقيقة . . . إذا كنت مع القدير تشعر بالقوَّة ، وإذا عرفت قدرة الله عزَّ وجلَّ تشعر بالضعف أمامه ، فهناك معنيان ضروريَّان . . أحياناً تغيب عن الإنسان قدرة الله عزَّ وجلَّ ، فيظلم الناس ويعتدي عليهم ويتحدَّاهم ، ويأخذ ما في أيديهم ويُهينهم ، فيأتي عقاب الله الرادع له ، فالإنسان إن اعتزَّ بالله شعر بالقوَّة ، وإن رأى قوَّة الله شعر بالضعف أمامه فتأدَّب بأدبه ، فأنت بحاجة إلى أن تعرف قدرة الله كي تقف عند حدِّك ، رحم الله عبداً عرف قدره فوقف عنده ولم يتعد طوره .

أحياناً ترى إنساناً يتطاول ويطغى ويعتدي ، وكأنَّ الله غير موجود إطلاقاً ، وربنا عزَّ وجلَّ يقول :

﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ [البروج : ١٢] .

فالذي يتحرَّك وكأنَّ الله غير موجود هو إنسان غبي وأحمق

وجاهل ، لأنَّ الله سبحانه وتعالى سيبطش به وسيُحجِّمه وسيوقفه عند حدِّه ، أنت بحاجة إلى أن تعرف القدير من أجل أن تعتزَّ به وتقوى به ، وأن تستمدَّ منه القوة ، نعم ؛ أنت بحاجةٍ وأقولها مرةً ثانية لتعرف الله القدير ، كي تتحجَّم وكي تقف عند حدِّك وكي لا تتعدى طورك .

لدينا الآن معنى سلبي ، وآخر إيجابي . . المعنى الإيجابي أنك تقوى بالله القدير ، والمعنى السلبي أنك تتحجَّم أمام الله القدير .

قال تعالى في سورة الإسراء :

﴿ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾ [الإسراء : ٩٩] .

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ إنَّ الله عزَّ وجلَّ أخبرنا أنه سوف يعيد خلقنا ، وسوف تعرض علينا أعمالنا كلُّها عملاً عملاً بكلِّ تفصيلاتها ، وسوف نحاسب على هذه الأعمال إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، فإذا أنكرنا يوم البعث وأنَّ الله سيحيي من في القبور ، فهذا من ضعف تفكيرنا ، أليس ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴾ .

وفي سورة الأحقاف قال تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأحقاف : ٣٣] .

وقد ورد في الأثر القدسي :

« أن يا عبدي خلقت لك السموات والأرض ولم أعيَ بخلقهن ، أفيُعييني رغيفٌ أسوقه لك كلَّ حين ؟ لي عليك فريضة ولك عليَّ

رزق ، فإذا خالفتني في فريضتي ، لم أُخالفك في رزقك ، وعزَّتي وجلالي إن لم ترض بما قسمته لك ، فلأسَلِّطن عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البريَّة ، ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك ولا أبالي وكنت عندي مذموماً ، أنت تُريد وأنا أريد ، فإذا سلَّمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد ، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد » .

وفي سورة يس أيضاً قال تعالى : ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ فيجب أن نؤمن أنَّ الله سيعيد خلقنا وسيحاسبنا ، وهذا أكبر رادع للإنسان يحميه من أن ينحرف .

وفي سورة القيامة قال تعالى :

﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [القيامة : ٤٠] .

وفي سورة الطارق قال تعالى :

﴿ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴾ [الطارق : ٨] .

تلاحظ أيها المؤمن أنَّ أكثر أسماء القادر وردت في قدرته على إحياء الموتى وبعث من في القبور ، ليحاسب الإنسان على أعماله إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

إذاً القادر والمقتدر من القدرة والتقدير ، والتقدير أيْ التعظيم ، ومنها قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ ، والتقدير ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ ﴾ .

أما القادرون جمع قادر فقد وردت في كتاب الله أربع مرَّات ففي قوله تعالى :

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ ﴾ [المؤمنون : ١٨] .

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ . . بقدر حكيم ، بقدر دقيق . . ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴾ . تجد بلداً كلُّ قيمتِهِ بأنهارِهِ فإذا جفَّت الأنهار انتهت قيمة هذا البلد ، مثلاً : دمشق كلُّها ما قيمتها لولا نبع الفيجة ؟ هذا النبع الذي يمدُّها بالماء على مدار العام ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴾ فالله عزَّ وجلَّ قادر على أن يعطي وقادر على أن يأخذ ، فإذا أعطى أدهش وإذا أخذ أدهش .

﴿ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٩٥] .

أي أنَّ الله عزَّ وجلَّ وعد المستقيم بحياة طيِّبة ، ووعد المنحرف والمعرض بمعيشةٍ ضنك ، والله قادر على أن يحقق وعده ووعيده لأنَّ الفعل بيده ، فلذلك أحد الأدلَّة الكبرى على أحقيَّة القرآن الكريم أنَّ أفعال الله كلَّها تطابق أقواله في كتابه ، مطابقة أفعاله لأقواله شهادةٌ منه بأنَّ هذا الكلام كلامه ، وقال تعالى :

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴾ [المعارج : ٤٠] .

قادرون على كلِّ شيء . . فالله عزَّ وجلَّ تعلَّقت قدرته بكلِّ شيء .

إذا توجّهنا بسؤال إلى أطباء كثيرين فهناك أمراضٌ عُضال لا يُرجى شفاؤها ، وليس في علم الطب ما يشير إلى أنَّها تشفى ، وهناك حالات كثيرة تجد معها أنَّ المرض قد تراجع بلا سبب ، ألم يقل الله عزَّ وجلَّ على لسان سيّدنا إبراهيم :

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء : ٧٨ـ٨٠] .

شعور المؤمن أنَّ الله على كلِّ شيءٍ قدير .

لي صديقٌ قد أصيب بورم خبيث في الرئتين وحكايته هذه منذ عشرين سنة تقريباً ، وأُخذت خزعة من رئته إلى كلِّ المخابر حتى إنه قد أرسلت منها قطعة إلى بريطانيا للتحليل ، وجاء التشخيص : مرضٌ خبيث من الدرجة الخامسة ، ولا أمل في شفائه من مرضه أبداً إلا بزرع رئةٍ في أمريكا ، ونجاح العمليّة نسبته عشرون في المئة ، وتكلفة هذه العملية ثمن بيته الذي يسكنه ولا يملك غيره ، وقد عاصرت القضيّة ، والذين فحصوا وحللوا وصوَّروا وشخصوا أعرفهم معرفةً تامَّة وكان قرارهم جميعاً أنَّه لا أمل في الشفاء ، لكن المرض تراجع بعد حين تلقائياً وشفي المريض . وكيف تراجع هذا المرض تلقائياً والمريض الآن في صحةٍ جيِّدة ولا يشكو شيئاً والحادثة منذ عشرين عاماً .

إذا اعتقدت جازماً أنَّ الله على كلِّ شيءٍ قدير في كلِّ موضوع ؛ يعطيك ، يغنيك ، يقوِّيك ، يحفظك ، يؤيِّدك ، ينصرك ، يشفيك ، يحميك ، إن اعتقدت ولم يساورك شك أنَّ الله على كلِّ شيءٍ قدير ، فأنت في كنف الله ورحمته ورعايته ، وإن تعلَّقت به ، وقطعت الآمال ممن سواه ، وتوجَّهت إليه وأعرضت عن الخلق ، هذا هو الدين ، فالدين هو التوحيد الخالص وأن تقطع أملك من الخلق وأن تعلِّق أملك بالحق ، أن تيأس من المخلوقين ، وأن تتطلَّع إلى ربِّ المخلوقين .

الإنسان له قدرة ، ولكنَّها ناقصة ، ولماذا جعلها الله ناقصة ؟ ليكون مفتقراً في ضعفه ، سعيداً بافتقاره ، لو جعله قوياً لاستغنى بقوَّته فشقي باستغنائه . . فالإنسان ضعيفٌ ، فقد تجد إنساناً ملء

السمع والبصر ، خثرةٌ دمويَّة في بعض شرايينه تجعله مشلولاً ، وخثرةٌ أُخرى تجعله أعمى ، وخثرةٌ ثالثة يفقد ذاكرته ، فالإنسان ضعيف .

فلذلك الإنسان المؤمن لا يفتأ يقول : إن شاء الله ، وإن جاءه خير قال : هذا من فضل الله ، وإن نجح في عمله .. هذا بتوفيق الله ، وإن رزقه الله مالاً .. هذا من كرم الله ، وإن أدَّبه الله عزَّ وجلَّ .. هذا من رحمة الله ، هذا هو حال المؤمن .

الإنسان قدرته محدودة يكمِّلها بأدوات ، والأدوات لا تفعل فعلها إلا أن يأذن الله لها .

أذكر حديثاً شريفاً وهو في غاية الدقة .. فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول فيما رواه مسلم في صحيحه من حديث جابر رضي الله عنه :

« لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ » .

« لكلِّ داءٍ دواء » .. فتصور مريضاً يُعاني من مرضٍ قرأ هذا الحديث فبماذا يشعر ؟ يشعر بالثقة .. القضيَّة سهلة ، فكلُّ داءٍ خلقه الله خلق له دواءً ، إذا قرأ هذا الحديث طبيب يشعر بالتقصير ، إذا كانت هناك أمراضٌ حتى الآن لم يكتشف لها دواء فهذا من تقصير الإنسان ، فهذا الحديث يحثُّ الطبيب على أن يكتشف الدواء ، ويطمئن المريض بأن لمرضه دواءً ، ثم يقول عليه الصلاة والسلام : « فإذا أُصيب دواء الداء بَرَأ بإذن الله » ، ففلاح الطبيب بتوفيقِ الله له أن يصيب في تشخيص المرض ووصف الدواء .

ليطمئن المريض وليثق الطبيب فإذا أُصيبَ دواءُ الداءِ ، أي إذا شُخِّص المرض صحيحاً وصف الدواء صحيحاً .

فإذا أُصيب دواء الداء بَرَأ.. لكن بإذن الله.. فالله عزَّ وجلَّ لا يسمح للدواء أن يفعل فعله إلا بإذنه .

إن الله أعطى الإنسان قدرةً ناقصة ليفتقر.. إن الإنسان خلق هلوعاً.. إن الإنسان خلق عجولاً.. وخلق الإنسان كذلك ضعيفاً ، وبهذه القدرة الناقصة يفعل ويفعل ويطغى ويطغى ، هذا الإنسان الضعيف الذي لا يملك زمامْ نفسِهِ ولو ساعة ، لا يعرف فيها ما سيكون ، يتحدَّى ويطغى ويتكبَّر ويقول ويفعل ويقتل بلا رحمة ، كما نرى من أعدائنا الألداء كيف يقتلون الأبرياء والصغار ، الإنسان على ضعفِهِ يجرم ويطغى ، فكيف إذا كان قوياً ؟

لهذا قيل : سبحان من قهر عباده بالموت ، فالموت يحل مليون مشكلة .

قال العلماء : ومن أدب المؤمن مع اسم القادر أن يستشعر حال ذكره هذا الاسم قدرة الله وتقديره وحكمته وتدبيره ، فيشعر بعبوديَّته وضعفه .

أول ما قلت لكم ، أنت أيها الإنسان بحاجة ماسَّة لأن تعرف من هو الله عزَّ وجلَّ ؟ من أجل أن تعرف من أنت أمامه ؟ أنت لا شيء.. فالذي يقول : أنا وأنا وينسى الكبير المتعال فقد سها وتعالى بغير حق ، بئس العبد مَنْ سها ولها ونسي المبتدى والمنتهى ، بئس العبد عبدٌ عتا وتجبَّر ونسي الجبَّار الأكبر .

فإذا عرف الإنسان القدير وعرف القادر تحجَّم ، وإذا عرف عبوديَّته وافتقاره فعندئذٍ يرقى .

أما اسم المقتدر.. فنحن عندنا قاعدة لغوية وهي أنَّ كلَّ زيادة في

المبنى زيادة في المعنى ، فالقادر. . . أربعةُ حروف وهي : قاف ، ألف ، دال ، راء ، اسم فاعل .

أما المقتدر. . فهي خمسةُ حروف ، فالمقتدر حروفها أكثر إذاً معناها أوسع ، والعلماء قالوا : هي مبالغة من اسم القادر ، فماذا تعني المبالغة إذا نُسبت إلى الله عزَّ وجلَّ ؟ أي أنَّ الله عزَّ وجلَّ على كلِّ شيءٍ قدير مهما تعددت الأشياء ، وقدير على أكبر شيء مهما كبر ، فإما المبالغة مبالغة عدد ، أو مبالغة نوع .

فإذا قلنا إنَّ الله عزَّ وجلَّ فعَّال لما يريد. . فعَّال صيغة مبالغة أي مهما كان الفعل كبيراً يفعله الله ، ومهما كانت الأفعال كثيرة يفعلها الله كلَّها ، أما اسم المقتدر فيفيد معنى القادر مبالغةً وأكثر تعظيماً ، المقتدر هو المستولي على كلِّ شيء ، المقتدر على جميع الممكنات ، صاحب القدرة العظيمة ، المسيطر بقدرته البالغة على خلقه ، المتناهي في الاقتدار .

فمثلاً. . هل هناك في الأرض قوةً مهما كبرت أن تزيح جبلاً كجبل قاسيون مئة كيلو متر ؟ فلو طلبنا من أكبر جهة هندسيَّة أن تنقل لنا جبل قاسيون بأكمله من دمشق إلى حلب هل تستطيع ؟ مستحيل ، أما الله عزَّ وجلَّ فيقول : كن فيكون. . قال تعالى :

﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ [الأعراف : ١٤٣] .

فالله على كلِّ شيء قدير .

وقد قال تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ

ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ .

فقد قرأت مقالة عن بناء في ألمانيا مؤلَّف من عشرةِ طوابق ، ولا بدَّ من أن يُهدم ليشقَّ شارع مكانه ، فجاءت شركة وعرضت على صاحب البناء أن تأخذ منه نصفَ تكاليفِ البناء وأن تنقل البناء إلى مكان آخر ، وقد نقلوه ثلاثين متراً ، وبالفعل تمّ نقله فهذا شيء يكاد لا يصدَّق ، وشعرنا باندهاش ما بعده اندهاش من أجل بناء مؤلَّف من عشرةِ طوابق ، نقلوه ثم قاموا بوصل المياه والكهرباء بعد أن حرَّكوه على أُسطوانات وهيؤوا له أساسات ، وبذلك تم نقل البناء وأخذوا نصف تكاليفه .

أما الله عزَّ وجلَّ فهو على كلِّ شيء قدير ، ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ .

وفي مجال السفن البحرية ، فهناك الآن سفنٌ حمولتها مليون طن ، فقد قرأت عن بعض السفن أن قوتها تبلغ أكثر من ثلاثة آلاف حصان ، وهناك سفن تأخذ الفلزات من قارة أستراليا وتقوم بتصنيعها في الطريق وتنقلها إلى قارةٍ أخرى وهي مصنَّعة ، هذه السفن العملاقة التي هي كالجبال ، موج بسيط يجعلها كريشةٍ في مهبِّ الريح ، فبعض الأمواج يبلغ ارتفاعها أكثر من ثلاثين متراً ، بارتفاع بناء ، فهذه قدرة الله عزَّ وجلَّ .

أما في مجال الزلازل.. فهل تعلم أن مدينة بأكملها ابتلعتها الأرض بفعل الزلزال في أربع ثوان ؟!.. ، فمدينة بالمغرب اسمها أغادير وهي مدينة سياحية وساحليَّة جميلة جداً ، وفيها من الفسق والفجور ما لا يوصف كنوادي العراةِ وغير ذلك من الموبِقات ،

أصابها زلزالٌ وفي خلال أربع ثوانٍ أصبحت تحت الأرض ، وأبرز بناء فيها فندق من أضخم الفنادق في العالم ومؤلَّف من ثلاثين طابقاً ، أصبح الفندق بأكمله تحت الأرض وبقي اسمه الذي على الطابق الأخير كشاهدةٍ على هذا الفندق .

ففي ثانية واحدة تجد مدينة استغرق بناؤها خمسين عاماً يبتلعها الزلزال فيما يشبه لمْح البصر ، ألا فلتعلم إذاً أنَّ الله قدير وأن قُدرتَهُ غير متناهية .

ويقولون عن مثلث برمودا . . إن سفناً عملاقة دخلت إليه فاختفت وليس لها أثر ، وكذلك الطائرات دخلت في محيطه فسقطت وليس لها أثر وحتى الآن يصعب عليهم تفسير ذلك ، ولا أحد يعلم ما سر هذا المثلث الواقع في المحيط الأطلسي ـ شمال شرق جزر الأَنتيل ـ هناك أشياء يتحدّى الله بها عباده .

مدينة كان يسكنها الرومان حينما كانوا في أوج قوَّتهم وسيطرتهم على العالم ، تقع بالقرب من سفح أحد جبال إيطاليا اسمه فيزوف ، يطل على هذه المدينة ، ثار في سفح الجبل بركان أرسل رماداً بركانياً حرارته ثمانمئة درجة وسمكه ثمانية أمتار غطى المدينة بأكملها بمن فيها كما غطى شوارعها وبيوتها وقصورها وحمَّاماتها ، بدأ هذا البركان يثور بعد الظهيرة والطعام على الموائد ، وعندما غطى هذا الرماد البركاني هذه المدينة مات كل شيء فيها ، ولكن بعد حين أصبح هذا الرماد صخرياً ، وبعد مئة عام جاؤوا بهذه الصخور وثقبوها فوجدوا في داخلها فراغات فحقنوها بالجبس السائل ، ولما جفَّ هذا الجبس وجدوا أشكال الناس فيه ، فأمٌّ مثلاً تنحني على ابنها ، كما

وجدوا أنواع الطعام الموضوعة على الموائد ، أُناسٌ دفنهم البركان ، وعلائم الهلع على وجوههم ، استطاع العلماء بهذه الوسيلة أن يروا حالة مدينةٍ أهلكها الله دفعةً واحدة ، حتى إن بعض النساء يأخذن الحلي ليضعنها في صدورهن حفاظاً عليها ظناً منهن أنهن سيبقين على قيد الحياة ، وعندي مقالات واضحة جداً تتحدث عن هذا الزلزال وفيها تلك الصور ، فقدرة الله عزَّ وجلَّ لا نهاية لها .

المقتدر عظيم القدرة المسيطر بقدرته البالغة على خلقه ، المتمكِّن بسلطانه .

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ [الكهف : ٤٥] .

وقد ورد اسم المقتدر في آياتٍ كثيرة من كتاب الله ففي سورة القمر قال تعالى :

﴿ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر : ٤٢] .

انظر إلى صور الأعاصير في أمريكا ، فتجد إعصاراً يأتي على مدينة بأكملها فيها معامل وبنايات وحدائق ومتنزَّهات وفيها آليَّات ومركبات ، هذه المدينة على سعتها وضخامتها يذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ، فسرعة الهواء ثمانمئة كيلو متراً في الساعة ، نحن بحمد الله ليس في بلادنا رياحٌ مثل هذه الرياح والأعاصير المدمِّرة التي لا تبقي على شيءٍ أتت عليه إلا جعلته كالرميم ، هذه كلُّها من آيات الله عزَّ وجلَّ . . ﴿ فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر : ٥٤ـ٥٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ

بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا﴾ .

أوسع كلمة على الإطلاق في شمولية معناها كلمة شيء ، وإنْ من شيءٍ إلا يسبِّح بحمده ، وهنا قال تعالى ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا﴾ . واللهُ بكل شيءٍ عليم ، وعلى كلِّ شيءٍ قدير .

وفي سورة الزخرف قال تعالى : ﴿ أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ﴾ .

فإذا شعر الإنسانُ أنَّ أحداً قادر عليه تعامل معه بالحسنى ، فكيف إذا شعرت بأنَّ الله في كلِّ ثانية مقتدر عليك ؟

قال العلماء : من أدب المؤمن مع ربّه في اسم المقتدر أن يستحضر قدرة الله دائماً أمامه .

عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الأَنْصَارِيِّ قَالَ : كُنْتُ أَضْرِبُ غُلاماً لِي فَسَمِعْتُ مِنْ خَلْفِي صَوْتاً : « اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ ، للهُ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَيْهِ » ، فَالْتَفَتُّ فَإِذَا هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ ، هُوَ حُرٌّ لِوَجْهِ اللهِ ، فَقَالَ : « أَمَا لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لَلَفَحَتْكَ النَّارُ ، أَوْ لَمَسَّتْكَ النَّارُ » . [صحيح مسلم] .

أوقف الحجاجُ رجلاً بين يديه ليقتله ، فقال له الرجل : أسألك بالذي أنت بين يديه أذل مني بين يديك ، وهو على عقابك أقدر منك على عقابي ، أن تعفو عني .

فعندما يتحرَّك الإنسان ويعلم دائماً أنَّ الله على كل شيء قدير ، يكون في حركته رحمة .

كان عليه الصلاة والسلام يُعلِّم أصحابه الاستخارة في الأمور كلِّها كما يُعلِّم السورة من القرآن يقول :

« . . . إذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بالأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ ثُمَّ لِيَقُلِ : اللَّهُمَّ إنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ. . . » .

[صحيح البخاري] .

أي أستعين بقدرتك على تحقيق هذا الأمر.. وأطلبُ منك أن تجعل لي يا رب قدرةً على المطلوب لأنّي ضعيف .

ذكرت هذا الحديث لقول النبي ﷺ : « **أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك فإنّك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ،** » . فالإنسان ضعيف والله هو القدير .

آخر كلمة أقولها في موضوع اسم المقتدر والقادر : إن عرفت قدرته وقدره خضعت له ، واستعنت به ، واعتمدت عليه ، وتوكَّلت عليه ، فأصبحت أقوى الأقوياء ، وإن عرفت قدرته صَغُرت نفسك ووقفت عند حدها ، وافتقرت إليه وتحققت عبوديَّتك ، فأنت تعبده إن عرفته ، وتستعين به إن عرفته ، وهذا ملخَّص اسم القادر المقتدر .

* * *

الماجِدُ والمجيدُ

من أسماء الله الحُسنى الماجد والمجيد .

فالماجد اسمٌ من أسماء الله الحُسنى ورد في حديث رسول الله ﷺ الذي ذكر فيه أسماء الله الحُسنى عدّاً وإحصاءً .

قبل أن نبدأ بشرح هذا الاسم الجليل ، ينبغي أن نعلم علم اليقين أن طبيعة النفس البشرية مفطورةٌ على حبِّ الكمال ، وأن أسماء الله الحُسنى أسماءٌ حُسنى كاملة ، فكمال الله عزَّ وجلَّ وفِطرة النفس التي فُطرت على حبِّ الكمال يتوافقان .

فلذلك لا يطمئن الإنسان ، ولا تقبل نفسه على الله إلا إذا رأى في الله الكمال المطلق ، ولكنْ الإنسانُ كمالهُ نسبيّ يصيب كثيراً ويخطيء قليلاً ، ويبقى عند الناس كاملاً ، لكن الله سبحانه وتعالى كماله مطلق ، لذلك الشرّ المطلق لا وجود له ، لأنه يتناقض مع وجود الله ، لكن الشرَّ النسبي يوظِّفه الله سبحانه وتعالى للخير المطلق .

فالماجد اسمٌ مشتقٌ من المجد ، والمجد في لغة العرب نهاية الشرف ، نهاية السمو ، نهاية الرفعة ، نهاية الكمال ، يقال : رجلٌ ماجد أي رجلٌ شريف له آباء متقدِّمون في الشرف .

كلمة الماجد معناها : من حيث النسب ؛ ينتمي إلى أشرف أسرة ، ومن حيث السلوك ؛ كثير الخير مفضال معطاء ، فربنا عزَّ وجلَّ كماله مطلق وفعله خير كله .

والماجد في حق الله تعالى المتناهي في الكمال والعز ، ونفس الإنسان تحبُّ الكمال ، لذلك النفس الإنسانية لا يملؤها إلا معرفة الله ، فلو أنها اختارت غير الله ، اختارت مادون الله ، فإنها تبقى في اضطراب ، لا تسكن ، ولا تستريح .

يمر الإنسان في مراحل مِنْ حياته في حالات متنوعة ، يطلب المال مثلاً فإذا بلغه وجمعه سقط من عينيه وأصبح شيئاً تافهاً ، يطلب اللذائذ فإذا اقتنصها صغرت في عينه ، أما إذا طلب الله سبحانه وتعالى ومهما جدَّ في الطلب فإنه يبقى سعيداً إلى أقصى درجة لأن الله لا نهائي ، لأن الله كماله مطلق .

لذلك هناك نقطة دقيقة . . الشاب يوصف بأنه يعيش أحلاماً ، وهو شاب في مقتبل العمر يتصور بيته ، ويتصور زوجته ، ويتصور عمله ، واختصاصه ومكانته ، فهو لايزال شاباً ، ويسعده الحلم ، وتسعده الآمال ، فإذا وصل إلى حدوده القصوى ، أي إذا تزوج ، أو توظف ، أو اختار هذه الحرفة دون تلك ، وزاول العمل فيها فإنَّ حياته أصبحت مغلقة ، محددة ، هذا بيته ، وهذه زوجته ، وهؤلاء أولاده ، وهذا دخله ، وهذه مكانته ، وهذه حرفته .

ومن ثمّ يشعر بالفراغ ، كما يشعر بالرتابة . . لذلك الناجحون في الحياة المادية من عجيب أمرهم أنهم ينصرفون بعد أن وصلوا إلى النجاح إلى الميسر أحياناً لأن حياتهم أصبحت مملة ، بلغوا

قمة النجاح ، ماذا بعد النجاح ؟ لابُدَّ من التغيير .

فالإنسان إذا نجح في عمله ، وفي زواجه وكان بعيداً عن الله عزَّ وجلَّ معرفةً وسلوكاً ، فإنه يبحث عن لذائذ مستجدة ، فلذلك تراه ينحرف انحرافات خطيرة لا لأنه يحبها ، بل لأنه يجدد من خلالها حياته .

أمّا المؤمن فإذا عرف الله عزَّ وجلَّ فمعرفتُه بالله تملأ نفسه إلى أبد الآبدين ، لأن النفس لا نهائية ، لا يملؤها إلا المطلق ، أما المحدود فلا يملؤها ، فهي أكبر ، فالدنيا محدودة ، والدنيا بكلّ لذائذها محدودة ، فالشيء الثابت أن الإنسان يشتري بيتاً واسعاً ، في الأسبوعين الأولين أو الثلاثة يسعد به أشد السعادة ، أما بعد حين فيغدو لا معنى له ، يتزوج أجمل امرأة ، ثم لا يلبث أن يركب أفخر مركبة ، وبعد حين تجده في سأم وفتور وتناقص ، الأشياء الدنيوية محدودة ، والنفس لا محدودة ، فإذا طلبت السعادة في المحدود لن تجدها ، وما سوى الله محدود ، أجل كلّ ماسوى الله كلّه محدود ، كلُّ شيء ما سوى الله يخبو بريقه ، تتناقص لذَّته ، تتناقص ثمرته .

إذاً إن أردت الله فأنت في سعادةٍ متنامية ، وإن أردت ما سوى الله فأنت في سعادةٍ متناقصة ، إذاً فالمشكلة ليست مع الشاب فقط ، بل ومع كل إنسانٍ ولو بلغ كهولته وتوضحت معالم حياته وتحددت ، إنَّ نفسه لا نهائية ، فإن أراد المحدود وتعلقت نفسه به ، وقع في الحيرة وفي الضجر ، فإما أن ينحرف ، وإما أن يهديه الله إليه .

فالماجد في حق الله تعالى هو المتناهي في الكمال والعزِّ ، له الجمال في الأوصاف والأفعال ، الذي يعامل عباده بالكرم والجود

ويتجلى لهم بنور الوداد ، ماجد وذاته ماجدة ، أفعاله كريمة ، مودته لعباده بالغة ، ومن كلمات الدعاء : اللهم أنت الماجد المجيد ، الفعال لما يريد ، نسألك الأمن يوم الوعيد ، أنت الماجد المجيد .

ومن الحقائق التي لا تخفى أن الإنسان إذا أحبَّ شيئاً تغنَّى به ، فإذا أنت أحببت صديقاً فلتراقب نفسك خلال شهر مثلاً ، فأينما جلست تتحدث عنه وأنت لاتشعر ، فمن أحبَّ شيئاً تغنَّى به ، ومن أحبَّ الله تغنَّى بكماله ، والثناء على الله عزَّ وجلَّ مسعد ، الله عزَّ وجلَّ عنده كل شيء يسعدك فيه ، إذا أقبلت عليه أسعدك .

ذكرت في بعض الأبحاث نقطة دقيقة خلاصتها أنّ الدعاء وسيلة ، والدعاء غاية ، هو وسيلة لأنه سلاح بيدك ، أما كونه غاية فلأنك لمجرد أن تدعو الله وتتصل به فأنت أسعد الناس ، فإذا كان إقبالك على الدعاء ضعيفاً يحملك حاجةً عنده من أجل أن تدعوه فإذا دعوته اتصلت به وسعدت بقربه .

الماجد هو الواسع الكرم ، الغنيُّ المغني .

فقد أردت أن أقيس وقائع هذه القصة على حالنا . . أنت ماذا فعلت من أجل الله الذي سخر لك الوجود ، أعطاك الحواس الخمس ، أعطاك العقل ، أعطاك الأعضاء ، أعطاك زوجة أبدعها لك أجمل إبداع وأحسنه ، أعطاك بيتاً ، وأولاداً ومكانةً ، أمدك بكلّ ما تحتاج ثم هداك إليه . . فأنت ماذا قدَّمت ؟ قال الله تعالى :

﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ [الإنسان : ١] .

أنت موجود فقد قال الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار : ٧ ـ ٨] .

وجعلك مكرّماً.. دخلت منذ يومين إلى مشتل فواجهتني لوحة يبلغ ارتفاعها من الأرض إلى ارتفاع المنبر ، ورأيت فيها صفاً فيه ثلاثون صورة عرضاً ، وفيه تسعون صورة طولاً ، كلّ صورة تمثل نوعاً من النبات خلقه الله تعالى خصّيصى لك لتمتع عينيك بهذا النبات ، هذا النبات نبات زينة لا يؤكل ولا يشرب لكنه مخلوقٌ لتمتع عينيك به ، أنواع لا تعدُّ ولا تحصى ، كم نوع من الورود ومن نباتات الزينة ، من ألوان الأطعمة من ألوان الفواكه ، من أنواع الأطيار ، هذا كلُّه مخلوق للإنسان فقد قال تعالى :

﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٠] .

فلذلك تجد الإنسان أحياناً يسأل نفسه : الله عزَّ وجلَّ منحك نعماً كثيرة.. نعمة الإيجاد والإمداد والهدى والرشاد ، أنت ماذا فعلت لخلقه ؟.. أكبر سؤال ينبغي أن تسأل نفسك عنه ماذا فعلت من أجل ربي ؟ ماذا فعلت إرضاءً لربي ؟ .

في الأعم الأغلب يأتي اسم الماجد بعد اسم الواجد.. الواجد هو الغني ، والماجد هو المغني ، أي غني مُغْنٍ ، أما في بني البشر فهناك غني غير مغن ، حريصٌ على المال يكدسُهُ أكداساً ، يعيش فقيراً ليموت غنياً ، وهذا من أندم الناس.. وبالمناسبة.. المال قوة ، وبالمال بإمكانك أن تصل به إلى أعلى درجات الجِنان .

ذات مرة سألني أخٌ سؤالاً دقيقاً ، قال لي : هل هناك من حرج في أن ننفق على معيشتنا أموالاً طائلة بغير حساب ، مادمنا نؤدِّي زكاة

أموالنا ، لا نقترف إثماً ؟ فقلت : أنا لن أجيبك بكلمة واحدة بنعم أو لا ، بل سأذكر لك مثلاً :

لو أنَّ إنساناً معه مئة مليون ، وعلم أن شركة استثمارية تعطي ربما على الليرة الواحدة (مثلاً) ملياراً ـ وهذا الكلام كلام افتراضي ـ رَبِحَ بكل ليرة ملياراً ، وأنت معك مئة مليون ، فهل تغامر وتشتري بأربعين مليوناً سيارة ، وبستين مليوناً بيتاً وتمكث دون أكل ؟ ، أم أنك تشتري بيتاً بعشرة ملايين ليرة ، وسيارة بمليونين ، وتضع باقي المبلغ بالاستثمار ، فالأرباح مغرية ، وكلُّ ليرة تربح ملياراً ؟ إن الذي معه كتلة نقدية يمكن أن يعيش حياة معقولة مكرّمة ، ثمّ إذا كان عنده فائض من ذاك المال فلينفقه في طاعة الله ، فهذا الفائض في الآخرة . كلُّ ليرة منه بمليار ، كلُّ ليرة تعود عليه بألف مليار ، كلُّ ليرة بمليار مليار هذا في الآخرة ، فهل من المعقول أن أستهلك الفائض النقدي كله في النفقة اليومية ؟ لا . . فالقضيّة هذه قضية تجارية ، الذي يمتلك كتلة نقدية زائدة من الممكن أن يصل بها في الجنة إلى أعلى عليين .

فللإنسان حق أن يأكل ويشرب ويسكن ويركب باعتدال ، وما زاد على حاجاته بإمكانه أن ينفقه في مرضاة الله ، وسيرى اللقمة إذا أطعمها فقيراً في سبيل الله كجبل أحدٍ يوم القيامة ، فهذه اللقمة الواحدة إذا أطعمتها معوزاً ، فلو قلت إذاً إنّ الليرة أعطَتْ ربحاً ملياراً فإن الكلام معقول ، حجم جبل مقابل حجم لقمة يفوق المليار .

فالواجد الماجد الغني المغني هو الله ، والله عزَّ وجلَّ إذا أعطى أدهش ، فقد أعطاك صحة . . يقول لك الطبيب هذا الدسَّام مثلاً ثمنه ثمانون ألفاً تكلفة العملية أربعمئة وخمسون ألفاً ، زرع كبد سبعة

ملايين ، زرع كلية ثمانمئة ألف . . فإذا عافاك الله عزَّ وجلَّ ، فأنت إذاً تملك ألف مليون وأنت ماشٍ على رجليك ، حواس خمس ، جهاز هضم ، وجهاز دوران ، وجهاز تنفس ، وجهاز طرح الفضلات ، وجهاز تصفية ، وأعصاب ، وعضلات ، وهيكل عظمي ، وعقل في رأسك ، وجلد سليم ، معنى ذلك أنَّ ثمنك يعدل ألف مليون ، فإذا أنعم الله عزَّ وجلَّ عليك بالصحة فقد أعطاك شيئاً ثميناً ، والصحة تنتهي عند الموت ، فعلى قَدْرِ ما كنت معتنياً بصحتك يتحاشا عنك المرض إلى حين ، إلاّ أن الموت لابد آتٍ ذات يوم .

قرأت ذات مرة أن مغنياً لم يركب طائرة في حياته ، خوفاً من أن يموت في حادث طيران ، أَكْلُهُ أكلٌ مدهشٌ فيوماً يأكل سمكاً ، ويوماً يأكل دجاجاً ، مساءً فواكه متنوعة ، أعتقد أنه عاش إلى التسعين ، لكن بعد كلِّ هذا العمر مات ، ولقد قرأت عنه مقالة أن عنايته بصحته لا توصف ، شيء مثل الخيال ، ومع ذلك مات ، معنى ذلك أن الموت يأتي على كل إنسان حتى الأصحاء ، فما الذي يبقى ؟ العمل الصالح ، لذلك أعظمُ نعمة ، نعمة الهدى ، ثم الصحة ، ثم الكفاية ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

« . . . مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ ، آمِناً فِي سِرْبِهِ ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا . . . » [سنن ابن ماجه] .

اسم الماجد لم يرد في القرآن الكريم ، إلا أن الذي ورد هو المجيد ، وبعد قليل ننتقل إلى اسم المجيد إن شاء الله ، فالماجد أي رفيع الشرف ، المتناهي بالمجد والكمال ، الواسع العطاء الغني ، المغني . المغني هذا هو الماجد . . أنت كمؤمن ماعلاقتك بهذا الاسم ؟

فالمؤمن وهذا كلام دقيق جداً.. لأنه عرف الله ، كلٌّ حياته عطاء ، يعطي من وقته ، من جهده ، ومن ماله ، ومن خبراته يعطي كلَّ شيء فالأنبياء أعطوا ولم يأخذوا ، إلا أن هذا العطاء أساسه إيمان ، يُعِدُّه صاحبه لاجتياز عقبات الآخرة ، فالمؤمن طموح جداً ، فإذا إنسان خدمك خدمة وقال لك : أريد عليها مئة ألف ، هناك أشخاص يأخذون الأجر المكافىء لجهدهم تماماً ، فإنه يعرف قيمة جهده يقول لك : إن هذه العملية تكلف أربعمئة وخمسين ألفاً ، لو افترضنا أن إنساناً فعلها لوجه الله . أيهما أكثر طموحاً ؟ الثاني الذي فعلها لوجه الله لأن الله عزَّ وجلَّ يعطيه عطاء لا يخطر على قلب بشر يوم القيامة ، فأساس الإيمان مبنيٌّ على العطاء لا على الأخذ ، تعيش وتأكل وتشرب وتزوِّج أولادك ، أما أساس إيمانك فأن تعطي مما أعطاك الله ، لذلك الله عزَّ وجلَّ قال :

﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة : ١-٣] .

أي إن أحد أركان حياة المؤمن ، أحد سماته الأساسية ، أحد ركائز حياته ﴿ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ لكنك تعامل من ؟ تعامل الكريم ، يعطيك عطاءً لا يصدق ، أوّلاً : يعطيك في الدنيا رحمته وهي تشمل الصحة ، وتشمل راحة البال ، وتشمل الرفعة ، والطمأنينة والثقة بالمستقبل ، أما الكافر فكثيراً ما ترتعد فرائصه خوفاً من تقلبات الأيام وعثرات الزمان ، مهما كان غنياً ، فحسبه بؤساً أن سَلَبَهُ نعمةَ الأمن فقد قال تعالى :

﴿ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٨١ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ

إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأنعام : ٨١ـ٨٢] .

الله يعطيك المال وقد يأخذ منك نعمة الأمن ، ويأخذ منك نعمة راحة البال ، يأخذ منك نعمة الطمأنينة ، يأخذ منك السعادة ، تعيش في لذائذ متناقصة تعقبها كآبات متنامية .

فالله عزَّ وجلَّ قال :

﴿وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [الزخرف : ٣٢] .

﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ﴾ [فاطر : ٢] .

فأنت كمؤمن إذا عرفت أن الله ماجد أي غنيٌّ مُغنٍ ، متناهٍ في الشرف والرفعة والمجد ، وهو يعطي عطاءً لا نهائياً ، إذاً فَتَخلَّقْ بكمالات الله .

فحظ العبد من هذا الاسم أن يعامل الخلق بالصفح والإحسان ، والعفو والإكرام ، واللين والبشاشة ، وتجنّب الشقاق ، وأن يعطي من ماله للفقراء ، وأن يتواضع مع الخلق ، وأن يرفق بالضعفاء ، وأن يعامل الناس كأنهم أهله وجيرانه .

فأنت عليك أن تَتخلّق بكمالات الله . . بالمناسبة دائماً عندما نضع قطعة من الحديد تحت أشعة الشمس ، تكتسب منها شيئاً فتكتسب الحرارة ، ثمّ ضع هذه القطعة في البراد تجدها باردة ، معنى ذلك أن هذه القطعة اكتسبت من هذه الثلاجة البرودة كما اكتسبت من الشمس الساطعة الحرارة . . أنت إذا اتصلت بالله فلابد أن تكتسب شيئاً !! فقطعة حديد لا يعقل إن وضعتها تحت أشعة الشمس إلا أن تكتسب الحرارة ، وإن وضعتها في ثلاجةٍ إلا أن تكتسب البرودة ، وأنت إذا اتصلت بالله ألا يجب أن تكتسب منه شيئاً ؟ فالصلاة التي هي عماد

الدين وعصام اليقين ودرة الطاعات ، وأعظم القربات ، هذه الصلاة من أجل أن تكتسب الكمال من الله ، لا يمكن أن تكون صلاتك صحيحة وتكون بخيلاً ، معنى ذلك أنك غير متصل بالله ، لا يمكن أن تكون الصلاة صحيحة وتكون جباناً ، لا يمكن أن تكون الصلاة صحيحة وأنت حقود ، هذا شيء مستحيل حقد ، جبن ، بخل ، لؤم ، قسوة ، قلب قاسٍ لايرقّ للناس هذا كله يتناقض مع الصلاة .

فقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ ﴾ [العنكبوت : ٤٥] .

﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ ﴾ . . أي أكبر ما فيها . . فلذلك إذا أنت اتصلت بالله يجب أن تشتق لنفسك من اسمه صفة الكرم ، فإنك إذا خرجت من البيت ساعياً لعملك فالتقيت بإنسان وسألك أجبته ، أو طلب إعانة أعنته ، أو وجدته ضالاً هديته ، أو وجدته فقيراً أغنيته ، همك الأول أن تسعد خلق الله عزَّ وجلَّ .

فأضربُ أمثلة من واقع الحياة . . أنت راكب في سيارة عامة وبجانبك صديق فدفعت عنه ، فهل يظل ساكتاً ولا يتحرَّك نحوك شاكراً لك ، أم يبتسم ولا يقول لك شكراً ؟ فهل من المعقول أن تدفع ثلاث ليرات بهذه السيارة العامة ولا يلتفت لك شاكراً ، مهما كان لئيماً ، مهما كان عديم الإحساس ، مهما كان جلفاً ، وهل من الممكن أن تدفع عن إنسان بمركبة عامة ولا يبتسم لك ويقول لك شكراً ؟! وهل من الممكن أن تهدي إنساناً هدية ويأخذها ويضعها بجواره ويقول لك : خير . نعم . ويبقى صامتاً ، لا بل سوف يقول

لك شكراً لقد كلفت نفسك من أجلي. . إنك لن تجد إنساناً تصنع معه معروفاً ، إلاّ ويكون له ردّ فعل حميد نحوك ، لن تجد إنساناً مهما كان لئيماً ، مهما كان موقعه منك وقدمت له شيئاً إلاّ ويقدم لك شيئاً بالمقابل ، فلو قلتَ له كلمة طيبة ، لردَّ عليك بكلمة طيبة ، لو ابتسمت له ابتسامة ، سيبتسم لكَ ابتسامة مثلها ، لو صافحته مصافحة حارة لردَّ بمصافحة حارة مثلها أو أحسن منها .

فخالق الأكوان ذو الكمال المطلق إذا أنت خطبت وده بالتوبة ، وخطبت وده بالطاعة ، خطبت وده بالعمل الصالح ، إن خطبت وده بالإحسان إلى خلقه ، وجدت جزاء ذلك عنده ، فهل من الممكن أن تتقرب إلى الله ولا تجد ردَّ فعل من الله ؟! مستحيل. . فإذا الإنسان أحسن إلى خلق الله سوف يجد في نفسه الطمأنينة ، والسعادة ، والتوفيق ، والحفظ ، والتأييد ، سوف يجد تكريماً ، والتكريم شيء استثنائي ، شيءٌ مستثنى من معاملة عامة الناس ، مستثنى من القواعد العامة التي تحكم البشر ، هذه الكرامة دليل أن الله قبل هذا العمل . أَلَمْ يقل النبي عليه الصلاة والسلام : « **إِنَّ الصَّدَقَةَ لَتُطْفِىءُ غَضَبَ الرَّبِّ وَتَدْفَعُ عَنْ مِيتَةِ السُّوءِ** » [سنن الترمذي] .

التعامل بهذا الدين كما قلت مراراً تجارة رابحة. . كيف تكون التجارة ؟ ما أكثر ما يكون فيها من جهد ونشاط ؟ بدءاً من شراء المحل ، وتزيين المحل ، وترتيب المحل ، وتعيين الموظفين ، وشراء مستودعات ، وفتح اعتمادات ، واستيراد بضاعة ، وعرض البضاعة ، ومندوب مبيعات ، ومندوب مُشتريات ، والتسويق ، وبعد هذا قبض ثمن البضاعة ثم صفقة ثانية وثالثة إلخ. . . هذا النشاط

الطويل العريض إذا لم ينتهِ بربح فهو سلوك مضحك لا معنى له ، للتجارة هدفٌ واحد هو تحقيق الربح ، فإذا لم يتحقق الربح فكل هذا النشاط لا معنىً له ، جهد ضائع وهو جهد غير ذي معنى .

فلو طبقنا ذلك على الدين. . قرأنا قرآناً ، صلينا وصمنا وحججنا وزكَّينا ، وحضرنا مجالس العلم ، وكانت عندنا مكتبة إسلامية ، والكتاب الفلاني لابن فلان ، وغيره لفلان الفلاني وهكذا ، والطبعة حديثة ، أحاديث الكتاب مخرَّجة ، هذا الكاتب رد عليه فلان هذا هو النشاط الديني ، بين مطالعة وتأليف واستماع إلى أشرطة ، بين حضور مجالس للعلم وبين أداء الصلوات ؛ هذا النشاط كلّه إجمالاً ، إذا لم ينتهِ بك إلى أن تتصل بالله وأن تسعد بقربه لا معنى له إطلاقاً .

فأصبح الدين اليوم لدى الكثيرين من المسلمين ثقافة وفلوكلور وتقاليد وعادات ، وعاطفة جوفاء وهم بذلك يخدعون أنفسهم ويوردونها الموارد الآسنة ، أما حينما تتصل بالله وتقطف ثمار القرب ، وتجني سعادة القرب والطمأنينة ، فعندئذٍ أنت متديّن ، المشكلة في الدين : أنك لن تستطيع أن تتصل بالله إلا إذا كنت مستقيماً على أمره ، هذا هو بيت القصيد ، لكي لا يضيّع الإنسان وقته ، ولكي يتحرك العبد حركة ناجحة ، ولكي لا يبدد نشاطه في حركة غير نافعة ، عليه أن يدرك حقيقة علاقته بالله تعالى ثم يخلص له العبادة .

ملخص الملخص يجب أن تعرفه وأن تستقيم على أمره حتى تسعد بقربه ، هذه هي العبادة فقد قال تعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

تعرفه ، تطيعه ، تسعد بقربه ، وانتهى الأمر إلى رضوان الله ولا شيء غير ذلك .

شيء آخر . . من لوازم هذا الاسم ، أدب المؤمن مع هذا الاسم ، أن ترتفع همَّته عن الخلائق ، فما دام الله كمالُه مطلق وعطاؤه مطلق ، دع الخلق إلى الخالق ، دعهم ، تجد الإنسان المنافق والمنحرف أرضياً مع الناس ، أما المؤمن فهو تارك الناس ، وملتفت إلى رب الناس ، هناك شيء أساسي في حياته . فالله هو الأصل والغاية .

أحياناً تدخل إلى دائرة لتقابل فلاناً المسؤولَ ، وقد تجد في الممشى مئة شخص ، وخمسين باباً مفتوحاً ، وخمسين موظفاً جالساً لا تريد أحداً منهم ، لكن تريد المدير العام فقط ، هدفك واحد فقط وكل هؤلاء الذين في دربك تتجاوزهم والمؤمن كذلك هدفه الوصول إلى الله تعالى .

قيل : علاقة المؤمن بهذا الاسم : أن ترتفع همَّته عن الخلائق مع تعلُّقه بمولاه ، فمن عرف أن الله هو الواجد الماجد سمت همته إليه واعتمد عليه في كلِّ الأمور ، أي أنَّ المؤمن ربَّاني ، والمنافق شيطاني .

الحديث القدسي : « . . . **إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّماً فَلا تَظَالَمُوا ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إلا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ ، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إلا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ ، كُلُّكُمْ عَارٍ إلا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ ، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا**

أُدْخِلَ الْبَحْرَ ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ اللهَ ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ » [صحيح مسلم] .

وأنتقل هنا إلى اسمٍ آخر قريب من هذا الاسم وهو اسم المجيد . . الماجد على وزن فاعل ، أما المجيد فهو على وزن فعيل ، المجيد صيغة مبالغة ، أي سامع وسميع ، ماجد ومجيد ، حافظ وحفيظ ، وزن فعيل من أوزان صيغ المبالغة .

وإذا قلنا مبالغة في حقِّ الله عزَّ وجلَّ ، فهذه المبالغة كماً وكيفاً ، إذا قلنا إن الله عز وجل مجيد أي يتناهى في الرفعة في كلِّ صفاته هذا معنى المبالغة . . أما المبالغة النوعية فالله على كلّ شيء قدير مهما بدا الشيء كبيراً ، وعلى الأشياء كلّها قدير مهما كثرت ، ومهما كبرت .

في اسم المجيد قالوا : المجد هو الشرف ، لكن شرف الذات إذا قارنه حسنُ الفعال سمي مجداً .

مثلاً : إنسان درسنا نسبه فإذا هو ينتمي إلى أرقى أسرة لكن أفعاله سيئة لا يسمى ماجداً ، إنسان آخر أعماله طيبة لكن لا نعرف أصله ولا الأسرة التي ينتمي إليها ولا ماضيه . فهو إذاً ماجد ، أسرع به عمله ، ولو بطأ به نسبه . شرف الذات إذا قارنه حسن الفعال سمي مجداً ، والمجد المروءة والسخاء والكرم وكرم الفعال .

سيدنا سعد بن عبادة كان يقول : اللهم هب لي حمداً ومجداً ، لا مجد إلا بفعال ، ولا فعال إلا بمال ، اللهم لا يصلحني القليل ، ولا أصلح عليه .

كلام دقيق . . إن من عبادي من لا يصلح له إلا الغنى ، فإذا أفقرته

أفسدت عليه دينه ، وبعض الناس مقاومته هشة إذا أغناه الله يعصيه على الفور ، أي أنَّه على الدخل الكبير يرتكب الموبقات ، أما على الدخل المحدود مستقيم ، « **وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر ، فإذا أغنيته أفسدت عليه دينه** » إلا أن الآية الكريمة تعطيك قاعدة عامة وثابتة ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ﴾ [الشورى : ٢٧] .

معنى ذلك أن الله عزَّ وجلَّ إذا قلل ، فإنّه يقلل تقليل تأديب لا تقليل عجز ، إذا وجدتَ الأمطار قد شحَّت ، والموارد قلَّت ، والأعمال أصبحت عسيرة ، والأمور غير ميسرة ، معنى ذلك أنه تضييق من الله عزَّ وجلَّ ، وهذا التقليل لا يمكن أن يكون تقليل عجز إلا أنه تقليل تأديب .

إذا قطعوا مرافق الماء عن بيوتنا فالسبب أن المياه غير كافية ، هذا تقليل عجز ، إذا قطعت الكهرباء باليوم ساعة معنى ذلك يوجد عجز ، أما إذا الله عزَّ وجلَّ قلل الموارد فلا يمكن أن يكون عجزاً ، لأن الله عنده خزائن كل شيء :

﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ ﴾ [الحجر : ٢١] .

فإذاً يؤدب الله عباده ، فهذا الصحابي الجليل قال داعياً : اللهم! هب لي حمداً ومجداً ولا مجد إلا بفعال ولا فعال إلا بمال ، اللهم لا يصلحني إلا هو ولا أصلح إلا عليه .

فإذا رأيت إنساناً عظيماً وليس له عمل صالح فإن عظمته تكون فارغاً ، العظمة أساسها العمل العظيم ، لا مجد إلا بفعال ولا فعال إلا بمال .

وبعد فإذا رجا إنسان ربّه أن يكون غنياً ليكون بهذا المال ماجداً انقلب هذا الطلب إلى عبادة ، فلو أن شخصاً يبحث عن مال وهدفه إذا اغتنى أن يبني مسجداً ، أو يبني معهداً شرعياً ، أو يطعم الفقراء ، أو يكرم الأيتام وينشىء ميتماً مثلاً ، وينفق إنفاق الطامع برحمة الله ويرجو وجهه ، أو يعلم الطلاب على حسابه لكي يصبحوا دعاة ، فإذا كان هذا هدفه فعمله عبادة ، وأي عبادة .

التقيت مرّة بإنسان بينما كنت في زيارات إحدى المحافظات ، فوجدت مسجداً قد أنشىء حديثاً على الساحل ، فأعجبني ودخلت وصليت فيه ، ثم دعاني هذا الإنسان إلى مكتب له في المسجد ، فقال لي : أنا الذي بنيت هذا المسجد ، حدثني عن قصته فسمعت كلاماً غريباً قال لي : لما أنهيت الخدمة الإلزامية من حوالي عشرين سنة ، وكنت والله ، لا أملك درهماً ولا ديناراً فأخذت من أُختي سوارها وبعته بثلاثمئة ليرة وسافرت إلى إحدى دول الخليج ، وبينما أنا في الطائرة ما تكلمت بلساني إلا أنّهُ قد خطر في بالي خاطر : لو أن الله جبر خاطري في هذه السفرة لأبنينَّ لله مسجداً ، أَقسَم بالله إنه لم ينطق هذا بشفتيه ، ثم قال لي : وأكرمني الله عزَّ وجلَّ إكراماً منقطع النظير ، ثم رجعت إلى بلدي واشتريت أرضاً مساحتها خمسة دونمات ، وتقدمت بطلب رخصة فلم أحصل عليها ، قالوا : المنطقة غير منظمة ثم قابل مسؤولاً كبيراً هو المحافظ الذي قال له : عمِّر ولا بأس عليك ، ثمّ قال : وبكل بساطة عمّرنا مسجداً كبيراً ضخماً وهو الذي صليت فيه قبل قليل ، وهو على مرأى من المسافرين قبل مدينة بانياس ، لونه بني لطيف ، أمنيته كانت إلى الله : إذا أكرمتني يارب فإني سوف أبني لك مسجداً ، طلب بصدق النية فالله أعطاه ،

فإذا طلب أحد مالاً من الله لكي يعمر مسجداً أو لينشىء معهداً شرعياً ، أوليبني داراً للأيتام ، لينفق على طلاب علم ولكي ينشر الدعوة إلى الله ، هذا الغنى آل أمره إلى عبادة ، ولم يكن غنى مطغياً أو غنىً منسياً لأنه أدّى حقَّ الله في المال ، لأن المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف. . والمال قوة ، لكن هذا المال يحتاج إلى نية ويحتاج إلى إيمان ، والإيمان يفرز نية عالية ، والنية العالية تحوّل طلب المال إلى عبادة .

أما إذا كان هم الإنسان أن ينشىء هنا فيلاّ ، هناك شاليه ، وأن يشتري السيارة الشبح ويستقلها زهواً ، هذه ليست عبادة بل هي حب للدنيا .

فلذلك طلب المال من أجل الأفعال الصالحة يعدُّ عبادة ، يقول : اللهم هب لي حمداً ومجداً ، ولا مجد إلا بفعال ، ولا فعال إلا بمال اللهم لا يصلحني القليل ولا أصلح عليه .

ومن دعاء علي رضي الله عنه : اللهم! صن وجهي باليسار ، ولا تبدل جاهي بالإقتار ، فأسترزق طامعاً رزقك من غيرك وأستعطف شرار خلقك ، وأُبتلى بحمد من أعطاني ، وأفتتن بذم من منعني ، وأنت من وراء ذلك كلِّه وليُّ الإجابة والمنع .

فإذا أتقن الإنسان عمله ، أتقن مصلحته ، أتقن تجارته ، أتقن صناعته ، أتقن وظيفته ، أتقن طبه ، أتقن هندسته ، وجاءه دخل كبير وحل مشكلات الناس به فهو في أعلى درجات العبادة ، إنه مستقيم ، طاهر ، ورع ، كسب مالاً وزوّج شاباً ، واشترى بيتاً لإنسان فقير آواه به ، حل مشكلة إنسان ، وفّق بين زوجين ، آوى إنساناً عليه دعوى

إخلاء مثلاً ، فتاة أمَّن لها بيتاً وبعد هذا تقدم لها شاب ليتزوجها ، أحياناً تجد البنت إذا ملكت بيتاً فإنها على الفور تتزوَّج ، إذا كنت ميسور الحال وعندك بنتٌ مستقيمة وطاهرة نقية وتقدم لها شاب لا بيت عنده ولا يملك ثمنه فاشتر لها بيتاً وزوجهما ، فهناك آباء أعجب من أفعالهم كثيراً .

قال لي أخ : أنا أمّنت بيتاً لهذه البنت فإذا تقدم أحد خطبها وتزوجها فله هذا البيت ، ولم يمض إلا وقت قليل حتى تزوجت ، وانحلت مشكلة شابين بحاجة إلى زواج ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه . .

« . . . . وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ . . . » [صحيح البخاري] .

فإذا طلب أحد المال من الله تعالى ليحلَّ به مشكلات المسلمين نقول له : نِعم الطلب طلبك ، وهذا عملٌ من أرقى الأعمال وأرجاها عند الله تعالى .

الله عزَّ وجلَّ ذكر اسمه المجيد في القرآن الكريم ، قال الله تعالى :

﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ [البروج : ١٥] . وقال عن كتابه الكريم ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ فالقرآن كتابنا المقرر حدِّث عنه ولا حرج ، حدِّث عن نظمه ، وعن إعجازه ، وعن تشريعه ، وعن أخباره ، وعن حلاله وعن حرامه ، وعن وعده ، وعن وعيده ، وعن صوره ، وعن مشاهد يوم القيامة فيه ، وعن قصص أنبيائه ، هذا الكلام كلام الله عزَّ وجلَّ .

فالله عزَّ وجلَّ قال :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ [الأنعام : ١] .

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ [الكهف : ١] .

الكون كله في كفَّة والقرآن في كفة وهو بين أيدينا ، والله الذي لا إله إلا هو لو وقفت عند حروفه حرفاً حرفاً لوجدت العجب العجاب ، لو وقفت عند حركات الحروف لوجدت العجب العجاب .

قال تعالى : ﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴾ أي الشريف ، فلله الشرف والمجد والعلو والعظمة في ذاته وصفاته وأفعاله ، ووصف الله تعالى قرآنه بأنه مجيد لكثرة فوائده ، فالمجيد في صفة الله يدل على كثرة إحسانه وأفضاله ، والمجيد هو الشريف بذاته الجليل بأفعاله الجزيل بعطائه ، البالغ المنتهى في الكرم ، وقيل : المجيد المتناهي في الشرف في ذاته وصفاته وأفعاله ، وهو الجليل في نعوته والجميل في ملكه وملكوته .

جاء اسم المجيد في آيات أخرى فالله عز وجل في سورة هود قال :

﴿ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ [هود : ٧٣] .

أي أنه كثير العطاء ﴿ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ .

فإذا الإنسان تعرَّف إلى الله واستقام على أمره يهديه سُبُل السلام ، فهناك أزمات طاحنة . . ويوجد دعاء للنبي ﷺ يقول فيه : « **اللَّهم! إني أعوذ بك من زوال نعمتك ، وتحوُّل عافيتك ، وفجأة نقمتك ، وجميع سخطك** » [رواه مسلم] .

أحياناً يقع البلاء فجأةً ، ويداهم المرض العُضال فجأةً . . فاللهمّ إنا نعوذ بك من فجأة نقمتك ، وتحوُّل عافيتك ، وجميع سخطك . .

أحياناً تكون المفاجأة في الأولاد ، أو المفاجأة في الزوجة ، مفاجأة عنده خمسة أولاد ، وعندما حلل اكتشف أنه لا ينجب ، وعنده خمسة أولاد من غيره . فجأةً وقع الخبر عليه وقْع الصاعقة !! فمثل هذا الخبر يكون مدمّراً وهو شيء لا يحتمل ، ففي حياة الكافر والعاصي مفاجآت ، وأخبار كالصواعق .

أما المؤمن فالله عزَّ وجلَّ يهديه سُبُل السلام ، فهو في سلام مع نفسه ، وفي سلام مع من حوله ، وفي سلام مع ربِّه ، وفي سلام مع مستقبله :

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة : ٥١] .

المؤمن في سلام ، لن تجد عنده مفارقات وأخباراً صاعقة ، ذات مرةٍ دعينا من قبل أحد الإخوة لمزرعة ، وقال لي : هذه مزرعة عمِّي ، وبينما نحن في المزرعة دخل عمُّه ولم يسلِّم على الموجودين جميعاً وعددهم ثلاثون رجلاً ، ولكنني ضقت ذرعاً من تصرُّفه هذا ، فقال لي هذا الأخ : عمي حضر من المشفى الآن حيث كان يقوم بتكرير دمه وغسل كليتيه . فلا تؤاخذه على تصرُّفه فهو لم يعد يرى بعينيه من كثرة الألم ، والغسيل كل أسبوع مرة ، يمشِي دون أن يرى أحداً أو يحس بأحد ، فالهم حجبه عن الناس كلِّهم .

فقد يصاب الإنسان بمصيبة في جسده أو ماله أو عياله مما يجعله لا يرى شيئاً مما حوله ، فإذا طمأنك الله عزَّ وجلَّ وقال لك :

﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور : ٤٨] .

فلا تخف ، فأنت موضع عنايتنا ، فأحياناً تجد أن الله عزَّ وجلَّ يلقي في قلبك الطمأنينة وتشعر بالثقة ، وتشعر بأنَّ العناية تحوطك ،

فاحمد الله على نعمائه فالله قال : ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ . . فهل هذا شيء قليل أن يعتني الله بك ويدافع عنك ويطمئنك ، ويُلقي السكينة في قلبك والسعادة ، فهل هذا قليل ؟ والثمن بيدك وهو طاعتك ، فأطعه وانظر متدبراً في قول القائل :

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنا فإنَّا منحنا بالرضا من أحبَّنا
ولُذ بحمانا واحتمي بجنابنا لنحميك مما فيه أشرار خلقنا
وعن ذكرنا لا يُشْغِلَنَّك شاغلٌ ولا تنسنا واقصد بذكرك وجهنا
وسلِّم إلينا الأمر في كلِّ ما يكُن فما القرب والإبعاد إلا بأمرنا

الله عزَّ وجلَّ قال : ﴿ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴾ .

عطاؤه لا حدود له ، فالله عزَّ وجلَّ أحياناً يعطي الإنسان قليلاً من الدنيا قد يختلُّ توازنه بسببه ،كأن يعطيه بيتاً جميلاً ، زوجةً جميلة ، تجارة رابحة ، فكيف إذا أعطاك الله الجنَّة . . ولندقق النظر في هذا الكلام ، إذا ذهبنا إلى طرطوس ، وركبنا زورقاً إلى جزيرة أرواد وأخرجت من جيبك إبرةً وقمت بغمسها في مياه البحر وسحبتها بعد ذلك فانظر مقدار ما حملته وتعلّق بها من ماء . . يقول النبي الكريم عليه أتم الصلاة والتسليم : « **ما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما أخذ المخيط غُمِس في البحر من مائه** » [رواه الطبراني] ، الدنيا بقصورها ، بنسائها ، بمركباتها ، بأماكنها الجميلة . . ما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما أخذ المخيط غُمِس في البحر من مائه .

« **. . . أَعْـدَدْتُ لِعِبَـادِي الصَّـالِحِيـنَ مَـا لا عَيْـنٌ رَأَتْ ، وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ . . .** » [صحيح البخاري] .

لذلك الموت عند المؤمن تُحفته وعُرسُه ، لأنَّه دخل الجنَّة وقد رأى مقامه فيها ﴿ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ فالله يهيّيء لنا مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، إذا أكرمنا بالجنَّة فهناك كل ما لا يتصوَّره العقل ، والثمن طاعته فقط .

وفي سورة البروج قال تعالى :

﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۝١٤ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [البروج : ١٤ـ١٦] .

فلا إرادَةَ فوقَ إرادةِ الله أبداً ، فالله هو المريد ، هو القادر ، هو الفعَّال ، هو الحكم ، هو العدل ، لا رادَّ لما أمر ، ولا معقِّب لحكمه ، وقد وصف الله سبحانه وتعالى عرشه بأنَّه مجيد ، ملكه ملك عظيم .

وهناك آية ثالثة قال تعالى :

﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ [البروج : ٢١ـ٢٢] .

معنى قرآن مجيد أي كثير الخير ، إن قرأته ، إن تعلمْت أحكام تلاوته ، إن فهمته ، إن طبَّقته ، إن تعلَّمت منه ، لا حدود لفضائل القرآن ، لذلك من أُوتي القرآن ورأى أنَّ أحداً أُوتي خيراً منه فقد حقَّر ما عظَّمه الله ، من تعلَّم القرآن متَّعه الله بعقله حتى يموت .

قال : من تخلَّق باسم المجيد ، يجب أن يكون كريماً في جميع الأحوال مع ملازمة الأدب ، فمن المستحيل أن ترى مؤمناً بخيلاً . . بل تجده كريماً يعطي ولا يضنُّ بعلمه ولا بخبرته .

حدَّثني أخ . . عافاه الله من مرضه ، وهذه القصَّة منذ ثلاثين عاماً . . عنده محل لصناعة الفرنية « الكاتو » ، دخل عليه شخص من أقاصي الجزيرة وببساطة قال له : أتعلمني صنع الكاتو ؟ فقال له :

على العين ، تفضَّل إلى الداخل ، وقام بعمل العيارات والأوزان المناسبة أمامه ، وطبخها أمامه وبعد أن انتهى من العمل طلب منه أن يقوم بعمل مثلها أمامه.. ثم أقسم هذا الأخ.. أنَّه منذ ثلاثين سنة وإلى الآن يزوره ذاك الأخ ويحضر له هديَّة من الحسكة ، فقد أسس محلاً هناك في بلده وأخذ الله بيده ولم ينس الفضل لثلاثين سنه فيحضر له كل سنة هدية ثمينة .

الإيمان أساسه العطاء ، وقد حدَّثني طبيب متخصص في الأورام الخبيثة قال لي : جاءت امرأة شابّة في ريعان الشباب مصابة بمرض خبيث في الحنجرة وكادت تختنق ، ولا أمل في شفائها ، وقد قامت مع ذويها بزيارة مشافي وعيادات عدة جامعات ، بما فيها الجامعة الأمريكية في لبنان ، والكل أجمعوا على أنه لا أمل بشفائها ، قالوا لزوجها : لا أمل في شفائها.. ولكن بعد أن غادر العيادة رجع إلى الطبيب ليحاول مرةً أخرى وقال له : أنا سوف أقوم بإجراء محاولة أخيرة ، ولكن الأمل ضعيفٌ جداً ، وأقاموا في فندق قريب وأجرى الطبيب للمرأة جلسات أشعة يومياً ، وبعد حين تحسنت حالها ، وبعد ثمانية أشهر تقريباً بدأ شبح هذا المرض الخطير يتراجع ، ثمّ أذن الله بشفائها وعافاها وأنجبت الأولاد.. وهذه القصة منذ أكثر من خمسٍ وعشرين سنة.. ويقول الطبيب لي : كل سنة يأتي الزوج إلى الطبيب بخروفين وصفيحة من السمن . فقال له الطبيب أخيراً : والله لقد رددت الجميل بالجميل الكثير فوفيت ، بل أكثرت ، فيقول له الزوج : والله لئن مت أنا ، فأولادي من بعدي يتابعون هذا العمل وفاءً منا لحسن صنيعك .

فقد كان ميؤوساً من شفائها ولم يتقاضَ الطبيب شيئاً على

علاجها ، وكان هذا الزوج فقيراً جداً وأغناه الله بعد ذلك ، ونظير علاجه وخدمته طيلة ثمانية أشهر وتراجع المرض وشفاء الزوجة بفضل الله ، ومَنِّهِ ولم ينس الزوج هذا الفضل ، فإذا كان الفضل لإنسان فَلَمْ ينسه الزوج ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ فكيف إذا كان الفضل لله عزَّ وجلَّ ؟

الماجد والمجيد اسمان من أسماء الله الحُسنى.. على نحو.. الشريف بذاته ، الحميد بأفعاله ، الغنيُّ المُغني ، الذي يعطي الخير الجزيل .

أخلاق المؤمن نحو هذين الاسمين يترتّب عليه : أن يقصد وجه الله الكريم لأنَّه المُغني وحده ، وأن يُحسن للمخلوقات تأسياً بكمالات الله ، فاتَّجِهْ إلى الله وحده وأكرم خلقه إن كنت آمنت بهذا الاسم الجليل .

* * *

المحيي، المميت

من أسماء الله الحُسنى المحيي المميت ، وأكثر الذين ألَّفوا في أسماء الله الحُسنى جمعوا بين الاسمين في موضوعٍ واحد ، لأنَّ الله سبحانه وتعالى في أكثر الآيات التي ورد فيها اسم المحيي المميت ورد المحيي المميت معاً في آيةٍ واحدة .

المعنى الأول لاسم المحيي أنَّ الله سبحانه وتعالى يُحيي الأجساد بإيجاد الأرواح فيها .

يعني العلقة في رحم الأم تنمو ، لكن بعد أن تنمو يلقي الله فيها الروح ، فتتحرَّك والقلب ينبض ، والأجهزة تتكامل إلى أن يصبح الجنين طفلاً سوياً ، دماغ ، جمجمة ، أعصاب للحس ، أعصاب للحركة ، جهاز هضم متكامل ، جهاز للتنفس ، جهاز دوران ، جهاز لطرح الفضلات ، عظام عضلات أربطة ، طفل صغير كان قبل تسعة أشهر نطفةً من ماء مهين ، كان حويناً من ثلاثمئة مليون حوين بعد تسعة أشهر والأم غافلةٌ عمَّا في بطنها إذا طفلٌ يخرج من رحم أمّه سوياً مكتمل الخلق.. من أودع فيه الروح ؟ قال تعالى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ [الإسراء : ٨٥] .

يعني لو درسنا مكوِّنات الحليب وجئنا بكلٍّ هذه المكوِّنات ، هل

نستطيع أن نصنع حليباً ؟ لو جئنا بكلِّ مكوِّنات البيضة هل نستطيع أن نصنع بيضةً ؟ ماذا يجري في بطن الدجاجة ؟ وماذا يجري في الخليَّة من الخلايا الثديية للبقرة ؟ هذه الروح .

الكبد. . ما دامت الروح في الإنسان له خمسة آلاف وظيفة ، فإذا مات الإنسان أُلقي في المهملات ، كبد الدجاج. . والدجاج حيّ له وظائف خطيرة ، فإذا ذُبِحَ الدجاج أصبح طعاماً يؤكل ، فما سر هذه الحياة ؟

هذه المعدة. . ما دامت الحياة فيها لا تهضم نفسها ، أما إذا ذبح الخروف فأنك تأكلها وتهضمها معدتك ، هناك أمثلة لا تُعدُّ ولا تحصى. . . فأول معنى من أسماء المحيي. . هو الذي يحيي الأجسام بإيجاد الأرواح فيها .

وردة صنعت من مادةٍ بلاستيكيَّة كبيرة ولها ألوان زاهية تجد أنَّ النفس تعافها ، بينما الوردة الطبيعيَّة تشعر وتحس بتعاطف معها عجيب ، فيها حياة ، فالطبيعي فيه حياة ، أما الوردة البلاستيكيَّة فلا يوجد فيها حياة .

وقد نرى في واجهات المحالِّ التجاريَّة أجساماً توضع عليها الأقمشة ، تشعر أنَّها بلاستيك أو شمع ليس فيها حياة ، أما إنسان أمامك يتكلَّم يتحرَّك يتفاعل يبتسم يضحك يفكِّر ، يعتقد لا يعتقد ، يناقش ، يأكل يهضم يتنفَّس ، فذلك إنسان. . فرقٌ كبير بين الدُّمية والطفل ، من الذي أوجد الروح في الإنسان ؟ الله جلَّ جلاله هو المحيي ، فهل هناك أحد من الحاضرين ليس له أبٌ أو أم أو لا يعرف قصَّة خلقه ؟ قصَّة خلقه هو أنَّ أباه تزوج أمَّه وخرج واحد من ثلاثمئة

مليون حوين ولقَّح البويضة ، هذا الحوين خلية لها غلاف وفيها نواة وفي النواة عدد كبير من الجينات وعليها معلومات مبرمجة تصل إلى الآلاف ، ويدخل الحوين إلى البويضة وتبدأ البويضة الملقحة بالانقسام ؛ تنقسم البويضة الملقَّحة إلى عشرة آلاف قسم وهي في طريقها إلى الرحم دون أن يزداد حجمها ، لو ازداد حجمها لوقفت في الأنبوب وتعثَّر سيرها ، كيف تُغرس في الرحم ؟ كيف تأتي الدماء غزيرةً إلى الرحم ؟ كيف يتكون هذا الجنين ؟ بِدءاً من دماغه إلى قلبه إلى أحشائه إلى أطرافه إلى أن يكون في الشهر التاسع والأيام العشر بعد التاسع طفلاً مكتملاً ، يتثاءب ، يضحك ، يبكي ، يتنفَّس ، يهضم الحليب ، فيه حياة ، فالمحيي هو الذي يوجد الأرواح في الأجسام .

أو المحيي خالق الحياة ومعطيها لمن يشاء ، هناك إنسان تجده في بيته مصدراً لسعادة البيت كلّه ، إذا دخل تجد البيت صار كأنه في عيد ، الأولاد يتراكضون إليه يتعلَّقون عليه يجلسون في حضنه ، الزوجة تستقبله ، الضيوف يرحِّب بهم ، فإذا مات خاف أقرب الناس إليه الدخول إلى غرفته ، فأين هو ؟ أقرب الناس إليه زوجته أولاده الضيوف ، ما الذي فقده ؟ لو وزناه قبل أن يموت وبعد أن يموت وزنه هو هو ، انسحبت الروح فأصبح مخيفاً ، هناك من يخاف أن ينظر إلى ميت ، من الذي أودع فيه الروح ؟ الله جلَّ جلاله .

الله عزَّ وجلَّ من أسمائه المحيي أي أنَّه خالق الحياة في كلِّ شيءٍ حي ، في النبات . . الشجرة حطب يابس يأتي الربيع تزهر ، تورق ، تثمر ، من أوْدَع فيها الحياة ؟ ، هرَّة تلد أمامك أربع هرر صغيرة تنمو ترضع ، من أودع فيها الحياة ؟ الله جلَّ جلاله هو المحيي ،

أتعبد مخلوقاً يحتاج إلى من يحييه ؟ أتعبد مخلوقاً سوف يموت ؟ أم تعبد الخالق المحيي المميت ؟

خالق الحياة في كلِّ شيء ، النبات فيه حياة ، لو توسَّعنا أكثر : هذه الطاولة التي تبدو لكم جماداً لا يتحرَّك ولا يدرك ولا يسمع ولا ينظر ، اسألوا علماء الفيزياء فيها حياة ؟ هذه الطاولة تتألَّف من ذرَّات ، والذرَّة هي نواة وكهارب تدور حول النواة ، وكل ذرَّة لها عدد معين من الكهارب ومسارات معيَّنة وسرعات معيَّنة ، وقد ينتقل العنصر من الطبيعة الغازيَّة إلى الطبيعة الجموديَّة باختلاف كهروبٍ واحد على السطح الخارجي ، فحتى الجماد فيه حياة ، قال تعالى :

﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس : ٤٠] .

كلٌّ ما في الكون يسبح في أفلاك مغلقة ، بدءاً من الذرَّة وانتهاءً بالمجرَّة ، من الذي أودع الحياة في الجماد ؟ الجماد حيّ ، والنبات حي ، والحيوان حي ، والإنسان حي ، والله هو المحيي .

أما الجماد فإنه يشغل حيِّزاً له طول وعرض وارتفاع ، لكنَّه لا ينمو ولا يتحرَّك ، أما النبات فإنه يشغل حيِّزاً وله وزن إلا أنَّه ينمو ، والحيوان يشغل حيِّزاً وينمو ويتحرَّك .

أما الإنسان فله وزن ويشغل حيِّزاً ، وينمو ويتحرَّك ويفكِّر . قال تعالى : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن : ١-٤] .

من الذي أودع الحياة ؟ هو الله جلَّ جلاله هو المحيي .

الآن.. يحيي الخلق من العدم ، ويحيي الخلق بعد الموت.. إحياءين . قال تعالى :

﴿قَالُوا رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ [غافر : ١١] .

الإحياء الأول الإحياء من العدم ، والإحياء الثاني الإحياء بعد الموت ، أمتَّنا اثنين وأحييتنا اثنين ، معنى الإحياء أنَّه يحيينا من العدم ، سبقنا عدم في بطون أمهاتنا ، والإحياء الثاني يحيينا يوم القيامة ، يبعثنا من قبورنا ونحيا مرَّةً ثانية .

الآن . في الحياة معنى آخر ، تجلس مع إنسان كتلة من لحم ودم لا يعي هدف وجوده ، يريد أن يأكل وأن يشرب وأن يتمتَّع ، لا يعبأ بقيمة ولا بخلق ولا بمبدأ ولا بدين ولا بعقيدة ، كائن يبحث عن طعامٍ وشراب وعن لذَّةٍ يقتنصها ، تشعر أنت بكل خليَّةٍ في جسمك وبكل قطرةٍ في دمك أنَّ هذا الإنسان ميِّت ، أما قلبه فهو في أعلى درجة ، ونبضه نظامي ، تنفسُّه جيِّد ، ضغطه جيِّد ، لو فحصته فهو في أحسن حال مئة في المئة ، لكنَّه ميِّت ، قلبه ميِّت .

معنًى جديد للمحي هو الذي يحيي القلوب بمعرفته والاتصال به ، يحيي الأجسام بالأرواح ، ويحيي النفوس بمعرفته وطاعته . . تجلس مع مؤمن فيه حياة ، فيه مبدأ ، فيه خُلق ، فيه حياء ، فيه رحمة ، فيه إنصاف ، فيه تواضع وعلم ، قال تعالى :

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام : ١٢٢] .

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ . . بالمعنى الثالث .

أول معنى . . يحيي الأجسام بإيجاد الأرواح فيها وهي من عدم .

المعنى الثاني . . يحيي النفوس بعد موتها .

المعنى الثالث . . يحيي القلوب بمعرفته والإقبال عليه .

المؤمن حيّ.. يا بُني مات خُزَّان المال وهم أحياء ، والعلماء باقون ما بقي الدهر ، أعيانهم مفقودة وأمثالهم موجودة .

﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾.. هذا المعنى الثالث.. تجد المؤمن حيَّ القلب ، إذا قرأ القرآن تدمع عينه ، إذا قرأ القرآن يقشعرُّ جلده ، يَجِفُ قلبه ويضطرب ، يحبُّ ربَّه ، يحبُّ طاعته ، يحبُّ الخير ، يصغي إلى الحق ، ينطق بالحق ، يذكر الله ، يذكِّر بالله ، يدعو إلى الله ، يفصِّل يبيِّن يشرح ، له أهداف كبيرة سامية جداً ، يسعى إلى مرضاته .

يحيي الأجسام بإيجاد الأرواح فيها ، ويحيي القلوب بمعرفته والإقبال عليه ، قال تعالى :

﴿يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الحديد : ١٧] .

﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [النحل : ٦٥] .

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ [فاطر : ٩] .

﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية : ٥] .

﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.. بإنزال المطر .

والمحيي كما قال بعض العلماء : « يحيي العوالم بسرِّه » ، العوالم جمع عالم كما في قوله تعالى :

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

﴿الْعَالَمِينَ﴾.. جمع عالَم ، عالَم الحشرات ، عالَم الفيروسات ، عالم البكتيريات ، عالم الأحياء الدقيقة ، الآن توجد بحوث جديدة تشير إلى أنَّ هناك مسببات للمرض هي كائنات حيَّة أقلُّ من الفيروس ، أصغر مخلوق هو الفيروس ، الآن هناك مسببات تسببها هذه الكائنات التي هي أصغر من الفيروس تسبب مرض جنون البقر ، أقل من الفيروس وهو كائن حي .

أحياناً ترى على صفحة الكتاب نقطة تمشي أقل من عُشر المليمتر ، فلو قسمنا المليمتر إلى عشر أقسام لكانت هذه الدويبية عشر المليمتر تمشي ، ولو وضعت يدك أمامها لوقفت ، ومعنى ذلك أنَّها أدركت أنَّ هناك حاجزاً أمامها ، والجرثوم أصغر منها ، والفيروس أصغر من الجرثوم ، وبعض مكوِّنات الأمراض أصغر من الفيروس ، أودَعَ فيها الحياة .

وهناك الحوت الأزرق يزن مئة وخمسين طناً ، ووجبته المعتدلة أربعة أطنان ، وإذا أرادت أُنثاه أن ترضع وليدها ترضعه في الرضعة الواحدة ثلاثمئة كيلو غرام من الحليب ، أي طناً من الحليب في الرضعات الثلاث ، يستخرجون منه تسعين برميلاً من الزيوت ، خمسين طناً من اللحم ، خمسين طناً أخرى من الدهون ، ودماغة كتلة كبيرة جداً ، وهذا الفيروس فيه حياة ، أقل من الفيروس في حياة ، والحوت الأزرق فيه حياة ، هو المحيي .

إذاً أحيا العوالم بسرِّه.. عالم الأسماك ، عالم الطيور ، عالم الحشرات ، عالم الفراشات ، عالم البكتيريات ، عالم الفيروسات ، عالم الإنسان ، عالم الحيوانات البريَّة ، عالم النباتات ، كل شيء بيده .

قال : أحيا العوالم بسرِّه ، وغمر الموجودات بوافر برِّه ، فهل هناك مخلوقٌ لا يأكل أو لا يشرب ؟ ببعض قمم جبال هيمالايا توجد ينابيع ماء ، فما معنى أن تجد ينبوع ماء في قمَّة جبل ، بحسب قانون الأواني المستطرقة ؟ ما معنى وجود ماء في جبل ؟ هناك مستودعات للمياه في جبل أعلى وهناك تمديدات إلى الجبل الأدنى ، لأنَّ هناك أنواعاً من الوعول تعيش في قمم الجبال ، رحمةً بها جعل الله لها بعض الينابيع في قمم الجبال .

إذاً . . هو الذي أحيا العوالم بسرِّه ، وغمر الموجودات بوافر برِّه ، فلو أمسكت بسنبلة من القمح فهي غذاء كامل ، ساق هذه السنبلة غذاء كامل للحيوان ، وهو أرقى أنواع العلف ، وأغلى أنواع العلف ، كيف أنَّ القمح غذاءٌ كامل ، ساق السنبلة غذاءٌ كامل ، من جعل السنبلة للإنسان وساق السنبلة للحيوان ؟ قال تعالى :

﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ [عبس : ٣١] .

الفاكهة للإنسان ، والأبُّ للحيوان .

قال : وجمَّل نفوس المخلصين بالمجاهدة .

بقي شيء الحقيقة أنَّ المؤمن حيّ تنجذب نحوه ، ما الذي يَجذبُ فيه ؟ أنت ضع في إناءين طاقة من الورد البلاستيك وطاقة من الورد الطبيعي وانظر إليهما تجد نفسك منجذباً للطبيعي ، تشمُّها وتنتعش ، تنظر إليها وتستمتع ، فيها حياة ، نضارة ، ألوان رائعة ، كذلك المؤمن كالوردة الطبيعيّة .

فقد تجد إنساناً ذكياً وعاقلاً ومتجمّلاً وأنيقاً لكنه كالوردة البلاستيكيّة . النفوس لا تنجذب إليه ، لذلك أمدَّ أحبابه بنور المعرفة

والمحبّة ، منح المخلصين أنوار القربات ، أوصلهم إليه بعد الغربة ، قال تعالى ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ ﴾ .

أنت بإمكانك أن تملأ قلبك حياةً بالاتصال بالله ، أن تملأ قلبك غنىً بالاتصال بالله ، أن تملأ قلبك طمأنينةً بالاتصال بالله ، أن تملأ قلبك قناعةً بالاتصال بالله ، أن تملأ قلبك أمناً بالاتصال بالله ، القلب الموصول حيّ ، والاتصال ثمنه الطاعة ، قضيّة سهلة بسيطة جداً ، أطع واتّصل ، فأنت مؤمنٌ حيٌّ القلب ، لا سمح الله اعصِ وانقطع . القلب ميّت ، حقدٌ على ضغينةٍ على لؤم على كبر على أنانية ، على استعلاء ، على كذب على جحود ، على خيانة ، القلب مقطوع وميّت .

وأدب المؤمن مع هذا الاسم هو الإكثار من ذكر الحيّ ، أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحيّ القيوم وأتوب إليه . . نقولها بعد الصلاة ، الحيّ القيوم مصدر حياة قلوبنا ، مصدر حياة أجسامنا .

قال : أدب المؤمن مع هذا الاسم هو الإكثار من ذكر الحيّ حتى يحيي القلب بنور المعرفة ، وتُضيء النفس بأسرار المكاشفة ، والإكثار من ذكره ولا سيما في جوف الليل .

روى عن حبيبة العدوية أنها كانت إذا صلت العتمة على سطح لها وشدت عليها درعها وخمارها ثم قالت إلهي قد غارت النجوم ونامت العيون وغلقت الملوك أبوابها وخلا كل حبيب بحبيبه وهذا مقامي بين يديك ثم تقبل على صلاتها فإذا طلع الفجر قالت إلهي هذا الليل قد أدبر وهذا النهار قد أسفر فليت شعري أقبلت مني ليلتي فأهنا أم

رددتها على فأعزي وعزتك لهذا دأبي ودأبك ما أبقيتني وعزتك لو انتهرتني عن بابك ما برحت لما وقع في نفسي من جودك وكرمك .

إذا لم يكن للإنسان مع الله مناجاة وصلة في جوف الليل ، في الصلوات المكتوبات ، في السجود ، فالقلب قاسٍ . فليس هناك شيء أجمل من أن تناجي خالق الكون ، من أن تتصل به ، لكن الله عزَّ وجلَّ كلَّنا عباده ، وليس هناك فرقٌ بين عبدٍ وآخر إلا بالطاعة ، أطعه وادخل عليه ، أطعه وأقبل عليه ، أطعه وناجِه ، أطعه وابتهل إليه ترَ بابه مفتوحاً لك أبداً .

كان رجل من أصحاب ذي النون يطوف في السكك يبكي وينادي أين قلبي أين قلبي من وجد قلبي فدخل يوماً بعض السكك فوجد صبيحاً يبكي وأمه تضربه ثم أخرجته من الدار فأغلقت دونه فجعل الصبي يلتفت يميناً وشمالاً ولا يدري أين يذهب ولا أين يقصد فرجع إلى باب الدار فوضع رأسه على عتبته فنام فلما استيقظ جعل يبكي ويقول يا أماه من يفتح لي الباب إذا أغلقت عني بابك ومن يدنيني من نفسه إذا طردتيني ومن الذي يؤويني بعد أن غضبت علي فرحمته فقامت فنظرت من خلل الباب فوجدت ولدها تجري الدموع على خده متمعكا في التراب ففتحت الباب وأخذته حتى وضعته في حجرها وجعلت تقبله وتقول يا قرة عيني وعزيز نفسي أنت الذي حملتني على نفسك وأنت الذي تعرضت لما حل بك لو كنت أطعتني لم يكن مني مكروهاً . فتواجد الرجل ثم قام وصاح وقال قد وجدت قلبي قد وجدت قلبي .

سبحان الله لو صبر الناس على باب الله لفتحه لهم. . صليت

وما شعرت بشيء ، أعدِ الصلاة ، قرأت القرآن وما شعرت بشيء ، فأعد القراءة ، جلست لذكر الله وبعد المئة تسبيحة الأولى اكتفيت. . لم تصبر ، سلعة الله غالية ، سلعة الله لا تأخذها مباشرةً إلا بعد جهد حقيقي ، قال : سبحان الله : لو صبر الناس على باب الله لفتحه لهم. . لذلك قال محمد بن حازم الباهلي :

أخلِقْ بذي الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

ليس هناك أعظم من إنسان له صلة بالله ، فأحياناً إذا كان هناك إنسانٌ عظيمٌ ينادونه قائلين : سعادة فلان. . وقديماً دولة فلان. . لأنَّه دولة ، فالله سمَّى إبراهيم : أمَّة .

وإذا كان من له صلة بالله ، فالصلة فيها علم ، فيها حلم ، فيها توازن ، فيها طمأنينة ، فيها حكمة ، فيها رحمة ، فيها إنصاف ، فيها عدل ، فعلاً صار أمَّة ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ ، فالقضيَّة بسيطة جداً ، لا يكلِّف الله نفساً إلا وسعها ، أطعه واتصل به فأنت حي .

لو تفلَّتَّ من منهجه وانقطعت عنه فأنت ميِّت ، ولو كنت في أوج حياتك ، في أوج شبابك ، في أوج نشاطك. . ميِّت ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾. . قال تعالى :

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر : ٢٢] .

مرة التقيت بإنسان من بلد أجنبي فقلت بنفسي لعلي أذكِّره بالله ، فذكرت له بعض الكلمات فقال لي : هذه المعلومات لا تهمُّني ولا أبحث عنها ولا تعنيني ، أنا يعنيني امرأةٌ جميلة ، وسيَّارةٌ فارهة ومنزلٌ واسع . وانتهى الأمر . لم أشعر بإنسان ميِّت كهذا الإنسان ،

فأحياناً يأتي الطبيب فيجس النبض فلا يجد نبضاً ، فيطلب مرآة فيضعها أمام الأنف فلا يجد بخاراً خارجاً مع التنفُّس ، ويأخذ كاشفاً للضوء فيفتح عينه ويسلط عليها الضوء فلا تصغر الحدقة ، إذاً هذا ميِّت انتهت حياته ، فقد تكلَّمت معه عن عظمة الله وعن خلقه المعجز ، فقال : هذه المعلومات لا تعنيني ولا أعبأ بها ولا اكترث لها ، فقط ثلاثة تعنيني : امرأةٌ جميلة ، وسيَّارة فارهة ، ومنزلٌ واسع . . وقد مات منذ حوالي سنتين بحادث . . فقال تعالى :

﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴾ [الكهف : ١٠٥] .

هان أمر الله عليه ، فهان على الله .

ورد اسم المحيي في القرآن الكريم ، فجاء في سورة الروم :

﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾ [الروم : ٥٠] .

ألم تدخل إلى بستان في الربيع ؟ قطعة من الجنة ، انظر إليه في الشتاء موت ، ترى الأرض جرداء ، شجر كأنه حطبٌ يابس ، ادخل إلى البستان في الربيع . . . ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

وفي سورة فصلت قال تعالى :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فصلت : ٣٩] .

وفي سورة البقرة :

﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

وفي سورة آل عمران قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [آل عمران : ١٥٦] .

وفي سورة الأعراف قال تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٨] .

آياتٌ كثيرةٌ جداً ورد فيها اسم المحيي والمميت معاً يحيي ويميت .

كلٌّ منا يتمتع بصحته والحمد للهِ ، هل يدري متى سيموت ؟ وفي أي مكان سوف يموت ؟ وبأي سببٍ سوف يموت ؟ يموت في بلده أم في بلدٍ آخر ؟ يموت ليلاً أو نهاراً ؟ يموت صبحاً أو مساءً ؟ يموت وحوله أهله أم وحده ؟ من يدري . . يحيي ويميت ، ومادام الإنسان لا يدري متى يموت ، ينبغي أن يستعدَّ للموت ، فقد قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ .

أي لا يأتيكم الموت إلا وأنتم في أعلى درجات الاستسلام لله عزَّ وجلَّ .

الآن الموت ضد الحياة ، ماتت الريح إذا ركدت وسكنت ، مات الإنسان إذا نام ، سُمي النوم موتاً لأنَّه يزول معه العقل والحركة تمثيلاً وتشبيهاً لا تحقيقاً ، والأرض الموات التي لم تُزرع . . من أحيا أرضاً

مواتاً فهي له ، وفلان موتان الفؤاد أي بليد غير ذكي ، قال عدي بن الرعلاء .

ليس من مات فاستراح بميِّتٍ   إنما الميتُ ميتُ الأحياء

المميت كاسم من أسماء الله تعالى هو مُقَدِّرُ الموت على كلِّ من أماته ، ذكرت قصَّة ، جلست مع إنسان ساعة تقريباً حدَّثني عن طموحاته إلى عشرين عاماً قادمة . . سيسافر من البلد الفلاني إلى البلد الفلاني إلى البلد الفلاني إلى الفلاني ، وسيعود وسيفتح محلاً تجارياً ، ويكبر أولاده ، وفي اليوم نفسه رأيت نعيه على الجدران مساءً .

لا أحد منا يعرف متى سيموت ؟ هل سيموت في الستين من عمره أم في الخامسة والخمسين أم في الثامنة والأربعين ، أم في الثالثة والسبعين ، أم في التسعين من عمره ؟ لا أحد يعرف ، فهناك شبابٌ يموتون .

إنسان مات قبل عامين ترك ألف مليون ، أحد الورثة نصيبه تسعون مليوناً ، أغلق محلَّه التجاري وبدأ في متابعة المعاملات فذلك أربح من كل عمله ، وستَّة أشهر بالتمام والكمال من دائرة إلى دائرة لاستخراج الوثائق الملازمة ، ودخل إلى الحمام فإذا به يموت فجأة قبل أن يقبض قرشاً واحداً ، فيا ترى وهو يبحث من مكان إلى مكان ، هل كان يتصوَّر أنَّه سيموت قبل أن يقبض هذا المبلغ ؟

من منا يعرف متى سيموت ؟ تجد شخصاً بذهنه خطط يستغرق عشر سنوات لتحقيقها ، ويأتي الموت فجأةً :

كم من عروسٍ زيَّنوها لزوجها   وقد قُبِضت أرواحهم ليلة القدر

ليلة العرس ماتت. . فما دام الموت ليس بيدنا فالإنسان العاقل هو الـذي يكـون مستعـداً للمـوت ، فـالمـوت ليس معنـاه أن لا يعمـل الإنسان ، ولكن إن أدخل الموت في حسابه يستقيم ، فإذا قال : أنا سوف أموت فجأةً سيستقيم ، أيَّةُ ساعة جاء الموت أهلاً وسهلاً ، مرحباً بالموت .

واحزناه! ـ قالتها امرأة بلال له حين حضرته الوفاة ـ فقال : بل واطرباه. . . **غداً نلقى الأحبة محمداً وحزبه** .

شيء عند معظم الناس مصيبة ، ولكنَّهُ عند المؤمن عرس إنه الموت ، والله سمَّاه في القرآن مصيبة الموت لأنَّ الإنسان في حياته الدنيا ينمو ، قد يكون طالباً فيحصل على الليسانس ثم الدكتوراه فيصبح دكتوراً ، يوظف بمشفى بوظيفة ويشتري بيتاً ويتزوَّج ، ثم ينتقل إلى بيت أكبر ، ثم يضع جهازاً للتكييف ، ثم يشتري سيارة ، وبعد ذلك يأخذ بيتاً في المصيف ، ينمو ويكبر ، من بيت كانت مساحته مئة متر إلى بيت مساحته مئتان من الأمتار وبمنطقة جميلة ، فهو ينمو ، يحسِّن أثاثه ، ويزين بيته بالسجاد فهو ينمو ، ثم يأتي ملك الموت ويخلِّصه من الدنيا وينزعه منها في أقل من ثانية التي قام بجمعها في خمسين سنة أو بثمانين سنة درجة درجة ، ويقبض روحه في ثانية واحدة ولا يأخذ شيئاً معه ، حتى لو كان في فمه سنٌّ من الذهب ربما نزعه من طمع به .

قال : مقدِّر الموت على كلِّ من أماته ، ولا مميت سواه. . يجب أن تعتقد اعتقاداً جازماً أنَّه ليس في الكون جهةٌ تقرر إنهاء الحياة إلا الله ، ولو بدا لك بالعين أنَّ فلاناً أنهى حياته. . لا ، مهما بدا

بالعين القاصرة والعقل الضعيف أن فلاناً أنهى حياة فلان ، فلاناً قتل فلاناً ، لا يموت الإنسان إلا بأجله الذي حدده الله له .

لذلك كلمة الحق لا تقطع رزقاً ولا تقرِّب أجلاً ، الذي أودع الحياة هو وحده الذي يقرر الموت ، علاقتك مع الله ، إن آمنت هذا الإيمان تغدو شجاعاً ، تغدو جريئاً ، تغدو صادقاً ، تعتمد على الله لا تخاف أحداً ، أما إذا توهَّمت أنَّ فلاناً يمكنه أن ينهي الحياة فقد عبدته وأنت لا تشعر ، عبدته من دون الله ، وأرضيته بسخط الله ، وأشركته مع الله .

ولا مميت سواه. . . قَهَر عباده بالموت ، مهما كبر الإنسان وعلا سيموت .

فقد قرأت كتاباً لطبيبٍ لامع فيه زُهاء مئتي مقالة ، كل واحدة أروع من الأخرى ، كيف يجب عليك أن تتجنَّب الملح ، وكيف تقوم بأداء التمارين الرياضيَّة ، والمحافظة على المفاصل ، الجلد ، المعدة ، الأمعاء ، القلب ، والفيتامينات ، والمواد السيللوزيَّة الفواكه الخضراوات ، نضارة الجلد ، قوة القلب ، فمعنى ذلك أنَّه لو قرأ أحد الكتاب وقام بتطبيق ما فيه من تعليمات فلن يموت أبداً. . لكن المؤلِّف بعد ذلك هو الذي مات .

فسبحان الذي قهر عباده بالموت ، فالطغاة يموتون ، الأنبياء يموتون ، كذلك الصالحون ، الأشرار يموتون ، الأذكياء يموتون ، الأغبياء يموتون ، النساء يمتن ، والرجال يموتون أيضاً ، فسبحان من قهر عباده بالموت .

فقد قرأت كتاب قصص العرب وهو كتاب ممتِع جداً ، فيه قصص

واقعيَّة وقعت في العالم العربي ، وبعد ما قرأته نظرت نظرة كانت بالغة الموعظة ، قلت : كلُّ هؤلاء ماتوا ، الأغنياء والفقراء ، الأقوياء والضعفاء ، الأصحاء والمرضى ، الأذكياء والأغبياء ، الظُلاَّم والمظلومون كلُّهم ماتوا ، وسيأتي يومٌ بعد حين كلُّ من تراه عينك في الطريق سيموت . . فنحن الموجودون هنا بعد مئة سنة لن تجد واحداً هنا وكلنا تحت أطباق الثرى ، وقبل مئة سنة لم يكن أحد منا موجوداً . . فسبحان المحيي المميت ، سبحان من قهر عباده بالموت .

الإنسان يكون كل شيء بيده وكل الأطباء في خدمته ، أي دواء من أي مكان يأتي فوراً ، ومع ذلك يموت الإنسان ، فالله قدَّر الموت على العباد ، فالأنبياء ماتوا وسيِّدنا النبي محمد ﷺ مات ، فالموت هذا مما قهر الله به عباده .

فعادوا إلى الأرض وطواهم التراب . . فأكبر موعظة إن كان لديك وقت فراغ ورأيت جنازة فامشِ وراءها ، فلاحظ عندما يضعون النعش على القبر ويرفعون الغطاء ويحملون الميِّت ، وينزل شخصٌ إلى القبر ليمسكه ويضعونه ويكشفون عن وجهه ويلقِّنونه ، ويطلع الحفَّار من حفرة القبر ويضع بعض الأحجار ويهيل عليها التراب ، ويقف أولاده يتقبلون التعازي في والدهم وانطوت صفحة . . وفي بيته لا أحد يسأل : لماذا فلان لم يَعُد ؟ لن يرجع ، وانتهى الأمر بموته ، أما إذا كان حيّاً فإنهم يسألون عنه وعن سبب تأخره حتى الساعة الثانية عشر فأين هو ، وإن كان يزور أخته فيخبرونه ويسألون عنه ، أما إذا مات ودفن فلن يسألوا عنه ، حتى ملابسه لكي لا يتذكَّروه يعطونها للفقراء على الفور ، فأكثر الأسر لا يتركون له حاجة من حاجاته من ألبسة أو من أحذية أو أي شيء له حتى لا يتذكَّروه ، فكأن صفحة قد انطوت .

فالإنسان عندما يولد كلٌّ من حوله يضحك وهو يبكي وحده ، وإذا مات كلٌّ من حوله يبكي . . فإذا كان بطلاً يضحك وحده ، فالآن يجب علينا جميعاً أن نعمل ونشتغل بطاعة الله وبذكره ، بالعمل الصالح ، بطلب العلم ، بتعليمه ، بالأمر بالمعروف بالنهي عن المنكر ، بالأذكار بالأوراد ، بالتلاوة للقرآن ، فباب الله مفتوحٌ للكل . . يجب أن نستعدَّ للموت بطاعة الله ، أن نستعدَّ للموت بالتوبة إلى الله ، أن نستعدَّ للموت بالعمل الصالح ، ومفهوم الغِنى والفقر بعد العرض على الله ، هو الغنى غنى العمل ، والفقر فقر العمل .

هو المميت . . فأحياناً تجد أرضاً ميتة لعدم هطول الأمطار . . فقد رأيت صورة من إفريقية . شيء مخيف ، الأشجار يابسة ، والحيوانات كلُّها نافقة ، والشعب هجر الأرض وتركها لعدم سقوط المطر ، فأمات الجماد وأمات الحيوان وأمات النبات وهجَّر الإنسان ، تجد فلاحاً يملك بقرة ثمنها سبعين ألف وتموت فجأةً ، ففي ثانية واحدة أين ثمنها ؟ فقد ذهبت وذهب ثمنها . . فالحياة بيد الله عزَّ وجلَّ .

لذلك الله عزَّ وجلَّ مميت ، ليعلم الناس أنَّ الله قادرٌ على التصرُّف بالإحياء وبالإماتة متى شاء ومتى أراد .

جاء من أمريكا وهو يحمل شهادة الدكتوراه والبورد ، أنزل حقائبه من السيارة ، ولم يكن السائق منتبهاً فرجع للخلف فصدمه وحصره بين السيارة والجدار ، ومات .

أو يموت يوم عرسه ، أو يوم أخذ شهادة ، فالقصص غريبة واعظةٌ مؤثرة .

هناك إشكالٌ في موضوع المميت.. إذا كان الله تعالى هو المميت ، فما معنى قوله تعالى :

﴿ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ [السجدة : ١١] .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ أيضاً :

يجيب بعض العلماء عن هذا التساؤل : خَلقُ الموت في الحقيقة من الله عزَّ وجلَّ ، خلق فعل الموت من الله ، لكنَّ الموت في عالم الأسباب مفوَّضٌ إلى ملك الموت .

الفاعل في الحقيقة هو الله ، أحياناً يضاف ملك الموت إلى فعل الموت ، أو يضاف إلى الأعوان.. ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ .

إذا قال الله عزَّ وجلَّ.. ﴿ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ﴾.. الفاعل الحقيقي هو الله ، أما في عالم الأسباب فعن طريق ملك الموت أو..

﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ .

ففي الحقيقة الله المتوفِّي ، وفي المجاز توفَّاه ملك الموت ، أو توفَّته رسلنا ، إلا أنَّ الموت ورد في القرآن الكريم بمعانٍ متعدِّدة ، وهي خمسة معانٍ تقريباً .

أولاً.. الموت : انعدام القوَّة النامية في الإنسان والحيوان والنبات لقوله تعالى :

﴿ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ﴾ [الحديد : ١٧] .

حينما تنمو الأرض بالنبات فهذه هي الحياة ، وحينما لا تنمو بالنبات فهذا هو الموت.. وهذا هو المعنى الأول للموت .

المعنى الثاني.. زوال القوّة الحساسة في الإنسان كما جاء في القرآن الكريم على لسان السيِّدة مريم :

﴿ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا﴾ [مريم : ٢٣] .

يا ليتني لم أُحِسَّ بهذا الحمل .

النوع الثالث.. زوال القوّة العاقلة كما قال تعالى ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ ، كان مغفَّلاً وكان جاهلاً فاستيقظ وأصبح حيّاً ، فعدم النماء موت ، عدم الإحساس موت ، عدم الإدراك موت .

النوع الرابع.. الحزن والألم والكدر ، والضيق موت قال تعالى :

﴿ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ﴾ [إبراهيم : ١٧] .

الطريق مسدود ، فالبيت جحيم ، والشغل متوقِّف ، أصدقاء تخلَّوا عنه ،ويأتيه الموت من كل مكان ﴿ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ﴾.. انعدام السعادة انعدام التوفيق ، انعدام الحفظ ، انعدام النجاح في الحياة ، الطرق كلها مسدودة.. موت ، يقول لك : الحياة مثل الموت هذا النوع الرابع .

النوع الخامس.. النوم ، فالنوم موتٌ خفيف ، والموت نومٌ ثقيل : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « إِذَا أَوَى أَحَدُكُمْ إِلَى فِرَاشِهِ فَلْيَنْفُضْ فِرَاشَهُ بِدَاخِلَةِ إِزَارِهِ فَإِنَّهُ لا يَدْرِي مَا خَلَفَهُ عَلَيْهِ ثُمَّ لِيَضْطَجِعْ عَلَى شِقِّهِ الأَيْمَنِ ثُمَّ لِيَقُلْ بِاسْمِكَ رَبِّي وَضَعْتُ جَنْبِي وَبِكَ أَرْفَعُهُ إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ » . [صحيح البخاري] .

فأحدنا إن نام إما أن يصحو من النوم أو لا يصحو ، فإذا لم يصحُ من نومه نسأل الله أن يرحمه ، وإذا صحا من نومه نسأل الله أن يحفظه من المعاصي ، قال تعالى :

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر : ٤٢] .

حظُّ المؤمن من اسم المميت أن يذكره كثيراً ، قال عليه الصلاة والسلام : « **أكثروا ذكر هاذم اللذات : الموت ، فإنه لم يذكره أحد في ضيقٍ من العيش إلا وسعه عليه ولا ذكره في سعة إلا ضيقها عليه** » [ابن حبان] .

وقال ﷺ : « **عش ما شئت فإنَّك ميِّت ، وأحبب من شئت فإنَّك مفارقه ، واعمل ما شئت فإنَّك مجزيٌّ به ، وأعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل وعزه استغناؤه عن الناس** » .

وعَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ** » [سنن ابن ماجه] .

إنَّ أكيسكم ـ يعني أعقلكم ـ أكثركم للموت ذكراً ، وأحزمكم أشدَّ استعداداً له ، وإنَّ من علامات العقل التجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والتزوُّد لسكنى القبور ، والتأهُّب ليوم النشور .

* * *

المُقدِّمُ، المُؤخِّرُ

من أسماء الله الحُسنى المقدِّم والمؤخِّر .

شاءت حكمة الله ـ جلَّ جلاله ـ أن يكون الناس درجاتٍ في حياتهم الدنيا قال تعالى :

﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [الإسراء : ٢١] .

من حيث الشكل ؛ أشكال متباينة ، ومن حيث المال ؛ مستويات متباينة ، من حيث القوَّة ؛ مستويات مختلفة ، من حيث الذَّكاء ؛ مستويات متفاوتة ، فربنا عزَّ وجلَّ قدَّم إنساناً وأخَّر إنساناً .

إنَّ الإنسان مكلَّف ، وهو مخيَّر فيما كُلِّف ، لكنَّه مسيَّر في أشياء كثيرة ، فالإنسان مسيَّر من حيث والداه ، من حيث مكان ولادته ، من حيث زمن ولادته ، من حيث قدراته من حيث إمكاناته ، أشياء كثيرة قدرها الله عزَّ وجلَّ على الإنسان لكن يجب أن يعلم الإنسان علماً يقينياً أنَّ هذا الذي قدَّره الله عليه لصالحه ، وليس في الإمكان أبدع مما كان ، وإذا كُشِف الغطاء اخترتم الواقع ، فالإنسان إذا صدَّق الله عزَّ وجل وعلم أنَّ حكمة الله حكمةٌ مطلقة ، وأنَّ حكمته تقتضي أنَّ كلَّ شيءٍ لو كان على غير ما كان عليه لكان نقصاً في حكمة الله إذا أيقن بهذا يرضى ويستسلم .

قد يفضل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إنساناً بالشكل ، وقد يفضّله بالذكاء ، وقد يفضِّله بالمال ، أو يفضِّله بالقوَّة ، أو يفضِّله بأن يكون ابناً لملك ، أو يكون ابناً لإنسان فقير ، فالله عزَّ وجلَّ يقدِّم ويؤخِّر ، إما أنَّه يقدِّم رُتبةً أو أنَّه يقدِّم زمناً. . . ، فقد نجد أنفسنا في يوم واحد نذهب لنعزي أناساً في ميِّت ، وفي اليوم نفسه قد نذهب ونهنىء أُناساً آخرين بمولودٍ جديد ، من قرر أنَّ هذا الذي توفَّاه الله اليوم مثلاً وِلد قبل هذا الذي ولد اليوم بسبعين سنة ؟ تقديم زمني ، وتقديم رُتبي ، فالله عزَّ وجلَّ هو المقدِّم وهو المؤخِّر .

إذا أيقنت بحكمته ، وإذا أيقنت برحمته ، وإذا أيقنت بعدالته تستسلم وترضى .

فأولاً : « التقديم كما قال بعض العلماء ضدُّ التأخير ، والمقدِّم لُغةً هو الذي يقدِّم الأشياء ويضعها في موْضعها ، فمن استحقَّ التقديم قدَّمه ». . وبعد فلدينا معنى جديد وهو أن الله يقدِّم استحقاقاً ، ويؤخِّر استحقاقاً ، يقدِّم رتبةً استحقاقاً ويؤخِّر رتبةً استحقاقاً ، ويوجد مع التقديم حكمة ، ومع التقديم عدالة ، ومع التقديم علم .

والله تعالى هو المقدِّم الذي قدَّم الأحبَّاء بخدمته. . فهل من الممكن أو من المعقول أنَّ إنساناً خطب ودَّ الله عزَّ وجلَّ ولا يقدِّمه الله ؟! إنسان أطاع الله والله لا يقدِّمه ؟ فإذا لم يقدِّم الله عزَّ وجلَّ الطائعين فقد استوى عند الناس الطائع والعاصي ، فالطائع عندئذ فقد الباعث والحافز ، والعاصي فقد الرادع ، وإذا لم يقدِّم الله الطائع ولم يؤخِّر العاصي ، وإذا لم يقدِّم المحسن ولم يؤخر المسيء ، وإذا لم يقدِّم المستقيم ولم يؤخر المنحرف ، وإذا لم يقدِّم

الرحيم ولم يؤخر القاسي.. فالرحيم يَملُّ من عمله والمنحرف يستمرىء عمله .

لذلك هناك في علم التربية قاعدة أساسيّة.. ما لم يُكافأ المحسن ويُعاقب المسيء فالأمور تصبح فوضى . على مستوى مدرسة ، على مستوى مشفى ، على مستوى معمل.. فمثلاً يتأخر عامل كل يوم ساعة ولا يعاقب ، وعامل ينضبط أشدَّ الانضباط ولا يكافأ ! بعد حينٍ نجد المنضبط يتفلّت والمقصِّر يزداد تقصيراً .

فكأن اسم المقدِّم والمؤخِّر مرتبطٌ باسم المربي.. والله يقدِّم ويؤخِّر ، فهل من المعقول أنك شابٌّ تستقيم ولا يقدِّمك ؟ ليس هذا معقولاً بل يقدِّمك ويكرمك ، فالله عزَّ وجلَّ قال :

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ [الشرح : ١ـ٤] .

فهل تجد إنساناً الأرض يُذكر مع الله إلاّ رسول الله ﷺ ؟ ألا تقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله ؟ ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ . كلمة محمد ﷺ الآن في العالم كم إنسان يذكرها ؟ ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ تذكر في الأذان خمس مرات كلَّ يوم ملءَ الجو وفي الصلاة عند كلِّ تشهُّد ملءَ النفس .

... الله تعالى هو المقدِّم الذي قدَّم الأحباء بخدمته.. أجل لقد قدَّمهم ، يريد الله من المؤمنين أن تكون معنوياتهم عالية ، لقد ذهب إلى الطائف بعد أن أخرجته مكَّة وكذَّبته ونكَّلت بأصحابه ، ذهب إلى الطائف يستنصرهم فكذَّبوه وردّوا دعوته وسخروا منه وأغروا سفهاءهم

بإيذائه ، فلما عاد قال له سيِّدنا زيد : يا رسول الله أتعود إلى مكَّة وقد أخرجتك ؟ قال : إنَّ الله ناصر نبيِّه .

حينما كان في طريقه إلى الهجرة تبعه سُراقة بن مالك قال : كيف بك يا سُراقة إذا لبست سواري كِسرى ، معنى ذلك أنَّ النبيَّ ﷺ واثقٌ من نصر الله عزَّ وجلَّ ، فأنت كمؤمن يجب أن تؤمن أنَّك إذا استقمت على أمر الله ، وإذا أحببته وإذا أخلصت له ، وإذا أقبلت عليه فلا بدَّ من أن يُقدِّمك أبداً . . هكذا حكمة الله وهكذا عدالته وهكذا رحمته .

قال العلماء : « **الله تعالى هو المقدِّم قدَّم الأحباء بخدمته ، وعصمهم من معصيته** » . وقال بعض العارفين : « **المقدِّم هو الذي قدَّم أحبابه وأسعدهم بالفهم والحِكم ، والذي قدَّم العارفين على الجاهلين** » . الله عزَّ وجلَّ قال :

﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : ٩] .

ليس هناك نسبة . . فهل يكون الطائع كالعاصي ، أو أن تجد إنساناً مستقيماً كالمنحرف ، فالله يقدِّم المستقيم ويدافع عنه .

فقد حدَّثني أخ يعمل في دائرة له مدير غير ملتزم إطلاقاً ، لكنَّه يحترم هذا الموظَّف أشدَّ الاحترام لأنه ملتزم ، ويتورَّع هذا المدير عن أن يرتكب مخالفة للشرع أمام هذا الموظَّف . . ففي ظاهر الأمر أنَّ هذا موظف بسيط والمدير لا شك أعلى مرتبة منه ، فانظر إلى الأعلى يحترم الأدنى لدينه ، فالله قدَّمه ، فبدينك واستقامتك قد تكون مكانتك أعلى من مرتبتك .

قد يكون هناك في البيت شاب ، وله أربعة أو خمسة إخوة متفلتون يأتون في ساعة متأخرة ليلاً لهم أصدقاء وأصحاب منحرفون ، هذا

الشاب الورع المستقيم له مكانة في البيت لا تقل عن مكانة والده ، هذا مقدَّم. . الله قدَّمه ، كل إنسان في عمله وفي حيِّه وفي أسرته إذا كان مستقيماً له اتصال بالله عزَّ وجلَّ الله يقدِّمه ، هو المقدِّم .

قال العلماء : قدَّم العارفين على الجاهلين وفتح لهم أبواب اليقين ، قدَّم العلماء على الجهلاء ، وجعلهم نجوم الاهتداء ، . قدَّم رسول الله ﷺ بدءاً وختاماً .

سيِّدنا عمر عندما وقف على المنبر ليخطب بعد أن تولى الخلافة نزل درجة ، وقال : ما كان الله ليراني أضع نفسي في مقام أبي بكر. . معنى ذلك أنَّ مقام أبي بكر محفوظ أشدَّ الحفظ .

الله عزَّ وجلَّ قدَّم رسول الله ﷺ على كلِّ الرسل والأنبياء ، قال تعالى مخاطباً رسله وأنبياءه :

﴿ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ﴾[آل عمران : ٨١] .

قدَّمه ليلة الإسراء حيث صلَّى بجميع الأنبياء. . أريد أن أستخلص من هذا الشرح أنَّك لك مكانة عند الله بحجم عملك الصالح ، هذه المكانة تنالها بدقةٍ بالغة وبعدالةٍ مطلقة ، لا يمكن أن يستوي عند الله إنسانان متفاوتان في عملهما أبداً ، إذا كان عملك أصلح فمرتبتك أعلى ، ورعك أكثر فمرتبتك أعلى ، محبَّتك أسمى فمرتبتك أعلى ، استقامتك أدق فمرتبتك أعلى ، فقد قال تعالى :

﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴾ [الأنعام : ١٣٣] .

كل واحد منا له عند الله مرتبة. . له درجة ، له مكانة من خلال هذه المكانة يعامل ، قد نرى إنساناً أثيراً عند الله ، وقد نرى إنساناً

هيِّناً على الله ، فالكفار لهم صغارٌ عند الله . . قال تعالى :

﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴾ [الكهف : ١٠٥] .

يسقطون من عين الله ، هناك أناس إذا أرادوا أراد . دعاؤهم مستجاب .

فالله يقدِّم . . وإذا قدَّم الله فالأمر عجيب ، وإذا ألقى محبَّتك في قلوب الخلق هذه سعادة كبيرة جداً ، الإنسان المؤمن كيفما تحرَّك يكون محبوباً ، كيفما مشى يكون محترماً ، في غيبته يُثنى عليه ، وفي حضرته يُثنى عليه ، فالله قدَّمه . . لماذا قدَّمه ؟ لعمله الصالح ، لطهارته ، قدَّمه لإخلاصه وقدمه لاستقامته ، الله مقدِّم ومؤخِّر .

يؤخِّر إنساناً . . هو يعمل لكن في عمله شرك خفي ، هو يعمل ليرضي زيداً أو عُبيداً ، لكنه لا يستطيع أن يرضى زيداً أو عُبيداً ، فيؤخِّره الله عزَّ وجلَّ ، إما أن يؤخِّره رُتبةً ، أو أن يؤخِّره زمناً .

في القرآن الكريم في سورة ق قال تعالى :

﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [ق : ٢٨ـ٢٩] .

أتظن أن الله عزَّ وجلَّ يظلمك ؟ ! أو يبخسك عملك ؟! أو يضعك في مكانة تستحق أعلى منها ؟! أو يطمس لك تألُّقك ؟ هذا شيء مستحيل ، أنت بعلمك وعملك وإخلاصك واستقامتك تحتلُّ عند الله مرتبةً تتناسب مع أحوالك .

فمثلاً . . أتجد إنساناً قوياً جداً ، وتقول له : افعل بي ما تشاء ؟ لا يمكن ، فلعل عندك أخطاءً سابقة ، فينتقم منك انتقاماً شديداً ، أما سيِّدنا هود فقد قال لقومه :

﴿ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود : ٥٥ـ٥٦] .

الإنسان يمتحن مكانته عند الله بالدعاء ، يقع في أزمة وفي شدَّة ، فيدعو الله بإخلاصٍ شديد ، فإن استجيب له معنى ذلك أنَّ له شأناً عند الله ، كما قيل : ابتغوا الرفعة عند الله .

بعض الناس يبتغي الرفعة عند الخلق . . يُحسِّن بيته ، يزيِّن بيته ، ويشتري أثاثاً فخماً ، ويركب مركبةً فخمةً ، ويرتدي ثياباً قشيبة غالية ، يزهو بثيابه بمركبته ببيته ، هو يحاول أن ينتزع إعجاب الناس بهذه المظاهر الفارغة يسعى ليسمو مكانةً عند الناس ، ومن علامات آخر الزمان أنَّ قيمة المرء متاعه .

عشرة أشخاص يملكون مركبات من مصنع واحد لكن يتباهون . . فهذه مرسيدس مئة وتسعون ، وهذه مئة وثمانون ، وهذه مئتان وثمانون ، هذه ستمئة . . فالإنسان ينتزع مكانته فقط من مركبته ، من موقع بيته ، من مساحة بيته ، من ثيابه ، وهذا كله من علامات تخلُّف المجتمع ، القول الرائع النافع : « ابتغوا الرفعة عند الله » .

سُلَّمُ الرفعة عند الله بيد كلِّ إنسان ، فهو بيدك . . ألا تستطيع أن تقيم الإسلام في بيتك ؟ ألا تستطيع أن تقيمه في عملك ؟ ألا تستطيع أن تضع متع الدنيا ومغرياتها تحت قدميك إرضاءً لله عزَّ وجلَّ ؟ ألا تستطيع أن تكون صادقاً ، ألا تستطيع أن تصلِّي الصلوات على وقتها ؟ ألا تستطيع أن تضبط لسانك ؟ أن تضبط جوارحك ، أن تربي أولادك ؟ سلّم الرفعة إلى الله بيد كل واحد ، فالقول الدقيق ابتغوا الرفعة عند الله ، هذا هو العاقل ، إن هذه الرفعة تراها شيئاً لا يُقدَّر

بثمن حينما ينتهي الأجل قال تعالى :

﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾ [يس : ٢٦-٢٧] .

الله هو الذي يقدِّم . . أنت تقدِم على الله فيقدمك ، وتتأخر عن الله فيؤخرك ، إذا أخلص الإنسان لله ألقى الله في قلب الناس محبته وهيبته ، من اتقى الله هابه كل شيء ، والإنسان إذا ازور عن الله ، وأعرض عنه انتزع هيبته من قلوب الخلق ، تطاولٌ ، مزاحٌ رخيص ، يمزح معه مَن هو دونه وقد ينال من كرامته .

المؤمن لا يبتغي الرفعة في الدنيا بل يبتغي الرفعة عند الله ، لكن الله عزَّ وجلَّ أجلّ وأكرم من أن يكافئه في الآخرة فحسب ، ويدعه في الدنيا هيناً ، فالدنيا تأتيه وهي راغمة تكرمةً له من ربه .

مادام الله عزَّ وجلَّ يقدم ويؤخر ، أنت كعبد ألا تستطيع أن تتخلق بالكمالات التي تليق بالإنسان ؟ أنت أمام ألف خيار ما الذي ينبغي أن تقدمه ؟ وما الذي يجب أن تؤخره ؟ المؤمن الصادق يقدم أعمال الآخرة ، ويؤخر أعمال الدنيا .

إذا كان منهمكاً في عمل ودخل وقت الصلاة ، فإذا أخر الصلاة وتابع العمل فقد تخلف عن أن يكون الأول عند الله ، أما إذا قدم عمل الآخرة وأخر عمل الدنيا فيكون قد عرف قيمة الدنيا ، وعرف أنها مزرعة الآخرة ، فكن ممن يقدم الأعمال الصالحة ففيها رفعة شأنك ، ومن آثر الآخرة على الدنيا خسر الدنيا والآخرة .

هناك أشخاص أرى نفسي معجباً بهم ففي حياتهم أولويات ، مثلاً حفاظه على أوقات صلواته ، طلبه للعلم ، طاعته لله عزَّ وجلَّ ، فقد برمج حياته كلّها وفق هذه الأهداف ، ووقته الزائد يصلح فيه شأن

دنياه ، فلن يؤثر نزهة على صلاة الجمعة ؟ ولن يقدم جلسة تافهة على مجلس علم ؟ دنياه مرتبتها الثانية في كل أحواله ، يؤثر مرضاة ربه على سائر متطلباته .

مامعنى مقدم ومؤخر ؟ لقد تحدَّثنا قبل قليل عن أن الله جلّ جلاله يقدّم ويؤخر. . يقدم الصالح ويؤخر الطالح ، يقدم العالم يؤخر الجاهل ، يقدم المحب ويؤخر المبغض ، ويقدّم الطائع ويؤخر العاصي ، يقدم المقبل ويؤخر المعرض ، يقدم مرتبةً ويقدم زمناً ، وهذا كله عدل منه سبحانه .

إذا أدركت أنك عبد لله حقاً فما حظك من هذا الاسم ؟ أنت أمام خيارات كثيرة يجب أن تقدم ما كان لله ورسوله ، أن تقدم ما كان للآخرة ، تلاحظ بائعاً مثلاً لديه زبون فيهتم به اهتماماً بالغاً ، فلو طلب منه شخص خدمة لله ، فما دام عنده تجارة رابحة ، يقول له : « مشغول ليس لدي فراغ » ، أي هو بحسب رؤيته أن هذه التجارة تأتيه بربح وفير ، وأما السائل فلربما يدعو له ، فماذا سيجني من الدعوة ؟ أما لو عرف قيمة حياته الدنيا وعرف أنها مزرعة الآخرة ، لأقبل على العمل الصالح أكثر من إقباله على الربح المادي .

وثق أن هناك أشخاصاً يقدمون خدمات لله دون أن يرجو من الناس أجراً ، وإذا علموا فأعطيتهم أجراً لتألّموا أشدَّ الألم ، ولسارع قائلاً لك : أنا فعلت هذا لله ، لا أريد جزاء ولا شكوراً .

قال لي يوماً أخ كريم. . لديه أزمة في قلبه ، يحتاج إلى عملية ، تكلف مبلغاً ضخماً ـ فوق الثلاثمئة ألف ـ تلقى اتصالاً هاتفياً من امرأةٍ محسنة ، قالت له اتصل غداً بالطبيب الفلاني إنه سيجري لك العملية

مجاناً ، دفعت ثمن العملية . . . . . . وهناك إنسان آخر يقيم احتفالاً يكلف ملايين ليزهو أمام الناس ويضنُّ أن يتصدَّق بمئة ليرة .

الذي قدَّم العمل الصالح كان مقدَّماً عند الله ، والذي قدم شهواته على أعماله الصالحة كان مؤخراً عند الله ، فالله سبحانه وتعالى يقدِّم ويؤخِّر .

في الحقيقة يجب أن يكون مسارك في الحياة واضحاً جلياً . . فكثيرة هي المقاييس الماديَّة ، فإنسان يتقدَّم بماله ، يتقدم بمرتبته ، أحياناً يتقدم بنسبه ، أو بقوَّته ، يتقدم بذكائه ، يتقدَّم تقدماً مبدئياً ، أو تقدُّماً مؤقَّتاً ، فإن لم يكن مطيعاً لله أخَّره الله ، هذا التقديم تقديم امتحان ، أو تقديم استدراج ، إن لم يكن في مستوى هذا التقديم أخره الله عزَّ وجلَّ ، إما أن يؤخره بفضيحةٍ ، أو بكفِّ يدٍ ، أو بإهمالٍ وإزراء ، أو بخطإٍ فاحشٍ يرتكبه يعاقب عليه ، أما المؤمن فدائماً خطُّه البياني صاعدٌ صعوداً مستمراً . . .

فالكافر قد يصعد خطُّه البياني صعوداً حاداً ليسقط سقوطاً مريعاً ، أما المؤمن فصعد خطه صعوداً منتظماً بطيئاً مستمراً ، وهذا الصعود إلى أبد الآبدين ، الله مقدم ومؤخِّر ، يقدم أُناساً ويؤخِّر أُناساً .

كلُّكم يعلم قصة سيدنا عبد الله بن رواحة عندما عيَّنه النبي ﷺ قائداً ثالثاً لجيشٍ مؤتة ، وكيف أنَّ القائد الأول سيدنا زيد تقدَّم وأخذ الراية فقاتل بها حتى قُتل ، وقد قال عنه النبي ﷺ : إني لأرى مقامه في الجنة ، وكيف أنَّ سيدنا جعفراً رضي الله عنه أخذ الراية بَعْدَهُ وتقدَّم بها فقاتل حتى قُتل ، وقال عنه النبي ﷺ : وإني لأرى مقامه في الجنة ، وتروي بعض الروايات أنَّ القائد الثالث سيِّدنا عبد الله بن

رواحة لما رأى صاحبيه قُتلا في وقتٍ قصير تردد في أخذ الراية ، وقال بيتين من الشعر :

يـا نفـسُ إلا تُقتلـي تمـوتـي هـذا حِمـام المـوت قـد لَقيـتِ
إن تفعلـي فعلهمـا رضيـتِ وإن تـوليـتِ فقـد شَقيـتِ

حدَّث النبي ﷺ أصحابه عن سيدنا زيد وسيدنا جعفر ثم سكت . قال أصحابه من الأنصار : يا رسول الله ما فعل عبد الله بن رواحة ؟! قال : ثم أخذها عبد الله بن رواحة ، فقاتل بها حتى قُتل شهيداً ، فرأيت في سرير عبد الله ازوراراً عن سرير صاحبيه. . . . . لأنه تردد. . فالله يقدم ويؤخر .

قال ﷺ : « ما نفعني مال ما نفعني أبي بكر »

وقال ﷺ « لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً. . .ولكن أخي وصاحبي في الله. . . سدوا كل خوخة في المسجد غير خوخة أبي بكر »

وعن عمر : أبو بكر سيدنا وخيرنا وأحبنا إلى رسول الله ﷺ .

فالله قدمه. . ما أخذ رسول الله ﷺ من أحدٍ ماله كلَّه إلا أبا بكر

وقال ﷺ « إن من أمنِّ الناس علي في صحبته وماله أبو بكر. . »

لذلك أنت حينما تعتمر تقف أمام مقام النبي ﷺ ثم تقف أمام مقام سيدنا الصديق ، ثم أمام مقام سيدنا عمر .

وقـال رسـول الله ﷺ فـي حقِّهمـا : « هـذان السمـع والبصـر » [الترمذي] .

الله قدّمهما. . ففي كل مجتمع مقدَّم ومؤخَّر ، الله يقدم الطائع ،

فقد تجد إنساناً يعمل بلا ضجيج ، وهؤلاء الأتقياء الأخفياء يعملون بصمت ، يعملون بلا ضجيج ، يبذلون جهوداً كبيرة ، يعلِّمون ، يتصدقون ، يمسحون عن الناس جراحاتهم ، هؤلاء قد تراهم في الظل وفجأةً يتقدمون . . فالله قدمهم ، الله هو المقدِّم وهو المؤخِّر .

حتى في عملك إذا كنت من المحبوبين عند الله يقدمك في عملك ، يلهمك من الأساليب التي لا يلهمها غيرك ، يلهمك تصرُّفات لا يعرفها الآخرون ، يدافع عنك في غيبتك فهو المقدّم ، يقدمك .

ورد عن سفيان الثوري : **من قدم على أبي بكر وعمر أحداً فقد أزرى على اثني عشر ألفاً من أصحاب رسول الله ﷺ توفي رسول الله وهو عنهم راض .**

المؤمن إذا أراد أن يتخلَّق بكمالات الله ، يقدم أمور الآخرة على أمور الدنيا . . فقد تجد إنساناً مستعداً لأن يترك صلاة ومجلساً للعلم لإصلاح آلة تافهة في بيته . . أليس كذلك ؟ أو يترك صلاة ومجلس علم لاستقبال ضيف بسيط حديثه فارغ ، يستحي أن يقول له : لدي الآن درس وهيا نذهب معاً إلى المسجد لسماعه .

المؤمن إذا أراد أن يتخلَّق بكمالات الله يقدم أعمال الآخرة على أعمال الدنيا ، ففي حياته أولويات . . تلاحظ أن أصحاب الأعمال الناجحين أحدهم يمضي وقتاً معيناً يقرأ جريدة ، ويشرب كأساً من الشاي ، لكن إذا جاءه زبون ترك الجريدة وترك كأس الشاي ، وقام بإقناع الزبون بالشراء . . معنى ذلك أن هذا المحل تجاري وأساسه الربح ، فإذا جاء زبون يجب أن نهتم جميعاً به ، وليس من المعقول

أن ينتظر الزبون حتى تنتهي المقالة التي نقرؤها ؟ لا أحد يفعل ذلك ، الأهم على المهم ، وإذا أنت فعلت ذلك فمن باب أولى أن تقدم الأهم على التافه ، فأمور الدنيا تافهة .

قمنا بتشييع جنازة يوماً ودخلنا إلى المقبرة في الباب الصغير ، قلت لمن كان إلى جانبي : كل هؤلاء الموتى ماتوا وفي دفاترهم قوائم لأعمال طويلة وكثيرة لم تنتهِ بعد .

الإنسان يُنتزع من بيته ، من عمله ، لم يفرغ بعد من صب سقفِ لبيته ، أو لم ينتهِ من دراسته الجامعية ، فكل هؤلاء الموتى تركوا الدنيا وتركوا همومها ومتاعبها ، كما تركوا قوائم أعمال لم تشطب بعد.. فعلى الإنسان أن يقدِّم الآخرة على الدنيا .

ومن معاني المؤخر في حقِّ الله تعالى كما يقول بعض العارفين : الذي يؤخِّر المشركين.. القتلى المشركون في بدر.. جعل النبي ﷺ يُناديهم بأسمائهم ، وأسماء آبائهم : يافلانُ بن فلان ، ويا فُلان بن فلانُ ، أَيَسُرُّكم أنَّكُم اطعتُم الله ورسوله ؟ فَإِنَا قَد وجدنا مَا وَعَدنَا رَبّنُا حقاً ، فَهَل وجدتم مَا وعدَ ربكمْ حقّاً ؟ فقال عمر : يارسولَ الله ، ما تُكّلم من أجساد لا أرواح لها ؟ فقال النبيُّ - ﷺ - : والذي نفسُ مُحمد بيدِهِ ، مَاأَنتُم بأسمعِ لمَا أقولُ منهم . قال قتادة : أحياهم الله حتى أسمعهُم قولَهُ ، توبيخاً ، وتصغيراً ، ونِقْمة ، وحسرة ، وندماً ، [البخاري ومسلم] .

الله أخّرهم.. ماتوا حتفَ أنوفهم ، ماتوا كالجيف ، أما أصحابه الكرام فقد تألّقوا كالنجوم .

فنحن نذكر اسم سيدنا عمر مئات المرات ، ونترضى عنه كل يوم

وكل ساعة ، وفي كل مسجد ، وفي كل بلد إسلامي. . استحق ثناء الخالق والمخلوقين ، على حين أن هناك من استحقَّ لعنة الله والملائكة والناس أجمعين كأبي جهل وأمثاله .

قال : المؤخِّر في حقِّ الله تعالى هو الذي يؤخر المشركين ، ويرفع المؤمنين ، يؤخر العصاة ، ويرفع الطائعين .

روى ابن المبارك قال : حدثنا جرير بن حازم قال : سمعت الحسن يقول : حضر الناس باب عمر بن الخطاب رضي الله عنه وفيهم سهيل بن عمرو وأبو سفيان بن حرب وأولئك الشيوخ من قريش فخرج آذنه فجعل يأذن لأهل بدر : لصهيب وبلال وأهل بدر وكان يحبهم ، وكان قد أوصى بهم فقال أبو سفيان : ما رأيت كاليوم قط إنه ليؤذن لهؤلاء العبيد ونحن جلوس لا يلتفت إلينا فقال سهيل بن عمرو : ـ قال الحسن : وياله من رجل ما كان أعقله ـ أيها القوم إني والله قد أرى في وجوهكم فإن كنتم غضاباً فاغضبوا على أنفسكم دعي القوم ودعيتم فأسرعوا وأبطأتم أما والله لما سبقوكم به من الفضل أشد عليكم فوتاً من بابكم هذا الذي تتنافسون فيه ثم قال : أيها القوم إن هؤلاء القوم قد سبقوكم بما ترون ولا سبيل لكم ـ والله ! ـ إلى ما سبقوكم إليه! فانظروا هذا الجهاد فالزموه عسى الله عز وجل أن يرزقكم شهادة .

قال الحسن : فصدق والله! لا يجعل الله عبداً له أسرع كعبد أبطأ عنه .

الله قدم بلالاً وصهيباً وأخّر أبا سفيان. . أسلم متأخراً ورضي الله عنه ، ولكن ليسوا سواءً ، فمن خاض ضد رسول الله المعارك أكثر من

عشرين سنة ثم بعد ذلك أسلم ، كَمَنْ قام بنصره منذ البداية ؟! ، فهناك فرقٌ كبيرٌ جداً بينهما ، ولكلٍّ حسابه .

إذاً . . يؤخر المشركين ، ويقدم المؤمنين ، ويؤخر العصاة ويقدم الطائعين .

وأحياناً من معاني المؤخر . . أنه يؤخِّر العقوبة لحكمةٍ بالغةٍ ، قد يكون إنسانٌ مرتكباً لمعصية ، ومتلبساً بها ولكن في علم الله فيه خير ، لو أن الله عاقبه بمعصيته لأهلكه ، فالله عزَّ وجلَّ يعلم حقيقة نفسه فيؤخر عنه العقوبة فلعلَّه يتوب ، فيكون التأخير منه سبحانه لحكمةٍ بالغة .

لذلك فالمصائب خمسة أنواع : مصائب المنحرفين ، والعصاة ، نوعان . . مصائب قصمٍ ، ومصائب ردعٍ ، القصم كما قال الله عزَّ وجل عن قوم نوح :

﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ [هود : ٣٦] .

هناك أشخاصٌ في علم الله لا يهتدون ، لذلك يقصمهم الله عزَّ وجلَّ ، أشخاص فيهم بقيَّة خير ، فالله عزَّ وجلَّ يسوق لهم بعض الشدائد ليردعهم لكن لا يقصمهم ، فالله يقدِّم هلاك إنسان ويؤخر هلاك إنسان ، لذلك أخر فَتْحَ مكة قال الله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الفتح : ٢٥] .

أناس مؤمنون ضعفاء خافوا أن يُعلنوا إيمانهم في مكة ، فالله عزَّ وجلَّ أخّر فتح مكة ومنع الصحابة الكرام من قتال أهل مكة إكراماً

لهؤلاء.. معنى ثالث.. يقدم العقوبة أو يؤخرها ، يقدم المكافأة أو يؤخرها .

أحياناً قد يقدّم له الله المكافأة لإنسان ، فيرتاح ويقعد ويتوانى ويتكاسل ، وأحياناً يؤخر الله لإنسان المكافأة فييأس.. ولحكمةٍ أرادها الله يقدِّم المكافأة أو يؤخرُها ، يقدم العقاب أو يؤخره.. فمن أسمائه المقدِّم والمؤخِّر .

قال العلماء : متى أشرق في قلبك نور اسمه المؤخِّر ، صرت في كلِّ الأمور متدبِّراً فتؤخِّر كلَّ ما أخره الله ، فما أخره الله تؤخره ، وما قدمه الله تقدمه .

فالله يقدِّم ويؤخِّر.. وأنت كمؤمن من لوازم تأدُّبك مع اسم المقدم المؤخر أن تقدم أهل الإيمان ، وأن تؤخر أهل الدنيا ، فإذا دعي الإنسان العادي من قبل إنسانٍ غني تراه يلبي الدعوة مئة في المئة ، أما إذا دعي من قبل إنسانٍ فقيرٍ يسكن في أطراف المدينة اعتذر متعللاً بعمله وانشغاله وبعدم فراغه وأنه محمي عن الطعام.. تلبية دعوة الأغنياء والأقوياء من الدنيا ، وتلبية دعوة المؤمنين من الآخرة ، قال عليه الصلاة والسلام : « **لو أهدي إليَّ كراع لقبلت ولو دعيت عليه لأجبت** ».

والنبي عليه الصلاة والسلام بهذه المناسبة حضَّنا على تلبية الدعوة فقال : « **من لا يجب الدعوة فقد عصى الله ورسوله** » [رواه مسلم] .

روي أيضاً :

عَنْ نَافِعٍ قَالَ : قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **مَنْ دُعِيَ فَلَمْ يُجِبْ فَقَدْ عَصَى اللهَ وَرَسُولَهُ ، وَمَنْ دَخَلَ عَلَى غَيْرِ دَعْوَةٍ دَخَلَ سَارِقاً وَخَرَجَ مُغِيراً** » [سنن أبي داود] .

دعي أحد الصحابة ذات مرة إلى وليمة فقال : إني صائم ، فقيل له : اذهب معنا ، وصلِّ وقت طعامنا ، وقال ﷺ : « إذا دعي أحدكم وهو صائم فليقل : « إني صائم » وفي رواية قال : « **إذا دعي أحدكم فليجب ، فإن كان صائماً فليصل ، وإن كان مفطراً فليطعم** » [رواه مسلم] فإن الصلاة هنا الدعاء .

معنى ذلك أن ليس القصد من الدعوة أن تملأ البطن ، القصد من الدعوة أن تلتقي بإخوانك ، أن تجتمع إليهم ، أن تذْكُر الله معهم ، يعني أنَّك لو كنت صائماً فلبِّ الدعوة وإن لم تأكل شيئاً ، فإذا كان الهدف الأكل ليس للدعوة أية قيمة في أن يلبي صائمٌ الدعوة ، وأما إذا كان الهدف اللقاء مع إخوانك وأن تتذاكر معهم أمور الدين فالأكل أصبح شيئاً ثانوياً ، فإذا كنت صائماً فلبِّ الدعوة واجتمع إليهم وادعُ وقت الطعام ، فمن دعي ولم يلبِّ فقد عصى الله ورسوله ، من دعي ولم يلبِّ فقد عصى أبا القاسم .

عن أبي سعيد الخدري قال : **صنعت لرسول الله ﷺ طعاماً فأتاني هو وأصحابه فلما وضع الطعام قال رجل من القوم : إني صائم فقال رسول الله ﷺ : دعاكم أخوكم وتكلف لكم ثم قال له : أفطر وصم مكانه يوماً إن شئت** [البيهقي بإسناد حسن] .

إذاً المؤمن يقدم أهل الإيمان ، ودعوة أهل الإيمان .

سرّني أن أحد الأشخاص وصل إلى منصب رفيع جداً ، وزاره أستاذه وهو رجل علم ودين ، فنزل من الطابق الثالث وفتح له باب السيارة وبالغ في توقيره أمام الناس ، وإن من إجلال الله إجلال ذي الشيبة المسلم .

فأنت عندما تقدم أهل الإيمان تنعشهم ، ألم يقل رسول الله ﷺ : **« إن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم ، رضاً بما يصنع »** ، أنت عندما تتخلق بكمالات الله ، تقدم المؤمن وتجله ، وإذا وجدت فاسقاً أو فاجراً تؤخره ، تأخيرك إياه له معنى ردع له وتحجيم لحاله ، أمّا أكثر الناس فيعظمون أهل الدنيا ، ويثنون عليهم .

ولقد سمعنا عن أدباء في بلدٍ عربيٍّ مسلم من خلال كتاباتهم أنهم كانوا زُناة في أوروبة ، والآن يوصف بأنه الأديب الكبير ، المسرحي الكبير ، فهذا إنسان غير ملتزم بقيم دينه ، مقترف لأكبر المعاصي ، فأنت كمؤمن عليك أن تتخلّق بكمالات الله ، أن تقدم المؤمنين ، أن تقدم الورعين ، أن تقدم الأتقياء ، وأن تؤخر أهل الدنيا العصاة ، الفساق ، لأن الله عزَّ وجلَّ كما روي عن رسول الله ﷺ يغضب إذا مُدح الفاسق في الأرض .

أي إذا مدحت فاسقاً فإنك قلبت الأمور رأساً على عقب ، ابنك يعرفه مثلاً منحرفاً ، يعرف بيته متفلتاً ، وأنت تثني عليه أمام ابنك ، وابنك في الصف السابع. . . تقول عنه : ما شاء الله فهم وذكاء ولباقة وعلم وأدب وأسرة راقية ونسب مع أنه لا يصلي ،سلوكه منحرف وكلامه أحياناً بذيء ، والابن يراه أمامه ، فهذا المديح لأشخاص ينبغي أن يؤخَّروا استهتار منك وهدر للقيم ، أنت كمقدِّم يجب أن تقدم أهل الإيمان ، وكلّ إنسان يقدم أهل العلم وأهل الإيمان ، يكون ذا إيمان قوي ، وإذا وَجَدَ إنساناً عاصياً ومنحرفاً وفاجراً أخّره .

لذلك من السُّنَّة ألا تحترم المبتدع ، فالإنسان المبتدع عقيدته فاسدة ، ويروِّج فكراً منحرفاً ، ويروّج ضلالات . تحترمه وتعظمه

وتبجله وتثني عليه ؟ أنت أحدثت في الناس فتنة وبلبلت الأمور ، فإن الله ليغضب إذا مُدح الفاسق .

من تطبيقات هذا الاسم : يجب أن تقدم المستقيم المؤمن الورع ، فإذا كانت قيمنا مادية ، نقدم الأغنياء ، ونقدم الأقوياء ، أما إذا كانت قيمنا إسلامية نقدم أهل العلم ، تقدم أهل الفضل ، نقدم الورعين ، الطائعين .

عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ قُرَيْشاً أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَقَالُوا : مَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللهِ ﷺ ؟ فَقَالُوا : وَمَنْ يَجْتَرِىءُ عَلَيْهِ إِلا أُسَامَةُ حِبُّ رَسُولِ اللهِ ﷺ ؟! فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ » ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ فَقَالَ : « أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ ، وَايْمُ اللهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا » . [صحيح البخاري] .

هذا هو ديننا ، لو أن فاطمة بنت محمدٍ سرقت لقطعت يدها .

لذلك فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم . . فالنبي عليه الصلاة والسلام روي عنه : « اللهمَّ ! لا تجعل لفاجر عندي نعمة أكافيه بها في الدنيا والآخرة » .

لا تخضع لكافر ، لا تقبل منه عطاء أو نحوه كأن يقوم بإيصالك بمركبته ويستعلي عليك ، فأنت عزيز ، أما إذا كان مؤمناً فلا مانع من ذلك ، لكن إذا كان إنساناً منحرفاً ومتفلّتاً يمنّ عليك ويتفضّل عليك أوتقبل عطاءه ؟ لا فلا تقبل منه شيئاً .

قال العلماء : من أدب المؤمن مع اسم المؤخر . . أن يؤخر

حظوظ نفسه ، وأن يؤخر نزواتها ، أن يؤخر أهواءَها ، لا تتبع النفس هواها إنَّ اتباع الهوى هوان ، قال عبد الرحمن البرعي :

واخجلتي من عتاب ربي إذا قال لي أسرفت يا فلان
إلى متى أنت في المعاصي تسير مرخى لك العنان
عندي لك الصلح وهو برٌ وعندك السيف والسنان
ترضى بأن تنقضي الليالي وما انقضت حربك العوان

يجب أن تؤخر حظوظ النفس ، وقد ذكرت كثيراً : ضع حظوظ نفسك تحت قدميك ، إذا كنت تحب الله ورسوله .

قال أبو مريم السلولي لسيدنا عمر : أتحبني ؟ فقال له : لا والله لا أحبك حتى تحب الأرض الدم السفوح . فقال له : وهل يمنعك بغضك لي من أن تعطيني حقي ؟ قال له : لا والله ، إذن هو يعطي الحق لأصحابه .

بعض العلماء يقول : « **المقدم والمؤخر . . هو الذي يقدم من شاء ويؤخر من شاء على بابه** » .

ففي بعض الأيام يفتح لك بابه ، وفي بعضها الآخر يغلقه ، وأحياناً يحجبك ، وأحياناً يفتح قلبك ، ويتجلَّى عليك ، أولا يتجلَّى ، هو المقدم والمؤخر .

فأنت لا تكن عبد الفتح بل كن عبد الفتاح ، فالله إذا فتح فاحمد الله على ذلك ، وإن لم يفتح فأنت مستقيم ولا تضجر ، لا يفتح ، تعطيشاً لك ، ثم يفتح عليك فتحاً كبيراً ، يضر لينفع ، يأخذ ليعطي ، ويذل ليعز ، ويقبض ليبسط .

أحياناً يكون الإنسان صادقاً مع الله صدقاً من مستوى عالٍ ، فالله يقدِّم له قدرات تتناسب مع هذا الصدق .

فلدينا سؤال له جواب وهو : لم أعطى الله فلاناً قدرات عالية ولم يعطها لفلان ؟ يكون هذا المُعطى له طلبٌ عالٍ جداً ، الشاب إذا كان طموحاً جداً فيعطى إمكانات تتناسب مع طموحاته ، فالله إذا أخر وقدم فالتقديم أولاً متعلِّق بتطلعات الإنسان ومتعلِّق بحكمة وعدالة ، فقد تشعر بإنسان في نفسه طموحات عالية جداً ، هذه الطموحات تحتاج إلى قدرات عالية فيمنح هذه القدرات ، هذه القدرات قُدِّم بها ولكن لم يقدم بها ظلماً ، أو تخصيصاً لا معنى له ، بل قدم بها لسببٍ يعلمه الله عزَّ وجلَّ ، فكن أديباً مع الله عزَّ وجلَّ .

فإذا قدم الله عليك إنساناً في باب الخير معنى ذلك أن صدقه أكبر من صدقك ، ومعنى ذلك أن الله عنده علم أن هذا الشخص له قدم صدق عند ربه أعلى مما تتحلى أنت به ، من صدق .

قال العلماء : « هو الذي قدم الأبرار وأخّر الفجار ، قدم الأبرار وشغلهم به ، وأخّر الفجار وشغلهم بالأغيار » .

فإذا استرذل الله عز وجل عبداً شغله بالدنيا ، حتى لكأنه يعيش في قنوات المجاري ، أما إذا أحب الله عبداً شرَّفه بمعرفته ، فالنبي الكريم ﷺ منزلته بالأُفق الأعلى ، وهناك من يعيش في تفاهات الناس وقصصهم وخلافاتهم وصراعاتهم ، في قلبه حسد وغيرة ، ويدخل فيما لا يعنيه ، فإذا غضب الله على إنسان شغله بتوافه الأمور ، قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴾

[المؤمنون : ٣ـ٤]

اللغو كلُّ حديث فيما سوى مرضاة الله ، إن الله يحب معالي الأمور ويكره سفسافها ودنيّها ، فليلاحظ أحدنا ما الذي يشغله ؟ قد تشغله معرفة الله وخدمة الخلق ، ونشر الحق والأمر بالمعروف ، وقد تشغله هموم المسلمين ، وقد يشغله بيته ، وأثاث بيته وطلبات زوجته ونزوات أولاده ، فمن كان هذا مستواه فهو بالرثاء جدير ، فكلما كبر الإنسان عند الله عزَّ وجلَّ تكبر همومه ، وكلما صغر يصبح شغله الشاغل في تفاهاتٍ لا تقدِّم ولا تؤخر .

أحد العلماء يقول : « **المقدم والمؤخر هو الذي يقرِّب ويبعد ، يقرِّب أحبابه ، يبعد أعداءه** » .

فأكبر عقاب يناله أعداؤه أنه يلعنهم ، يحجبهم ، وأكبر مكافأة ينالها أحبابه أنه يتجلَّى على قلوبهم .

قال : « **يقرّب أنبياءه وأولياءه بتقريبهم وهدايتهم ، ويؤخر أعداءه بإبعادهم وضرب الحجاب بينه وبينهم** » .

الإنسان يوم القيامة يُنبَّأ بما قدم وأخر . . مثلاً استحق على هذا الإنسان زكاة ماله ، وبيته يحتاج إلى طلاء ، فإذا قدم أداء زكاة ماله فهو مؤمن ، أما إذا قدم طلاء بيته على أداء زكاة ماله ، فقد أخَّر ما ينبغي أن يقدِّمه ، وقدَّم ما ينبغي أن يؤخِّره . . ينبأ الإنسان يومئذٍ بما قدَّم وأخَّر .

بعض الناس قد يقدِّم مصالحه الشخصيَّة على دينه ، ويقدم دخلاً مشبوهاً على نزاهته ، يقدم شيئاً ينفعه في دنياه لكن يغضب ربَّه ، ينبأ الإنسان يومئذٍ بما قدَّم وأخَّر .

قد يقدِّم شهوته على طاعة ربه ، يُقْدِم على كسب مال غير مشروع

ويقدِّمه على طاعة ربّه ، وكل إنسان يوم القيامة يُنبَّأ بما قدَّم وأخَّر ، هذا قدمته وهذا أخرته ، هذا فضلته وهذا أهملته ، هذا أعطيته وهذا منعته ، هذه الشهوة فعلتها خلاف منهج الله ، وهذه الطاعة تركتها خلاف منهج الله ، فقد قال تعالى :

﴿ يُنَبَّؤُا الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (١٣) بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴾ [القيامة : ١٣ـ١٥] .

من أدعية النبي عليه الصلاة والسلام أنَّه كان يدعو ويقول :

« رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي كُلِّهِ وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطَايَايَ وَعَمْدِي وَجَهْلِي وَهَزْلِي وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ ، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ ، وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » . صحيح البخاري] .

قدِّم كل ما يُرضي الله وأخِّر شهوتك وكل ما لا يُرضي الله ، تكن من أسعد الناس في الدنيا والآخرة .

* * *

المَانِعُ

من أسماء الله الحُسنى المانع .

فالله سبحانه وتعالى مانع ، قد تفهم من كلمة مانع أنَّه يُعطي ويمنع ، يخفض ويرفع ، يُعزُّ ويذل ، ولهذا الاسم معانٍ كثيرة غير المعنى الأوليّ الذي يتبادر إلى ذهنك .

المنعُ في اللغة ضدُّ الإعطاء . . في البلاغة ما يسمَّى بالطباق . . كأعطى ومنع ، ضرَّ ونفع ، خفض وأعلى ، قبض وبسط ، هذه بالأفعال ، أما بالأسماء . . حرٌّ وقر ، عدلٌ وجور ، صالحٌ وطالح ، كريمٌ وبخيل . . إلى آخره . . إذا جاءت الكلمات متعاكسة في معانيها فهذا ما يسمَّى بالطباق ، فإذا جاءت مجموعة كلمات تعاكس مجموعة كلمات في جملة واحدة فهذا ما يسمَّى بالمقابلة .

فالمانع في اللغة . . المنع ضدُّ الإعطاء ، منع ضدُّه أعطى ، والمنع ضدُّ العطيّة ، يعطي أو يمنع ، والمعنى الذي قد لا يخطر في البال : هو المانع بمعنى الحماية . . يمنعك من خصومك ، يمنعك من أعدائك ، يمنعك من أن ينزل بك شر ، يمنعك من الأشرار ، يحميك ، يحفظك ، أنت في حمايته ، أنت في مَنَعة ، لا أحد يصل إليك ، لا أحد يستطيع أن ينال منك ، فهذا معنى آخر من معاني المانع .

المانع : هو الذي يمنعك من كلِّ ما يؤذيك ، يمنعك من العطب في دينك ودنياك ، الله عزَّ وجلَّ مانع للمؤمنين ، يدافع عنهم ويحفظهم ويوفِّقهم ، ويؤيِّدهم .

المانع مطلقاً . . هو الذي يجعل الحيلولة بين شيئين ، إنسان هجم على إنسان لينال منه ، فاحتمى بإنسان قوي ، فهذا القوي منع الأول من أن يعتدي على الثاني ، فهو مانع أي جعله في منعة وحماية ، وهذا غير معنى المانع ضدُّ المعطي ، المانع هو الحافظ .

قولهم . . حصنٌ منيع أي لا يستطيع أحدٌ أن يصل إليه ، فلانٌ في عزٍّ ومنعة ، أي هو عزيز ممتنع على من يرومه ، الشعور بالمنعة شعور رائع جداً تشعر أنَّك في حماية الله ، أنَّ الله معك ، أنَّ الله يحفظك ، أنَّ الله يؤيِّدك ، أنَّ أحداً لا يستطيع أن يصل إليك ، هذا الشعور يقابل الطمأنينة ، يقابل الشعور بالأمن .

الإنسان أحياناً يركب مركبة حديثةً جداً فيشعر بعدم وجود مشكلة فيها ولن تقطعه بالطريق ، وأحياناً يركب مركبةً قديمةً جداً وقد يصل بسلامة لكنه قلق طوال الطريق ، فالمنعة شعور بالأمن والاطمئنان ، عدم توقُّع المصيبة . . وقد قالوا : توقُّع المصيبة مصيبةٌ أكبر منها .

وقالوا : أنت من خوف الفقر في فقر ، وأنت من خوف المرض في مرض . لذلك فالله ـ عزَّ وجلَّ ـ إذا أراد أن يعاقب المعرضين ينزع من أحدهم شعور الأمن ، هم أغنياء وأقوياء وأذكياء ومع ذلك خائفون ، يقذف الله في قلوب المشركين الرعب بسبب شركهم ، وعلامة الإيمان الطمأنينة لأنَّك مع الله ، والله معك ، ومن كان مع الله لا يخشى أحداً إلا الله ، وللأنبياء مواقف صعب تفسيرها . . فهذا سيِّدنا

هود يخاطب قومه قائلاً لهم : ﴿ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

[هود : ٥٥ـ٥٦]

فبالنهاية لك مشاعر نفسيّة ، هذه المشاعر النفسيّة مهمةٌ جداً جداً في حياتك ، وفي معادك إلى الله ، لأنَّ هذه المشاعر الراقية تقودك إلى أن تعمل عملاً صحيحاً ، والعمل الصحيح سبب سعادتك في الدنيا والآخرة ، والمشاعر السوداويّة تثبِّط عزائمك ، ألأنسان أحياناً يصاب بمرض نفسي ، هذا المرض يقعده في البيت ، يمنعه من العمل ، فيلجأ إلى التدخين ، إلى المخدرات أحياناً ، وبهذا المرض النفسي يتوهَّم أنَّ الناس كلَّهم أعداؤه ، فالحالة النفسيّة مهمَّة جداً ، أهم شيء تعيشه حالتك النفسيّة ، فالمؤمن له حالة شعورية عالية جداً ، وأساسها أنَّه ممنوع ، أي أنَّ الله منع خصومه أن يصلوا إليه ، ومعنى قوله تعالى :

﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور : ٤٨] .

أي بحفظنا وتوفيقنا ورعايتنا .

المانع في أسمائه جلَّ ذكره هو الذي يمنع من يستحقُّ المنع ، ما كلُّ واحدٌ من الناس يستحقُّ المنع ، فهناك إنسان لا يستحقُّ المنع بل يستحقُّ أن يتورَّط ، يستحقُّ أن يكون مكشوفاً ، يستحقُّ أن يصل أعداؤه إليه ، فقد قال تعالى :

﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [الممتحنة : ٥] .

إذا لم يستقم الإنسان يفتن بالكفَّار ، ينالون منه ، لهم عليه ألف سبيلٍ وسبيل ، لأنَّ الله لم يمنعه ، لأنَّه ما استحقَّ المنع ، استحقَّ أن

يصلوا إليه ، استحقَّ أن ينالوا منه ، استحقَّ أن يتحكَّموا فيه ، استحقَّ أن يقهروه ، أما إذا كنت مطبِّقاً لمنهج الله ، إذا كنت مع الله عزَّ وجلَّ فأنت ممن يستحقّ المنع ، عندئذٍ يمنعك الله عزَّ وجلَّ .

وبعد ، فالعوامل الممرضة موجودة في الدنيا ، إنسان يصاب ، إنسان آخر لا يصاب ، الذي لم يُصب ممنوع من قبل الله عزَّ وجلَّ ، والذي أُصيب سمح الله لهذا الجرثوم ولهذا المرض أن يفعل فعله ، كلمة (ممنوع) شيء دقيق الدلالة جداً ، يعني أنت تحوطك رعاية الله ، لا يسمح الله لأحدٍ أن يصل إليك ، إنَّك معه ، هو يحميك . . فقد قال تعالى :

﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف : ٦٤] .

سبق أن ذكرت كيف أنَّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام اتجه إلى بني النضير مع ثُلّة من كبار أصحابه ليطالبهم بما عليهم من عهدٍ وقَّعه معهم ، فجلس في مكانٍ في حيهم وأسند ظهره إلى جدار بيت فائتمروا به بأن يصعد أحدهم إلى السطح ويلقي عليه صخرةً يقتله ويستريح منه الناس بزعمهم ، فجاءه الوحي بالخبر فنهض النبيّ ﷺ من مجلسه وتبعه أصحابه وفوّت الله على العدو تدبيرهم ، وأنت كمؤمن لن يأتيك الوحي ولكن يأتيك من الله إلهام .

امرأة صالحة تطهو طعامها في قِدْر تعمل بالبخار المضغوط يبدو أن فيها خللاً وصارت على وشك الانفجار ، وإذا انفجرت شيء مخيف جداً ، وقبيل أن تنفجر بدقيقةٍ واحدة قُرِع الجرس ، ذهبت لتفتح فلم تجد أحداً ، كان طفل صغير يلهو فقرع الجرس وهرب ، في أثناء فتحها للباب انفجرت القِدر ـ الطنجرة ـ فالله مانع ، منع المرأة أن تصاب بأذى .

إخوةٌ كُثُر.. حدَّثوني وكانوا في طريقهم في سفر، وبعد أن قطع أحدهم ألفاً وخمسمئة كيلو مترٍ من الطريق وأوقف السيارة أمام البيت، تفككت بعض قطع السيارة وتساقطت على الأرض لو أنَّها أصابها الخلل أثناء السير لهلكوا كلُّهم، من الذي منع وقوع الحادث؟ الله جلَّ جلاله.. الله يمنعك من الحوادث.

قال لي أحد الطلاب الذين يدرسون الطب.. ركب سيارة عازماً على السفر إلى محافظة إدلب.. فجاء إنسانٌ فظ غليظ وشأنه غير معقول فهو كالوحش، فتح الباب وبدلاً من أن يقول لهذا الطالب اسمح لي بهذا المقعد، وهذا الطالب حجمه صغير، فحمله ووضعه على الأرض وركب بدلاً منه وأخذ مكانه، فقال لي هذا الطالب: امتلأت غيظاً إلى حد كبير وغير معقول، ومضت ساعة ونصف حتى تمكَّن من ركوب سيارة أخرى، وعند قرية تفتناز ـ وهي إحدى قرى محافظات الشمال ـ وجدت السيارة الأولى قد تدهورت وفيها أربعة قتلى من ركابها الخمسة، والناس متجمِّعون حولها.. كان أحد ركاب تلك السيارة المنكوبة لكنه أرغم على النزول.. من الذي منعه وأنزله منها؟ الله جلَّ جلاله، إما عن طريق إلهام، أو عن طريق سبب آخر.

ولقد وقع قديماً حادثٌ بمكان سمعت أنَّ كل من كان في هذا المكان قُتلوا، ولي صديق موظَّف في المكان نفسه وتوقَّعت أنه في عداد القتلى، ثم فوجئت به في الطريق بعد أيام فسألته عن أحواله فقال لي: قبل خمس دقائق من الحادث خطر لي أن أشتري ربطة من الخبز من مكان قريب فخرجت، وأثناء غيابي وقع الحادث.

قد يحدث حريق أو انفجار لأسطوانة الغاز، أو يكون الشخص

بمطعم فتنفجر أسطوانة الغاز ويكون مقدراً لها أن تقتل عشرة أشخاص وفيهم شخص ممنوع فيخطر في باله الخروج لشراء شيء ما وأثناء خروجه تنفجر ، فليس هناك شيء يقع مصادفةً في الكون كله أبداً ، فالله عزَّ وجلَّ مانع. . يمنع الخطر .

لذلك فالمؤمن يشعر بطمأنينة لا يعلمها إلا الله ، لأنَّه لم يؤذِ أحداً ، ولم يكن سبباً في ألم إنسان أو ترويعه ، ولم يكن سبباً في ابتزاز إنسان ، أو سبباً في إدخال الرعب على قلب أحد ، لم يبنِ مجده على أنقاض الآخرين ، ولم يبن غناه على فقرهم ، بل هو محسن في كل عمل فالله عزَّ وجلَّ يمنعه. . فمن أسماء الله الحسنى المانع. . يمنع كثيراً. . وفي هذا المجال توجد أكثر من ألف واقعة وحادثة. . فأحياناً يكون سنتيمتر أو مليمتر أو دقائق بينه وبين الخطر. . فالله يمنعه وينجيه ، فاعتبروا ياأولي الأبصار .

قال العلماء : « هو الذي يمنع من يستحقُّ المنع » ، فكن أنت مستحقاً للمنع ، ما رأيت دعاءً يقطُر أدباً كدعاء النبي ﷺ :

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى الأَسْلَمِيِّ قَالَ : خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ : « مَنْ كَانَتْ لَهُ حَاجَةٌ إِلَى اللهِ أَوْ إِلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ فَلْيَتَوَضَّأْ وَلْيُصَلِّ رَكْعَتَيْنِ ، ثُمَّ لِيَقُلْ : لا إِلَهَ إِلا اللهُ الْحَلِيمُ الْكَرِيمُ سُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مُوجِبَاتِ رَحْمَتِكَ وَعَزَائِمَ مَغْفِرَتِكَ وَالْغَنِيمَةَ مِنْ كُلِّ بِرٍّ وَالسَّلامَةَ مِنْ كُلِّ إِثْمٍ ، أَسْأَلُكَ أَلا تَدَعَ لِي ذَنْباً إِلا غَفَرْتَهُ ، وَلا هَمًّا إِلا فَرَّجْتَهُ ، وَلا حَاجَةً هِيَ لَكَ رِضاً إِلا قَضَيْتَهَا لِي ، ثُمَّ يَسْأَلُ اللهَ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ مَا شَاءَ فَإِنَّهُ يُقَدَّرُ » [سنن الترمذي] .

أي كُن أهلاً للمنع فيمنعك الله من خصومك ، لن يسمح بك ، فسيدنا سُراقة بن مالك قبل أن يسلم أراد قتل النبي ﷺ ليأخذ مئة ناقة وضعت مكافأة لمن يأتي به حياً أو ميّتاً ، هل استطاع أن يصل إليه ؟ اقترب منه. . . غارت قوائم فرسه في الرمال ، مرة أولى ، وثانية ، وثالثة. . فعرف أن ممنوع من .

فإذا كان الله مع أحد فهنيئاً له ، فلا يخشى أحداً ، ولكن بأدب وليس بوقاحة كأن يقول : أنا لا أخاف من أحد. . فهذا من سوء الأدب ، اجعلها بينك وبين ربّك .

فإذا كنت مع الله كان الله معك ، إذا كنت مع الله أشعرك بالأمن وأشعرك بالمودَّة. . إذاً هو الذي يمنع من يستحقُّ المنع .

قال العلماء : هو يمنع أهل دينه. . هل تجد إنساناً ينتمي إلى جماعة متنفذة وليس له ميِّزات ؟ مستحيل. . فكيف إذا انتميت إلى أهل الله ؟ أو إلى الدين ، ليكن انتماؤك إلى الله فهو الركن الركين .

أحد العلماء المشاهير في إحدى الدول العربيَّة ، أراد أن يجري عمليّة في بريطانيا ، فوضعت أربع طائرات في خدمته ليختار إحداها ، وصل إلى بريطانيا وأجريت له العملية ، ولم يلبث أن وصلت إليه هواتف كثيرة ورسائل بأعداد غير معقولة ، وبالآلاف مما لفت إليه أنظار المسؤولين ، وأجرى معه مذيع من إذاعة لندن مقابلة ، قائلاً له : ما هذه المكانة التي تتمتَّع بها ، الأمر غير معقول كأنك أسمى مكانة من الملوك. . سمعتها من شخص. . فبماذا أجاب ؟ هل سيقول : لأنني مخلص أحظى بهذه المكانة ، أو لأنني عالم ، أو

لأنني محبوب ؟.. هذا افتخار وادعاء.. ولكنَّه قال : لأنني محسوبٌ على الله .

كلمة فيها أدب بالغ جداً ، فهو قد قال : أنا لست أهلاً لذلك ، ولكنني محسوبٌ لا على أهل الأرض ولكن على رب السماء ، أنا محسوبٌ على الله .

المؤمن ربَّاني.. فقد تجد شخصاً ينتمي إلى فلان أوفلان أوفلان أي ينتمي إلى شيء مآله إلى الزوال.. انتهى أمره فهو مجيَّر لصالح فلان ، معروف كم هو سعرك ، أما أن تكون محسوباً على الله ؛ فحضره مكانة عليه . لا يليق بالإنسان أن يكون لغير الله ، ولكن كونوا ربَّانيين ، لا تكن لمصلحة زيد أو عبيد ، لمصلحة فلان أو علاَّن ، لا تكن محسوباً على أهل الأرض ، ولا على جهات الأرض ، ولا على قِوى الأرض ، ولا على تجمُّعات الأرض ، كن محسوباً على الله.. لكن الذي يحسب على الله يجب أن يكون مطيعاً لله .

إذاً هو الذي يمنع أهل دينه.. أي يحوطهم وينصرهم..

وقيل : هو الذي يردُّ أسباب الهلاك والنقصان في الأديان والأبدان.. كما كان يدعو النبيُّ عليه الصلاة والسلام : « **اللهمَّ! أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري ، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي ، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي ، واجعل الحياة زيادة لي في كلِّ خير ، واجعل الموت راحةً لي من كلِّ شر** » [رواه مسلم] .

قد يكون الإنسان مستقيماً ويمشي ببطء إلى الله.. والله عزَّ وجلَّ سيمنعه من التقصير.. وهذا معنى جديد.. فالمعنى الأول.. يمنع أي لا يُعطي ، والمعنى الثاني : يمنع أي يحفظ من الشر .

وإليك المعنى الثالث : يمنعك من التقصير.. فقد يكون أب حريص على أن ينال ابنه الدرجة الأولى ، ليس حريصاً على أن ينجح ابنه فحسب.. لا.. حريص على أن ينال الدرجة الأولى ، أكثر معالجات المؤمن أن يمنعه من التقصير ، فكلما قصَّر يأتي الله له بمشكلة ، كلما قصَّر يلوح له شبح مصيبة ، كلَّما قصَّر يحبط الله بعض عمله فيفرُّ المؤمن إلى الله عندئذٍ يتوب ويضرع .

فمن معاني اسم المانع.. يمنعك من النقص في دينك.. والله عزَّ وجلَّ هو الرب ، هو ربُّ العالمين .

وقيل : « **هو الذي يمنع البلاء حفظاً وعنايةً ، ويمنع العطاء عمن يشاء ابتلاءً وحمايةً** » .

لا يُعطي لأنَّه يعلم ، كما أنَّ الأب الطبيب الماهر الذي يعلم أنَّ ابنه مصابٌ بالتهابٍ في معدته ، وأنَّ هذه الأكلة تؤذيه ، يمنعه من هذا الطعام بحزمٍ وقسوةٍ ، والطعام شهي وطيِّب وإخوته يـأكلون في حضوره ، لكن الأب مصرٌّ على منع هذا الابن من هذه الأكلة الشهيَّة الطيِّبة لأنَّها تؤذي معدته ، فهو يمنعه.. فهذا المنع كان لحكمةٍ بالغة .

صاحب الحكم يقول : « **متى فتح الله لك باب الفهم في المنع ، عاد المنع عين العطاء** » .

أحياناً قد يبعدك الله عزَّ وجلَّ عن مجال معين ، لأن هذا المجال فيه دنيا ، كأن يعمل شاب في محل تجاري فخم والراتب مُغرٍ جداً ، والبيع للنساء وهو شاب في أوَّل نشأته ، ومقاومته هشَّة ضعيفة ، فلسببٍ أو لآخر يصرفه صاحب العمل ، ما وافق وضعه صاحب

المحل فوضع دونه شرطاً تعجيزياً ، أو لعدم التزامه صرفه ، فيبدو آنياً أنَّه قد منع من هذا المرتب الضخم ، ولكن هذا المكان مكانٌ موبوء وهذا الشاب طاهر ومقاومته هشَّة لا تحتمل هؤلاء الغاديات والرائحات ، فالله عزَّ وجلَّ صرفه عن هذا العمل ، وهو في ظاهر الأمر وباطنه منعه. . والأمثلة في هذا المجال كثيرة لا حصر لها ، كيف أنَّ الله سبحانه وتعالى صرف عن أحبابه ما يبدو لهم أنَّه منعٌ وهو في الحقيقة عطاء. . صَرفه عنهم عين العطاء .

قد تجد ابناً نشأ بالنعيم ، والأب غني ومتساهل مَرِن فيعطي ابنه مايشتهي ، وأحياناً ينشأ ابن يتيم في حرمان وفقر وله أُم حازمة مربيِّة ، ودخلُهم قليلٌ جداً ، فتحضُّه على الدراسة ، لا تنيمه الليل تحثُّه ، ليس في البيت مغريات أو ملهيات ولا ماديَّات ، فبحسب الظاهر أنَّ الأول مدلل وابن أسرة غنية يأكل ما يشتهي ويذهب إلى حيث يشتهي ويريد ، والثاني طفلٌ يتيمٌ ومحرومٌ ، ولكن بعد حين ترى أنه شتَّان بين الاثنين ، اليتيم في تألُّق كبير ورفعة ، والآخر في شقاءٍ وتراجع ، فاليتم والحرمان مع أمٍّ حازمةٍ مربيةٍ ، دفعته إلى أن يبني نفسه بناءً صحيحاً ، إذ غرست فيه القيم الأخلاقيَّة فأصبح إنساناً عظيماً بهذه النشأة المتقشِّفة ، وذاك الطفل الذي نشأ برخاء منقطع النظير ، ينام في غرفة خاصة فيها كل ما تشتهي كما حوت غرفته كل الألعاب ، وقد يشحن أبوه سيارته من الخليج إلى الشام ليستمتع بها في المصايف والمنتزهات ، دون أن يكلف نفسه عناء قيادتها ومتاعب السفر .

فهناك شاب يعيش حياةً خياليّة ، يحمل أجهزة نادرة ثمنها مئات الألاف ، وله هاتفان أو ثلاثة ، وسيارتان أو ثلاث ، وشاب نشأ في أسرة فقيرة ، ولكن فيها الكثير من القيم ، تجده إنساناً عظيماً. .

لذلك لو كُشف الغطاء لاخترتم الواقع .

يقول سيدنا علي رضي الله عنه : « **والله لو كُشف الغطاء ما ازددتُ يقيناً** » ، يقينه قبل كشف الغطاء كيقينه بعد كشف الغطاء .

وكذلك يقول سيدنا علي كرَّم الله وجهه : « **والله لو علمت أنَّ غداً أجلي ما قدرت أن أزيد في عملي** » . . لشدَّة مسارعته إلى الله .

إذاً العطاء قد يكون منعاً ، ولكن هذه تحتاج إلى ثقة بالله ، وإلى إيمان ، وإلى يقين بحكمة الله ، وبمحبَّة الله .

فالإنسان يخطىء في تصوره . . فإذا اجتمع للإنسان مال ، وكانت صحَّته سليمة وهو بعافية ، وفي حال مبسوط النفس ، وبيته ممتاز ، فإنه يظن أنَّ الله يحبُّه ، وإذا كان بيته دون المستوى ، ودخله قليلاً وصحَّته معلولة ظن أن الله لا يحبُّه قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴾ [الفجر : ١٥ـ١٧] .

﴿كَلَّا﴾ . . كلا ، كلامكم غير صحيح ، ليس عطائي إكراماً ، ولا منعي حرماناً ، إنَّ عطائي ابتلاء ، وحرماني دواء .

لا بدّ من أن تعلموا علم اليقين أنَّ الفقير المؤمن أفضل عند الله ألف مرَّة من الغني العاصي . . لأنَّ الدنيا عرضٌ حاضر يأكل منه البرُّ والفاجر ، وعندنا أدلَّة قويَّة جداً . . منها قارون ، قال تعالى :

﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ ﴾ [القصص : ٧٦] .

أعطى الله سبحانه وتعالى المال لقارون وهو لا يُحبُّه ، وأعطى فرعون الملك وهو لا يُحبُّه . . الدنيا لا قيمة لها .

إذاً . . هو الذي يمنع البلاء حفظاً وعنايةً ، ويمنع العطاء عمن يشاء ابتلاءً أو حماية . . ويعطي الدنيا لمن يُحبُّ ولمن لا يُحب ، ولا يُعطي نعيم الآخرة إلا لمن يُحب .

أجل يعطي الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب . . فقد قال تعالى على لسان سيدنا إبراهيم : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [البقرة : ١٢٦] .

تجد بعض الناس يقع في غلط فاحش فيقول : لأن الله يحبني أعطاني هذا البيت فيجعل عطاء الدنيا مقياساً لمحبة الله ، فالله أعطى شخصاً كافراً منزلاً أكبر من منزلك بمئة مرة ، يوجد ملوك الحديد والصُّلب ، وملوك المعامل الضخمة في أوروبة وأمريكا ، معهم أموال خيالية ، وبيوتهم مدن بأكملها ، قصره في غابة ، فهل معنى ذلك أنه يحبه ؟ لا . . لا تجعل الدنيا مقياساً للمنع والعطاء ، فالدنيا لحقارتها عند الله ، لم يشأ أن يجعلها علامة رضوانه ، ولا علامة بغضه ، إن الدنيا لصغر شأنها عند الله أبى أن يجعلها علامة رضوانه ، وأبى أن يجعلها علامة سخطه ، فلا علاقة لها برضوانه ولا بسخطه ، لكن لها علاقةٌ بحكمةٍ يريدها الله عزَّ وجلَّ . .

إنَّ من عبادي من لا يصلح له إلا الغنى ، فإذا أفقرته أفسدت عليه دينه ، وإنَّ من عبادي من لا يصلح له إلا الفقر ، فإذا أغنيته أفسدت عليه دينه .

في أسماء الله تعالى المانع . . قال : هو الذي يدفع عن أهل طاعته

المصائب ، يدفع عنهم البلايا ، ويحوطهم وينصرهم ، يمنع ما يريد من خلقه مما يزيد .

المانع هو الله . . فمثلاً باليابان منطقة صناعية فيها أضخم المعامل والشركات ـ كشركة سوني ، ومتسوبيشي ، ومازدا ـ وقد قاموا بتركيب أجهزة للإنذار المبكِّر للزلازل مربوطة بالكمبيوتر ، فالله سبحانه أنزل بها أضخم زلزال وتعطل الكمبيوتر عن أداء وظيفته ، فهل من مُدّكر ؟

فكلمة . . يمنع من يريد ما يريد ، لا مانع إلا الله ، ما الذي يمنعك من المرض ؟ الله . . ما الذي يمنعك من حادث في الطريق ؟ الله . . من الذي يمنعك من شرّير ؟ الله . . من الذي يمنعك من الخوف ؟ الله . . يمنع من يريد ما يريد ، لا مانع إلا الله .

أحد العلماء يقول : « **المانع هو الذي يردُّ أسباب الهلاك والنقصان في الأديان والأبدان ، بما يخلق من الأسباب المعدَّة للحفظ** » .

ولا تنسَ أن الله جعل نواميس وأسباباً . . أي يمنعك ولكن لا يمنعك بلا سبب ، بل إن هناك للكون نظاماً ، فالكون فيه نظام ولكل ما يقع له أسباب . . فقد قال تعالى :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ [الكهف : ٨٣ـ٨٥] .

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ فإذا أراد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يمنع إنساناً وأن يكون نظامه سائداً في المجتمع وفي الحياة ، يلهم هذا الممنوع من هذا الشر أن يأخذ بالأسباب . . فكذلك منعُ الله بِحِكْمَةٍ وليس منعاً عشوائياً ، وفي بعض الحالات يمنع بلا سبب كما ورد في قوله تعالى :

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل : ٦٢] .

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ . . أما الأصل فهو أنَّه إذا أراد أن يمنعك يلهمك أسباب المنع .

فمن فهم معنى الحفيظ فهم معنى المنع ، المانع هو الحافظ . . قد يتبادر للمرء أنَّ المانع هو الذي لا يُعطي ، فهذا معنى ، وكذلك المانع هوالحافظ ، أنت في حصنٍ منيع ، أنت في حرزٍ حريز ، أنت لا أحد ينالُك .

قال بعض العلماء : « **المنع يضاف إلى السبب المهلك ، والحفظ يضاف إلى المحروس عن الهلاك** » ، أي لو وجدت إنساناً محروساً من أن يهلك فهذا محفوظ ، وإنسان يمكن أن يهلك فهذا ممنوع . . فقد قال تعالى : ﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ .

قال : « **كلُّ حافظٍ مانع ، وما كلُّ مانع حافظ** » .

كلُّ حافظٍ مانع . . ما دام أنَّ الله حفظك فهو يمنعك من خصومك ، وليس كل منع حفظاً . . أحياناً يكون المنع عقوبة ، قد يحرم المرءُ بعض الرزق بالذنب يصيبه ، قد يُحرم المرءُ بعض العلم بالذنب يصيبه ، الذنب يمنعك من العلم ويمنعك من الرزق .

يقول بعض العلماء : « **المانع يعني أنَّ الممكنات بالنسبة إلى تأثير قدرته على السويَّة . . فدخول بعضها في الوجود دون البعض يكون بتخصيصه أو ترجيحه** » ، فكل شيء بيد الله عزَّ وجلَّ ، والله دائماً قادر على أن يمنعك من أعدائك .

فدخول بعضها في الوجود دون البعض يكون بتخصيصه أو

ترجيحه . . كلٌّ المؤثرات بيد الله عزَّ وجلَّ ، فإذا أطلق واحدة ومنع واحدة فهناك ترجيح عند الله لحكمة ، فلو أن شخصاً في جسمه ثلاثة أنواع من جراثيم حرَّك الله واحدة منها والاثنتان لم يحركهما ، أجل ثلاثة أنواع من جراثيم ، فربما واحدة فعلت فعلها ، فكل الممكنات بيد الله عزَّ وجلَّ ، وكل الأسباب بيد الله أطلق جرثوماً ومنع جرثومين .

وبعد ، فالمانع في وصفه سبحانه وتعالى منع البلاء عن أوليائه ، أو منع العطاء عمن شاء مطلقاً ، فإما أن يمنع العطاء تأديباً ، أو تحصيناً ، أو وقايةً ، بحسب الممنوع منه ، أو يمنع البلاء عن أوليائه .

الأولياء يُمنعون من البلاء فهو مانعهم ، وهو المانع أي الحافظ ، أما المخطئون فيمنعون من العطاء تأديباً لهم ، والمؤمنون يمنعون من بعض حظوظ الدنيا وقايةً لهم ، تأديباً للعصاة ، ووقايةً للمؤمنين ، هذا المنع الثاني ، وقد عرفنا من قبل أن المنع الأول : الحفظ .

قال العلماء : « **إذا منع البلاء عن بعض أوليائه كان ذلك لطفاً جميلاً ، وإن منع العطاء عنهم كان ذلك فضلاً جزيلاً** » ، منع البلاء لطف ، ومنع العطاء فضل .

عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ : بَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قَاعِدٌ مَعَ أَصْحَابِهِ إِذْ ضَحِكَ فَقَالَ : « **أَلا تَسْأَلُونِي مِمَّ أَضْحَكُ ؟** » قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ وَمِمَّ تَضْحَكُ ؟ قَالَ : « **عَجِبْتُ لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ ، إِنْ أَصَابَهُ مَا يُحِبُّ حَمِدَ اللهَ وَكَانَ لَهُ خَيْرٌ ، وَإِنْ أَصَابَهُ مَا يَكْرَهُ فَصَبَرَ كَانَ لَهُ خَيْرٌ ، وَلَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ أَمْرُهُ كُلُّهُ لَهُ خَيْرٌ إِلا الْمُؤْمِنُ** » [مسند الإمام أحمد] .

بعض العلماء قال : « **الله ـ جلَّ جلاله ـ يعطي كلَّ شيءٍ ما هو في مصلحته ، بمعنى أنَّ حكمة الله مطلقة ، وبمعنى أنَّه ليس في الإمكان أبدعُ مما كان . ويمنع ما هو سبب فساده ، يغني من يشاء بالعطاء ويمنع من يشاء بالابتلاء ، سبحانه يغني ويفقر ، يسعد ويشقي ، يعطي ويحرم ، يمنح ويمنع فهو المعطي المانع** » .

إنسان ليس عنده أولاد (عقيم) لايترك طبيباً إلاَّ قصده للمعالجة ، ولكن لا جدوى فالمنع إلهي ، إنسان آخر رزقه الله ذكوراً فقط ، وإنسان آخر نسله إناث فقط ، وهناك إنسان رابع نسله ذكور وإناث ، رجل أولاده نجباء ، ورجل أولاده كالبلاء .

فقد قال لي أحد الإخوة الكرام يوماً وقد أقسم بالله : إن مات ابنه فلسوف يقيم احتفالاً بمناسبة موت ابنه لشدة عقوقه ، فابن يكون بلاءً ونقمة ، وابن يكون عطاءً ونعمة قال تعالى :

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ ﴾ [الأنعام : ٨٤] .

والله سبحانه وتعالى يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولكنَّه لا يحمي قلب عبدٍ عن المخالفات إلا وهو من خواصِّ أوليائه .

قد تكون غالياً على الله وقريباً منه ، وفي ساعة غفلة تفكِّر بعمل لا يرضي الله ، تجد أن الله عزَّ وجلَّ وضع أمامك العراقيل ، منعك ، ولم يوافق المسؤولون لك على السفر مثلاً ، فهناك منع قاسٍ وظاهره من البشر لكن حقيقته من ربِّ البشر ، فالمؤمن محفوظٌ من المخالفات ، فلعلَّه بهذا السفر تضعف مقاومته ، أو عنده هشاشة في مقاومته فالله عزَّ وجلّ يعلم سرَّه وعلانيته .

قال بعض العارفين : « **المانع هو الذي يدفع أسباب الهلاك**

والنقص في الدين والدنيا ، وذلك بخلق الأسباب التي تحفظ من الهلاك والنقصان » .

يمنع الهلاك بأسباب النجاة من الهلاك ، ويمنع النقصان بأسباب النجاة من النقصان ، المنع بأسباب.. الله عزَّ وجلَّ يخلق بعض الممكنات ، ويمنع وجود بعض الممكنات ، يعطي الله لشخص مؤهِّلات ليتفوَّق ، وقد لا يعطيها لآخر ، فيعطي لحكمة ويمنع لحكمة ، مرة أخرى : يعطي كلَّ شيءٍ ما هو في مصلحته ويمنع ما هو فيه فسادٌ لدينه فقد قال تعالى :

﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [الشورى : ٢٧] .

يعني أنا أريد في هذا البحث أن أبين أن المؤمن المتصل بربه يتلقى المنع برضا ، والمؤمن المتفتح يرى يد الله فوق أيديهم ، يرى يد الله تعمل في الخفاء ، يتلو قوله تعالى :

﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال : ١٧] .

المؤمن البصير يذكر الحديث الشريف وهو قوله ﷺ :

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « **لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ ، وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ** » [مسند الإمام أحمد] .

لا يندم ولا يحقد ولا يتألَّم ولا يتذلل ولا يتضعضع ، ولا يستخزي ، ولا يُلح ، اطلبوا الحوائج بعزَّة الأنفس ، فإنَّ الأمور تجري بالمقادير .

وما كان لمؤمنٍ أن يهون ، بل لا ينبغي للمؤمن أن يُذِلَّ نفسه ،

هذا بسبب إيمانه أنَّ العطاء من الله والمنع من الله ، فقد قال تعالى :

﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [فاطر : ٢] .

الشيء الدقيق جداً في هذا الموضوع.. ما ورد عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْماً فَقَالَ : « يَا غُلامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ : احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ ، رُفِعَتِ الأَقْلامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ » [سنن الترمذي] .

هذا هو التوحيد...

وقال بعضهم : « المانع هو الذي يمنع من شاء ما يشاء ، وقد يكون باطن المنع عطاء وهنا الدقة ».. قد يمنع العبد كثرة الأموال ويعطيه الكمال والجمال ، وقد يمنع العبد صحة الأجسام ويعطيه الرضا عن الأحكام.. المانع هو المعطي فقد يكون باطن المنع عطاءً وقد يكون في ظاهر العطاء بلاء .

كثيراً ما يطغى الإنسان في حال الغنى قال تعالى :

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ [العلق : ٦-٧] .

النبي ﷺ عدَّ الغنى بلاء فقد روي: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعاً هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلا فَقْراً مُنْسِياً أَوْ غِنًى مُطْغِياً أَوْ مَرَضاً مُفْسِداً أَوْ هَرَماً مُفَنِّداً أَوْ مَوْتاً مُجْهِزاً أَوِ الدَّجَّالَ ، فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ ، أَوِ السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ » [سنن الترمذي] .

قال العلماء : اسم المانع قريب في معناه من اسم الحفيظ ، ولكن الفرق بينهما أن الحافظ مضاف إلى معنى والمانع مضاف إلى معنى آخر .

المانع مضاف إلى سبب مهلك يمنعك من هذا السبب ، أما الحافظ فمضاف إلى شيء محروس في الأصل من قبل الله عزَّ وجلَّ .

هذا الاسم الكريم ورد في الحديث الشريف ، إلا أنه لم يرد في القرآن الكريم ، بل ورد معناه ليس المطابق ولكنه المقابل ، لذلك قال تعالى :

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [يونس : ١٠٧] .

الآية الكريمة عميقة الدلالة جداً . . ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ﴾ ، لم يقل : وإن يمسسك بخير . . بل قال : ﴿ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

وبعد . . . فينبغي لمن يتخلَّق بهذا الاسم ألا يسأل غير الله ، لأنه هو وحده المعطي المانع ، لا أحد يمنعك ، ولا أحد يعطيك إلا الله ، فالتخلُّق بهذا الاسم يعني أن تعقد الأمل على الله ، وألاَّ ترجو غير الله ، وألاَّ تغترَّ بإعطاء الإنسان ، لأن عطاء الإنسان من عطاء الله .

لذلك فالنبي الكريم ﷺ كان يرجو ألا يجعل الله له خيراً على يد كافر أو منافق ، لأنَّ العطاء من الله عز وجل ، وفي ساعة غفلة ترى أن العطاء أتى من زيد أو عبيد ، والمؤمن إذا مُنِع شيئاً لا يرى هذ المنع إلا من الله ، ولو رآه من زيد أوعبيد لوقع في حرجٍ شديد ،

اللهم لا معطيَ لما منعت ، ولا مانعَ لما أعطيت .

ويجب ألا تحقد على الناس لأنهم منعوا عنك شيئاً ، فالله هو الذي منعه ، العطاء من المعطي الحقيقي وهو الله ، والمنع من المانع الحقيقي وهو الله ، هذا ملخَّص الملخص للبحث .

العطاء. . مطلق العطاء من المعطي الحقيقي وهو الله ، والمنع مطلق المنع من المانع الحقيقي وهو الله ، علاقتك مع الله فلا تحقد على أحد. . لا تحْمَدنَّ إنساناً على فضل الله ، ولا تذمنَّه على ما لم يؤتك الله ، إذا منعك إنسان لاتحقد عليه هو مانع صوري ، أما المانع الحقيقي فهو الله ، الله هو المعطي وهو المانع الحقيقي ، وأحياناً يعطي مباشرةً ويمنع مباشرةً ، وأحياناً يعطي من خلال عباده ، ويمنع من خلال عباده ، إن وافق لك المسؤول على السفر أو لم يوافق لك فقل : حسبي الله ونعم الوكيل ، ولكن على يقين أن المانع والمعطي هو الله سبحانه ، ولا يقع شيء إلا بإذن الله قال تعالى :

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ ﴾ [النور : ٣٦] .

ملخص البحث أنَّ المعطي الحقيقي هو الله ، والمانع الحقيقي هو الله ، قد يعطي مباشرةً ، أو عن طريق خلقه ، وقد يمنع مباشرةً ، أو عن طريق خلقه ، المؤمن موحِّد إن أُعطي مباشرة يحمد الله ، وإن أُعطي عن طريق خلقه يحمد الله ، إن مُنِع يرضى بقضاء الله ، إن مُنِع عن طريق خلقه يرضى بقضاء الله ، والمؤمن لا يحقد أبداً ، وهذا هو التوحيد ، وما تعلَّمت العبيد أفضل من التوحيد .

حين أرسل أبو سفيان رجلاً ليقتل النبي ﷺ. . لما رآه رسول الله ﷺ قال : إنه هذا الرجل ليريد غدراً وإن الله مانعي. . وحين

انكشف أمر الرجل قال : والله! يا محمد ! ما كنت أخاف الرجال فما هو إلا أن رأيتك فذهب عقلي ضعفت نفسي ثم إنك اطلعت على ما هممتُ به مما لم يعلمه أحد فعلمت أنك ممنوع [وذلك سبب سرية عمرو بن أمية الضمري إلى أبي سفيان] .

وورد في أدعية النبي عليه الصلاة والسلام من حديث سعيد بن منصور في سننه : « **اللهم من منعت ممنوع** » . أي من حرمت فهو محروم لا يستطيع أحد أن يعطيه .

قال تعالى :

﴿ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ﴾ [الحج : ١٨] .

سبحانك فإنَّه لا يذِلُّ من واليت ولا يعِزُّ من عاديت. . أيْ أَنْ ليس لنا إلا الله عزَّ وجلَّ ، فلا تبذل ماء وجهك أمام أحد ، كن عزيزاً ، لا تبذل ماء وجهك إلا أمام ربِّك ، لا تبذل دموعك إلا لله ، إلا في السجود لله عزَّ وجلَّ ، لا تبكِ أمام الناس لن يعطوك ولن يمنعوك ، المانع هو الله ، والمعطي هو الله ، صُنْ ماء وجهك ، احفظ ماء وجهك ، لا تتضعضع لغني ، تضعضع لله عزَّ وجلَّ ، تذلل له ، مرِّغ جبهتك في أعتابه ، أما أمام الناس فكن عزيز النفس .

هذا هو ملخص البحث ، واعلم علم اليقين أن الله عزَّ وجلَّ مانع بمعنى يمنعك من كلِّ ما يؤذيك ، يحفظك ، ويمنعك من كل ما يطغيك ، ويمنعك تأديباً لك ، فهو مانع بالمعاني كلِّها ، وإذا أراد أن يمنعك مما يؤذيك ألهمك أسباب الحفظ والمنع ، ووجهك وجهة الخير وقذف في قلبك الرضا .

* * *

المُقْسِط

من أسماء الله الحُسنى المقسط .

في اللغة . . أقسط فلانٌ إذا عدل ، وقسط فلانٌ إذا جار . . أقسط : عدل ، وقسط : ظلم وجار . . المقسط : العادل ، القاسط : الظالم ، قال تعالى :

﴿ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ [الجن : ١٥] .

قال بعض علماء اللغة : « المقسط هو العادل في حكمه ، قال تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ : أي بالعدل ، والقِسْطُ أيضاً هو النقيض » ، القِسْطُ . . أقساط ، أجزاء ، أنصبة .

ذكر بعض علماء اللغة أنَّ القسْطَ : « هو أن يأخذ الإنسان قِسطَ غيره أي يظلم » . . فالقسْط مصدر . . أي يأخذ نصيب غيره ، أن يأخذ ما ليس له فهو ظالم . والإقساطُ أن يُعطى قسط غيره فهو عادل . . أن تعطي حقَّ الناس إلى الناس فأنت عادل ، أن تأخذ ما ليس لك بحق فأنت ظالم . . أن تأخذ قِسْطَ غيرك هذا ظلم ، أن تعطي الآخرين قِسْطَهم هذا عدل . . هذا الفرق بين قَسَطَ وأقْسَطَ .

ودخلت امرأة على هارون الرشيد وعنده جماعة من وجوه أصحابه فقالت يا أمير المؤمنين ! أقر الله عينك وفرحك بما آتاك وأتم سعدك

لقد حكمت فقسطت ، فقال لها : من تكونين أيتها المرأة ؟ فقالت من آل برمك ممن قتلت رجالهم وأخذت أموالهم وسلبت نوالهم! فقال : أما الرجال فقد مضى فيهم أمر الله ، ونفذ فيهم قدره ، وأما المال فمردود إليك ، ثم التفت إلى الحاضرين من أصحابه فقال : أتدرون ما قالت هذه المرأة ؟ فقالوا : ما نراها قالت إلا خيراً ، قال : ما أظنكم فهمتم ذلك ، أما قولها : أقر الله عينك ، أي : أسكنها عن الحركة وإذا سكنت العين عن الحركة عميت ، وأما قولها : وفرحك بما آتاك فأخذته من قوله تعالى : ﴿حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة﴾ وأما قولها : وأتم الله سعدك فأخذته من قول الشاعر

إذا تمَّ أمر بدا نقصه.. ترقب زوالاً إذا قيل تم

وأما قولها : لقد حكمت فقسطت فأخذته من قوله تعالى : ﴿وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا﴾ فتعجبوا من ذلك .

فكلمة « قاسط عادل » لا تعني مدحاً ، بل تعني ذماً .

المُقسِطُ في حقِّ الله تعالى هو العادل في الأحكام ، الذي يتصرَّف في العوالم بكلِّ نظام .

يعقوب بن يوسف الكوفي « وكان قد روى الأشعار والأحاديث عن أبيه » قال : حججت ذات سنة فإذا أنا برجلٍ عند البيت وهو يقول : اللهمَّ اغفر لي وما أراك تفعل . قال فقلت : يا هذا ما أعجب يأسك من عفو الله ، قال إنَّ لي ذنباً عظيماً ، قال فقلت أخبرني قال كنت مع يحيى بن محمد بالموصل فأمرنا يوم جمعة فاعترضنا المسجد ، فنرى أنا قتلنا ثلاثين ألفاً ثمَّ نادى مناديه : من علَّقَ سوطه على دارٍ فالدار وما فيها له ، فعلقت سوطي على دار ودخلتها فإذا فيها رجل وامرأةٌ

وابنان لهما ، فقدمت الرجل فقتلته ، ثمَّ قلت للمرأة : هاتي ما عندك وإلا ألحقت ابنيك به ، فجاءتني بسبعة دنانير ومتيع ، قال : فقلت : هاتي ما عندك ، فقالت : ما عندي غيرها ، فقدمت أحد ابنيها فقتلته ثم قلت : هاتي ما عندك ، وإلا ألحقت الآخر به ، فلما رأت الجدَّ مني قالت : أرفق فإنَّ عندي شيئاً كان أودعنيه أبوهما ، فجاءتني بدرع مذهبةٍ لم أر مثلها في حسنها فجعلت أقلبها فإذا عليها متكوب بالذهب :

إذا جــار الأميــر وحــاجبــاه وقاضي الأرض أسرف في القضاء
فــويــلٌ ثــمَّ ويــلٌ ثــمَّ ويــلٌ لقاضي الأرض من قاضي السماء

فسقط السيف من يدي وارتعدت ، وخرجت من وجهي إلى حيث ترى . . .

أحياناً يكون الظالم زوجاً يقول لنفسه : إن زوجتي ليس لها سند ، ومقطوعة من الأهل . . فيظلمها أشدَّ الظُلم ، ويضغط عليها أشدَّ الضغط ، فنقول له :

فــويــلٌ ثــم ويــلٌ ثــم ويــلٌ لقاضي الأرض من قاضي السماءِ

أحياناً تكون في وظيفة يمكن أن تؤذي الناس من خلالها ، تستخدم هذه الثقة التي مُنحت إيَّاها لحفظ مصالح الأمة في سبيل ابتزازِ أموال الأمة ، فيقال لك :

فــويــلٌ ثــم ويــلٌ ثــم ويــلٌ لقاضي الأرض من قاضي السماءِ

وما أكثر أنواع الظلم ، والظلم ظلماتٌ يوم القيامة والله سبحانه وتعالى من أسمائه المُقسط ، لذلك فالمؤمن يعُدُّ للمليون قبل أن يظلم

إنساناً ، لأنَّه يعلم أنَّ الله أقدرُ عليه منه على هذا الإنسان. . وقد ورد هذا في نصِّ حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام عندما رأى أحد أصحابه يضرب غلاماً له فقال : « اعلم أبا مسعود! لله أقدر عليك منك عليه فالتفت فإذا هو رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله! هو حر لوجه الله ، فقال : أما لو لم تفعل للفحتك النار أو لمستك النار » [رواه مسلم] .

وقال بعضهم :

إذا دعتك قدرتك إلى ظلم الناس تذكَّر قدرة الله عليك .

ذات مرَّة أراد الحجَّاج أن يحاكم إنساناً ليقتله فقال هذا الإنسان : أسألُك بالذي أنت بين يديه أذلُّ منّي بين يديك ، وهو على عقابك أقدر منك على عقابي ، فتفكر الحجاج ثم عفا عنه . فالإنسان كلما ازداد علماً ازداد خوفاً من الله ، إذا ظنَّ أنَّه قوي وأنَّه يفعل ما يريد فاستخدم هذه القوَّة في غير العدل فقد استوجب سخط الله عزَّ وجلَّ ، وإذا سخِط الله عليه بطش به ، كما ورد في الآية الكريمة قال تعالى :

﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾ [البروج : ١٢-١٣] .

من ذكريات الماضي المقدس أنه : يوم أرسل النبيُّ الكريم ﷺ عبد الله بن رواحة إلى اليهود ليأخذ منهم ما اتُفق على أن يعطوه للنبي ﷺ من ثمارٍ وزروع ، فأراد هؤلاء أن يرشوا عبد الله بن رواحة لعلَّه يترفَّق بهم في قِسمة الزروع بينهم وبين النبي - فقال عبد الله بن رواحة : يا أعداء الله تعطوني السحت والله لقد جئتكم من عند أحبِّ الناس إلي - من عند رسول الله ﷺ - ولأنتم أبغض إليَّ من القِردة والخنازير ، ولا يحملني حبي لرسول الله وبغضي لكم على ألا

أعدل ، أو أن أفعل معكم غير الحق . فقالوا : بهذا قامت السموات والأرض ، وبهذا تغلبوننا ، بهذا العدل تغلبوننا . . فأنا أشعر أنَّ قيمة العدل هي أخطر قيمة في المجتمع .

يروي التاريخ المعاصر أنَّ بريطانيا عقب الحرب العالميَّة الثانية دمرت مواردها كلياً ، وقف أحد زعمائها (تشرشل) في مجلس العموم يسأل وزراءه وزيراً وزيراً : كيف الصناعة عندك يا فلان ؟ يقول له : المعامل مدمَّرة ، كيف الزراعة عندك يا فلان ؟ يقول له : لا ثمار ولا غلال ، كم في الخزينة عندك يا فلان ؟ يقول له : لا شيء ، خواء . فكل ما عندهم دمر . . فالتفت إلى وزير العدل وقال : كيف العدل عندك يا فلان ؟ قال : بخير . قال : كلُّنا إذاً بخير .

يبدأ هذا العدل من داخل أسرتك لا تظلم لا تميِّز ولداً على ولد ، لا تميِّز زوجةً على زوجة إن كانت لك زوجتان ، لا تميِّز أخاً على أخ ، السموات والأرض لا تقومان إلا بالعدل ، والعدل أساس الملك ، أن تملك زمام أولادك فأساس هذا الملك العدل ، أن تملك قياد الموظفين العاملين عندك فأساس هذا الملك العدل ، قيمة العدل هي أفضل قيمة ، يمكن أن تأكل أخشن الطعام ، وأن تلبس أخشن الثياب ، وأن تشعر أنَّك قد أخذت حقَّك ، أما حينما يشعر الإنسان بالظلم عندئذٍ تنقلب حياته إلى جحيم من هنا قال الله عزّ وجلّ في الحديث القدسي :

عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ : « إِنِّي حَرَّمْتُ عَلَى نَفْسِي الظُّلْمَ وَعَلَى عِبَادِي أَلا فَلا تَظَالَمُوا ، كُلُّ بَنِي آدَمَ يُخْطِىءُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ثُمَّ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرُ لَهُ وَلا أُبَالِي ، وَقَالَ يَا بَنِي

آدَمَ كُلُّكُمْ كَانَ ضَالاً إلا مَنْ هَدَيْتُ ، وَكُلُّكُمْ كَانَ عَارِياً إلا مَنْ كَسَوْتُ ، وَكُلُّكُمْ كَانَ جَائِعاً إلا مَنْ أَطْعَمْتُ ، وَكُلُّكُمْ كَانَ ظَمْآنَ إلا مَنْ سَقَيْتُ ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ ، وَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ ، وَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ ، وَاسْتَسْقُونِي أَسْقِكُمْ . . . » [مسند الإمام أحمد] .

الظلم ظلماتٌ يوم القيامة ، الظلم مرتعه وخيم ، والله عزَّ وجلَّ مقسط ، قال أحد الحكماء : « **المقسط هو الذي ينتصف للمظلوم من الظالم** » .

إنسان يركب مركبة ويسير بها في طريق المطار ، وكلبٌ صغير في أيام الشتاء القارس وجد أنَّ الطريق المزفَّت أدفأ له من التراب لسواد لونه ، فاللون الأسود يمتصّ الحرارة فقبع على طرف الطريق ، وهذا الذي يقود المركبة عنَّ له أن يظهر براعته في القيادة أمام من إلى جواره ، فاستطاع بدقَّةٍ بالغة أن يقطع يديّ الكلب دون أن يقتله ، وأطلق ضحكةً هيستيريَّة ، يذكر لي الذي كان إلى جانبه أنه في أول أيام الأسبوع التالي وفي المكان نفسه تعطَّلت مركبته ، إذ أصيبت إحدى العجلات فنزل لإصلاحها ، فرفع المركبة بالأداة الرافعة ، وأزال البراغي من العجلة وبينما هو يسحب العجلة اختلَّ توازن المركبة فوقعت فوق العجلة والعجلة فوق رُسغيه فَهُرِستا ، فإلى أن وصل إلى المشفى كان قد وصل الموات إلى أطراف أصابعه ، فأمر الطبيب بقطع كفَّيه من رُسُغيه ، كما فعل يوم السبت الماضي بالكلب ، وقال لي هذا الذي كان بجوار قائد المركبة : رأيته بعيني بعد أسبوعٍ بلا يدين .

أليس هذا جزاءً وفاقاً ، فالله عزَّ وجلَّ مُقْسِط . . وكلَّما عرفتَ عدله

تأدَّبتَ معه ، وكلَّما أكبرتَ عدالته ازددت معه أدباً .

قال بعض الأئمة : **« المقسط هو الذي ينتصف للمظلوم من الظالم »** ، قد يكون المظلوم هرَّة . . فقد قال ﷺ :

حَدَّثَنَا أَبُو هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَذَكَرَ أَحَادِيثَ مِنْهَا وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : **« دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّارَ مِنْ جَرَّاءِ هِرَّةٍ لَهَا أَوْ هِرٍّ رَبَطَتْهَا فَلا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَلا هِيَ أَرْسَلَتْهَا تُرَمْرِمُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ حَتَّى مَاتَتْ هَزْلاً »** [صحيح مسلم] .

أيدخل إنسان النار في هرَّة ؟ . . نعم فدققوا النظر متأملين . . قبل أن تقتلوا حيواناً فقد قال تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ [الفرقان : ٦٨] .

سُمِح لك أن تقتل الفأرة ، وأن تقتل العقرب ، أن تقتل الحيَّة ، أما أي حيوان تدوس عليه وأنت في راحة تامة ؟ لا . . فهناك حيوانات لا يجوز أن تقتلها لأنَّها ما فعلت شيئاً .

وكلُّكم يستمع إلى آلاف الوقائع والحوادث عن إنسان تعدَّى على حيوان . . فقد بصره ، أو فقد حركته ، بشلل أصابه ، إنسان غضب من هرَّة فألقاها من الطابق السابع ، بعد حينٍ اختلَّ توازنه في المشي ، وأمضى حياته كلَّها على عُكَّازين . . فالظلم ظلماتٌ يوم القيامة .

أحد العلماء يقول : **« المقسط هو الذي ينتصف للمظلوم من الظالم ، وكماله في أن يضيف إلى إرضاءِ المظلوم إرضاءَ الظالم »** .

أكمل شيء بالمُقسط . . أنَّ الله عزَّ وجلَّ ينتصر للمظلوم من الظالم ، وبعد ذلك يرضي الظالم ، بعدما قام بتأديبه ورجع إلى الحق

يكرمه ، والدليل الآية الكريمة : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص : ٤-٦] .

فإذا طغى عبدٌ على عبد ، انتصر للمظلوم من الظالم ، فإذا رجع الظالم عن ظلمه وتاب إلى الله أكرمه الله ، فأحد الأئمة يقول : **« المقسط هو الذي ينتصف للمظلوم من الظالم ، وكماله في أن يضيف إلى إرضاءِ المظلوم إرضاءَ الظالم »** .

أدقّ نقطة أنَّ الله جلَّ جلاله لا يُبغض الكافر ، ولكن يُبغض عمله ، فإذا قال الله عزَّ وجلَّ ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ ، فإن العلماء أجمعوا على أنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يُحبُّ عملهم ، فإذا تابوا وأنابوا أحبَّهم ، والمؤمن الصادق المخلص.. لو أنَّ له خصماً عنيداً كافراً فاجراً منحرفاً إلى آخر هذه الأوصاف ، إذا أناب إلى الله وتاب إليه واصطلح معه فبأقل من ثانية ينقلب حاله فيكون أقرب الناس إليه ، والدليل على ذلك :

عمير بن وهب كان شيطاناً من شياطين قريش وكان يؤذي رسول الله ﷺ وأصحابه ويلقون منه عناء أذاهم بمكة ، وكان ابن وهب بن عمير في أسارى أصحاب بدر ، قال : فذكروا أصحاب القليب بمصابهم ، فقال : والله ! إن في العيش خير بعدهم ، فقال عمير بن وهب : صدقت ، والله! لولا دين علي ليس عندي قضاؤه ، وعيالي أخشى عليهم الضيعة بعدي ، لركبت إلى محمد حتى أقتله فان

لي فيهم علة ، ابني عندهم أسير في أيديهم ، قال : فاغتنمها صفوان فقال : علي دينك ، أنا أقضيه عنك ، وعيالك مع عيالي أسويهم ما بقوا ، لا نسعهم بعجز عنهم ، قال عمير : أكتم عني شأني وشأنك ، قال : أفعل ، ثم أمر عمير بسيفه فشحذ وسم ، ثم انطلق إلى المدينة فبينما عمر رضي الله عنه بالمدينة في نفر من المسلمين يتذاكرون يوم بدر وما أكرمهم الله به وما أراهم من عدوهم إذا نظر إلى عمير بن وهب ما أناخ بباب المسجد متوشح السيف فقال هذا الكلب والله عمير بن وهب قد جاء إلا لشر هذا الذي حرش بيننا وحرزنا للقوم يوم بدر ، ثم دخل عمر على رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله هذا عمير بن وهب قد جاء متوشحاً بالسيف قال فأدخله فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه في عنقه فلببه بها ، وقال عمر لرجال من الانصار ممن كان معه : ادخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده واحذروا هذا الكلب عليه فإنه غير مأمون ، ثم دخل على رسول الله ﷺ به عمر آخذ بحمالة سيفه فقال : أرسله يا عمر أدن يا عمير فدنا ، فقال : أنعموا صباحاً ـ وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم ـ فقال رسول الله ﷺ : قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير ، السلام تحية أهل الجنة ، فقال : أما والله يا محمد إن كنت لحديث عهد بها قال : فما جاء بك ؟ قال جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فاحسبه ، قال : فما بال السيف في عنقك ؟ قال : قبحها الله من سيوف فهل أغنت عنا شيئا ؟ قال : اصدقني ما الذي جئت له ؟ قال : إلا لهذا ، قال بلى قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر فتذكراتما أصحاب القليب من قريش ، فقلت لولا دين علي وعيالي لخرجت حتى أقتل محمداً ، فتحمل صفوان لك بدينك وعيالك على

أن تقتلني ، والله حائل بينك وبين ذلك ، قال عمير : أشهد أنك رسول الله ، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء وما ينزل عليك من الوحي ، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان فو الله إني أعلم ما أنبأك به إلا الله فالحمد لله الذي هداني للإسلام وساقني هذا المساق ثم شهد شهادة الحق فقال رسول الله ﷺ : فقهوا أخاكم في دينه وأقرؤه القرآن وأطلقوا له أسيره ، ثم قال : يا رسول الله! إني كنت جاهداً على إطفاء نور الله شديد الأذى لمن كان على دين الله ، وإني أحب أن تأذن لي فأقدم مكة فأدعوهم إلى الله وإلى الاسلام ، لعل الله أن يهديهم ولا أوذيهم كما كنت أؤذي أصحابك في دينهم ، فأذن له رسول الله ﷺ فلحق بمكة ، وكان صفوان حين خرج عمير بن وهب قال لقريش : أبشروا بوقعة تنسيكم وقعة بدر ، وكان صفوان يسأل عنه الركبان حتى قدم راكب فأخبره بإسلامه فحلف أن لا يكلمه أبداً ، ولا ينفعه بنفع أبداً ، فلما قدم عمير مكة أقام بها يدعو إلى الاسلام ويؤذي من خالفه أذى شديداً فأسلم على يديه ناس كثير . [رواه الطبراني مرسلاً وإسناده جيد] .

واستمعوا إلى ما قاله عمر ـ كما في الرواية عن عروة بن الزبير مرسلاً ـ قال : لخنزيرٌ كان أحبُّ إليَّ منه حين اطلع ، وهو اليوم أحبُّ إليَّ من بعض بني .

في ثانية. . . المؤمن ليس له عدو ، فإن كره الكافر يكره عمله ، إن كره الظالم يكره ظلمه ، إن كره الفاسق يكره فسقه ، إن كره المعتدي يكره عُدوانه ، أما إذا عاد المعتدي إلى جادَّة الصواب ، وترك الفاسق فسقه ، وترك الكافر كفره. . صار أقرب الناس

للمؤمن ، وقد قيل : « تخلَّقوا بكمالات الله » ، إنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يُبغض الكافر لذاته ، بل يُبغِضُ عمله .

قال : لا يقدر على الانتصاف من الظالم للمظلوم ثم إرضاء المظلوم والظالم إلا الله ، هذا من اختصاص الله . . إليكم هذه القصَّة :

روي عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ : بينا رسول الله ﷺ جالس إذا رأيناه ضحك بدت ثناياه فقال له عمر : ما أضحكك يا رسول الله ؟ بأبي أنت وأمي! قال : رجلان من أمتي جثيا بين يدي رب العزة فقال أحدهما : يا رب! خذ لي مظلمتي من أخي ، فقال الله تبارك وتعالى للطالب : فكيف تصنع بأخيك ولم يبق من حسناته شيء ؟ قال : يا رب فليحمل من أوزاري قال : وفاضت عينا رسول الله بالبكاء ثم قال : إن ذاك اليوم عظيم يحتاج الناس أن يحمل عنهم من أوزارهم فقال الله تعالى للطالب : ارفع بصرك فانظر في الجنان فرفع رأسه فقال : يا رب! أرى مدائن من ذهب وقصوراً من ذهب مكللة باللؤلؤ لأي نبي هذا أو لأي صديق هذا أو لأي شهيد هذا ؟ قال : هذا لمن أعطى الثمن قال : يا رب! ومن يملك ذلك ؟ قال : أنت تملكه ، قال : بماذا ؟ قال : بعفوك عن أخيك قال : يا رب! فإني قد عفوت عنه قال الله عز وجل : فخذ بيد أخيك فأدخله الجنة فقال رسول الله عند ذلك : اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فإن الله تعالى يصلح بين المسلمين .

فالله عزَّ وجلَّ مختص بهذا وحده ، وهو الذي يستطيع أن ينتصر للمظلوم من الظالم ، فإذا رجع الظالم عن ظلمه أرضى الظالم أيضاً وشملته رحمته . . هذه ليست لغير الله . . لأنَّ بعض العلماء يقول :

« إنَّ أكمل درجات الإقساط ؛ العدل أن تعامل كِلا الطرفين معاملةً يرضيان عنها » .

حقيقة تملأ جوانحي.. المؤمن لا يحقد !! لأنَّه يرى الأمراض التي أمامه من بني البشر هي أمراض وليست سجايا ، أمراض الإعراض ، أعراض الإعراض ، فكما أنَّ الطبيب لا يحقد على مريضٍ مصاب بمرضٍ معدٍ ، كذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ ، فالله جلَّ جلاله يعلم أنَّ هذه الأخطاء والرُّعونات والانحرافات هي أعراضٌ لمرضٌ واحد هي الإعراض عن الله عزَّ وجلَّ ، وأكبر دليل أنَّ الإنسان عندما يقبل تراه لطيفاً ومنصفاً ، وقَّافاً عند حدود الله ، فسبحان من يغير ولا يتغير .

وسرعان ما نعود إلى المُقسِط فقد ورد المعنى في بعض آيات القرآن الكريم ففي سورة المائدة قال تعالى :

﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [المائدة : ٤٢] .

﴿وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ .

وعن النعمان بن بشير أن أباه أتى به إلى رسول الله ﷺ فقال : إني نحلت ابني هذا غلاما فقال : « أكلَّ ولدك نحلت مثله ؟ » قال : لا قال : « فأرجعه » . وفي رواية : أنه قال : « أيسرك أن يكونوا إليك في البر سواء ؟ » قال : بلى قال : « فلا إذن » . وفي رواية : أنه قال : أعطاني أبي عطية فقالت عمرة بنت رواحة : لا أرضى حتى تشهد رسول الله ﷺ فأتى رسول الله فقال : إني أعطيت ابني من

عمرة بن رواحة فأمرتني أن أشهدك يارسول الله قال : أعطيت سائر ولدك مثل هذا ؟ » قال : لا قال : « فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم » . قال : فرجع فرد عطيته . وفي رواية : أنه قال : « لا أشهد على جور » . [متفق عليه] .

روي أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ وَالْمَرْأَةُ بِطَاعَةِ اللهِ سِتِّينَ سَنَةً ، ثُمَّ يَحْضُرُهُمَا الْمَوْتُ فَيُضَارَّانِ فِي الْوَصِيَّةِ فَتَجِبُ لَهُمَا النَّارُ** » [سنن الترمذي] .

وعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « **قَارِبُوا بَيْنَ أَبْنَائِكُمْ يَعْنِي سَوُّوا بَيْنَهُمْ** » [مسند الإمام أحمد] .

من أعجب ماسمعت أن أُسرةً توفي منها الأب وترك أولاداً وبنتاً وحيدة متزوِّجة ، وهذه البنت الوحيدة نصيبها من الميراث ستَّة عشر مليوناً لم يُعطها إخوتها شيئاً ، لأنَّها متزوِّجة ، فطلَّقها زوجها فوراً ، فأهلُها ظلموها ، وزوجها ظلمها ، أعطِ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه . . لا علاقة لك بغنيٍّ أو فقير ، فموضوع الحق ليس له علاقة بالغنى أو الفقر .

﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ لو ظلمتْ ابنتك زوجها وجارت عليه ، فكن عادلاً وأنصف المظلوم ، وإذا بغى ابنك على صديقه فرد الباغي : كن عادلاً ، وخذ بيد المظلوم .

لكن أكثر الناس مع ابنه على حقٍّ أو على باطل ، ومع ابنته على حقٍّ أو على باطل ، ما الذي يميِّز المؤمن من الكافر ؟ العدل . . .

ساعة عدل . . كلمة عدل خير من الدنيا وما فيها النبيُّ عليه الصلاة والسلام استعرض أسرى بدر فإذا صهره بين الأسرى . . . أُلقي عليه

القبض وأسر لأنَّه كان في عِداد المحاربين يريد أن يقتل المسلمين ، فلما استعرض الأسرى روي أنه عليه الصلاة والسلام قال : « والله ما ذممناه صهراً » ، فهو صهر ممتاز. . لكنه الآن مشرك وجاء ليقاتل وقد وقع أسيراً ، هذه الكلمة التي أنصفه بها فعلت فيه فِعل السحر وانتهت به إلى الإيمان .

من السهل جداً أن تُحبَّ إنساناً محبَّةً عمياء. . ومن السهل جداً أن تبغضه بغضاً أعمى ، ولكنَّ الإنصاف يفرض عليك أن تحبَّه وأن تبغِضه بالعدل ، أن تحبَّه منصفاً ، وأن تبغضه منصفاً ، معظم الناس إذا أحبّوا إنساناً ستروا كلَّ عيوبه ، وإذا أبغضوا إنساناً ستروا كلَّ فضائله ، فهذا ظلم ، قال عمر : لا يكن حبك كلفاً ولا بغضك تلفاً فقلت ـ أسلم ـ كيف ذاك ؟ قال : إذا أحببت كلفت كلَفَ الصبيِّ وإذا أبغضت أحببت لصاحبك التلف .

تعامل أحد أولادك معاملة جيدة وتسيء لأخيه هذا ظلم ، وتعامل إحدى بناتك بغير ما تعامل أُختها هذا ظلم ، تعامل موظَّفاً في المكتب بغير ما تعامل الموظَّف الآخر فهذا ظلم. . ثم وسِّع الأمر كما شئت .

وفي سورة الحجرات قال تعالى :

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات : ٩] .

كثير من الناس يرى أن معاملتك للكافر الفاجر الفاسق الملحد لا غبار عليها مهما أسأت إليه ، فلا عليك مثلاً أن تأخذ ماله وأن تضطهده وأن تظلمه ، أن تغُشَّه ، هذا هو الجهل بعينه ، وهذا هو

الخطأ بعينه ، وهذا هو الظلم بعينه ، قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة : ٨] .

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ﴾ . . يخاطب الله المؤمنين ويحضهم على العدل : من هم أعداء المؤمنين التقليديين ؟ الكفَّار ، الفجَّار ، العصاة ، الفاسقون ، المارقون ، هؤلاء الكفَّار ، الفجَّار ، العصاة ، المارقون قال تعالى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ ﴾ . . مع هؤلاء ﴿ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ . . إن عدلتم معهم قرَّبتموهم إلى الله ، وإن عدلتم معهم قرَّبتموهم إليكم ، أما إن ظلمتموهم فقد زدّتموهم بعداً ، زدّتموهم كفراً .

يسألني أخ وهو في حيرة من أمره : لي ولدان . . أحدهما فاسق والآخر طائع ، أريد أن أُعطي الطائع نصيباً أوفر من أخيه . أقول له وبلا تردد : لا تفعل . . إنَّك إن ظلمت الثاني زِدّته عقوقاً ، اعدل بينهما والله ـ سبحانه وتعالى ـ يبارك للبار بما أعطيته .

أنا وقّاف عند كلمة « يبارك » لأنني أطرب لسماعها ويهزني معناها . . يقولون : رجل مبارك ، رزق مبارك ، زوجة مباركة ، بيت مبارك ، بارك الله لك ، تباركنا فيك ، هذه الكلمات . . تستخدم على أوسع نطاق في العالم الإسلامي ، ما معنى بركة ؟ الخير الكثير ، ما معنى تبارك الذي بيده الملك ؟ أي ما أعظم خيره وأكثره!

الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يبارك لك أحياناً بمالك أي ينتج لك من الشيء القليل الخير الكثير ، مال يكون قليلاً فتنتفع به ببركة الله ، تتزوَّج به ،

تأكل منه تشرب ، تلبس ، وهو مال قليل ، وأحياناً المال الكثير يمحق الله بركته فإذا هو نقمةٌ على صاحبه .

أما المستقيم فالله عزَّ وجلَّ يبارك له في ماله ، وأحياناً يبارك لك بوقتك ، في الوقت القليل تفعل الشيء الكثير .

الإمام النووي ترك كُتُباً من تأليفه وعُدَّت صفحاتها وقسِّمت على سنيِّ حياته فكان نصيب كل يوم تأليف تسعين صفحة[١] ، وقد ورد أنَّه من أخَّر الصلاة عن وقتها ، أذهب الله البركة من عمره ، وإنَّ أحبَّ الأعمال إلى الله الصلاة على وقتها .

فهناك وقت مبارك.. أنت إذا صلَّيت ، إذا اقتطعت من وقتك الثمين وقتاً لخدمة الخلق ، وقتاً لنشر الحق ، وقتاً لنصرة الضعيف ، وقتاً لمواساة المسكين ، هذا الوقت الذي اقتطعته من وقتك كأنَّه زكاة وقتك.. ومن أدَّى زكاة ماله حفظ الله له بقيَّة ماله.. حصِّنوا أموالكم بالزكاة ، ومن أدى زكاة وقته حفِظ الله له بقيَّة وقته ، تجد فيما تبقى له من وقت يفعل خلاله الشيء الكثير على الرغم من أنه قصير .

أحياناً تتعسَّر أمور الإنسان ، يطلب أحد أصدقائه فلا يجده ، أو بعد أن يقوم بإصلاح محرِّك لآلة فينسى أن يضع قطعة صغيرة في محلها ، فيفك أجزاءه مرَّةً أخرى وقد أخذ من وقته الساعات الطوال ، أحياناً الله عزَّ وجلَّ يذهب لك زبدة وقتك وخلاصته وخيره في أتفه

---

(١) ويكفي أن له : المجموع وشرح مسلم والروضة والمنهاج والأذكار وتحرير التنبيه والإيضاح والفتاوى والتقريب ومناقب الشافعي وتهذيب الأسماء واللغات ، وأنه ألف في الفقه والحديث وشرح الحديث والمصطلح واللغة والتراجم والتوحيد وغير ذلك وكان يكتب حتى تكل يده فيعجز.. هذا ولم يطلب العلم إلا في سن الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة..!! .

الموضوعات ، فقد ينقصك قطعة تبديل لآلة معطَّلة والعمال ينتظرون إحضارها ، فتقوم باستيرادها وقد تأتي ناقصة من الخارج ، وذلك بأنك ضننت بوقتك على أن تصلِّي أو على أن تحضر مجلس علم ، أو أن تطلب العلم ، أو أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر أذهب الله البركة من وقتك.. وضيعه سُدى بلا طائل .

دائماً نعجب من المؤمن.. فالله يوفِّقه بأن يبارك له بوقته ؟ يفعل أشياء كثيرة في وقت قصير هذه هي البركة ، ومن هنا كان دعاء القنوت : « **اللهمَّ! اهدني فيمن هديت ، وعافني فيمن عافيت ، وتولَّني فيمن تولَّيت ، وبارك لي فيما أعطيت** » [الأربعة والدارمي] .

يعطيك دخلاً يكفيك ويغطي جميع نفقاتك ، يكفي أن يكون الإنسان معافى في صحَّته ، فقد خلَّص نفسه من الذهاب إلى الأطباء والمشافي والتصوير الإشعاعي والطبقي المحوري والمرنان ، والتحاليل ، والذهاب للخارج وتبديل دسام قلبه ، أو الكلية ، كل ذلك بمئات الألوف ، بالملايين .

إذا استقام الإنسان على أمر الله حفظ الله له صحَّته ، إذا أدَّى زكاة ماله حفظ الله له ماله ، فلا حريق ، ولا ضياع ، ولا مصادرات ، ولا مخالفات ، ولا استملاك ، والله ينجيه من كل ذلك .

فقد سمعت عن رجل والشيء بالشيء يُذكر.. له دكّان صغير في سوق شعبي وهو مستقيم طوال حياته ، لم يأكل مالاً حراماً إطلاقاً ، جاءه رجل وبتطفُّل وبأسلوب عدواني يريد شراء دكانه ، والرجل يرفض بيعها لأنَّها مورد رزقه . فقال له : أحببت هذا الدكان ويجب أن تبيعني إيَّاها.. فقد وقعت في قلبي ، وإلا أحسدك ، وما زال به

حتى باعه إيَّاها بسبعمئة ألف . وهي في سوق شعبي في طرف دمشق ، قبض الثمن منه ، وبعد عشرة أيام استُملك السوق ، فأعطوا المشتري الجديد سبعة آلاف ليرة تعويضاً!! .

فالمالك الأول كان صادقاً طوال حياته مع الناس ولم يكذب عليهم ، ولم يغشَّهم. . فكافأه الله سبحانه بأن حفظ له ماله ، سأجعل هذه الدكان تحلو بعين فلان. . فما زال به يلح إلى أن باعه إيَّاها بسبعمئة ألف ، ثم قبض الآخر تعويضاً لهذه الدكان سبعة آلاف ليرة!! .

فلذلك أركِّز على البركة. . فإذا أنت اتقيت الله عزَّ وجلَّ بارك الله لك بوقتك ، وبارك لك بصحَّتك ، وبارك لك بمالك ، وبارك لك بزوجتك .

فقد حضرت تعزية بوفاة امرأة ، وزوجها حيّ وعمره يقارب السبعين وزوجته المتوفاة في الستين ، فقد بكى بكاءً غير معقول على الإطلاق. . فهو في السبعين وزوجته المتوفاة في الستين. . فلما انتهى وقت التعزية وذهب المعزّون جرى حديث بغية ردع الزوج عن البكاء الشديد ، وأن عليه أن يصبر ويحتسب . فقال : والله عِشتُ معها خمسةً وأربعين عاماً ما نِمت ليلةً واحدة وأنا غاضبٌ عليها .

فقد بارك الله له بزوجته. . وقد تجد شخصاً يقول لك : لم أرتح يوماً واحداً معها. . فلا توسط في الزواج لنا الصدر دون العالمين أو القبر! ، فالزوجة إما بلاء من الله وإما أنها هي الدنيا وزينتها كما في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة : ٢٠١] .

العلماء فسَّروا حسنة الدنيا بالزوجة الصالحة ، التي إن نظرت إليها سرَّتك ، وإن أمرتها أطاعتك ، وإن غِبت عنها حفظتك في مالك ونفسها . . وهي ستِّيرة ، وإذا خلا بها بذلت له ما أراد منها ، فبارك الله لك في مالك ، وبارك الله لك في وقتك ، وبارك الله لك في زوجتك ، وبارك الله لك في أولادك .

تجد ابناً باراً مع أبيه دائماً ، فوالله أرى هذه نعمة كبرى ، هو في خدمته ، وبأدب وتواضع هذا من فضل الله ، فأشعر أن هنالك أسراً ناعمة البال ، راغدة العيش ، ببر بعضهم بعضاً ، ففي حياتهم بركة .

فإذا استقام الإنسان على أمر الله ينال البركة من الله . . وإذا مُحقت البركة يصبح المال نقمة ، قد يُقتل من أجل ماله ، وقد تكون الزوجة شؤماً قد ينتحر من أجلها وبسببها ، وقد يكون الابن شؤماً ، كذلك . . وهكذا تقلب له الحياة ظهر المجن .

أحياناً يكون لك قريب تقول عنه لا دين له ، إنه لا يُصلِّي ومغموس في الملذَّات إلى قمَّة رأسه ، لكنه يحترمك كثيراً ، ويُكبر فيك إيمانك واستقامتك ولك مكانة عنده ، فيأتي المؤمن الجاهل أحياناً يسيء إلى هذا الإنسان غير الملتزم بدعوى أنَّه غير ملتزم ، فاستمع إلى هذه الآية قال تعالى :

﴿ لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة : ٨] .

هو لا يعارضك ولا يحاربك ، ولا يطعن بك ، ولا يذُمُّك بل يقدِّر فيك استقامتك وإيمانك وصلاتك وهو مقصِّر وغارق في الشهوات ،

هذا الإنسان ينبغي أن يرى منك كلَّ استقامة وكلَّ بِر وكلَّ إقساط كما في الآية السابقة .

وهأنذا أؤكِّد أنَّ آلاف الحالات . . حالات التوبة أساسها عمل ذكي بسبب إحسان بادر به مؤمن ، قال الله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الشورى : ٣٩ـ٤٠] .

يسألني أحياناً أحدهم : هل أستطيع أن أعطي صدقة لقريب لا دين له ؟ فأقول : إن غلب على ظنِّك أنَّ إعطاءه هذا المال يقرِّبه منك ومن الدين فافعل . . أما إذا كان هذا المال يزيده بعداً عنك وعن الدين فلا تفعل . . فالضابط المنظِّم لهذا العمل هو : ما إذا غلب على ظنِّك أنَّ إحسانك إليه يزيده قرباً من الله .

فدائماً وأبداً . . العدل العدل ، فقد قال رسول الله ﷺ :

« اتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ » . [صحيح البخاري] .

الأبلغ من ذلك . . أنَّك إذا ظلمت مسلماً ، المسلم أبغضك أي أبغض ذاتك ، أما إذا ظلمت غير مسلم فإن المظلوم يبغض دينك ، ويقول : الإسلام ظلمني . . ينسى الإنسان ويتَّهم الدين كلَّه بالظلم لذلك يجب أن يشعر المؤمن الصادق دائماً : **« أنه على ثغرةٍ من ثُغر الإسلام ، فلا يؤتَيَنَّ من قبله »** .

الآية الرابعة في المقسط قال تعالى :

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء : ٤٧] .

قال : أوفر الناس حظاً من هذا الاسم من ينتصف من نفسه ، فلو أخطأت وأنت القوي جداً مع إنسان ضعيف جداً وظلمته فقل له : أنا أخطأت معك وسامحني . فهذا أرقى ما يتصف به أحد بالعدل ، أن تنتصف من نفسك لمن هو أضعف منك ، أن تنتصف من نفسك وليس لنفسك ، أن تنتصر لمن هو أضعف منك .

أحياناً يكون الزوج في البيت هو كل شيء ، وعنده زوجة ضعيفة إذا أخطأ قال لها : أنا أخطأت وهذا خطئي . . فهذا أعلى درجات الإنصاف .

وقد يكون عندك صانع يعمل لديك في الدكان ، وهو شاب وإخراجه من المحل ممكن بكلمة واحدة : اذهب ولا تعد . . وأخطأت معه والصانع خاف منك ، فعليك أن تقول أنا أخطأت وهذا الخطأ خطئي . هذه أعلى درجة من أنواع الكمال والإنصاف . . ألم يرد في الأثر : « **تخلَّقوا بكمالات الله** » ، وأحد العلماء يقول : « **إنَّ أوفر الناس حظاً من هذا الاسم من ينتصف أولاً من نفسه** » .

فقد يكون الإنسان في موقع لا أحد يستطيع محاسبته ، فكماله أن ينتصف من نفسه ، وأن يعترف بخطئه .

سمعت عن طبيب في مصر ، وصف دواء لطفل صغير الجرعة منه تعطى لكبير ، وبحسب علمه لو تناول هذه الجرعة لمات الطفل من فوره ، فماذا يفعل ؟ لا يوجد عنده عنوانه وهو في مستوصف عام فاتصل بوسائل الإعلام ، وقال : أرجو أن تبلغوا المواطنين أن رجلاً وابنه دخلا إلى المستوصف الفلاني ، وقد أعطيتهما وصفة فليمتنعا عن أخذ الوصفة وإلا يموت الطفل ، فهو إذا سكت لا أحد يعلم وقد

يموت الطفل دون أن يكون مداناً ، لكنه أعلن على الملأ أمام خمسين مليون أنني أخطأت ، والشيء الذي لا يصدق أن الذي أخذ هذا الدواء وصله الخبر قبل أن يعطي لابنه الدواء ، فالذي حصل عكس ماتصور الطبيب ، فإنه اكتسب سمعة وشهرة تفوق حد الخيال .

أحد العلماء يقول : « **إن أوفر الناس حظاً من هذا الاسم من ينتصف أولاً من نفسه ثم ينتصف من غيره ، أولاً من نفسه ثم من غيره** » .

وقال بعض العارفين : « **متى أكثر العبد من ذكر اسم المقسط أشرق عليه نوره ، فسرى في جوارحه ، فعدل فيها** » .

يهودي دخل على سيدنا عمر يشكو سيدنا علياً ، فقال له : قم يا أبا الحسن فقف إلى جانب الرجل. . فأصبح علي خصماً في قاعة القضاء وهو من المقربين لعمر. . فوقف ، وتغيَّر لون سيدنا علي ، فلما حكم له وانصرف اليهودي قال له : أوجدت عليَّ يا أبا الحسن ؟ فقال : نعم . فقال له : لِمَ ؟ فقال : لأنك قلت لي يا أبا الحسن ولم تقل لي يا علي ، لقد ميَّزتني عليه. . . . . لِمَ لم تقل لي : قم يا علي فقف إلى جانب الرجل ، قلت لي : قم يا أبا الحسن ؟فقبل عمر رأس علي وقال : لا أبقاني الله بأرض ليس فيها أبو الحسن ، بهذا قامت السموات والأرض ، نعم قامت بالعدل .

أُعيد على مسامع القراء قصةً ذكرتها في أول البحث ليكون عوداً على بدء ، عندما أرسل سيدنا رسول الله إلى بني النضير عبد الله بن رواحة ليأخذ ما اتفقوا عليه من ثمارهم وزروعهم ، أرادوا أن يرشوه ليترفَّق بهم ، فعلم ذلك فقال : لقد جئتكم من عند أحبِّ الخلق إليّ ،

ولأنتم أبغض خلق الله إلي من عددكم من القردة والخنازير ، ومع ذلك لا يحملني حبي لمحمد عليه الصلاة والسلام ولا بغضي لكم إلا أن أعطيكم حقكم وأن آخذ حقي ، فقال اليهود : بهذا قامت السموات والأرض ، وبهذا غلبتمونا .

وأنت تقوم وتقوى بالعدل ، وتسقط بالظلم.. ألا ترون معي أنَّ العالم كله يَئِنُّ من أن الظلام يكيلون بمكيالين ، ومن أنهم يقيسون بمقياسين ، يشددون التنكير على من يُتَّهم بقتل إنسان ولا يحاسبون من يُتَّهمون بقتل شعب ، ألا يشعر بالظلم كلُّ العالم اليوم ؟!

لذلك كما قال سيدنا رسول الله :

« تُمْلأُ الأَرْضُ جَوْراً وَظُلْماً ، فَيَخْرُجُ رَجُلٌ مِنْ عِتْرَتِي يَمْلِكُ سَبْعاً أَوْ تِسْعاً فَيَمْلأُ الأَرْضَ قِسْطاً وَعَدْلاً » [مسند الإمام أحمد] .

هذا الاسم من أخطر الأسماء في دنيا الناس.. بهذا قامت السموات والأرض ، لاتصلح سواء أكنت زوجاً ، أو تاجراً ، أو موظفاً إلا بالعدل ، والعدل أساس الملُك ، والعدل يزيدك قوةً ، والعدل أن تنتصف من نفسك قبل أن تنتصف من غيرك ، أن تقول أخطأت على الملأ فهذا الذي يرفعك عند الله عزَّ وجلَّ .

من أدعية هذا الاسم : إلهي أنت المقسط في الأحكام ، المتفضِّل بالإسلام ، عدلت في أقدارك الأزلية ، وتفضَّلت في حِكَمِك العلية .

* * *

الوالي

من أسماء الله الحُسنى الوالي ، والوالي اسمٌ من أسماء الله الحُسنى .

هذا الاسم من مادة الولاية . . والوليّ ، والمولى ، والوالي هذه الأسماء الثلاثة مشتقةٌ من مادةٍ واحدة وهي ولي ، والولاية . . تدبير الشؤون ، ففي الأسرة الأبُ يدبِّر شؤون أسرته ، وفي أيّ مجتمعٍ ، وفي أيِّ مؤسسةٍ مَنْ على رأس هذه المؤسسة يدبِّر شؤونها .

فالوالي هو الذي يدبِّر شؤون خلقه .

جاء في بعض المعاجم ، أنَّ الوالي مالك الأشياء جميعها والمتصرف فيها ، أي مالك ومتصرف ، قد تطلق يدك في بيت ولا تملكه ، وقد تملكه وليس لك الحقُّ أن تتصرف فيه ، أما مطلق الملكيَّة والتصرُّف يسمى الولاية ، وليُّ الأمر يملك ويتصرف ، فلانٌ وَليُّ أمر المسلمين ، يملك مقدَّراتهم ، ويتصرف فيها ، ويدبر شؤونهم .

فالوالي هو المالك للأشياء جميعها المتصرف فيها .

أكرر والوالي من الولاية . . تُشعر بالتدبير ، والقدرة ، والفعل في

خطة ، وهذه الخطة تنفَّذ ، لابد من أن تملك الشيء ، ولا بدَّ من أن تملك التصرف فيه ، ولا بدَّ من أن تدبر شأنه ، ولا بد من أن تفعل ما تريد ، إذا اجتمعت هذه المعاني كلها في جهة ما يمكن أن نسمي هذه الجهة الوالي .

قلت قبل قليل الولاية يشتقُّ منها المولى ، يشتق منها الولي ، يشتق منها الوالي ، والوالي اسمٌ من أسماء الله الحُسنى ، بعض العلماء يرى أن الوالي هو الذي يدبِّر أمور الخلق ويتولاها .

لهذا الكون مدبِّر ، لهذا الكون مشرف ، لهذا الكون مربٍّ ، الوالي يجمع هذه المعاني كلَّها . . لابد من أن يكون عليماً ، لابد من أن يكون مقتدراً ، لابدَّ من أن يكون خبيراً .

والحقيقة أن الخبرة مهمة جداً في الولاية ، العلم شيء والخبرة شيءٌ آخر ، في بعض الأحيان تصنع آلة وفق أعلى درجات العلم ، عند التطبيق والممارسة تكتشف بعض الأخطاء فتتلافاها في الآلة القادمة ، حينما تكشف الأخطاء وتتلافاها نقول إن خبرتك حادثة تأتي من التجربة ، مهما وضعت الخطط النظرية المحكمة ، مهما انطلقت من علمٍ غزير ، مهما أحكمت الصنعة ، فعند التدريب ومع الاستعمال تظهر بعض الأخطاء ، تظهر نقطة ضعفٍ في هذه الآلة ، سريعاً ما تنكسر فيقويها في التصنيع اللاحق . . نقول خبرة الإنسان خبرة حادثة تنمو بالتجربة ، أما خبرة الله فهي خبرة قديمة .

وما زلنا نتحدَّث عن الوالي . . الوالي هو المدبِّر ، المالك ، المتصرّف ، الفعَّال لما يريد ، هذه المعاني كلُّها يجب أن تستند إلى خبرة ، والخبرة أعمق وأشمل من العلم ، يمكن أن تعلم كلَّ شيء ،

ويمكن أن تصنع آلةً وفق علمٍ غزير ، أما حينما تجرّب هذه الآلة ، وتضعها موضع الاستعمال فسوف تتبدّى لك بعض الأخطاء التي لا بدّ من معالجتها ، وتجد أن الأكمل مثلاً أن يكون هذا الشيء في مكانٍ آخر ، تجد أن الأكمل أن تُفْتَح في هذه الآلة فتحةٌ من هذا المكان ، كلُّ شيءٍ تكتشفه في أثناء التطبيق ، وإن التجريب يعدُّ خبرة وهي زيادةٌ على العلم .

الشيء الذي ينبغي أن نعتقده أن علم الله وخبرته قديمان ، على حين أن علم الإنسان وخبرته حادثان ، العلم والخبرة تتناميان وتتكاملان عن طريق الخطأ والصواب ، والتجربة والتطبيق . .

لذلك الوالي هو المدبر لشؤون خلقه ، لا بد من أن يملك ، ولابدَّ من أن يتصرف ، ولا بدَّ من أن يدبر ، ويقدر ، وينفذ ، ويفعل . . كلُّ هذا ينبغي أن يستند إلى خبرة ، وخبرة الله قديمة .

وقد يسأل الإنسان : كم من التعديلات المتجددة طرأت على صنع الآلات ؟ ولنأخذ مثلاً المركبة . . فالمركبة التي صنعت في عام ألفٍ وتسعمئة ، والمركبة التي صنعت في عام ألفين ، فإذا أجرينا موازنة بينهما ، كم هو الفرق بينهما ؟ كبيرٌ وشاسع ، وهذا يعني أن خبرة الإنسان تتنامى ، وخبرته حادثة وتتكامل .

أما هل طرأ على الإنسان تعديل منذ أن خُلِق ؟ لعل هذا المفصل الذي في يده أو رجله يقربه إلى هناك قليلاً أو إلى هنا قليلاً ، لعل هذه الأصابع نختصرها ، لعل هذا الرسغ نثبّته ، لعل هذه العين نضعها في مكانٍ آخر ، ولعل قائلاً يقول : نكتفي بأذن واحدة ، فهل طرأ تغييرٌ على خلق الإنسان ؟ لا . . .ثم لا ، معنى ذلك أن خبرة الله عزَّ وجلَّ قديمة وكاملة .

قال : « **الولاية تشعر بتدبير الأمور ، تشعر أن الله يتولى أمور خلقه** » .

أحياناً قد تجد أباً مهملاً ، أباً غائباً عن ساحة التربية ، أباً مشغولاً ، لكنَّ الله سبحانه وتعالى هو الوالي لأمور خلقه يرعاهم ، ويرشدهم ، يبين لهم ، أحياناً يؤدِّبهم ، يردعهم ، يشجعهم ، ويكافئهم ، ويعاقبهم ، يتولى أمر أجسادهم ، ويتولى أمر نفوسهم ، يتولى أمر دينهم ، يتولى أمر دنياهم .

قالوا : « **الولاية ومنها الوالي تشعرك بالعلم والخبرة وبالتدبير والقدرة والفعل** » ، ومالم تجتمع هذه الصفات في جهةٍ ما لا يمكن أن يطلق عليها اسم الوالي .

الله عزَّ وجلَّ والٍ ، ولا والي للأمور إلا الله تعالى . . لذلك كلما تعمَّقت في الإيمان ترى أن يد الله هي وحدها التي تعمل ، وكلما ابتعدت عن خصائص الإيمان رأيت أيادي الخلق هي التي تعمل ، اقرأ قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح : ١٠] .

أحياناً تجد طفلاً يتيماً ، ففي الحقيقة إن اليتيم وليُّه الله جلَّ جلاله وليه وواليهِ ومتولي أمره ، بالمعنى المطلق لا والي للأمور إلا الله ، ولا متولي لها إلا الله ، لا مدبر للشؤون إلا الله .

قال العلماء : « **إنه المتفرد بتدبيرها أولاً ، والمنفرد بتدبيرها حقاً** » .

وإن من علامات الإيمان أن تتجاوز الخلق إلى الحق ، أن تتجاوز

النعمة إلى المنعم ، أن تتجاوز التسيير إلى المسيِّر ، التكوين إلى المكوِّن ، الخلق إلى الخالق ، التنظيم إلى المنظِّم ، هذا التجاوز هو الإيمان ، وإن أهل الدنيا عند التنظيم لا عند المنظِّم ، عند الخلق لا عند الخالق ، فالوالي هو المتفرِّد بالتدبير أولاً ، المتكفِّل بتنفيذ التدبير والتحقيق ثانياً .

يدبِّر الإنسان أحياناً ويأتي إلى التطبيق فلا يستطيع ، ويقول لك لم أستطع . . هناك عقبات ، هناك موانع ، هناك صوارف ، فالله تعالى :

﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [البروج : ١٦] .

الإنسان يريد أشياء كثيرة وقد لا يستطيع أن يفعل بعضاً منها ، لكنَّ الله هو الوالي ، أي مدبِّر ، وعالم ، وخبير ، ومالك ، ومتصرِّف ، ومع خلقه يدبِّر أمر حياتهم ، أمر مماتهم ، أمر دنياهم ، أمر آخرتهم ، أمر أنفسهم ، أمر أجسادهم ، أمر من حولهم ، أمر ما حولهم . . .

ولابدّ من مثل ، ولله المثل الأعلى . . فأحياناً تجد أباً كاملاً يدبِّر شؤون أسرته من أكبر الأشياء إلى أدقِّ الأشياء فيركن إليه جميع أفراد الأسرة ، أما المؤمن فحينما يشعر أنَّ الله هو الوالي ، هو المدبِّر ، هو المتكفِّل ، هو العليم ، هو الخبير ، هو الفعَّال لما يريد ، وأنَّ الله سبحانه وتعالى لا يغيب عن علمه شيء ، ولا يُعْجزه شيء ، عندئذٍ يركن إلى الله .

. . . ولعلَّ من سمات العصر البعد عن الله ، ومن سمات المعصية والبعد عن الله عزَّ وجلَّ القلق الشديد ، فغير المؤمن يعيش في وحشة ، لأنَّ الحياة شديدة التعقيد ، والظروف التي تتداخل وتتفاعل

في حياة الإنسان لا تُعدُّ ولا تحصى ، القِوى المحيطة بالإنسان كبيرةٌ جداً ، المتغيِّرات سريعة جداً ، العقبات كثيرة ومحبطة ، فما الذي يحُلُّ هذه المشكلة ؟ فأنت أمام ركام من المشكلات ، من القوى المتضادة ، ومن البيئات الجاذبة ، لا يُعينك على أن تنجو من هذه الحياة المعقَّدة إلا أن تستسلم لله عزَّ وجلَّ ، الحالة النفسية الآن وراء أكثر الأمراض ، يعبِّر عنها الأطباء بالشدَّة. . الشدَّة النفسيَّة التي تضغط على الإنسان ربما كانت سبب أكثر أمراضه ، وكلَّما تقدَّم العلم اليوم ، وكلَّما تقدَّم علم الطب وجد أنَّ الشدَّة النفسية وراء أكثر الأمراض المستعصية .

أما حينما تستسلم للمدبِّر ، وحينما تستسلم لمن بيده الخلق والأمر تستطيع أن تنجو من هذا الضغط النفسي .

وقيل أيضاً : « **الوالي هو المالك للأشياء المتصرِّف فيها ، بمشيئةٍ وحكمةٍ ينفذ فيها أمره ، ويجري عليها حكمه** » .

ذكرت من قبل : أنَّ الوالي والولي والمولى. . هذه الأسماء الثلاثة مشتقةٌ من الولاية ، والولاية علمٌ ، وقدرةٌ ، وملكٌ ، وتصرُّفٌ ، وتدبيرٌ ، وخبرةٌ .

بالتعريف البسيط. . الوالي هو الذي يتولى أمور الخلق ، أو هو الذي يباشر كلَّ ما من شأنه إصلاح المتولِّي عليه .

وبعد فنحن الآن أمام معنى جديد. . أحياناً الإنسان يملك ، ويتحكَّم لصالحه ، لا لصالح المتحكَّم به ، فقد يملك الإنسان شيئاً وهذه الملكيَّة يرجِّح من خلالها مصلحته على مصلحة المملوك ، كم من إنسانٍ ملك ، كم من إنسانٍ يتصرَّف بقوته في شأنٍ من شؤون

الحياة ، لكنَّ هذا التصرُّف أساسه مصلحته ، قد يبني مجده على أنقاض الناس ، قد يبني غناه على إفقارهم ، قد يبني أمنه على خوفهم ، نقول عنه مالك متصرِّف ، لكنَّ الوالي الله جلَّ جلاله يملك ويتصرَّف ويدبِّر ويعلم وهو الخبير ولكن لمصلحة خلقه.. من هذه النقطة وازن بين إنسانٍ قوي تولى أمر أُناسٍ آخرين ، وربٌّ كريم تولى أمر عباده ، فولاية الإنسان لمصلحة القوي ، لمصلحة المتولىٰ ، ولكنَّ ولاية الله عزَّ وجلَّ لمصلحة المتولَّى الذي يتولى الله أمره .

لذلك كنت سابقاً أقول : الإنسان مخيَّر في دائرة التكليف ، وهو في الحقيقة في دائرةٍ أوسع مسيَّر ، هل كان باختيارك أن تأتي من هذه الأم أو هذا الأب ؟ لا.. أنت مسيَّر في أمِّك وأبيك ، أنت مسيَّر في قدراتك العامة ، أنت مسيَّر في زمن ولادتك ، أنت مسيَّر في مكان ولادتك.. فالمكان والزمان والأم والأب والمحيط والقدرات هذه أنت لا تملكها ، ولكن لأنَّ الله تولى أمرك فهذه النقاط البارزة في حياتك لمصلحتك ، كلُّ ما لا تملك فيه أمراً هو لصالحك .

فالوالي.. هو الذي يتولى أمور الخلق ، أو هو الذي يباشر كلَّ ما من شأنه إصلاح المتولَّى.. أي هو الحاكم على الإطلاق لا يزْحَمه أحد.. ﴿وَاللهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾.. فقد قال تعالى :

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد : ٤١] .

أما الإنسان فأحياناً يحكم ، ثم تأتي ضغوط ، وتتلاحق وسائط ، وتتوالى عليه رجاءات ، وضغطٌ شديد فيجد نفسه مرغماً على التراجع في الحكم ، لكنَّ الله سبحانه وتعالى.. ﴿يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾..

﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ﴾ .. فقد قال تعالى :

﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد : ١١] .

الحسن البصري كان عند الوالي ابن هبيرة فجاءه أمرٌ من الخليفة يزيد إذا نفَّذه أغضب الله ، وإن لم ينفِّذه أغضب يزيد ، فوقع كما يقولون ـ في حيص بيص ـ فاستشار الحسن البصري فقال هذا الإمام التابعي الجليل : « **إنَّ الله يمنعك من يزيد ، ولكنَّ يزيد لا يمنعك من الله** »... والله هذه الكلمة على إيجازها لو عقلناها.. فأيةُ جهةٍ قويةٍ مهما كانت ضاغطة ، وتجعلك أمام خيار صعب : إما أن ترضي زيداً وتعصي الله ، وإما أن تطيع الله وتغضب زيداً ، فما العمل ؟... الجواب : إنَّ الله يمنعك من يزيد ، ولكنَّ يزيد لا يمنعك من الله .

فالإنسان إذا استيقظ صباحاً معافىً في جسمه ، هذا من فضل الله عليه ، ولو أنَّ الله سبحانه وتعالى تخلَّى عنه ، أيُّ خلل في جسمه يجعل حياته جحيماً لا تطاق .

وقيل : الوالي « **هو المنفرد بالتدبير ، القائم على كلِّ شيء ، ولا دوام ولا بقاء إلا بإذنه** » .

المنفرد بالتدبير فنحن يهمنا التوحيد.. فالله عزَّ وجلَّ موجود ، وواحد ، وكامل ، أي واحدٌ في ذاته ، واحدٌ في صفاته ، واحدٌ في أفعاله ، واحدٌ في ذاته لا إله إلا الله.. واحدٌ في صفاته ، إذا قلنا الوالي المتفرد بالولاية ، إذا قلنا الرحمن المتفرِّد بالرحمة. . الآن في الأفعال هو وحده الجبَّار ، هو وحده القهَّار ، فقد قال تعالى :

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس : ٢٤] .

﴿ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا ﴾ . . لا أمرهم .

وبديهي جداً أن الإنسان يميل إلى الأقوى ، فلو عرضوا عليك أن تعمل مع إنسان ضعيف أم مع إنسان قوي ؟ فإنك تؤثر الأقوى لأنَّه إذا وعدك ينفِّذ ، وإذا أمر ينفِّذ ، وإذا منع ينفِّذ ، أما الضعيف ولو أنَّه يحبُّك لكنه ضعيف فلا يقدر أن يتصرف . . فإذا تيقَّنت أنَّ الله وحده متفرِّدٌ بالولاية ، انتقلت من أن تكون خاضعاً لإنسان يتولّى أمرك لصالحه ، وإلى أن تخضع للواحد الديَّان يتولى أمرك لمصلحتك ، فرق كبير ، فقد يتولى أمرك إنسان ويكلِّفك أعمالاً لا تطيقها ، يأخذ من مالك ، هو قويٌّ عليك ، يبتزُّ مالك ليزيد ماله أو يبتزُّ مالك ووقتك وطاقتك ، لكنَّ الله سبحانه وتعالى كماله مطلق فقد قال تعالى :

﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن : ٧٨] .

بقدر ما هو عظيم بقدر ما هو كريم ، بقدرما ينبغي أن تخافه بقدر ما ينبغي أن تحبَّه ، كما تعلمون قد تحبُّ جهةً ولا تقدِّرها ، وقد تقدرها ولا تحبها ، أما الذات الكاملة ، الله ـ جلَّ جلاله ـ فأنت تعظمه لأنه قوي ، تعظمه لأن الأمر كله بيده ، لأنه ولي ، لأنه والٍ ، لأنه متولٍّ أمرك ، وفي الوقت نفسه تحبه لأنه رحيم .

المعنى الثاني . . أنه يتولى أمرك لإصلاح شأنك .

والمعنى الثالث.. أنه يتولى أمرك لينقلك من حالٍ إلى حال، القائم على كل شيء، المنفرد بالتدبير، ولا دوام ولا بقاء إلا بإذنه، وكل شيءٍ يجري بحكمه وبأمره.

وقال بعضهم: «الوالي هو المنعم بالعطاء، الدافع للبلاء، يدفع البلاء وينعم بالعطاء».

إنّ بعض الذين كتبوا عن أسماء الله الحسنى ذكروا اسم الوالي مستقلاً عن بقية الأسماء، ذلك أن هذا الاسم لم يرد كثيراً في القرآن الكريم.. إن بعض الأسماء الحسنى قد يرد كثيراً، وبعضها قلّما يرد، وبعضها ترد مادته ولا يرد لفظه، لم يرِد في القرآن الكريم ولكنه مجمعٌ عليه وقد ورد في سورة الرعد في قوله تعالى:

﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾.

هناك معقباتٌ أو ملائكة يسجلون عليه كل حركةٍ وسكنة، وكل أقواله وأفعاله، أما هنا فمعنى آخر يحفظونه من أمر الله، فقد تجد أحياناً طفلاً صغيراً يقع مئات المرات، ومن الممكن أنه في كل مرة يقع، فقد يصاب بمرضٍ عُضال، لكنَّ الذي يحفظه هو الله عزَّ وجلَّ من خلال الملائكة، فقد قال تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾.

المؤمن محفوظ، والنبي ﷺ معصوم، ولأن المؤمن محفوظ، فقد تجد أن أخطاراً كثيرة تحدق به، سنتيمتر واحد وكاد أن يموت، مسافة قصيرة كاد أن يدعس، خطأ طفيف كاد أن يقتل، من الذي

يحفظ الإنسان من هذه الأخطار ؟ هو الله عزَّ وجلَّ . . ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ ﴾ . . من بين يديه من أمامه ، من خلفه من ورائه هؤلاء الملائكة الذين يحفظونه هم من أمر الله ، يحفظونه بأمر الله .

قال الله تعالى : ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾ .

وما دمنا قد قرأنا هذه الآية ، إن هذه الآية وحدها . . لو عقلها المسلمون لكانوا في حالٍ غير هذا الحال ، أنت مؤمن ، هذه الكرة أنت مالكٌ لها ، كرةٌ أكبر لا تملكها فيها قِوى مسيطرةٌ تمنعك . . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ ﴾ أنت إذا أقمت أمر الله فيما تملك ، كفاك ما لا تملك ، لا تحلُّ مشكلة المسلمين إلا بهذه الآية ، فيما أنت فيه ، فيما أنت قادرٌ عليه ، فيما أنت مسيطرٌ عليه ، فيما وكَّلك الله به ، فيما أناطه الله بك . . هذه الدائرة بيتك فيها ، عملك فيها ، حركتك فيها ، سكونك فيها ، سفرك فيها ، إقامتك فيها ، كسب المال فيها ، إنفاق المال فيها ، وقت الفراغ فيها ، أفراحك فيها ، أتراحك ـ لا سمح الله ـ فيها ، الشيء الذي أنت مسيطرٌ عليه ، الموكول إليك ، المناط بك مملكتك ، منطقة نفوذك ، إذا أقمت أمر الله في هذه المنطقة ، إذا أقمت أمر الله فيما تملك ، كفاك ما لا تملك .

والإنسان محاط بقوى لا يملكها . . بقوى ماديَّة ومعنوية ، وقوى لا يراها بالعين المجردة . . فالجراثيم ، والفيروسات ، ومسببات

الأمراض هذه لا يراها ، لا يملك زمامها وكذلك الزلازل ، الفيضانات ، الصواعق ، البراكين ، القذائف ، الألغام ، الأمراض . . . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ . . واقع المسلمين اليوم عكس ذلك ، أهملوا ما هم مالكون له ، تطلَّعوا إلى ما لا يملكون فأصابهم اليأس . . تفلُّت في البيت ، تفلُّت في العمل ، عدم انضباط شرعي ، يقابل ذلك ضعفٌ أمام القوي ، يأسٌ أمام المتملِّك ، فلماذا أنت فيما تملك مقصِّر ، وفيما لا تملك متطفِّل ؟ ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ . . فقد قال تعالى :

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

وها نحن أمام آيةٍ أخرى هي قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة : ١٠٥] .

الأصل أن تأمر بالمعروف وأن تنهى عن المنكر ، الأصل أن تحمل هموم المسلمين ، ولكن قبل أن تأمر ، وقبل أن تنهى ، وقبل أن تحمل هموم المسلمين ، عليك أن تعتني بنفسك ، عليك أن تهذِّبها ، عليك أن تحملها على طاعة الله ، عليك أن ترقى بنفسك ، عندئذٍ يكفيك الله ما لا تملك ، أقم أمر الله فيما تملك ، يكفك ما لا تملك . . هذا المعنى ورد في الأثر القدسي :

« عبدي . . خلقت السموات والأرض ولم أعي بخلقهن ، أفيُعييني

رغيفٌ أسوقه لك كلَّ حين ؟ لي عليك فريضة ولك عليَّ رِزق ، فإذا خالفتني في فريضتي لم أُخالفك في رزقك ، وعِزَّتي وجلالي إن لم ترض بما قسمته لك فلأُسلِّطنَّ عليك الدنيا ، تركض فيها ركض الوحش في البريَّة ، ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك ولا أُبالي وكنت عندي مذموماً . . أنت تريد وأنا أريد ، فإذا سلَّمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد ، وإن لم تسلِّم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد ، خلقت لك السموات والأرض من أجلك فلا تتعب ، وخلقتك من أجلي فلا تلعب ، فبحقِّي عليك لا تتشاغل بما ضمنته لك عما افترضتُه عليك » .

قديماً كانت في دمشق مدرسةٌ ثانوية ضخمةٌ جداً وكانت الأولى في القطر ، وهي مدرسة التجهيز الأولى ، وكنت في الخمسينيات طالباً فيها ، القسم العلوي يشتمل على أضخم مكتبة في دمشق وقاعات للمطالعة ومهاجع ، والقسم الشمالي مطعم . . كانت الدراسة فيها داخليّة فيأتي الطلاب إليها من كلِّ المحافظات ليكونوا طلاَّباً داخليين ، فيجد الطالب سريراً وثيراً وطعاماً جيداً ، ويوجد طبيب مقيم ، ومسجد وإمام ، فتقريباً كأنَّها جامعة . . خطر في ذهني ذات مرة أنَّ هؤلاء الطلاب لهم مواعيد دقيقةٌ جداً ، فيستيقظون في وقت معيَّن ، وطعام الإفطار يكون جاهزاً الساعة السابعة والربع ، وكل شيء معد وجاهز ، وينطلقون إلى قاعات التدريس الساعة الثامنة ، وينتهي الدوام فيصلّون صلاة الظهر ثم إلى مهاجعهم ، وفي تمام الساعة الثانية يكون طعام الغذاء جاهزاً ، وبعد الطعام والقيلولة يذهبون إلى قاعات المطالعة ليدرسوا ، ويحضِّروا ، ويذاكروا حتى الساعة العاشرة .

لو أنَّ طالباً ترك قاعة المطالعة وقد كلِّف أن يدرس ، ترك

المذاكرة وقد كلِّف أن يذاكر ، ترك حفظ هذا الدرس وقد كلِّف أن يحفظه ، ترك حلَّ هذه المسألة وقد كلِّف أن يحُلَّها ، ترك مراجعة دروسه وقد كلِّف أن يراجعها ، وذهب إلى المطبخ ليتفقَّد أحوال الطبَّاخين.. ماذا فعلتم ؟ هل أنجزتم هذا العمل ، هل قطَّعتم هذه الخضراوات ، هل وضعتم الملح في الطعام ؟ ماذا يقال له ؟ عُد إلى قاعة المطالعة ، واشتغل بما أنت مكلفٌ به وسوف ترى الطعام جاهزاً في الساعة الثانية بعد الظهر ، إذاً فهذا طالب ترك مهمته الأساسيّة ووضع نفسه في موضوعٍ لا علاقة له به ، في حين أن كل شيء معد وجاهز .

لذلك : لا تتشاغل بما ضمنته لك عما افترضته عليك ، وهذا مرضٌ خطير من أمراض المسلمين ، يتشاغلون بما ضمن لهم ، ويتغافلون عما طُلب منهم ، المضمون يشتغل به ، والمطلوب يتساهل فيه .

لذلك فأنت في الدنيا من أجل أن تعرف الله ، أنت في الدنيا من أجل أن تعمل صالحاً تتقرَّب إليه ، وقد تكفَّل الله لك برزقك ، تكفَّل الله لك بأمرك.. يحمل هموم الدنيا وينسى هموم الآخرة ، يحمل همَّ العيش وينسى همَّ الإيمان والعمل بمقتضاه.. فبحقي عليك لا تتشاغل بما ضمنته لك عما افترضته عليك .

لذلك فالإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى سمع من عبد الله بن الحارث بن جزء أثراً ، أحدث في حياته انعطافاً خطيراً.. ما هو ؟ قال : **« من تفقه في دين الله كفاه الله تعالى همه ورزقه من حيث لا يحتسب »** .

ليس معنى هذا أن تستيقظ فتجد تحت الوسادة خمسين ألفاً . . لا . . معنى ذلك أنَّك إذا طلبت العلم يسَّر الله لك رزقاً حلالاً بجهدٍ قليل ومردودٍ كثير .

. . ما من إنسان يطلب العلم ويخطب ودَّ الله عزَّ وجلَّ ، ويعمل الأعمال الصالحة ، ويحرص على التقرُّب إلى الله ، إلا يسَّر الله له رزقاً حلالاً طيِّباً بجهدٍ قليل ، والله عزَّ وجلَّ قادر على أن يجعل الإنسان يعمل عشرين ساعة ليأكل فقط ، وليحصِّل لقمة العيش فقط . . فقد قال تعالى :

﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ [المدثر : ٥٠ـ٥١] .

« وعزَّتي وجلالي . . إن لم ترض بما قسمته لك فلأسلِّطنَّ عليك الدنيا ، تركض فيها ركض الوحش في البريَّة ، ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك ولا أبالي وكنت عندي مذموماً . . . » .

الله قادر على أن يعينك فتبذل جهداً معقولاً وتعيش حياةً مريحة إذا طلبت العلم ، لذلك هذا الوقت الذي أنت فيه له زكاة ، زكاة الوقت أن تطلب العلم ، زكاة الوقت أن تعمل فيه عملاً صالحاً ، أن تدعو إلى الله ، أن تصل رحمك ، أن تُعين الآخرين ، أن ترعى الأرملة واليتيم ، زكاة الوقت تضمن لك حفظ بقيّة الوقت من أن يتبدد ، كما أنَّ زكاة المال تضمن لك حفظ بقيّة المال من أن يتلف . . إذا أديت زكاة الوقت فطلبت العلم حفِظ الله لك بقيّة الوقت .

وبالمناسبة فإن الله قادر على أن يصرف الإنسان لتبديد عشرين ساعة بلا طائل . . ففي يوم مثلاً قد ترتفع حرارة أحد أبنائه إلى الأربعين درجة ، فيذهب إلى الطبيب الأول ولا يستفيد ، ثم إلى

الطبيب الثاني ، ثم للثالث ويطلب منه أن يحلل ويصوِّر ، وتصوير طبقي محوري ـ مرنان ـ بستة عشر ألف ليرة ، وتصوير ـ بالإيكو ـ ويقوم بدفع خمسة وعشرين ألفاً ولمدة أربعة أو خمسة أسابيع ولا ينام الليل ، ثم بعد ذلك يتعافى ابنه من المرض فكم أضاع من الساعات ؟ وكم من الساعات قام بانتظار المحلل ، والمصور ، والطبيب ، وكم من الساعات وقف في الدور لحين وقت دخوله على الطبيب ، وكم من المبالغ دفع ؟

هذا كلام دقيق ، فالله قادر على أن يتلف لك وقتك ومالك ، فإن لم تدفع زكاة مالك ، وإن لم تدفع زكاة وقتك ، تلف الوقت والمال معاً ، ألا يقولون : فلان مبارك . أي أنَّ الله عزَّ وجلَّ بارك له في ماله ، بالمال القليل رأى الخير الكثير ، وبالوقت القليل أنجز الفعل الكبير .

كانت أوقات السلف الصالح مباركة ، فقد عملوا من الأعمال التي تفوق حدَّ الخيال ، فإذا عندك فراغ فاقرأ كتب الإمام النووي في الفقه ، وفي الحديث ، وفي الأذكار ، وفي شرح مسلم ، متى كتب هذا كلَّه ؟ لم يصل عمره إلى الخمسين عاماً ، ولم يبدأ الطلب قبل الثامنة عشرة. . ؟!

قال لي أحد الإخوة الكرام : حدثتني نفسي ذات مرةً أن أترك مجلس العلم ، فذهب هو وأهله إلى نزهة فوصل إلى مكان فيه نبع ، فأراد أن يملأ الوعاء فجاء شاب له مظهر أديب أخذ منه الوعاء وعبَّأه له ، أثنى على أخلاقه وأدبه. . فإذا هويَّته ومحفظته وفي داخلها شهادة قيادته ، وبطاقة السيارة ، وهويته الأساسيّة الشخصية ، ومبلغ ثمانمئة

ليرة أخذها منه هذا الشاب دون أن يدري فقال لي : بقيت ستَّة أشهر أذهب من دائرة إلى دائرة لأجدد هذه البطاقات الضائعة. . ثم قال لنفسه : لعله عقاب من الله لأنه ترك درس العلم .

وبالطبع ليس كل إنسان يعامل هذه المعاملة. . فقط القريب من الله يعامل ، والملتزم الحريص على طاعة الله إذا أخطأ أو اتخذ قراراً غير سليم ، فالله عزَّ وجلَّ يحاسبه حساباً دقيقاً. . « **ما ترك عبدٌ شيئاً لله إلا عوَّضه الله خيراً منه في دينه ودنياه** » .

هذا الكلام أتأثَّر به كثيراً. . هم في مساجدهم ، والله في حوائجهم .

قال لي رجل : لابدَّ من أن أسافر إلى حلب أبحث عن مورِّد لبضاعة معيَّنة ولا أملك عنوانه الدقيق ، ولا بدَّ من أن أنام ليلةً هناك وتستغرق المهمة يومين. . ركوب وذهاب وإياب ، وفندق وطعام وشراب وإنفاق. . فكلِّف بعمل لله فأنجزه عن طيب خاطر ، فإذا بهذا الرجل الذي كان ينبغي أن يسافر إليه إذا به أمامه في متجره في الشام .

أنت أنفقت ساعتين في خدمة الخلق فوفَّرت ثلاثين ساعة ،. . فهناك وقت يذهب هدراً ، بلا طائل ، ومع الألم ، فمثلاً أنت تقصد شخصاً فتركب السيارات الواحدة تلو الأخرى وتتردد على بيته ويقولون لك : الآن خرج من البيت. . فلا حول ولا قوَّة إلا بالله . أو يعِدُك إنسان لإنجاز عمل ما ، وبعد أن تأتيه في الموعد المحدد يقال لك : لم أنته بعد من إنجاز العمل وائتِ غداً .

تتابع قضيّة في دائرة فيأخذ الموظف المسؤول إجازة ثمانية أيام

فتنتظر ، أو ترسل لاستيراد قطعة تبديل من الخارج لمعملك فتأتي القياس خطأ ، فتعيدها مرةً أخرى لجلب غيرها ، فالله قادر على أن يهدر لك الوقت ، وقادر على أن يتلف لك المال ، فأدِّ زكاة وقتك بطلب العلم ، وأدِّ زكاة مالك بالإنفاق يحفظ الله لك وقتك ومالك .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾ . . الوالي هو الله وحده ولا والٍ إلا الله .

وقيل : « الوالي هو المتصرِّف بمشيئته في العوالم ، دبَّر شؤون خلقه أزلاً ، وأبرزها أبداً بحكمة الكريم الراحم ، هو الذي يوالي عباده بالإحسان ، ويفيض عليهم ممداً بالحنان ، عطاؤه يتكرر بغير انقطاع ، ويتكرر دون امتناع » .

وقيل : « الوالي هو المتولي أمور خلقه بالتدبير والقدرة والفعل » .

وقيل : « الوالي المالك للأشياء المتكفِّل بها ، القائم عليها بالإدامة والإبقاء ، المنفرد بتدبيرها ، المتصرِّف بمشيئته فيها ، ينفذ فيها أمره ، ويجري عليها حكمه ، فلا والٍ للأمور سواه » .

الإنسان من أجل أن يتأدَّب بهذا الاسم عليه أن يذكر اسم الوالي ، وعليه أن يتخلَّق بكمالات الله ، فيعتني بمن دونه ، أي أن يكون والياً لأسرته ، والياً في محيط عمله أن يدبِّر ، وأن يرتِّب ، وأن يعطي ، وأن يمنع ، وأن يذكِّر ، وأن يؤنِّب ، وأن ينصح ، وأن يُكرم ، وأن يعاقب . . كما أنَّ الله سبحانه وتعالى تولاَّك فنقلك من الظلمات إلى النور ، تولّ أنت عباده فانقلهم من الضياع إلى الهدى ، من الشقاء إلى السعادة ، فتخلَّق بكمالات الله .

وبعد أن ذكرت موضوع الوقت ، وتأدية زكاته ، والمال وتأدية زكاته ، وكيف أن الإنسان إما في تعسير ، وإما في تيسير ، فإني أريد بعدها أن أذكِّر بقوله تعالى :

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ [الليل : ٥-٧] .

﴿أَعْطَىٰ﴾ . . أعطى من وقته لطلب العلم ، أعطى من ماله ، ﴿وَاتَّقَىٰ﴾ أن يعصي الله عزَّ وجلَّ ، ﴿ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ . . آمن ، واستقام وأعطى عطاءً مطلقاً . . قال : ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ . . هذا هو التيسير ، فلا تقل لي : فلان محظوظ ، فلان يده خضراء ، فلان كيف ما تحرَّك أصاب ، فهذا كلام لا معنى له ، ولكن قل لي : هذا أموره ميسَّرة ، وهذا أموره معسَّرة ، والتيسير له قانون ، والتعسير له قانون . . ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴾ . . آمن واستقام وأعطى من وقته وماله . . ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ . .

﴿ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل : ٨-١٠] .

﴿ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ﴾ . . لم ينفق لا وقته ولا ماله . . ﴿ وَاسْتَغْنَىٰ﴾ . . عن أن يطيع الله ، ﴿ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ . . للتيسير قانون ، وللتعسير قانون .

واسم الوالي يصلح لمن يتولى أمور العباد ، الله يتولى أمور العباد لصالحهم ، والإنسان الشارد أحياناً يتولى أمرهم لصالحه ، وشتَّان بين الولايتين ، إذا تولَّيت أمر عشرة فتَوَلَّ أمرهم لصالحهم ، فإذا أمَّرت عليهم من ليس أهلاً لهذه الإمارة فقد خُنت الله ورسوله .

سيدنا عمر كان إذا أراد أن يعيِّن والياً امتحنه وقال له : ماذا تفعل إذا جاءك الناس بسارقٍ أو ناهب ؟ قال : أقطع يده . قال : إذاً فإن

جاءني من رعيَّتك من هو جائعٌ أو عاطل فسأقطع يدك ، إنَّ الله قد استخلفنا على خلقه لنسدَّ جوعتهم ، ونستر عورتهم ، ونوفِّر لهم حرفتهم ، فإن وفَّينا لهم ذلك تقاضيناهم شكرها ، إنَّ هذه الأيدي خُلقت لتعمل ، فإذا لم تجد في الطاعة عملاً التمست في المعصية أعمالاً ، فأشغلها بالطاعة قبل أن تشغل بالمعصية .

فلو عيَّن معلم في الابتدائي مثلاً عريفاً على هؤلاء الطلاب في الصف الأول ، وفيهم من هو خيرٌ منه فقد خان الله ورسوله . عيَّنه لأنه ابن أخته فقد خان الله ورسوله ، وقِس على هذه الحقيقة ما شئت .

فإذا كنت والياً عليك أن تتخلَّق بكمالات الله الوالي ، وأخيراً . . اللهمَّ أعطنا ولا تحرمنا ، أكرمنا ولا تهنا ، آثرنا ولا تؤثر علينا ، أرضنا وارضَ عنَّا ، وصلَّى الله على سيِّدنا محمدٍ النبيِّ الأميّ وعلى آلهِ وصحبه وسلَّم .

* * *

البَاقِي

من أسماء الله الحُسنى الباقي .

هو الحيُّ الباقي على الدوام ، البقاء ضدُّ الفناء ، شأن الخلق الفناء ، وشأن الله البقاء ، شأن الخلق أن كلَّ من عليها فان ، وشأن الخالق أنه باقٍ على الدوام ، إلا أن كلمة (بقيّة) تعني طاعة . . قال تعالى : ﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾

[هود : ٨٦]

﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ . . أي طاعته خيرٌ لكم ، من أين استنبطنا أن البقية هي الطاعة ؟

الله جلَّ جلاله أودع فى الإنسان الشهوات ، هذه الشهوات حيادية يمكن أن نستخدمها وفق منهج الله وبخلاف منهج الله ، إن مارست الشهوات وفق منهج الله فأنت أخذت بقية الله ، كسب المال أنواعٌ كثيرة محرمة ، يكون اغتصاباً ، سرقةً ، تدليساً ، كذباً ، غشاً ، خداعاً ، أما التجارةُ الشرعيةُ عن قبولٍ ورضا وصدقٍ وأمانةٍ فهذه بقية الله خيرٌ لكم ، هذه المرأة الأجنبية محرَّمٌ أن تنظر إليها ، وهذه وتلك ، إلا أن الزوجة والمحارم بقيّة لك من النساء فلك أن تنظر إليهن .

فالبقيّة هى الطاعة.. وسرُّ تسمية البقية الطاعة أن الله سبحانه وتعالى أودع فى الإنسان شهوات يمكن أن نتحرك من خلالها على نحو واسعٍ جداً ، إلا أنّ من هذا التحرك الواسع تحركاً منهجياً ، تحركاً شرعياً ، تحركاً وفق ما أمر الله ، ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.. لذلك المؤمن لو عرض عليه مالٌ كثير إن لم يكن شرعياً يركله بقدمه يقول : الله هو الغني ، ويسأل الله الغني أن يغنيه الله مالاً حلالاً من فضله .

أحياناً تدعو امرأةٌ ذات منصبٍ وجمال شاباً طائعاً لله يقول : معاذ الله : إني أخاف الله رب العالمين ، بقية الله لهذا الشاب زوجته .

إذاً البقاء ضدُّ الفناء ، وبقية الله طاعته وانتظار ثوابه.. أحياناً الطاعة تكون مجهدةً ومتعبة وفيها كلفة ، ماسمي التكليف تكليفاً إلا لأنه ذو كلفة ، لكن هذه الكلفة تمضي ويبقى الثواب ، أما المعصية ممتعة ، والمتعة تمضي ويبقى العقاب ، فهذا كله شيء عابر ، متاعب الطاعة عابرة ، لذائذ المعاصي عابرة.. ماالذي يبقى إلى أبد الآبدين ؟ ثواب الطاعة ، وجزاء المعصية . فالمؤمن يفكر فيما سيبقى ، لا فيما سيفنى .

لذلك.. ألا يا رُبَّ شهوة ساعةٍ أورثت حزناً طويلاً.. أحياناً شهوة ساعةٍ تسبب مرضاً جلدياً مزمناً إن لم يكن قاتلاً فيصيب قلب هذا الإنسان المنحرف : الآلام والحزن والغمّ والضيق والقلق والخوف ، وما لا سبيل إلى وصفه . اللّذة انتهت في ربع ساعة ، وبقيت الآلام إلى عشرين عاماً .

لذلك فالعاقل هو الذي يتحرَّك وفق منهج الله.. فلدينا آيةٌ دقيقة

جداً في هذا المعنى وهي قول الله تعالى :

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [القصص : ٥٠] .

هناك معنى مخالف لهذا المعنى.. أي أنَّك إذا انطلقت وفق هدى الله عزَّ وجلَّ فلا شيء عليك ، وفق منهج الله لا حرج عليك ولا إثم .

تتوق نفسك إلى النساء فتزوَّج ، لا شيء عليك ، يمكن أن يلتقي بأهله ، وأن يصلي قيام الليل ، وأن يبكي في قيام الليل ، لأنَّه لم يفعل شيئاً خلاف منهج الله ، يمكن أن تكسب مالاً حلالاً تشتري به طعاماً وشراباً وثياباً لنفسك ولأهلك ولأولادك ولزوجتك ، ويمكن أن تستمتع بجمال الطبيعة وأنت تصلّي وتُقبلُ لأنَّك وفق منهج الله ، إنَّك تتبع الهوى وفق ما أمر الله عزَّ وجلَّ.. ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ﴾.. المشكلة أن تتبع الهوى دون منهج الله ، أن تتحرَّك حركةً عشوائيَّة ، أن تنطلق إلى حيث تريد دون أن تنظر إلى قواعد الشرع .

وهناك معنى ثالث للباقيات وهي الباقيات الصالحات ، وهي نتاج الاستقامة مع الله.. البقاء ضدُّ الفناء وهذا ورد في اللغة ، وقد عرفت أيضاً أن بقيَّة الله طاعته أو انتظار ثوابه ، أما الباقيات الصالحات : فالإنسان يجتهد ويجتهد ويؤدي امتحاناً وينتظر النتائج.. ينتظر التكريم ، ينتظر احتفالاً تكريمياً له ، ينتظر أن يدخل إلى الجامعة ، ينتظر أن يصبح ذا مرتبة علمية عالية ، ينتظر أن يكون مرموقاً في المجتمع ، هذا الذي ينتظره.. لذلك قال عليه الصلاة والسلام في

كلام دقيق ولطيف جداً : « **أوصيكم بالأنصار ، فإنه كرشي وعيبتي ، وقد قضوا الذي عليهم وبقي الذي لهم فاقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئتهم** » [رواه البخاري] .

وأنت ـ كمؤمن ـ تعيش في زمنٍ صعبٍ ، في زمن الفتن ، في زمن النساء الكاسيات العاريات ، في زمن الشهوات المستعرة ، في زمنِ القابض على دينه كالقابض على جمر ، في زمن ترى أنَّ كلَّ ما حولك يدعوك إلى المعصية ، في زمن ترى أنَّ استقامة الإنسان على أمر الله مجهدة .

أنت إذا فعلت هذا وضبطت نفسك ، وحملت نفسك على طاعة الله ماذا بقي لك ؟ بقي لك ثواب الطاعة ، بقي لك الإقبال على الله ، بقي لك التوفيق .

ولنعلم جميعاً أن هناك خيراتٍ لا يعلمها إلا الله تنتظر المؤمن. . لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

« **اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا ، وَاعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمُ الصَّلاةَ ، وَلا يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إلا مُؤْمِنٌ** » [سنن ابن ماجه] .

أي لن تستطيعوا أن تُحصوا الخيرات التي سوف تأتيكم من طاعتكم لله .

أنا أخصُّ بكلامي هذا ؛ الإخوة الشباب. . شاب في ريعان شبابه ، لا أحد في الأرض يمنعه من أن يطلق بصره في الحرام ، وأذكر في هذه النقطة الدقيقة أنَّ هناك في منهج الله عزَّ وجلَّ محرَّمات ، وفي القوانين الوضعية لكلِّ مجتمعٍ محرَّمات ، أحياناً

تنطبق بنود المحرَّمات في منهج الله على بنود المحرَّمات في قوانين العباد .

فالسرقة حرَّمها الشرع والقوانين الوضعية تحرِّمها ، والرشوة حرَّمها الشرع والقوانين تحرِّمها ، وهناك كثير من البنود تتفق فيها القوانين مع الشرع ، فترك السرقة قد يكون خوفاً من الله وحده ، وقد يكون ترك السرقة خوفاً من العقاب الأليم الذي ينتظر السارق بحسب القوانين ، إلا أنَّ الله سبحانه وتعالى شاءت حكمته أن يبقي في الدين بنوداً لا تتفق مع القوانين أبداً ، منها غضُّ البصر.. فليس في الأرض كلِّها قانونٌ يمنعك أن تنظر إلى امرأة لا تحلُّ لك.. فإذا غضضتَ بصرك عن محارم الله فالدافع إلى هذا خوف الله وحده .

فهناك حالات.. كأن تكون في البيت والنافذة مفتوحة ، وامرأة الجار خرجت إلى الشرفة بثيابٍ متبذِّلة ، ليس في الأرض كلِّها جهةٌ يمكن أن تحاسبك إذا نظرت إليها ، لا هي تعلم ولا أحد يعلم ، لكنَّك إذا قلت كما قال سيدنا يوسف.. قال تعالى :

﴿ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [يوسف : ٢٣] .

لو قلت.. ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ ﴾.. وغضضتَ البصر ، فأنت بهذا تخاف ممن ؟ الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور .

ثق ـ ولا أتألى على الله ـ أنه في هذا الزمن الصعب أنَّ كلَّ غضٍّ بصرٍ يرقى بك إلى الله .

الباقيات الصالحات.. الأنصار أدَّوا الذي عليهم وبقي الذي لهم.. والشاب التائب قد أدَّى ما عليه من صلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ

وطاعةٍ لله وتلاوةٍ وذكرٍ وغضٌّ للبصر وصدقٍ في الحديث ، وعفةٍ عن المحارم ، وتحريرٍ في الدخل ، وإنفاقٍ شرعيّ . . . أدّى الذي عليه . . والذي بقي له ؟ كلٌّ خير . . لذلك قال ﷺ : « **استقيموا ولن تُحصوا** » .

أما الباقيات الصالحات فهي الأعمال الصالحة التي تبقى ، وما سواها يفنى .

. . بيتك مهما كان فخماً عند الموت تتركه ، زوجتك مهما أحسنت اختيارها عند الموت تتركها ، الإنسان في الدنيا له ثلاثة أشياء : ماله ، وأهله ، وعمله . . ماله يبقى في البيت ، وأهله يشيّعونه إلى شفير القبر ثم يرجعون ، أما الذي يدخل معه فعمله .

ورد في الأثر : يا قُيس إن لك قريناً تدفن معه ، وهو حي ويدفن معك وأنت ميّت ، فإن كان كريماً أكرمك ، وإن كان لئيماً أسلمك ، ألا وهو عملك .

قالوا : « **القبر صندوق العمل ، إن كان العمل كريماً أكرمك ، وإن كان لئيماً أسلمك** » .

الآية الكريمة :

﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ [الكهف : ٤٦] .

﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ . . تقام وليمة فيقول لك : كلّفتني ثمانين ألفاً . . شيء بالفعل نفيس ، يدعو الناس ويفتخر بماله وبأذواقه ، يشتري مركبةً فخمةً جداً يتيه بها على الناس ، يسكن في بيت فخم ويعرضه على كلّ زائر ويتكلّم على مساحته وأبهائه ،

وغرفه ، وأثاثه . . المال والبنون ، أولاد يرتدون أجمل الثياب متألِّقون ، وهو يقول لك : هذا ابني ، وهذه ابنتي . . ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ . . فقد عرَّف الله المال والبنين أما قوله تعالى : ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ فهي محط الرجاء . . وفي القرآن ما يسمَّى بمفهوم المخالفة . . فقد قال لك :

﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ . . لم يقل لك تبقى أو لا تبقى ، فالفناء ضمني ، لأنها ليست باقيات ولكن قال : ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ أي الذي يبقى الأعمال الصالحة .

بعد أن تعرف الله حقاً ، وبعد أن تستقيم عقيدتك ، وبعد أن تستقِرَّ قناعاتك فليس أمامك إلا العمل الصالح ، ويتفاوت الناس عند الله بأعمالهم الصالحة والدليل قول الله عزَّ وجلَّ : ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام : ١٣٢] .

أنت لك عند الله درجة بقدر عملك الصالح . . أي أن حجمك عند الله بحجم عملك ، وكلَّما كنت صادقاً في خدمة الخلق أجرى الله على يديك الأعمال الصالحة .

أقول مرةً ثانيةً وثالثة . . . كلُّنا ضعفاء ، كلُّنا فقراء ، كلُّنا عاجزون ، إلا أنَّ الله سبحانه وتعالى يمنحنا من الأعمال الصالحة بقدر سلامة توجهنا نحوه ، وبقدر صدقنا ، فقد قال تعالى :

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب : ٢٣] .

إنَّ الدنيا لها سقف ، فمهما كان حجمك المالي كبيراً ، لا تستطيع أن تأكل إلا ما تملأ به معدتك ، لا تستطيع أن ترتدي إلا ثوباً واحداً ،

لا تستطيع أن تنام إلا على فراشٍ واحد ، لا تستطيع إلا أن تكون في مكانٍ واحد في وقتٍ واحد ، ففي الدنيا سقف ، إلا أنَّ العمل للآخرة بلا سقف ، يمكن أن يهدي الله بك رجلاً ، أو رجلين ، أو ثلاثة ، أو أربعة ، أو خمسة ، ولكل أجر فأنت في مزيد .

سيدنا محمد ﷺ كان رحمةً للعالمين ، سيدنا الصديق كان المؤسس الثاني للدولة الإسلاميّة ، حينما ظهرت حروب الرِّدة وقف الموقف الحازم فكان بحقٍّ المؤسس الثاني ، سيدنا عمر أكثر هذه البلاد فتحت في عهده ، وكلُّ هؤلاء المسلمين في شتى أقطار البلاد في صحيفته ، فأنت كن طموحاً فبإمكانك أن تصل إلى مراتب عالية ، فإلههم إلهنا ، وإلهنا إلههم ، والمنهج واحد . الكتاب واحد ، والنبي ﷺ واحد وما عليك إلا أن تسير في طريق الإيمان . . ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ . .

وهناك تفسير آخر ولكنه مركَّب . . الباقيات الصالحات هي : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، أي إذا سبَّحته ، وحمدته ، ووحدَّته ، وكبَّرته ، معنى ذلك أنك عرفته ، وإن عرفته أطعته ، إن أطعته سعدت بقربه .

أما التفسير الأول فهو أسهل . . ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ . . الأعمال الصالحة ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ ، أما الباقي حقيقة فهو الله عزَّ وجلَّ . . فسبحان من له البقاء ، أما نحن فلنا الفناء .

فهل هناك أعظم من سيدنا رسول الله ﷺ فقد مات . . ماذا فعل الصدّيق ؟ وأنا لا أعتقد أنَّ في الأرض إنسانين أحب أحدهما الآخر كما أحب الصديق رسول الله ﷺ ، وكما أحبَّ النبيَّ الكريم الصدّيق ،

أحبَّه حباً لا حدود له ، إلا أنَّ هذا الحب ما حمله على أن يشرك ، حينما كشف عن وجهه الشريف وقبَّله ، وقال : طِبت حياً وميّتاً يا رسول الله ، ثم خرج وقال : من كان يعبد محمداً فإنَّ محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله ، فإنَّ الله حيٌّ لا يموت .

أرأيت إلى التوحيد !! فأعلى درجات الحب ما نقلت هذا الصديق إلى الشرك ، فالتوحيد هو الأصل . .

فالله سبحانه وتعالى له البقاء ، والبقاء صفةٌ من صفات ذاته . . فنحن نعرف صفات الذّات ، وصفات الأفعال . . البقاء صفةٌ من صفات ذاته .

فأنا وأنت وأي شخص غيرنا باقٍ ولكن بإمداد الله له ، فإذا قطع الله الإمداد حصلت الوفاة ، فوازن بين إنسان حيّ ينظر ويتحرَّك ، عيناه تتألَّقان ، وينطلق لسانه ، ويحرِّك يديه ، ويمشي ، وكلُّه آذان ، وشعور وإحساس ، يفكِّر ، يلقي محاضرة ، فإذا مات يصبح جثة هامدة ، لا شيء ، مسافةٌ كبيرةٌ جداً بين إنسان يتحرَّك أمامك وجثة هامدة ، إن لم تدفنها في أقرب وقت تتفسَّخ .

فأحياناً يدفع الإنسان مليون ليرة لإصلاح شريان بقلبه ، أما إذا مات فقد انتهى كل شيء ، وبعد أيام تتفسخ هذه الأجهزة .

فمن شأن الله عزّ وجلّ البقاء ، ومن شأن الإنسان الفناء ، أما الباقي فهو الله ، أما نحن فممكنو الوجود ، فإذا كنا موجودين فوجودنا لا بذواتنا بل بإمداد الله لنا ، أوضح من ذلك أن وجودنا متوقفٌ على تناول الطعام والشراب .

سمِعتُ أن بعض المساجين في تركيا أضربوا عن الطعام ثمانية

أسابيع ، مات منهم أكثر من عشرة أشخاص ، فمن دون طعام تموت فهل يعد الوجود ذاتياً ؟ أبداً ، إن وجودك متعلِّق بكأس الماء هذا ، وباللقيمات التي تأكلها والتي يقمن صلبك ، فمن كان وجوده متعلق بالطعام والشراب فليس وجوده ذاتياً ، فحركتك متعلقةٌ بسيولة دمك . فلو تجلط الدم انتهت الحركة . . يقولون : جاءته خثرةً في دماغه ، أو احتشاء في الدماغ ، أو جلطة في الدماغ ، أو نقطة في الدماغ ، أصبح جثةً هامدةً .

وجودك متوقفٌ على إمداد الله لك ، وفي أية لحظةٍ يقطع الله عنك الإمداد .

مثلاً : إذا كانت آلة تعمل على الكهرباء وعندك المفتاح الذي به تعمل أو تتوقف فإذا تبجَّحت الآلة مثلاً ، وقالت : انظروا إلى حركتي . فإنك تضغط يدك على الزر فتتوقف ، فهذه شأن الآلة الكهربائية ، وهناك ألعاب للأطفال منها سيارات كهربائية لها حركة طائشة ، فتجد صاحب الملعب يضغط ضغطة قليلة على مفتاح الكهرباء ، يقطع الكهرباء عن هذه السيارات ، فتتسمر كل واحدة في مكانها وانتهى أمرها إلى السكون .

هذا تعريف . . وهناك تعريف ثان . . الدائم الوجود ، الموصوف بالبقاء الأبدي والأزلي ، أزلاً وأبداً ، هو الأول بلا بداية ، وهو الآخر بلا نهاية ، هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، هو الموجود أزلاً والموجود أبداً .

وقال بعضهم : « هو الموجود من أزل الأزل إلى أبد الآبدين » . فكما أنه لا بداية فهو بلا نهاية كذلك ، أما نحن فلنا بداية ولنا نهاية .

لكن البشارة أن المؤمن أثير الله. . . من خلصائه. . . فإذا حسن عمله في الدنيا وتوفَّاه الله عزَّ وجلَّ فهو في جنَّة الخلد إلى أبد الآبدين ، فبداخل الإنسان رغبة جامحة لأن يعيش طويلاً ، فلا يوجد إنسان على وجه الأرض إلا ويتمنى أن يعيش مئة عام ، أو مئة وعشرين ، ولا يرغب في أن ينتهي أجله ، فلدينا شيء فطري. . نحبُّ وجودنا ، ونحبُّ سلامة وجودنا ، ونحبُّ استمرار وجودنا ، ونُحبُّ كمال وجودنا .

فإذا آمن الإنسان واستقام على أمر الله وجاءته منيَّته وهو مؤمنٌ فقد حقق استمرار وجوده ، هو في جنَّات الله إلى أبد الآبدين ، والمشكلة الخطيرة أنَّ الذي لا يستقيم على أمر الله يستحقُّ النار قال تعالى :

﴿ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾ [الزخرف : ٧٧] .

أصعب شيء أن تكون في حالة لا حرب ولا سلم ، لا يموت فيها ولا يحيا ، فالموت مريح ، لا يحيا حياةً مريحة ، ولا يموت فيستريح ، هذه هي المشكلة ، فهذه المعاني الخطيرة التي جاء بها القرآن كيف نغفل عنها ؟ كيف نتحرَّك في الحياة دون أن نحسب حساباً لهذه الحقائق ؟ شيء خطير ، فالله هو الذي خلق ويقول لك :

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴾[القمر : ٥٤ـ٥٥] .

ويقول لك أيضاً :

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴾ [الحاقة : ٢٥ـ٣٢] .

هذا كلام خالق الكون ، والله الذي لا إله إلا هو لو قيل لك تعالَ

إلينا يوم الخميس للتحقيق معك لا تنام ليلتين ، وهو إنسان سيسألك لكنَّه قوي فلا تنام الليل ، فكيف إذا قال الله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر : ٩٢-٩٣] .

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [إبراهيم : ٤٢] .

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾[إبراهيم: ٤٧].

أحد العلماء يقول : « الباقي هو الموجود ».. ولكنَّ إذا أضيف إلى المستقبل فهو الباقي.. وإذا أضيف إلى الماضي سميَ قديماً .

من زاوية الماضي قديم ، ومن زاوية المستقبل باقٍ ، هذا معنى أن الله قديم وباقٍ .

فالسيارة تحتاج إلى وقود ، فإذا قطع عنها الوقود تتوقف عن الحركة ، فهل حركتها ذاتية ؟ لا.. حركتها متوقفة على إمداد خارجي .

الباقي المطلق هو الذي لاينتهي تقدير وجوده في الاستقبال إلى آخر ، يعبَّر عنه أنه أبدي ، والقديم المطلق هو الذي لا ينتهي ، تمادى وجوده في الماضي إلى الآن ، وسيستمر ويعبر عنه أنه أزلي..

غير قابل للعدم » ، ففي المنطق هناك شيء واجب وجود ، وممكن وجود ، ومستحيل الوجود ، إذاً مستحيل ، وواجب ، وممكن.. كلٌّ ما سوى الله ممكن ، ومعنى ممكن أي ممكنٌ أن يكون وممكنٌ ألا يكون .

ومستحيل الوجود يستحيل عقلاً أن يكون.. والله سبحانه وتعالى غير قابلٍ للعدم بوجهٍ من الوجوه .

فكلُّ ما كان ذاتيَّ الوجود في الأزل والأبد فدوامه في الأزل هو القدم ، ودوامه في الأبد هو البقاء ، فالله قديمٌ وباقٍ ، أزليٌّ وأبديٌّ .

وقيل : « **الباقي هو الذي لا ابتداء لوجوده ، ولا نهاية لوجوده** » . فكل شيء من الخلق له بداية وله نهاية ، فأنت لك بداية ، فقد قال تعالى :

﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ [الإنسان : ١] .

تمسك كتاباً طبع قديماً ، وأنت مولود في سنة الأربعين والكتاب قد انتهى طبعه عام ثمانية وثلاثين مثلاً ، معنى ذلك أنَّهم حينما انتهوا من طبعه ، أنت لم تكن في الأصل موجوداً ، ليس لك وجود . . ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ . . وبعد أن يموت الإنسان تقام له التعازي لمدة ثلاثة أيام ، وتلقى كلمة تأبين يتحدث فيها المتحدثون عن أعماله ، وبعد فترة من الزمن يطويه النسيان وكأنَّه ما كان ، فأنت بين عدمين ، بين عدمٍ يسبق وجودك ، وبين عدمٍ ينتهي به وجودك . . إذاً فانٍ .

فالمشكلة أنَّ الإنسان بضعة أيَّام ، فقد تجد من يعيش ثلاثين سنة أو أربعين ، أو خمسين أو ستين سنة ، فلو عاش ستين سنة وضربنا هذه السنين في عدد أيام السنة ـ ثلاثمئة وخمسة وستين يوماً ـ وكذلك نستطيع حسابها بالساعات ، ويمكننا أن نعد وجبات طعامه التي تناولها ، وكم نزهة ذهب إليها ، وكم احتفال حضره ، وكم تعزية حضرها ، وقد أنجب أربعة أولاد وزوَّجهم ، كلُّه محدود ويعد عداً ،

فالإنسان بضعة أيّام كلما انقضى يومٌ انقضى بضعٌ منه .

فالتعريف الدقيق الفلسفي العميق للإنسان أنَّه زمن ، ومشكلة الزمن أنَّه يمضي ، وتحرُّك الزمن يستهلك الإنسان ، كائن يتحرَّك نحو هدف ثابت ، كل ثانية يقترب من هدفه ، فمعنى ذلك أنَّك زمن ، أنت فانٍ .

الباقي الذي لا ابتداء لوجوده ولا نهاية لوجوده ، الباقي هو الأول بلا ابتداء ، والآخر بلا انتهاء ، والحقُّ باقٍ ببقائه ، والخلق باقٍ ببقائه .

فأنت موجود لا لأنَّك ذكي ، ولا لأنَّك تعتني بصحَّتك ، ولا لأنَّ أجهزة جسمك تعمل ، أنت موجودٌ لأنَّ الله يمدُّك بالوجود ، فإذا أوقف إمداده بالوجود كنت لا شيء . . كن فيكون ، زُل فيزول . .

ففي الحديث القدسي يقول رب العزَّة :

« يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّماً فَلا تَظَالَمُوا ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي ، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي ، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً ، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً ، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ

وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ اللهَ ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ » [صحيح مسلم] .

قال العلماء : « الباقي هو الموجود الدائم الذي لا يقبل الفناء ، ومنه استمداد البقاء ، والذي لا ابتداء لوجوده هو الذي يكون في الأبد على ما هو عليه في الأزل » .

يكون الإنسان طفلاً صغيراً ثم يكبر ، فما دام يتطوَّر فليس باقياً ، ثم يصبح هرماً . . ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾ . . فقد قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ [الحج : ٥] .

منذ سنوات كان الناس يعرفون إنساناً رياضياً لو أمسك بمركبة ـ مهما كانت قويَّة ـ لوقفت في مكانها ولم تتحرك ، ولكن عندما أصبح في أرذل العمر صار ضعيف البُنية هزيلاً يئنُّ ويشكو . . فكلُّ حالٍ يزول ، فما دام هناك تطوُّر فلا بقاء معه .

وهذا معنى جديد . . الباقي : هو الذي يكون في الأبد على ما هو

عليه في الأزل.. فأنت كلّ يوم تتطور، يضاف إلى معلوماتك معلومات، ينمو جسمك وتزداد خطوط وجهك، ويشيب شعرك، وينحني ظهرك، ويضعف بصرك، أي تتطوّر، أما ربنا عزَّ وجلَّ فهو باقٍ لأنَّه كما هو في الأزل هو في الأبد.

إلا أنَّ اسم الباقي لم يرد بلفظه في القرآن الكريم، ولكنَّ مادة البقاء وردت منسوبةً إلى الله عزَّ وجلَّ في مواطن كثيرة من التنزيل المجيد، ومن أبرز هذه المواطن قال تعالى:

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَـٰيَـٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [طه: ٧١-٧٣].

تعال معي إلى مثل أضربه لعله يقرب الفكرة، فلو خُيِّرت أن تركب سيارة لمدة ربع ساعة، وبين دراجةٍ تتملَّكها، فماذا تختار؟ لا شك أنك تختار الدراجة لأنَّها أبقى، ولو خيِّرت بين مركبتين الأولى تركبها ربع ساعة، والثانية تتملَّكها، فماذا تختار؟ تختار المركبة الثانية التي يبقى ملكها لك.. فكذلك الآخرة.. ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾..

﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾.. إذا اخترت ما عند الله خير إلى درجة غير معقولة وأبقى، الدنيا دار ابتلاء وإنها فانية، لذلك فكل إنسان يختار الدنيا على الآخرة متهم في عقله.. والآية الثانية تقول:

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧].

مَن العاقل؟ أهو الذي يتعلَّق بالفاني أم بالباقي؟ إن تعلَّقت بإنسانٍ

فهو فانٍ ، إن تعلَّقت بمتاع الدنيا فهو فانٍ ، إن تعلَّقت بالغرائز والشهوات فهي فانية ، أما إذا تعلَّقت بالواحد الديَّان فهو أبديٌّ باقٍ ، وما لك عند الله فهو خير وأبقى .

وفي سورة طه . . ﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ . . قال تعالى :

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه : ١٣١] .

﴿ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ . . ﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ . . فعطاء الله عزَّ وجلَّ للمؤمن خيرٌ وأبقى . ٠

وفي سورة الشورى قال تعالى :

﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الشورى : ٣٦] .

والمؤمن تقوده رجاحة عقله إلى أن يختار الآخرة فيعمل لها ، وعندئذٍ ربنا عزَّ وجلَّ يكرمه في الدنيا والآخرة .

وفي سورة مريم قال تعالى :

﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴾ [مريم : ٧٦] .

إذاً كلمة الباقي لم ترد في القرآن الكريم إنما وردت مادَّة البقاء في هذه الآيات . . ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ . . ﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ . . وفي غير ذلك من الآيات التي ذكرناها .

أما التطبيق العملي لهذا الاسم الجليل . . . فقد قال العلماء : حظُّ العبد من ذكر اسم الباقي أنَّك إذا أكثرت من ذكر اسم الباقي

كاشفك الله بالحقائق الباقية وأشهدك الآثار الفانية .

فمعنى ذلك أنَّ في هذه الحياة شيئين : شيئاً باقياً ، وشيئاً فانياً ، كيف ؟ فهناك شيء مهما كان الإنجاز عظيماً ينتهي عند الموت ، وهناك شيء يبدأ عند الموت ، العاقل هو الذي يتعلَّق بالذي يبدأ بعد الموت : (الباقي) ، ولا يعبأ بالذي ينتهي عند الموت .

فمثلاً يمكنك تزيين بيتك تزييناً عالياً ، مهما كنت ذا ذوقٍ رفيع في تزيين البيت ، فهذا التزيين حينما يموت الإنسان ينتهي مفعوله ، يمكن أن تأكل أطيب الطعام ، وأن تجلس في أجمل مكان وهذا كلُّه ينتهي عند الموت .

أما إذا دعوت إلى الله ، إذا أسهمت في نشر الحق ، إذا أسهمت في ترسيخ الفضيلة ، إذا أسهمت في إصلاح ذات البين ، إذا أسهمت في تعليم العلم ، إذا أمرت بالمعروف ، إذا نهيت عن المنكر ، إذا كنت سبب سعادة الأُسر ، إذا بثثت الحقَّ بين الناس ، إذا كنت موفِّقاً بينهم ، تجمع ولا تفَرِّق ، تحببهم بالله ولا تنفِّرهم ، هذا كلُّه باقٍ بعد الموت ويكبر حجمه ومردوده ، أحدكم يضع لقمةً في فم زوجته يراها يوم القيامة كجبل أُحد ، فإذا هديت إنساناً فكلُّ الخير الذي يأتي من هذا الإنسان إلى يوم القيامة في صحيفتك ، قد تتفاجأ في أن ثمانمئة ألف إنسان مثلاً من ذريَّة هذا الذي هديته إلى الله كلُّهم في صحيفتك .

فلذلك لا يليق بالإنسان أن يكون لغير الله ، لا يليق به أن يعمل لغير الله ، لا يليق به أن يتوجَّه لغير الله ، لا يليق به أن يكون محسوباً على غير الله . . لا يليق بك أن تكون تابعاً لغير الله ، لأنَّه هو الباقي وسواه فانٍ .

إذاً إذا توجَّهت إلى الله صادقاً أشهدك الله الباقيات والفانيات ، فتعلَّقت بالباقيات وتركت الفانيات .

فلو كان عندنا فقاعة من الصابون وألماسة ، فالفقاعة بحركة واحدة تتلاشى وتفنى ، أما الألماسة فثمنها ثمانية ملايين ويزداد سعرها يوماً بعد يوم وعلى الدوام غالية . . فكل إنسان يتعلَّق بالفانيات كمن يتعلَّق بفقَّاعة الصابون ويدع قطعة ألماس .

أرجحكم عقلاً أشدُّكم لله حباً . . فالقصد من هذا الشرح أن تتعلَّق بالباقي ، وألا تهتمَّ بالفاني ، أما إذا نظرت إلى عامَّة الناس فسوف تجد العجب العجاب ، كلُّهم متعلِّقون بالفاني ، معرضون عن الباقي . . شهوات ، أجهزة لهو ، تفاخر ، انهماك في الملذَّات ، هذه كلُّها فانيات ، أما الباقيات فقد أداروا لها ظهورهم ، وأشاحوا بوجوههم فدفعوا ثمن جهلهم ، فاللهمَّ أعطنا ولا تحرمنا ، أكرمنا ولا تهنَّا ، آثرنا ولا تؤثر علينا ، أرضنا وارضَ عنَّا ، وصلَّى الله على سيِّدنا محمدٍ النبيِّ الأميّ وعلى آلهِ وصحبه وسلَّم .

* * *

الرَّشِيدُ

من أسماء الله الحُسنى الرشيد .

صيغة الرشيد. . فعيل ، وصيغة فعيل في علم الصرف تعني المبالغة ، فهناك اسم فاعل ، وهناك اسم فاعلٍ مبالغٍ فيه . تقول مثلاً. . صادق : اسم فاعل ، وصدوق أي كثير الصدق ، فهذا مبالغة اسم فاعل ، بوزن فعول. . أمّا الاسم (الرشيد) فهو على وزن فعيل ، وماذا يعني اسم المبالغة في حقِّ ذات الله عزَّ وجلَّ ؟

يعني شيئين. . فهو يعني عدداً ونوعاً. . فكلُّ أفعال الله عزَّ وجلَّ رشيدة هذا عدد ، والرشيد ؛ إذا وصف الله بهذا الوصف فهو الرُّشد المطلق ، (هذا نوع) فالله عزَّ وجلَّ مطلق ، فعلمه مطلق ، قدرته مطلقة ، رحمته مطلقة ، يجب أن تعلم علم اليقين أنَّ الله سبحانه وتعالى في كلِّ أسمائه وصفاته مطلق .

على حين أن أسماء الإنسان وصفاته نسبية ، قد تقول : هذا القاضي عادل إذا حكم تسعةً وتسعين حكماً من أصل مئة على نحو صحيح ، وهذا الوصف نسبي ، وكلُّ وصفٍ يوصف به الإنسان هو وصفٌ نسبيّ ، وأوصاف الله عزَّ وجلَّ كلُّها مطلقة .

على الأرض يعيش ستة آلاف مليون إنسان ، فإذا ظُلم إنسان واحد فالله سبحانه وتعالى لأنَّه مطلق لا يكون عادلاً ، فقد قال تعالى :

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء : ٤٧] .

وقال تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾[غافر : ١٧] .

وقال تعالى أيضاً :

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [النساء : ١٢٤] .

كذلك قال تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [النساء : ٧٧] .

﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ . . ﴿ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ . . ولا قطميراً . . ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾ . . و﴿ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ﴾ . . ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ .

الإنسان حينما يؤمن بالله تطمئن نفسه ، فالإيمان بأنَّ الله بيده كلُّ شيء ، وأنَّه فعَّال لما يريد ، وأنَّه في السماء إلهٌ وفي الأرض إله ، وأنَّ كلَّ شيءٍ خلقه وهو عليه وكيل ، فهذا الإيمان يُلقي في نفس الإنسان طُمأنينةً لا يعرفها إلا مَن فقدها ، لأنَّه كما يقال : إنَّ الله يعطي الصحَّة والذكاء والمال والجمال للكثيرين من خلقه ، ولكنَّه يعطي السكينة بقدرٍ لأصفيائه المؤمنين .

إذاً اتفقنا على أنَّ الله في أسمائه وصفاته مُطلق ، فمن أين يأتي الفساد ؟ يأتي الفساد من إنسان أعطاه الله حريَّة الاختيار ، وأمدَّه بقوةٍ فيما يبدو ، فتحرَّك هذا الإنسان بخلاف منهج الله ، ومَثَلُ ذلك : فأنت تعلم أنَّ السكَّر مادةٌ أساسيَّة ، والملح مادة أساسيَّة ، والمنظفات مادة أساسيَّة في حياة كل أسرة. . فإذا وضعت في طعامك النفيس جداً والغالي الثمن مسحوقاً للتنظيف فستلقيه لا محالة ، لأنَّه فسد ، فالمواد التي بين أيدينا كلُّها جيِّدة ورائعة وكاملة ، ولكن سوء استخدام هذه المواد يسبِّب الفساد ، فالزنى ـ مثلاً ـ فساد . فالأصل الزواج ، وكسب المال الحرام فساد أيضاً ، ومعنى ذلك : أنَّ الفساد ليس له وجود أصلي ، بل وجوده طارىء ناتج عن سوء الاستخدام .

فإخواننا الذين يعملون في المركبات يقولون : لو وضع في المحرك كيلو غرام من مادة السكَّر ثمنه ثلاثون ليرة لتعطَّل المحرك ولكلّف إصلاحه ثلاثين ألف ليرة ، فالسكر ثمين ، والمحرك ثمين ، ولكن من أين طرأ الفساد ؟ طرأ من سوء الاستخدام ، لماذا أنت بحاجة إلى الدين ؟ من أجل أن يعطيك الله الذي خلق هذه المواد أصول استخدامها. . افعل ولا تفعل ، هذا منهج الله عزَّ وجلَّ .

أنت حينما تستجيب لأمر الله هل تدري ماذا فعلت ؟ أنت تملَّكت خبرة الخبير ، وعلم العليم ، وقدرة القدير ، ورحمة الرحيم ،لأنك تقبل منهج الله ، ولأنك تقبل على تطبيق منهج الله دون أن تشعر فقد تملَّكت خبرة الخبير قال تعالى :

﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [فاطر : ١٤] .

﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾. . . . وعندما تملَّكت قدرة القدير ، ورحمة الرحيم ، وحكمة الحكيم ، سَهُلَ عليك أن تتحرَّك .

إنسان عظيم وعليه أن يتَّخذ قرارات هامة ، تجد حوله عدداً كبيراً من الخبراء بالعشرات والمئات يشيرون عليه أليس كذلك ؟ ، فيجمع حوله خبراءَ قمماً في تخصصاتهم ، فتجد خبراء في علم النفس ، وعلم الاجتماع ، والطب ، والهندسة ، والتاريخ ، والجغرافية ، والفلك ، والرياضيَّات ، لو أراد أن يتَّخذ قراراً لسأل الخبير فأعطاه خلاصة العلم فماذا نقول ؟ هذا الذي استعان بالخبير تملَّك كلَّ علمه .

فأن تُقبل على منهج الله يعني أنك تملَّكت قدرة القدير وأنت لا تدري ، وعلم العليم ، ورحمة الرحيم ، وحكمة الحكيم ، فلذلك أسعد إنسان هو الذي يبحث عن منهج الله ليطبِّقه في حياته ، لن يفاجأ ، ولن يشعر بالإحباط إطلاقاً ، خطُّه البياني صاعد صعوداً مستمراً لأنَّه يتحرَّك وفق خبرة الخبير .

ما في الأرض إنسانٌ على الإطلاق إلا ويتمنَّى شيئين : السلامة والسعادة ، والسلامة والسعادة لا تكونان إلا بطاعة الخبير .

فحينما يحبُّ الإنسان ذاته حباً لا حدود له ينطلق إلى طاعة الله فقد قال تعالى :

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب : ٧١] .

ذكر لي أخ واقعة أعجبتني وفيها مفارقة عجيبة . . قال : لي جار مضى على زواجه من زوجته حوالي نصف قرن ، وما نام ليلةً غاضباً على زوجته ، وقد أنجبت سبعة عشر ولداً هم أعلامٌ في المجتمع ،

لأنَّ هذا لما أراد أن يتزوَّج بحث عن امرأةٍ صالحة .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي الله عَنْه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « **تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لأَرْبَعٍ : لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا ، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ** » [صحيح البخاري] .

ويبدو أنَّ كَسْبَه كان مالاً حلالاً وأنفقه في طاعة الله فرزقه الله هذه الذريَّة الصالحة .

أمّا المفارقة. . ففي أحد الفنادق الكبرى في دمشق ، خلال ستَّة أشهر تمَّ فيه ستَّة عشر عقد قِران ، فلم يبق من هذه العقود خلال ستَّة أشهر إلا ثلاثة ما زال زواجهم مستمراً ، والثلاثة عشر الأخرى انتهت إلى الطلاق ، وآخر عقد أقيم في هذا الفندق كلَّف فيما سمعت أربعين مليوناً ، وبعد أيام تمَّ الطلاق ، لأنَّ هذا الزواج لم يُبنَ على منهج الله ، فأيُّ زواجٍ بُني على طاعة الله فالله يتولَّى التوفيق بين الزوجين ، وأيّ زواج بني على معصية الله فالشيطان يتولَّى التفريق بينهما ، القصد من ذلك أن يكون الإنسان رشيداً .

قال العلماء : الرُّشد هو الصلاح والاستقامة ، والرشد خلاف الغَيِّ والضلال . إنّ الاستقامة تعني. . أن تتحرَّك تحرُّكاً صحيحاً ، أن تصل إلى قصدك النبيل بأسلم الطرق ، ألا تحيد يمنةً ولا يسرة ، فتنحو مناحيَ الغَيِّ. . الانحراف ، والضلال ، والتيه .

والرشيد ـ كما يذكر الإمام الرازي ـ على وجهين أحدهما فعيل بمعنى فاعل ، رشيد أي راشد. . صيغة مبالغةٍ من اسم الفاعل راشد .

والراشد هو الذي له الرشد ، أي يتمتَّع برؤية صحيحة. . بالمناسبة

ما فلسفة الرشد ؟ . . والإنسان متى يكون رشيداً ؟ إذا كان مبصراً ، فأي إنسان لا على التعيين أعطه مصباحاً وضَّاءً وقل له : سر في غابةٍ ليلاً ، فما دام معه مصباح وضَّاء فسيرى كل شيء أمامه ، وهل يعقل أن يقع في حفرةً ؟ لا . بل يحيد عنها ، ولا يعقل كذلك أن يدوس على أفعى تلدغه بل يبتعد عنها ، انطلاقاً من حبِّه لذاته يسلم ، فقضيَّة الرشد أساسها الرؤية . .

وبالمناسبة . . فالنبيُّ عليه الصلاة والسلام قال :

« الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ ، وَالْحَمْدُ للهِ تَمْلأُ الْمِيزَانَ ، وَسُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ للهِ تَمْلآنِ أَوْ تَمْلأُ مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَالصَّلاةُ نُورٌ ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا » [صحيح مسلم] .

أنت حينما تتصل بالله تطهر نفسك من كلِّ أدرانها . . فالمصلي لا يحقد ولا يتكبر ولا يبخل ولا يظلم . . لأنَّ مكارم الأخلاق مخزونةٌ عند الله تعالى ، فإذا أحبَّ الله عبداً منحه خُلُقاً حسناً .

فأنت خلوق بقدر اتصالك بالله ، ومؤمن لأن رؤيتك صحيحة وقد ألقى الله في قلبك نوراً ، فرأيت الحق حقاً فسلكت طريق الحق فأصبحت رشيداً .

إذا ركب أحد مركبته متوجهاً إلى بلدة ولم يخطىء إطلاقاً فهذا دليل على قراءته للعلامات وللوحات الإرشادية الموضوعة على جوانب الطريق ، وهو قد قرأها واستوعبها وسار وفق توجيهاتها ، فوصل إلى البلد المقصود في أقرب وقت وفي أيسر حال ، إذاً هو رشيد .

الرشد أن تسير مستقيماً دون أن تحيد يمنةً ولا يسرة ، وأن تصل إلى هدفك بأقلِّ جهدٍ وأقصر وقتٍ .

فالرشيد هو الراشد ، والرشيد حكيم ، وقد يلتقي هذا الاسم مع اسم الحكيم من خلال الرؤية الصحيحة .

في ذهني حقيقة هي. . المجرمون حينما يرتكبون الجرائم ، ماذا رأوا قبل أن يرتكبوا الجريمة ؟ رأوا في الجريمة مغنماً ، فالمجرم يتراءى له أنه يقتل ضحيَّته فتختفي معالم جريمته ، ويأخذ هذا المال الكثير. . فقد قتل عدَّة مجرمين صائغاً في بلدة على طريق حمص ، وسرقوا ثلاثة عشر كيلو غراماً من الذهب من محله ، وبعد أقلّ من أربع وعشرين ساعة أُلقي القبض عليهم ، وبعد أقلّ من شهرٍ تمَّ إعدامهم في مدينة يبرود ، كانوا يظنون أنفسهم أذكياء ، لأن منهم من يحمل شهادة عليا في الهندسة ، فحينما أقدموا على هذا العمل ماذا رأوا ؟ رأوا أنَّ في هذا العمل مغنماً كبيراً ، وجهداً يسيراً ، وغنىً فاحشاً ، واستمتاعاً بالحياة ، هل تحقق هدفهم ؟ إذاً كانوا ضالين .

فالإنسان حينما ينطلق من حبِّه لذاته ، فعليه أن يتَّصل بالله ، فيُلقي الله عندئذٍ في قلبه النور ، وهذا النور يطهِّر نفسه من الدرن ، ويريه الحقَّ حقاً فيتَّبعه ، ويريه الباطل باطلاً فيجتنبه فيصير بذلك رشيداً. . وإذا كنت رشيداً كنت في أعلى درجات الكمال .

نقرأ بعض الآيات ولو وقفنا عندها وقفة متأنِّية لرأينا العجب العجاب. . قال تعالى :

﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ [البقرة : ٢٦٩] .

﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ . . هنا الرشد يلتقي مع الحكمة ، الرشد والحكمة يقتربُ بعضُهما من بعضٍ ، أساسهما رؤيةٌ صحيحة ، أساس هذه الرؤية اتصالٌ بالله ، قال تعالى : ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ . . تذكرت مزارعاً ينمي محصوله بالبيوت المحمية ، والتي إنتاجها غالٍ جداً يبلغ خمسمئة ألف تقريباً ، فلا بدَّ من أن يشتري سماداً لتسميدها ، وانطلاقاً من رغبته في أن يكون النماء على أشده ضاعف كمية السماد خلافاً لتعليمات الشركة الصانعة ، فأصبح النبات في اليوم التالي أسود اللون . . هو أراد أن يربح ، وأراد أن يكثر رزقه فمحق رزقه لأنَّه جاهل ، هل كان رشيداً ؟ لا . أبداً . . ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ . .

العلماء قالوا : « إنَّك بالحكمة تصلح الزوجة الفاسدة ، وبالحُمق تفسد الصالحة » ، أنت بالحكمة تكسب المال ، وبالحمق تبدِّده ، أنت بالحكمة ينمو جسمك وتنمو مداركك ، وتعيش سعيداً ، وبالحمق تدمِّرُ ذاتك ، فالحكمة هي الرشد .

أحياناً يقول لك أحد الأشخاص : والله اتَّخذت قراراً هو أكثر قراراتي حكمة ، هذا القرار المصيري قد تُبنى عليه سعادة أبديَّة .

وثاني هذه المعاني أن يكون رشيد بمعنى مفعل . . أي مُرْشِد ، فإما أن يأتي بمعنى راشد ، أو بمعنى مرشد ، راشد صفة ذات ، مرشد صفة أفعال ، الله عزَّ وجلَّ في حقيقة الأمر رشيد بمعنى فعيل ، ومُفعِل ، أي راشد ومرشد . ابنك الصغير ذو إدراك محدود إن يقترب من المدفأة ، يحترق ، وأنت أب قلبك مملوء بالرحمة لن تبتسم وتبقى مكانك دون ضربه! فقد أجاز لك الشرع أن تقطع صلاتَك من

أجل أن تنقذ ابنك ، ماذا في قلب الأب ؟ رحمةٌ صغيرة . . أرحم الخلق بالخلق النبيُّ الكريم ﷺ فقد قال له الله تعالى :

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ . . كلُّ هذا القلب الكبير ، وكلُّ هذه الرحمة التي وسعت الخلائق جعلها الله في كتابه نكرةً .

لأن رحمة النبي ﷺ بالنسبة لرحمة الله محدودة ، وفي آيةٍ أخرى قال تعالى :

﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ﴾ . . وربُّنا الذي خلقنا أرحم بنا ، ورحمته لا حدود لها .

حدَّثني أخ دخل إلى معمله شخص لشراء بعض المنتجات من معمله وهو يبيع ما ينتجة بالجملة ، فطلب منه أربع قطع فقط ، فشعر صاحب المعمل بمهانة من هذا الطلب المتواضع ، فرفض أن يبيعه قائلاً له : لا أبيع بالمفرّق ، فقال لي هذا الأخ صاحب المعمل : ثلاثون يوماً لم يدخل معملي إنسان ، وكأنَّ الله أدَّبه . . وأرشده ؟

رشيد يرشد بقرآنه فقد قال تعالى :

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [النور : ٣٠] .

هذا إرشاد بالآيات . . ويرشد بحديث نبيّه ﷺ فقد قال تعالى :

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم : ٣ـ٤] .

ورد في الأثر : « **النظرة سهمٌ مسموم من سهام إبليس. . . من ملأ عينيه من الحرام ملأهما الله من جمر جهنَّم. . . من غضَّ بصره عن محارم الله أورثه الله حلاوةً في قلبه إلى يوم يلقاه** » .

فالله مُرشد ، قد أرشدنا إلى طاعته من خلال حديث نبيِّه .

والله مُرشد بأفعاله. . أعرف رجلاً يسكن في أحد أحياء دمشق ، وهو موظَّف ولديه أبناء شباب وفتيات كلُّهنّ متزوجات. . فهو جَد. . له هواية أن يسير في عصر كل يوم على طريقٍ في دمشق ممتلىء بالكاسيات العاريات الغاديات الرائحات ، وليس له هواية غير ذلك فينزل من المزَّة إلى طريق الصالحيَّة ثم يرجع إلى بيته بعد أن يمتِّع عينيه بمنظر الحسناوات ، أصيب بمرض وهو من أغرب الأمراض واسمه ـ ارتخاء الجفون ـ فصار من أجل أن يرى يُمسك جفنه بيده فإذا تركه عاد جفنه مغمضاً ، . . فالله عزَّ وجلَّ يرشد بالقرآن ويرشد بالسنَّة ، ويرشد بالفعل فيؤدِّبه. . أحياناً يريه مناماً مخيفاً .

إذاً المعنى الأول : . . رشيد بمعنى راشد ، أي حكيم ، والثاني : رشيد بمعنى مرشد يرشد عباده إلى الصواب .

لا يمكن لإنسان منحرف إلا أن يرشده الله عزَّ وجلَّ بطريقةٍ أو بأخرى ، وكلَّما ارتقى الإنسان فهناك إرشاد بياني وهو أرقى شيء ، كأن تستمع إلى خطبة ، وتقرأ القرآن ، وتقرأ الحديث. . كحديث :

عَنْ حُذَيْفَةَ أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ رَجُلاً يَنُمُّ الْحَدِيثَ فَقَالَ حُذَيْفَةُ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : « **لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَّامٌ** » [صحيح مسلم] .

فتتعوَّذ بالله من أن تنمَّ وتمتنع عنها إن كنت وقعت فيها ، وهذا هو

أرقى أنواع التعليم ، أن تتلقى من الله بياناً ؛ قرآناً ، أو من النبيِّ ﷺ سُنةً ، أو من عالمٍ توجيهاً فترتدع .

ولدينا إرشاد من نوع آخر . . إرشاد تأديبي عن طريق مشكلة ، أو مصيبة .

ولدينا نوع ثالث من الإرشاد . . وهو إكرام استدراجي .

والإرشاد الرابع . . هو القصم .

أربع مراحل . . الدعوة البيانيّة أكمل شيءٍ فيها أن تستجيب إلى الله عزَّ وجلَّ ، التأديب التربوي أكمل ما فيه أن تتوب إلى الله ، والإكرام الاستدراجي أكمل ما فيه أن تشكره وتتوب ، فإن لم يُجدِ معك لا البيان ، ولا التأديب ، ولا الإكرام ، إذاً لا بد من القصم فيهلكه الله . . ﴿ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ﴾ . . كما قال تعالى :

﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾ [الأنعام : ٦] .

إرشاد الله تعالى يرجع إلى هدايته قال تعالى : ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه : ٤٩ـ٥٠] .

﴿ثُمَّ هَدَى﴾ . . هدى إلى ماذا ؟ عندنا أربعه أنواع من الهداية :

فالإنسان هداه الله تعالى أولاً إلى مصالحه ، فالطفل يولد دون أن يكون عنده أيّةُ مهارة على الإطلاق . . وهذا مما يدرَّس في الجامعة وتعلَّمناه . . إلا منعكساً واحداً ولولا هذا المنعكس لما كنَّا في هذا المسجد بل لما عاش من أحد ، وهو منعكس المص وهذا المنعكس شديد التعقيد ، فالطفل يضع شفتيه على حُلمة ثدي أمّه ويحكم

الإغلاق ويسحب الهواء فيأتيه الحليب ، وهو قد ولد على التو واللحظة ، فلولا هذا المنعكس لمات المولود على الرغم من أنّ ثدي أمّه ممتلىء بالحليب ، ولكنه لا يستطيع الرضاع ، فهل تستطيع أن تعلم هذا المولود كيف يرضع من ثدي أمه ؟ أجل إنه يرضع عن طريق المنعكس الذي أودعه الله فيه ، وما سوى هذا المنعكس فكلُّه يأتي بالتدريج .

فالله عزَّ وجلَّ هدانا إلى مصالحنا ، إذا رأيت راكباً لدرَّاجة فكيف يستقيم عليها دون أن يقع ؟ لوجود جهاز التوازن بالأذنين ، وهو ثلاثة أقواس فيها أهداب وسائل فعندما يميل إلى جهة ما فالسائل الموجود في الأذن يرتفع فيمس هذه الأهداب فيتنبَّه فيعدل الراكب عن طريق جسمه توازنه ، ولولا هذه القنوات الثلاث لما استطاع إنسان أن يركب درَّاجة ، فلو مال قليلاً لوقع .

ألاحظ في بعض المحالِّ التجارية وجود تماثيل لتعليق الألبسة عليها ، انظر إلى قاعدة التمثال تجدها سبعين أو ثمانين سنتيمتراً ، فهي قاعدة استناد عريضة جداً وإلا لوقع التمثال ، فانظر إلى رجليك ما ألطف حجمها!.. فلو كانت الأرجل كبيرة مثل خف الجمل ولبست حذاء يزن خمسة كيلو غرامات ، لأصبحت الحياة غير معقولة أن يمشي برجل تزن خمسة وعشرين كيلو غراماً ، فإذا مشى في الطين وحمل حذاءه بعض الطين يشعر كأنَّه يقوم بأعمال شاقَّة ، فلولا هذه القنوات الدائرية بالأذن لاضطر إلى أقدام ذات قاعدة استناد عريضة جداً ليستطيع الوقوف ، ومن أجل أن يستقر فلا بدَّ من قاعدة عرضها من سبعين إلى ثمانين سنتيمتراً ، أما قدما الإنسان فلطيفتان .

الله هداه إلى توازنه ، هداه إلى طعامه ، هداه إلى شرابه ، فإذا دخلت نقطة من الماء وهو يشرب إلى الرئة يسعل لإخراجها ، فأساس السعال حركة تشنجيّة تدفع الأجسام الغريبة والسوائل التي في القصبة الهوائيّة إلى الأعلى ثم إلى الخارج ، وبهذه المناسبة فإنّ عادة التدخين مضرة وهذا الدخان الذي يستنشقه شاربه يشلُّ هذه الأهداب ، فالنيكوتين الموجود في هذا الدخان يشلُّ فاعلية الأهداب الموجودة في القصبة الهوائيّة التي خلقت من أجل طرد الأجسام الغريبة. . فهذه هي الهداية الأولى قد هداك الله إلى مصالحك .

الهداية الثانية. . هداك إليه عن طريق الوحي ، فقد أرسل الرسل وأنزل القرآن ، والرسل تكلّموا .

أما الهداية الثالثة. . فهي هداية التوفيق ، فأنت حينما أردت أن تكون مؤمناً هداك الله ، فقد قال تعالى في سورة الكهف : ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ [الكهف : ١٣] .

والهداية الرابعة. . إلى الجنَّة. . ، إذاً فالهدايات أربع : هداية المصالح. . وهداية الوحي. . وهداية التوفيق. . وهداية إلى الجنَّة. . هذه هي الهداية بأنواعها وهي منّة من الله تعالى .

معنى رشيد أي راشد ، حكيم ، معنى رشيد أي مُرشد. . يرشد عباده إلى سُبُل السلام إلى سعادتهم ، إلى نجاتهم .

بعض العلماء يرى أنَّ الرشيد هو الذي تساق تدبيراته إلى غاياتها ، من غير إشارة مشير ولا تسديد مُسدد .

فقد تسلك أحياناً طريقاً تصل به إلى الهدف لكنَّك تستعين بإشارات المرور ، واللوحات الفوسفوريَّة والأسهم وما يكتب عليها من أسهم

تشير إلى أين ، أو المرور ممنوع ، أو المنعطف خطر ، ثم إنك وصلت إلى هدفك بسلامة ، ولكنَّك بعد أن استعنت بإشارات كثيرة .

أما إذا قلنا الله رشيد فقد قال العلماء : هو الذي تساق تدبيراته إلى غاياتها ، من غير إشارة مشير ولا تسديد مُسدد . . أيْ حركة ذاتيَّة صحيحة ، وهو الله تعالى . . هو الرشيد .

وقيل : الرشيد الذي أسعد من شاء بإرشاده ، وأشقى من شاء بإبعاده ، رشيد أرشدنا إلى محبَّته .

ذهب شخص إلى بلاد الهند ، ونزل في أحد الفنادق ، فاستيقظ في الصباح الباكر على جلبة وضجيج ، فسأل عن السبب فعرف أن هناك جنازة ، فنظر فوجد نعشين ، أحد النعشين عليه امرأة مسجَّاة على خشب وتتحرَّك ، فسأل عن ذلك فقيل له : إنَّها زوجة الميت ولا بدَّ من أن تُحرق معه ، هذا في ديانتهم إن مات الزوج يجب أن تُحرَقَ جثته ، وكذلك ينبغي أن تُحرق الزوجة معه ، أما إذا ماتت الزوجة فيحق له أن يتزوَّج غيرها . . فهل هذا دين ؟ الله هدانا إلى دين قويم وأرشدنا إلى دينه ، وهذه من أكبر النعم .

وهناك تدخل بقرة إلى دكان للفواكه فتأكل كل ما لذَّ وطاب ، وبعض أنواعها يصل سعرها إلى مئتي ليرة ، وصاحب المحل سعيدٌ أشدَّ السعادة بما يحدث ، فقد دخل إلى محله إلهه ليأكل وهذا شيء عظيم عندهم . . سبعمئة وخمسين مليوناً هذا دينهم ؟ وفي يوم العيد يضعون على أثاث البيت روث البقر وبول البقر كالعطر ، فبول البقر عطرهم ، وروث البقر حلواهم .

الله مُرشد أرشدنا إلى دينه ، أرشدنا إلى نبيِّه ﷺ ، أرشدنا إلى

الحقيقة ، أرشدنا إلى ذاته ، أرشدنا إلى محبَّته .

في إحدى المجلات الفرنسيَّة تحقيق عن طائفة في الهند أفرادها يعبدون الجرذان ، معبد فخم جداً وشاهق الارتفاع وبه زخارف وأحجاره منحوتة وبداخله أكثر من خمسمئة جرذ ، وأتباع هذا المذهب يأتون إلى هذا المعبد ، وتقف الجرذان على رؤوسهم ، وتقفز فوق أكتافهم ويأكلون معهم في صحن واحد .

الله عزَّ وجلَّ أرشدنا إلى ذاته ، وينبغي أن نعلم أنه . . ما من سعادةٍ أعظم من نعمة الهُدى ، فأنت تعرف الله ، ولماذا أنت في الدنيا ، تعرف ماذا بعد الموت ، فبعد الموت جنَّة عرضها السموات والأرض .

يقول بعض العارفين : « **الرشيد هو المتَّصف بكمال الكمال ، عظيم الحكمة ، بالغ الرشاد الذي تتجه تدبيراته إلى غاية الصواب والسداد ، والذي يرشد الخلق ويهديهم إلى ما فيه صلاحُهم ، الرشيد يوجِّههم بحكمته إلى ما فيه خيرهم ورشادهم في الدنيا والآخرة** » .

قولٌ آخر : « **الرشيد هو الذي أسعد من شاء ، وأرشد الأولياء إليه ، فلا سهوَ في تدبيره ولا في تقديره ، وهو الموصوف بالعدل ، والمتجلِّي بالفضل** » .

والرشيد هو الذي يُلهم أهل الرُّشد إلى طاعته ، والذي أرشد الخلائق إلى هدايته ، ذو الحبل الشديد والأمر الرشيد .

هذا الاسم ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى :

﴿ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ [الكهف : ١٠] .

﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾.. الرَّشَد والرُّشد من رَشَدَ راشد رشيد.. رَشَدَ ورُشْد مصدران، والفعل رَشَدَ يَرْشُدُ، وراشد: اسم فاعل، رشيد بمعنى راشد أو مرشد.

الآية الثانية قال تعالى:

﴿۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾.. من يضلل نفسه عن الله، لن تجد له ولياً مرشداً.

فمثلاً.. كل التوجيهات في الجامعة، الخبراء والأطباء والعلماء فإذا ترك طالب الجامعة واتجه إلى الملعب، هل يُعقل أن يجد في الملعب مرشداً؟ المرشدون في الجامعة.. فإذا الإنسان أضلَّ نفسه عن الله فقد المرشد، إذا إنسان ترك المدرسة فَقَدَ المُعلِّم، ترك المشفى فقد الطبيب، ترك المحكمة فقد القاضي، ترك بيته فقد المأوى، أليس كذلك؟ ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ أي أضلَّ نفسه عن الله ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾.

والإنسان يكون رشيداً بقدر اتصاله بالله، فاتصاله بالله يكسبه نوراً والدليل على ذلك قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨].

آيةٌ ثانية قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ

سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنفال : ٢٩] .

﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ . . تُفرِّقوا به الحقَّ من الباطل .

من أدعية النبيِّ ﷺ : عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : سَمِعْتُ نَبِيَّ اللهِ ﷺ يَقُولُ لَيْلَةَ حِينَ فَرَغَ مِنْ صَلاتِهِ : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِكَ تَهْدِي بِهَا قَلْبِي ، وَتَجْمَعُ بِهَا أَمْرِي ، وَتَلُمُّ بِهَا شَعَثِي ، وَتُصْلِحُ بِهَا غَائِبِي ، وَتَرْفَعُ بِهَا شَاهِدِي ، وَتُزَكِّي بِهَا عَمَلِي ، وَتُلْهِمُنِي بِهَا رُشْدِي ، وَتَرُدُّ بِهَا أُلْفَتِي وَتَعْصِمُنِي بِهَا مِنْ كُلِّ سُوءٍ ، اللَّهُمَّ أَعْطِنِي إِيمَاناً وَيَقِيناً لَيْسَ بَعْدَهُ كُفْرٌ ، وَرَحْمَةً أَنَالُ بِهَا شَرَفَ كَرَامَتِكَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الفَوْزَ فِي الْعَطَاءِ ، وَنُزُلَ الشُّهَدَاءِ ، وَعَيْشَ السُّعَدَاءِ ، وَالنَّصْرَ عَلَى الأَعْدَاءِ » [سنن الترمذي] .

هذه رحمة الله :

﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [آل عمران : ١٥٧] .

دعاءٌ آخر . . اللهمَّ هذا الدعاء وعليك الإجابة ، وهذا الجُهد وعليك التُّكلان ، وإنا لله وإنا إليه راجعون ، ولا حول ولا قوَّة إلا بالله العليِّ العظيم ، ذي الحبل الشديد ، والأمر الرشيد .

فإذا كنت مع الرشيد فلن تضلَّ أبداً . . لن تُخطىءَ لأنَّك مع التوجيه الإلهي ، مع الخبير ، ولا ينبِّئك مثل خبير .

قال تعالى :

﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات : ٧ـ ٨] .

فالراشد هو الذي عرف الصواب من الخطأ فاتَّبع الصواب ، وتحرَّك نحو الهدف بأقلِّ جهدٍ وأقلِّ وقت ، سار إلى هدفه مستقيماً ، هذا معنى الراشد .

نرجو الله سبحانه وتعالى أن ينفعنا بما علَّمنا ، وأن يُلهمنا الخير والصواب والرشاد .

* * *

الوَارِثُ

من أسماء الله الحُسنى الوارث ، وهو أحد أسماء الله الحسنى التي وردت في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الوارث اسمٌ من أسماء الله الحُسنى ، ومعنى هذا الاسم الوارث هو الباقي ، لأننا في حياتنا الدنيا نعرف أنّ الذي لم يمُت هو الوارث ، ولأنَّ الله سبحانه وتعالى حيٌّ باقٍ على الدوام فهو الوارث ، كلُّ ما بيدك مصيره إلى الله .

قد تقول إنَّ هذا البيت ملكي ، هذا كلامٌ فيه مجاز ، البيت لله . . سُئل أحد الأعراب وهو يقود قطيعاً من الإبل لمن هذه الإبل ؟ قال : لله في يدي .

واعلم أيها المؤمن أن كل شيء تحت يدك من بيت ومَتْجر ومركبة وممتلكات ليست لك ، إذا أردت الكلمة الصحيحة التوحيديّة التي ليس عليها مأخذ فقل كما قال هذا الأعرابي : لله في يدي .

بعضُ الأبنية يكتبون عليها الملك لله ، حينما تشعر أنَّ يدك على ممتلكاتك يدُ الأمانة ، وأنَّ يدك على مالك يدُ الأمانة ، فهذا الشعور يجعلك تتصف بنفسيّة مَن سيحاسَب ، هذا المال وضع بين يديك مؤقتاً لينظر الله كيف تعمل وأنت مستخلفٌ فيه ، وقد أشار القرآن إلى

هذا المعنى فقد قال الله تعالى : ﴿ ءَامِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [الحديد : ٧] .

أنت أمين صندوق مؤتمنٌ عليه ، والله مطّلعٌ عليك سيحاسبك وسيُنبِّئك بما عملت .

وكلُّ شيءٍ في حوزتك مصيره إلى الله ، وهو الوارث .

الوارث سبحانه وتعالى هو الباقي بعد فناء خلقه . . هذا المعنى نشعر به في حياتنا الدنيا ، ندخل إلى بيت في أعلى المستويات وصاحبه تحت التراب ، أولاده هم الذين يستمتعون الآن بهذا البيت ، فهم الورثة ، وإذا تابعنا نجد أنَّ أحفاده يرثون آباءهم ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فالوارث هو الباقي . .

حدثني رجل قال : إنسان من أهل العلم يملك مكتبة نادرة في بيته . له صديقٌ حميم رجاه أن يستعير كتاباً لليلةٍ واحدة فلم يوافق ، لأنَّ الكتاب أغلى عليه من أولاده ، هذا الصديق الحميم أقسم بالله العظيم إنَّه بعد موت هذا العالم رأى الكتاب في الحاوية ، كيف كان صاحب هذه المكتبة حريصاً على كتبه ، فلما مات أصبح الكتاب ملكَ أهله ، لم يعبؤوا به فألقوه في الحاوية .

الشيء بالشيء يذكر . . أتمنى على كل أخٍ مؤمن عنده مكتبة متواضعة أن يحرص حرصاً لا حدود له على تعليم أولاده لئلا توضع هذه المكتبة في مكان مهمل من البيت ، ولئلا تصبح يوماً من سقط المتاع ، فتلقى خارج البيت على نحوٍ ما ، حبب إليهم الكتاب ولا تجعلهم أعداءً له ، كثير من الأسر تجد أن المثقف فيها هو الأب وحده ، وكلُّ من حوله يناهضون الكتاب ، عوِّدهم أن يقرؤوا ، اجعل

القراءة أعلى متعةٍ في البيت ، إنَّ أرقى هوايةٍ يهواها الإنسان هواية القراءة ، لأنَّك بالقراءة تأخذ عصارة عقول النابغين ، عقل النابغ كلّه في مئة صفحة ، فإذا قرأتها اطلعت على خبراته ورشفت من رحيق عصارة عقله ، فأخذت الكثير .

عود على بدء . . الوارث هو الباقي بعد فناء خلقه ، وهو الوارث لجميع الأشياء بعد فناء أهلها فقد قال تعالى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [مريم : ٤٠] .

تدبر معي هذه القصة التي تكاد تكون من نسج الخيال ؛ ذلك أنَّ أغنى أغنياء العالم سبائكه الذهبيّة يضعها في صناديق على مستوى غُرف ، وأنّ الغرفة لها باب حديدي ، وهذا الباب محكم الإغلاق ، دخل إلى غرفته يوماً وأُغلق عليه الباب خطأً ، وهو رجل لا يكاد يلقي عصا الترحال فظنَّ أهله أنَّه مسافر ، فمات من الجوع وقبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة جرح أُصبعه وكتب على الحائط بدمه : أغنى رجل في العالم يموت جوعاً .

نمضي معاً في رحاب قصة أخرى لكنها واقعية : رجل ركب ناقته ليقطع بها الصحراء ، فضلَّ الطريق ونفد طعامه وزاده وشرابه ، وأيقن بالهلاك ، ثمَّ لمح عن بعدٍ واحةً فأشرق في نفسه نور من الأمل ، هُرع نحو الواحة فإذا فيها بركة ماءٍ شرب منها حتى ارتوى ثم تولّى إلى الظل ، حانت منه التفاتة فإذا كيسٌ إلى جانب البركة فسرَّ به سروراً عظيماً وهو يحسب أنَّ فيه خبزاً ليأكل ففتحه فقال : واأسفاه هذه لآلىءُ . . ما قيمة اللآلىء في الصحراء . هو يحتاج إلى رغيف خبز لا يقدر ثمنه بمال الدنيا .

والإنسان ضعيفٌ أمام الله عزَّ وجلَّ ، كلُّ شيءٍ تملكه قد يتلاشى أمام شربة ماء ، وقد وصف الله تعالى نفسه بأنَّه الوارث من حيث إنَّ الأشياء كلَّها صائرةٌ إليه ، فماذا نفهم من قوله تعالى : ﴿ صِرَاطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ [الشورى : ٥٣] .

بيد من كانت الأمور حتى قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾ ؟.. أجاب العلماء : بأنَّ الأمور كلَّها بيد الله دائماً ، ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ ﴾.. فقد قال تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [هود : ١٢٣] .

ولكنَّ أهل الدنيا الذين انقطعوا عن الله عزَّ وجلَّ وانطمست بصيرتهم يرون أنّ الأقوياء في الدنيا بيدهم الأمور كلها ، هم يعبدونهم من دون الله ، هم يرون أن الأقوياء بيدهم أسباب الحياة ، أما يوم القيامة فهؤلاء الذين انقطعوا عن الله عزَّ وجلَّ وتوهَّموا أنَّ الأمر بيد الأقوياء يرون أنَّ الأمر بيد الله عزَّ وجلَّ ، فأنْ يصير الأمر بيد الله يوم القيامة ؛ بمعنى أنَّ هذا الإنسان الجاهل كان يتوهَّم أنَّ الأمر بيد زيدٍ أو عُبيد ، أما يوم القيامة فلا يرى الأمر إلا بيد الله عزَّ وجلَّ .

يقول الله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [الحديد : ١٠] .

﴿ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.. بالمناسبة.. النبي عليه الصلاة

والسلام لم يُورِّث درهماً ولا ديناراً ، ولكن ماذا ورَّث ؟ ورَّث هذا العلم ، فمن أخذ به أخذ بحظٍّ وافر .

لذلك فالإنسان حينما يكون حظُّه من الدنيا مالاً كمال قارون نقول له : إنَّ الله أعطى قارون المال وهو لا يحِبُّه ، ثم سلبه منه فجأةً وما انتفع به ، فقد قال تعالى : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾ [القصص : ٨١] .

وحينما يكون نصيبك من الدنيا كنصيب فرعون نقول لك : إنَّ الله أعطى الملك لفرعون وهو لا يُحِبُّه ، وسلبه منه فجأةً حينما غرق وقال : ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ فما نفعه إيمانه هذا ولا نفعه ملكه . . في قوله تعالى :

﴿ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس : ٩٠] .

ولكنَّ الله إذا أحبَّك أعطاك في الدنيا من مثل ما أعطى الأنبياء ، فقد قال تعالى :

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : ٢٢] .

فإذا كان نصيبك من الدنيا علماً صحيحاً ، معرفة بالله عميقة ، فكراً نيِّراً ، قلباً طاهراً ، استقامة على أمر الله ، عملاً طيِّباً ، إخلاصاً لله ، هذا الذي نال من الله عزَّ وجلَّ أكبر نصيب لأنَّه نال من ميراث النبي ﷺ .

ألا تسمع أنّ بعضهم إذا أرادوا الثناء على عالم يقولون عنه : هذا وارث محمَّدي . أي ورث عن النبي ﷺ العلم ، والحكمة ،

والعمل.. فينبغي أن يكون كلُّ واحدٍ منا وارثاً محمدياً ، يأخذ من ميراث النبي ﷺ وهو العلم.. إنَّ الأنبياء لم يورِّثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورَّثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافر .

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنه مر بسوق المدينة فوقف عليها قال : يا أهل السوق ما أعجزكم ؟ قالوا : وما ذاك يا أبا هريرة ؟ قال : ذاك ميراث رسول الله ﷺ يقسم وأنتم ههنا ألا تذهبون فتأخذون نصيبكم منه ؟ قالوا : وأين هو ؟ قال : في المسجد ، فخرجوا سراعاً ووقف أبو هريرة لهم حتى رجعوا فقال لهم أبو هريرة فقد أتينا المسجد فدخلنا فلم نر فيه شيئاً يقسم! فقال لهم أبو هريرة : وما رأيتم في المسجد أحداً ؟ قالوا : بلى رأينا قوماً يصلون وقوماً يقرؤون القرآن وقوماً يتذاكرون الحلال والحرام ، فقال لهم أبو هريرة : ويحكم فذاك ميراث محمد ﷺ . [رواه الطبراني في الأوسط إسناده حسن] .

قد يأتي إنسان من مكان بعيد ويستغرق منه الطريق ساعة ليحضر مجلس علم ، ليتلقى في المسجد بعضَ ميراث النبي ﷺ.. معنى ذلك أنَّه أخذ بحظٍّ وافر ، أخذ من ميراث النبي ﷺ .

سبحان الله.. جمال القرآن الكريم أنَّ الله عزَّ وجلَّ كلَّما أشار إلى شيء يعقِّب بجملة هي قانون محكم ، فقد قال تعالى : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص : ١٤] .

فلقد أعطاه حكماً وعلماً ، وهذا شيء ثمين وجميل .

أجل ، شيء جميل ، لكن ماذا قال الله بعدها ؟.. ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾.. فهذا قانون ، أي إذا أردت أن تنال علماً وحكماً كن مُحسناً ، ثمن العلم والحكمة الإحسان .

قال تعالى :

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [الحديد : ١٠] .

وقال أيضاً :

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴾ [الحجر : ٢٣] .

لذلك ينادي ربُّنا جلَّ جلاله يوم القيامة : ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ﴾ . . فيجيب الخلائق جميعاً : ﴿ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ . . فقد قال تعالى : ﴿ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾[غافر : ١٦] .

إذا كنت في الدنيا على صلةٍ محكمةٍ مع الله عزَّ وجلَّ وهو راضٍ عنك وأنت محبٌّ له متفانٍ في خدمة خلقه فهذا هو الفوز العظيم ، أن يكون لك مكانٌ عند الله عزَّ وجلَّ فقد قال تعالى :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴾ [القمر : ٥٤ـ٥٥] .

واللهِ هذا هو الفوز العظيم ، هذا هو الفلاح ، هذا هو النجاح ، هذا هو التفوُّق ، هذا هو التألُّق ، هذه هي البطولة .

ليس من يقطع طُرقاً بطلاً إنما من يتقي الله البطل

في معجم تاج العروس : الوارث صفةٌ من صفات الله تعالى وهو الباقي الدائم بعد فناء خلقه ، وهو يرث الأرض ومن عليها ، إذا قلنا : يرث الأرض ومن عليها . . أو وما عليها ، للعاقل ولغير العاقل .

يجول في خاطري قصة سأرويها : رجل من أصحاب النشاطات

الصناعيَّة الكبيرة ، له ثروة طائلة جداً ، وقد رأيت قصره في بعض المدن الشمالية عام أربعة وسبعين وتسعمئة وألف ، في ذاك الوقت كان ثمنُه خمسةً وثلاثين مليوناً ، وتبلغ قيمته الآن عشرات الأضعاف ، وقد توفِّي في عمر الثانية والأربعين وكان مديد القامة ، دفن في قبرٍ ولعلَّه كان صغيراً فما اتسع القبر لقامته المديدة فاضطُرَّ الحفار إلى أن يدفعه في صدره ، فأصبح رأسه مع جسمه يشكِّل زاويةً قائمة وهو الذي يملك أفخم قصر في إحدى مدن الشمال ، بلاط أرضياته من الرخام الشفاف ـ الأونكس ـ وهو من أغلى أنواع الرخام ، لمن هذا المنزل الفخم ؟ لغيره ، وبعد غيره ؟ ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ١٦﴾ .

معنى أنَّ يدك على كلِّ شيء يد الأمانة ؛ فهذا معنى هام جداً ، البيت مؤقَّت ، والمركبة مؤقَّتة ، والمتجر كذلك مؤقَّت كلُّ شيء تحوزه يداك يدك عليه يدُ الأمانة ، يد الاستخلاف والله ينظر كيف تعمل ، وفي النهاية هذا كلُّه يؤول إلى الله عزَّ وجلَّ . . لأن الله عزَّ وجلَّ هو المالك الحقيقي ، وملكه أوسع أنواع الملكية ، إذا قلنا : الله هو المَلِك ، أو المالك ، مالك خلقاً ، ومالك تصرُّفاً ، ومالك مصيراً .

هو الذي خلق ، وهو المُتصرِّف ومصير كل شيء إليه ، فهذا هو المالك ، نحن نملك تملُّكاً مجازياً ، قد تشتري بيتاً وتؤدي ثمنه نقداً ، والبيت فخم وأنت لم تبن ، بل بني بيد غيره ، قد تنتفع به ، وقد لا تنتفع به ، إما أن تتركه وإما أن يتركك .

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾

[الأنبياء : ٨٩]

والله عزَّ وجلَّ كما ذكرتُ من قبل سمح لذاته العليَّة أن يوازنها مع خلقه في عدَّة مواضع ، فمن هذه المواضع . . ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ . . في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون : ١٤] .

ومن هذه المواضع أيضاً : ﴿ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴾ . . في قوله تعالى :

﴿ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴾ [الأنعام : ٦٢] .

في بعض أجهزة الحواسب يقرأ الحاسب أربعمئة وخمسين مليون حرف في ثانية ، أما الحواسب الشخصيَّة التي بين أيدي الناس فهي تقرأ مليون حرف في الثانية ، هل هناك حسابٌ أسرع من هذا الحساب ؟ ومع ذلك ربنا عزَّ وجلَّ لعلمه أنَّه سيكون هناك حواسب ذات سرعات عالية سمح لذاته العليَّة أن يوازنها مع خلقه فقال : ﴿ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴾ . . هذا الذي يأخذ الحديد من فلزَّات الأرض ، ويجعله صفائح ويشكِّله على شكل مركبة ، وهذه المركبة تزوّد بمحرِّك وعجلات وأبواب وفرش وكهرباء وتكييف . . إلى آخره من المستلزمات ، هذه المركبة سمَّى الله سبحانه صانعها ـ مجازاً ـ خالقاً .

قال تعالى : ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ . . فأقرب شيء أن توازن بين كلية صناعيَّة وكلية طبيعيَّة ، الكلية الصناعية حجمها كبير ولها صوت ، ومن أجل أن تنقِّي الدم من البول تحتاج إلى ثماني ساعات ، أما الكلية الطبيعية فحجمها كقبضة الكف فيها طريق طوله مئة كيلو متر

وتعمل بصمت تام وأنت مستلقٍ ، وأنت تمشي ، وأنت تركب ، وأنت نائم ، وأنت يقظ ، وأنت تحاضر في الناس وهي تعمل ، والدم يمرُّ في هذه الكلية خمس مراتٍ في اليوم يقطع طريقاً يزيد على مئة كيلو متر وأنت لا تدري ، وازن بين كلية طبيعيّة وكلية صناعيّة .

وازن بين آلة تصوير والعين ، آلة التصوير تريك الصور صغيرة ، أما عينك فتريك الأشياء بحجمها الحقيقي ، فتريك الجبل جبلاً ، وملوّناً ، العين تدرك الفرق بين درجتين من ثمانمئة ألف درجة من لونٍ واحد ، فلو أخذنا لوناً واحداً وقمنا بتدريجه ثمانمئة ألف درجة فالعين السليمة تدرك الفرق بين كل درجتين ، ربنا عزَّ وجلَّ قال : ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ . .

وازن بين الحاسب وذاكرة الإنسان. . فقد قال بعض العلماء : ذاكرتنا بحجم حبّة من حبوب العدس ، هذه الذاكرة تتسع لسبعين مليار صورة ، الإنسان الذي يعيش سبعين سنة تقريباً مُخَزَّن في ذاكرته سبعون مليار صورة كلُّها جمعت في مكان مقدارُهُ حبّة العدس ، فهذا خلق الله ، ولو نظرنا إلى أي أرشيف حوى ما حوى من إضبارات لوجدنا معلومات قليلة موضوعة في حجم كبير ، وتحركها بالغ الصعوبة ، هذه الذواكر الموجودة في الدماغ مفروزة ، ذاكرة سمعيّة ، ذاكرة بصريّة ، ذاكرة للمشمومات ، ذاكرة ألوان ، ذاكرة روائح ، ذاكرة أرقام ، ذاكرة وجوه ، وهذه الحيِّزات في الذاكرة في مكان قريب كثير الاستعمال ، وهناك مكان متوسِّط ، ومكان بعيد ، وهناك مكان تمحى فيه المعلومات ، إنّ الذاكرة وحدها من آيات الله الدالة على عظمته ، فوازن بين أرشيف ، أو دفتر ، أو حاسوب ، والذاكرة البشريّة .

وازن بين الحاسوب والذاكرة البشرية ، وبين آلة التصوير والعين الطبيعيّة ، وبين كلية صناعية وكلية طبيعية ، وازن بين الأرض ومركبةٍ فضائيّة ، قال تعالى : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ .

وفي مجال الإرث كذلك فقد وازن ربنا عزَّ وجلَّ بينه وبين خلقه فقال : ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ .

تحضرني قصة خلاصتها أنّ أحد الأشخاص في الشام ترك مبلغاً ضخماً يبلغ الألف مليون ، أحد الورثة نصيبه من هذا الميراث تسعون مليوناً ، فترك محلَّه التجاري وبدأ يسعى من دائرةٍ إلى دائرة ليأخذ براءات الذمَّة وينهي أمور الماليّة والتركات ، وهو في زحمة العمل من دائرةٍ إلى أخرى ، ومن مكتب إلى مكتب ، ومن مستشار إلى مستشار ليحصل على هذا المبلغ الضخم البالغ تسعين مليوناً ، وفي أحد الأيام دخل إلى الحمام فوافته المنيَّة فيه قبل أن يقبض درهماً واحداً . . فهل هذا وارث حقًّا ؟ إنه لم يستطع أن يتنعَّم بمال مورِّثه إطلاقاً .

ومن الورثة من يستمتع بالمال عدد سنين ، وفي النهاية ما من وارثٍ إلا وسيموت ، لأنَّ كلَّ مخلوقٍ يموت ولا يبقى إلا ذو العزَّة والجبروت ، الله عزَّ وجلَّ فهو خير الوارثين .

أصبح لدينا ثلاث موازنات : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ ﴿ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴾ . . ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ .

أنت مع قصة أخرى مفادها أن إنسانا اشترى بيتاً مع أخته مناصفةً ، ودفع كلُّ طرفٍ الثمن بالتمام والكمال ، إلا أنَّ البيت سُجِّل باسم أخته لأنَّها هي المعنيّة في الجمعيّة التعاونيّة ، وكان ثمن البيت في البدء خمسمئة ألف فأصبح ثمنه بعد حين ثمانية عشر مليوناً ، وتعمل أخته

في المحاماة ، فقالت له : لابدَّ من أن تأخذ مليوناً واحداً وأن تخرج إلى بيت آخر فالبيت باسمي ، فخرج منه لكن مرغماً . . فهي ذات قوَّة وتعرف دخائل القوانين ، فأخرجته بطريقةٍ ـ في ظنها ـ ذكيَّةٍ قانونيَّة ، وعنده أكثر من أربعة عشر ولداً فشردتهم بين أهل زوجته ، وأهله ، وبقيت وحدها في البيت . . وسارت عجلة الأيام مسرعة وأصيبت بمرضٍ خبيث في أمعائها وعانت منه شهرين ثم توفيت وأخوها هو وارثها الوحيد ، فرجع إلى البيت وأولاده معه واستأثر به ، فالله عزَّ وجل قال : ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ .

أحد العلماء يرى أنَّ الوارث هو الذي ترجع إليه الأملاك بعد فناء المُلاَّك ، إذ هو الباقي بعد فناء خلقه ، وإليه مرجع كلِّ شيءٍ ومصيره ، وهو القائل إذ ذاك : ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ﴾ وهو سبحانه المجيب : ﴿ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ .

إذا وقف أحدنا أمام سوق الحميديَّة وقرأ الأسماء على الصفَّين وغاب خمساً وعشرين سنة ، سوف يجد الأسماء كلَّها مختلفة ، فقد تسلَّم هذه المحالَّ أشخاص جدد ، كل خمسين سنة تتبدَّل الأشخاص ويأخذ الورثة الجدد ، الأراضي ، والمزارع ، والمحال ، والبيوت من واحد إلى آخر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

يتوهم الأكثرون أنَّ لأنفسهم مِلكاً ، ينكشف لهم في ذلك اليوم حقيقة الحال أنَّ الملك ليس لهم لكنَّه للواحد القهَّار .

المؤمن يرى وهو في الدنيا ما سوف يراه جميع الناس عند الموت ، هذه هي بطولته . . والله لو كُشِف الغطاء ما ازددتُ يقيناً . . المؤمنون الراسخون الكِبار يرون وهم في الدنيا ما لو كشف الغطاء قبل

كشف الغطاء ، أما غير المؤمنين فهم هنا في الدنيا في أوهام وفي ضلالات ، أما إذا انكشف الغطاء فقد بدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون كما في قوله تعالى :

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ [الزمر : ٤٧] .

أؤكِّد ما قلته. . .إن بطولة المؤمن أنَّه يرى الحقائق قبل فوات الأوان ، يراها في الوقت المناسب فينتفع منها ، وأما كلُّ الناس فبعد فوات الأوان يرون جميع الحقائق قال تعالى :

﴿ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس : ٩١] .

وقال تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٨] .

فطوبى لمن يرى أنَّ كلَّ ما في يديه مستخلفٌ فيه ، محاسَب عليه ، وأنَّ الله سبحانه وتعالى ينظر ماذا يفعل به ، لذلك يحاسب نفسه حساباً شديداً قبل أن يحاسبه الله تعالى ، أما الجاهل فهو الذي يظنُّ أنَّ الذي بين يديه ملكه وحصَّله بجهده وعرق جبينه ، فهو في هذا كقارون الذي قال : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [القصص : ٧٨] .

قال تعالى : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ .

﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾ . . أي فهو يدّعي أن عنده خبرات

متراكمة ، وقد حصَّلت هذا المال بجهدي وبذكائي ، وبخبراتي ، وبمتابعتي ، وغاب عنه أنَّ الله سبحانه وتعالى وفَّقه ، وهناك من هو أذكى منه ولم يحصِّل هذا المال قال أبو تمام :

ولو كانت الأرزاق تجري على الحِجى هلكن إذاً من جهلهنَّ البهائم

فالبطولة أن ترى الشيء قبل أن تصل إليه ، أو أن تصل إلى الشيء بعقلك قبل أن تصل إليه بجسدك ، أن تعيش المستقبل ، فهذا كلُّه صائرٌ إلى الله عزَّ وجلَّ .

الإمام الرازي يقول : « **الوارث : مالك جميع الممكنات و هو الله سبحانه وتعالى ، ولكنَّه بفضله جعل بعض الأشياء ملكاً لبعض عباده ، فالعباد إنهم ماتوا وبقي الحقُّ سبحانه وتعالى ، فالمراد أن الذي يكون وارثاً هو الله جلَّ جلاله** » ، أي أنَّ الله عزَّ وجلَّ مالك الملك ، كل شيء يُمَلَّك هو مالكه ، وهبه لك ليمتحنك ، إذاً هو ملك الله في يدك ، وهذا الجواب أبلغ جواب .

وقال بعضهم : « **الوارث هو الذي تسربل بالصمديَّة بلا فناء ، وتفرَّد بالأحديَّة بلا انتفاء** » .

وقيل : « **الوارث الذي يرث بلا توريث أحد ، الباقي الذي ليس لملكه أمد** » ، وذكر بعض العلماء : « **أنَّ الوارث هو الباقي بعد فناء الخلق** » .

ويقول بعض العارفين : « **الوارث هو الذي تفرَّد بالأحديَّة بلا انتهاء** » ، أي : وارثٌ واحدٌ أحدٌ وليس له وارثٌ ، يرث كلَّ خلقه وليس له وارث ، وتسربل بالصمدية بلا فناء الذي لا يرثه أحد ، ولكنَّه يمنح من يشاء من عباده الولاية والمدد .

اسم الوارث ورد في مواضع عدَّة من كتاب الله ففي سورة الحجر قال تعالى : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾ .

وفي سورة مريم قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ .

وفي سورة القصص قال تعالى :

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [القصص : ٥] .

فهنا معنى جديد . . إنَّ الأرض لله يورثها عباده الصالحين ، أحياناً الله عزَّ وجلَّ يورث الممتلكات لعباده الصالحين إذا استقاموا على أمره .

وفي سورة الأنبياء قال تعالى : ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ .

النبيُّ عليه الصلاة والسلام من دعائه الشهير :

« اللهمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ ، وَمِنَ الْيَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مُصِيبَاتِ الدُّنْيَا ، وَمَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا ، وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا ، وَاجْعَلْ ثَأْرَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمَنَا ، وَانْصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا ، وَلا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا ، وَلا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا ، وَلا مَبْلَغَ عِلْمِنَا ، وَلا تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لا يَرْحَمُنَا » [سنن الترمذي] .

إذا فقد الإنسان بصره قبل أن يموت فمن ورث الآخر ؟ هو ورث بصره ، إذا فقد سمعه قبل أن يموت فهو ورث سمعه ، أما إذا استمتع ببصره وبسمعه وعقله وقوَّته إلى أن مات فهذه هي التي ورثته ، ومتِّعنا

اللهمَّ بأسماعنا ، وأبصارنا ، وقوَّتنا ، وعقولنا ما أحييتنا ، واجعلها الوارث منا .

وفي بعض الأدعية : إلهي! أنت الوارث للعباد ، المتجلِّي بهذا السرِّ لأهل الوداد ، أشرق على قلبي نور اسمك الوارث الدائم حتى أرى الكلَّ لك وأقبل عليك بقلبٍ هائم ، ورِّثني يا رب! علوم أنبيائك ، وأسرار أصفيائك ، ومواهب أهل سمائك ، ورثني أرض العبوديَّة في نفسي حتى أتكمَّل ، إنَّك على كلِّ شيءٍ قدير ، وصلَّى الله على سيِّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم .

ملخص البحث.. « الوارثُ » هو الذي يرث خلقه بعد فنائهم ، لأنَّه الباقي بعد فناء خلقه ، كلُّ شيءٍ آيلٌ إليه .

علاقتنا بهذا الاسم.. أن تشعر أنَّ الذي بين يديك ليس لك صائرٌ ، بل هو صائر إلى غيرك ، يدك عليه يد الأمانة ، وأنت مستخلفٌ فيه ، وعليك أن تحاسب نفسك حساباً عسيراً لأنَّ الله ملَّكك ما ملَّكك إلا لينظر ماذا ستفعل .

اسم الوارث يجعل علاقة الإنسان بما في يده علاقة الاستخلاف لا علاقة التملُّك .

اللهمَّ أعطنا ولا تحرمنا ، أكرمنا ولا تهنا ، آثرنا ولا تؤثر علينا ، أرضنا وارض عنَّا ، وصلَّى الله على سيِّدنا محمدٍ النبيِّ الأميّ وعلى آلهِ وصحبه وسلَّم .

* * *

القَوِيُّ

من أسماء الله الحُسنى القوي ، وقد ورد في الكتب التي تناولت هذه الأسماء بالدراسة الاسمان معاً « القوي المتين » ، فهذا الاسم في ترتيب أسماء الله الحُسنى يأتي مع المتين. . القويُّ المتين ، وبينهما مشاركةٌ في أصل المعنى فلنبدأ باسم القويّ .

الإنسان يعجب بالقوَّة ، ويتأثَّر بالكمال ، وأحياناً يتأثَّر بالقوَّة وأصحابها ، فالله سبحانه وتعالى يجمع في أسمائه بين الكمال والجلال ، فقد قال تعالى :

﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن : ٧٨] .

قد تجد مجموعة صفات أساسها الرحمة ، كاللطف ، والشفقة ، والعناية ، والحرص ، وهناك أسماء أساسها القوَّة كالقهَّار ، والجبَّار ، والقوي ، والمتين ، فالإنسان كما يتأثَّر تأثُّراً بالغاً بالكمال الإلهي ، فهو أيضاً يتأثَّر تأثراً بالغاً بالجلال الإلهي ، لأنَّ الإنسان ضعيف ، وكل إنسان ضعيف يميل إلى أن يحتمي بقويّ .

منذ يومين حدثت مناقشة عن سر هذه الديانات الوثنيَّة ؟ كمن يعبد الشمس ، أو يعبد البقر ، أو إله مختلف كبوذا ، ذلك لأنَّ الإنسان مفطور على تعظيم القويّ ، ولأنَّه ضعيف لا تركن نفسه إلا

إلى قوي ، فإذا ضلَّ الإنسان عن الله يلجأ إلى ما يتوهَّم أنَّه قوي ، لذلك الحاجة إلى التديُّن حاجة أساسيَّة .

لك صديق قوي تطمئن إليه ، وتقول : معي رقم هاتفه ، وتشعر أنَّ أية مشكلة ستحلُّ عن طريقه ، وهذا بالطبع شرك وجهل وخطأ ، وعليك أن تشعر أنَّك عبد لقوي ، عبد لغني ، فالله الذي تعبده بيده كلُّ شيء ، الذي تعبده إليه مرجع كلُّ شيء ، الذي تعبده قادرٌ على كلِّ شيء ، الذي تعبده غني وقوي وحكم عدل ، فهذا سر توازن نفسيَّة المؤمن لأنَّه يركن إلى قوي .

المؤمن ضعيف بنفسه ولكنَّه قوي بربِّه ، وهذه القوَّة ليست ذاتيَّة ولكنَّه قوي بقوَّة الله ، غنيٌّ بغنى الله ، مطمئنٌ لأنَّ الله طمأنه ، متوازنٌ لأنَّ الله بشرّه . . فلذلك اسم القوي اسمٌ يبعث في النفس الطُّمأنينة .

أحياناً تكون علاقة الإنسان مع شخص ضعيف ، يقول له : والله لم أستطع خدمتك ، فقد كان بودِّي أن أفعل ولكن عيني بصيرة ويدي قصيرة ، فلا بدَّ لمعاملتك من موافقة الجهة الأعلى ، ولكنَّها لم تتوافر لدي ، فأنت معتمد عليه وواضع كل الثقة فيه ، وتعتقد أنَّه يستطيع أن يقوم لك بهذه الخدمة ، ولكنَّه اعتذر لأنَّه ضعيف فصغر في عينيك ، وما عُدت تعتزُّ به .

أما إذا اعتزَّ الإنسان بالله عزَّ وجلَّ فهو أقوى الأقوياء ، فهو ملك الملوك ومالك الملوك ، فليس من الصعب أن تكون عبداً لله القوي ، اصدق في التوجه إليه ، واعتمد عليه ، وعندئذٍ أنت قويٌّ من قوَّة الله ، غنيٌّ من غنى الله عزَّ وجلَّ .

قال العلماء : مادَّة القوَّة تدلُّ على شدةٍ خلافَ الضعف ، فالقويُّ

عكسُ الضعيف ، ورجلٌ شديد القِوى أي شديد أسر الخلق .

أحياناً تركب مركبة ومعك خمسة أشخاص في طريق صاعد صعوداً شديداً ولكنَّها تسير ، معنى ذلك أنَّ المحرِّك قوي ، أحياناً تجد في الميناء البحري رافعة ترفع حاوية كبيرة زنة عشرين أو ثلاثين طناً فالرافعة قويَّة ، وأحياناً ترى باخرة تبلغ حمولتها مليون طن كبعض ناقلات النفط ، تسير بمحرِّك جبَّار .

تجد آلات تقوم بهدم بناء بأكمله ، هذه أمثلة أمامنا ، ولكن هذا الجبل من يزحزحه ؟ تجد بعض الجبال تؤخذ منها الرمال ـ مقالع ـ فمنذ أربعين سنة يؤخذ منه يومياً مئة سيَّارة ولا يزال شكله كما هو ، فبمحافظة السويداء يوجد جبل نادر في القطر يمدُّنا برمل مفرَّغ مثل الإسفنج ، وأعرف أنه منذ أكثر من عشرين سنة تعبأ منه كل يوم مئة سيارة من الرمال السوداء والجبل ما يزال كما هو ، فمن يستطيع أن يزحزح جبلاً ؟

توجد شركة في ألمانيا قامت بنقل بناء كان يجب أن يُهدم ، فقامت هذه الشركة بتقديم عرض تنقل هذا البناء بنصف كلفة بنائه ، فقامت بفصل الأساسات ورفعها على عجلات وربطت المجاري وأسلاك الكهرباء والهاتف وبشرط أنَّ السكان لم يغادروه! ونقل ثلاثين متراً وهذا البناء مؤلَّف من ستة طوابق ، فهذه الشركة العملاقة التي قامت بهذا العمل تشعر بأنها شركة جبَّارة ، وهذه الأمثلة أرضيَّة .

لكن حينما ترى أنَّ الأرض تدور بسرعة ألف وستمئة كيلو مترٍ في الساعة. . أسرع طائرة تسير بسرعة من تسعمئة إلى ألف كيلو مترٍ وبعض الطائرات الأسرع من الصوت كطائرة ـ الكونكورد ـ تقترب من

سرعة الأرض حول نفسها ، الأرض كم يبلغ وزنها ؟ فانظر إلى موقع سورية على خريطة كبيرة تجدها لا تتسع لكلمة دمشق العاصمة وبحروف صغيرة ، فما بالكم بقارة آسيا ، أو قارة إفريقية ، أو قارة أمريكا ، أو قارة أستراليا ، القارات الخمس ، وهذه القارات تبلغ خمس اليابسة في المساحة وأربعة الأخماس الباقية بحر ، فهذه الكرة الأرضية من يديرها ؟ ومنذ كم من السنين ؟ والشمس تتسع لمليون وثلاثمئة ألف كرة من حجم الأرض ، والشمس والمجموعة الشمسية كلها نقطة على درب التبانة ، ودرب التبانة مجرَّة على شكل عضلة ، تراها في أيام غياب القمر كسحابة بيضاء في السماء على شكل مغزلي وهذه هي مجرَّتنا ، والمجموعة الشمسية بأكملها بجميع كواكبها كالأرض والمشتري وعطارد والمريخ والزهرة وبلوتو وزحل. . . وإلى آخره نقطة على هذه المجرة ، فمن يدير هذا الكون ؟ فأنت مع القوي. . الذي بيده كلُّ شيء .

قال : القوة تدلُّ على القدرة التامة .

الإنسان يحمل علبة مكعبة الشكل طولها مثل عرضها مثل ارتفاعها ويبلغ ضلعها ستين سنتيمتراً ، أما لو حمَّلْناهُ علبة بداخلها مواد ثقيلة فتجده لا يقوى على حملها ، ولو حمل إنسان صندوقاً من الحديد وزنه ثلاثمئة كيلو غرامٍ فتجد نفسك قد عظَّمته كيف حمله ؟ ولو أنّ صخرة مكعبة الشكل ، طول ضلعها خمسة أمتار ، وطلبت من إنسان أن يزحزحها فلن يستطيع ، فهذا فوق طاقته ، فما بالك بالجبال ؟. . جبال الهيمالايا مثلاً يبلغ ارتفاعها ٨٨٨٢ م ، ولها قاعدة تغوص تحت الأرض أربعة وعشرين ألف متر ، فجميع الجبال ثلثها فوق الأرض وثلثاها تحت الأرض ، فمن خلق هذه الجبال ؟ ومن ألقاها في

الأرض رواسي أن تميد بكم ؟ من جعلها أكناناً ؟ من جعلها أوتاداً ؟ ومن جعلها مصدّاتٍ للرياح ؟ من جعلها مستودعاتٍ للمياه ؟ من جعلها قمماً عاليةً ذات مناخ لطيف ؟ الله عزَّ وجلَّ .

الإنسان عندما ينسى الله ويخضع لقوي من بني البشر ويمحضه كلَّ ودِّه ، وكلَّ ولائه وهو ليس على حق ، يكون هذا الإنسان قد ضيَّع نفسه وباعها بثمنٍ بخس ، أما إذا عرف الله وجعل كلَّ طاقاته لله عزَّ وجلَّ فيكون قد عرف قيمة نفسه. . أساساً ما عرف قيمة نفسه إلا من باع نفسه لله ، لأنَّه أحسن الاختيار .

قال العلماء : « **القوة تدلُّ على القدرة التامة ، والمتانة تدلُّ على شدَّة القوة** » .

أحياناً نريد قوة تحمل هذه الطاولة ، القوة تدلُّ على القدرة التامة ، أما لو رفعت هذه الطاولة رافعة إمكانها أن ترفع خمسين طناً ، فإن هذه القوة تكون تامَّة ومتينة ، تامة أي كافية لإنجاز هذا العمل ، أما عندما يكون معها احتياطي يبلغ مئة ضعف تكون متينة .

فقالوا : القوة تدلُّ على القدرة التامة ، والمتانة تدلُّ على شدَّة القوة. . إلاّ أنَّه في المصطلحات الحديثة. . المتانة والقساوة ، فالقساوة هي تحمُّل قوى الضغط ، أما المتانة فهي تحمُّل قوى الشد ، فعندنا قوى للشد وقوى للضغط ، فلو وضعنا يدنا فوق مكعب من الفخار موضوعاً على الطاولة وضغطنا ، فإذا كسر نقول : إنَّ قوى الضغط الواقعة عليه عالية وكبيرة جداً حتى إنَّ هذا المكعب سحق ، أما إذا كان لدينا خيط وأردنا أن نمتحن متانته فإننا نشدُّه فإذا قُطع نقول متانته ضعيفة ، فالقساوة تحمل قوى الضغط ، أما المتانة فتحمل قوى الشد .

لا بد من وقفة قصيرة عند عظمة الخالق ، لا تخطر على بالك أن أسنانك فيها قوة بالغة ، فميناء الأسنان هو ثاني عنصر قاسٍ في هذا الكون بعد الماس ، لا يزيد عليه في قساوته إلا الماس ، وهذا الإنسان خلق من ماءٍ مهين ، وهذا الماء صار عظاماً قاسيةً وصار ميناء قاسياً .

إذاً : تمام القوة أن تؤدي مهمتها ، أما متانة القوة فأن تكون هذه القوة بالغة الشدَّة ، فالله تعالى من حيث إنَّه بالغ القدرة تامُّها قوي ، ومن حيث إنَّه شديد القوة متين ، إذاً هو قويٌّ متين ، فكلمة قوي أي تعلَّقت قوَّته بكلِّ ممكن ، فكل شيءٍ ممكنٍ قدرتُه تغطيهِ ، وقوته شديدة أي : متينة .

الله ـ جلَّ جلاله ـ صاحب القدرة التامَّة البالغة الكمال ، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾ . . قال تعالى :

﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾ [هود : ٦٦] .

فالضعيف ليس عزيزاً ، الضعيف تضعف عزَّته أمام أيِّ شيء ، فقد يخجل الإنسان أحياناً فخجله ضعف ، وإذا لم يعرف يصغر ويضعف ، وإذا لم يتمكَّن من حمل شيء يصغر ، وإذا كانت توقَّفت آلته أمام عقبةٍ كأداء يصغر ، أما العزَّة فألا ينالك أحد فمعنى ذلك أنت عزيز ، فمن لوازم العزَّة القوة ، فالله سبحانه وتعالى قويٌّ عزيز . . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾ . . ولا ننسى أن كلمة (هو) تفيد الحصر والقصر .

وقيل القوي : « هو المتناهي في القوة التي تتصاغر كلّ قوةٍ أمام

حضرته ، ويتضاءل كلُّ عظيمٍ عند ذكر عظمته » ، فالله تعالى أعطى الملائكة قوةً كبيرة يستطيع المَلَك بها أن يقتلع الجبال ويقلب المدن .

فمن الممكن أن يأتي إعصار على أمريكا ويدمِّر مدينة بأكملها ولا يُبقي فيها شيئاً ، فقد قرأت عن إعصار قبل ثلاثين عاماً بلغت سرعته ألف كيلو مترٍ وهو من أعتى أنواع الرياح أتى على مدينة ، وكان فيها بناء ضخم ومتين ، فصاحبه لم يجد أثراً لبنائه ، وقد وجد محرِّك مركبته بعد أكثر من خمسة كيلو مترات من موقع البناء .

وأحياناً المياه تدمِّر كلَّ شيء ، والنار تحرق كلَّ شيء ، تجد حريقاً بالغابات قضى على مئتين وخمسين دونماً ، أو على ألفين وخمسمئة دونم ، فالله عزَّ وجلَّ قوي .

ومن الشيء الغريب أنَّ الأشياء الأساسيَّة في حياتنا تنقلب إلى قوى مدمِّرة ، فالهواء مثلاً أساسي في حياتنا ينقلب إلى مدمِّر كالرياح المدمرة ، والماء أساسي في حياتنا ينقلب إلى قوة مدمِّرة .

فقد ذكر الله تعالى في القرآن عن هذا الذي أتى بعرش بلقيس ملكة سبأ من اليمن إلى سيدنا سليمان في بيت المقدس فقال : ﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ ﴾ . . فقد قال تعالى :

﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل : ٤٠] .

عندما أرادوا إنشاء السد العالي بمصر ، كانت البحيرة خلف السد ستغمر معبداً كبيراً بالمياه ، فتعاونت أكثر من سبعين دولة على نقل هذا المعبد بما فيه بعد أن قطِّع على شكل مكعبات ، واشترك في ذلك

شركات عملاقة ، وبروافعها العملاقة تم نقله من مكانه إلى مكان آخر ، فقلت : سبحان الله هذا عرش بلقيس نقل من سبأ في اليمن إلى بيت المقدس في أقلَّ من لمح البصر ، وهذا ما يذكره القرآن الكريم ، لهذا فالملائكة والجن أُعطوا قدرات تفوق حدَّ الخيال ، لذلك قال تعالى :

﴿ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ ﴾ [الرحمن : ٣٣] .

لماذا بدأ بالجن ؟ قال : لأنَّ الجنَّ أقدر من الإنس على خرق السموات والأرض ، والنبي الكريم ﷺ ـ كما روى الترمذي ـ أنه رأى جبريل قد سد الأفق ، فالملائكة أُوتوا قدراتٍ عالية المستوى ومع ذلك يخشون سطوته سبحانه ، ويرتعدون من هيبته .

وقيل القوي « **هو الذي له كمال القدرة والعظمة** » ، له كمال القدرة لا يعجزه شيء ، فأحياناً تجد رافعات تقف أمام عقبة كأداء ، أو تجد سيارات في طريق شديد الصعود تقف ولا تكمل الطريق ، وآلات تعجز عن متابعة المهمَّات ، والله بالغ القدرة لا يعجزه شيءٌ في السموات ولا في الأرض ، فأنت مدعو لأن تكون عبداً للإله القوي ، فإذا كنت عبداً له كنت قوياً بقوَّته .

قال العلماء : « **غالب لا يُغْلب ، يجير ولا يُجار عليه ، فقوَّته فوق كلِّ قوة** » .

قد تجد في الحروب الحديثة دولة قوية عندها من الأسلحة المتطوِّرة فتأتي دولة أقوى منها تحيِّد أسلحتها كلَّها ، يكون لديها سلاح ذو فاعليَّة شديدة جداً ، كأن يقولوا مثلاً : قنبلة تركب من أشعة

الضوء المركَّز ـ أشعة الليزر ـ ، أو قنابل عنقودية أو قنابل ذكيّة ، فهذه الدول المالكة للأسلحة الفتَّاكة تتفوَّق على الدول الأقل منها قوةً ، إذاً الدولة الضعيفة ليست عزيزة . لكن الله : « **غالب لا يُغلب ، يجير ولا يُجار عليه ، فقوَّته فوق كلِّ قوة** » .

وقيل : « **هو الذي لا يلحقه ضعفٌ في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله** » .

ألا ترون إلى مصارعين أشدَّاء ، رياضيِّين ، عدَّائين ، ففي الرياضة كثير من الفروع ، انظر إلى هذا البطل في سنِّ الثمانين تجد ظهره قد انحنى ويده ترتجف ، ويصعد درجات السلَّم درجة درجة ، فقد كان في بلاد الشام رجل قوي إذا أمسك عربة يجرُّها حصانان قويان وشديدان يوقفها وقد حدثني رجل توفي ـ رحمه الله ـ كان يركب في مركبة عامة وصعد إلى جانبه هذا البطل الشديد فرجا السائق أن يوقف له المركبة أمام بيته لأنَّه لا يقوى على أن يمشي مسافة عشرة أمتار ، رجاه رجاء طفولياً . . أين قوَّته ؟ تلاشت .

اسم القوي جاء في سبع آيات . . الآية الأولى في سورة هود قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾ .

أنا أركِّز على كلمة « هُوَ » أي هو وحده القوي العزيز ، فما بال الأقوياء في الأرض ؟ قوَّتهم مستمدَّة من قوة الله ، فلو تخلَّى عنهم لأصبحوا ضعفاء .

أضرب لكم مثلاً على ذلك . . ففي معامل الحديد توجد رافعات تعمل بالجذب الكهربائي المغناطيسي ، سطح مربع كبير جداً محاط

بوشيعة كهربائية يمر بها تيار كهربائي ، فيمكن أن تحمل عشرة أطنان من الحديد ، ولسهولة العمل في هذه المعامل تنتقل الرافعة من مكان إلى مكان ، ويكفي أن تسري الكهرباء في الأسلاك فتحمل عشرة أطنان ، والعامل في هذه الرافعة لو ضغط على زر في أقل من عشر المليمتر يفصل الكهرباء عن هذه الخطوط فتجد كل ما علق في الرافعة يسقط ، وذلك عن طريق عملية الضغط على الزر .

الله عزَّ وجلَّ قوي ، وإذا منح القوة لأشخاص فبأي ثانية يجعلهم ضعافاً ، لا يقدرون على شيء ، إن الله هو القوي ، فقوة الأقوياء من قوته ، وفي أية لحظةٍ يسلبهم هذه القوة ، والله إذا أعطى أدهش وإذا سلب فتَّش .

جاء في الآية الكريمة كلمة « ربك » التي تذكرني بأنها أقرب اسم للإنسان ، فالرب هو الذي يربيك ، هو الذي يرعاك ، هو الذي يربي جسدك ، ويربي روحكَ ، ويربي نفسك ، ويعطيك ويمنعك ، ويقلبك على أحوال شتَّى ، إن ربك الذي يربيك هو وحده ﴿ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾ . فاطمئن ، فتوكل عليه ، والتفت إليه ، وأقبل عليه ، وأخلص له ، ولا تلتفت إلى أحدٍ سواه ، لأنهم لاشيء إلى جانبه .

والآية الثانية في سورة الشورى كما قال تعالى :

﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾ [الشورى : ١٩] .

ربي ما أعظمك! سبحانك! ، يا قوي! يا لطيف! ، هناك قوي غير لطيف ، أعماله كلها قاسية . . أما ربنا عزَّ وجلَّ فمع أنه قويٌّ عزيز فإنه لطيفٌ بعباده ، فالهواء لطيف ، والماء لطيف ، والأرض فيها لطف إلهي كبير ، وإذا أراد ربنا عزَّ وجلَّ أن ينزع سن طفل دون أن يشعر

بأي ألم على الإطلاق ينزعه وهو يأكل ، يراه في فمه مع لقمة الطعام ، أما أي طبيب فإنه إذا أراد أن ينزع سن طفل فلابد من أن يؤلمه ، فالله لطيف .

فالماء له سيولة عالية جداً ولكنَّه مدمر أحياناً ، والهواء لاتراه بعينك ولكنَّه يحمل طائرة وزنها ثلاثمئة وخمسين طناً ، فالهواء يحملها . . فاللطف الإلهي واضح جداً في كل شيء .

وفي سورة الأنفال قال تعالى :

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال : ٥٢] .

في الآيتين الأولى والثانية القوي ورد مع العزيز ، فيها تناسب ، أما في الآية الأخيرة قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ عقابه أليم لأنه قوي ، والإنسان لايخاف تهديد الضعيف . . فقد قيل :

زعم الفرزدقُ أن سيقتل مربعاً أبشر بطولِ سلامةٍ يامربعُ

إذا هددك إنسان ضعيف لاتعبأ بتهديده ، أما القويُّ إذا هدد فهذا شيء مخيف . . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ . . لاتعاند من إذا قال فعل .

وقد قال تعالى في سورة الحج :

﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج : ٤٠] .

﴿ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ . . ﴿ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ .

وقال الله تعالى في سورة الحج أيضاً :

﴿ مَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج : ٧٤] .

قال بعضهم : « عرفت الله من نقض العزائم » . . أحياناً جهةٌ في الأرضِ قويةٌ جداً ترتب وتخطط وتحكم ، فإذا كلُّ إحكامها وخطتها وتدبيرها يذهب هباءً منثوراً . . عرفت الله من نقض العزائم . . ﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ .

فالإنسان في حركتهِ اليومية في الحياة يجب أن يدخل في حساباته أنه ماشاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

فقريش جاءت على بكرة أبيها ومعها حليفاتها من القبائل ، جاؤوا ليستأصلوا الإسلام في معركة الخندق ، فالمسلمون لم يحاربوا أحداً ولكن الله أرسل على عدوهم رياحاً عاتيةً اقتلعت خيامهم وقلبت قدورهم وأطفأت نيرانهم فلم يحتملوا ، هذه الرياح وما نتج عنها قد قال تعالى فيها :

﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ [الأحزاب : ٢٥] .

في برمودا مثلث إلى الآن هو سر ، طائرات عملاقة تطير فوقه فتسقط في المياه بلا أي خبر يعرف عنها ، بواخر عملاقة تدخل فيه فتختفي ، وحتى الآن لايزال هذا المثلث سراً من أسرار الأرض ، كل ما قيل من تحليلات فهي غير كافية لما يجري في هذا المثلث ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ .

وقد قال تعالى في سورة الأحزاب : ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ .

وموضوع قوة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أكثر ما تبدو في الحروب . . فتجد

أنه على الرغم من الإعداد الشديد للحرب يخسرها طرفٌ دون آخر لأسبابٍ تافهة .

يحضرني خاطرة : الحروب ثلاث : حربٌ لا تكون ، وحربٌ لا تطول ، وحربٌ لا تنتهي . . الحرب بين حَقَّيْن لا تكون ، فالحق لا يتعدد ، والحرب بين حقٍ وباطلٍ لاتطول لأن الله مع الحق ، والحرب بين باطلين لاتنتهي لدخول العوامل الأرضية ، الأقوى والأذكى ومن عنده سلاح أكثر جدوى .

وقد قال تعالى في سورة غافر :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [غافر : ٢٢] .

وقد قال تعالى في سورة الحديد :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد : ٢٥] .

فإنك تجد أحياناً سريراً معلَّقاً على سلاسل ، آخر السلسلة يوجد قطعة على شكل حرف (إس S) قطره أقل من أربعة مِليمترات يحمل هذا السرير وعليه خمسة أشخاص وهو يتحرك ، ألا تعجب لهذا الحديد الذي يحمل هذا الوزن ؟ وقد تجد أحياناً ـ تلفريك ـ وهو مؤلف من غرف ما بين الغرفة والغرفة خمسون متراً ، مئتا غرفة محمولة على شريط حديدي ، المصاعد الكهربائية تعلَّق بالفولاذ المضفور وهو متين جداً ، هذا هو الحديد الذي أنزله الله فيه بأس شديد ومنافع للناس .

وقد قال تعالى في سورة المجادلة :

﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة : ٢١] .

﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ ﴾ . . الله ليس عنده كتابة ، لكن كلمة كتب لإقناعِ عباده أن هذا شيءٌ ثابت . . نحن في حياتنا الشيء المكتوب ثابت ، يقول لك : معي عقد ، أو معي إيصال ، أو معي سند ، معي تصريح ، معي إقرار ، كل شيء مكتوب ثابت ، أما الشفهي فضعيف ، فالله عزَّ وجلَّ ليس عنده كتابة . . عنده كن فيكون . . ولكن تقريباً لأذهان عباده .

قال الله تعالى : ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ .

آخر آية وهي دقيقة جداً كما قال تعالى :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴾ [البقرة : ١٦٥] .

الإنسان غير المؤمن قد يخضع لقوي لتأثره بالقوة ولا يخضع لله ، يتأثَّر بقوة الجمال فيخضع لهذا الجمال ولا يخضع لله ، يتأثر بقوة العطاء فيخضع للمعطي ولا يخضع لله .

فهذا الذي عصى الله من أجل الناس ، من أجل الأقوياء ، أو الكرماء ، أو من أجل المتع الرخيصة . . هذا الذي عصى الله من أجل الناس لو كان يعلم قبل أن يعصيه أن القوةَ لله جميعاً ، قوة العطاء من عند الله ، وقوة الجمال من عند الله ، وقوة كل شيءٍ من عند الله ، لو كان يعلم هذا حق العلم لما عصاه .

فلو عرفت أن مصدر القوة هو الله عزَّ وجلَّ ما عصيته وأطعت مخلوقاً .

قال الله تعالى :

﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ [الكهف : ٣٩] .

انظر إلى عبارة . . ﴿ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ .

عن عبد الله بن علقمة بن وقّاص عن علقمة بن وقاص قال : إني لَعِند معاوية إذ أذّن مؤذنه فقال معاوية كما قال مؤذنه حتى قال المؤذن : حيَّ على الصَّلاةِ قال : لاَحَولَ ولاَقُوةَ إلاَّ باللهِ ، فلما قال : حيَّ على الفَلاَحِ قال : لاَحَولَ ولاَقُوةَ إلا بالله (ولا حول ولا قوة إلا بالله قيل معناه لا حول عن المعصية ولا قوة على الطاعة إلا بتوفيق الله . وقيل : الحول الحركة تقول حال الشخص إذا تحرك فالمعنى لا حركة ولا استطاعة إلا بمشيئة الله) .

وقال بعد ذلك ماقال المؤذن : قال سمعت رسول الله ﷺ يقول مثل ذلك [رواه النسائي]

أنت بحاجة إلى قوة على طاعته . . ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾ قال الله تعالى على لسان يوسف :

﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [يوسف : ٣٣] .

أنت بحاجة إلى قوة على طاعته ، لاقوة إلا بالله ، لاقوة على وجه الأرض من آدم إلى يوم القيامة إلا بالله ، الله هو القوي ، وكلّ الأقوياء يستمدون قوتهم من الله عزَّ وجلَّ .

قال الله تعالى :

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ [فصلت : ١٥] .

فأحياناً الإنسان لجهله يتكلَّم كلمات توحي بكفر ، يقول لك : لو أنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ شاء لم أفعل هذا الشيء ، يقولها الجهلة ، هذه الكلمة كلمة كفر ، فالله عزَّ وجلَّ قادر بلحظة أن يفنيه . . كن فيكون ، زُلْ فيزول ، لكن بعض الجهلة يقولون مثل هذه الكلمات التي هي كفر بواح وهم لا يشعرون بما يقولون . . فالإنسان كلما ازداد علمه ضبط لسانه واستقام كلامه وسلوكه .

وقد قال الله تعالى في سورة الذاريات :

﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [الذاريات : ٥٨] .

يرزق لأنه قوي ، فالضعيف لايرزق .

وبعد فماذا نستفيد من هذا الاسم (القوي) . . . نستفيد من هذا أن الإنسان المؤمن إذا عرف قوة الله تواضعَ ، لا يجتمع كبر مع معرفة قوة الله عزَّ وجلَّ ، أنت لاشيء إزاء قوة الله عز وجل ، فكلما تمت معرفتك بقوة الله تلاشت قدراتك أمام قوَّته ، فأصبحت متواضعاً ، والتواضع علم ، المتواضع يعلم حجمه أنه لاشيء وأن الله هو كل شيء .

إذا عرف قدرة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وقوته يتواضع له فيزيده الله قوةً إلى قوَّته ، أما إذا وضعه الله في مكانٍ قوي واعتدَّ بقوَّته فالله ـ عزَّ وجلَّ ـ يجعله مثلاً في الضعف ليتَّعِظ العباد به ، يجعله عبرة لغيرة .

إنّ الإنسان أحياناً يعتدُّ بقوَّته أو بماله أو بعمله ، فإذا اعتدَّ بقوَّته

ونسي قدرة الله . . عليه أن يتذكر مقولة الرسول ﷺ « اعلم أبا مسعود! الله أقدر عليك منك عليه » .

وقف رجل أمام الحجَّاج فقال له : أسألُك بالذي أنت بين يديه أذلُّ منّي بين يديك ، وهو على عقابك أقدر منك على عقابي ، فما كان إلا أن عفا الحجَّاج عنه .

ثم لنذكر المعنى الثاني . . إذا نسيت قدرة الله عزَّ وجلَّ جعل الله هذا القوي المتعالي عبرةً لخلقه ، فمن أجل أن تزداد قوةً إلى قوَّتك اعرف حجمك الحقيقي وتواضع لله عزَّ وجلَّ ، واعترف أمامه بضعفك يزدك قوةً إلى قوَّتك .

ما من اسمٍ من أسماء الله الحُسنى إلا وله تطبيقات ، ففي الحقيقة عندما يتعرَّف الإنسان إلى الله عزَّ وجلَّ يسلك سلوكاً صحيحاً ، فيصبح كلامه سديداً ، وحركته أديبة ، وطاعته لله متينة ، وإخلاصه شديداً لأنَّه عرف الله ، وأصل الدين معرفة الله عزَّ وجلَّ ، والإنسان إذا عرف الله عرف نفسه ، أما إذا جهل ربَّه فقد جهل سرَّ وجوده وغاية وجوده ، فتجاذبه قوى الأهواء وترديه صريعاً .

اللهمَّ أعطنا ولا تحرمنا ، أكرمنا ولا تهنا ، آثرنا ولا تؤثر علينا ، أرضنا وارضَ عنَّا ، وصلَّى الله على سيِّدنا محمدٍ النبيِّ الأميّ وعلى آلهِ وصحبه وسلَّم .

* * *

المتين

من أسماء الله الحُسنى المتين .

وقبل أن أمضي في الحديث عن هذا الاسم الجليل أريد أن أُنوِّه إلى أنَّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام حينما كانت تنزل النوازل كان يقول : لا إله إلا الله العلي العظيم ، لا إله إلا الله الحليم الكريم .

ماذا نفهم من هذا الثناء الذي هو في معرض الدعاء ، فالثناء دعاء :

أأذكر حاجتي أم قد كفاني حياؤك إن شيمتك الحياء
إذا أثنى عليك المرء يوماً كفاه من تعرضه الثناء

وحينما كان سيدنا يونس في بطن الحوت نادى في الظلمات قائلاً : ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ . . قال تعالى : ﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ ﴾ . . فالثناء دعاء . . وذلك ورد في الآيتين الكريمتين :

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٧-٨٨] .

فالنبي عليه الصلاة والسلام حينما كانت تشتدُّ به الأمور يقول :

عَنِ الْحَارِثِ عَنْ عَلِيٍّ رَضِي اللهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ : **« أَلا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ إِذَا قُلْتَهُنَّ غَفَرَ اللهُ لَكَ وَإِنْ كُنْتَ مَغْفُوراً لَكَ ؟ قَالَ قُلْ : لا إِلَهَ إِلا اللهُ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ، لا إِلَهَ إِلا اللهُ الْحَلِيمُ الْكَرِيمُ ، لا إِلَهَ إِلا اللهُ سُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ »** [سنن الترمذي] .

ماذا يعني هذا الدعاء ؟ يعني شيئين. . التوحيد والتسبيح ، أي أنَّ أمرك بيد جهة واحدة وهذه الجهة كاملة ، هل من حقيقة تُلقَى على نفس الإنسان أشدُّ طمأنة له من هذه الحقيقة ، أمرك كلُّه بيد الله ولا يستطيع أحدٌ غير الله أن يتدخَّل في أمرك مع الله ، والله ـ سبحانه وتعالى ـ صاحب الأسماء الحُسنى والصفات الفُضلى ، رحمن رحيم ، عليٌّ عظيم ، حليمٌ كريم ، فنحن إذا عرفنا الله وصلنا إلى كلِّ شيء .

للإمام عليٍّ ـ كرَّم الله وجهه ـ قولٌ رائع ، يقول : **« أصل الدين معرفته »** .

أيْ معرفة الله سبحانه وتعالى .

الذي أتمنَّى على الإخوة المؤمنين أن يعقلوا أنَّ النبي ﷺ حينما دعا الناس إلى الله بماذا بدأ ؟ بدأ بتعريف الناس بالله ثلاث عشرة سنة وهو يعرِّفهم الله ، أما حينما انتقل إلى المدينة فهنالك نزلت آيات التشريع ، الطريق الطبيعي أنَّك إذا عرفت الله تشعر باندفاع قوي إلى طاعته ، إلى التقرُّب إليه ، إلى الأعمال الصالحة التي ترضيه ، إلى معرفة منهجه ، إلى معرفة أمره ونهيه ، أما حينما تضعف معرفتك بالله عزَّ وجلَّ فإنك تتحايل لأنك لا تجد رغبةً في طاعته ، لا تجد رغبةً في الانصياع لأمره. . إذاً أيَّةُ دعوةٍ معاصرة إن لم تسلك طريقة النبيّ عليه

الصلاة والسلام في الدعوة إلى ربّه لا تنجح .

فلذلك كنت أقول دائماً : إنَّ الإنسان إذا عرف الأمر الموجه إليه من الله ، ولم يعرف الآمر وهو الله ، تفنن في التفلُّت من أمر الله ، تفنن بالحيل الشرعية ، بالتقصير ، بدعوى الصعوبة ، وبدعوى الاستحالة ، وبدعوى أن الأوامر فوق طاقة الإنسان ، وبدعوى البلوى العامة ، فهناك كثير من الدعاوي تطرح للتفلُّت من طاعة الله لا لسببٍ وجيه بل لأنَّ الإنسان عرف الأمر ولم يعرف الآمر ، أما حينما نعرف الآمر قبل الأمر فإننا نتفانى في طاعته .

وهذا الذي حملني على دراسة أسماء الله الحُسنى ومعالجتها وبيان تفاصيلها وآثارها.. إنه من أجل أن نعرف الله سبحانه ، لأننا إذا عرفناه أطعناه ، وإذا عرفناه بذلنا من أجله الغالي والرخيص ، والنفس والنفيس ، أما إذا ضعُفت معرفتنا به فإننا نبحث عن الحيل الشرعيّة وعن الفتاوى الضعيفة ، وعن الرُّخص ، وعن الخلافيَّات ، ونبحث عن الأعذار الواهية ، وعن كل ما من شأنه أن يغطي انحرافنا وتقصيرنا .

فلذلك من أَوجَهِ الأبحاث التي ينبغي أن نتفهمها ونتوقف عندها مليًّا أسماء الله الحُسنى ، وفي الحقيقة إنّ العلم ميسَّر إلى درجة كبيرة ، فمن الممكن أن نقتني هذه الأشرطة التي تناولت الأسماء الحسنى أو أن نستعيرها لنعود إلى الأبحاث السابقة كلِّها ، ولو أنَّ الإنسان خصص من وقته كل يوم وقتاً لسماع شريط واحد ، وعاد إلى سماع أسماء الله الحُسنى اسماً اسماً ، لاستفاد كثيراً من خصائص هذه الأسماء ، ولتذكر الكثير من مضامينها .

إنني على ثقة من أنَّ الإنسان إذا نمت معرفته بالله عزَّ وجلَّ يرى

نفسه منضبطاً ، يرى نفسه سوياً في السلوك والتطبيق ، ويرى نفسه مع الله وقريباً منه عزَّ وجلَّ ، لأنَّ أصل الدين معرفة الله عزَّ وجلَّ ، وإذا عرفت أنَّ الله لا إله إلا هو وعرفت أنَّ أسماءَهُ حُسنى ، وأنَّ أمرك بيده وحده فقد انتهى الأمر بك إلى وضوح منهجك واستقامة سبيلك ، إذاً فلتعلم ؛ قال تعالى :

﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴾ [الزمر : ٦٢] .

وقال أيضاً :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٤] .

﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴾ . . ﴿ لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ ﴾ . . لو أنَّ الله عزَّ وجلَّ قال : الخلق له ، أو لو أنَّه قال : نعبد إيَّاك ولو أنَّه قال : مفاتح الغيب عنده لكان هناك بعدٌ في المعنى عن معنى الآيات الحقيقي وهو بُعدٌ فيه خلل كثير في أداء المعنى ، فماذا نستنبط من قوله تعالى : وعنده مفاتح الغيب ، إيَّاك نعبد ، له الخلق ؟ .

إذا قلنا : الخلق له . . لا يمنع من أن يكون لغيره أيضاً ، إذا قلنا : مفاتيح الغيب عنده ، لا يمنع أن تكون عنده وعند غيره ، إذا قلنا نعبد إيَّاك لا يمنع أن نعبد غيرك ، أما إذا عكسناها وقلنا : إيَّاك نعبد ، وعنده مفاتيح الغيب ، له الخلق . . أي إيَّاك نعبد وحدك يارب ، وعندك المفاتيح وحدك يارب ، ولك الأمر وحدك يا رب ، ولك الخلق وحده ، فتقديم الخبر إذا كان شبه جملة على المبتدأ يعني الحصر والقصر .

إذاً نحن حينما نبحث في أسماء الله الحُسنى نريد من هذه الأسماء أن تزيدنا معرفةً بالله عزَّ وجلَّ ، وإذا عرفنا أنَّ الله هو الفعَّال وهو الكامل انتهى الأمر وضوحاً وجلاءً ، فأمرنا بيده وهو ـ وحده ـ يفعل ما يشاء ، ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وهو كاملٌ كمالاً مطلقاً. . ومن ثَمَّ ما عليك إلا أن تتحرَّك في المهمَّة التي أُنيطت بك وهي كما قال تعالى :

﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ [الزمر : ٦٦] .

الآية الكريمة قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ [الزمر : ٦٥-٦٦] .

﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ﴾ أي إنَّ هذه سنَّة الله في خلقه ، إنَّ هذه حقيقةٌ قديمة ، وهي حقيقةٌ مستمرَّة .

﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ . . ما معنى إحباط العمل ؟ إمّا أن يسقط من حيث القيمة ، وإما أن يسقط من حيث النوعيَّة . . فلو افترضنا أن إنساناً يعبد المال من دون الله ، أشرك المال في حبِّه مع الله فكيف يحبط عمله ؟ قد يجد أنَّ أكثر المشاريع ربحاً هي الملاهي فيقوم بإنشاء ملهى ، والأرباح طائلة ولكنَّه مبني على معاصي الله ، كيف يحبط العمل ؟ حينما تعبد المالَ من دون الله وتجعله إلهك كما قال الله عزَّ وجلَّ :

﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية : ٢٣] .

﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ . . عندئذٍ تبحث عن عمل مربح ، وقد

تجد بعض الأعمال الساقطة المنحرفة التي تُبنى على إفساد المجتمع هي أربح المشاريع ، إذاً . . ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ . . وقد يكون العمل في ظاهره راقياً ، إلا أنَّ النيات ليست تعبُّداً لله عزَّ وجلَّ بل النيات من المكاسب الماديَّة ، كما لو أنشأت مشفى وكانت الغاية المردود المادي لا مساعدة المرضى ، إذاً فإحباط العمل من حيث النوع . . إنشاء ملهى مثلاً .

وأمّا إحباط العمل من حيث القيمة . . إنشاء مشفى ولكن الهدف مادي محض ، لذلك قد تجد من التصرُّفات الماديَّة ما يتقزز منها الإنسان ويؤول أمرها إلى أن يحبط العمل ، والعمل يسقط ويتهاوى .

فالعمل إمّا أن يكون له شكل إنساني فتسقط قيمته لأنَّ المادَّة من ورائه ، وإما أن يكون له شكل منحط ساقط ، وعلى كلٍّ فالمشرك يسقط عمله ، أياً كانت قيمته أو نوعيته : ورد في الأثر : يا قُيس إنَّ لك قريناً يُدفن معك وهو حي وتدفن معه وأنت ميِّت ، فإن كان كريماً أكرمك ، وإن كان لئيماً أسلمك ألا وهو عملك ، تقول له : من أنت ؟!! فيجيبك : عملك . . أما هذا الجسم فيفنى ، والطعام الذي أكلته يفنى ، البيت الذي سكنته تغادره ، الأهل الذين عشت معهم تتركهم ، المال الذي كان في حوزتك لا تستطيع أن تحافظ عليه بعد الموت . . لذلك ماذا يبقى لك ؟ عملك ، وعملك أساسه العلم .

نرجع إلى الأفكار المضغوطة . . . الدين أن تعرف الله ، وأن تعمل صالحاً في سبيله تقرُّباً إليه ، فلذلك لا يمكن أن يصلح العمل إن لم تصلح العقيدة ، والعقيدة أساسها العلم .

نعود إلى اسم الله المتين . . أصل المادة في اللغة يدلُّ على صلابةٍ

في الشيء ، فقد لفت نظري ذات مرّة قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات : ٥٨] .

وهناك آية فيها :

﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [القلم : ٤٥] .

في العلوم الحديثة . . الحبال التي تقاوم قوى الشد تسمَّى متينة ، وأمتن عنصر في الأرض هو الفولاذ المجدول ـ المضفور ـ فهو متين لذلك ترفع به المصاعد ، وتعلَّق عليه الغرف المتحرِّكة التي تسير بين الجبال ـ التليفريك ـ لمتانته ، فهو يقاوم قوى الشد ، إنّ الشيء القاسي يقاوم قوى الضغط وأقسى شيء هو عنصر الماس ، وبعده ميناء الأسنان ، فالقساوة مقاومة قوى الضغط ، والمتانة مقاومة قوى الشد ، فما الحكمة من قول الله عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ ؟ أي كأنَّ الإنسان مربوط بحبلٍ متين لا يمكن أن يُتفلَّت منه مهما تحرَّك ، مهما قوي ، مهما ذاع صيته ، أو كثر ماله ، مهما تألقت صحَّته ، إنَّه مربوطٌ بحبلٍ متين ففي أيَّة لحظةٍ يشدُّ الله الحبل ، فالإنسان إذاً في قبضة الله عزَّ وجلَّ .

وأذكِّر بما ذكرته من قبل أنَّ هناك دعاءً للنبي عليه الصلاة والسلام بليغاً ، كان عليه الصلاة والسلام يدعو ويقول :

« **اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ ، وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ ، وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ ، وَجَمِيعِ سَخَطِكَ** » [صحيح مسلم] .

تجد أشخاصاً كثيرين أحدهم مثلاً في تمام صحَّته فجأةً يشعر بشيء ينمو نمواً طارئاً وغير عادي ، يسارع إلى الطبيب فيجد هذا الشيء ورماً ، فهل يا ترى هذا الورم خبيث أم حميد ، فيحلل فتظهر النتيجة

أنَّه ورم خبيث في أماكن مميتة بلا سبب .

فالإنسان تحت رحمة الله عزَّ وجلَّ فإذا لم يكن مصطلحاً معه ومطيعاً له ، ومنيباً ، ومقبلاً ، ومخلصاً ، ومشتاقاً ، ويقدِّم من الأعمال الصالحة ما تمكّنه عند الله فمشكلته مع الله خطيرة .

إذاً : أصل المادة في اللغة يدلُّ على صلابةٍ في الشيء مع امتدادٍ وطول. . . صلابة مع امتدادٍ وطول. . فيمكن لسنتيمترٍ مكعبٍ واحدٍ من الإسمنت أن يحمل تقريباً في الحالات الخاصة خمسمئة كيلو غرامٍ ، أما على قوى الشد فلا يتحمَّل أكثر من خمسة كيلو غرامات شداً ، فالإسمنت ضعيفٌ على الشد ويحتاج لذلك إلى تسليح ، أما على الضغط فهو قاسٍ ويتحمَّل ضغوطاً عالية جداً ، إذاً فلا بدَّ من إسمنتٍ مسلَّح ، فالحديد ضمن الإسمنت ليقاوم قوى الشد ، والإسمنت نفسه ليقاوم قوى الضغط ، هذا معنى من معاني قول الله عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾ . . أي أنَّ كل واحدٍ منا شاء أم أبى في قبضة الله دائماً ، شعر أم لم يشعر ، أحسَّ أم لم يُحس ، أدرك أم لم يدرك . . ﴿ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾ . . والمَتْنُ ما صلب من الأرض وارتفع .

المتن : المنطقة الصُّلبة في الأرض المرتفعة ، نقول : أرضٌ متينة ، والمُماتنة : المباعدة في الغاية . . أي أنَّ هدفه بعيد ، تشعر أن المتين الشيء الممتد الطويل مع الإحكام ، ومع القوة ، ومع المتانة ، وسار سيراً مماتِناً أي شديداً وبعيداً .

والمتين على وزن فَعيل . . اسم فاعلٍ مبالَغٌ به مشتقٌّ من المتانة ، وهي شدَّة الشيء واستحكامه وصلابته .

أحياناً من الممكن أن تضع في بناء عشرة أطنان من الحديد ، أو

تضع خمسة أطنان منه أو ثلاثة أطنان ، فإذا كان بداخله شوائب فَحْميَّة مثلاً لا يصبح متيناً فيضاعفون الكميّة ، أما إذا كان خالياً من الشوائب الفحمية فالحديد متين ، ويكفي أقل كمية ممكنة منه وحسب التصميم لتوضع في البناء ، فإذا لم يتقن الإنسان عمله وأنتج حديداً غير متين وغير متقن وبه شوائب ، فيكلِّف البناءُ ثلاثة أضعاف ثمن الحديد حتى يطمئن المهندس إلى قوة البناء ، وقد حَمَّل صاحب البناء ثلاثة أمثال الثمن لعدم متانة الحديد ، وأذكِّر بأن إتقان العمل جزءٌ أساسيٌّ من الدِّين ، وقال عليه الصلاة والسلام : « **إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه** » [رواه البيهقي من حديث عائشة] .

إذن : إتقان العمل جزءٌ من الدِّين .

اليوم تذاكرتُ مع صديق لي وجودَ كسادٍ عند بعض الحرفيين ، وتوقف أعمالهم أحياناً ، قلت : فأما المتقن فعمله لا يتوقَّف ، فكل حرفة لها درجات ومستويات ، فتجد شخصاً من الدرجة الأولى ، أو الثانية ، أو الرابعة ، أو الخامسة . . وهكذا . . فالذي في الدرجة الأولى لا يتوقَّف عن العمل إطلاقاً لأنَّ الطلبات عليه أشد وأكثر من الوقت المتاح له ، وكلما تدنّت درجة الإتقان فكساد عمله أكثر والطلب عليه قليل ويعاني عندئذٍ من بطالة ، يشتغل أسبوعاً ويتوقَّف شهراً ، فهذه بطالة مقنَّعة ، وعندئذٍ دخله لا يكفيه ، وهذه قاعدة . . فإتقاننا للعمل هو الذي يسبب التفوُّق ، وأنت دقق النظر في الأمر فهذه سنَّة الله في خلقه ، وأينما ذهبت فالمتقن متفوِّق ويعمل عملاً مستمراً ، والمتقن دخله كبير وفي بحبوحة ، فالإتقان سبب من أسباب زيادة الرزق .

وبالمناسبة . . فإنّ أهم موضوع بعد حياة الإنسان هو رزقه ، فهناك أولويّات للإنسان . . فأول شيء سلامته ، فإذا كان صحيحاً من كلّ الأمراض فقد حقق السلامة ، وبعد السلامة الرزق ، والإنسان إذا أيقن أنَّ الله سبحانه وتعالى لا يسمح لمخلوقٍ أن يتدخَّل في شأن الحياة والرزق اطمأنَّ قلبه ، فهذه الروح التي أودعها الله في الإنسان لا يمكن لمخلوقٍ كائنٍ من كان أن ينزعها منه ، أما إذا بدا لك بالعين المجرَّدة أنَّ فلاناً قتل فلاناً فالمقتول قُتل في أجله ، ففي علم العقيدة : المقتول يقتل في ساعة أجله لا في أجلٍ قبل ساعة أجله ، فأمر الحياة منوطٌ بالله عزَّ وجلَّ ، وأمر الرزق منوط بالله عزَّ وجلَّ .

أخطر شيء بوجودك حياتُك ورزقُك ، فالحياة والرزق أمران مقطوع قضاء الله فيهما عن أن يتسلَّمهما إنسان ، ولو بدا لك أنَّ هذا الإنسان قويٌّ أو أمره نافذ ، ولو بدا لك أنَّه يفعل ما يريد ، إلا أنَّ الحقيقة أنّ أمر الحياة وأمر الرزق لم يُتح لمخلوقٍ أن يتسلَّمهما أو يتصرف فيهما ، فلهذا قالوا : كلمة الحقِّ لا تقطع رزقاً ولا تقرِّب أجلاً .

وبعد فإنّ المتين كما قلنا قبل قليل : مُشتقٌّ من المتانة وهي شدَّة الشيء واستحكامه وصلابته ، وقيل : المتين هو الشديد ، يقال : هو متين القِوى أي شديد القِوى .

ومن المجاز أن نقول : رأيٌ متين ، خطبةٌ متينة ، مقالةٌ متينة أي متماسكة ، فقد يكون الأسلوب قوياً فيُقال لك : التراكيب متينة ، أي مشدودة ، متراصة ، محكمة ، فتشعر بتركيب قوي ، وأحياناً تجد التركيب ضعيفاً مهلهلاً غير محكم ، وهذا استخدام مجازي للمتانة . . ومن المجاز رأيٌ متين .

وقيل : المتين بمعنى القوي ، فهو على ما يشاء قدير .

إذا قلنا : إنَّ الله قويٌّ متين. . أي لا يحتاج في إمضاء حكمه إلى جندٍ أو مدد ، ولا إلى معينٍ أو عضد. . ولا إلى من يسانده. . لأنَّ الله سبحانه وتعالى قويٌّ بذاته ، متينٌ بذاته .

وبالمناسبة. . فالإنسان يحب القوي ويلتفت إليه ، فالله سبحانه وتعالى صاحب الأسماء الحُسنى ، فمن القوة قوي ، ومن الغنى غني ، ومن الحكمة حكيم ، ومن الرحمة رحيم ، ومن اللطف لطيف ، فكلَّما اشتدَّت معرفتك بأسماء الله الحُسنى اشتدَّ حبُّك له ، ورد : « أرجحكم عقلاً أشدُّكم لله حباً » .

الآن. . ماذا يعني أن نعرف أنَّ الله قويٌّ متين ؟ قال العلماء : إذا عرفت أنَّ الله قويٌّ متين وأنَّ الأمر كلَّه بيده قطعت الرجاء عمن سواه ، فانظر إلى الذي يهلك الناس ؟ الناس يحتاجون بعضهم إلى بعض ، فيقفون على أبواب اللئام ، فقد سُئل الإمام علي كرَّم الله وجهه : ما الذل ؟ قال : أن يقف الكريم بباب اللئيم ثم يردُّه .

والإمام علي كرَّم الله وجهه يقول مرةً ثانية : « **والله والله مرَّتين لحفر بئرين بإبرتين ، وكنس أرض الحجاز في يوم عاصفٍ بريشتين ، ونقل بحرين زاخرين بمنخلين ، وغسل عبدين أسودين حتى يصيرا أبيضين ، أهون عليَّ من طلب حاجةٍ من لئيم لوفاء دين** » .

ولئن عرف الإنسانُ : أنَّ الله هو القوي. . فلسوف تتبدد أمام ناظريه كل العقبات . ومعنى القوة واسع فسيح ؛ فالقوة لله جميعاً ، حتى القوة في الجمال ، والقوة في العطاء ، والقوة في العلم ، وحتى القوة في الحكمة ، فأعلى الصفات المتعلِّقة بأسماء الله الحُسنى قد

توصف بالقوة.. فحينما تعلم علم اليقين أنَّ الله قويٌّ متين تقطع الرجاء من غيره .

والحقيقة المرة... أن يرجو الإنسان غير الله فالطريق عندئذٍ إلى الله مسدود ، وأحياناً لحكمة بالغة ما دامت هناك منافذ أرضيّة فالطريق إلى الله مسدود ، ومتى تلتجىء إليه ؟ حينما تغلق الأبواب كلُّها ، فأحياناً يطرق الإنسان أول باب فيجده مغلقاً ، والثاني كذلك مغلقاً ، والثالث والرابع مغلقين فيضجر ، عندئذٍ لا يجد إلا الله ملجأ له ، فهو إذا كان عاقلاً فمنذ البداية يجب أن يعلم انَّه لا إله إلا الله.. لكن بسبب ضعف الإيمان في قلبه ، وضعف التوحيد في عقيدته يتجه إلى زيد وإلى عبيد ، وإلى فلان أو علاَّن فيجد أن الطرق جميعها مغلقة ، فيخيب ظنُّه بالناس جميعاً ، فيلجأ بعد ذلك إلى الله .

تُروى قصة فيها موعظة في أيام العهد العثماني.. عن إنسان في دمشق افتقر الافتقار الشديد ، فضاقت به السُّبُل ولم يجد قوت يومه ، وكان له قريب يعمل في منصب رفيع جداً لدى السلطان العثماني في عاصمة الخلافة العثمانية إستانبول ، فخطر في نفسه أن يذهب إليه ليعمل هناك في وظيفة معيَّنة فتحل بذلك مشكلته ، فذهب إلى إستانبول ودخل على قريبه فرحَّب به ، وكتب قريبه استدعاء إلى السلطان لتعيين هذا القريب في منصب جيِّد ، وكلما دخل على السلطان يرى هذا الاستدعاء غير ممهورٍ بخاتم السلطان فيضعه على أعلى الأوراق فيفاجأ بعدم توقيع السلطان له ، لأكثر من أسبوعين وهو ينتظر ، وكان يبدو أنَّ هذا الموظف الكبير على شيء قليل من التوحيد وسلامة الاعتقاد ، فذهب إلى قريبه وتجهَّم عليه وأسمعه كلاماً قاسياً ، وأن الضيافة ثلاثة أيام لا مثل هذه المدة فكفاك هذا واذهب

عنا . . فحينما سمع الضيف هذا الكلام القاسي ، وهذا الطرد البشع ، خرج من بيت قريبه هائماً على وجهه وهو يبكي فقد كان هذا القريب أمله الأخير . . لكنَّ هذا القريب أرسل وراءه خادماً يتبعه ليعرف أين سيذهب ، فذهب إلى خان ـ فندق ـ ولكن المفاجأة أنَّ السلطان في اليوم التالي وافق على المعاملة المقدَّمة ووقَّع عليها ، فاستدعاه وأبلغه النتيجة بأن قضيَّته قد حُلَّت .

وتفسيرها أن كل هذه الأيام كان هذا الضيف الذي أتى من الشام يعلِّق الآمال كلَّها على قريبه ، ونسي الله ، لذلك لم يُلهَم السلطان أن يوقِّع على الكتاب ، فلما طرد هذا المسؤول قريبه شرَّ طردة ، وقطع الأمل منه لجأ إلى الله عزَّ وجلَّ ، وعندما أخلص رجاءه إلى الله أُلهم السلطان أن يوقِّع على الكتاب .

فالموعظة في هذه الواقعة مهمةٌ جداً . . كلما علقت الأمل على إنسان خاب ظنك ، لأن الله يغار أن تعلِّق الأمل بغيره ، أن تعتمد على غيره ، أن تنقاد إلى غيره ، أن تريق ماء وجهك لغيره ، فالمؤمن فيما بينه وبين الله ليبالغ في التذلل ، أما فيما بينه وبين الناس فليبالغ في العزَّة ، أنت مع الناس عزيزٌ ، أما فيما بينك وبين الله فأنت ذليل تقطعت بك الأسباب ، وهذا شأن المؤمن . . ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ . . فقد قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة : ٥٤] .

فالإنسان مع الله يتذلل ويمرِّغ جبهته في التراب ، أما حينما يقف

أمام إنسان فلْيَقفْ عزيز النفس ؛ لذلك رأى النبي عليه الصلاة والسلام أبادجانة في أُحُدٍ يمشي متبختراً ، فقال عليه الصلاة والسلام : « **إنها مشية يبغضها الله إلا في هذا الموضع** » .

المؤمن لا ينبغي له أن يضعف أمام كافر ، أن يتوسَّل إليه ، أن يتضعضع له . . من جلس إلى غنيٍّ فتضعضع له ذهب ثلثا دينه .

إذاً أول تطبيق عملي لهذا الاسم . . مادام الله هو القوي المتين اقطع الأمل ممَّن سواه ، فلا تجد مؤمناً صادقاً إلا وله مناجاة لله عزَّ وجلَّ يناجيه ، يسترضيه ، يستغفره ، يتوب إليه ، يسأله . . إنَّ الله يحبُّ من عبده أن يسأله حاجته كلَّها . . إنَّ الله يحبُّ من عبده أن يسأله مِلح طعامه . . إنَّ الله يحبُّ من العبد أن يسأله شسْعَ نعله إذا انقطع . . مَن لا يدعوني أغضب عليه ، إنَّ الله يحبُّ الملحِّين بالدعاء .

وقيل : « **المتينهو الكامل القوَّة ، الذي بلغت قدرته أقصى الغايات ، ولا يعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السموات** » .

وقيل : « **المتين البالغ الشدَّة ، فالله شديد القوَّة والقدرة ، والله متمُّ قدرته ، وبالغٌ أمره** » .

وقيل : « **المتين المتناهي في المتانة ، يؤثِّر في الأشياء ولا تؤثِّر فيه الأشياء** » .

وذكر اسم المتين في القرآن الكريم مرةً واحدة في قوله تعالى في سورة الذاريات : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ .

ووصف كيده بأنَّه متين فقال تعالى : ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ .

وفي بعض الأدعية : إلهي أنت المتين المعين ، تمدُّ الوجود بالقوَّة ، وتجعل أحبابك في حصنٍ حصين ، أعطنا متانةً في أجسامنا

نصبر بها على الطاعة ، وامنحنا قوةً في قلوبنا نكن بها مع السنَّة والجماعة ، أعطنا مدداً من غيب قدرتك نهزم به النفس والشيطان والكفَّار وأهل العصيان إنَّك على كلِّ شيءٍ قدير .

يقولون : مَن علم أنَّ مولاه على كلِّ شيءٍ قدير قطع الرجاء مِمَّن سواه ، وأفرد له سرَّه ، كما قال الخليل إبراهيم عليه السلام . . ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ ﴾ . . أراد أنِّي سهَّلت طريقهم إليك ، وقطعت رجاءهم عمَّن سواك ، ثم قال : ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ . . أي شغلتُهم بخدمتك خاصةً ، وأنت أولى بهم مني ومنهم . . لذلك قال : ﴿ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ ﴾ . . أي إذا احتاجوا إلى شيء ذللت عبادك لهم فإنَّك على كلِّ شيءٍ قدير .

وهذا في الآية الكريمة :

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴾ [إبراهيم : ٣٧] .

الإمام الجُنيد قال : سمعت السريَّ يقول : إنَّ في قُرى بغداد أولياء لله تعالى لا يعرفهم الخلق ، كنت أدور في قرى بغداد لعلِّي أرى منهم واحداً ، فقال له الإمام الجُنيد : هيهات أن تراهم ، ولكن كُن منهم تراهم وأنت في بيتك .

من تطبيقات هذا الاسم أنَّ اللائق بالإنسان ألا يغترَّ بقوَّته لأنَّه أمام قوَّة الله بلا حول ولا قوة ، بل يطالبه الأدب بإظهار الضعف أمام ربِّه القوي مهما كان المرء غنياً بقوته ، وأنت مهما كنت قوياً ، مهما كنت صحيحاً ، يجب أن تظهر ضعفك أمام الله عزَّ وجلَّ .

سيدنا عمر كان يوماً على المنبر يخطب وهو أمير المؤمنين ، فجأةً قطع الخطبة وقال : يا ابن الخطاب ـ يخاطب نفسه ـ كنت ترعى غنيماتٍ على قراريط لبني مخزوم . فهذا الكلام ليس له معنى إطلاقاً وليس له علاقة بالخطبة ، فلما نزل سأله عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما قال : يا أمير المؤمنين ما حملك على ما قلت ؟!! قال : قالت لي نفسي وأنا أخطب : أنت أمير المؤمنين ، ليس بينك وبين الله أحد ـ أنت القِمّة ـ فأردْتُ أن أعرِّف نفسي حقيقتها ـ أن أحجِّمها ـ .

فإذا كنت ضعيفاً وربَّك قوي متين فلا تخف . فأنت عبد القوي ، عبد المتين ، وإذا أعطاك ربّك قوة فكنت قوياً ، والقوة لله وحده فلا تغتر بقوّتك لأنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ كما يدهش في العطاء يدهش في الأخذ .

فكان سيِّدنا عمر يقول : اللهمَّ كبرت سنِّي وضعفت قوّتي ، وإنَّه لا حول ولا قوة إلا بالله .

وكان من النبي عليه الصلاة والسلام يقول : « **إذا اشتكيت فضع يدك حيث تشتكي ثم قل : بسم الله أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ماأجد من وجعي هذا ثم ارفع يدك ثم أعد ذلك وتراً** » [رواه الترمذي والحاكم] .

والآن لديّ تعليقٌ دقيقٌ أتمنى أن تدقق النظر وتقلبه معي قالوا : هذا الاسم ؛ اسم القوي المتين لا يتعارض مع سعي الإنسان ليكون قوياً لأنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول :

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِى

سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ . . أي أن ضعفك وتذللك وافتقارك ، وعبوديتك ، وتمريغ وجهك في التراب تواضعاً لله عزَّ وجلَّ ، فليكن هذا فيما بينك وبين الله ، أمّا أمام أهل الدنيا ، أمام المنحرفين ، أمام المشركين فيجب أن تظهر قوياً فقد قال تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الشورى : ٣٩ـ٤٠] .

قال تعالى : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ ، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول :

« الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلا تَعْجَزْ ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا ، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ » [صحيح مسلم] .

« رحم الله امرءاً أراهم اليوم من نفسه قوةً » روي أنه قالها عليه الصلاة والسلام لأصحابه في عمرة القضاء .

هذا افتقارك فيما بينك وبين الله ، الصحابة كانوا في الليل رهباناً ، أما في النهار فهم فرسان ، أما إذا تمسكن الإنسان أمام الناس وأظهر الضعف أمامهم فحنى ظهره مثلاً . . فقد باء خاسراً مهزوماً . وفي عهد عمر بن الخطاب كان من حنى ظهره علاه عمر بالدّرة وقال له : ارفع رأسك يا أخي فقد أمتَّ علينا ديننا .

فالإنسان ينبغي أن يسير رافع الرأس ، ينبغي أن يظهر أنَّه قوي ، أما فيما بينه وبين الله فإنه يتذلل .

يروى أنَّ سيدنا عمر كان شديداً جداً حتى إن الناس اشتكوا شدته ، فجاءه أبو ذر وقال له : إنَّ الناس هابوا شدَّتك يا أخي . فقال له : والله يا أبا ذر لو يعلم الناس ما في قلبي من الرحمة لأخذوا عباءتي هذه ، ولكنَّ هذا الأمر لا يناسبه إلا كما ترى .

إذاً : **« المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف ، وفي كلٍّ خير »** .

يذكرُ الإمام البخاري : في باب قول الله تعالى : ﴿الحج أشهر معلومات﴾ أنَّ من صفة أصحاب رسول الله ﷺ أنَّهم كانوا أهل قوَّة ، وطريق القوَّة والمتانة هو طريق الله ، لأنَّ الكتاب الإلهي حبل الله المتين ، ودينه هو الدين المتين .

« إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكَّل على الله ، وإذا أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يد الله أوثق منك بما في يديك ، وإذا أردت أن تكون أكرم الناس فاتقِ الله » .

تجد الإنسان أحياناً من ضعف إيمانه ومن ضعف توحيده يعلِّق الآمال بالآخرين ، ويعلِّق الآمال بكفَّار ، يريقُ ماء وجهه دونهم ، ويتذلل لهم ، ويتمسكن أمامهم ، فيسقط من عيونهم وقد سقط من عين الله قبل أن يسقط من أعينهم .

لأن يسقط الإنسان من السماء إلى الأرض فتتحطم أضلاعه أهون من أن يسقط من عين الله .

قالت العلماء : ويعاب عليك أن تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم:

وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما تشكو الرحيم إلى الذي لايرحم

فكلما قوي إيمان الإنسان يصبح عزيزاً ، ويصبح رافع الرأس ، وكُلّما قوي إيمانه زاد اعتماده على الله وهو أهل التقوى وأهل المغفرة ، وقال تعالى :

﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق : ٣] .

اللهمَّ ! أعنّا على دوام ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ، وارزقنا الشوق إلى لقائك ولذّة النظر إلى وجهك الكريم ، اللهمَّ! أرنا الحقَّ حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه ، واجعلنا مِمَّنْ يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين ، وصلّى الله على سيّدنا محمدٍ النبيِّ الأميّ وعلى آلهِ وصحبه وسَلَّم .

* * *

السَّتَّارُ

الاسم هو الستَّار ، وهو من أحبُّ الأسماء إلى المؤمن ، الستَّار اسمٌ من أسماء الله الحُسنى ، وهو اسمٌ زائدٌ على الأسماء التسعة والتسعين المشهورة .

السِّتر في اللغة ما يُستر به ، وهو اسم . . وجمعه أسْتار ، وسَتَرَ الشيء أخفاه فانستر ، فعل انستر فعلٌ مطاوع من سَتَرَ . . ينْسَتِرُ . . انْسَتَرَ ، قَبِل أن يُستر ، تستَّر أي تغطَّى ، السِّتر هو الحياء ، يقال : ما لفلانٍ سِتْرٌ ولا حِجْر أي لا حياء ولا عقل ، السِّتْر هو الحياء ، فلان لا يسْتتر من الله بستر ؛ أي لا يستحيي من الله بنوعٍ من الحياء ، والسِّتر هو العقل ، من كان عقله برأسه تصرَّف بحكمةٍ فحجب عن الناس مغيبته . . والسِّتارة . . ما يُسْتَتَر به من شيءٍ كائناً ما كان ، وفي الحديث الشريف أن من أغلق باباً أو أرخى ستراً فقد وجب المهر ووجبت العدة .

قال أبو حنيفة وأصحابه ، قالوا : إذا خلا بها خلوة صحيحة يجب كامل المهر والعدة ، دخل بها أو لم يدخل بها ؛ لما رواه الدارقطني عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : « من كشف خمار امرأة ونظر إليها وجب الصداق » . وقال عمر : إذا أغلق باباً وأرخى

ستراً ورأى عورةً فقد وجب الصداق وعليها العدة ولها الميراث . وعن علي : إذا أغلق باباً وأرخى ستراً ورأى عورةً فقد وجب الصداق .

فانتبهوا إلى ذلك . . إذا خطب أحدكم وقد كُتب العقد ، وزار خطيبته ، وأغلق الباب وأرخى الستار ، ثم أراد أن يتنصَّل من هذا الزواج وجب عليه المهر كاملاً ولو لم يدخل بها . . ولندقق في قول النبيّ ﷺ : « **أيُّما رجلٍ أغلق بابه على امرأةٍ ، وأرخى دونها أستاره فقد تمَّ صداقُها** » . . أي وجب صداقها . .

إذا عقد إنسان على امرأةٍ ولم يدخل بها وجب عليه نصف المهر ، أما إذا دخل بها فقد وجب عليه كلُّ المهر ، وكذلك إذا عقد عقده عليها وزارها وأغلق الباب وأرخى السِتر ولو لم يدخل بها وجب المهر كاملاً ، هكذا قال عليه الصلاة والسلام .

فلانٌ هتك سِتر فلان . . أي أطلعه على معايِبه ، والاستتار : الاختفاء ، وفي التنزيل قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴾ [الكهف : ٩٠] .

والسَّتار في حقِّ الله تعالى كثير السَّتر لعيوب عباده ، الستَّار صيغة مبالغة ، سَتَرَ ، يَسْتُرُ ، ساتر ، ستَّار ، الستّار صيغة مبالغة أي كثير الستر ، أو شديد الستر ، أي مهما تكن الأعمال مشينة .

لله أفرح بتوبة التائب من الظمآن الوارد ، ومن العقيم الوالد ، ومن الضال الواجد ، فمن تاب إلى الله توبة نصوحاً أنسى الله حافظَيْهِ وجوارحه وبقاع الأرض كلها خطاياه وذنوبه .

فإذا جاء الاسم مبالغاً به ، فالمبالغة على نوعين. . كمّيّة ، ونوعيّة. . أي أنَّ الله غفَّار يغفر كل الذنوب مهما كثرت ، ويغفر أكبر الذنوب ، فإذا استخدمنا صيغة المبالغة في أسماء الله الحُسنى فالمبالغة على نوعين ، مبالغة نوعٍ ، ومبالغةُ عددٍ .

الستَّار في حقِّ الله تعالى كثير السَّتر لعيوب عبادة ، فسبحان الله. . الإنسان العادي من شأنه أن يظهر القبيح ويخفي المَليح ، وقد روي أن النبي عليه الصلاة والسلام دعا فقال :

« تعوذوا بالله من ثلاث فواقر : جار سوء إن رأى خيراً كتمه ، وإن رأى شراً أذاعه ؛ وزوجة سوء إن دخلت عليها لسنتك ، وإن غبت عنها خانتك ؛ وإمام سوء إن أحسنت لم يقبل ، وإن أسأت لم يغفر » .

عن الهيثم بن عدي الطائي قال : حدثنا مجالد عن الشعبي قال : لقيني شريح فقال : يا شعبي ، عليك بنساء بني تميم ، فإني رأيت لهن عقولاً . وما رأيت من عقولهن ؟ قال :

أقبلت من جنازة ظهراً ، فمررت بدورهم ، فإذا أنا بعجوز على باب دار ، وإلى جنبها جارية كأحسن مارأيت من الجواري ، فعدلت فاستسقيت ، ومابي عطش . فقالت : أي الشراب أحب إليك ؟ فقلت : ماتيسر ، قال : ويحك ، ياجارية إيتيه بلبن ، فإني أظن الرجل غريباً ، قلت : من هذه الجارية ؟ قالت : هذه زينب بنت جرير إحدى نساء بني حنظلة ، قلت : كذا ، ونحن جميع فلا تفرقي ، ومارأيت من حسنة فانشريها وما رأيت من سيئة فاستريها ؛ وقالت شيئاً لم أذكره : كيف محبتك لزيارة الأهل ؟ قلت : ماأحب

أن يملني أصهاري . قالت : فمن تحب من جيرانك أن يدخل دارك آذن له ، ومن تكرهه أمنعه ؟ قلت : بنو فلان قوم صالحون وبنو فلان قوم سوء . قال : فبت ياشعبي بأنعم ليلة ، ومكثت معي حولاً لاأرى إلا ماأحب . فلما كان رأس الحول جئت من مجلس القضاء ، فإذا بعجوز تأمر وتنهى في الدار . فقلت : من هذه ؟ قالوا : فلانة ختنتك ، فسري عني ماكنت أجد ، فلما جلست أقبلت العجوز ، فقالت : السلام عليك أبا أمية . قلت : وعليك السلام ، من أنت ؟ قالت : أنا فلانة ختنتك ، قلت : قربك الله ، قالت : كيف رأيت زوجتك ؟ قلت : خير زوجة ، فقالت لي : أبا أمية ، إن المرأة لا تكون أسوأ حالاً منها في حالين ، إذا ولدت غلاماً أو حظيت عند زوجها ، فإن ربك ريبٌ فعليك بالسوط ، فوالله ما حاز الرجال في بيوتهم شراً من المرأة المدللة . قلت : أما والله لقد أدبت فأحسنت الأدب ، ورضت فأحسنت الرياضة . قالت : تحب أن يزورك أختانك ؟ قلت : متى شاؤوا . قال : فكانت تأتيني في رأس كل حول توصيني تلك الوصية ، فمكثت معي عشرين سنة لم أعتب عليها في شيء إلا مرة واحدة ، وكنت لها ظالماً ، أخذ المؤذن في الإقامة بعدما صليت ركعتي الفجر ، وكنت إمام الحي ، فإذا بعقرب تدب ، فأخذت الإناء فأكفأته عليها ، ثم قلت : يازينب ، لاتحركي الإناء حتى آتي . فلو شهدتني ياشعبي ، وقد صليت ورجعت فإذا أنا بالعقرب قد ضربتها . فدعوت بالقسط والملح ، فجعلت أمغث أصبعها وأقرأ عليها بالحمد والمعوذتين .

الشاهد من هذا الكلام هو وما رأيت من حسنةٍ فانشريها ، وما رأيت من سيئةٍ فاستريها .

وإنّ من أرقى صفات المرأة المؤمنة أنَّها سِتِّيرة ، فالإنسان في بيته أحياناً يغضب ، وأحياناً يفتقر فلا تجد بين يديه مالاً فيأكل أخشن الطعام ، وأحياناً ينضغط من الخارج فينفجر في الداخل ، والمرأة المؤمنة لا تفضح زوجها ، لا تنشر أحواله ولا تتحدث عن أفعاله بين الناس ، لا تعطي الناس أسوأ صورة عن زوجها ، المرأة المؤمنة ستِّيرة ، يروى عنه عليه الصلاة والسلام :

« إنّي أكره المرأة تخرج من بيتها تجر ذيلها تشكو على زوجها ». . أكرهها . .وصح عنه ﷺ أنه قال **« لا ينظر الله تبارك وتعالى إلى امرأةٍ لا تشكر لزوجها وهي لا تستغني عنه »** .

« لاتؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين لاتؤذيه قاتلك الله فإنما هو عندك دخيل يوشك أن يفارقك إلينا » .

فالستَّار في حقِّ الله تعالى كثير الستر لعيوب عباده قال تعالى :

﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى : ٣٤] .

من كمالِ ربنا عزَّ وجلَّ أنَّه يظهر الحسن ويستر القبيح ، لكن الإنسان من لؤمه يظهر القبيح ويستر الحسن ، فالمؤمن كلَّما اقترب من الله يتخلَّق بالكمالات الإلهية ، الله ستَّار ، والمؤمن ستَّار ، يستر العيوب .

فأدبُ الإسلام يدعو المؤمن إلى أن يستتر ولا يجاهر بالمعصية ،

كلُّكم يعلم أنَّ هناك عاصياً ، وأنَّ هناك فاجراً ، فالعاصي مثلاً كالذي يفطر في رمضان بينه وبين نفسه ، فمن هو الفاجر إذاً ؟ الذي يفطر في الطريق أمام الناس ، إذا جاهر المرء بالمعصية فالمجاهر فاجر ، والفاجر لا غيبة له ، لأنَّه لا يستحي من هذه المعصية فهو يذكرها للناس ، هو يُري الناس معصيته.. وقد قيل : « **إذا بُليتم بالمعاصي فاستتروا** » .

على من يقع حدُّ الرجم ؟ يقع على الزانية الفاجرة التي استطاع أربعة من الرجال أن يَرَوها وهي تزني ، أي أنَّها لا تُبالي ، فحدُّ الرجم ليس على الزانية المحصنة فحسب ، بل على الزانية المحصنة التي تمكَّن أربعةُ رجالٍ من أن يروها وهي تزني ، ما اسمها إذاً ؟ فاجرة.. فقد قال تعالى :

﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

[المائدة : ٣٣]

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا﴾ هل من فسادٍ أشدَّ من أن يزني رجل محصن له زوجة وأولاد بامرأةٍ محصنة لها زوجٌ وأولاد جهاراً حتى تمكَّن الشهود من أن يروها وهي تزني ؟ إذاً : « **إذا بُليتم بالمعاصي فاستتروا** » .

وقد نعى القرآن الكريم على الذين لا يستترون من غيرهم أو من جوارحهم فقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖۚ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡۖ وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ﴾ [فصلت : ١٩ـ٢٤] .

قال تعالى :

﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [يس : ٦٥] .

يُروى أنَّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام استأجر أجيراً فرآه يغتسِلُ عُرياناً لا يستتر بستر فقال له عليه الصلاة والسلام : « **أراك لا تستحيي من ربك ، خذ أجارتك لا حاجة لنا بك** » .

بالمناسبة . . الإسلام أمر بالتستُّر في مواضع ، منها التستُّر عند الغُسل ، وعند اللقاء الزوجيّ ، وعند قضاء الحاجة .

فقد حدَّثني صديق ذهب إلى بلد شرقي من البلاد التي يؤمن أهلها بأنَّه لا إله ، كان يدرس في جامعة من أضخم الجامعات ، فدورات المياه في هذه الجامعة بهو كبير جداً يتسع لمئة دورة مياه بلا سِتر ، كلُّ الناس يقضون حاجاتهم بعضهم أمام بعض . . لكن أدب الإسلام يحتم على الإنسان أن يستتر في مواضع ، عند الغُسل ، وعند اللقاء الزوجيّ ، وعند قضاء الحاجة .

النبيُّ ﷺ قال : « **إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ حَلِيمٌ حَيِيٌّ سِتِّيرٌ يُحِبُّ الْحَيَاءَ وَالسَّتْرَ ، فَإِذَا اغْتَسَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَتِرْ** » [رواه أبو داود والنسائي وأحمد] .

ستَّار ، وستِّير ، فعَّال ، وفعِّيل .

فالإنسان كلما اقترب من الإيمان ازداد تستُّراً ، وكلما تفلَّت من قواعد الشرع قلَّ تستُّره ، ولقد جاءتنا مظاهر من الغرب بعيدة عن ديننا وأعرافنا وتفشَّت في بعض الناس ، فتجد مثلاً إنساناً يسافر من بلد إلى بلد آخر ببنطال قصير ، وممكن أن يخلع معظم ثيابه ويقوم بعمل ما .

وقد ورد في الحديث الصحيح أنَّ النبيَّ ﷺ يقول :

« كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إلا الْمُجَاهِرِينَ ، وَإِنَّ مِنَ الْمُجَاهَرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلاً ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ فَيَقُولَ : يَا فُلانُ عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا ، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللهِ عَنْهُ » . [صحيح البخاري] .

أليس في بيوت المسلمين الفتيات الشابَّات يقمن بثيابٍ رقيقة أمام إخوتهِن ، وهناك إخوةٌ يقومون بثياب داخليّة أمام أخواتِهِمْ ، وأمام أمَّهاتهم وآبائهمْ ، هذا التبذُّل في البيت فيما بين الإخوة ، وفيما بين الأخوات ، وفيما بين الإخوة والأخوات ، وفيما بين الآباء والأبناء ، والأبناء والآباء ، والبنات والأمَّهات ، هذا مخالفٌ للشرع ، كلَّما ازداد إيمانك ازداد التستُّر ، وكلَّما بعُد المرءُ عن الإيمان تفلَّت من السِّتر ، وإنَّ من المجون والجنون أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم يصبح فيقول : يا فلان عمِلت البارحة كذا وكذا ، وقد بات يستره ربُّه ويكشف هو سِتر الله عليه .

من أخطر الأعمال أن يُحدِّث الناس بعضهم بعضاً بما لا ينبغي لهم

أن يتحدثوا به ، الأسرار الزوجيّة أسرار مصونة لا ينبغي أن تشيع ، في أكثر من مجتمع يتحدَّث الأزواج عن زوجاتهم وعن لقاءاتهم ، وتتحدَّث الزوجات عن أزواجهِنَّ وعن لقاءاتهِنَّ ، وهذا من أكبر المعاصي ، لأنَّ هذا ينبغي أن يجب سراً بين الزوجين .

ذكرت سابقاً أنَّ امرأةً تعمل في الفن في بلدٍ غربيّ وهي امرأة فاسقة فاجرة ، لكنَّها تكلَّمت بصدق حين سُئِلت عن شعورها وهي على خشبة المسرح ـ وقد حفظت كلامها لدقته البالغة ـ قالت : إنَّ شعوري شعور الخزي والعار ، وهو شعور كلِّ امرأةٍ تعرض مفاتنها على الناس ، إنَّ الحبَّ يجب أن يبقى بين الزوجين وفي غرفٍ مُغلَقة .

فموضوع السِّتر إذاً ؛ أنَّه كلما تفلَّت الناس ، وكلَّما اقتربوا من طباع الغرب وعاداته ، وكلَّما تغذَّوا بالثقافات الغربية التي تأتيهم عبر الصحون التي على أسطح المنازل ، وكلَّما تفلَّتوا من ثيابهم في بيوتهم ، وكلَّما تفلَّت الإنسان من ثيابه كان هناك احتمال الانزلاق ، والذي لم نكن نعرفُهُ إطلاقاً وبدأنا نعرفه ، وكانت بلادنا والحمد لله لا تعرف ما يسمَّى بزنى المحارم ، أي أخٌ وأخته ، وأبٌ وابنته ، وأمٌّ وابنها ، لكن بدأت تظهر هذه الحالات ، والكلام مؤلمٌ جداً بدأت تظهر هذه الحالات في بلادنا ، فحالات زنى المحارم أصبحت موجودة ، فحينما يأمر الشرع الحنيف ألا تظهر امرأةٌ على أُختها بملابس فوق الركبة هناك حكمةٌ بالغة ، حتى بينَ الأخوات ، حتى بين البنت وأمِّها ، هناك حدود ، أما إذا رفعنا الحدود فربَّما انزلق الناس إلى ما لا يُحتمل .

حدثني رجل وهو يبكي.. فقلت له : خيراً إن شاء الله ! قال : لي ابنةٌ في البيت ، فقد تركت بيت زوجها لمشكلةٍ بينها وبينه ، وابني في البيت أيضاً وهناك مشكلةٌ بينه وبين امرأته ، فجأةً بدأت ابنتي تتألَّم من بطنها ، فأخذتها أمُّها إلى الطبيب فطلب منها الطبيب فحصاً للحمل ، فإذا هي حامل ، وظهر أنَّ الحمل من أخيها وهي متزوِّجة وأخوها كذلك ، وحينما علم المسؤولون بالأمر أُودِعَ الابن في السجن ، والبنت في السجن ، فهذه مصيبةٌ من أكبر المصائب.. إذا كان هناك تفلُّت ، وتكشُّف ، فالشرع ليس قيوداً لحريَّة الإنسان ، ولكنَّه ضمانٌ لسلامته ، تماماً كما لو كنت في مكان ورأيت لوحةً كتب عليها انتبه حقل ألغام ، فهل تعدُّ هذه اللوحة تقييداً لحريَّتك ، أم ضماناً لسلامتك ؟ إنَّها ضمانٌ لسلامتك ، أنا لا أتكلَّم من فراغ فبحكم عملي في الدعوة إلى الله تأتيني قضايا كثيرة ، قضايا زنى المحارم وردت بشكلٍ غير معقول ، بسبب التفلُّت .

قد ذكرت ذات مرة أنَّ أحد خطباء دمشق ألقى من على منبر الجمعة خطبةً ذكر فيها ما يلي قال : جاءني رجل وحدَّثني بمشكلةٍ وقعت في بيته ورجاني أن أعرضها على الناس من على المِنبر لأنَّها وقعت معه ، وذلك للعظة والعبرة ، وليأخذ الآباء حِذْرَهُمْ . فما الذي حدث ؟إنَّه كان يتابع بعض المحطَّات الغربية من خلال هذا الصحن المشؤوم ، فظهر منظرٌ لا يُحتمل فأدار المؤشر إلى محطةٍ أُخرى.. الابن حفِظ رقم المحطة.. ثم يقول : وفي الساعة الثانية ليلاً سمعت أنيناً فاستيقظت فإذا ابني فوق ابنتي وابني الآخر فوق ابنتي الأُخرى في غرفة الجلوس ، وقال للخطيب : هذا حدث معي ، فاذكرْ قصَّتي هذه من فوق المنبر لعل الآباء يعتبرون .

أقول هذا الكلام لأنَّ هناك أخطاراً بدأت تهدد المسلمين ، فأكبر شيء يجر الإنسان إلى المعاصي موضوع النساء ، وموضوع المال وقد أكثرت من ذكر هذا والتذكير به من قبل في أبحاث عدة .

وفي صحيح مسلم رحمه الله تعالى عن رسول الله ﷺ قال :

« كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إلا الْمُجَاهِرِينَ ، وَإِنَّ مِنَ الْمُجَاهَرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلاً ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ فَيَقُولَ : يَا فُلانُ عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا ، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللهِ عَنْهُ » . [رواه مسلم] .

فإذا تفضَّلَ الله عزَّ وجلَّ بستره على عبدٍ في الدنيا فإنَّ هذا السِّتر يستمر إلى يوم القيامة .

وروى أبو داود قال :

حَدَّثَنَا ابْنُ أَخِي ابْنِ شِهَابٍ عَنْ عَمِّهِ قَالَ : أَخْبَرَنِي أَبُو إِدْرِيسَ عَائِذُ اللهِ أَنَّ عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ مِنَ الَّذِينَ شَهِدُوا بَدْراً مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَمِنْ أَصْحَابِهِ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ وَحَوْلَهُ عِصَابَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ : **« تَعَالَوْا بَايِعُونِي عَلَى أَنْ لا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئاً ، وَلا تَسْرِقُوا وَلا تَزْنُوا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ ، وَلا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ ، وَلا تَعْصُونِي فِي مَعْرُوفٍ ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً فَعُوقِبَ بِهِ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ لَهُ كَفَّارَةٌ ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً فَسَتَرَهُ اللهُ فَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ إِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ ، قَالَ : فَبَايَعْتُهُ عَلَى ذَلِكَ »** [رواه أبو داود] .

لو أنَّ إنساناً اقترف معصية ليس مكلَّفاً إطلاقاً أن يبلِّغ عن هذه المعصية أحداً ، فإذا لم يكتشف أحد هذا الذنب فمعنى ذلك أنَّ الله

أسبل عليه ستره ، وإنّه ليقترفُ معصيةً كبيرة حينما يفضح نفسه .

عن الفضل بن العباس قال جاءني رسول الله ﷺ فخرجت إليه فوجدته موعوكاً قد عصب رأسه قال خذ بيدي يافضل فأخذت بيده حتى انتهى إلى المنبر فجلس عليه ثم قال صح في الناس فصحت في الناس فاجتمع ناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال ياأيها الناس إني قد دنا مني حقوق من بين أظهركم فمن كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليستقد منه ألا! ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي فليستقد منه ، ومن كنت أخذت منه مالاً فليستقد منه ولايقولن رجل : إني أخشى الشحناء من قبل رسول الله ﷺ ، إلا! وإن الشحناء ليست من طبيعتي ولامن شأني ، ألا وإن أحبكم أليَّ من أخذ حقاً إن كان له ، أو حللني فلقيت الله وأنا طيب النفس ، ألا! وإني لأرى ذلك مغنياني حتى أقوم فيكم مراراً ثم نزل فصلى الظهر ثم عاد إلى المنبر فعاد لمقالته في الشحناء أو غيرها ، ثم قال : ياأيها الناس! من كان عنده شيء فليرده ولا يقل فضوح الدنيا أيسر من فضوح الآخرة فقام إليه رجل فقال يارسول الله إن لي عندك ثلاثة دراهم قال أما إنا لانكذب قائلاً ولا نستحلفه فبم صارت لك عندي قال تذكر يوم مر بك مسكين فأمرتني أن أدفعها إليه فقال ادفعها يافضل ثم قام إليه رجل آخر قال عندي ثلاثة دراهم غللتها في سبيل الله قال ولم غللتها قال كنت محتاجاً إليها قال خذها يافضل ثم قال ياأيها الناس من خشي من نفسه شيئاً فليقم أدع له فقام رجل فقال يارسول الله والله إني لكذاب وإني لمنافق وإني لنؤوم قال اللهم ارزقه صدقاً وإيماناً وأذهب عنه النوم إذا أراد ثم قام آخر فقال يارسول الله إني لكذاب وإني لمنافق ومامن شيء من الأشياء إلا وقد أتيته فقال عمر ياهذا فضحت نفسك قال مه يا ابن

الخطاب فضوح الدنيا أيسر من فضوح الآخرة ثم قال اللهم ارزقه صدقاً وإيماناً وصير أمره إلى خير فكلمهم عمر بكلمة فقال رسول الله ﷺ عمر معي وأنا معه والحق بعدي مع عمر حيث كان . [قال في مجمع الزوائد : رواه الطبراني في الكبير والأوسط وابو يعلى بنحوه] وقال في آخره : فقام رجل فقال : يارسول الله! إني رجل جبان كثير النوم ، قال : فدعى له ، قال الفضل : فلقد رأيته أشجعنا وأقلنا نوماً قال ثم أتى بيت عائشة قال للنساء مثلما قال للرجال ، ثم قال : ومن غلب عليه شيء فيسألنا ندع له ، قال : فأومأت امرأة إلى لسانها ، قال فدعى لها ، قال : فلربما قالت لي : يا عائشة أحسني صلاتك . [وفي إسناد أبي يعلى عطاء بن مسلم وثقه ابن حبان وغيره وضعفه جماعة ، وبقية رجال أبي يعلى ثقات وفي إسناد الطبري من لم أعرفهم] .

فإذا اقترف الإنسان ذنباً فليس مكلّفاً شرعاً أن يُبلِّغ عن نفسه ، ما دام لم يدرِ به أحد ؛ ومعنى ذلك أنَّ الله أَسبل عليه ستره ، فإذا فضح نفسه كأنَّه ارتكب معصيةً جديدة. . هذا حكم شرعي ، أنت لست مكلّفاً أن تفضح نفسك ما دام الله قد سترك .

وهذه معلومة أخرى : إنْ لم تكن مِمَّن يُكلَّف بتنفيذ أمر الله ، فأنت إنسانٌ عاديٌ لست كالإمام ، فإذا اقترف إنسان آخر معصيةً أمامك لست مكلّفاً أن تُبلِّغ عنه ، أما الإمام فإذا بلغه أحد أنَّه قد انتُهك حدٌ من حدود الله فلا عفا الله عنه إن عفا ، فالإمام له موقفه ، والمؤمن له موقف آخر ، فالمؤمن ليس مكلّفاً أن يفضح نفسه ولا أن يفضح غيره ، أما الإمام فإذا بلغه عن أحد أنَّه قد اقترف ما يوجب الحد فلا عفا الله عنه إن عفا .

لذلك ورد في البخاري :

عَنِ ابْنِ شِهَابٍ أَنَّ سَالِماً أَخْبَرَهُ أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ رَضِي اللهُ عَنْهُمَا أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لا يَظْلِمُهُ وَلا يُسْلِمُهُ ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِماً سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** » [رواه البخاري] .

وهـذا الـذي بلَّـغ النبـي عـن إنسـان زنـى ، فقـال عليـه الصـلاة والسلام : « **ياهذال! لو سترته بثوبك كان خيراً لك** » . [رواه أحمد]

فهذا حكم شرعي.. ليس القصد أن تقطَّع الأيدي ولا أن يُجلد الناس ، فالقصد أن تكون الحدودُ الشرعيّة رادعةً للمسلمين ، لذلك حينما يطالب الشرع بأربعة شهود رأوا حالة الزنى رأي العين ، هذا شرط شبه مستحيل وهو شرط تعجيزي . الهدف منه أن يكون هذا الحدُّ رادعاً .

ومما يدلُّ على محبّة الله الستَّار إخفاء الذنوب والمعاصي قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النور : ١٩] .

أي أنَّ هذا الذي يحبُّ أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا له عذابٌ أليمٌ في الدنيا والآخرة.. ماذا فعل ؟ لم يفعل شيئاً إلا أنَّه تمنَّى أن تشيع هذه الفاحشة ، معنى ذلك أنَّه في خندق المنافقين ، لو كان في خندق المؤمنين لآلمه هذا الأمر أيّما إيلام ، فلمجرَّد أنَّه رضي أو

تمنّى أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا معنى ذلك أنّه ليس مؤمناً . . فقد قال تعالى :

﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [آل عمران : ١٢٠] .

قيل في هذه الآية : « هذه الآية تأديبٌ لمن سمع شيئاً من الكلام السيىء ، فقام بذهنه منه شيءٌ وتكلم به » .

إن سمعت قصة لا تليق بمؤمن فلا ينبغي لك أن تروِّجها ، ولا ينبغي لأحد أن ينقلها ، ولا ينبغي أن يفرح بها ، إن فرحت بها فلست مؤمناً ، وإن روجتها فقد سببت فتنة لا يعلم مداها إلا الله ، ومتى تنتهي . . ففي بعض الأحيان خطأ بسيط قد ينتهي بجريمة .

أنا ذكرت لكم نقلاً عن أحد مخابر التحليل أنَّ إنساناً استراب بابنته ، واعتراه شك نحوها ، فطلب منها إجراء تحليل . فالموظف في هذا المخبر وقعت منه العيِّنة فانكسرت فخاف من سيده فكتب نتيجة التحليل حمل إيجابي ، فلما جاء الأب مساءً وتلقَّى النتيجة أنَّها إيجابيَّة فذهب وقتل ابنته مع أن النتيجة غير صحيحة والبنت بريئة . . فهؤلاء الذين يسمعون قصةً لعلها كاذبة ، « إن قذف المحصنة ليهدم عمل مئة سنة »[1] ، ولعلها قصة كاذبة ، إذا نقلها وروَّجها فما أدراك أن تقع جريمة من أجلها ، فقضايا الأعراض خطيرة جداً ، فلذلك هؤلاء الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات عليهم أن يجلدوا ثمانين جلدة ، وأن يفقدوا حقَّهم المدني ، فلا تُقْبَل شهادتهم أبداً لعظم حقِّ المرأة المؤمنة عند الله .

---

(١) رواه البزار والطبراني والحاكم بسند ضعيف من حديث حذيفة رضي الله عنه .

هناك معنىً آخر ذكره بعض العلماء ؛ وهو أنَّ الذي يفعل شيئاً قبيحاً ويحدِّث الناس به فكأنه أراد أن تفشو الفاحشة في الذين آمنوا ، ألم تسمعوا بالقول : رحم الله عبداً جبَّ الغيبة عن نفسه .

وبعد. . . فهذا معنى آخر : إنسان فعل فاحشة ، والفاحشة انتقلت وشاعت وسرت بين الناس ، ما الذي حصل ؟ إن هذا العمل القبيح شاع بين الناس ، وكلما شاعت الفواحش استمرأها الناس ، وأقبلوا عليها ولم يروا بها شيئاً خطيراً .

عَنْ ثَوْبَانَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « **لا تُؤْذُوا عِبَادَ اللهِ ، وَلا تُعَيِّرُوهُمْ ، وَلا تَطْلُبُوا عَوْرَاتِهِمْ ، فَإِنَّهُ مَنْ طَلَبَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ طَلَبَ اللهُ عَوْرَتَهُ حَتَّى يَفْضَحَهُ فِي بَيْتِهِ** » [مسند الإمام أحمد] .

هناك أشخاص ـ والعياذ بالله ـ همُّهم تتبع العورات ، قنص الزلأت ، همُّهم أن يصطادوا في الماء العكر ، أن يبحثوا عن فضيحةٍ فيشيعوها ، هؤلاء يتتبعون عورات الناس. . من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته حتى يفضحه في عقر داره .

وقد قال عليه الصلاة والسلام حينما أمر أن يستر الإنسان ذنبه ، كما في حديث أَبِي الْيَسَرِ قَالَ : أَتَتْنِي امْرَأَةٌ تَبْتَاعُ تَمْراً ، فَقُلْتُ : إِنَّ فِي الْبَيْتِ تَمْراً أَطْيَبَ مِنْهُ ، فَدَخَلَتْ مَعِي فِي الْبَيْتِ ، فَأَهْوَيْتُ إِلَيْهَا فَقَبَّلْتُهَا ، فَأَتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ قَالَ : اسْتُرْ عَلَى نَفْسِكَ وَتُبْ وَلا تُخْبِرْ أَحَداً ، فَلَمْ أَصْبِرْ فَأَتَيْتُ عُمَرَ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ : اسْتُرْ عَلَى نَفْسِكَ وَتُبْ وَلا تُخْبِرْ أَحَداً ، فَلَمْ أَصْبِرْ ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ : « **أَخَلَفْتَ غَازِياً فِي سَبِيلِ اللهِ فِي أَهْلِهِ بِمِثْلِ هَذَا** » ، حَتَّى تَمَنَّى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ أَسْلَمَ إِلا تِلْكَ السَّاعَةَ حَتَّى ظَنَّ أَنَّهُ مِنْ

أَهْلِ النَّارِ ، قَالَ : وَأَطْرَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ طَوِيلاً حَتَّى أَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ [سنن الترمذي] .

وعَنْ جُبَيْرِ بْنِ أَبِي سُلَيْمَانَ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ قَالَ : سَمِعْتُ ابْنَ عُمَرَ يَقُولُ : لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَعُ هَؤُلاءِ الدَّعَوَاتِ حِينَ يُمْسِي وَحِينَ يُصْبِحُ « **اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَأَهْلِي وَمَالِيَ ، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَتِي** » ، وَقَالَ عُثْمَانُ : « **اللَّهم استر عَوْرَاتِي وَآمِنْ رَوْعَاتِي ، اللَّهُمَّ احْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ وَمِنْ خَلْفِي وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي وَمِنْ فَوْقِي وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي** » [سنن أبي داود] .

وإني لأعتقد أن المؤمن الصافي حينما يسمع قصة ويكتمها يشعر بسعادةٍ لا يعلمها إلا الله ، فالنفس تميل للفضائح ، الإنسان يميل إلى أن يُضحك الناس فيقول : هل سمعتم فلاناً ماذا فعل ؟ هل عرفتم لماذا طلق زوجته ؟ هل عرفتم فلاناً عندما صاحب فلاناً كيف خانهُ مع زوجته ؟ هذه قصص يراها مرضى القلوب ممتعة ، ويحب الناس أن يرووها ويتحدثوا بها في مجالسهم ، دائماً التكليف يتناقض مع طبع الإنسان ، لكنَّ الفطرة تتوافق مع التكليف ، عندما ينفذ الإنسان أمر الله عزَّ وجلَّ يشعر في البداية بمجاهدة ، أما حينما ينتصر على نفسه فإن ترتاح . . فالتكاليف سمَّاها الله تكاليف لأنها ذات كُلفة ، أما الأعمال الكاملة والصالحة فهي تتوافق مع الفطرة ، فالتكاليف تتناقض في البداية مع الطبع المتعلِّق بالجسم ، وتتوافق في النهاية مع الفطرة المتعلقة بالنفس ، لذلك المستقيم مرتاحةٌ نفسه لعل جسمه يتعب أما نفسه فمرتاحة .

من الأدعية المتعلِّقة باسم الستار : اللهمَّ! أنت الحليم الستار ، وأنت عالم الغيوب والأسرار ، أمدُّ إليك يدي تحت ستار الليل وقد مدَّ الليل أستاره ومددتَ لعبادك يَد الحليم الغفار ، فاستر اللهمَّ عورتي ، وامحُ حوْبتي ، وآمن روعتي ، وشدَّ من عزيمتي ، فإني أستحيي منك ، ياغفار الذنوب! وستار العيوب! بضعفي أمام قوتك ، وعجزي أمام قدرتك ، أسألك العفو والصفح ، والمغفرة والرضوان ياذا الجلال والإكرام .

أرجو الله سبحانه وتعالى ، أن يكون لنا من هذا الاسم (الستار) مبدأً وأن نطبِّق هذا المبدأ « **طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس** » .

عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ : قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنِيهِ** » [سنن الترمذي] .

قال ﷺ : « **من ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة** » .

إن موضوعَ الستر أحد أخلاق المؤمن الأساسية ، والله عزَّ وجلَّ هو الستار ، فإذا تاب العبد توبةً نصوحاً أنسى الله حافظيه والملائكة وبقاع الأرض كلَّها خطاياه وذنوبه . . فالله عزَّ وجلَّ من شأنه أن يظهر الحسن ويخفي القبيح ، والإنسان المؤمن يتخلَّق بكمالات الله ، ويقتدي برسول الله ﷺ ، والإنسان الكافر والعاصي يبحث عن العيوب ويُخفي الصفات الطيِّبة في غيره ، فهو قنَّاص ، فحينما يعثر على خطيئة كأنَّه عثر على كنزٍ ثمين فيأخذها ويفضح نفسه أو غيره بها وينشرها في الناس .

فأنت مؤمن بمعنى أنَّك ستَّار ، مؤمن تستُر على إخوتك

أخطاءهم ، حتى النصيحة إن كانت أمام ملأ كانت فضيحة ، لا تكون النصيحة نصيحةً إلا إذا كانت بينك وبين أخيك.. فإذا أحببت أن تنصح يجب أن تختار الوقت المناسب والمكان المناسب ، أما إذا نصح الناصح أمام ملأٍ فربما انقلبت النصيحة فضيحة وابتعد عن اسم الستَّار .

فأحياناً يخطب شاب فتاة ثم تفسخ هذه الخطبة ، فتجد معظم الناس يتكلَّمون علىٰ أشياء كانت وأشياء لم تكن حتى يسوغوا انسحابهم من هذه الخطبة ، ما كان ينقصهم لو قالوا كلاماً موجزاً : ليس هناك من نصيب ، واللهِ ؛ هم أحسن منا ولكن لا يوجد نصيب لا تدخل في الأعراض والأخطاء .

فكلَّما ارتقى الإنسان في مراقي الإيمان يُظهر الحسن ويُخفي القبيح ، وكلّما هبط يُظهر القبيح ويُخفي الحسن ، ودائماً وأبداً أوْدِعُوا أذهانكم هذا القول : « **تخلَّقوا بكمالات الله** » الله عزَّ وجلَّ ستَّار ، وستَّار صيغة مبالغة تعني أنَّه كثير الستر نوعاً وكمًّا ، وكلَّما كنت أقرب إلى الله كنت أكثر سِتراً على إخوانك .

* * *

الرَّبُّ

من أسماء الله الحسنى الرب. . وهو من أقرب الأسماء إلى العبد ، والربُّ اسمٌ من أسماء الله الحُسنى إلا أنَّه من الأسماء الزائدة على الأسماء التسعة والتسعين التي وردت في أحاديث رسول الله ﷺ .

الربُّ في اللُّغة هو المالك ، هو السيِّد ، هو المُنعم ، هو المربِّي ، ولعلَّ أقرب المعاني إلى الإنسان أنَّه المربِّي ، ولا يطلَقُ غيرَ مضافٍ إلا إذا توجه إلى الله تعالى ، رب ، أو الرب ، أمّا إذا أُضيف فإنه يتوجه إلى الله تعالى أو إلى عباده ، كقولنا : ربُّ الدار أي صاحبها ، إذا أُضيف فهو مشتركٌ بين الذات الإلهيّة والإنسان ، أما دون إضافة. . ربٌّ أو الربُّ فلا يتوجه إلا إلى الله تعالى .

عالمٌ ربَّانيٌّ أي راسخٌ في العلم ، إنسان ربَّانيٌّ : أي كلُّ حياته محصورة في معرفة الله وذكره وخدمة عباده ، فالربَّاني هو الذي لا يتحرَّك إلا وفق منهج الله ، لا يقف موقفاً ، ولا يُعطي ، ولا يمنع ، ولا يغضب ، ولا يرضى ، ولا يصل ، ولا يقطع ، إلا وفق مرضاة الله ، عالمٌ ربَّاني. . أي راسخٌ في العلم ، وكما يقول سيدنا علي : الناس ثلاثة. . عالمٌ ربَّانيّ ، ومستمعٌ على سبيل نجاة ، وهمجٌ رَعاع أتباع كلِّ ناعق ، لم يستضيؤوا بنور العلم ، ولم يلجؤوا إلى ركنٍ وثيق .

أكرر : العالم الربَّاني هو الراسخ في العلم ، الإنسان الربَّاني هو الذي لا يتحرَّك إلا وفق مرضاة الله ، كل حركاته في حياته بما يرضي الله عزَّ وجلَّ .

لفظ الربّ مشتقٌ من التربية ، فالله سبحانه وتعالى مربٍّ ومدبِّر لخلقه ، المربي له صفتان أساسيَّتان . . أنَّه مُمِدّ ، وأنَّه يرعى ، فالذي يمدُّنا بما نحتاج إليه هو ربُّنا ، والذي يُمدُّ أجسادنا هو ربُّنا ، والذي يربِّي نفوسنا ، ويهدينا إلى صراطه المستقيم ، ويُلْجئنا إلى بابه هو ربُّنا .

وأضرب مثلاً ، ولله المثل الأعلى ، الأب يوفِّر لأولاده حاجاتهم الماديَّة ، من طعام ، وشراب ، وكِساء ، وحاجات شتى ثم يربِّيهم ، بمعنىً آخر يرعى أخلاقهم ، يرعى دينهم ، يرعى تعليمهم ، يرعى مستقبلهم ، ففي معنى الربوبيَّة المشتقَّة من التربية معنىً ماديّ ومعنىً روحيّ .

قالت العلماء : وإذا أُدخِلت ـ ال ـ على كلمة رب اختصَّ الله تعالى بها ، الرب هو الله لأنَّها للعهد ، أي الربّ المعهود ولا ربَّ سواه .

الله سبحانه وتعالى مالك المُلك ، مالك المالك والمملوك ، فما معنى قوله تعالى :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة : ٢] .

أي مالك المالك ومالك المملوك ، مالك السيِّد ومالك العبد .

الرب من معانيه أنَّه خالقٌ ورازقٌ ، وكلُّ ربٍّ سواه غير خالقٍ وغير رازقٍ .

الأب يربِّي أولاده ، لكن لم يخلقهم ولم يرزقهم ، فإذا قلنا : فلان مُرَبٍّ ، والأب مُرَبٍّ ، والمعلِّم مُرَبٍّ أي يقدِّم توجيهات ، يتابع ، يحاسب ، يضيِّق ، يشدد ، يكافىء ، يعاقب ، أما إذا قلنا : الله ربُّ العالمين أي خلقنا وأمدَّنا ووجَّهنا .

لذلك أنت في نعمٍ ثلاث . . نعمة الإيجاد ، ونعمة الإمداد ، ونعمة الهدى والإرشاد ، أوجدك ولم تكن شيئاً مِن قبل ، وأمدَّك بما تحتاج إليه ، ثم هداك إليه وأرشدك .

كلمة الرب وردت في القرآن الكريم بضع مئاتٍ من المرَّات ، حتى إنَّ بعض المصاحف التي تُلوِّن كلمة الله باللون الأحمر ، تلوِّن معها كلمة رب ، فأقرب اسم لك هو ربُّ العالمين .

والحقيقة أن كل واحد منا ، وبشكلٍ موسَّع ؛ كل مؤمن يتحدَّث عن ربوبيَّة الله الشيء الكثير ، فيقول لك : فعلت كذا فأدَّبني ، فعلت كذا فكافأني ، دعوته فاستجاب لي ، ظلمت فظُلِمتُ ، اعتديتُ فاعتُدي علي ، أكلت مالاً مشبوهاً فأتلف الله مالي . . كل واحد فيما بينه وبين الله يعلم أنَّ الله سبحانه وتعالى يحاسبه حساباً دقيقاً ، هذه هي التربية الروحية ، ففي سورة الفاتحة قال تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

فالله عزَّ وجلَّ قوي ، وقدير ، وعليم ، وجبَّار ، ومتكبِّر ، وقاهر ، أما أنت كعبد فالله عزَّ وجلَّ ربُّك وهو الذي خلقك ورزقك ودلَّك عليه . . قال الله تعالى حكاية عن سيدنا إبراهيم : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ۝٨١ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ [الشعراء : ٧٨ـ٨٢] .

الحقيقة كلمة (رب) . . ذات خصائص جمة أولاً ؛ فمن خصائص التربية العلم والرحمة ، ومن خصائص التربية القدرة ، فهو يعلم ، وهو على كل شيء قدير ، وهو رحيمٌ بنا ، أما معنى قول الله عزَّ وجلَّ في سورة الفاتحة ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فهو أنَّه خالق الأكوان وجميع العوالم التي خلقها ، فالعلاقة بين خالق الأكوان وجميع العوالم علاقة تربية أي خلقٌ وإمداد وإكرام وعناية ، علاقة حب ، علاقة عناية ، فأحياناً يكون هناك علاقة بين شخصين علاقة محاسبة ، علاقة انتقام ، علاقة قسوة .

وأوضح مثل : علاقةُ أيَّةِ أمٍّ على وجه الأرض بابنها علاقة حب ، علاقة رحمة ، علاقة صلاح ، فإذا قلنا : الله ربُّ العالمين ، أو ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أيْ أنَّ الله سبحانه وتعالى هو خالق الأكوان ، وما سوى الله عوالم ، والعلاقة بين الخالق والعوالم التي خلقها علاقة رحمة ، فالرحمة عطاء فيها علم ، وفيها قدرة ، وفيها جمال ، وفيها لطف ، وفيها عناية .

لذلك يقول عامر بن عبد الله : « واللهِ لو كُشِفَ الغطاء ما ازددتُ يقيناً » ، والحقيقة أنك لن تكون على نحوٍ يَرضَى الله عنك إلا إذا أيقنت بربوبيَّته لك .

لقد سمعت ذات مرة كلمة ما زالت عالقة بذهني . . فقد كان إنسانٌ يصيح في الطريق ويبدو أنَّ لديه مشكلة ما ، فصاح غاضباً وقال : يعني : إذا لم يكن له أب أما له رب! هذه الكلمة تركت في نفسي أثراً كبيراً ، فالمربّي هو الله ، قد تجد يتيماً تولاَّه الله بالعناية ففاق كلَّ الأطفال الذين ربَّاهم أهلوهم .

وفي الفاتحة.. ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.. وكلمة ربّ العالمين لا تعني أنّه ربُّ الإنسان فقط، فأحياناً الإنسان لضيق نظره، ولضيق أفقه، ولمحدوديَّته يظُنُّ أنَّ الله له وحده، أو له ولإخوانه، أو له ولجماعته، أو له ولمسجده، ألا فاعلم أنّ ربَّنا عزَّ وجلَّ لكلِّ عباده، لكلِّ المؤمنين فهو ربُّهم، لكلِّ الناس، لكلِّ الحيوانات، لكلِّ النباتات، لكلِّ الجمادات، لكلِّ العوالم، إنه ربُّهم، وهو رب كل شيء.

يقولون: عالم الحشرات، عالم النبات، عالم الأسماك، عالم الأطيار، عالم الفضاء الخارجي، عالم الأرض، عالم الجبال، عالم البحيرات، عالم البحار، كل المخلوقات المتجانسة اسمُها عالم، واللهُ ربُّ العالمين.. ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

وفي سورة الأنعام قال تعالى:

﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

ما من كلمةٍ في اللُّغة أوسع شمولاً وأكثر استغراقاً من كلمة شيء.. فالذرة شيء، وجزئيَّات الذرة شيء، النواة شيء، والكُهيرب ـ الإلكترون ـ شيء، المدار شيء، الفيروس شيء، عوامل المرض ـ وهي أقلُّ من الفيروس ـ شيء، الشمس شيء، المجرَّات شيء، الكون شيء حقاً، ما من كلمةٍ في اللُّغة أوسع شمولاً ولا أكثر استغراقاً من كلمة شيء.. قال الله تعالى: ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ﴾.

فإذا أردت أن تقيم علاقة طيِّبة؛ أَتُفَضِّلُ أن تقيمها مع شُرْطيّ

وتسترضيه ، وأنت تعرف أن عمله محدودٌ بساحة من الساحات وهو فقط ينظم شؤون السير ، ولا يملك أيَّ شيء آخر ، أم تقيمها مع ملك يملك البلاد كلَّها بخيراتها وبمواردها ، وبثرواتها وسائر شؤونها.. أيهما تتخذ وليّاً لك ؟!! ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ .. ليس ربَّ الناس ، بل هو ربّ العوالم ، ربُّ المخلوقات جميعاً .

فربما ينام أحد في خيمة في البادية ، وقد يخاف من وجود أفعى تتسلل إليه ليلاً ، وهذا ممكن جداً في الصحراء ، ولابد أن ينام لأنه متعب مرهق ، فينام متوكلاً على الله . وأنت حينما تنام على من تتوكَّل ؟ تتوكَّل على ربِّ العالمين ، هذه الأفعى بيد الله عزَّ وجلَّ وهو الذي يحول بينها وبينك إن تتوكل عليه ، وأنت حينما تتعامل مع خالق الكون فكلُّ المخلوقات بيده.. ﴿ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ .

وفي سورة الأعراف قال الله تعالى :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٤] .

كأنَّ هذه الآية أشارت إلى تعريف الربوبيّة.. أحياناً نصنع طائرة ونبيعُها ، فنحن صنعناها . أما أمرها الآن فبيد مَن اشتراها ، قد يستخدمها لعدوان ، أو يستخدمها لنقل ، أو يستخدمها في أعمال الاستطلاع ، أو يجعلها على أرض المطار جاثمة ، أو يخفيها ، الذي اشتراها هو الذي يملك أمرها ، نحن صنعناها ثم بعناها ، لكنَّ الله سبحانه وتعالى ، ولله المثل الأعلى ، أيُّ شيءٍ خلقه بيده ، بملكوته.. ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

هناك معنى آخر.. فهذا الشيء الذي خلقه الله عزَّ وجلَّ: صلاحُ أمرِهِ وكل أحواله منوطٌ بخالقه، التوجيه الذي يسعده هو توجيه خالقه، التوجيه الذي يحفظه هو توجيه خالقه.. ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾.. أي ينبغي أن تتبع أمر الذي خلق.

فالمعنى الأول.. ﴿لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾.. أي خَلْقَهُ ويأمرُه دائماً، أي أمره بيده، تحت سيطرته، في قبضته، في ملكوته.

المعنى الثاني.. أنَّ هذا الشيء الذي خُلق لا يصلُح ولا يستقيم أمره إلا إن اتبع أمر الذي خلق.. ﴿لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.. ربُّ العالمين هو الذي ﴿لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾.

وقال الله تعالى في سورة التوبة: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩].

﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.. هو الرب، أي ما من حركةٍ، ولا من سكنةٍ، ولا خفضٍ، ولا إعزازٍ، ولا إذلالٍ، ولا قبضٍ، ولا بسطٍ، ولا سكينةٍ، ولا خوفٍ، ولا قلقٍ، ولا طُمأنينةٍ إلا بيده.. ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.. أي يكفيني.

إذا أعطينا إنساناً شيكاً مفتوحاً وموقَّعاً وتركنا له الخيار في أن يضع فيه ما يشاء من المبالغ، فلو سجل مليوناً أو ألف مليون أو مليون مليون كلُّه نافذ، أفمن يملك هذا الشيك المفتوح والذي سجل فيه أكبر رقمٍ حتى لو كان رقماً فلكياً.. كمن يفرح بعدد من الليرات الحديد التي ترن في جيبه؟ لا يستويان ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾..

فإذا قال المؤمن: «حَسْبِي اللهُ».. فأنت مع القوي، ومع الغني، ومع الرحيم، فأنت مع الخالق، ومع القديم، ومع

الأبدي ، أنت مع من بيده كلُّ شيء . . « حَسْبِيَ اللهُ » . . ونعم الوكيل . . فهذه آية ، وقد روي أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يقول حسبي الرب من العباد ، حسبي الخالق من المخلوقين حسبي الرازق من المرزوقين حسبي الذي هو حسبي حسبي اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ

﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران : ١٧٣] .

قرأت عن سيدنا الصديق أنه : ما ندم على شيء فاته من الدنيا قط ، لأنَّ الله حسبه ، ومن كان الله حسبه كفاه أمر الدنيا كلَّها .

فقد قال الله سبحانه في أهل الكهف :

﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَـٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف : ١٣ـ ١٤] .

لا أدري ما إذا كنت قد أوضحت هذه النقطة . . أنت حينما تكون مع إنسان فإنّ هذا الإنسان محدود مهما علا شأنه ، لكن حينما تكون مع الخالق فهو ربُّك وهو ربُّ السموات والأرض ، ولن يسلمك أبداً .

ذات مرة هاجت عاصفة شديدة جداً ولعل سرعتها كانت تزيد على مئة كيلو مترٍ فاقتلعت مئات البيوت المحميّة . . ولكن حدثت حادثة شديدة الغرابة . والمفارقة فيها غريبة ، بيتان متلاصقان ، فالقوس الأول ملتصق بالقوس الثاني ، وهذه البيوت مزروع بداخلها أشجار ذات ثمار ، والثمار في أيام البرد ترتفع أسعارها ارتفاعاً كبيراً ، فحجم إنتاج البيت مئتا ألف من الليرات تقريباً ، وهذه العاصفة

الهوجاء هبَّت فاقتلعت أحد البيتين وأبقت الآخر ، والبيتان لأخوين أحدهما صالحٌ والآخر شرير ، فالشرير اقْتُلِع بيته وأُتلف محصوله ، وأصبح بيته أنقاضاً على بعد أمتار من مكانه ، وهذا الشيء يكاد لا يصدَّق ؛ فالعاصفة عاصفة والمنطقة واحدة بل إنَّ البيتين متلاصقان ، فكلمة الفتية . . ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ . . فكلمة الفتية هذه تعني غاية التوكل والتفويض .

أيْ ربُّك الذي يرعاك ؛ بيده الرياح ، بيده العواصف ، بيده الأعاصير ، بيده الأمطار ، بيده إنبات النبات ، بيده مسببات الأمراض ، بيده الفيروسات ، كل شيء بيده . . ﴿لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ﴾ . . أيّ إلهٍ تعبده يكون دون الله عزَّ وجلَّ ، فأحياناً يكون دوناً بدرجة أو بدرجتين أو بثلاث أو بأربع ، أما إذا وازنا بين جهةٍ قويةٍ تمحضها ودَّك وخالق الكون فليس هناك نسبة تجمع بينهما ﴿ مِن دُونِهِۦٓ ﴾ . . فالله عزَّ وجلَّ فوق الخلق جميعاً ، وخلقه لا شيء إزاءه ، لذلك قالوا : ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴾ .

وقال الله تعالى في سورة الرحمن :

﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن : ١٧ـ ١٨] .

هناك ظاهرة لا ينتبه لها إلا القليل . . افتح تقويماً وقلِّب أوراقه وافتح على يوم الثامن والعشرين من تشرين الثاني مثلاً فتجد أنَّ شروق

الشمس عند الساعة الخامسة وسبع دقائق ، وهذا التقويم معمول به من خمسين سنة ، ويمكن أن يكون من مئة سنة وهو صالح لمليون سنة قادمة ، فحركة الأفلاك بمعشار الثانية :

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر : ٦٤] .

فثبات حركة الأفلاك ، دليل واضح على أن حركتها وسكونها بيد الله تعالى . حتى إنَّ أضخم ساعة في العالم موجودة في العاصمة لندن ـ بيج بن ـ تضبط على نجم ، فقد تؤخِّر أو تُقَدِّم في السنة عدة ثوانٍ فقط ، فعلام تضبط ؟ إنها تضبط على نجم معين وهو أدقُّ منها ، تضبط عليه ، فهو مضبوطة حركته ، إذ أمره إلى الله سبحانه ، فهذا معنى قوله تعالى : ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ فإذا كان للإنسان بيتٌ مشرفٌ على جهة الغرب أو جهة الشرق يقول لك : في الشتاء تشرق الشمس من ها هنا ، وفي الصيف تشرق من هاهنا ، فهناك مسافة كبيرة جداً بين المشرقين ، فالقوس الذي يسع أقصى هذا المشرق وأقصى ذاك المشرق على مدار الفصول قوسٌ واسعٌ جداً ، فهو في آية . . ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ . . هو الذي جعل الشمس تشرق وجعلها تغيب ، أما ربُّ المشرقين فيعني النهاية العظمى صيفاً والعظمى شتاءً .

إذا كان بيت الإنسان يطل على الغرب فإنه يرى الشمس تغيب في الشتاء بالاتجاه الغربي الجنوبي ، أما في الصيف فاتجاهها غربي تقريباً ، السبب في ذلك أن الشمس تكون في فصل الصيف عمودية ، أما في فصل الشتاء فتدخل إلى أقصى الغرف لأنها تكون في هذا

الفصل مائلة.. فمن جعلها هكذا ! لو أنها كانت دائماً عمودية لكنَّا في صيفٍ دائم ، لو أنها مائلة دائماً لكنا في شتاءٍ دائم ، أما أن تتنوع بين العمودية والمائلة فهو سبحانه الذي جعلها هكذا .

هذا معنى ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ ﴾ ، أما إذا قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [المعارج : ٤٠] .

فكل يوم لها شروق معين ، يتحرك على مدار العام من أقصى اليمين إلى أقصى الشمال وبالعكس ، كل يوم لها زاوية تشرق منها ، وربُّ العالمين أي مالكهم.. وكل مَن ملك شيئاً فهو ربه ، ربُّ الدار أي صاحب الدار ، ربُّ البيت أي صاحب البيت ، ربُّ الأسرة أي مالك الأسرة ، إذاً فالربُّ هو المالك .

وفي الصحاح : الرب اسمٌ من أسماء الله تعالى ، ولا يقال في غيره إلا بالإضافة .

الرب هو الله ، أما ربُّ البيت فقد يكون إنساناً ، والربُّ هو المُصْلِح ، والربُّ هو السيِّد ، والربُّ هو المدبِّر ، والربُّ هو الجابر ، والربُّ هو القائم.. ويقال لمن قام بإصلاح شيءٍ وإتمامه : ربَّه يرُبُّه فهو ربٌّ له ، والرب هو المعبود .

وإني أذكِّر مرة ثانية بأن أقرب اسم من أسماء الله الحُسنى إلى المؤمن هو اسم « **ربُّ العالمين** » على الحكاية ، أو اسم « **ربِّ العالمين** » على الإعراب ، فلك أن تقول سورة « **المؤمنون** » وبالإعراب سورة المؤمنين ، لكن لك أن تقول : المؤمنون اسمٌ للسورة . لك أن تلفظها بالرفع دائماً تقول سورة المؤمنون ، والعلماء يقولون : « **المؤمنون** » على الحكاية أي تحكى هكذا فلا نخضعها

للإعراب ، فلك أن تقول سورة « **المؤمنون** » وسورة المؤمنين وكلاهما صحيح .

في بعض التفاسير شرحت كلمة « **رب العالمين** » بما يشعر أنها تعني الثناء المطلق على الله ، مثلاً هناك إنسان جلاد ، عمله أن يجلد الناس ، وهناك مربٍّ ، وهناك سارق ، وهناك معتدٍ أثيم ، أما إذا دخلت إلى مدرسة ، فمدير المدرسة ماذا يمثِّل الأذى أم الخير ؟ طبعاً الخير ، والتربية والتعليم والتهذيب ، وتفقُّد الطلاب ، ورعايتهم ، رعاية سلوكهم وأخلاقهم وصحتهم وعلمهم ورعاية علاقاتهم الاجتماعية ، فمدير مدرسة ومدير مشفى كلاهما منصب خيري فيه خيريَّة وفيه رحمة ، لكن قد يكون السجَّان له وظيفة ثانية ، قد يجلد ، قد يعذب ، فعلاقة السجَّان مع السجين علاقة تعذيب لا علاقة رعاية ، علاقة ترويع ، علاقة قهر .

فالمعنى الذي أريد أن أقوله : كلمة ربِّ العالمين هي ثناءٌ مطلق على الله . . ربّ العالمين أي هو خالق ، رب العالمين أي هو رازق ، رب العالمين أي مُمِد ، رب العالمين أي رحيم ، رب العالمين أي عليم ، رب العالمين أي قدير ، رب العالمين أي محب ، رب العالمين أي رؤوف ، فالخلق والرزق والإمداد والعلم والرحمة والقدرة والحب والإكرام والرأفة كلها جمعت بكلمة رب العالمين .

فقد قال بعض المفسرين : « **كلمة رب العالمين تعني الثناء المطلق على الله** » ، فإذا قلت ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فإنك تثني على الله عزَّ وجلَّ .

وبعد فتربية الله لعباده تأخذ منحيين اثنين : تربية خَلْقيَّة ، وتربيةٌ شرعيةٌ تعليمية .

فأنت عموماً والجو برد قارس وابنك الذي تحبه بلا معطف ، تذهب وتشتري له معطفاً ، هذه تربية خَلْقِيَّة ، يحتاج إلى غرفة خاصة ، يحتاج إلى نفقات ، يحتاج إلى كتب ، يحتاج إلى أقساط ، يحتاج إلى أشياء ثانوية . . فتعطيه إياها ، هذه كلها تربيةٌ خَلقِية . . لكن إنْ رأيته يكذب فإنك تؤدبه ، إنْ رأيته لا يصلي فإنك تأمره بالصلاة ، إنْ رأيته يلهو بأشياء سخيفة فإنك تنهاه عنها ، أنت الآن عملك شرعي .

يوجد تربية خَلْقِية وتربية شرعية ، فربنا عزَّ وجلَّ يربي أجسامنا بإمدادها بما تحتاج إليه ، ويربي نفوسنا بتزكيتها لتكون أهلاً لجنَّته ، فتربية الله تربيتان ، لذلك ليس لغير ربِّ الناس جهةٌ يمكن أن تشرِّع للعبادة أبداً ، العبادة لربِّ العالمين .

وإليك معنىً آخر . . قالوا : الله عزَّ وجلَّ يربي نفوس العابدين بالتأييد ، ويربي قلوب الطالبين بالتسديد ، ويربي أرواح العارفين بالتوحيد ، ويربي الأشباح بوجود النِّعَم ، ويربي الأرواح بشهود الكرم ، الأرواح يربيها ، والأشباح يربيها بالطعام والشراب ، والعارفين يربيهم تربية رفيعة جداً ، كلما ارتقى الإنسان يحاسب حساباً دقيقاً ، فقد يُحاسَب على ابتسامة .

فبمستوى الدكتوراه في بعض الجامعات ، إذا أخطأ المتقدم لنيل هذه الشهادة في مناقشته بكلمة يعيد العام ويؤخَّر إلى عامٍ قادم ، كلما ارتقى مستواه يحاسب حساباً أدق ، فالعارفون بالله لهم حساب دقيق ، كلما ارتقى الإنسان في سُلَّم الإيمان يحاسب على الخطرات ، وكلما هبط مستواه يحاسب على الكبائر .

أيضاً من معاني الربوبية قالوا : « **إصلاح أمور العباد ، وهذا مشتق من ربَّيْت العديم.. أربُّه فأنا أصلحه** » ، فالله سبحانه وتعالى يصلح أمور الزاهدين بجميل رعايته ، ويصلح أمور العابدين بحسن كفايته ، ويصلح أمور الواجدين بقديم عنايته ، ويصلح أمور قومٍ يستغنون بعطائه ، ويصلح أمور الخلق جميعاً .

الآية الكريمة تقول :

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء : ١١٣] .

﴿ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ .. ربّاك وساقك إلى مجالس العلم ، ساقك إلى طاعته ، ألقى في قلبك محبته ، حبب إليك الإيمان وزينه في قلبك ، وكرّه إليك الكفر والفسوق والعصيان ، هذه تربية .

إذا كان أب يسمع وابنه تكلم كلمة بذيئة أمامه ، فضحك له ، فإن الولد يكررها ويتفوّه بما هو أفحش منها وأسوأ ،أما إذا تكلم كلمة بذيئة فنهره وزجره ، فإن هذا الابن لن يعود إلى الكلام البذيء أبداً ، وإذا وجده يقرأ القرآن كافأه وشجعه ، معنى المكافأة والعقاب هذه تربية ، والحق أنّ أول صفة من صفات المربي ، أن يُكافىء المحسن وأن يُعاقب المسيء ، وربنا عزَّ وجلَّ بمجرد أن تفكر في التحرُّك نحوه تجد أن الله شرح لك صدرك ، ألقى في قلبك السكينة والطمأنينة ، وتيسرت أمورك وعاملك معاملة جديدة وأشعرك أنه يحبك ، ولمجرد أن ترتكب معصيةً يلقي في قلب العاصي الضيق والكآبة والحيْرة ، فالله يربينا عن طريق قلوبنا .

عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ : « يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ وَطَاعَتِكَ » فَقِيلَ لَهُ : يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ عَفَّانُ : فَقَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ : إِنَّكَ تُكْثِرُ أَنْ تَقُولَ : يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ وَطَاعَتِكَ قَالَ : « وَمَا يُؤْمِنُنِي وَإِنَّمَا قُلُوبُ الْعِبَادِ بَيْنَ أُصْبُعَيِ الرَّحْمَنِ ، إِنَّهُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُقَلِّبَ قَلْبَ عَبْدٍ قَلَّبَهُ ـ قَالَ عَفَّانُ ـ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ » [مسند الإمام احمد] .

فأنت حينما تتخذ قراراً حكيماً في صالح إيمانك يشرح الله لك صدرك ، وحينما تنحرف قليلاً عن طريق الحق يملأ قلبك ضيقاً وقلقاً وحيرةً ؛ فالقضية إذاً دقيقة جداً في بيان مسالك المؤمنين .

قال الله تعالى :

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

قال الله تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟

لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ [آل عمران : ١٩١ـ١٩٥] .

لا بد من تعقيبٍ أخير على اسم الله : « رب العالمين » ، صدِّقوني أنَّ أحدكم إذا شعر أنَّ الله يتابعه ، ويحاسبه على حركاته وسكناته ، ويعاقبه سريعاً ويؤدِّبه سريعاً فهو في موطن عنايةٍ مشددة ، أما إذا ارتكب الإنسان المعاصي ولم يحاسبه الله عزَّ وجلَّ ، ولم يتابعه فاعلموا أنَّه خارج العناية الإلهيَّة لأنَّ الله علم فيه انحرافاً شديداً ، وتمرداً وعتواً وإصراراً على انحرافه فأوكله إلى نفسه ، فأحدنا إذا كان الله يؤدِّبه ويحاسبه ويحصي عليه أنفاسه ، ويحاسبه على كلمةٍ أو على نظرةٍ ، أو على حركةٍ لا ترضيه ويؤدِّبه سريعاً فهذا محضُ ربوبيَّة الله عزَّ وجلَّ ، وفي هذا الإنسان خيرٌ كبيرٌ وهو مطلوبٌ لرحمة الله ، والله عزَّ وجلَّ يؤهِّله لرحمته .

لذلك روي في الأثر القدسي : « **وعزَّتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحبُّ أن أرحمه إلا ابتليته بكلِّ سيِّئةٍ كان عملها سقماً في جسده ، أو إقتاراً في رزقه ، أو مصيبةً في ماله أو ولده حتى أبلُغ منه مثل الذَّر ، فإذا بقي عليه شيء شددتُّ عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أمُّه** » .

هذه تربية الله لنا ، وليعلم كل مؤمن أنَّ المصائب كلَّها لو كُشفت حكمتها لكم لكنتم في درجةٍ من قَبولها لا توصف ، فأنا أعرف أُناساً كثيرين سببُ توبتهم ، وسببُ دخولهم في حظيرة الإيمان ، وسببُ سعادتهم وتوفيقهم مصيبةٌ ساقها الله لهم فأرجعتهم إلى الله ، قال تعالى :

﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

[السجدة : ٢١]

﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ ﴾ . . بالدنيا . . ﴿ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ ﴾ . . بالآخرة . . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ . . فلنفهم : أن الله إذا ساق لنا بعض الشدائد فهذا من أجل أن نتوب إليه ، لذلك ورد في القرآن الكريم . . ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ﴾ . . في قوله تعالى :

﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [التوبة : ١١٨] .

أي أنَّ الله ساق لهم الشدائد ليحملهم بها على التوبة ، فإذا قلنا : تابوا فتاب عليهم ، أي قبل توبتهم ، أما إذا قلنا : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ﴾ . . أي أنَّ الله ساق لهم الشدائد ليحملهم بها على التوبة .

فالإنسان المؤمن لا يتضجر إذا الله عزَّ وجلَّ أدَّبه ، ومعنى ذلك أنَّه مطلوب ، فإذا قال أحدهم لصديقه : أنا لست في راحة من كثرة الوظائف والتبعات والتكاليف ، فأنا في السنة الرابعة في الجامعة والدروس علينا مكثَّفة ، والكتب صعبة ، والوظائف متتالية ، وعلينا تقديم أطروحة في آخر العام الدراسي ، والدوام كثير ولدينا دروس عملية ، فلست في راحة .

وقال له الآخر : أنا ليست لدي أية مشكلة ، فأنا أنام إلى الظهيرة ، لأنَّه بالطبع لا يدرس وهو خارج الجامعة ، وبدون عمل ولا مستقبل ، فليست لديه أي مشكلة بل هو في راحة ، فهذه الراحة راحة الموتى ، ولكن تعب الأول تعب الأحياء ، إن الله عزَّ وجلَّ إذا

علم فيك خيراً ، ووضعك ضمن العناية المشدّدة وتابعك ، فلا توازن نفسك مع من هو شارد تائه ، كالدابة المتفلّتة ، قوي ، غني ، صحيح ويمارس كل شهواته بحريَّة بلا قيد أو شرط ، فلا توازن نفسك معه فأنت طالب علم ، وأنت ترجو رحمة الله ، أنت تطلب الجنَّة ، أما ذاك فقد شرد على الله شرود البعير ، قال تعالى :

﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام : ٤٤] .

وقد قال تعالى :

﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران : ١٩٦ـ١٩٨] .

قال تعالى : ﴿ وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ . . فقط المؤمن يا ربِّ ، فقال له الله تعالى : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ .

ملخَّص البحث . . إذا ساق الله لأحدنا بعض الشدائد فليعلم علم اليقين أنَّه مطلوب لرحمة الله ، وأن فيه خيراً ، وأنَّه في العناية المشددة . . فإذا الطبيب رأى مريضاً مصاباً بالسرطان من الدرجة الخامسة ، والمرض منتشر في كل أحشائه ، فبماذا ينصح المريض ؟ يقول له : ليست هناك مشكلة فكل ما شئت . . وإذا سأله المريض عن نوع من حبوب الدواء هل يتناوله ؟ فيجيبه : كيف ما تريد وتحب ، وعلى حسب راحتك . . فتجده متساهلاً معه كثيراً لأنه لا يرجى شفاؤه ، أما إذا كان مريضاً بالتهاب في المعدة تجده ثائراً عليه فيما

إذا تناول طعاماً غير مناسب ، فإذا كان هناك أملٌ في الشفاء فتجد الطبيب يعامله بشدةٍ بالغة ، أما إذا لم يكن هناك أملٌ في الشفاء فتجده يسيِّب له الأمور ، فإذا كان الله يتابع الإنسان فمعنى ذلك أنَّ الله يحبه وهو في العناية المشدَّدة .

لذلك . . إذا أحبَّ الله عبده عجَّل له بالعقوبة . . إذا أحبَّ الله عبده ابتلاه ، فإن صبر اجتباه ، فإن شكر اقتناه . . إذا أحبَّ الله عبده جعل له وازعاً من نفسه . . إذا أحبَّ الله عبده جعل حوائج الناس إليه .

فالمؤمن لا يتضجر ولا يتأفف من تضييقٍ من الله عزَّ وجلَّ ، فهذا التضييق محض رحمة ، ومحض إكرام ، وهو النعمة الباطنة كما فسَّرها المفسِّرون . . ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ . . في قوله تعالى :

﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾[لقمان : ٢٠] .

* * *

الحَافِظ

من أسماء الله الحُسنى الحافظ .

الحافظ اسمٌ من أسماء الله الحُسنى ، وهو اسمٌ زائدٌ على الأسماء التسعة والتسعين التي ورد فيها الحديث ، الحافظ في اللُّغة هو : الحارس ، وحفِظَه حفظاً أي : حرسه حراسةً ، وحَفِظَ المال أي : رعاه ، وحَفِظَ القرآن أي : استظهره ، وهذا حافظٌ من قومٍ حُفَّاظ أي : من الذين رُزِقوا حفظ ما سمعوا .

والحقيقة أنه من نعم الله الكبرى على الإنسان أن تكون له حافظةٌ قويّة أو ذاكرةٌ قويّة ، لأنَّ الإنسان إذا استمع كثيراً ونسي الذي استمعه ، فماذا يستفيد منه ؟ حينما تجلس في مجلس ، أو حينما تُلقي كلمة ، أو حينما تتحدَّث إلى صديق ، فإذا خانتك ذاكرتك فلم تحفظ النصوص ولا القصص ، ولا الوقائع ، ولا الأفكار ، ولا التحليلات ، ولا التعليقات كيف تستطيع أن تصول وتجول ؟ لذلك نعمة الذاكرة القويّة من أعظم النعم على الإنسان ، إلا أنَّ العلماء يرون أنَّ الذاكرة متعلِّقةٌ بالاهتمام ، وهذا تعلُّقٌ عادل فالشيء الذي تهتمُّ به تحفظه .

ادخل إلى محلٍّ تجاري فيه خمسون ألف قطعة ، وكل قطعة لها

اسم ولها قياس ، ولها سعر ، ولها وضع معيَّن ، ولها مصدر ، ولها منشأ ، فتجد صاحب المحل ـ لأنَّ رزقه متعلِّقٌ بهذه البضاعة ـ يحفظها جميعاً ، يحفظ حالاتها وأنواعها ، وقياساتها ، ومصدرها ، ومنشأها ، وأسعارها ، كل ذلك في ذاكرته ، بل قد يقول أحياناً لغلامٍ في المحل : اصعد تجد قطعةً واحدةً بقيت من هذا الصنف فائتني بها . . معنى ذلك أنَّ المحل كلَّه في ذاكرته .

فقل لي : ما الذي تهتمُّ له ؟ أَقُل لك إنَّك تحفظه ، ففي ذلك عدل فقد قال الله تعالى :

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴾ [الأعلى : ٦ـ٧] .

كان عليه الصلاة والسلام إذا أنزل الله على قلبه الشريف سورةً من كتاب الله حفظها من أوَّل مرة ، والذي يحفظ دليل أنَّه مهتم بما يحفظ ، فالأشياء التي لا تعنيك لا تحفظها بل إنك تنساها ، بل إنَّ الذاكرة أمرها عجيب ، فالذاكرة كما قال لي بعضُ الإخوةِ العلماءِ المختصِّين في علم التشريح والفيزيولوجيا ـ علم وظائف الأعضاء ـ : « إنَّ مكان الذاكرة في الدماغ يتَّسع لسبعين مليار صورة ، وهذه الصور مبوَّبة ومصنَّفة ، والذواكر أنواع كثيرة لا حصر لها ، منها الذاكرة السمعية ، والذاكرة الشمِّية ، والذاكرة البصريّة ، وذاكرةٌ للألوان ، وذاكرة للوجوه ، وذاكرة للأسماء ، وذاكرة للأرقام ، وإنَّ هذه الصور مرتَّبة ترتيباً زمنياً » ، فالذي تحتاج إليه كلَّ يوم موضوع في أقرب مكان ، والذي قلما تحتاج إليه يوضع في مكان متوسِّط ، والذي نادراً ماتحتاج إليه في مكان بعيد ، والذي لا تحتاج إليه أبداً يمحى من الذاكرة ، بل إنَّ طريقة الحاسوب في قراءة المعلومات تقليدٌ لطريقة الذاكرة في استرجاع المعلومات .

أنت إذا شممت رائحةً تحاول أن تتعرَّف إلى هذه الرائحة ، فما الذي يحدث في الذاكرة ؟ إنَّ أثر هذه الرائحة يمرُّ على كلٍّ ذاكرات الشم ، أكثر من عشرة آلاف ذاكرة شمِّية ، فحيثما يكن التوافق تقل : إنها رائحة الياسمين ، أو الفل . . وإلى آخره من الروائح .

الذاكرة وحدها من آيات الله العجيبة الدالة على عظمته ، وأنت تتذكَّر الشيء الذي تهتمُّ به ، وهذا عدلٌ من الله عزَّ وجلَّ .

قد تجد إنساناً ، نسَّاء ، كثير النسيان في موضوعات لا تعنيه ، أما في الموضوعات التي تعنيه فكأنَّ ذهنه مسجِّلة ، سريعاً ما يحفظ ، فلذلك إذا اهتمَّ أحدنا بكتاب الله عزَّ وجلَّ يحفظه ، وإذا اهتمَّ أحدنا بالحديث الشريف يحفظه ، وإذا اهتمَّ أحدنا بالمعاني الدقيقة التي هي كنزٌ ثمين والمتعلِّقة بكتاب الله يحفظها .

وقد يقول أحدهم : والله ما سمعت معنىً دقيقاً متعلِّقاً بكتاب الله إلا حفظته ، وهذا الإنسان نفسه قد ينسى أشياء واضحة جداً وقريبة جداً لأنَّها لا تعنيه ، فالمؤمن مشغول بموجبات الإيمان .

قلنا : هذا حافظ من قومٍ حفَّاظ ، أي من الذين رزقوا حفظ ما سمعوا ، والقاعدة : اكتب أجمل ما قرأت ، واحفظ أجمل ما كتبت .

لذلك ، فالإنسان أحياناً يأتي إلى مجلس علم ، فلماذا يطرب لما سمع ؟ لأنَّ هذا الذي أُلقي شفاهاً من الذاكرة أجمل ما كُتب ، والذي كُتب أجمل ما قُرىء ، والذي قُرىء أجمل ما سمع . . فهناك كلام يسمع ، وهذا المسموع كلام فيه الشيء الحسن ، فيه أيضاً كلام يلقى على عواهنه ، ولكن المكتوب أرقى لأنَّه مدروس وهو خلاصة

المسموع ، وخلاصة المكتوب يُحْفَظ .

فأحياناً تجد إنساناً يصغي إلى درس إصغاءً تاماً ، لأنَّ الأمور كلَّها التي تطرح في الدرس هي أجملُ ما تحويه ذاكرة المتحدث ، وهي أجمل التحليلات ، وأجمل التعليقات ، وأجمل الإرشادات .

فقد حدثني أخ قال لي : كنت في أمريكا وهم الآن يسجلون الكتب الثمينة على أشرطة بصوت يحبونه ، فالإنسان أحياناً يكون لديه وقت ميت ؛ وهذا تعريف للوقت الضائع بالتعبير الاقتصادي ، وهذا الوقت هو وقت انطلاقه بمركبته إلى عمله ، ووقت الرياضة أيضاً ، فأصبح هناك بين كل الناس سلوكٌ شائعٌ ، وهو أن يمضي هذا الوقت في طريقه إلى عمله وفي عودته من عمله وفي ساعات الرياضة في سماع شيءٍ ثمين ، وهذا الشريط من نعمة الله على الناس ، فيمكنك أن تستمع إلى درس علم ، أو إلى تفسير ، أو حديث ، أو إلى درس سيرة ، وأنت في بيتك ، أو وأنت تعمل ، أو وأنت في مركبتك ، أو وأنت في السفر ، المؤمن الموفَّق لا يُضيِّع ثانيةً من وقته ، فبإمكانه حتى في الأوقات الميتة أن يستفيد منها في طلب العلم .

قالوا : هناك رجلٌ حافظُ العين ، أي لا يغلبه النوم لأنَّ العين تحفظ صاحبها ، فهو أثناء جلوسه في مكان ، يكون هذا المكان تحت سيطرة عينيه ، أما في الليل فالمكان يصبح تحت سيطرة أُذنيه ، أرأيتم إلى نعم الله عزَّ وجلَّ ، لذلك أصغِ بسمعك للآيات التي قال الله تعالى فيها :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ

سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص : ٧١ـ٧٢] .

﴿اللَّيْلَ﴾ إن الحاسَّة الأولى فيه السمع.. لذلك قال ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾.. والعكس.. الحاسة الأولى في ﴿ٱلنَّهَارَ ﴾ هي العين.. ولذلك قال ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ .

أنت في النهار مسيطرٌ بعينيك.. وفي الليل مسيطرٌ بأُذنيك ، فإذا دخلت فويسقة إلى بيتك ـ الفأرة ـ وقد سماها النبي ﷺ فويسقة ، وماتت تحت السرير فلا تراها عينك ولا تسمعها أُذنك ، فالحاسة الثالثة التي تكشفها لك حاسة الشم ، فأنت بالحواس الخمس مسيطرٌ على العالم الخارجي ، والآلات الحديثة استطالةٌ للحواس.. فالمجهر استطالةٌ للعينين ، وكذلك المنظار ـ التليسكوب ـ .

فمن منكم اطلّع على كتاب الإحياء وهو من أعظم الكُتب التي تركها الغزالي ، هذا الإمام العظيم ، فالإحياء يعدُّ أوَّل كتاب في علم النفس الإسلامي ، ففيه أحوال النفس ، ودقائق النفس ، وأمراض النفس ، وفضائل النفس ، ومناهج لتحلية النفس بالكمال ، وهو من أروع ما كُتب ، ولكن هل تصدِّقون أنَّ الإحياء كتبه الإمام الغزالي من ذاكرته وهو في بلاد الشام ؟! وكذلك زاد المعاد على مافيه من التحريرات الفقهية والدراسات الحديثية ألَّفه ابن القيم في حال السفر لا الإقامة ، والقلب ـ كما قال ـ بكل واد منه شعبة وليس في حوزته المصادر التي ينقل منها ما يحتاج إليها .

إذاً من أوتي حافظةً جيِّدةً فقد أوتي خيراً كثيراً.. وقد علَّمونا ونحن في الجامعة أنَّ الذكاء شيء والذاكرة شيءٌ آخر ، فما كلُّ ذكيٍّ

ذا ذاكرةٍ قويَّة ، وما كلُّ ذي ذاكرةٍ قوية ذكياً . . قالوا : إلاّ أنَّ هناك منطقةً مشتركةً بين دائرتين متداخلتين وهذه المنطقة هي القاسم المشترك بين الذكاء والذاكرة ، فكل إنسان يتمتَّع بذكاء فلا بدَّ من أن يستعين بذاكرة ، وكل إنسان عنده ذاكرة جيِّدة لا بدَّ من أن يكون على شيءٍ ما من الذكاء ، إلا أنَّ الذاكرة شيء ، والذكاء شيءٌ آخر .

قيل مرةً للشيخ : إنَّ فلاناً حفظ كذا . فتبسَّم وقال : زادت نسخةُ نسخةً . فالحفظ وحده لا يقدِّم ولا يؤخِّر ، لكنَّ العقل والتدبُّرَ والفهم العميق هو الذي يرقى بالإنسان .

الحافظ .هو الذي يثبّتك على الطريق البيّن المستقيم الذي لا ينقطع ، ويحفظك على المواظبة عليه ، أمّا الحَفَظَةُ الذين يحصون أعمال العباد ويكتبونها عليهم هم من الملائكة ، والمحافظة : المواظبة على الأمر . . أحبُّ الأعمال إلى الله أدومها وإن قَل .

المحافظة تصنع تراكم المعلومات أو غيرها ، والإنسان بلا تراكم لمعلوماته لا يحقق شيئاً .

عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **سَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَاعْلَمُوا أَنْ لَنْ يُدْخِلَ أَحَدَكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ ، وَأَنَّ أَحَبَّ الأَعْمَالِ إِلَى اللهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ** » . [صحيح البخاري] .

فلو ثَبَتَّ على المجيء لحضور درس ما من دروس العلم فاثْبُتْ عليه تتراكم لديك الحقائق ، وإذا ثبتَّ على صلاة أو على صدقة ، أو ثبتَّ على ذكر ، أو على تلاوة . . فأحبُّ الأعمال إلى الله أدومها وإن قل .

المحافظة . . أي المواظبة على الأمر ، ومنه قوله تعالى :

﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾[البقرة: ٢٣٨].

وقيل: المحافظة هي المراقبة، والمحافظة الذَّبُّ عن المحارم، أي: الدفاع عن المحارم، والمحافظة على العهد الوفاء به والتمسُّك بالودِّ.. هذه اللُّغة، فإذا قلنا الله جلَّ جلاله هو الحافظ، فقد حفظ خلقه وعباده من كلِّ سوء، وحفظ عليهم ما يعملون، وحفظ السموات والأرض بقدرته.. ﴿ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾.. فقد قال تعالى:

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

أحياناً يقول أحدهم: هذا الأمر فوق طاقتي، لا أستطيع أن أستوعبه، ولا أن أُحيط به، ولا أن أديره فهو يحتاج إلى خمسة أشخاص لإنجازه، ولكن الله جل جلاله يقول: ﴿ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾.

وقد قال تعالى في سورة يوسف:

﴿ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف: ٦٤].

وإذا العناية لاحظتك عيونها نَمْ فالمخاوف كلُّهنَّ أمانُ
واصعد بها العنقاء فهي حباله واقتدْ بها الجوزاء فهي عنان

وقيل: قم ـ للعمل ـ فالمخاوف كلُّهنَّ أمان.

إذا حفظك الله عزَّ وجلَّ سخَّر لك كل شيء؛ حتى أعداؤك هم في

خدمتك ، ﴿ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ .

فالإنسان قد يُحكم الأقفال.. كما حدّثوني عن أحد الصاغة ، وهو يعدُّ الأول في صنعته وليس له شبيهٌ ، قام بصنع صندوقٍ صنعه من الحديد بحيث لا يمكن أن يُفتح ، وبقدرة قادر دخل اللصوص وفتحوه وأخذوا كلَّ ما فيه.. فهو قد ظنَّ أنَّ هذا الصندوق ﴿ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ ﴾.. لكنَّ الله هو خير حافظ.. ﴿ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ .

الإنسان كثيراً مايأخذ بالأسباب إلى حدّ غير معقول ويعتمد عليها ، وينسى أنَّ الله هو ﴿ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ ﴾ ، فيؤتى من مأمنه ، يُؤتى وهو في أعلى درجات اليقظة ، يُؤتى الحَذِرُ من المنطقة المطمئن إليها ، وهذا من آيات الله فقد قيل : عرفت الله من نقض العزائم.. جميلٌ جداً أن تأخذ بالأسباب وأن تأخذ الاحتياط ، ولكنَّ الأجمل من ذلك أن تأخذ بالأسباب وأن تعتمد على الله الواحد القهّار ، أن يكون اعتمادك على الله حقاً مع الأخذ بالأسباب .

أحياناً يقولون : قمنا بعمل مراجعة كاملة على السيارة فاطمَئِنْ ، فتقطعه في الطريق ، وأحياناً تُجرى عليها مراجعة كاملة ويقول صاحبها أنت يا رب المسلِّم وأنت الحافظ.. فالقضية قضية دقيقة ؛ فاعقل وتوكل . فيجب أن تأخذ بكلِّ الأسباب وألا تعتمد في حفظها لك إلا على الله عزَّ وجلَّ .

﴿ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ ﴾.. إعراب حافظاً : تمييز.. أي : اللهُ خيرٌ ، خيرٌ معطياً ، خيرٌ آخذاً ، خيرٌ حافظاً و﴿خيرٌ﴾ لفظٌ مبهم ، لولا التمييز لصدق على أشياء كثيرة.. ﴿ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾.. أي حفظٌ مطلق .

قد يسافر الإنسان ؛ فَهلْ في الأرض جهةٌ يمكن أن ترافقه وأن تخلفه في بيته وسفره معاً وفي وقت واحدٍ ؟ مستحيل ذلك إلا على الله ، فإذا سافر الإنسان يقول : اللهمَّ أنت الصاحب في السفر ، والخليفة في الأهل .

وقد يتعرض طفل صغير لحادث ؛ كأن يقع على رأسه إبريقٌ من الشاي الساخن ويشوِّه وجهه ، وكلَّما ألقى الأب على ابنه نظرةً شعر بحرقةٍ في قلبه ، فالإنسان أثناء سفره يفكر هل أهله بخير ، ويضرع إلى الله ألا تكون هناك مشكلة لديهم ، ويسأل هل هم مستقرّون في البيت ، وهل حدث لهم حادث مزعج . . فمن الذي يحفظ أهلك في غيبتك ؟ الله جلَّ جلاله . فأنت إذا سافرت حتى تكون مطمئناً فوّض الأمر إلى الله وادعُ بهذا الدعاء : اللهمَّ أنت الصاحب في السفر ، والخليفة في الأهل اللهم اصحبنا في سفرنا واخلفنا في أهلنا . .

كلام ربنا كلام رائع جداً : ﴿ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗا ﴾ . . يحفظ لك صحّتك ، ويحفظ لك مالك . . وقد يسافر المرء إلى بلد بعيد ومعه أموال طائلة ، وفيه يقظة وحرص وانتباه ولا ينقصه شيء ، فتسرق محفظته وفيها كل لوازمه الشخصيّة من جواز للسفر ، للشيكات المصرفية ، والمعاملات والوثائق الضرورية ، وبطاقة الطائرة ، فيصبح شريداً متسكِّعاً في الطرقات . . ﴿ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗا ﴾ . . أي يحفظ لك صحّتك ، ويحفظ لك أهلك وأولادك ، ومالك ، وبيتك ، ومحلَّك ، ومستودعك ، وبضاعتك ، وسمعتك ، ومكانتك . . ﴿ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗا ﴾ .

كن لي كما أريد أكن لك كما تريد . . كن لي كما أريد ولا تُعْلِمني بما يُصلحك .

وهذه الآية الكريمة وردت على لسان سيدنا يعقوب فقد قال تعالى : ﴿ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾أي فالله خيرٌ حافظاً يحفظ ابني يوسف ، وسيرحم كِبَرِي وضعفي ووجدي بولدي ، وأرجو من الله أن يردَّه علي ويجمع شملي به إنَّه أرحم الراحمين .

لذلك فاليأس من رَوْح الله كُفر ، اليأس والقنوط يساويان الكُفر ، قال تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف : ١٧] .

وقال تعالى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ [الحجر : ٩] .

هذا قرآننا الكريم الذي نزل على سيِّد المرسلين هو هو الذي بين أيدينا ، ليس فيه حرفٌ زائدٌ ولا حرفٌ ناقصٌ ، وجميع المحاولات التي جرت لتغيير كلماته أخفقت ، فقد طُبع في العهد العثماني خمسون ألف نسخة حذفت منها كلمة واحدة من سورة آل عمران في قوله تعالى : ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾[آل عمران : ٨٥] .

وقد حذفوا كلمة واحدة ولم يطبعوها وهي كلمة ﴿غَيْرَ﴾ فأصبحت الآية : ﴿وَمَن يَبْتَغِ . . . . . ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ فأتلفت النسخ وأحرقت ، فالله ـ عزَّ وجلَّ ـ تولَّى بذاته حفظ كلامه ، فلا يمكن لجهةٍ في الأرض أن تُبدِّل أو أن تغيِّر فيه ، وليس معنى هذا أنَّه لا تجري محاولات بل تجري وما أكثر ما تجري ، ولكنَّها لا تنجح ، ولن تنجح بإذن الله .

وقد قال العلماء أيضاً : « من لوازم حفظ القرآن الكريم حفظ سنَّة

رسول الله ﷺ لأنها مبيِّنة » ، فالقرآن قانون والسُّنة معه كمرسوم تفسيري تشريعي ، إذا حافظنا على القانون ولم نحافظ على المرسوم لم نستفد من ذلك شيئاً ، لأنَّ القانون مُقنِّنٌ والمرسوم مفسِّر . . فمن لوازم حفظ كلامه حفظ سنَّة نبيِّه ﷺ . .

لذلك هؤلاء العلماء الأجلاَّء أمثال البخاري ومسلم وابن ماجه والترمذي والإمام مالك وغيرهم ، هؤلاء العلماء الذين شمَّروا ودرسوا حديث رسول الله ﷺ ودرسوا أحوال الرجال ، وصنَّفوا ، وعدَّلوا وجرّحوا ، واعتمدوا قواعد دقيقة جداً لتدوين الحديث ، هؤلاء أعانهم الله على أعمالهم ، ويسَّر الله لهم عملهم ، لأنَّه تولَّى بنفسه حفظ كتابه وحفظ سُنَّة نبيِّه ﷺ . . لقوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ .

وفي سورة الأنبياء ، يقول الله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٢] .

أي مدققين فيما يعملون ومراقبين لهم . والحفظ له معنيان : إما أن أحفظ كلَّ ما تفعله وكلَّ ما تقوله ، وأسجل عليك كلَّ ما تفعله وكلَّ ما تقوله ، وإما أن أحفظك من كلِّ مكروه . . فالمعنى الأول هو العلم ، والمعنى الثاني هو التربية ، أي حفظٌ في الذاكرة وإحصاء ، وحفظٌ من كل مكروه وأذيّة .

قال الله تعالى : ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾ [الرعد : ١١] .

﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ ﴾ . . من كل سوء . . ﴿ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ ﴾ ، يعني أن هؤلاء الحفظة يؤدون عملهم بأمر من الله .

وفي سورة البروج ، قال الله تعالى :

﴿ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ۝٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ﴾ [البروج : ٢١-٢٢] .

فهذا اللوح المحفوظ ، اختلف العلماء في تفسيره ، فأقرب ما يكون أن المبادىء الكبرى التي خلق الله الخلق وَفقها ، والسنن العظمى التي سنَّها الله في تعامله مع خلقه ، هي في اللوح المحفوظ ، ومن باب التقريب والتوضيح ؛ أن أمةً عظيمةً لها دولةٌ كبيرة ولها أجهزةٌ بالغة الدقة ، لا بد لها من دستورٍ فيه كلُّ الأمور الأساسية ، ويصدر مع هذا الدستور قوانين كثيرة ومراسيم تشريعية ، ومراسيم تفسيرية ، ومراسيم تنظيمية ، إلا أن الأصل أن كلَّ القوانين تنطلق من الدستور ، مثلاً حرية الكلمة ، حرية العمل ، حرية التعلُّم ، حرية التعبير هذه كلها في الدستور ، ثم القوانين تفسرها وتوضِّح كيفية الأخذ بها ، فاللوح المحفوظ يضم المبادىء العظمى ، والسنن الكبرى التي يتعامل الله بها مع خلقه في اللوح المحفوظ .

الإمام الحسن البصري يقول : « **إن هذا القرآن المجيد عند الله في لوحٍ محفوظ ، يُنَزِّل منه ما يشاء على من يشاء من خلقه** » .

ويقول الله تعالى في سورة النساء عندما يتحدث عن الأسرة وقوامة الرجل في بيته وأهلِهِ :

﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ

نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء : ٣٤] .

فأرقى صفة في المرأة أنها تحفظ زوجها ، تحفظ عرضها في غيبة زوجها ، وتحفظ مال زوجها في غيبته ، وتحفظ سرَّ زوجها ، وتحفظ نفسها .

المرأة الصالحة تحفظ نفسها ، لا تسمح لأجنبيٍّ أن ينظر إليها ، لا تلين ولا تخضع بالقول للبائع إذا اشترت ، لا تضرب برجلها ليظهر ما يَخْفى من زينتها ، كلامها جاد ، مشيتها جادة ، نظراتها مستقيمة ، لا يزيغ بصرها ، لا تسمح لأحدٍ أن يطمع فيها . . فقد قال تعالى :

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [الأحزاب : ٣٢] .

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور : ٣١] .

أما هذه التي تبدو بأكمل زينة ، تثير كلَّ الناس حولها ، لسان حالها يدعو الآخرين إلى التحرش بها ، هذه المتبرجة ، المتفلِّتة التي لا ترعى حقَّ الله في خروجها ، فلسان حالها يدعو الناس إلى الدنو منها والطمع فيها ، فالمرأة المؤمنة تحفظ نفسها ، وتحفظ مال زوجها ، وتحفظ سرَّ زوجها .

روي في الحديث الشريف « **إني لأبغض المرأة تخرج من بيتها تجر ذيلها تشكو زوجها** » .

عَنْ ثَوْبَانَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « **الْمُخْتَلِعَاتُ هُنَّ الْمُنَافِقَاتُ** » وَرُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « **أَيُّمَا امْرَأَةٍ اخْتَلَعَتْ مِنْ زَوْجِهَا مِنْ غَيْرِ بَأْسٍ لَمْ تَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ** » [سنن الترمذي] .

وعن ابن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « **لا ينظر الله تبارك وتعالى إلى امرأة لا تشكر لزوجها وهي لا تستغني عنه** » [رواه النسائي] .

فالآية الكريمة : ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّۖ ﴾ .

حدثني أخ يعمل في طلاء البيوت قال لي : كنا مجموعة من العمال نعمل في البيت وبه غرفة مغلقة من الداخل ، الرجل حريص على أهل بيته وفي تلك الغرفة زوجته ، قال : في أثناء غيبته خرجت بثيابٍ لا يعقل أن يراها فيها إلا زوجها ، ثياب شفافة ، إنها متفلّتة خرجت بين الشباب في غيبة زوجها ، فإن هذا السلوك لا يكون من مؤمنة ، المؤمنة تحفظ نفسها ، وتحفظ سرَّ زوجها ، وتحفظ مال زوجها ، وتحافظ على سمعته وكرامته من خلال حشمتها وصونها لذاتها .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « **خير النساء التي إذا نظرت إليها سرتك ، وإذا أمرتها أطاعتك ، وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك** » قال : وتلا هذه الآية ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ﴾ إلى آخر الآية .

والحفظ أيضاً ورد في القرآن الكريم : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴾ [الصافات : ٦ـ٧] .

أي إذا استرق الشيطان السمع أتبعه شهابٌ ثاقب .

ما منّا واحدٌ إلا ويتمنى أن يحفظه الله . . إلا أن النبيّ عليه الصلاة والسلام كان أديباً مع الله كان يدعو ويقول :

« مَنْ كَانَتْ لَهُ حَاجَةٌ إِلَى اللهِ أَوْ إِلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ فَلْيَتَوَضَّأْ وَلْيُصَلِّ رَكْعَتَيْنِ ، ثُمَّ لِيَقُلْ : لا إِلَهَ إِلا اللهُ الْحَلِيمُ الْكَرِيمُ ، سُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ، الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مُوجِبَاتِ رَحْمَتِكَ ، وَعَزَائِمَ مَغْفِرَتِكَ وَالْغَنِيمَةَ مِنْ كُلِّ بِرٍّ وَالسَّلامَةَ مِنْ كُلِّ إِثْمٍ ، أَسْأَلُكَ أَلا تَدَعَ لِي ذَنْباً إِلا غَفَرْتَهُ ، وَلا هَمًّا إِلا فَرَّجْتَهُ ، وَلا حَاجَةً هِيَ لَكَ رِضاً إِلا قَضَيْتَهَا لِي ، ثُمَّ يَسْأَلُ اللهَ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ مَا شَاءَ فَإِنَّهُ يُقَدَّرُ » . [سنن ابن ماجه] .

والحفظ له موجبات ؛ احفظ الله يحفظك ، هذا هو أهم مافي البحث الذي نحن بصدده ، احفظ أمر الله يحفظك الله عزَّ وجلَّ . . إذا سألت فاسأل الله ، وإن استعنت فاستعن بالله . . أما الأساس فهو أنَّك لن تستطيع أن تصل إلى حفظ الله عزَّ وجلَّ إلا إذا حفظت أمره ، يراك حيث أمرك ويفقدك حيث نهاك ، إن حفظت أمر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فالله يحفظك ، وحفظ الله شامل يحفظ لك عقلك من أن يصيبه الخلل ، يحفظ لك حواسَّك وأعضاءك ، يحفظ لك زوجتك وأولادك ، يحفظ لك بناتك ، يحفظ لك مالك ، يحفظ لك سُمْعتك ، يحفظ لك دينك ، يحفظ لك كرامتك .

ياابن عمر ، لا يغرنك ما سبق لأبويك من قبل ، فإن العبد لو جاء

يوم القيامة بالحسنات كأمثال الجبال الرواسي ظن أنه لا ينجو من أهوال ذلك اليوم ، يا ابن عمر ، دينك دينك إنما هو لحمك ودمك ، فانظر عمن تأخذ ، خذ الدين عن الذين استقاموا ، ولا تأخذ عن الذين مالوا .

أيضاً هذا الاسم محبب للإنسان . . فالإنسان حينما يرى كل شيء له محفوظاً فهذه هي الاستقامة ، وعزة الاستقامة ، الاستقامة عين الكرامة ، أنت إذا استقمت على أمر الله حفظ الله لك كلَّ شيء ، أنت في ظلِّ الله . . ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ . . فقد قال الله تعالى :

﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ [الطور : ٤٨] .

هذه الآية موجَّهةٌ للنبي عليه الصلاة والسلام ، وكلُّ آيةٍ موجهةٍ للنبي عليه الصلاة والسلام ، للمؤمن منها نصيبٌ على قدر استقامته وإيمانه وإخلاصه . . ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ . . وإذا كان الله معك فمن عليك ، وإذا كان عليك فمن معك ، وحفظ الله يغني عن كلِّ شيء .

فالنبي عليه الصلاة والسلام وهو في غار ثور كان دمه مهدوراً ، مئة ناقة لمن يأتي به حياً أو ميتاً ، ودخلا إلى غار ثور ، قال الصديق : لو نظر أحدهم إلى موطىء قدمه لرآنا . قال النبي الكريم ﷺ : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾[التوبة: ٤٠] ، حفظه الله ، فقد تبعه سراقة على حصانه ، غاصت قوائمه في الرمل ، طلب الأمان لكنه عاد ثانيةً فغاصت قوائم فرسه في الرمل ثانيةً فاستسلم لأمر النبي ﷺ .

فإذا كان الله معك فمن عليك ؟ إذا حفظك الله فأي شيء يضرك ؟! واللهِ ليس في الأرض كلها جهةٌ مهما قويت تستطيع أن تصل إليك ، وإذا تَخلّىَ الله عنك ، فقد أسلمك لعدوك ، فقد قال الله تعالى :

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ [التوبة : ٢٥] .

أنت في كلِّ يوم لك حالان مع الله ، حال التولِّي ، وحال التخلِّي ، إذا قلت : أنا ، أصابك التخلِّي ، وإذا قلت : الله ؛ نالك التولِّي ، أي إذا وحَّدت الله تولاَّك الله ، وإذا اعتددتَ بنفسك ، بمالك ، بقوتك ، بعلمك ، بذكائك ، بخبرتك تخلَّى الله عنك . تخلَّى عن أصحاب رسول الله ﷺ يوم حنين وفيهم النبي ﷺ .

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ ، بينما في بدر قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [آل عمران : ١٢٣] .

فقد كانوا يوم بدر في غاية الضراعة والذلّة بين يدي الله عز وجل فنصرهم وأيّدهم .

أمّا ملخص الملخص . . . فإنه ما منا واحدٌ دون استثناء إلا ويتمنى أن يحفظه الله ، أن يحفظ له صحته ، هناك أمراض عُضالة إذا ألمّت بالإنسان جعلت حياته جحيماً لا تطاق ، يتمنَّى كلٌّ منا أن يحفظ الله له صحته ، وأهله وأولاده وبناته وأصهاره وبيته وماله وتجارته وسمعته ومكانته .

قد تسمع أخباراً كأنها الصاعقة يرتجف منها كل إنسان عاقل . . قال لي رجل ابنتي حاملة ، [نقول حامل إذا أردنا الوصف الحقيقي فإذا حملت شيئاً على ظهر أو رأس فهي حاملة لاغير] ، ابنتي حاملٌ من ابني . أين مكانته أمام

الأسرة ، الابن في السجن والبنت في المشفى هذه مشكلة ، مشكلة كبيرة جداً ، وإني أعقّب على هذا فأقول : لقد قصّر في تربية أولاده ومراقبتهم والالتجاء إلى الله ليعينه على توجيههم ، وتخلى عن الله ، فتخلى الله عنهم وعنه ! و هنالك إنسان سمعته طيبة بيته نظيف ، علاقاته كلها إيجابية ، وعمله جيد ، محفوظ في مكانته وسمعته ، موفَّق في عمله ولعل هذا حفظَ اللهَ فحفظ اللهُ عليه بيته وأهله فقد قال يعقوب لأولاده كما حكى الله عنه : ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ .

لا تعتمد على غير الله في الحفظ ولا في أيّ أمر من أمورك ، أما القول الفيْصل : احفظ الله يحفظك ، أي كن لي كما أريد ، أكن لك كما تريد ، عبدي أنت تريد وأنا أريد ، فإذا سلّمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد ، وإن لم تسلّم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد .

* * *

الأكْرَم

من أسماء الله الحُسنى الأكرم ، قال الله تعالى :

﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ [العلق : ٣ـ٤] .

الأكرم : من أسماء الله الحُسنى ، لكنَّ هذا الاسم زائدٌ على الأسماء التسعة والتسعين المعروفة ، قريبٌ من هذا الاسم اسم الكريم ، وقريبٌ من هذا الاسم ذو الجلال والإكرام .

ويجب أن نعلم ويعلم كل مؤمن علم اليقين أنه مامن موضوعٍ في الدين يرقى إلى مستوى أن تعرف أسماء الله الحُسنى ، لأنَّ الله عزَّ وجلَّ هو القصد . . إلهي أنت مقصودي . . ورضاك مطلوبي ، ولأن الإنسان سوف يكون في معية الله عزَّ وجلَّ إلى أبد الآبدين ، فكلَّما ازدادت معرفته في الدنيا بربِّ العالمين سعد بقربه ، وكان في عداد أوليائه المقرَّبين ، فقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾[القمر : ٥٤ـ٥٥] .

لينظر كل مؤمن مليًّا إلى بعض الأشخاص كيف أنه يفخر إذا كانت له مكانةٌ عند إنسانٍ قوي ، لا يفتأ يتحدَّث عنه وعن علاقته به وعن مكانته عنده وعن حظوته لديه ، فكيف إذا كانت لك مكانةٌ عند خالق السموات والأرض ، الله ـ جلَّ جلاله ـ يقول :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ [مريم: ٩٦].

أنت في الدنيا تتعرف إلى الإنسان بعينيك ، ترى قامته ، ولون جلده ، لون عينيه ، شعره ، أناقته ، ثيابه ، تحدِّثه ويحدِّثُك ، تكلِّمه ويكلِّمُك ، تعامله ويعاملك ، تسافر معه ، وإن تجاوره تعرفه أكثر فأكثر ، فكيف السبيل إلى معرفة الله من أجل أن تحبه ، من أجل أن تخاف منه ، من أجل أن تعظمه ، من أجل أن تخضع له ، من أجل أن تجعله نهاية المطاف ، وأن تجعله هدفك الأول والأخير ، من أجل أن تعرف أنه هو الأول والآخر والظاهر والباطن وأنَّه بكلِّ شيء عليم ، من أجل أن تعرف الله ، من أجل أن تسعد بقربه ، من أجل أن تُفني شبابك في طاعته ، من أجل أن تُمضي حياتك في خدمة خلقه يجب أن تعرفه ، لذلك ما من عملٍ ، ما من جهد ، ما من نشاطٍ فكريٍّ يعلو على عمل يؤدي بك إلى أن تعرف الله حقاً .

الحقيقة وهذه أقولها كثيراً . . المعرفة المختصرة لا تقوى على حملك على طاعته ، فلابُدَّ من أن تتبحر في المعرفة من أجل أن تعرف من هو الله . . الله عزَّ وجلَّ يقول :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ [الطلاق : ١٢] .

﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾

[النحل : ٦٥]

﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾ [الروم : ٥٤] .

ماذا يريد الله من هذه الآيات ؟ أي : يا عبادي اعرفوني ، بيدي

الشمس والقمر ، بيدي الليل والنهار ، بيدي خلقكم وبعثكم ، حياتكم وموتكم ورزقكم ، بيدي المطر ، بيدي الصحة والمرض ، بيدي كلّ شيء فلا تلتفت إلى سواي .

فلذلك عندما يعرف الإنسانُ اللهَ عزَّ وجلَّ وهو يدري من هو ويقدر لله قدره ، وهو يعلم علم اليقين أنه ربُّه وخالقه ، تجده قد التزم منهجه بشكلٍ صحيح ، أقبل عليه ، ابتغى مرضاته ، سعى إلى طاعته .

إذاً : فهذه المقدمة تتلخص في أنه لا شيء يعلو على أن تعرف الله سبحانه ، إنك إن عرفته أطعته ، وإن أطعته أقبلت عليه ، وإن أقبلت عليه سعدت بقربه ، وإن سعدت بقربه تاقت نفسك إلى الجنة .

سيدنا عمر بن عبد العزيز يقول : تاقت نفسي إلى الإمارة فلما بلغتها تاقت نفسي إلى الخلافة ، فلما بلغتها تاقت نفسي إلى الجنة ، معنى ذلك أنه أراد الإمارة والخلافة لتكونا مطيَّتين إلى الجنة. . فلما بلغتهما تاقت نفسي إلى الجنة .

من الملاحظ بداهةً أنه في مقتبل العمر تكون الأمور متشابهة عند جميع الناس إلى حد بعيد. . فالشاب في أول حياته يكون خطُّه البياني في صعود وارتقاء ، لكن بعد حين يبدأ الخط البياني الصاعد يسير مستقيماً ثم يبدأ ينحدر ، فإنه عندئذ يؤذن ببدء النهاية ، نهاية المطاف وهي صعبة جداً ، إلا لمن أمضى حياته في طاعة الله ، فالمغادرة لا تحتمل إلا لمن قدم بين يديه أعمالاً صالحة كبيرة .

الاسم هو « الأكرم » ، والأكرم اسم تفضيل. . قال الله تعالى : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ من الكرم ، والكرم ضدُّ اللؤم .

بالمناسبة الأخلاق لها مفردات مثل : الشجاعة ، أو الصبر ، أو الحلم ، وتحمل بعض الصفات الإنسانية معاني جامعة ، فمثلاً المروءة. . صاحب المروءة كريم ، صاحب المروءة عفيف ، صاحب المروءة شجاع ، صاحب المروءة يلبِّي حاجة الضعيف ، صاحب المروءة ذو نجدة ، صاحب المروءة يبادر إلى إغاثة اللهفان ، كلمة مروءة ، كلمة تشمل عشرات الصفات. . أما اللؤم والعياذ بالله ، بخل على جبن على كِبْر على أَثَرَةٍ على قسوة على دناءة .

فكما قال سيدنا علي بن أبي طالب : والله والله مرتين لحفر بئرين بإبرتين. . هل يمكن حفر بئر بإبرة ؟!! حفر بئرين بإبرتين ، وكنس أرض الحجاز في يومٍ عاصفٍ بريشتين ، ونقل بحرين زاخرين بمنخلين ، وغسل عبدين أسودين حتى يصيرا أبيضين. . أهون عليَّ من طلب حاجةٍ من لئيمٍ لوفاء دين .

هل تعلمون ماهو الذل ؟ الذل أن يقف الكريم باب اللئيم ثم يرده ، أنت كريم احتجت إلى لئيم فالأمر لا يحتمل ، وهناك أناس كرام لا يسمح أحدهم لنفسه أن يقف موقف ضعفٍ أمام لئيم ولو ضاعت منه الدنيا بأكملها .

فإذا كنت واقفاً على إشارة المرور الحمراء انتظر دقيقتين حتى تلوح الخضراء ، خير من أن تقف موقفاً أمام إنسانٍ سيحاسبك بقسوة إن خالفت ، الإنسان المؤمن كريم ، لا ينبغي للمؤمن أن يُذل نفسه ولا ينبغي له. . اطلبوا الحوائج بعزَّة الأنفس فإن الأمور تجري بالمقادير. . من جلس إلى غنيٍّ فتضعضع له ذهب ثلثا دينه .

إليكم هذه القصة التي من المناسب أن أذكرها لكم. .

روي أن رجلاً من الأنصار جاء إلى النبي ﷺ يسأله فقال : ـ لك في بيتك شيء ، قال : بلى ، حلس نلبس بعضه ونبسط بعضه ، وقدح نشرب فيه الماء ، قال : (ائتني بهما قال فأتاه بهما فأخذهما رسول الله ﷺ بيده ثم قال(من يشتري هذين ؟) فقال رجل أنا آخذهما بدرهم قال(من يزيد على درهم ؟) مرتين أو ثلاثاً قال رجل : أنا آخذهما بدرهمين . فأعطاهما إياه وأخذ الدرهمين فأعطاهما الأنصاري وقال اشتر بأحدهما طعاماً فانبذه إلى أهلك واشتر بالآخر قدوما فأتني به ففعل فأخذه رسول الله ﷺ فشد فيه عوداً بيده وقال (اذهب فاحتطب ولا أراك خمسة عشر يوماً) فجعل يحتطب ويبيع فجاء وقد أصاب عشرة دراهم فقال(اشتر ببعضها طعاماً وببعضها ثوباً ثم قال : هذا خير لك من أن تجيء والمسألة نكتة في وجهك يوم القيامة ، إن المسألة لا تصلح إلا لذي فقر مدقع أو لذي غرم مفظع أو دم موجع .

[رواه أبو داود وابن ماجه]

العلماء فسروا هذا الموقف.. أن الإنسان إذا قلق على أهله يضعف إنتاجه فهو لا ينتج ، أما حينما يوفر الطعام لأهله فإنه يعمل وينتج .

النبي عليه الصلاة والسلام قال له : « **اشترِ بأحدهما طعاماً فانبذه إلى أهلك واشترِ بالآخر قدُوماً واذهب فاحتطب** » ، عاد بعد سبعة أيام وقد جمع عشرة دراهم ، قال : « **هذا خيرٌ لك من أن تجيء والمسألة نكتة في وجهك يوم القيامة** » ، علمه درساً في التعفف عن المسألة ، كما علّمه أنّ عليه أن يقرع أبواب الرزق التي شرعها الله لعباده .

فالإنسان إذا فتح على نفسه باب مسألةٍ ، فتح الله عليه باب فقرٍ .

لأن الذي أعطى غيرك سوف يعطيك.. فالذي يلفت نظري أن شاباً مؤمناً تكون الطرق كلها أمامه مغلقة ، فيطرق باب الله تعالى قائلاً : ياربّ! الأمر بيدك وقد تعلق قلبه ورجاؤه بالله فهل يرده الله خائباً ؟ لا . لن يرده الله إلا موفوراً .

قال لي أخ كريم : صليت قيام الليل ودعوت الله من أعماقي أن يرزقني كي أتزوج ، وذكر لي : أنه يملك محلاً في أطراف المدينة لتصليح مكيّفات ، ولكنه لا يطرق باب محلّه ولا زبون واحد ، وتابع قائلاً : وأنا على أحر من الجمر أريد الزواج ، وخطبت فتاة صالحة وممتازة ، لكنها تنتظر مني أن أعطيها شيئاً ، وأن أخطبها رسمياً ، وأن أعقد العقد ، وأيقنت ألا ملجأ ولا ملاذَ إلا الله ، فهو الملجأ والملاذ ولا أحد سواه ، فقمت ذات ليلة وصليت ركعتين في جوف الليل ، وسألت الله في السجود أن يرزقني رزقاً حلالاً طيباً كي أتزوج ، ولم يلبث وهو يقص القصة أن بكى ، وقال : والله خلال مدة عشرين يوماً حَصلتُ على سبعين ألف ليرة من المحل نفسه ، ثم قال : وتهافت الزبائن على المحل بعضهم لتصليح جهازه أو لتركيب أجهزة جديدة وجرى بيع كثير ، وكان قد مضى على المحل مفتوحاً سنتان ، وكانت أموري خلالها بائسة ، ثم بالدعاء والابتهال فتح الله ما كان مغلقاً ، والأمر بيد الله عزَّ وجلَّ .

إن الحديث الذي أذكّر به دائماً وهو من أدقِّ الأحاديث :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « لَوْلا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ مَعَ الْوُضُوءِ ، وَلأَخَّرْتُ الْعِشَاءَ إِلَى ثُلُثِ اللَّيْلِ أَوْ نِصْفِ اللَّيْلِ فَإِذَا مَضَى ثُلُثُ اللَّيْلِ أَوْ نِصْفُ اللَّيْلِ نَزَلَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا

جَلَّ وَعَزَّ فَقَالَ : هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ ؟ هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأُجِيبَهُ ؟ » [مسند الإمام احمد] .

لأيامٍ طويلة ربنا عزَّ وجلَّ ولحكمةٍ بالغة يُقَطِّعُ آمالك من الخلق ، فإذا يئست منهم فتح لك بابه ، فأنت كن ذكياً ألمعياً واتجه إليه مباشرةً ولا تطرق باب الخلق أصلاً .

إذاً : الكرم ضدُّ اللؤم. . والكرم في أدق تعاريفه فِعلُ ما ينبغي لا لغرض .

أكثر الأجانب أذكياء جداً قد ينتزعون إعجابك بدقَّة مواعيدهم ، وبإتقان صنعتهم ، لكن غرضهم الربح ، غرضهم التنمية بالتعبير الاقتصادي الحديث ، غرضهم رفع مستوى الأرباح ، لذلك يعتنون جداً بصناعتهم وبتجارتهم وبمواعيدهم وبإتقان منتجاتهم . هم يفعلون ما ينبغي ولكن يفعلونه لغرض. . أما الكرم فهو أن تفعل ما ينبغي لا لغرض قال الله تعالى :

﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾ [الإنسان : ٩] .

فمن وهب المال لجلب النفع ، أو لدفع الضُرِّ ، أو للخلاص من ذمٍّ فليس بكريم ، وبعد ، إذا عمل الإنسان عملاً بطولياً ، كأن يقول لك : هذا لأغراض انتخابية ، فهذا ليس بطولياً. . وفي العالم كله إذا عمل إنسان عملاً بطولياً فهو بمقياس الناس عمل إنساني ، ما الذي يفرغه من مضمونه ؟ أنه لأسبابٍ انتخابية فقط ، إذا تداعى العمل وهوى صاحبه ، فهذا معنى إحباط العمل. . أما المؤمن فإنه يفعل الأعمال الصالحة ابتغاء مرضاة الله لا لمديحٍ ولا لثناءٍ ولا لمكافأةٍ ولا لذكرٍ يجري بين الناس .

والعلماء قالوا : من وهب المال لجلب نفعٍ أو دفع ضرٍ أو خلاصٍ من ذمٍّ فليس بكريم. . وأكرمه إكراماً أي عظَّمه ونزَّهه ، والكريم هو الصفوح عند الذنب ، والكرم إذا وصف به إنسان فهو اسمٌ لأخلاقٍ عديدة وأفعالٍ محمودة تظهر منه ، اسم جامع كالمروءة ، في حين أن اللؤم اسم جامع لمفردات من الأخلاق الخسيسة ، فاحذر اللؤم فإنه صفة مرذولة ، وكن كريماً ، فإن الكرم صفة من صفات الله الحميدة .

قالوا : الكرم يقترب من الحرية ، الحرية صفة مديح ، فلان حرّ ، الإنسان إذا خضع لنزواته ليس حراً فهو عبد ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « تعِس عبد الدرهم » أي عبد المال .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيصَةِ ، إنْ أُعْطِيَ رَضِيَ ، وَإنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ » .

فالإنسان أحياناً يخضع لنزواته ، إذاً هذا ليس حراً بل هو عبدٌ ، الإنسان يخضع لعصبيته الضيّقة ، فابنه مثلاً على حق ولو كان أسوأ الناس ، ورفيق ابنه على باطل ولو كان أحسن الناس ، وهذا الشيء يظهر عند النساء تثني على ابنتها وتمدح ابنتها ، وأنّ ابنتها ليس أرقّ ولا أحسن منها بين بنات الناس ، وابنتها فهيمة ، وابنتها طبَّاخة ، وابنتها مثقَّفة ، وابنتها وابنتها. . وحينما تتزوج هذه البنت يبدو منها مالا تحمد عقباه ، فهذه المرأة ليست إذاً حرة ، لأنها تزوِّر الحقائق بدافع من عصبيةٍ ضيقة .

من هو الحرّ ؟ الذي ينطق بالحقيقة ولو أنها مرة . من هو الحرّ ؟ الذي ينصف الناس من نفسه ، فكلمة حر أي لا يخضع لهوى ،

لا يخضع لنزوة ، لا يخضع لضغط ، لا يخضع لفقر ، لا يخضع لطمع ، الطمع أذلَّ رقاب الرجال ، كاد الفقر أن يكون كفراً ، الإنسان يحبُّ عشيرته ، وأبناء ملَّته ، وأبناء جلدته يحبهم إلى درجة الكذب والنفاق ، ويكره أعداءه إلى درجة الظلم يجحف بحقِّهم ، من هو الحرّ ؟ الذي ينطق بالحق ولو كان مراً .

إلا أن العلماء قالوا : « **الحرية تقال في المحاسن الصغيرة والكبيرة ، والكرم لا يقال إلا في المحاسن الكبيرة ، كمن ينفق مالاً في تجهيز جيشٍ في سبيل الله** » . . ، حينما جهَّز عثمان بن عفَّان رضي الله عنه الصحابيُّ الجليل جيشَ العسرة بأكمله قال رسول الله ﷺ : « **ما ضرَّ عثمان ماعمل بعد اليوم** » ، فالنبي عليه الصلاة والسلام كان يقدِّر المعروف .

أحياناً يقدم إنسان خدمات إلى المسجد مثلاً ، أويقدم خدمات لدعوة ، يقوم بعمل طيب ، يسهم في خدمة الآخرين ، فالله سبحانه وتعالى لا يضيع أجر من أحسن عملاً ، وأنا لا أنسى أبداً الآية الكريمة التي تذكر أن امرأة عمران وهبت ما في بطنها محرّراً لله تبارك وتعالى ، قال سبحانه :

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [آل عمران : ٣٥] .

هل هناك شخصٌ ليس له ميزة . مستحيل ، هذا يتقن الرياضيّات ، وآخر يتقن العلوم ، وثالث اللغات ، وهذه المرأة تتقن الطبخ مثلاً ، إنها امرأة أصيبت بمرضٍ خبيث في دماغها وشفاها الله عزَّ وجلَّ فنذرت لله عزَّ وجلَّ أن تعمل صالحاً ، فقيرة لا تملك من حطام الدنيا

شيئاً ، فاستأجرت غرفة وصارت تطبخ الطعام الشهي النفيس وتبيعه للأسر الغنية التي تحب أن تأكل طعاماً بيتياً ، وبالربح صارت تعالج المرضى ، هذا مثل حي وناطق.. امرأة لا تملك إلا فنَّ الطبخ وظّفت هذه القدرة في العمل الصالح وبدأت تسدِّد نفقات عمليات وخدمات للفقراء المرضى فقد تقرَّبت إلى الله بطبخها .

هل يوجد إنسان ليس له ميزة ؟ ؟ . امرأة عمران ماذا تملك ؟ تملك مافي بطنها قالت : ربِّ إني نذرت لك مافي بطني محرراً .

في مجتمعنا أخ محامٍ ، وأخ طبيب ، وأخ مهندس ، وأخ مدرس ، وإنسان حالته المادية جيدة ، وإنسان عنده قدرة على الإقناع ، وإنسان عنده خبرات معيَّنة ، فتجد الحياة تحتاج إلى تعاون ، قدِّم شيئاً ما لله عزَّ وجلَّ ولا تعجز .

عن ابن الخصاصية السدوسي قال : أتيت رسول الله ﷺ أبايعه **فاشترط علي أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وتصلي الخمس وتصوم رمضان وتؤدي الزكاة وتحج البيت وتجاهد في سبيل الله فقلت : يارسول الله أما اثنتان فلا أطيقهما : الزكاة فوالله مالي إلا عشر ذود (ذود : جمال) هن رسل أهلي وحمولتهم ، وأما الجهاد ؛ فيزعمون أنه من ولى الدبر فقد باء بغضب من الله فأخاف إذا حضرني قتال خشعت نفسي (أي : فزعت) فكرهت الموت ، فقبض رسول الله ﷺ يده وحركها وقال : لاصدقة ولا جهاد فبم تدخل الجنة ؟ فبايعته عليهن كلِّهن .**

قال له : لا صدقة ولا جهاد فبمَ تدخل الجنة ؟

والله أنا أحياناً أكون ممتناً جداً ومسروراً من بعض الإخوة إذ يقول

لي أحدهم : أنا محامٍ إذا اتصل بك أخ فقير له قضية فابعثه إليّ ، فالله يجزيك الخير . . ويقول لي آخر : أنا محلل في مخبر إذا علمت بأخ فقير يريد أن يحلل فأنا جاهز . . أنا طبيب لو أرسلت لي أخاً فقيراً أعالجه مجاناً . . وذات مرةٍ أخ من إخواننا الكرام جرَّاح ، قال لي : أنا مستعد أن أستقبل أيَّ أخٍ يريد إجراء عملية ، بعثنا له أول أخ عمل له عملية بالمشفى وفي الدرجة الثانية ونجحت العملية ، بعثنا له أخاً ثانياً وأخاً ثالثاً . . فهذا أدى زكاة اختصاصه وجزاه الله خيراً كثيراً ، فيجب أن نتوَسَّع في مفهوم الزكاة ، فهناك زكاة مال ، وهناك زكاة وقت ، وزكاة خبرة . . إلخ .

لنا قريب عنده محل للحلويات في ساحة المرجة بدمشق ، وهذه القصة منذ ثلاثين سنة دخل لمحله شخص أرمني ، قال له : هل تعلِّمني صناعة الفرنية « الكاتو » ؟ فاستجاب له : ولبّى طلبه وعمل أمامه طبخة ـ خلطة ـ وأدخلها إلى الفرن وقال له : اكتب الكميّات والمعايير ، ثم كلفه أن يقوم بعمل طبخة واحدة أمام صاحب المحل ، فعمل طبخة أمامه ، ثم أقسم صاحب المحل : والله يا أستاذ منذ ثلاثين سنة وكل سنة يزورني ذاك الشخص ويحضر لي هدية من القامشلي ويقول : كل هذا الخير من فضلك . . لم يَضِعْ معه المعروف . . هذا ماذا فعل ؟ أدى زكاة خبرته ، ومن الممكن أن تؤدي زكاة مالك ، زكاة وقتك بدرس علم ، زكاة خبرتك علِّم . بعث شخص ابنه لمحل بدون أجر ليعلمه الصنعة فلم يعلِّمه ، بل كان صاحب المحل عندما يريد أن يفك المحرك يقول له : اذهب خارج المحل ، لم يعلمه خوفاً من أن ينافسه ذات يوم . . علِّمه يا رجل ، والله هو الرزَّاق ، أدِّ زكاة خبرتك ، أدِّ زكاة مالك ، أدِّ زكاة وقتك ،

أدِّ زكاة صحتك ، أعن المرضى ، أدِّ زكاة وقتِ فراغِك ، أعن الضعفاء .

إذاً مَن الحرّ ؟ قد يقال : فلان حر إن صدرت عنه محاسن صغيرة وكبيرة ، أما لا يقال له كريم إلا إن صدرت عنه المحاسن الكبيرة ، كمن ينفق ماله في تجهيز جيشٍ بأكمله ، كمن يتحمّل ديّات القتلى ويحقن دماء المسلمين ، هذا عمل جليل .

أما النقطة الدقيقة في دلالتها ومعناها فهو أنه ليس المهم أن تقرأ الآية وترددها بلسانك كثيراً ، لكن المطلوب منك أن تدقق في معانيها . . قال الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ . . أعلاكم مكانةً عند الله وأشرفكم وأقربكم إلى الله أتقاكم . . المعاني مفهومة واضحة ، فهل عملت بها ؟

الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يعلمك أن المقياس عنده التقوى أي الطاعة ، قال الله تعالى :

﴿ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٧١] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ .

أتحب أن تكون عند الله أكرم الناس ؟ أطعه . . الشيء بين يديك مبذول ، آلاف الناس لن تستطيع أن تصل إليهم ، ولن تستطيع أن تخطب ودَّ أحدهم ، ولن تستطيع أن تقابله فالأبواب دونه مغلقة ،

لكنَّ الله جلَّ جلاله خالق الكون يقول لك : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ ، فأيُّ إنسان يطع الله عزَّ وجلَّ الله يقربه ويرفعْ له مكانته ، أما إذا وصف الله عزَّ وجلَّ بالكرم ، فإنما هو اسمٌ لإحسانه وإنعامه المتلاحق .

جاء اسم الأكرم في قوله تعالى في سورة العلق : ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴾ ، أي هو أكرم الأكرمين ، هو المعطي ، هو المسعد ، هو المحسن ، وكثير من الناس ـ والعياذ بالله ـ لا يرون إحسان الله .

أحياناً تؤدي عن إنسان أجرة الركوب في السيارة خمس ليرات تكرمة له ، فتجده طوال الطريق يَشْكرك بعبارات مترادفة وهو مسرور منك كأن يقول لك : جزاك الله الخير ، ويعيدها لك عدَّة مرَّات من أجل خمس ليرات أكرمته بها .

فالذي منحك نعمة الوجود بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً ، نعمة الإيجاد ، نعمة الإمداد ، نعمة الهدى والرشاد ، خلق لك من جنسك امرأة هديَّةً لك هي آية سكن ومودة ورحمة ، آواك في بيت ، أطعمك ألوان الطعام ، خلق لك أنواع الفواكه ، رزقك ابناً يملأ عليك البيت فرحاً وسروراً ، زوّدك أجهزة دقيقة ، فقد قال تعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد : ٨ـ١٠] .

فهذا الذي خلق كل هذه النعم ألا يستحقُّ أن تشكره ، أن تذكره . . إنَّك إذا ذكرتني شكرتني وإذا نسيتني كفرتني .

وفي سورة الرحمن أيضاً آية ثانية :

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن : ٢٦ـ٢٧] .

العلماء قالوا : لا ينبغي أن تقول : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ . . وتقف بل ينبغي أن تتابع الآية فتقول : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ .

أي أنَّ الله عزَّ وجلَّ هو المكَرِّم ، هو الكريم ، هو المعطي ، منحك كل النعم ، أما هذا الإنسان الجاهل الغافل فهو مسكين إذ يعزو هذه النعم إلى غير الله ، فيعزوها تارةً إلى ذكائه .

﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾

[القصص : ٧٨]

﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الزخرف : ٥١] .

وقد يعزوها إلى مهارته في العمل أو حسن حظه .

والإنسان ينبغي أن يعلم حقيقة الأُلوهية . . فالكون كله عطاءٌ من عطاءاته . . فأنا أذكر ذلك كثيراً . . فهل من الممكن أن تصدِّق أنَّ هناك مليون مليون مجرَّة ، وفي كل مجرَّة فيها مليون مليون نجم ، أي لو كتبنا رقم واحد وأمامه أربعة وعشرون صفراً فما هذا الرقم !!! إنه رقم خيالي وكل هذه الكواكب والنجوم مسخَّرةٌ للإنسان ، الله عزَّ وجلَّ قال :

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾

[لقمان : ٢٠]

فإذا قرأ أحدكم قوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ

﴿بِالْقَلَمِ﴾ ، ألا يشعر برعشة ، بخفقان ، بجلد يقشعر ، بقلب يخفق. . ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ .

الدين أساسه الحب ، إذا أُلغي الحب من الدين صار الدينُ ثقافة ، وطقوساً ، وفلكلوراً ، وعادات ، وتقاليد ، ومعلومات ، ومشاعر ، وكتباً وهكذا ، أما إذا كان في الدين حُبٌّ فإنه يفعل كل مستحيل .

النبي عليه الصلاة والسلام قال لفاطمة : مايمنعك أن تسمعي ماأوصيك به أن تقولي إذا أصبحت وإذا أمسيت : **يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين** [النسائي والبزار] .

ومر يزيد بن الصامت الزرقي وهو يصلي وهو يقول اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت ياحنان يامنان يابديع السماوات والأرض ياذا الجلال والإكرام فقال رسول الله ﷺ لقد سألت الله باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى .

قال تعالى ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ .

وبعد ، فمن إجلال الله عزَّ وجلَّ ، من إجلالك لكرمه فقد قال العلماء : المؤمن يُجلُّ الله فلا يعصيه ، ويطيعه فلا يخالفه لأنَّه ذو الجلال والإكرام وذو العظمة والكبرياء ، فلا أريد أن أُطيل. . الكافر يقف عند النعمة ، ويعمى عن المنعم ، والمؤمن يتجاوزها إلى المنعم .

النبي عليه الصلاة والسلام كانت تَعْظُم عنده النعمة مهما دقَّت ، والمؤمن يتقلَّب في نعم الله ، وروي عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه

قال : « أحبُّوا الله لما يغذوكم به من نعمه ، وأحبُّوني لحبِّ الله ، وأحبّوا آل بيتي لحبي » .

وأخرج البيهقي من حديث ابن عباس ، أن رسول الله ﷺ روي عنه أنه قال : « إن داود عليه السلام قال فيما يخاطب ربه عز وجل : يا رب! أي عبادك أحب إليك أحبُّه بحبك ؟ قال : يا داود أحب عبادي إلي نقي القلب ، ونقي الكفين ، لا يأتي إلى أحد سوءاً ، ولا يمشي بالنميمة ، تزول الجبال ولا يزول ، أحبني وأحب من يحبني ، وحببني إلى عبادي ، قال : يا رب! إنك لتعلم أني أحبك وأحب من يحبك ، فكيف أحببك إلى عبادك ؟! قال : ذكرهم بآلائي وبلائي وبنعمائي ، يا داود! إنه ليس من عبد يعين مظلوماً ، أو يمشي معه في مظلمته ، إلا أثبت قدميه يوم تزل الأقدام » .

ذكِّرهم بآلائي كي يُعظِّموني ، وذكِّرهم بنعمائي كي يحبُّوني ، وذكِّرهم ببلائي كي يخافوني .

فالملخَّص : أنَّه لا بدَّ من أن يجتمع في قلب المؤمن تعظيمٌ لله ، وخوفٌ منه ، وحبٌّ له ، تعظيم بالآلاء . . وتخويف بالمصائب . . ومحبّة بالنعم .

كأس من الماء تشربه وطريق الخروج سالك نعمة كبرى ، فلو كان غير سالك فآلام حصر البول لا تُحتمل ، فيلزمه الذهاب للإسعاف في الساعة الثالثة ليلاً لفتح مجرى البول ، أكلت طعاماً . . والطريق سالك نعمة أخرى كبرى ، أيضاً لو كان هناك انسداد . . قال تعالى :

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ

كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ [محمد : ١٥] .

﴿ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ . . فالأمعاء ليس بها إحساسٌ لا بالحر ولا بالبرد ، فلو وضعت فيها ماءً يغلي فلا إحساس عندها ، أما آلام الضغط داخلها فإنها لا تُحتمل ، إذا أكلت طعاماً وكان الطريق سالكاً ، مشيت متوازناً . فلو اختلَّ جهاز التوازن لاحتجت إلى عصا لتمشي مستعيناً بها ، فأنت تمشي متوازناً ، والأجهزة تعمل بانتظام ، والحواس الخمس سليمة . . فهذه من نعم الله العظمى .

أذكِّر وأردِّد مرة ثانية . . . الآلاء للتعظيم ، والنعم للحب ، والمصائب للخوف . . بالخوف تتقي أن تعصيه ، وبالحب تقبل عليه ، وبالتعظيم تتابع الرُّقِيَّ إليه . . وهذا من بعض الخواطر الإيمانيّة المتعلِّقة باسم الله الأكرم . . ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴾ . .

وفي النهاية لا بد من أن تقول : أنت إنسان أَودع الله فيك قوةً إدراكيّة فإن لم تتعرَّف إليه عطَّلتها ، وإذا عطَّلت القوة الإدراكيّة هبطت إلى مستوىً لا يليق بك .

اللهمَّ أعطنا ولا تحرمنا ، أكرمنا ولا تُهنّا ، آثرنا ولا تؤثر علينا ، أرضنا وارضَ عنَّا ، وصلَّى الله على سيِّدنا محمدٍ النبيِّ الأميّ وعلى آلهِ وصحبه وسلَّم .

* * *

المُضِلّ

من أسماء الله الحُسنى المضل ، وهو اسم زائد على الأسماء التسعة والتسعين التي ورد فيها الحديث .

قبل أن نشرع في الحديث عن هذا الاسم لابدَّ من مقدِّمة ، هذه المقدمة لغويَّة . . الكلمة تحتمل من المعاني بقدر ما يملك الإنسان من خبرات ، كأنَّ الكلمة مشجبٌ يعلِّق عليه كلُّ إنسانٍ ما يملكه من خبرات حول هذه الكلمة ، لذلك هناك خطرٌ كبير هو أن نملك مفهوماً خاطئاً عن كلمة ، فكلَّما ذكرنا هذه الكلمة حمَّلناها ذلك المفهوم .

مثلاً . . كلمة جرثومة في استعمالاتنا اليوميَّة هي كلمةٌ تشير إلى المرض ، أمّا أن يقف شاعر كأبي تمام يقول وهو يخاطب خليفةً كبيراً كالمعتصم « محمد بن هارون الرشيد » :

خليفة الله جازى الله سعيَك عن　　جرثومة الدين والإسلام والحسب

فمعنى ذلك أنَّ كلمةَ « جرثومةُ » وقت أن مدح الشاعرُ الخليفةَ بها كانت تعني شيئاً حميداً ، كانت تعني « أصل الشيء » ، فلمَّا سمينا تلك الكائنات المجهريّة التي هي سبب الأمراض جراثيم ، فلم يعد من المناسب أن تمدح إنساناً وتصفه بأنَّه جرثومة ، إذاً هذه الكلمة حملت معنىً في حقبةٍ ما غير المعنى الذي تحمله الآن .

فكلمة استعمار ، هذه الكلمة ليست محببة ، لأنَّ أقوياء منحرفين معتدين احتلوا بلاداً كثيراً ونهبوا ثرواتها وقهروا أهلها واستعبدوهم فسمَّوا أنفسهم مستعمرين بمعنى أنَّهم أرادوا أن يُعَمِّروا الأرض ، فالممارسة المؤلمة الخاطئة والتي أُلصقت بهذه الكلمة أعطتها معنىً لا يُقبل الآن أن يمدح بها إنسان ، ومن أجل أن يقف القارىء الكريم على إيجابية كلمة « استعمار » فليقرأ قوله تعالى في سورة هود : ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ . [هود : ٦١] .

أردت من هذه المقدِّمة أن نحرر مفاهيم الكلمات مما لصق بها من خبرات . فربَّما كانت الكلمة لها معنىً في اللُّغة غير هذا المعنى .

العلماء قالوا : « **لا ينبغي أن نذكر اسم (المُضل) إلا مع اسم (الهادي) ، ولا ينبغي أن نذكر اسم (الضار) إلا مع اسم (النافع) ، ولا اسم (المُذِل) إلا مع اسم (المُعز) ، ولا اسم (الخافض) إلا مع اسم (الرافع) ، ولا اسم (القابض) إلا مع اسم (الباسط).. فهو يقبض ليبسط ، ويخفض ليرفع ، ويُذل ليُعز ، ويأخذ ليعطي ، ويضلُّ ليهدي** » ، ما دامت أسماء الله حُسنى وصفاته فُضلى.. إذاً لا بدَّ من تفسيرٍ لهذه الأسماء الحسنى يليقُ بكمال الله ، ويليق بعظمته ، ويليق بقدرته ، ويليق بعدالته ، ويليق برحمته .

الاسم (المضل) ربَّما من خلال الممارسات وجدنا أنَّ إنساناً يُضلُّ إنساناً آخر ، فهذا العمل ليس محبوباً عندنا ، ليس عملاً مستحسناً أن يُضلَّ إنسانٌ إنساناً ، إنَّه عملٌ مخالفٌ للفطرة ، مخالفٌ للقيم الإنسانيَّة الرفيعة ، أما إذا قلنا : إنَّ الله هو المضل فلا بدَّ لهذا الاسم من معنىً يليق بكمال الله .

كما هي العادة نقف وقفةً متأنِّية عند اللُّغة.. فالمُضِلُّ اسمٌ من أسماء الله الحُسنى التي تضاف إلى التسعة والتسعين اسماً التي وردت في الأحاديث .

الضلالُ : النسيان والضياع.. فقد قال تعالى :

﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه : ٥٢] .

وضلَّ الكافر.. إذا غاب عن علة وجوده الذي خُلق من أجلها .

إنسان ذهب إلى بلد غربي لينال الدكتوراه ، فتنته تلك البلاد بمسارحها ومقاصفها ونواديها وحدائقها وشهواتها فانغمس في هذه الشهوات وضلَّ عن هدفه الذي أُرسل من أجله ، فيقال : هذا الطالب ضالّ أي : غاب عن الهدف الذي جاء من أجله ، وقد يكون الضلال هو الانحراف عن الطريق المستقيم.. فالطريق المستقيم إذا خرج الإنسان عنه فقد ضلَّ ضلالاً مبيناً .

أضلَّه.. جعله ضالاً.. إذا قلنا : فلانٌ(أضلَّ فلاناً) أي جعله ضالاً ، أما إذا قلنا : الله جلَّ جلاله (أضلَّ فلاناً) أي : وجده ضالاً وعلِمَه ضالاً.. هذا معنى آخر .

يقال : **« الضلالُ كلُّ عدولٍ عن المنهج عمداً أو سهواً ، يسيراً أو كثيراً »** .

في الحقيقة : وردت كلمة الضلال في القرآن الكريم كثيراً ، وورد أنَّ الله يضلُّ الكافرين ، فكيف نفسِّر هذا الاسم الذي هو بالتأكيد من أسماء الله الحُسنى ، وبالتأكيد لو عرفت مضمونه لذابت نفسك محبةً لله عزَّ وجلَّ ؟

قال بعض العلماء : **« إنَّ إضلال الله تعالى للإنسان على أحد**

وجهين ، **أحدهما أن يكون الإنسان ضالاً »**.. أي اختار الضلال فقدَّر الله عليه الضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري.. هذا ذكرته كثيراً ، إذا عُزِيَ الإضلال إلى الله فهو الإضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري.. إذا قلنا إنَّ رئاسة الجامعة قد طردت هذا الطالب من الجامعة فليس معنى هذا الكلام إلاّ أنَّ الطالب رفض أن يدرس ، ورفض أن يُداوم ، ورفض أن يُقدِّم الامتحان ، ورفض أن يجيب عن الإنذارات ، وتجاهل كلَّ دعوةٍ إلى أن يعود إلى الجامعة ، عندئذٍ لم تجد رئاسة الجامعة بداً من أن تصدر قراراً يجسِّدُ سلوك الطالب ، يُجسِّد اختيار الطالب ، فإذا عُزِيَ الإضلال إلى الله فهو الإضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري .

لو فتحنا معجم اللُّغة وأردنا أن نستشِفَّ معنى فعل أَفْعَلَ ، فعندنا فِعْلُ (فَعَلَ) وهو فعل لازم ، وأما (أَفْعَلَ) فقد يأتي للتعدية.. ذهب أذهب ، ضلَّ : تاه ، أَضَلَّ.. من معنى الفعل الثلاثي المزيد بهمزةٍ في أوَّله « أَفْعَلَ » فاضل تفيد الوجدان أو العلم ، كأن نقول : اختبرتُ هذه القبيلة فما أجبنتُها.. أي ما وجدتها جبانةً ، أو نقول : عاملتُها فما أبخلتُها.. أي ما وجدتها بخيلةً ، إذاً معنى أضلَّه.. هناك معنى آخر أي أنَّه وجده ضالاً ، علمه ضالاً ، أعطاه الخيار ، فاختار الضلال فحكم الله عليه بالضلال فأضلَّه .

الشيء الدقيق.. لو أخذنا جامعة كمثال.. فليست البطولة أن ينجح جميع الطلاَّب بعلاماتٍ تامَّة ، ولكنَّ كمال هذه الجامعة أن تأتي علامات الطلاَّب مطابقةً لمستوياتهم العلميَّة ، فتطابق النتائج مع المقدِّمات هو الكمال ، أما أن ننتظر من جامعةٍ ما أن يكون طلاَّبها جميعاً في الدرجة الأولى فهذا يتنافى مع طبيعة الإنسان المخيَّر ، إلا

أنَّ النتائج إذا جاءت مطابقةً للمقدمات فهذا هو الكمال .

فالإنسان حينما يختار الضلال يذكِّره الله فلا يذكُر ، يُنذره فلا يتأثَّر ، يدلُّه فلا يسلك ، يخيفه فلا يتوب ، يكرمه فلا يشكر ، كما تعلمون ؛ أن الله جلَّ جلاله يهدي الإنسان بياناً ، ثم يأتيه تأديباً ، ثم يهديه إكراماً . . لم يستجب في البيان ، ولا في التأديب تضرَّع ، ولا في الإكرام شكر ، فإذَا أصرَّ على الضلال فبحسب قوانين الله عزَّ وجلَّ وبحسب سننه في الكون هذا الإنسان الذي اختار الضلال بمحض مشيئته سوف يسلك الله به إلى النار ليدفع الإنسان به ثمن اختياره .

الشيء الثاني . . معنى الإضلال كما قلت قبل قليل : الحكم على هذا الإنسان بأنَّه ضال والعدول به عن طريق الجنَّة إلى النار وهذا العدول حقٌّ وعدل .

وهناك معنى ثالث . . هو أنَّ الله سبحانه وتعالى جَبَلَ نفسيّة الإنسان جِبِلّةً بحيث إذا اختارت طريقاً تألفه ويصعب أن تحيد عنه ، فمَنْ شبَّ على شيءٍ شاب عليه ، ومن شاب على شيءٍ مات عليه ، ومن مات على شيءٍ حُشِر عليه ، فلو أنَّ الإنسان اختار طريق الضلال ، وأَلِفَ الضلال ومارسه ، وانغمس في المعاصي والآثام وأَلِف هذه الحياة ، فإنه يصعب عليه بناءً على جبلَّته أن يغير ما ألفه ، هذه الجبلَّة التي يصعب عليها أن تُغيِّر المألوف عندها ، هي في الأصل لمصلحة الإنسان .

في علوم الفيزياء قانونٌ يسمى : « **قانون العطالة** » ، فالأشياء المتحرِّكة ترفض السكون ، والأشياء الساكنة ترفض الحركة ، فلو كنتَ

تركب مركبةً وأوقف السائقُ المركبةَ فجأةً فأنت كراكب ترفض أن تقف فتتابع الحركة ، هذا الذي يدفع صانعي السيارات لوضع أحزمة الأمان في المقاعد لتكون كراكب مرتبطاً بالمركبة ولست حراً ، فالمركبة حينما تقف فجأةً يبقى الراكب مندفعاً نحو الأمام وقد يموت بهذا الاندفاع فلا بدَّ من حزام الأمان ، وهذا أساس مبدأ العطالة ، والأشياء الساكنة ترفض الحركة ، فلو كنت جالساً في مركبة وأقلعت تشعر أنَّ شيئاً دفعك نحو الخلف ، فالمقعد دفعك من جهة الخلف لأنَّك ترفض الحركة والمركبة تحرَّكت. . فهذا القانون لصالح الإنسان . فلو أن الإنسان هُديَ هدايةً كبيرة جداً ولسببٍ تافهٍ يعدل عن هذه الهداية ، فهذه مشكلة كبيرة تواجهه وتحدث عنده خللاً .

فأنت جبِلَّتكِ تقترب من مبدأ العطالة ، فإذا ألفت الهدى تابعت الهدى ، وبالمقابل ؛ إذا ألف الإنسان الضلال تابع الضلال ، فهذا القانون قانونٌ ذو حدَّين لمصلحة المؤمن ، كذلك ليس لمصلحة الكافر ، المؤمن يزداد به إيماناً والكافر يزداد به كفراً ، والحياة أساسها الاختيار ، فكل شيء حيادي ، فهذا القانون يمكن أن يكون لمصلحة المؤمن ، ويمكن أن يكون لغير مصلحة الكافر .

ففي جبلَّة الإنسان ، أنَّ الإنسان إذا سلك طريقاً محموداً أو مذموماً ألفه واستطابه ولزمه وتعذَّر عليه صرفه أو انصرافه عنه ، لذلك أهون شيءٍ أن ترشد الصغار لأنَّهم ليِّنو العود ، أما الكبار فقد ثبتوا على طريقةٍ معيَّنة فمن الصعب جداً أن تغيِّر سلوك الكبير لأنَّه ألف شيئاً يصعب عليه أن يتركه .

فالإنسان الجاهل بالله عزَّ وجلَّ ، والجاهل بمعاني الكلمات قد

يفهم الإضلال فهماً لا يليق بكمال الله عزَّ وجلَّ ، قد يفهمه أنَّ الله أضلَّه أي جعله ضالاً وخلق فيه الضلال ، يا ربِّ إذا خلقت فيه الضلال فلماذا تحاسبه ؟ هذا المعنى لا يليق بالله عزَّ وجلَّ . . فبناءً على أنَّ المقدِّمات لابدَّ لها من نتائج متوافقة معها . فمن اختار الضلال بمحض مشيئته وأصرَّ عليه خلقه الله فيه جزاءً لا ابتداءً . . هذا معنى .

والمعنى الثاني أنَّ طبيعة الإنسان ذات عطالة ، فإذا ألفت الخير ثبتت عليه ، وإذا ألفت الشر ثبتت عليه ، فهذا القانون حيادي يمكن أن يكون لمصلحة المؤمن ، وقد لا يكون لمصلحة غير المؤمن .

لذلك إنّ الإنسان إذا انتبه للهدى في وقتٍ مبكّر ، فهذا من نعم الله العظمى لأنَّه سيبني بيتاً إسلامياً ، وسيختار عملاً إسلامياً ، أما إذا تأخَّر في البداية ، فقد يجد نفسه ضائعاً فبيته ليس إسلامياً ، وعمله ليس إسلامياً ، وقد ألف حياة التفلُّت عندئذٍ يصعب عليه أن يعود إلى الله كما لو كان شاباً .

لذلك يقول الله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التوبة : ١١٥] .

فعندما يختار الإنسان الهدى ، واللهُ سبحانه ييسِّر له سبيل الهدى يستحيل على كمال الله عزَّ وجلَّ أن يضلَّه بعد أن اهتدى إليه . . لذلك : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ ﴾ .

والمؤمنون كما قال الله عنهم : ﴿ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ قال تعالى :

﴿ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ [محمد : ٤-٥] .

ومعنى آخر . . إن الكافر أحياناً يُضلُّه الله لا عن ذاته تعالى ، بل عن شركائه ، فلو أنَّ إنساناً أشرك جهةً مع الله أيَّة جهةٍ ، فمِن تربية الله له ، ومن تأديب الله له ، أنَّ هذه الجهة التي أشركها مع الله يسخِّرها الله لتخييب ظنِّه ، ويجب أن يُحبَط عملُ هذا الإنسان الذي اعتمد فيه على شريكٍ لله عزَّ وجلَّ ، كأنَّ الله أضلَّه عنه ولم يبق له إلا الله .

والحقيقة : ما أكثر ما يقع هذا الشيء . فكلّما عَلَّقتَ الآمال على جهةٍ أرضيَّة ؛ على ابنٍ مثلاً ، أو على زوجة ، أو على أخٍ ، أو على صديقٍ ، علَّقتَ عليه الآمال ونسيت الله عزَّ وجلَّ فلا بدَّ أن يخيِّب ظنَّك ، هذا الذي علَّقتَ عليه الآمال ، قد يكون هو وفياً لكن يُلهمه الله أن يخيِّب ظنَّك ليضلَّك عنه ، كي تتجه إلى الله وحده لا إلى أحد في الأرض .

فلو أنَّ إنساناً له صديقٌ قوي يعمل في منصبٍ حساس ، وقال له : أنا في خدمتك ، فأيَّة قضيةٍ آلمتك فتعالَ إليّ ، فهذا الإنسان يتَّكىء على هذا الصديق ويشعر بالأمن والقوة ، أشرك وهو لا يدري ، ونسي الله وهو لا يدري ، فلو أنَّه استجاره مرةً ، وطرق بابه ووجد منه خلاف ما يظن فيرى أنه قد يتخلى عنه ، ووقف منه موقفاً سلبياً قاسياً ، فهذا التخلي أو تلك القسوة بإلهام الله لهذا القوي كي يضلَّ هذا المشرك عن شريك الله عزَّ وجلَّ .

فإذاً ، كلّما قلت : أنا ، أو نحن ، أو زيد ، أو عُبيد تخلَّى الله

عنك ، وإذا قلت : الله . . تولاَّك ، فأنت دائماً وأبداً بين التولي والتخلي ، إذا وحَّدت الله تولى أمرك ، وإذا أشركت معه تخلى عنك . . وهذا الدرس نحتاج إليه كلَّ يوم .

كل إنسان له عمل ، له خبرات ، عنده مال ، يستند إلى مراكز قوَّة ، عنده إيجابيَّات ، عنده قدرات ، عنده ملكات ، إذا اعتمد على ملكاته ، على قدراته ، على أمواله ، على جماعته ، على أقربائه ، على إمكاناته ، على شأنه ، على وجاهته ، على ذكائه ، على رصيده ، كلَّما اعتمد على شيءٍ أرضي تخلى الله عنه .

أضلَّه عن هذا الشريك ليوحِّد ، فالمؤمن لو أنَّه أخذ بالأسباب فعليه ألا ينسى مسبب الأسباب ، ولو أنَّه وسَّط فلاناً في قضيَّةٍ ما فعليه ألاّ ينسى أنَّ الله هو الملهم وأن الخير والتوفيق بيده . . فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

قال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [محمد : ٨] .

لماذا لم يرد في القرآن إطلاقاً أنَّ الله أضلَّ مؤمناً ؟ فهذه النقطة نقطة إيجابية دقيقة . . لأنَّ المؤمن آمن فقد قال تعالى عنه :

﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴾ [مريم : ٧٦] .

وقال تعالى عن أهل الكهف : ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾[الكهف : ١٣] .

أي أنَّ قضاء الله وقدره مع المؤمن ومع الكافر ، فالمؤمن إذا اختار الهدى يزداد هدىً ، إذا آمن يُلقي الله في قلبه السكينة ليزداد إيماناً مع

إيمانه ، إذا اتخذ قراراً يرضي الله عزَّ وجل شرح الله له صدره ، أما إذا اتخذ قراراً يسخط الله عزَّ وجلَّ فلسوف يضيق صدره ويصبح صدره حرجاً ضيّقاً كأنَّما يصَّعد في السماء كما قال تعالى :

﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام : ١٢٥] .

﴿ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ . . من هنا قال النبي عليه الصلاة والسلام :

« إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ » ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ » [صحيح مسلم] .

إذاً : معنى الإضلال معنى دقيق جداً ، الله جلَّ جلاله هو الكامل ، فأيُّ فهمٍ لكلام الله عزَّ وجلَّ على غير الكمال الذي يليق بالله هذا فهم خاطىء .

في معجم ألفاظ القرآن الكريم قال : أضلَّه . . وجده ضالاً .

قد يتوهَّم أن معنى أضلَّه أي : خلق فيه الضلال . . كما قيل في بيتٍ من الشعر :

ماحيلة العبد والأقدار جارية عليه في كل حال أيها الرائي
ألقاه في اليمِّ مكتوفاً وقال له إيَّاك إيَّاك أن تبتلَّ بالماء[1]

---

(١) البيت من كلام الحلاج وقد ردَّ عليه الشيخ عبد الغني النابلسي في قصيدة مطلعها :

قد قال من قال من جهل وإغواء عن حكم تكليف ربي عبده الثائي=

عقيدة الجبر عقيدةٌ زائغة ، عقيدةٌ مرفوضة ، عقيدةٌ لا تليق بكمال الله عزَّ وجلَّ ، لا تليق بكماله ، وتتناقض مع تكليف الإنسان ، ومع حريَّة اختياره ، ومع كسبه ، ومع الثواب والعقاب ، ومع الجنَّة والنار ، عقيدة الجبر تنفيها آيةٌ كريمة قال تعالى :

﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام : ١٤٨] .

قال علماء اللغة : « أضلَّه . . وجده ضالاً » ، كأن تقول أحمدته وأبخلته ، أي وجدته محموداً وبخيلاً . . أحمدته وجدته محموداً ، أبخلته وجدته بخيلاً .

عندنا قاعدة في أصول الفقه . . الآيات المتشابهات مهما كثُرت تُحمَل على الآيات المحكمات مهما قلَّت . . كيف ؟ الكلمة المتشابهة تشبه معنىً ومعنىً آخر ، إذا قلنا كلمة : خطير . . القمح مادةٌ خطيرة ، فما معنى خطير ؟ فالقنبلة خطيرة لأنَّها مدمِّرة ونقول عنها سلاحٌ خطير . . واللحم مادة خطيرة أي أساسيَّة في حياة الإنسان ، فيا تُرى كلمة خطيرة التي وصف بها القمح أو اللحم هل تعني أنَّها مدمِّرة أمْ أساسيَّة ؟ فلو قلنا : القمح مادةٌ خطيرة ماذا نقصد بها ؟ لو قلنا بعد

= ماحيلة العبد والأقدار جارية ... عليه في كل حال أيها الرائي
ألقاه في البحر مكتوفاً وقال له ... إيَّاك إياك أن تبتل بالماء
جنى عليه فتى من أهل ملتنا ... قد قال في رده نظماً بإنشاء
إن حفَّه اللطف لم يمسسه من بلل ... وماعليه بتكتيف وإلقاء
وإن يكن قدر المولى له غرقاً ... فهو الغريق وإن ألقي بصحراء

حين : القمح مادةٌ مهمةٌ في حياة الإنسان ، فكلمة مهمَّة تعبير محكم واضح جلي ، كلمة القمح مادةٌ خطيرة كلمة متشابهة ، كيف نفهم كلمة خطيرة ، إذا قرأنا جملة ثانية أنَّ القمح مادة أساسيَّة ، فنحمل كلمة خطيرة على أنَّها أساسيَّة ، لأنَّ الكلمات المتشابهة تُحمل على الكلمات المحكمة . . هذه قاعدة .

فإذا نطق القرآن الكريم بأنَّ الله سبحانه وتعالى خلقنا ليرحمنا ، وخلقنا ليهدينا ، وإنَّ الله لا يأمر بالفحشاء فقد قال تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٨] .

والله سبحانه ﴿لا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ . . قال تعالى :

﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [الزمر : ٧] .

مادامت آيات كتاب الله تؤكِّد أنَّ الإنسان مخيَّر ، وأنَّ الشر ليس إيجابياً بل هو شيء سلبي ، وليس مقصوداً لذاته فهو موظَّف للخير المطلق ، عندئذٍ يجب أن نفهم معنى الإضلال لا على أنَّ الله خلق في الإنسان الضلال ، بل على أنَّه أعطاه حريَّة الاختيار ، فاختار الضلال فوجده الله ضالاً ، ولأنَّ هناك قوانين إلهيَّة فالضلال له نهاية والهدى له نهاية .

يضلُّ الله من يشاء . . عندنا آية تقوِّي هذا المعنى قال تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [الصف : ٥] .

﴿فَلَمَّا زَاغُوا﴾ . . زيغاً ابتدائياً مختارين به أزاغ الله قلوبهم . . زيْغاً جزائياً .

وأذكُر مرة ثانية بمثل الجامعة ، طالب بمحض اختياره ترك الدوام ، فإنه لم يداوم ، ولم يؤدِّ الامتحان ، ولم يشترِ الكتب ، ولم يردّ على الإنذارات التي وُجهت إليه ، ولم يستجب للدعوة للعودة إلى الجامعة ، أصر على هذا الموقف ، وبعد ذلك يصدرُ من إدارة الجامعة قرار بترقين قيده ، هذا القرار تجسيدٌ لإرادته الحرة ، نقول : الجامعة طردته ، الجامعة رقَّنت قيده ، الجامعة جهةٌ خيرةٌ حكيمةٌ أنشأت الجامعة ليتعلَّم الطلاب ، لا لتطردهم منها ، ولا لتُرَقِّن قيودهم منها .

إذاً : نفهم أن ترقين القيد والطرد من الجامعة نفهمه فهماً جزائياً لا فهماً جبرياً ، فهناك فرقٌ بين الفهم الجزائي والجبري . . ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ ، ومن يشاء الهدى يهديه الله . . ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ . . فقد قال تعالى :

﴿وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗۙ وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسۡتَيۡقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ﴾ [المدثر : ٣١] .

هناك معنى آخر للإضلال . . إنسان يتجه إلى حمص ، وقبل حمص رأى طريقين بلا لافتات ، ورأى رجلاً فسأله قائلاً : مِن فضلك : من أين طريق حمص ؟ قال له الرجل : من هذا الطريق . فقال هذا السائل لهذا المسؤول : جزاك الله خيراً ، بارك الله فيك ،

فلما قبل هذه النصيحة ، وقبل هذا الإرشاد ، قال له الآخر : انتبه فهناك حاجز ، وهناك طريق فرعي ، وهناك مقطع من الطريق شديد السوء فانتبه واحذر. . عندما قبل منه هذا الإرشاد أمدَّه بكثير من التفاصيل. . ولو أنَّ إنساناً آخر وصل لهذا المفترق الذي دون لافتات ، وسأل هذا الرجل : من أين طريق حمص ؟ قال له : من هنا . قال : أنت كاذب ، فهذا الذي يقف على مفترق الطرق هل بإمكانه أن يعطيه تعليمات تفصيليّة ؟ رفض دعوته كلياً ، رفض نصيحته كلياً ، رفض دلالته .

معنى ذلك أنَّ الإنسان حينما يرفض أصل الدين ، حينما يرفض أصل الشريعة ، حينما يرفض منهج الله عزَّ وجلَّ فلن يستفيد من منهج الله وكأنَّ الله أضلَّه .

هناك ألف ميزة لطالب الجامعة. . مكتبة مجّانيّة ، وإعارة كتب وتعويض ، ولباس مجّاني ، وبطاقات تخفيض للمطاعم وفي السفر وفي الطائرات ، إذا رفض الإنسان دخول الجامعة هل يتمتع بهذه الميزات ؟ إذاً هو حُرم منها كلياً. . فهذا إذاً معنى سادس للإضلال. . أنت حين ترفض أصل الدين لن تقبل من الله توجيهاته ، لن تقبل شرعه ، لن تقبل أمره ، لن تقبل نهيه ، لن تقبل القيم التي أرادها لخير الإنسان ، فأنت الذي رفضت الدين فرفضت إذاً كل ميزاته وكل ثمراته .

إذاً. . ﴿ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ ﴾. . من يشاء الضلالة يضلُّه الله ، يشاء الضلال اختياراً يضلُّه الله جزاءً ، أي يحرم من ثمرات الدين .

وقد قال تعالى في الآية الكريمة :

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر : ٢٣] .

﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ . . أي أنَّ الإنسان حينما يختار الضلال لا يستطيع أحدٌ في الكون أن يهديه . . أبو لهب مثلاً ألم يعش مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟! ألم يرَ دلائل نبوَّته ، ألم يَرَ كماله !! ؟ هو رفض الحقيقة كلياً ، فلا تتعب نفسك فقد قال تعالى :

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ . . . ماالهداية ؟ الهداية قرار داخلي .

ويجدر بي بعد هذا أن أذكِّر بهذه الكلمة . . أنت إذا أردت الحقيقة كلُّ شيءٍ في الكون يدلُّك عليها ، وإذا رفضّتها فلن تقبل من أحد أن يرغمك عليها ، فقوم موسى رأوا البحر وقد أصبح طريقاً يبساً ، ورأوا العصا وقد أصبحت ثعباناً مبيناً ، ورأوا يد سيدنا موسى بيضاء للناظرين ، فلما أتوا على قومٍ يعكفون على أصنامٍ لهم ، قالوا : يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة . . وهذا ما ورد في قصة سيدنا موسى مع قومه في الآية الكريمة :

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٣٨] .

فالإنسان إذا لم يتَّخذ قراراً داخلياً بالبحث عن الحقيقة ، ليس في الكون كلِّه جهة يمكن أن تهديه إليها ، أُناس عاشوا مع رسول الله ﷺ في الوقت الذي كان القرآن يَنزل عليه والمعجزات تتوالى ، والآيات واضحة ، والدلائل كثيرة ، ومع ذلك ناصبوا النبيَّ ﷺ العداء .

إذاً . . ومن يضلل الله أي من يتَّخذ قرار الضلال ، من يُرد الشهوات ، من يُرد الدنيا ، من يعرض عن الله عزَّ وجلَّ لن يستطيع أحدٌ في الأرض ولا الأنبياء أن يهدوه إلى الله ، لأنَّ الهدى ذاتي ، وهو قرار داخلي .

أضرب مثلاً . . الإنسان قد يكون شديد الذكاء ، وقد يكون عبقرياً ، وقد يكون كإنشتاين ، هذا الذكاء يشبه آلة للتصوير عالية التقنية ، فهناك آلات ثمنها ألوفٌ ، وآلات أُخرى ثمنها ملايين من الليرات كالآلات التي تستخدمها محطات التليفزيون وقد يصل ثمنها إلى أكثر من مليونين من الليرات ، فلو كانت هذه الآلات ليس في داخلها فيلمٌ فما قيمتها ؟ .

فالإنسان إذا أراد الحقيقة يجعل في داخل آلته فيلماً ينطبع عليه كل شيء ، أما إذا لم يُرد الحقيقة فآلته غالية الثمن جداً ولكن بدون فيلم . . إذاً فما قيمة التصوير وضبط العدسة وضبط المسافة والسرعة ؟ لا قيمة لهذه الآلة كلِّها ، أما إن أردت الحقيقة فمعناه أنك وضعت في داخل آلتك فيلماً فكل شيء تلتقطه ، وإذا لم ترد الحقيقة فمهما تكن آلتك غالية الثمن ولكن من دون فيلم في داخلها فلن يجديك شيئاً ، هذا معنى قول الله عزَّ وجلَّ . . ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ . . في الآية الكريمة : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ .

إذا أضلَّ الإنسانُ نفسه عن الله فأراد الدنيا وأراد الشهوات فلن تجد له في الأرض من يهديه .

أما المؤمنون قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ، مستحيل ذلك فكلُّكم يعلم أنَّ هذه الصيغة (ما كان) من أشدِّ صيغ النفي ، فهذا نفي الشأن وفرقٌ كبير بين نفي الشأن ونفي الحدث. . ما كان له أن يسرق. . لا يسرق ، ولا يحبُّ أن يسرق ، ولا يريد أن يسرق ، ولا يتمنَّى أن يسرق ، ولا يفكِّر أن يسرق ، ولا يرضى أن يسرق ، ولا يرضى لأحدٍ أن يسرق. . ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ ﴾. .

هذا المعنى الذي قد يلقى على الناس لا يصح . فهم يقولون : قد تَعبُدُ الله طوال حياتك وقبل أن تموت بقليل يقدِّر عليك الضلال فتزِلَّ قدمك فتستحقَّ النار ، ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ ﴾ . . كن في طُمأنينة ، الله جلَّ جلاله ينمّي الخير القليل فيجعله كثيراً ، ينمّي الطلب القليل ليجعله طلباً كبيراً .

وفي آيةٍ أُخرى قال تعالى : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ ۖ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ ، أي فأنت رأس مالك أن تبحث عن الحقيقة ، فإذا اتخذت قراراً صادقاً مخلصاً في البحث عن الحقيقة وصلت إليها وربِّ الكعبة ، وزوال الكون أهون على الله من أن تبحث عنها فلا تصل إليها .

فقد قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت : ٦٩] .

وقال تعالى في آية أخرى : ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٥٥] .

أي أنَّ الله عزَّ وجل دائماً من سننه في معاملة خلقه ، أنَّه ما كان ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيِّب كما في قوله تعالى :

﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران : ١٧٩] .

فلا بدَّ من فرزٍ مستمر . . فحديث الإفك فرزٌ للمؤمنين ، فمنهم من صدَّق ومنهم من كذَّب ، منهم من سكت توقيراً للنبي ﷺ وزوجه المصون ، ومنهم من خاض في حديث الإفك . . قصَّة الإسراء والمعراج فرزٌ للمؤمنين ، منهم من ازداد إيماناً برسالة النبي ﷺ ، ومنهم من انتكس بهذا الخبر . . فهذا الفرز دائم ، فإذا كنت أمام خمسين طالباً دون إجراء مذاكرات وامتحانات فتصبح مشكلة ، فتجدهم كلُّهم يرتدون ثياباً موحَّدة ، وكلُّهم يطلبون العلم ، ولكن بعضهم لا يدرس مطلقاً ، وبعضهم في راحة من عناء الدراسة ، وبعضهم عبء على أهله . . فلا بدَّ من مذاكرةٍ من حين لآخر ، فهذه المذاكرة تفرز الطلاَّب ومن خلالها يتم إعلام الآباء بمستويات أبنائهم ، فهذا كسلان في الدراسة ، وهذا علاماته متدنيّة في الرياضيَّات مثلاً فبذلك يتلافى القصور ، ونشجع المجتهد . . أما أن

يكون كامل العام الدراسي بلا مذاكرات ، وبلا فرز ، وبلا تقييم فهذه مشكلة .

فلحكمةٍ أرادها الله دائماً هناك امتحانات قال . . ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ﴾ . . الفتنة : الامتحان . . ﴿ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ﴾ . . أي أنَّ الضال الذي يخفي الضلال ويظهر الهداية نفاقاً يكشفه الله ، والمهتدي الذي ينطوي على هداية ، وعلى استقامة وعلى إخلاص للهِ عزَّ وجلَّ يكافئه . . هذا معنى هذه الآية .

وقال تعالى :

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ [الرعد : ٢٧] .

هنا معنى مخالف . . ﴿ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ . . من يضلُّ إذاً ؟ من أعرض . فالمنيب يهديه الله ، أما المعرض فلا يهديه الله عزَّ وجلَّ ، وقال تعالى :

﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴾ [الإنسان : ٣١] .

وهذا معنى آخر . . من يشاء هكذا ؟ قال : ﴿ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾ ﴾ . . معنى ذلك يشاء الله غير الظالمين ، وهذا بالمقابل .

وقال تعالى :

﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴾ [الإسراء : ٩٧] .

آياتٌ كثيرة يُعْزَى فيها الإضلال إلى الله ، فالإضلال الإلهي هو الإضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري ، أو أنَّ الله يضلُّ

الإنسان المشرك عن شركائه.. بيده الخير، فهذا الإنسان متجه نحو شريك ضعيف فيضلُّه الله عن شركائه ليهتدي إلى الله .

هناك أشياء قد تقع كثيراً وقد يكون عند الإنسان منافذ لمواجهتها.. فإذا ضاقت به الأمور يقول سألجأ إلى فلان أو فلان، وإذا كان ابنه مسافراً مثلاً يلتجىء إليه ويقول له : ابعث لي مالاً أستعين به، ويلتجىء بعضهم إلى أخيه، أو صديقه، أو إلى شيء يبيعه ليفرج أزمته المالية التي ألمت به، إنه يركن إلى الدنيا، ويتمسك بأهدابها على ضعفها وتقلب أهلها، ويبقى غافلاً عن الله الذي يقدر وحده على رد لهفته وإيمانه .

وأحياناً يقع في شدَّة فيسأل ابنه فيعتذر إليه الابن، ويطرق باب فلان فيعتذر، يحاول السفر فلا يسمح له، يعرض البيت للبيع فلا يأتيه أحدٌ ليشتريه منه، يغلق الله عليه كلَّ المنافذ ليتجه إلى الله، أي أضلَّ الله هذا الإنسان عن شركائه.. فهو مشرك متَّكىء على فلان وعلى زيد وعلى عُبيد وعلى مال وعلى وساطة وعلى وجاهة ونسي الله، فإذا قلنا : فلان أضلَّه الله، أي أضلَّه عن هذه الجهات الأرضيَّة ليتجه إلى الله خالق البريَّة .

وبعد، فإنّ حسن الظنِّ بالله ثمن الجنَّة.. إن أردت أن تصل إلى الجنَّة فعليك أن تحسن ظنَّك بالله، وأن تفهم أسماء الله الحُسنى على نحوٍ يليق بكماله، ويليق بجلاله، والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٨٠] .

ويقول أيضاً : ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ

ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح : ٦] .

وقال أيضاً :

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران : ١٥٤] .

فكلَّما ازددت معرفةً بالله ارتاحت نفسك وانعقدت صلتك به وأقبلت عليه وسعدت بقربه ، وكلَّما ابتعدت عن حسن الظن به صار حجابٌ بينك وبينه ، لذلك :

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ ، وَوَاضِعُ الْعِلْمِ عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ كَمُقَلِّدِ الْخَنَازِيرِ الْجَوْهَرَ وَاللُّؤْلُؤَ وَالذَّهَبَ** » [سنن ابن ماجه] .

فليس للإنسان عذرٌ إن أساء الظنَّ بالله أن يظل ساكتاً ، فقد حضَّنا الله على أن نسأل . . ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ . . ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ . . قال تعالى :

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان : ٥٩] .

إذاً ، إذَا أشكل عليك مفهوم من مفهومات دينك ، فاسأل أهل الذكر لعلك تخرج من حيرتك وتهتدي سواء السبيل .

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : ٤٣] .

أرجو الله سبحانه وتعالى منيباً وضارعاً أن ينفعنا بما علَّمنا ، وأن يلهمنا الحقَّ والخير والسداد في الأمر .

* * *

عالم الغيب والشهادة

من أسماء الله الحُسنى عالم الغيب والشهادة ، وهذا الاسم كما تعلمون زائدٌ على التسعة والتسعين اسماً ، التي وردت في أحاديث رسول الله ﷺ .

عالم الغيب ، الغيب مصدر غاب أي استتر عن العين ، غابت الشمس أي : استترت وراء الأفق . . بل إن الغيب يعني كلَّ غائبةٍ تغيب عن الحواس ، أيةُ غائبةٍ تغيب عن الحواس فهي غيبٌ بالنسبةِ إلى الإنسان ، وكلُّ شيء غاب عن علم الإنسان فهو غيب . . لكن هذه الكلمات ، وتلك التعريفات بالنسبةِ إلى الإنسان ليس غير .

لو أنّ إنساناً وقف خلف حاجز ، هذا حاجز يُغَيّبُ عنه ما وراءه ، أما الذي يقف أمام الحاجز فإنه يرى كل ما غيَّبه ذلك الحاجز ، نقول : هذا المكان غيبٌ بالنسبة لمن يقف وراء هذا الحاجز ، أما الذي وقف أمامه فليس غيباً بالنسبة إليه ، هذا كلام سوف ينفعنا كثيراً بعد قليل .

عالم الغيب ، بالنسبة إلينا مغيب عنا ، فلا أحد من بني البشر يعلم الغيب ، الغيب أنواع . . نوعٌ من الغيب استأثر الله به ، لا يُعْلِمُه أحداً من خلقه كائناً من كان . . من هذا الغيب أن الله عنده علم الساعة ،

ومن هذا الغيب قيامة الإنسان الصُغْرى : الموت ولحكمةٍ بالغةٍ جداً أنّ الإنسان لا يعلم متى يموت ، وهذا لصالحه ، فلو علم لتباطأ بالتوبة وخسر الآخرة.. فكلُّ شيءٍ يغيب عن علم الإنسان هو غيب ، لكن ربنا عالم الغيب والشهادة .

مثلٌ بسيطٌ جداً من يقف هنا في هذه الغرفة لا يعلم ماذا يجري في الغرفة التي تليها ، أما ربنا جلَّ جلاله فكلُّ شيء أمامه مكشوف ولا تخفى عليه خافية ، عالم الشهادة التي تشهده ، وعالم الغيب الذي يغيب عنك .

في بلدٍ مجاور وقعت حرب أهلية سببت مآسي كثيرة ، استمرت هذه الحروب أكثر من ستة عشر عاماً ، أكلت الأخضر واليابس ، أعرف واحداً من أبناء دمشق يسكن في ذاك البلد المجاور ، وله معمل ، وله تجارة ، وقبل أن يقع أي حادث ضاقت عليه نفسه ، وضاق به ذلك البلد أشدَّ الضيق ، وتعثرت أموره ، إلى أن انتقل إلى الشام هو وتجارته ومعمله ، وبعد أن انتقل ، بدأت المشكلات واحترقت المعامل وأتْلِفَ المال ، وانتهى كلُّ شيء إلى دمار وخراب .

مَن الذي علم ما سيكون ؟ الله جلَّ جلاله ، فإذا كنت معه ألهمك رشدك ، ألهمك تصرفاً يحفظك به ، أو ألهمك تصرفاً ترضى بنتائجه ، لأن الغيب معلوم لديه ، فأنت لا تعلم الغيب ، قد تشعر بحاجة إلى أن تغادر هذا المكان ، فتغادره ، وبعد أن تغادره تنشأ مشكلة أنت عاجز عن مواجهتها ، كذلك قد تشعر بانقباض في أن تسافر على هذه الطائرة ، فتحجم عن السفر عليها ، فتسقط الطائرة ،

من الذي يعلم الغيب ؟ الله وحده ، إذا كنت مع الله فهو الذي يعلم الغيب ويحفظك بهذا العلم ، يعلم الغيب ويوفِّقُكَ ، يعلم الغيب ويلهمك رشدك ، يعلم الغيب ويكيد لك ، يعلم الغيب ويدبِّر أمراً يحفظك به . . الغيب عند الله كالشهادة ، عَلِمَ ما كان وعَلِمَ ما يكون ، وعَلِمَ ما سيكون ، وعَلِمَ مالم يكن لو كان كيف كان يكون .

إذاً لا يَعْزُبُ عن الله جلَّ جلاله مثقال ذرةٍ في السموات ولا في الأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر . . إذا كنت معه وهو الذي لا يغيب شيءٌ عن علمه يوجهك إلى الخير ويدفع عنك الشر قبل أن يقع .

شيء لا يصدق أحياناً ، الأحداث أحداث خطيرة تقع ، أنت قبل أن تقع يحفظك الله منها ، يلهمك أن تغادر ، يلهمك أن تنقل مالك من مكان إلى آخر ، من جهةٍ إلى جهة ، من عُملةٍ إلى عُملة ، وأنت لا تدري ، لأن الله يعلم الغيب ، فإذا كنت معه وتؤدي حقوق العباد ، وتقيم منهج الله يحفظك ، وعلمه للغيب تنتفع به إذ ربنا جلَّ جلاله يصرِّف الأحوال ويقبلها لصالح عباده المؤمنين .

أما الشهود والشهادة ، أي الحضور مع المشاهدة ، عالِم الغيب والشهادة ، أي أنت حاضر وتشهد أو غائب وتجهل ، عالَم الغيب أي غاب عنك ، عالَم الشهادة حضرت وشهِدت ، إما بالبصر أو بالبصيرة ، البصر رؤية العين ، والبصيرة رؤية القلب ، وعالم الغيب : حجبت فجهلت قال الله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام : ٧٣] .

ذُكر اسمه هذا عالم الغيب والشهادة في آياتٍ كثيرة.. طبعاً الحضور والشهود هو الأصل ، أما العلم والشهود فهو فرع ، قد تحضر وتشاهد بأمّ عينك ، وقد تعلم وكأنّك تشاهد .

لكن من اللطائف في قوله تعالى :

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ [الفيل : ١] .

مع أن هذا الحادث لم نره نحن ، فالله سبحانه وتعالى قال : ﴿أَلَمْ تَرَ﴾.. قال بعض العلماء : « **يجب أن يقع إخبار الله لك موقع الرؤية لمصداقية الله عزَّ وجلَّ** » .

شهدت فعلمت وغبت فجهلت ، شهدت الحفل فعلمت وقائعه أو غبت عنه فجهلت وقائعه فهناك عالم الغيب ، وعالم الشهادة ، والله جل جلاله عالم الغيب و الشهادة .

موضوع آخر في علم الغيب

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة : ١-٣] .

أي أن الله جلَّ جلاله لا تدركه الأبصار ، غابت عنا ذاته وبقيت آثاره ، نحن من آثاره نتعرف إليه وهذه مهمة العقل.. أدواتٌ ثلاث للمعرفة ، إما أن ترى بحواسك ، وإما أن تدرك بعقلك ، وإما أن تتلقى خبراً بأذنك ، هذه هي أدوات المعرفة وليس هناك أداةٌ أخرى.. إن كان هناك أداةٌ أخرى كالإشراق ، أو الإلهام أو الرؤيا الصالحة يجب أن تكون مقيدةٌ بالشرع ولا نقبل رؤيا ولا إلهاماً ، يخالف الشرع قِيد أَنمُلة.. ديننا دينٌ كاملٌ تام.. قال تعالى :

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾..

لو أنَّ رجلاً رأى النبي عليه الصلاة والسلام ـ طبعاً في المنام ـ هكذا قال العلماء ، وأمره بما يخالف الشرع ، تردُّ الرؤيا ، ويثبت الشرع. . بل لو أنَّ قاضياً رأى في الرؤيا أنَّ هذا الشاهد كاذب لا تقبل شهادته ، وهو عنده في اليقظةِ صادقٌ فيجب ألا يأخذ بالرؤيا .

الرؤيا يستأنس بها ولا يعتمد عليها إطلاقاً ، لا في حكمٍ شرعي ، ولا في إثبات قضية ، ولا في تصحيح حديث ، ولا في تقييم إنسان. . الرؤيا والإلهام مصادر فرعية للمعرفة ، إلا أنها يجب أن تنضبط بالشرع .

من معاني الغيب أيضاً ، يؤمنون بالغيب ، يؤمنون بشيءٍ غاب عنهم ، ذات الله لا نراها لكن نرى خلق الله ، مصير الإنسان لا نراه ، لكن الله أخبرنا عن مصير الإنسان إما في جنةٍ يدوم نعيمها ، أو في نارٍ لا ينفد عذابها .

الخلاصة أن الغيب بالمعنى الثاني الدقيق ، مالا يقع تحت الحواس أبداً ، الشيء الذي يقع تحت الحواس عالم الشهادة ، والشيء الذي لا يقع تحت الحواس عالم الغيب ، لكنَّ الله عالم الغيب والشهادة .

فإذا لم يؤمن الإنسان بالغيب أصبح كافراً له ، ومن لوازم المتقين أنهم يؤمنون بالغيب ، أي عقلك يعطيك دليلاً قطعياً ، على أنه لا دخان بلا نار ، النار لا تراها ، لكنَّك رأيت الدخان ، وعقلك يعطيك دليلاً قطعياً على أنَّ في المسجد كهرباء وأنت لا ترى الكهرباء ترى آثارها ، ترى حركة المراوح وتسمع تكبير الصوت ، وترى تألُّقَ المصابيح فقط ، تحكم على سريان تيار الكهرباء من آثاره .

بعضهم قال : إنَّ الغيب هو القرآن الكريم أو إنه القدر ، لكن الغيب ـ حقيقة ـ كلُّ شيء غاب عن حواسِّك ، أو كلُّ شيء غاب عن علمك ، وعالم الشهادة كلُّ شيء شهدته فعلمته .

لقد ذكرت في بداية البحث أن الغيب أنواع ، نوع من الغيب استأثر الله به ، ونوعٌ أَطْلَع بعض أنبيائه عليه .

قال الله تعالى :

﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ﴾ [الجن : ٢٦ـ٢٧] .

لذلك فإنّ النبي عليه الصلاة والسلام ، في أحاديث كثيرة ، حدثنا عن أشراط الساعة ، الكُبْرى والصُّغْرى ، وحدثنا عن آخر الزمان ، وكيف أن الأَمَةَ تلد ربّتها ، وكيف أن الحفاة العراة ، رعاء الشاة يتطاولون في البنيان ، وكيف يوسَّد الأمر إلى غير أهله ، وكيف ـ كما روي عنه ـ يكون المطر قيظاً والولد غيظاً ويفيض اللئام فيضاً ، ويغيض الكرام غيضاً . وكيف يُؤمَر بالمنكر ، ويُنهى عن المعروف ، وكيف يُصدَّق الكاذب ، ويُكذَّب الصادق ، ويخَوَّنُ الأمين ، ويُؤتمن الخائن ، وكيف تركب ذوات الفروج السروج ، وكيف تكثر الأشجار وتقلُّ الثمار .

هناك أحاديث كثيرة جداً عن أشراط الساعة ، من أين جاء بها النبي عليه الصلاة والسلام ؟ هو لا يعلم الغيب بذاته إلا أن يعلمه الله به وأكبر دليل على ذلك أنه لمّا جاءه وفدٌ من رعل وذكوان وعصية وبني لحيان فزعموا أنهم قد أسلموا ، أعطاهم النبي ﷺ سبعين قارئاً ثم غدروا بهم في الطريق عند بئر معونة وقتلوهم ، ولم يعلم النبي ﷺ

بهذه الواقعة ، التي لها دلالة كبيرة جداً ، أي أن النبي عليه الصلاة والسلام لا يعلم الغيب بذاته إلا أن يُطلعه الله عليه. . بل إنه حينما اختار موقع بدر ، جاء صحابي جليل اسمه الحُباب بن المنذر ، قال : يا رسول الله ، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ قال : بل هو الرأي والحرب والمكيدة ، فقال هذا الصحابي الجليل انطلاقاً من غيرته على الإسلام والمسلمين : يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل .

الله عزَّ وجلَّ أطلع النبي ﷺ على آلاف القضايا التي هي أقل من هذا الموضوع ، ولكن شاءت حكمته أن يعلِّمنا النبي ﷺ أدب الإصغاء إلى النصيحة ، يعلمنا النبي ﷺ وهو قدوتنا وأسوتنا أدب الإصغاء إلى النصيحة فلما سأله أين الموقع الذي اخترته ؟ قال : هناك يارسول الله ، وأشار إليه ، وأعطى الرسول صلى الله عليه وسلم أمراً بالانتقال إليه .

إذاً : الغيب لا يعلمه إلا الله ، والشهادة يعلمها الإنسان في حدود إمكانه. . فالغيب الذي يمكن أن يُطلع الله نبيه ﷺ عليه ، أنواعٌ ثلاثة : غيب الماضي ، وغيب الحاضر ، وغيب المستقبل. . غيب الماضي قبل الوقت الذي تعيش فيه ، وغيب المستقبل بعد الوقت الذي تعيش فيه ، وغيب الحاضر غير المكان الذي تكون فيه. .

مثلاً : أنا في دمشق لا أدري ماذا يجري في حلب ، حلب بالنسبة إلي غيب حاضر ، أما دمشق قبل مئة عام فغيبُ ماضٍ ، وبعد مئة عام غيبُ مستقبلٍ ، والله سبحانه وتعالى ، يعلم غيب الماضي ، وغيب الحاضر ، وغيب المستقبل .

قال الله تعالى :

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٤٤] .

هذا غيب الماضي . . أما غيب الحاضر . . فقد قال الله تعالى :

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٣٠] .

أما غيب المستقبل . . فقد قال الله تعالى : ﴿ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [الروم : ٢-٤] .

أريد أن أركِّز على هذه الحقيقة وأوضِّحها ؛ فأنت إذا كنت مع الله ، والله يعلم الغيب ، يعلم غيب الحاضر ، فالطرف الآخر وهم خصومك ؛ يعلم ماذا سيفعلون بك ، كما يعلم ماذا سيخططون لك ، وهو يعلمهم ، ويلْهمك شيئاً يقيك تخطيطهم ، يلهمك تدبيراً يحميك من غدرهم ، يلهمك خطةً تنجو بها من مكرهم ، فأنت إذا كنت مع الله أنت مع عالم الغيب والشهادة الذي يفسد على الآخرين مكرهم ، وما أحداث ليلة الهجرة مجهولة لديكم . . لذلك قال الله تعالى :

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة : ٥١] .

لكن قد توجد مفاجآت ، فهناك آلاف الوقائع والأحداث يفاجأ بها الإنسان والإنسان المبتعد عن الله قد يفقد كلَّ ماله في بضع دقائق ، وأحياناً في دقائق قد يفقد أهله أيضاً ، أما الإنسان المتوجه إلى ربِّه

عالم الغيب والشهادة ، الذي يعلم ما كان ، ويعلم ما سيكون ، ويعلم ماهو كائن في أيِّ مكانٍ آخر ، فقد ينجيه من كل كرب .

ذكر لي أخ أن دماراً كبيراً جداً وقع في مكان ما ، وكان هو في المكان نفسه ، قال لي : والله الذي لا إله غيره قبل خمس دقائق من وقوع الانفجار ، أُلهمت أن أخرج من المكان لكي أشتري الخبز ، وما إن ابتعدت مئات الأمتار ، حتى سمعت صوت انفجار أصم الآذان ، شيء مدمِّر ، فإذا كنت مع الله كان الله معك ، والله عزَّ وجلَّ إذا قال : إن الله مع المؤمنين ، أو مع المتقين ، أو مع الصابرين. . فهذا يعني أنَّه معهم حفظاً ، وتأييداً ، ونصراً ، وتوفيقاً .

لذلك فعلى الإنسان إذا همَّ بعمل شيء أن يصلِّي صلاة الاستخارة فيقول : اللهم إني استخيرك بعلمك واستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولاأقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب. . . اللهم! فإن كنت تعلم هذا الأمر ـ وتسميه باسمه ـ خيراً لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاقدره لي ويسِّره لي ثم بارك لي فيه .

هو يعلم أنَّ هذه المرأة لا تُسعدك فيصرفها عنك ويصرفُك عنها ، هو يعلم أنَّ هذه التجارة لا تُغنيك بل تفقرك ، هو يعلم أنَّ هذا السفر ليس في صالح إيمانك. . هو يعلم الغيب وأنت لا تعلم ، فإذا فوَّضت ، فقد فوَّضَ الذي لا يعلم لمَنْ يعلم. . وهذا ذكاء وتوفيق .

قد تقف عند بائع تثق به وتقول له : أنت اختر لي ، فقد سلَّمت أمري إليك واختر لي ما يُعجبك ، فيختار لك أحسن ماعنده. . هذا مع إنسان تثق به تفوِّضه فكيف مع الواحد الديَّان ؟!

بالمناسبة.. كلما ارتقى الإنسان في سُلَّم الإنسانيّة يخاف بالغيب، وكلما هبط إلى مستوى البَهيميّة يخاف بالشهود.. وهذه فكرة دقيقة.. كلما ارتقى الإنسان في سُلَّم الإنسانيّة يخاف بعقله، وكلما هبط إلى مستوى البَهيميّة يخاف بعينه، أي إلى أن يرى الخطر ماثلاً عندها يخاف، علماً بأن الخطر يدرك مسبقاً بالعقل.

فمثلاً يقول الأطباء: إنَّ الدخان يسبب سرطان الرئة، وهذا النيكوتين الموجود فيه يسرِّع القلب، ويزيد من خفقان الرئتين، ويضيِّق الأوعية، فيرفع نسبة السكر في الدم، ويرفع نسبة هرمون التجلُّط، فاحتمال التجلط في دم المدخِّن كبيرٌ جداً، الأمراض القلبية عند المدخنين عشرة أمثالها عند غير المدخنين، هذا كلُّه بالعقل يُدرك، أما المدخِّن الذي يخاف بعينه فإنه لا يقلع عن الدخان إلا بعد أن يصاب بمرض عضال، فبعد أن يصاب يقلع على الفور.. فمعنى هذا أنَّه إنسان بهيمي.. كلما ارتقى مستواك الإنساني خفت بعقلك، وكلما تدنى مستوى المرء الإنساني إلى المستوى البهيمي خاف بعينه.

قد تجد الدابة إن رأت حفرة في الأرض تقف، لقد رأت بعينها..، وقد يجد إنسان طريقاً واسعاً وممهَّداً ومعبَّداً ويجد لوحة كتب عليها: انتبه! الطريق مغلق، فالإنسان العاقل لا يتابع السير، فالطريق تراه بعينيك مفتوحاً أمامك، ولكنّ قراءتك للوحة صغيرة تفيدك أنَّ الطريق بعد قليل مغلقٌ فلا تتابع المسير، فأنت الآن لم ترَ الإغلاق ولكن رأيت فكرة الإغلاق، فكلما ارتقى الإنسان يتعامل مع الأفكار، أما إذا هبط إلى مستوى البهيميّة فإنه يتعامل مع الصور.

قد ترى دُوراً للهو ذات فخامة كبيرة، فيها أجمل أنواع الثريات

والتزيينات والأناقة لكنَّ المعاصي كلَّها تُرتكب فيها ، فالمؤمن يكرهها بعقله ، على حين أن ضعيف التفكير يقدِّرها ويُعظِّمها بعينيه فيمدح فخامتها. . فكلما ارتقى الإنسان تَعامل مع الأفكار بعقله ، وكلما هبط مستواه تَعامل مع الصور بعينيه. .

إذاً فأخطر شيء على الصغار أن تريهم قصَّة مُمَثَّلة. . فلو أريناهم إنساناً متديِّناً أحمقاً أو امرأة متديِّنة حمقاء مهملة أولادها ، فهذا الصغير يكره الدين بلا سبب ، فهو في كل الأحوال لا يتعامل مع الأفكار ، فليس عنده إدراك أو عمق أنَّ هذه تمثيلية والذي كتب هذه التمثيلية أراد تشويه صورة الدين ، فهو قد رأى أنَّ الإنسان الذي يمثِّل الدين إنسان غير جيِّد ، على حين أن الإنسان الجيِّد هو الذي أسبغ عليه الكاتب كلَّ صفات الرجولة فهو إنسان شجاع ووفي إلا أنَّه يشرب الخمر ، فخطورة أجهزة اللهو مع الصغار مدمرة جداً ، لأنَّ الصغير لا يتعامل مع الأفكار بل يتعامل مع الصور ، فيكفي أن تريه امرأةً سيِّئةً جداً بزيٍّ إسلامي ، فيكره الإسلام كلَّه ، ويكفي أن تريه امرأةً تحبُّ أولادها حباً جماً لكنَّها متفلِّتة من الدين فيحب الصغير التفلُّت من الدين ، هنا الخطورة أن نسمح لأطفالنا أن يشاهدوا كل ما هبَّ ودبَّ ، فالطفل الصغير يتعامل مع الصور ، وقد نستطيع أن نفسد عقيدته بالصور ، وأن نشوِّه له كلَّ شيءٍ يعرض عليه بالصور .

فلدينا غيب وكذلك شهادة. . وهناك أمثلة كثيرة جداً. . إنسان ينتظر إلى أن تأتي موجة من البرد قارسة فيهيِّىء المدافىء ويشتري الوقود السائل للتدفئة ، وإنسان آخر تجده وهو في أشهر الصيف يُهيِّىء المدافىء ويشتري الوقود السائل اللازم ، ويجهِّز كل شيء لفصل الشتاء دون مشقة ودون ازدحام على الوقود ، أما حينما تأتي

الموجة القارسة فجأةً فلسوف تجد صعوبة بالغة عند شراء الوقود السائل ، فالذي يتعامل مع الأشياء بإحساساته فهو ذو إدراك ضعيف ، أما الذي يتعامل معها بإدراكه فهو ذو عقل راجح .

كتاب الله ـ جلَّ جلاله ـ أشار إلى كلمة عالم الغيب والشهادة في آياتٍ كثيرة. . فقد قال تعالى :

﴿ ۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٥٩] .

ذكرت في أبحاث سابقة حكمة. . ﴿ ۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ ﴾. . لو قال الله تعالى : ومفاتح الغيب عنده ، أي هي عنده وقد تكون عند غيره ، أما حينما يقول الله عزَّ وجلَّ : ﴿ ۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ ﴾. . فمعنى ذلك أن مفاتح الغيب عنده حصراً .

وفي سورة الفاتحة ورد قوله تعالى :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : ٥] .

فلو قال : نعبد إيَّاك يا رب ، فهذا يعني أننا قد نعبد غيرك أيضاً ، أما قوله تعالى : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾. . فمعناه أننا نعبدك وحدك يا رب ، هذا هو القصر ، فأحياناً التقديم يفيد القصر والحصر .

﴿ ۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۚ ﴾ . إن كان لديك مجلة قديمة صدرت من قبل عشرين سنة ، فاقرأها فستجد أنَّ الأحداث التي وقعت بعد إصدار هذه المجلة لو عشت في تاريخ صدورها لا يمكن أن تتصوَّر أنَّ الذي وقع يمكن أن يقع ، كان غيباً ، حينما تُهدُّ عروش ، وحينما تدكُّ معسكرات كبيرة عملاقة جداً ، فاقرأ

في هذه المجلة القديمة ، وتصوَّر أنَّ الذي وقع ، لو تنبَّأت به قبل أن يقع لأودعوك في مشفىً للمختلين عقلياً لكنَّه وقع فعلاً . . فمن يعلم الغيب ؟ الله جلَّ جلاله هو وحده يعلم الغيب .

فقد يقول لك أكثرالناس : قد عُرض علي شراء أرض مساحتها مئتا دونمٍ وسعر الدونم يومذاك ليرتان فقط ولكنني لم أشترها والآن ثمن الدونم الواحد مليونان . . لو أنَّك تعلم الغيب لكنت الآن من أغنى أغنياء العصر . . أراضٍ شاسعة وواسعة ومئات الدونمات بثمن بخس ، فقد ذكر لي شخص أنَّه قد باع خمسين دونماً بدابة صغيرة كان بحاجة إليها وهذه الأرض ماذا يفعل بها فهي عبء عليه ، أما الآن فسعر الدونم الواحد مليونان . . هذا كان في علم الغيب .

لذلك التجَّار يقولون كلمة لطيفة : تاجر ومنجِّم لا يجتمعان . . لا أحد يعلم ما سيكون ، أحياناً تجد الأمور تسير في طريق مسدود إلى أن ييأس من لا ثقة له بالله ، فقد كان في بلادنا جفاف مخيف كاد حوض دمشق يجف ، وكادت دمشق تعاني من العطش ولكنَّ الله جلَّ جلاله أنزل أمطاراً غزيرةً في الأعوام التالية ، وهذا كان غيباً . . فموضوع الغيب موضوعٌ دقيقٌ جداً .

فأحياناً يقال لك : إنَّهم تمكنوا من معرفة الجنين ذكراً أو أنثى ، فأين قول الله عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾ [لقمان : ٣٤] .

﴿يَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ﴾ . . فلم يقل الله : يعلم من في الأرحام ذكراً كان أو أنثى . قال : ﴿وَيَعْلَمُ مَا﴾ . . فالحوين المنوي يوجد

على النويَّة فيه ملايين المعلومات المبرمجة ، فهذا الجنين هل سيكون عالماً كبيراً ، أو أستاذاً في الجامعة ، أو مؤلِّفاً خطيراً ، أو بائعاً متجوِّلاً ، أو مجرماً ، أو سجيناً ، أو مصلحاً ، أو مفسداً مثلاً ، وهل ياترى سيكون صاحب ملهى أم صاحب دارٍ للنشر ، مَن سيكون ؟ من سيتزوَّج ؟ من سينجب ؟ ما دوره في الحياة ؟ هل يكون دوراً هامشياً أم دوراً قصيراً فمن يعلم هذا ؟ إذا وجد على النويَّة هذه المعلومات المبرمجة لا يعلمها إلا الله ، فما نسبة معرفة ذكورته أو أنوثته إلا واحد لخمسة آلاف مليون .

أحياناً تجد أباً لديه خمسة أولاد لا يعلم من هو المتفوِّق ، وبعد ثلاثين سنة تجد ولداً منهم قد تألَّق تألُّقاً كبيراً جداً ، وولداً آخر أصبح في الدرجة الدنيا من المجتمع ، مَن الذي يعلم الغيب ؟ الله وحده يعلم الغيب.. علم ما كان ، وعلم ما يكون ، وعلم ما سيكون ، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون ، فقد قال تعالى : ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ .

هل أنت مرتاح إلى أنَّ الله الذي تعبده يعلم كلَّ شيء ، وعلمه لصالحك فقد قال تعالى :

﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾ [الرعد : ١١] .

﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ ﴾ .

فأحياناً يقول لك أحد الأشخاص أثناء قيادة مركبة : لو تقدمت سنتيمتراً واحداً لكان وقع لي حادث أليم ، فمن يعلم الغيب ؟!

الله عزَّ وجلَّ يصرفك أحياناً عن شيء مدمِّر ، فيلهمك رشدك . . إنسان له تجارة معيَّنة ، والبضاعة موجودة ، والطلب عليها شديد ، والتصدير ميسَّر ولكنَّه قال لي بالحرف الواحد : والله! شعرت بضيق وانقباض بصورة غير معقولة ، وبلا سبب أو تعليل ، واشتدَّ الضيق عليَّ إلى درجة أنَّني أحجمت عن تصدير هذه البضاعة ، ثم كان الذي كان ، فُرِض على الذي قاموا بالتصدير في ذلك العام ضرائب أكلت أخضرهم ويابسهم ، ونجَّاه الله من هذه الضرائب التي لم تكن في الحسبان ، والسبب أنَّه أنفق مالاً وفيراً في خدمة بيوت الله عزَّ وجلَّ . . ولأنَّ الله عزَّ وجلَّ يعلم الغيب صرفه عن هذا العمل ، وهناك آلاف الشواهد المشابهة ، فأنت حينما تعبد الذي يعلم الغيب ، فعلمه للغيب كلُّه لصالحك وأنت لا تدري . . من هنا قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢١٦] .

سألني أخ ذات مرة عن قضية فيها شبهة ، فأخبرته بأن فيها شبهة ، فقال لي : ليس لي دخل إلا منها . فقلت له : هذا شأنك لا شأني وقد سألتني فأجبتك . ولكن يبدو أن خوفه من الله غلب عليه فامتنع عن هذه الطريقة في التعامل وكان امتناعه لله ، في حين أنها كانت رائجة جداً وتدر عليه دخلاً كبيراً جداً ، وكان في بحبوحة كبيرة ، فلما امتنع عن هذه الطريقة المشبوهة في التجارة التزاماً بشرع الله سبحانه ، ومضى عليه أكثر من ثلاثة أشهر ودخله قليل جداً ثم مُنِعت

هذه الطريقة من أصلها قسراً ، فجاءني وقال : الحمد لله الذي تركتها لله ، بعد حين كنت سأتركها مقهوراً ومجبوراً مع الإثم والوزر ، أما الآن وقد تركتها رجاء مرضاة الله وأنا في الأوج ، ثم كافأني الله بأن فتح لي باب رزقٍ وفير لم يكن بالحسبان .

موضوع أنَّك تعبد الذي يعلم الغيب موضوع دقيق ، فأنت في راحة لأنَّ كل ما سيكون هو في علم الله ، لذلك يوجِّهك الله توجيهاً لصالحك ، فالمؤمن يُلهِمُه المَلَك ، والمنافق يدفعه الشيطان ، يدفعه إلى أن يبخل ، يدفعه إلى أن يحقد ، يدفعه إلى أن يخاصم زوجته ، يدفعه إلى كلِّ المشكلات .

آيةٌ ثانية قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ .

﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ الحكيم كما تعلمون يضع الشيء بالقدر المناسب ، وفي المكان المناسب ، وفي الوقت المناسب ، وليس في الإمكان أبدع مما كان ، وكل شيءٍ وقع أراده الله .

و﴿الْخَبِيرُ﴾ : الخبرة هي العلم الذي يتعلَّق بالمستقبل.. فأحياناً تقوم ببناء آلة بمعرفة وعلم عالٍ جداً ، لكن مع الاستعمال تكشف أنّ فيها أخطاء لم تكن في الحسبان ، فالعلم مع المستقبل يصبح خبرة .

وفي سورة التوبة قال تعالى :

﴿ ۞ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة : ٩٤] .

وفي السورة نفسها قال تعالى :

﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة : ١٠٥] .

فالآيتان متشابهتان .

وفي سورة الرعد قال تعالى :

﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴾ [الرعد : ٩] .

وفي سورة المؤمنون قال تعالى :

﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [المؤمنون : ٩٢] .

وفي سورة السجدة قال تعالى :

﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [السجدة : ٦] .

وفي سورة الزمر قال تعالى :

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [الزمر : ٤٦] .

وفي سورة الحشر قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الحشر : ٢٢] .

وفي سورة الجمعة قال تعالى :

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجمعة : ٨] .

وفي سورة التغابن قال تعالى :

﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [التغابن : ١٨] .

ممكن أن نلخِّص المواقف العملية للمؤمن من خلال هذا الاسم أنت إذا استقمت على أمر عالم الغيب والشهادة لن تفاجأ بغيبٍ مدمِّر ، أنت إذا استقمت على أمر عالم الغيب والشهادة كان علم الله للغيب لصالحك ، يحميك من كل سوء ، يقيك شرَّ أعدائك ، يُلهمك رشدك ، يُلهمك الخير وأنت في حرزٍ حريز .

حينما تعلم أنَّ الله يعلم . . وهذه الحقيقة وردت في قوله تعالى :

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق : ١٢] .

أي إنَّك إذا علمت أنَّ الله يعلم استسلمتَ وارتحتَ ، لذلك يقول المؤمن أحياناً : اللهمَّ خِر لي واختر لي . . أي يا رب! أنت اختر لي .

روي أن من أدعية النبي ﷺ مارواه عَبْد الله بْن يَزِيدَ الْخَطْمِيِّ الأنْصَارِيِّ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ : « **اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يَنفَعُنِي حُبُّهُ عِنْدَكَ ، اللَّهُمَّ مَا رَزَقْتَنِي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ قُوَّةً لِي فِيمَا تُحِبُّ ، اللَّهُمَّ وَمَا زَوَيْتَ عَنِّي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ فَرَاغاً لِي فِيمَا تُحِبُّ** » .

قال تعالى :

﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

وأقول مرة أخيرة . . . أنت تقف هنا ، لا تعلم هناك ما سيكون ، فقد يكون لك عدو كبير خطير مخيف يدبِّر لك أمراً ما ، لكنَّ الله يعلم ما أنت فيه وما خصمك فيه ، فإذا كنت مع الله عزَّ وجلَّ ألهمك رُشدك ، ألهمك الخلاص من هذا العدو ، أو ألهمك تدبيراً مضاداً

لتدبيره ، أو ألهمك سلوكاً يُعطِّل عليه مَكْرَهُ لأنَّه يعلم الغيب ، وهذه هي أهم فكرة في هذا البحث ، أنت إذا كنت مع الله فأنت مع عالم الغيب والشهادة ، الغيب لصالحك فلا توجد لديك مفاجأة ، فتجد المؤمن الصالح كل شيء يسيِّره الله به لصالحه والغيب يكشف له الحقيقة .

وتجد الإنسان غير المستقيم يخطط . . فذات مرة فكَّر إنسانٌ وأكثرَ من التفكير الجاد ثم باع كلَّ ما يملك واشترى به عملة لبنانية ، فمن يعلم أنَّ هذه العملة سوف تصبح متدنية وسيصل سعر كل دولارٍ واحدٍ يساوي ثلاثة آلاف وثمانمئة ليرة لبنانية ؟ باع كل أملاكه وتاجر في العملة الصعبة فكانت خسارته دماراً ووبالاً ، فمن يعلم الغيب ؟ الله عزَّ وجلَّ وحده هو الذي يعلم .

فحينما يكون الإنسان مع الشيطان ومنحرفاً عن الخط الإسلامي الصحيح فالغيب ليس في صالحه ، فيفكِّر ثم يفكِّر حتى يجهد نفسه تقليباً للأمور واستكشافاً لخفاياها ، ثم يجعل الله تدميره في تدبيره لأنَّه لا يعلم الغيب ، وتخلى عمن بيده الخير .

أحياناً تجده يضع كل أمواله في مشروع غير ناجح ، لو علم الغيب لما أقدم على هذا المشروع ، أما المؤمن فهو لا يعلم الغيب ولكنَّ الله يدافع عنه ، لكنَّ الله يسيِّره ، لكنَّ الله يحفظه ، لكنَّ الله يلهمه ، لكنَّ الله يصرفه عن هذا الشيء ، وقد قال تعالى : ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ .

فأدق ما في بحثنا هذا النقطة التالية : أنت إذا كنت مع الله فهو يعلم الغيب ، ويعلم ما سيكون فلذلك يلهمك رُشدك حيال

ما سيكون ، فاللهمَّ اجعلنا من هؤلاء الذين يستسلمون لك يا ربّ ، ويفوِّضون إليك كل أمورهم .

اللهمَّ! أعطنا ولا تحرمنا ، أكرمنا ولا تهنا ، آثرنا ولا تؤثر علينا ، أرضنا وارضَ عنَّا اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك ، ومن طاعتك ما تبلِّغنا به جنَّتك ، ومن اليقين ما تهوِّن به علينا مصائب الدنيا ، ومتِّعنا اللهمَّ بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا واجعله الوارث منا ، واجعل ثأرنا على من ظلمنا ، وانصرنا على من عادانا ، ولا تجعل الدنيا أكبر همِّنا ولا مبلغ علمنا ، ولا تُسلِّط علينا من لا يخافك ولا يرحمنا ، وصلَّى الله على سيِّدنا محمدٍ النبيِّ الأميّ وعلى آلهِ وصحبه وسلَّم .

* * *

المُدَبِّرُ

من أسماء الله الحُسنى المدبّر ، والمدبر هو أحد أسماء الله الحُسنى ، وهو زائد على الأسماء التِّسعة والتسعين المعروفة .

المدبر : اسم فاعل من التدبير ، والتدبير مصدر ، وفي اللغة التدبير هو النظر في عواقب الأمور ؛ تدبَّر الأمر أيْ نظر في عواقبه ؛ العاقل يتدبر الأمر وينظر في عواقب الأمور ؛ قد تُعجِبه امرأة حسناء رقيق دينها فتجده يرفض هذا الزواج ! لماذا ؟ لأنه تدبر عاقبة الأمر فهي أمُّ أولاده مستقبلاً وسَتُربيهم تربيَةً فاسدة وسَيَخْجلون بِأُمهِمْ إذا كَبِروا ، فَتَدَبُّر الأمر : هو النظر في عواقبه .

قد يذهب الإنسان إلى بلدٍ غربيٍّ ويجد بحْبوحَة كبيرة : جمال طبيعي ما بعده جمال ، ورخاء في المواد والأسعار ، ورُخْصٌ في المركبات ، وبيوت فخمة جداً ، فَطَبيعة الحياة تُغريه أن يذهب إلى هناك ويستقر فيه ، فالعاقل يتدبر عاقِبة هذا الأمر ، سوف يكبر أبناؤه هناك ، وسوف ينشؤون نشأةً لا تُرضي الله ، وسَيَجِد مع ابنته صديقاً فماذا يفعل ؟ وماذا يفعل إذا كبر أبناؤه في مجتمعٍ فاسِدٍ وسيِّىء ولا حرج على أحدهم أن يمارس الزنى فالأمر سهل كَشَرْبة الماء ؟ فإذا أردت تنفيد أمْرٍ تدبَّر عاقبته .

قد يسافر الإنسان فماعاقبة هذا السفر ؟ وقد يعمل عملاً ما فما عاقِبة هذا العمل ؟ وقد يقبِض المال الحرام فما عاقِبة هذا المال ؟ وقد يتزوج هذه المرأة اللعوب فما عاقبة ذلك ؟ فالتدبر هو التفكر في عواقب الأمور ، والتفكر في نتائجها ، فالمؤمن لايقبل على أمر حتى يتدبَّر عاقِبته ، فهناك أناسٌ كثيرون يُغْريهم العملِ بما يُخالِف القوانين فيربحون ثم يخسرون كل شيء ، ولو أنهم تدبَّروا عاقِبة الأمور لَمَا فعلوا ذلك ، ولما وقعوا في سوء أفعالهم .

أمثلة كثيرة ؛ فَلَو أن الإنسان رفض أن يتعلم فإذا تدبر عاقِبة هذا الأمر ورأى نفسه جاهِلاً تائهاً وشارِداً وضعيف الشأن في المجتمع لما أحجم عن التعلم . فالإنسان العاقل هو الذي يفكر في عاقبة الشيء قبل أن يصل إليه فهو يخاف بعقله ؛ والإنسان الأقل عقْلانية أو الضعيف العقل أو الذي يُعطِّل عقله يخاف بِعيْنِه ، وهذا هو الفرق بين الإنسان والحيوان ؛ فالإنسان يخاف بِعقلهِ والحيوان يخاف بِعَيْنِه ، فالذي يُدَخِّن لايُقْلِع عن التدخين حتى يُصاب بِمَرَضٍ عُضال ، فعند فحص العينة بالمخبر ويأتي الجواب : مرض خبيث ، بسبب الدخان عِندئذٍ يُقْلِع عن التدخين ، أما العاقِل فيعرف عاقبة التدخين قبل أن يصل إليها ، فالعقل يريك النتيجة قبل أن تصل إليها ، وتصِل إليها بِعَقْلِك قبل أن تصل إليها بِجِسْمِك ، فإذا كان هناك طريق مغلق بعد خمسة كيلو مترات فهل تُكْمِل المسير ؟ فالذي يتحرك بِعَيْنِه يقول : الطريق سالك ، ويسير ، فإذا به بعد قليل يجد الطريق محفوراً ومغلقاً ، فلو قرأت اللوحة لَوَصَلْت إلى هذه النتيجة بيسر وأرحت نفسك فاللوحة تعطيك النتيجة قبل المجازفة ، فهذا هو العاقل . أما غير العاقل فإنه يقرأ اللوحة ويكمل سَيْرَه لأنه يرى الطريق سالِماً إلى

أن يجد الحفر فيقول : لا حول ولا قوة إلا بالله ويعود راغماً ، فإذا تحركتَ بِحواسك الخمس فأنت دون مستوى البشر أما إذا تحركت بِعَقْلِك ووصَلت إلى النتائِج مسبقاً فأنت عاقِل حقًّا .

إنسان ذهب إلى بلَدٍ وزلَّت قدمه فَعانى من مرضٍ جِنسي عشرين عاماً وهو يتمزَّق كي يُخْفِيَه عن أولاده وزوجَتِه وكيف يُعالِجه ؛ فهذا لو تدبَّر الأمر قبل أن يفعله لما فعله فهذا هو التدبر ؛ التفكر في عواقِب الأمور والتفكر في نتائِجها ومُؤداها وعقابها ، أحياناً يكون الإنسان في أوْجِ شبابه يعيش لحظته يأكل ويشرب ويستمتِع ولا يتعلَّم ولا ينضَبِط ولا يسأل عن شيء ، فإذا تقدَّمت به السِّنّ يجد نفسه بعيداً عن مراتب البطولة وفي مُؤَخِّرة الرَّكْب وفي الدرجة الدنيا في المجتمع فهذا عطَّل عقله ولم يفكر ، وتجد آخر يفكر ويتروّى ويبني مستقبله لبنةً لَبِنَة ويجعل لنفسه بِدايَةً مُحْرِقة فتكون له نِهايَة مشرِقة .

التدبر هو النظر في عواقب الأمور وأدبارِها ، والتدبير هو أن يحسن المرء التدبُّر والتفكُّر ، وهو النظر في عاقِبة الأمر ، أو ما يؤول إليه وعاقِبتُه أيْ مؤداه ومنتهاه ، والتدبر قريب من التفكر ، أما الدَّبْر فهو النَّحْل والزنابير سِلاحها في أدبارها ، وقيل سُمِّيَت دَبْراً لِتدبيرها وتألقها في العمل العجيب ، ومنه بِناء بيوتها فلذلك سُمِّيَت بِهذا الاسم في اللغة ، فإذا قلنا : الله جل جلاله مُدَبِّر كان لدينا معنى آخر قال تعالى :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [يونس : ٣] .

فما معنى يُدبِّر الأمر ؟

آية ثانية : قال تعالى : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس : ٣١] .

قال : ومن يدبر الأمر ؟ .

آية ثالثة : قوله تعالى :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ [الرعد : ٢] .

وقال تعالى في سورة السجدة :

﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [السجدة : ٥] .

ففي هذه الآيات القرآنية ورد قوله تعالى ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾ فهو المدبِّر ، هنا التدبير إذا عُزِيَ إلى الله عز وجل كان له معنىً آخر ؛ قال : هو التوفيق بين أوائل الأمور وعواقِبها ، فإذا طلب المرء الزواج فالزواج يبدأ بِنيَّة ؛ فهذا نوى أن يتزوَّج فمن الذي يُيَسِّر له البيت والزوجة الصالحة وأن يملك المهر والمال كي يُؤَسِّس بيتاً يضمهما ، وأن يقتَرِن بِهذه المرأة وأن يُنْجِب منها أولاداً صالحين ، وبعد حين يجد نفسه في بيت يزدان بزوجة وأولاد ، وغدا ذا مكانة في المجتمع ، وقد كان بِالأمسِ شاباً لا يملك من حُطام الدنيا شيئاً ، فَمَنْ دَبَّرَ أمره ؟ ومن أوْصَلَه من مُبتدأ رغْبَتِه بِالزواج إلى نِهاية المطاف ؟ إنه الله عز وجل .

وذاك أراد أن يُتجِر فمن يسَّر له رأس المال والمحل والرُّخص وشِراء البِضاعة والبَيْع والرِّبح وتأمين الحاجات فمن يدبِّر الأمر ؟ هو الله تعالى وهذه كلمة واسِعة جداً ، وأنت تنام وتذهب إلى فِراشِك فمن يُحَرِّك الأرض حول ذاتها من أجل أن يُشْرِق الصباح ؟ هو الله سبحانه ومن الذي يجعلها على خط سَيْرِها حول الشمس ؟ هو الله سبحانه ، ومن الذي يُنزِل من السماء ماءً فيُحْيي به الأرض بعد مَوْتِها ؟ هو الله سبحانه . وأنت ما عليك إلا أن تُلْقي حبّة في الأرض فهذه الحبّة من الذي أعطاها شروط النمو ومن الذي أودع فيها هذه القوة ؟ حبّةٌ صغيرة تُصْبِح بعد حين شجرةً كبيرة فمن نَمَّى هذه الحبة ومن الذي جعل لها سُوَيْقاً وجُذَيْراً وكذلك الرُّشَيْم ؟ هو الله سبحانه ، فهو يُدبِّر الأمر في النبات والحيوان والإنسان فإذا تمَّ اللقاء بين الزوجين خرج الماء وتم لِقاح في البُويضة وما عليك بعد ذلك من شيء ، فأنت في حالك وزوجتك في حالِها ، إن الله هو الخالق للنطفة والمدبِّر لها ثم يخرجه طفلاً .

فكيف لقّحت هذه البُوَيْضة ؟ وكيف انقسمت ؟ وكيف سارت إلى الرحم ؟ وكيف انغرست في جِدار الرّحم ؟ وكيف جاء الدم الكثيف ؟ وكيف نمت هذه البويضة فأصبحت على شكل ورقة ؟ ثم كيف اتّضح الدّماغ والجِذع ؟ وكيف نبتت الأطراف ؟ وبعد تِسْعَة أشهر تجد طِفلاً كامِل الخلق ؛ رأسٌ وجُمْجُمَة وبصر وأعصاب حِسٍّ وأعصاب حركةٍ وعضلات وعِظام وجِهاز هضم وجِهاز تنفُّس وجِهاز دوران وإفراز وغدّة صماء وغدّة درقية وغدة نخامية وغدة البنكِرياس ؛ في تسعة أشهر وعشرة أيام من نطفة لا تُرى بِالعَين إلى طِفلٍ كامل الخلق ، فمن يُدبِّر الأمر ؟ يدبِّر الأمر يعني يوصِل المقدِّمات إلى النتائج فالمقدِّمات

نطفة والنتائج طِفل ، المقدِّمات رغبة في الزواج والنتائج زوجة وأولاد وبيت ، المقدِّمات مشروع تِجاري والنتائج تِجارة رابِحة ؛ يدبِّر الأمر ، إنه الله .

قالوا : التدبير إذا عُزِيَ إلى الله عز وجل هو التوفيق بين أوائل الأمور ومبادِئها وأدبارها وعواقِبها ؛ فالطِّفل في بطن أمِّه مُعَرَّض إلى أخطار كبيرة وكثيرة ، فإذا به يولد سليماً ومُعافىً ، فمن دبَّر أمره ؟ هو الله جل جلاله والمقدّمات يجعلها الله تؤدي ما يجب من الغايات .

شيء آخر وهو أنه يُدبِّر الأمر أيْ يهدي عِباده إلى ما أراده لهم فهذا تدبير روحي ؛ يُدَبِّر أمرهم في إمدادهم بِما يحتاجون بالهواء والماء والطعام والشراب والحاجات والمعادن وما إلى ذلك فهذا التدبير المعيشي ، لكنه أيضاً يُدبِّر أمْرَهم الروحي بِإيصالهم إليه ، أحياناً يبعث إليه من ينصحه ، وأحياناً يبعث إليه من يضغط عليه ، ويسوق له شِدّةً ويُخيفه ويُريه مناماً مُزْعِجاً ، ويجْمَعُهُ الله مع إنسانٍ طيِّب ويرزقه رِزْقاً وافِياً كي يستحيي ويُقتِّر عليه في الرزق ويحيطه بِخَوْفٍ شديد ويطمئِنه ، ويُمرِضُه أحياناً ثم يشفيه ؛ فمن الذي يُدبِّر أمره حتى يصِل إليه ؟ هو الله .

والحقيقة أن أدق المعاني وهو أن الله يُدَبِّر أمر عِباده أيْ يهديهم إليه ، فأحياناً تجد إنساناً أشرك بالله ، وهذا الذي أشرك به يُلْهِمُه أن يتخلى عنه تأديباً لِمن أشرك بالله ، فمن الذي لقَّن هذا الإنسان المشرك درساً قاسِياً ؟ هو الله عز وجل ، فهو تعالى يُدبِّر الأمر ؛ يعطي هذا مالاً ، وذاك عِلماً ، فالأول ينفعه المال فيعطيه المال ، وذاك ينفعه العلم فيعطيه العلم ، وهذا ينفعه الذكاء فيعطيه الذكاء ، وذاك يضره

المال يجعله فقيراً ، إنّ من عِبادي من إذا أغْنَيْتُه أفْسَدت عليه دينه ، وإن منهم من إن أفْقَرته أفسدت عليه دينه ؛ من يُدَبِّر الأمر ؟ ومن الذي يعطي الإنسان الشيء المناسب في الوقت المناسب بِالكم المناسب ومن النوع المناسب ؟ هو الله جل جلاله .

هناك شيء دقيق بالنسبة لمفهوم المدبِّر ، وهو أن الله عز وجل لِماذا خلَقَنا ؟ خلقنا لِنَعرفه ونسعد بِقُرْبه ، فكل أفعال الله هي سَوْق العباد لهذا الهدف ، مدبِّرٌ أي يسوقهم من بِداياتهم إلى الغايات التي أرادها لهم ؛ هذا معنى المدبِّر .

هناك بعض الكلمات يقولها بعض الإخوة لها معنى لطيف : توكَّل دَبِّر أو لا تُدَبِّر واستسلم لله عز وجل فهو المدبِّر . وهو الذي يُدبِّر أمور عِباده ، والحقيقة أن الوحي الذي جاءنا من السماء هو من التدبير ، وإرسال الرسل من التدبير ، وإلهام الدعاة إلى الله لإيصال الحق إلى الناس هو من التدبير ، وأن تجِفَّ السماء من التدبير ، وأن تنهمر أمطارٌ غزيرة من التدبير ؛ يدبِّر الأمر قال تعالى :

﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [السجدة : ٥] .

ويقول الله عز وجل في خِتام هذه الآيات : ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أي أتجهلون أن هذا هو الحق المبين ؟ .

قال بعضهم في معنى قوله تعالى :

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [الحديد : ٤] .

أي توحَّد بالجلال ، بالكِبرياء ، في وصف الملكوت ، كما قال الإمام مالك : الاستِواء معلوم والكيف مجهول ؛ هذا لا نعلمه إلا أن

الذي نعلمه هو أنه استوى على العرش ، أحياناً كل شيء جاهز وما علينا إلا الضغط على مفتاح التشغيل وتتحرك كل الأمور ، فهذا تخطيط وتشغيل وتهيِئَة وفِعْل ، فمعنى استوى على العرش : يُدَبِّر الأمر .

أيضاً يُدَبِّر الأمر أي أن كل الحوادِث تصدر عن تقديره وحاصِلةٌ بِتَدْبيره ، وهذا شيء أساسي في التوحيد ، وهو أن كل شيء وقع في الكون أراده الله ولا يقع حادِث إلا بِأمر الله ومشيئته لأنه المدبِّر .

هناك معنىً إضافي وهو أن الله هو المحدِث فلا يقع حادِث إلا بِأمر الله ، أما المدبِّر فيسوق الحوادِث إلى أهدافِها الصحيحة ، أحياناً تجد حركة عشْوائيَّة دون هدف ، فَلُعَبُ السيارات الكهربائية تمشي دون هدف أما الإنسان فإنه إذا أقلع بِسيارتِه فهناك هدف يريد أن يصل إليه ، فالحركةُ تعني أنّ الله هو المحدِث . أما إذا قلنا : المدبِّر فهذا يعني أن هذه الأحداث تَتَّجِه كلها إلى غاياتٍ أرادها الله ، أحياناً تجد اهتِماماً بليغاً من الأب لِدفْع ابنه إلى الدراسة فَتَجِده يُكافِئه مرةً ويُؤَنِّبه أخرى ويدفع له ما يشاء من أجل تحصيل التفوّق في الدراسة فكل هذه الأفعال المختلِفة الصادرة من الأب ، وذات الهدف الواحد هي من أجل تحصيل مستوى في الدراسة .

فالتدبير له معنى بلوغ الهدف . أما المحدِث فله معنى الحركة فالحادِث له محدِث هو الله عز وجل ، أما المدبِّر فهو أن يُساق هذا الحادث لِما خُلِق له ومن هنا قال عليه الصلاة والسلام : « لا ، **اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ** » [رواه الترمذي] .

كل إنسان خُلِق للجنّة فهو مُيَسَّرٌ لها ، فإما أن يأتِيَها طائعاً وإما أن

يُساق إليها بِالسلاسِل ، قال عليه الصلاة والسلام :

عَنْ أَبِي غَالِبٍ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ اسْتَضْحَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْماً فَقِيلَ لَهُ : يَا رَسُولَ اللهِ مَا أَضْحَكَكَ ؟ قَالَ : « قَوْمٌ يُسَاقُونَ إِلَى الْجَنَّةِ مُقَرَّنِينَ فِي السَّلاسِلِ » [رواه أحمد] .

« قوم يُساقون إلى الجنة مقرنين في السلاسل » إما أن تأتِيَها طائِعاً مُبادِراً ، وإما أن يسوقك الله إليها بِالسلاسل بِالامتِحانات والتأديبات والشدائِد .

قال بعض العلماء : « المُدبِّر : لا شريك له تعبُدُه ، وما قضى فما أحدٌ يَرُدّه وما من شفيعٍ إلا من بعدِ إذنه ، وهو الذي ينطِق من يخاطِبه ، وهو الذي يخلُق ما يشاء على ما يشاء إذا التَمَس يُطالِبُه » ، هذا من معاني المدبِّر قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ .

وفي سورة يونس عليه السلام : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس : ٣١] .

أحياناً تأتي موْجة حرٍّ في الربيع فهناك بعض النباتات لا تنضج إلا بِهذا الحر فمن المدبِّر ؟ هو الله جل جلاله ، ذهبنا مرةً إلى بلدةٍ في محافظة القنيْطِرة ووجدت أنواعاً من الدِّيدان لا تعدّ ولا تحصى وعددها غير معقول عددها ، فسألت فقيل لي : هذا العام لم يأتِ ثلج كافٍ فَحِينما ينزل الثلج بشكل كاف تموت الديدان هناك تدبير إلهي ، وَحِينما يداهم الحر هناك تدبير إلهي ، وحينما تأتي الرياح هناك تدبير إلهي ، وأحياناً لا بد من تلقيح النباتات فتأتي الرياح اللواقح ، فالحر

له وظيفة في إنضاج الثمار ، وهناك بردٌ له وظيفة في قتْل الحشرات ، وهْناك رياح لها وظيفة في تلقيح النباتات فَمَنِ المدبِّر ؟ الله هو المدبِّر فهو ـ تعالى ـ يسوق كل شيء إلى هدَفِه .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ .

وقوله : ﴿ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ هذا من التدبير ، وقوله : ﴿ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾ هذا من التدبير ، وقوله : ﴿ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾ ومُلَخَّص كل هذا : من يُدَبِّر الأمر ؟ فالخلق تدبير ، والهداية تدبير ، والرزق تدبير ، والمصائب تدبير ، قال تعالى : ﴿ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ ماذا تنتظر ؟ فما دام الله هو المدبِّر ، فأنت ماذا تفعل ؟ ومن الذي يمنعك من أن تطيعه ؟

أحد العلماء يسأل : أين كانت تكمُن السنبلة في الحبّة ؟ أحياناً تجد حبّةً صغيرة ، بذرة خيار ، يقول لك البائع هذه البذرة تُنْتِج خِياراً طوله ثمانية عشر سنتِمتراً ، لونه أخضر داكن ، ومُلَمَّع ، وإنتاجه كثير وغزير ، ومديد ، فهذه الكلمات التي ينطق بِها بائع البذور ، لو أمْسَكت هذه البِذرة أين ترى هذه الخصائص ؟ قد تجد عشرين خاصيّة لِبذرةٍ فهل عندما تأتي البذور في الأغلِفة أيكون مكتوباً عليها هذه الخصائص ؟ ، فلو أنك فتحت هذه البذرة وقمت بِتَشْريحها ؛ هل ترى هذه الخصائص ؟ ما عليك إلا أن تزرعها وهي تنبت بمواصفات عالية كثيفة وغزيرة ومديدة ، بِحجمٍ مُعَيّن ، وبِلَوْنٍ مُعَيّن ، وبِخصائص مُعيّنة ، وتُقاوِم أمراضاً مُعَيّنة ، فمن جعل هذه الخصائص

في هذه البِذرة ؟ الله جلّ جلاله ؛ يدبِّر الأمر .

قال : أين كانت تكمن السنبلة في الحبّة ؟ وفي النواة أين يكمن اللّب واللِّحاء ؟ فالتِّين مثلاً كم تحوي الواحدة من بذرة ؟ وهل تستطيع عدَّها ؟ فهناك ما يقرب من عشرة آلاف حبّة ، البِذرة الواحدة يُمكنُها أن تُنبِت شجرة تين بِكامِلها ، لها ساق مُعَيّن وجِذع معيّن ولون معيّن وأغصان معيّنة وشكل معيّن وأوراق معيّنة وطبائع معيّنة فقد تجدها تحمل أوراقاً متساقِطة أو دائمة الخضرة ، فكل هذه الخصائص في هذه البذرة التي لا تُرى بِالعَيْن وتحوي كل خصائص التّين ، وهذا تين بعْل وذاك تين أسود وهذا حجمه كبير وذاك حجمه صغير وهذا سكّره جارح وذاك سكّره قليل ، فكل هذه الخصائص أين هي ؟ هو المدبِّر ، وهذه البيضة التي تحوي صفاراً بعد عشرين يوماً تصبِح فرخاً صغيراً فيه عينٌ وأُذن ومِنقار ، وقالوا : هذا الصوص حينما يأتي وقت خروجِه من البيضة ينبت على مِنقارِه نتوءٌ كالإبرة تماماً يكسِر به البيضة وبعد أن يخرج يضمر هذا النُّتوء ويعود المِنقار كما هو عليه في الأصل ؛ مِنقار ينبت له نتوء مدبَّب كالإبرة تماماً وبه يكسر البيضة ويخرج ، ولما تنتهي مهمّة هذا المِنقار يرجِع إلى وضعه الطبيعي .

ومن أوضحِ آيات التدبير أن الجنين في بطن أمِّه ليس لديه تنفّس فالرِّئة معطَّلةٌ ، عنده دوْرة دمويّة إلا أن التنفس معطَّل ، فربُّنا عز وجل خلق ثقباً بين الأُذينين فالدم بَدَلَ أن ينتقل من الأذين إلى الرئتين ثم إلى البُطَيْن ينتقل من أُذين إلى أُذين لأن طريق الرِّئتين مسدود ، فما دام الطفل في بطن أمه فالهواء منعدم ، لكن بعدما يولد الطفل قال الأطباء : فتأتي جلطة تُغلِق هذا الثقب في الوقت المناسب وإلا يصاب هذا الطِّفل المولود حديثاً بِمَرَضِ الزَّرَق ، فلا يستطيع أن يتحرّك لأن

دمه أزرق ولا يذهب الدم للرئتين لِيَطْرح غاز الفحم ويأخذ الأكسجين ، ويبقى في الدم غاز الفحم وبِذلك تنعدم القدرة على الحركة ، وأغلب هؤلاء الأطفال يموتون في عشر سنوات تقريباً ما لم تُجْر لهم عمليّة باهِظة التكاليف ، لإغلاق هذا الثقب بين الأُذَينين ، فمن المدبِّر ؟ الله عز وجل .

وهذا الكائن البشري أين هو في البُوَيْضة ؟ أين كانت تكْمُن ملامِحه ؟ وأين كانت تكمن نبَرات صوته ؟ ونظرات عَيْنَيه ، ولفتات جِيدِه ، واستِعدادات الأعصاب ، ومُوَرِّثات الجِنس ؟ أين كانت تكمن كل هذه الصِّفات في البُوَيْضة وفي الحُوَين ؟ فمن المدبِّر ، ومن الذي أخرجها إلى حَيِّز الوجود ؟ هل تصدِّقون أن على الحُوَيْن ملايين المعلومات المُبَرْمَجة ؟ وهذا هو معنى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾[لقمان : ٣٤] .

ويسوق الحوادِث إلى غاياتِها ، ويسوق الإنسان إلى ما خُلِق له ، ويحرِّك الشمس والقمر ويولِج الليل في النهار ، وينزل الماء من السماء ، وينبت الزرع ، لقد كان وزنك ثلاثة كلغ عند الولادة ، فإذا وزنت نفسك عند الكِبر ربما تجدها ثمانين كلغ فكيف تم لك هذا الوزن ؟ ومَن حوَّل الطعام والشراب والتفاح والخبز والجبن والسكر إلى لحْمٍ وعِظام ونُسُجٍ وأجهِزةٍ ؟ إنه المدبِّر .

وهناك أمر آخر في هذا الباب فلو أنك دخلت عالم النحل لَوَجَدْت العَجَب العُجاب أيضاً ؛ ولو دخلت عالم النّمل لوجدت العجب العُجاب ؛ تعقيدات اجتِماعية لِحَشَرة النحل والنمل لا تصدَّق ، وشيء

لا يُصدَّق أن تبني هذه النحلة بيتاً بشكل سداسي ، والسداسي هو الشكل الهندسي الذي لا يأخذ فراغات بينيّة ويُكْتفى بِالسُّداسي بِأقصر ضِلع ، ومعنى ذلك أنه متين كلما طال الضِّلع ضعفت المتانة ، فهناك مُواصفات رياضِيّة لِلشَكل السداسي ، فمن الذي ألهم النحلة أن تبني بيتها على شكلٍ سُداسي ؟ ومن الذي ألهمها أن تذهب للحقول وتمتصّ رحيق الأزهار ؟ ومن الذي ألهَمها رقصَة بها تحدِّد جِهة الأزهار وبُعدها وكثافتَها ؟ الله جل جلاله . ومن الذي ألهم النحلة أن هذه الزهرة ممتصّة الرحيق ، فلا تقع عليها لأنها قد امتُصّ منها الرحيق ؟ من الذي يدبِّر الأمر ؟ وهل تعتقِد أن النحلة لها عقل ؟ لا ، لكنها تقوم بِعَمَلٍ رائع في عقلانِيّتِه وتعقيداته ، إذاً من الذي يدبر أمر النحلة ؟ هو الله عز وجل .

وفي سورة الرعد : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ .

فالله تعالى كلما أورد التفاصيل وساقها للإنسان أوجزها بِكلمة يدبِّر الأمر ؛ فخلقةُ تدبير ، ورزقه تدبير ، وهدايته تدبير ، وفي النهاية يدبر الأمر ، قال تعالى : ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه : ٤٩ـ٥٠] .

رجل كان في بستان فرأى قنفداً يأكل أفعى ، كلما أكل جزءاً ذهب إلى نباتٍ وأكل ورقاً من هذا النبات ، فهذا البُسْتاني كان ذا فضول فقام لِهذا النبات واقتَلَعَه ، فلما عاد القنفد وأكل جزءاً من تلك الأفعى ذهب لِيَأكل من هذا النبات فلم يَجِده فمات ! فمن الذي ألهم هذا

القنفد أن لهذا النبات أثراً متوازياً مع لحم الأفعى ؟ الله جل جلاله ، قال تعالى : ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[طه : ٤٩-٥٠] .

وفي قوله تعالى :

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ۝١٢﴾ [الطلاق : ١٢] .

فقوله : ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ ؛ هذا من التدبير ، يجب أن تعلموا أن الله تعالى هو الذي يسوق كل شيء لِكل شيء .

من تطبيقات هذا الاسم ؛ إذا رأيت يد الله تعمل في الخفاء فهو المدبِّر ، وإذا رأيت يد الله فوق أيديهم فهو المدبِّر ، وإذا رأيت أن كل شيء لا يقع إلا منه تعالى فهو المدبِّر .

لذلك توكَّل على هذا المدبِّر الحكيم الرحيم العليم القدير ، فهو حكيم في كل تدبيره ، رحيم عليم قدير بِيَدِه الأمر كلّه قال تعالى :

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود : ١٢٣] .

قال أميه بن أبي الصلت :

حنانيك إن الجن كنت رجاءهم ... أرى أدينُ إلهاً غيرَك اللهُ ثانياً

وأنت الذي من فَضْل منٍّ ورحمةٍ ... بعثت إلى موسى رسولاً مُنادِيا

فقلت له فاذهب وهارون فادعُوا ... إلى الله فرعون الذي كان طاغِيا

وقولا له أأنت سوَّيْت هذه ... بِلا وَتَدٍ حتى اطْمَأنَّت كما هيا

وقولا له أأنت رفَّعْت هذه ... بلاعَمَدٍ أرْفِقْ إذاً بك بانِيا

وقولا له أأنت سَوَّيْت وسطها ... منيراً إذا ما جَنَّه الليل هادِيا
وقولا له من يرسِل الشمس غدوة ... فَيُصبِح ما مسَّت من الأرض ضاحِيا
وقولا له من ينبت الحب في الثرى ... فيُصبِح منه البقلُ يهتزّ رابِيا
ويُخرِج منه حبّه في رؤوسِه ... ففي ذاك آيات لِمن كان واعِيا
وإني لو سبحت باسمك ربنا ... لأكثر إلا ما غفرت خطائيا
فربَّ العباد ألق سيباً ورحمة ... عليَّ وبارك في بنيَّ وماليا

والحقيقةُ ـ واللهِ ـ فيما يبدو أن كل ما في الكون ينطق باسم المدبِّر خلْقاً وتَصرّفاً ومصيراً ؛ نباتاً وحيواناً وإنساناً وجماداً وشمساً وقمراً وكواكبَ ومجرات ومذنّبات وليلاً ونهاراً ورزقاً وهِداية وتوفيقاً ، أليس في القرآن الكريم :

﴿ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود : ٨٨] .

فمن الذي يستطيع أن يسوق الحوادث إلى غاياتِها ؟ هو الله عز وجل .

ومن ثَم فإنه يمكننا أن نستنبط استِنباطاً أن الله جل جلاله جعلك خليفةً في الأرض ، وينبغي أن تدبِّر أمورك فأنت أبٌ وعليك أن تُدَبِّر أمر أسْرَتك ؛ بناتك وأولادك وأعمالك ، وأنت طبيب فعليك أن تدبِّر أمر مرضاك ، وأنت محامٍ فعليك أن تدبِّر أمر موكِّليك ، فالذي يُهمِل عمله لا يتخلّق بِكمالات الله .

فالمدبِّر يوحي بحكمة بالغة ، أذكر أنني اشتريت مرة عِنَباً من منطقةٍ باردة وظننته من شكله حُلْوَ المذاق ، فلما سألت البائع لِم لمْ يكن حُلْوَ المذاق ؟ قال : لم يأتِنا حرٌّ في هذا العام ، فالحرُّ هو الذي يرفع كثافة السكر في الفواكِه ، فمن المدبِّر ؟ إذاً يتضح لكم أنه تعالى

هو المدبِّر وأنت خليفته في الأرض ، واللهُ وكَّلَك بِهؤلاء الناس فعليك أن تُدَبِّر أحوالهم .

تجد أحياناً أباً يعتني بِأولاده في أجسادهم وأفكارهم ودراستهم ودينهم ، هذَّبهم وعلّمهم وأحسن علاقتهم بِغَيْرِهم ، ومنحهم بعض الإمكانات إلى أن يُزَوّجهم ؛ نقول : هذا الأب مُدَبِّر ، وكذلك الأم فهي مدبِّرة ترعى أولادها وتخيط لهم وتطبخ لهم وتعتني بِأخلاقهم وتُحاسِبهم وتراقِبهم وتسهر على راحتهم وتعالِجهم إن هم مرضوا ، فكما أن الله تعالى مدبِّر فإذا وكَّلَك بِأسرةٍ فَكُن لها مدبِّراً ، ووكَّلك بِطلابٍ فكن مدبِّراً لهم ، جاء لِيَشْترِيَ من متجرك فأَعْطِ له الشيء الجيِّد .

فَمِن التطبيقات العمليّة لِهذا الاسم ؛ كما أن الله تعالى دبَّر أمر عِبادِه وأنت خليفته في الأرض ، ما عليك إلا أن تدبِّر أمر من دونك ، فمدير المدرسة والمستشفى والمؤسسة كل من حوله ومن دونه تحت سمعه وبصره ؛ فلان زوجته حامِل فهو يحتاج إلى مُساعدة ، وفلان يحتاج إلى توجيه ، والآخر إلى طبيب ، فأنت إذا كنت في منصِبٍ أعلى كُن مدبِّراً ، كما أن الله تعالى يُدَبِّر أمور عِباده ، فهذا من التطبيقات العملية لاسم المدبِّر ، وكلما كنت من الطِّراز الرفيع كنت أكثر إيماناً وإتقاناً ، فإتقان العمل هو التدبير والمؤمن يتقِن عمله ، وليكن لك حظك من اسم المدبِّر .

* * *

الشَّافِي

من أسماء الله الحُسنى الشافي ، ولكن قبل أن نخوض في دقائق هذا الاسم العظيم لا بد من وقْفَةٍ متأنِّيَة حول موضوعٍ آخر يتَمِّم هذا الاسم ويُكمِّل المعاني التي سوف تُساق فيه ، المرض في الأصل ليس من الله لأن الله عز وجل يقول حكاية عن سيدنا إبراهيم :

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء : ٧٨ـ٨٠] .

قال الذي خلقني وأطعمني ، وما قال الذي أمْرَضَني ؛ بل قال :

﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء : ٨٠] .

فنسب إبراهيم عليه السلام المرض لنفسه .

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ۝٨١ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ [الشعراء : ٧٨ـ٨٢] .

أصل المرض خروج عن منهج الله ، وإن صحّ أن نقول هناك مرض للأجسام ومرض للقلوب ، المَرَضان بِنَوْعَيْهِما مرض الأجسام ومرض القلوب أصلهما خروج عن منهج الله ، لأن الله تعالى كامِلٌ كمالاً مطلَقاً فإذا خلق شيئاً فَقد خَلَقَه كامِلاً ، ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن

تَفَٰوُتٍۚ﴾ ، من الذي يُخطِيء ؟ ومن الذي يُفسد ؟ ومن الذي يطغى ؟ ومن الذي يظلم ؟ ومن الذي يُسيء ؟ هو مخلوقٌ أوْدَع الله فيه الشهوات لِيَرْقى بِها صابِراً تارةً وشاكِراً تارةً أخرى إلى رب الأرض والسموات ، وهذه الشهوات إذا أُودِعت في مخلوق ولم يكن هذا المخلوق مُتَّصِلاً بِالله ولم يَسِر على منهج الله يفسُد .

فالشيء الجامد إذا وضعته في مكانٍ لا يتحرك ، فليْس ضرورياً أن يعلم هذا الشيء الجامد ، أما إذا مشى ولم يكن هناك مِقْوَد فالدّمار حتْمي ، ومن الذي يحرك الإنسان ؟ شهواته ؛ والإنسان مندفِع لِتَلْبِيَة حاجاته وشهواته وهذا الاندِفاع يُشبِه الحركة ، إنه اِندِفاع دون منهج يسير عليه ، ودون مِقْوَدٍ وهو العلم ، ودون اتِّصال بالله وهو الهدى ، وهذه الحركة دون منهج ودون هدى سَتُدَمِّر صاحِبها ، إذاً الإنس والجِن وحدهما اللذان أوْدَع الله فيهما حُرِّية الاختِيار وأودع فيهما الشهوات اقرأ قوله تعالى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب : ٧٢] .

وفي آيات أخرى تجد الجن تشترك مع الإنسان في حمل الأمانة ، هذان المخلوقان تحمَّلا الأمانة ، والأمانة نفْسُ الإنسان ؛ وعليهِ أن يُزَكِّيَها وكيف يزكيها ؟ بِتَعْريفِها الله وحمْلِها على طاعته ، فالدِّين يحمل جانِباً سُلوكِياً وآخر معرفياً وثالثاً جمالياً ، الجانب المعرِفي هو السبب والجانب السلوكي هو الأصل والجانب الجمالي هو الثمرة .

﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [هود : ١١٩] .

هذا المخلوق (الإنسان) فيه شهوات وفيه اختِيار ولكن مع هذه الحريّة أعطاه الله عقلاً ، بِمَنزلة ميزانٍ دقيق ، وأعطاه على هذا الميزان الدقيق ميزاناً مهيمناً هو الشرع ، فأرْسَل إليهم الأنبِياء ومعهم الكتُب ، فعلى الرغم من وجود أنبياء وكتب وشريعة وعقل ، ومع كل هذا وضع الإنسان كل شيء وراء ظهره وانطلق مع شهواته بِلا منهج وبلا هدى وبلا كتاب منير فَفَسَد ، ومن مُقْتضَيات حياة الإنسان أنّ فساده مُحْتَمَل لِذلك هَيّأ له شِفاءين ، هَيّأ له القرآن الكريم شِفاءً لِنَفْسِه وهيّأ له الأدوِية شِفاءً لِجِسْمِه ، فالشِّفاء يقتضي المرض ، والمرض في الأصل خروج عن منهج الله عز وجل .

فإذا قلنا : إن هناك مرضاً للقلب كالضغينة والحِقد والكِبر والكراهِيَة والأَثَرَة والجحود والإجحاف والظلم هذه كلها أمراض القلب ، وهناك مقولَةٌ رائِعة وهي : إن أمراض القلب ليست بأمراض ، بل هي أعراض لِمَرَضٍ واحِد ألا وهو الإعراض ؛ إن أَعْرَضْت عن الله عز وجل تَكَشَّفت أمراض القلب ، فكل أمراض القلب وكل الصِّفات الخسيسة في الإنسان هي أعراضٌ لِمَرَضٍ واحِد هو الإعراض عن الله ، فالإنسان ما لم يتّصِل بالله عز وجل لن تَزْكُوَ نفسُه قال تعالى :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس : ٩ـ١٠] .

فلو أنه أعرض عن الله ولم يطبّق منهجه وشَرَدَ عنه شروداً بعيداً ، فعندئذ تكون نفْسُه قد تعلّقت بِشهواتٍ وأُصيبَتْ بِأمراض ، والقرآن الكريم شِفاءٌ لِهذه النَّفس ، فإذا قرأ القرآن عاد إلى الله وسار على منهجه ، كذلك هذا الجسم حينما يُخالِف منهج الله عز وجل المُتَمَثِّل

بِتوْجيهات النبي عليه الصلاة والسلام في التعامل مع الجِسم يمرَض ، وما خلق الله داءً إلا وخلق له دواءً ، فبحثنا يتناول اسم الشافي ، وهو اسمٌ من أسماء الله الحُسنى ، وهذا الاسم زائد على الأسماء التِّسعة والتسعين المشهورة والتي وردت فيها الأحاديث الشريفة .

الشِّفاء في اللغة : البُرْء من المرض ، يُقال شفاه الله يشفيه ، اشْتَفى : افْتَعَل منه ، فللمُبالغة في الشِّفاء نقول : اشْتفى ؛ فعندنا إذاً شَفِيَ واشْتَفى ، ومن هنا نقول : مشفى ومسْتَشْفى ، والشيء الذي يجب أن يكون واضِحاً هو أن أمراض القلب أخطر من أمراض الجِسم ، لأن أمراض الجسد مهما تفاقَمَت ومهما كانت خطيرةً تنتهي عند الموت ، والموت يُنْهي كل ما له علاقة بالجسم ، ويُنْهي المرض ويُنْهي الصِّحة ويُنْهي القوة ويُنْهي الضعف ويُنْهي الغِنى ويُنْهي الفقر وينهي الوَسامة والدمامة وينهي الذكاء والغباء. . . يُنْهي كل شيء ، إلا أن أمراض النفسِ خطورتُها وآثارها تبدأ بعد الموت ، ومن هنا قال الله عز وجل :

﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء : ٨٨-٨٩] .

فالقلب له في حياة المؤمن شأن كبير ، والقلب منظر الرب يصفو ويتعكّر ويسمو ويسْفُل ويكبُر ويَضْعُف ؛ يكبُر القلب ولا ترى كِبَره فيَتَضاءل أمامه كل كبير ، ويصغر القلب ولا ترى صِغَره فيَتَعاظم عليه كل حقير ، قلبٌ صفا وآخر انحرف ، وقلب اسْتَعْلى ، وقلب كان في تَجَلِّيات الله عز وجل ، وقلبٌ عرف الله ، فلِذلك من الأقوال الشهيرة لسيدنا عمر رضي الله عنه : « **تعاهَدْ قلْبَك** »أُنظر إلى قلبك على ماذا ينطَوي ، القلب منظر الرب لذلك أعلى درجات الإيمان أن تتعامل

مع الله مباشرة ، وأن تنظر إلى الله عز وجل وهو ناظِرٌ إلى قلبك ؛ هل فيه غِلٌّ لأَحد ؟ وهل فيه حِقدٌ لأحد ؟ وهل فيه ضغينة وكراهيّة وكِبْر واسْتِعلاء وأَثَرَة وعجْرَفة ؟ فَكُلما طهُر القلب تَجَلى عليه الرب ، وصدِّقوني أنه أسعد الناس من كان قلْبُه موْصولاً ، يُقال مثلاً : إن فلاناً له قلب كبير ، أيْ قلبٌ موصولٌ بالله ، ومعنى موصول أنّ القلب اصْطَبَغ بِصِبْغَة الله ، تجد أن من علامات المؤمن إذا رأيْتَه تذكَّرت الله ، « **أولِياء الله تعالى إذا رُؤوا ذُكر الله تعالى** » [الحكيم الترمذي بسند صحيح من حديث ابن عباس] .

وإذا عاملْتَه أحْبَبْته وحَدِّث ولا حرج عن تواضُعِه وعن لُطْفِه وعن حيائه وعن كَرَمَه وبذْلِه وعن عطائِه وعن حُبِّه وعن غيْرَته ، فَلِذلك نتفيّأ مظلة اسم الشافي في بحثنا هذا ؛ إنه يشْفي أجْسادنا ويشفي قلوبنا ، لكن النبي عليه الصلاة والسلام حينما قال : « **لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ ، فَإِذَا أُصِيبَ دَوَاءُ الدَّاءِ بَرَأَ بِإِذْنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ** » [رواه مسلم] .

ولعله معلوم لدى كل مؤمن أنّ هذا الحديث وحده يُعَدّ من أعظم الأحاديث الشريفة ، لأنه ذو صلة بكل الأمراض قاطبة ، فلو سمِعه طبيب ولم يهتدِ إلى تشخيص بعض الأمراض يتّهم نفسه بالتقصير ، فكأن هذا الحديث يدفع العلماء والأطباء إلى البحث عن الدواء ، ولأن الله عز وجل يقول فيما أخبرنا عنه النبي ﷺ : « **لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ** » فإذا سمع هذا الحديث أيُّ مريض وقرأه يمتلىء قلبه أمَلاً بالله عز وجل أن يشفيه ، فما من داءٍ خلقه الله إلا وخلق له دواء .

قال العلماء : فإذا أُصيب دواء الداء ؛ أيْ إذا وُفِّق الطبيب إلى تشخيص المرض أولاً ثم وُفِّق الطبيب إلى اخْتِيار الدواء المناسب ثانياً

برِيء ، ولكن لابُدَّ من أن يأْذَن الله عز وجل ، فالمريض ارْتَبَط من جِهَةٍ بالعلم والبحث والدراسة الجادة ، وأنّ هذا المرض له دواء في مخابر الباحثين والعلماء وارتَبَط بالله عز وجل لأنه إذا أُصيب دواء الداء بَرِىء ، ولكن بِإذن الله ، فلا بد من أن يأْذَن الله حتى يبْرَأ المريض .

بعضهم قال : « الشِّفاء هو الدواء لأنه أحد نتائج الدواء » ، يقول العرب : رعينا الغَيْث ، والغيْث لا يُرْعى ولكن رَعَيْنا كَلأً سبَّبَه الغَيْث .

فَبَعْضهم قال : الشِّفاء هو الدواء نفسُه وتعريف الشِّفاء : البُرْء من المرض ، ثم وُضِع مَوْضِع العِلاج والدواء ، أمّا اسْتَشْفى فتعني طلب الشِّفاء ، والكل يعلم أنّ الفعل الذي يبدأ بِأَلِفٍ وسينٍ وتاءٍ فيه معنى الطلب ؛ اسْتَشفى : طلب الشِّفاء ، واسْتَغْفر : طلب المغفرة ، واسْتَعْلم : طلب العِلم ، واسْتَرْحم : طلب الرحمة .

وقد ورد ذِكْر الشِّفاء في مواطِن كثيرة من كتاب الله فقال تعالى في سورة التوبة :

﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة : ١٤] .

معنى ذلك أنّ المؤمن حينما ينتصِر الحق ويعْلو ، وحينما يُهزم الباطل ويسقط ، تَرْتاح نفسُه وهذه هي فِطْرة الإنسان السّليمة .

وهذا القرآن سماه الله عز وجل شِفاءً لما في الصدور ، أحياناً تجد أن الكفار أقْوِياء وأغْنِياء ويعيشون حياةً فوق التصوّر ، وهم مسْتَهْتِرون ولا يطيعون الله ولا يصلّون ويأكلون الربا ويزنون ، ومع ذلك بِلادهم

جميلة وهم أغْنِياء ومعيشَتُهُم فيما يبْدو راقِيَة وفيها هناءة ورغد ، فهذا المنظر يُحْدِث اِخْتِلالَ توازنٍ وإذا فَتَحْتَ القرآن سمعت الله عز وجل يقول :

﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝١٩٦ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝١٩٧ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران : ١٩٦ـ١٩٨] .

وتفتح القرآن وتجد قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام : ٤٤] .

فترتاح عندئذٍ وتستعيد توازنك ، تفتح القرآن الكريم تجد قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [إبراهيم : ٤٢] .

فترتاح كذلك ، ترى أن الدنيا جميلة وَنضرة وخَضِرة وكل شيء فيها مُغرٍ فإذا فتحت القرآن الكريم تجد قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴾ [محمد : ٣٦] .

فالله نبّهك ، وكل الأمراض التي تنشأ في نفس الإنسان يعالجها القرآن ويحُلُّها ، أحياناً يكون الإنسان في بِدايتِه لا يملك شيئاً ؛ لا مالاً ولا بيتاً ولا عملاً ولا دخلاً ، ويبدو أن الطرق مسْدودة أمامه ، ولكنه مستقيم في سلوكه مع الله فتبعث الآيات في نفسه الآمال الكبار عن

طريق الثقة بربه الذي بيده الخير ، ثم يقرأ القرآن فيجد قوله تعالى يزيده تفاؤلاً وسكينة :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٩٧] .

فيطمئن ويقرأ قوله تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ [النساء : ١٤١] .

وقوله تعالى :

﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٩] .

وقوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت : ٣٠] .

وهذا كله شِفاءٌ لِما في الصدور وقوله تعالى :

﴿ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾ [القصص : ٦١] .

وقوله تعالى : ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾ .

أية آيةٍ تقرؤها تجد أنها تشفي النفس من بعض أمراضِها ، فَرَبُّنا عز وجل جعل هذا القرآن شِفاءً لِما في الصدور قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ٥٧] .

فالذي أنزل الشِّفاء هو الشافي ، المؤمن متوازن والمؤمن ليست عنده مشْكِلات فكرية ، ولو أنه رأى كافِراً قوياً ورأى مؤمناً ضعيفاً ، ولو أنه رأى منْحَرِفاً غنِياً ورأى مسْتَقيماً مُتَقَشِّفاً فله موازين خاصة ، قد تجد موازين الناس تدعو للانقِباض ، فهناك من يرى أن المال هو الذي يثقل الميزان ، وكذلك الطيش والقوة الرعناء ، أما عند الله فالعمل الصالح فيه رجاحة الميزان .

لما سقى سيِّدنا موسى للمرأتين اِبنتي سيدنا شُعيب ماذا قال ؟ قال تعالى : ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾[القصص : ٢٤] .

فَفُهِم من هذه الآية أن الغِنى عند الله غِنى الأعمال الصالحة ، وأن الفقر هو فقْرُ الأعمال الصالحة . والحقيقة أنّ حجْمَك عند الله لا بِحجْمِ أمْوالِك ولكن بِحجْم أعمالك ، والعُمُر لا قيمة له إلا بِمَضْمونِه الصالح ، قد تعيش عمراً قصيراً مُفعماً بالأعمال الصالحة ، وقد يعيش آخر عُمُراً مديداً فارِغاً من العمل الصالح ؛ فهذه كلها موازين ، والإنسان حينما يختل ميزانه يقع في المتاهات والضيق والتشاؤم والحَيْرة والاضطِراب .

وفي سورة النحل قال تعالى :

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٦٨ـ٦٩] .

قال ابن القيم : « هناك شِفاءان : شِفاء النفوس كلام الله ؛ وشِفاء الأبْدان العَسَل » ، لكن لو أن الله عز وجل قال : فيه الشِّفاء للناس

لَصَار العسل شِفاء من كل مرض ، أمَا وقد جاء الشفاء نكِرة ﴿فيه شِفاءٌ للناس﴾ ؛ يعني شِفاءٌ من بعض الأمراض التي تصيب الناس . وعلى كلٍّ فالعسل كما يقولون : صَيْدَلِية ثانية ، فعدد الفيتامينات والمعادن والأنْزيمات التي في العسل لا تعد ولا تحصى ، ومع ذلك ربنا عز وجل قال : ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ ، وفي سورة فصلت قال تعالى :

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت : ٤٤] .

فقارىء القرآن لا يحزن ، وَمن تعلَّم القرآن متَّعه الله بِعَقْلِه حتى يموت ؛ من أكثر من تلاوة القرآن متَّعه الله بِعَقْلِه حتى يموت ، والقرآن الكريم لا يَقِلّ في عظمته عن عظمة الكَوْن قال تعالى :

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام : ١] .

وقال تعالى :

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾ [الكهف : ١] .

فهذا كِتابنا المقرر ومنهجنا ودُسْتورنا وحَبْل الله المتين والصراط المستقيم والعمل بأمره ونهيه ويرفعنا إلى أعلى عِلِيِّين ، قال تعالى :

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت : ٤٤] .

المعنى المُخالِف لِهذه الآية أنّ المؤمن يُنادَى من مكانٍ قريب ، إذاً أحد أسباب فهم كلام الله أنْ تكون قريباً من الله ، وإن كان الإنسان بعيداً عن الله فماذا يكون حاله مع القرآن ؟ : ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا

﴿لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ .

أما إذا كان قريباً من الله عز وجل فإنه يفهم كلام الله كما أراد الله ، فعلى الإنسان أن يُشَمِّر لِيَكون قريباً من الله عز وجل حتى يفهم عن الله تعالى كلامه ، ومن هنا قال بعض أصحاب النبي ﷺ : « **أوتينا الإيمان قبل القرآن** » ، قال ابن عمر : لقد عشت برهة من دهري وإن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن وتنزل السورة على محمد ﷺ فيتعلم حلالها وحرامها وماينبغي أن يقف عنده منها كما تعلمون أنتم القرآن .

. . وعن جندب بن عبد الله قال : « كنا مع النبي ﷺ نحن فتيان حزاورة فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن فازددنا به إيماناً » فإذا اتّصلت بالله عز وجل وأقْبَلت عليه وقرأت القرآن كنت قريباً من المعاني التي أرادها الله عز وجل ، والقرآن مع ذلك لا تنقضي عجائبه .

بمناسبة الحديث عن العسل ، فقد ورد عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : إِنَّ أَخِي اسْتَطْلَقَ بَطْنُهُ ـ يعني أصيب بإسهال شديد ـ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **اسْقِهِ عَسَلاً** » فَسَقَاهُ ثُمَّ جَاءَهُ فَقَالَ : إِنِّي سَقَيْتُهُ عَسَلاً فَلَمْ يَزِدْهُ إِلا اسْتِطْلاقاً ، فَقَالَ لَهُ : ثَلاثَ مَرَّاتٍ ، ثُمَّ جَاءَ الرَّابِعَةَ ، فَقَالَ : « **اسْقِهِ عَسَلاً** » فَقَالَ : لَقَدْ سَقَيْتُهُ فَلَمْ يَزِدْهُ إِلا اسْتِطْلاقاً فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **صَدَقَ اللهُ وَكَذَبَ بَطْنُ أَخِيكَ** » فَسَقَاهُ فَبَرَأَ . [رواه مسلم] .

قرأت مقالةً عِلمية لِطبيب مُتَفَوِّقٍ جداً في تحليل هذا الحديث أن

الإسهالات الإنتانيّة يكون الدواء المناسب لها المواد السّكرية ، ففي بِداية الأمر يزداد البطن إسْهالاً إلى أن تذهب هذه المواد التي سبّبت الإنتان ، بعدئذٍ تُمسِك الأمْعاء ما فيها ، ويعود الوضْع إلى الشكل الطبيعي ، فقال رسول الله ﷺ :

« صدق الله ، وكذب بطْن أخيك » .

هذا الحديث يُمكن أن نقيس عليه أشياء كثيرة ، مثلاً الله عز وجل قال :

﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَوٰا وَيُرْبِي الصَّدَقَٰتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ [البقرة: ٢٧٦] .

لو قال لك واحدٌ أنا دفَعْت صدقاتٍ كثيرة وأنا فقير وما عوَّض الله علَيَّ ، نقول له : صدق الله العظيم وكذبْت أيها الإنسان ، لأن زوال الكَوْن أهْوَن على الله من ألا يحقق وعده للمؤمن .

أحد العلماء قال : من دعا إلى الله ولم يُوَفَّق فَكَأنَّه يُكذِّب قولَه تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ ﴾[غافر : ٥١] .

لعلّك تظن أن المكافأة على الصدقات وأنها تربو يوم القيامة لا في الدنيا ، نقول : لا . فهذا يكون في الحياة الدنيا في أغلب الأحيان .

إذا دَعَوْت إلى الله بِصِدْقٍ وإخلاص وطبَّقْت منهج الله وكانت السريرة كالعلانية ، فلا بد من أن تُوَفّق فإن لم تُوَفّق فقد صدق الله ، وابْحَث عن خلل في دعْوَتِك وفي نفسك .

فإذا كان هناك خلل فإما في النيات وإما في المنهج ، وحاشا أن يكون في منهج الله عز وجل أيُّ خلل ، وقبول الأعمال منوط بشرطين :

ـ أن تكون خالِصةً لله تعالى أولاً .

ـ ثم أن تكون وَفق السنة .

فإن كانت خالصة ولم تكن وَفْق السنة عليك أن تراجع حِساباتك ، وإن كانت وفق السنة ولم تكن خالِصةً عليك أن تُراجِع حِساباتك ، وأنا أقول لكم كلاماً دقيقاً فأنتم مؤمنون ولا أُزكي على الله أحداً ، وكل واحِدٍ منكم من طُموحاتِه أن يستخْدِمه الله تعالى في نشْر الحق ، وأن يُجْرِيَ الخير على يَدَيْهِ وأن يستخْدِمه ويسْتَعْمِله في الخير ، فإذا تحرَّكْت حركَةً سريعةً ومُكَثَّفةً ولم تلقَ نجاحاً في الدنيا يجب وأقول يجب أن تعْزُوَ عدم النجاح إلى ذاتك ، إما إلى خلل في النيات ، وإما إلى خلل في المنهج ، فإذا قلت النيات طيِّبة والمنهج صحيح ولم أُوَفَّق هل تدري أنك وقَعْت في الكفر ؟ وهو ردُّ آيةٍ في كِتاب الله ، والإنسان إذا ردّ آيةً في كِتاب الله فقد كفر والله عز وجل يقول : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَـٰدُ ﴾ .

فإذا لم تنْجَح الدعوة اِبْحَث عن الخلل وعن التقصير لعل هذا يُذكّرنا بِمَوْقِف نبيِّنا عليه الصلاة والسلام يوم بذْرٍ ؛ وهو سيِّد العالمين وسيِّد الخلق وأقرب الخلق إلى الله ، فقد وقف قُبَيْل المعركة ورفع يَدَيْه إلى السماء حتى بدا بياض إبطَيْهِ أو حتى وقع الرِّداء من أعلى مِنْكَبيْه ، كما روى ذلك عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالَ : لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ وَأَصْحَابُهُ ثَلاثُمِئَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلاً فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ الْقِبْلَةَ ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ : « **اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي ، اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي ، اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الإِسْلامِ لا تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ** » ، فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ مَادًّا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ

فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ وَقَالَ : يَا نَبِيَّ اللهِ كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ فَأَمَدَّهُ اللهُ بِالْمَلائِكَةِ . . . . [رواه مسلم] .

وقد يسأل سائلٌ أيكون الصدِّيق أكثر ثِقة بالله من رسول الله عليه الصلاة والسلام ؟ مُسْتَحيل كيف نُفَسِّر هذا المَوْقِف إذاً ؟ النبي عليه الصلاة والسلام مُتَأَدِّبٌ مع الله أشد التأدّب ، وكان النبي ﷺ يخشى أن يكون هناك تقصير في الإعداد ؛ وهو يعلم أنّ الأمر بِيَد الله ولكن النبي عليه الصلاة والسلام خشِيَ أن يكون هناك تقصير في الإعداد لأن الله عز وجل يقول :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

وبعد فإني أتَمَنى على الله أن تكون هذه الحقيقة واضِحة تماماً ؛ العمل لا يُقبَل إلا بِشَرْطين : الشرط الأول أن يكون خالِصاً ، والشرط الآخر أن يكون صواباً ، فَخالِصاً ما ابْتُغِيَ به وجه الله ، وصواباً ما وافق السنّة .

دَعَوْتَ إلى الله فلم تنجح معك الدعوة دقِّق في نياتك ؛ من طلب العِلم لِيجاري به العلماء أو لِيُماري به السّفهاء أو لِيَصْرِف وُجوه الناس إليه أدخله الله النار ، قد تقول وأنت صادق : أنا أعلم نفسي حق المعرفة إنني أنْطوي على نِيّة طيّبة خالصة إذاً الخلل في المنهج ، لعلّك خالفْت منهج رسول الله ﷺ فلم تنْجَح الدعوة ، فكل إنسان إذا

عزا عدم نجاح الدعوة إلى الله ، وادَّعىٰ أنه كان خالِصاً لله فهو يُكذِّب قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ .

المؤمن نقاد ، وأول نقْده يجب أن يتَّجه إلى ذاته ، وكل إنسانٍ يتعامى عن أخطائه يتداعى وينتهي ، والنجاح أُمثِّله بِقِمَّة جبل ، فَبُلوغ القمّة صعبٌ جداً ، فلا بد من جُهْدٍ كبير وعرقٍ غزير ولابد من اجتياز عَقَبات متلاحقة وصعود طويل عسير ومُثَبِّطات عظيمة ، لو أنك اسْتطعت أن تصِل إلى قِمة الجبل فهذا إنجاز كبير ، فهل أنت بطل ؟ لا ، إذْ إنّ بطولَتك أن تبقى في القمة ، لأن فيها طرقاً زَلِقةً بحكم منحدراتها تجعلك إن لم تحزم أمرك في الحضيض في ثوانٍ معدودات ؛ فاحذر الغرور والكِبْر وعدم الاِنْصِياع للحق ، إذاً ربنا عز وجل يقول في الحديث عن موضوع الشِّفاء ، قال تعالى :

﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ .

فالله هو الشافي والمُعافي ، والحقيقة أن كلمة الشِّفاء تتعلق بالمرض والإنسان يمرّض حينما يستهين بصحة جسده ، وحينما ينْحَرِف في تعامله مع ربه فرَحْمة الله عز وجل تقْتَضي أن يعالجه ، هو الشافي والمعافي فالله سبحانه وتعالى يشفي ويُعافي ، والمصلي ماذا يقول في الصلاة : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة : ٦ـ٧] .

فلم يقل : غير الذين غَضِبْت عليهم ، إنما قال : غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، فالإنسان ينْحرِف فَيَغْضَب الله عليه ويستقيم فيُثْني الله عليه .

وفي سورة يونس قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ٥٧] .

ألا فاعلم أيها المؤمن أنّ : من أوتيَ القرآن فظن أنّ أحداً أوتِيَ خيراً منه فقد حقَّرَ ما عظَّمَه اللهُ ، فالذي يُؤْتَى القرآن تِلاوةً وفهماً وتفسيراً وتطبيقاً فقد بلغ قِمَّة المجْدِ ، لأن السيِّدة عائشة رضي الله عنها سُئلت عن أخلاق النبي عليه الصلاة والسلام فقالت : « كان خلقه القرآن » [رواه مسلم] ، قال تعالى :

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ [الفرقان : ٦٣] .

تابع هذه الآيات تجد أنها أخلاق عِباد الرحمن فتخلق بأخلاقهم .

وقال تعالى :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال : ٢] .

اِقْرأ القرآن وابحث عن أوْصاف المؤمنين فإذا كانت هذه الأوصاف مُنْطَبِقَةً عليك فاشْكر الله عز وجل وإلا فابْحَث عن الخلل .

النبي عليه الصلاة والسلام كان إذا عاد مريضاً يدعو له ويقول كما جاء في حديث عَائِشَةَ رَضِي الله عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا أَتَى مَرِيضاً أَوْ أُتِيَ بِهِ قَالَ : « **أَذْهِبِ الْبَاسَ رَبَّ النَّاسِ ، اشْفِ وَأَنْتَ الشَّافِي ، لا شِفَاءَ إِلاَّ شِفَاؤُكَ ، شِفَاءً لا يُغَادِرُ سَقَماً** » [رواه مسلم] .

أنت الشافي وحْدَك ، وربنا عز وجل أحياناً يشفي مريضاً بمرضٍ عُضال وقد كان مُسْتَعْصِياً ، ولِحِكْمَةٍ بالِغةٍ ورحْمَةٍ غامِرةٍ يشفي هذا

المريض شفاءً ذاتياً على الرغم من أنّ مرضَهُ عُضال ، فمِن أجْل ماذا ؟ مِن أجْل ألا تعتَقِد أنّ الدواء هو الشافي ، إذ الشافي هو الله ، فالله عز وجل يسْمَح للدواء أن يفعلَ فِعْلَه ، فكل مريضٍ نَسِيَ الله وبَحَثَ عن الدواء فقط لا يُشْفى ، والمريض لا يُشْفى إلا إذا اِعْتَقد أنّ الله هو الشافي .

ومعنى آخر من معاني الشفاء : لو أنّ إنساناً كان منْحرِفاً ثم تاب إلى الله عز وجل فقد شفاه إذا أقبل عليه تائباً ، قال تعالى : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[الأنعام : ١٢٢] .

التوبة تُحيي القلب ، فالله شافٍ ، ويشفي جسدك ولو أُصيب بِأيِّ مرضٍ ، ويشفي قلبك من كل مرضٍ ، فما عليك إلا أن تبادر إليه وتأوي إليه مستسلماً ، قال تعالى :

﴿ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الذاريات : ٥٠] .

وما عليك إلا أن تتصل به وأن تتجه نحوَه وأن تُخْلِص له هو الشافي يشفي جسدك ويشفي قلبك ، شِفاء الجسد مُريحٌ في الحياة الدنيا ، لكن شِفاء القلب سبب سعادة المرء إلى أبدِ الآبدين . ومن هنا تتجلّى أهمية الدعاء الشريف : « **اللهم! اِهدني فيمن هديت ، وعافني فيمن عافيت ، وتولّني فيمن تولّيت** » [رواه الأربعة] .

عَنْ عَائِشَةَ رَضِي الله عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا أَتَى مَرِيضاً أَوْ أُتِيَ بِهِ قَالَ : « **أَذْهِبِ الْبَاسَ رَبَّ النَّاسِ ، اشْفِ وَأَنْتَ الشَّافِي ، لا شِفَاءَ إِلاّ شِفَاؤُكَ ، شِفَاءً لا يُغَادِرُ سَقَماً** » [رواه مسلم] .

أحْياناً أشْعُر أنّ الشِّفاء يخْلُقه الله خلْقاً ، كما أن المرض يُخْلق ،

فقد تجد المرءَ بعد مرضٍ عُضال يعود كما كان قبل المرض فلا شِفاء إلا شِفاء الله سبحانه .

اسم الشافي اسمٌ عظيم ، وأنا لا أُقَلِّل من قيمة شفاء الجِسم ، لأن الإنسان يَحْيا بِهذا الجسد ، واحفظ قوله عليه الصلاة والسلام في دعائه الشريف : « **واجْعَلْه الوارث منا** » ، لأن شِفاء القلب قمة أنواع الشِّفاء ، وهذا الشِّفاء سبب سعادة المرء إلى أبد الآبِدين ، فالبُطولة أن يكون قلبك مُعافىً من كل أمراضِه ، لأن القلب المريض لا يستطيع أن يُقْبِل على الله عز وجل .

* * *

المُسَخِّر

من أسماء الله الحُسنى المسخِّر ، وهو اسم كما تعلمون ليس من الأسماء التّسْعة والتّسْعين التي وردت في الحديث الشريف لكنَّه زائِدٌ على هذه الأسْماء .

التسْخير هو سِياقَةٌ إلى الغرضِ المُخْتَصِّ قهْراً ، والمُسَخِّر هو المُقيَّد للفِعْل . هذا في التعريف اللغوي ، والتسْخير هو التذليل ، وكل ما ذل وانْقاد وتَهَيَّأ فهو مُسَخَّرٌ ، وسَخَّرَه أيْ ذلَّلَهُ وكلَّفَه ، وكل مقْهورٍ مُدَبَّرٍ لا يمْلِك نفْسَه يُعَدّ مُسَخَّراً ، وقبل أن نُتابع الحديث عن موضوع التسْخير لابد من حقائق أضَعُها بين أيْديكم تُلْقي ضوْءاً على سِرّ التسْخير .

أوّلاً جعل الله الإنْسانَ المخلوق الأوّل ، قال تعالى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب : ٧٢] .

فالإنْسان قَبِل حملَ الأمانة ، لذلك كرّمه الله ، قال تعالى :

﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٠] .

لأنَّهُ قبِل حمْل الأمانة كرَّمَهُ الله أعْظم تكْريم ، وقد كلَّفَهُ أنْ يَعْبُدَهُ

قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

فأوَّلُ مُقوِّمات العِبادة أنَّه سَخَّر له الكوْن ، فالمُسَخِّرُ هو الله والمُسَخَّر هو الكوْن ، والمُسَخَّر له هو الإنْسان ، والشيء البديهي أنّ المسَخَّر له أكْرم من المسَخَّر ، فالكوْنُ مُسَخَّر أما الإنْسان فمُسَخَّر له ، فالإنسان مُسَخَّرٌ له الكوْن ، والدليل قوله تعالى :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية : ١٣] .

فالله عز وجل ذلَّلَ ؛ فالجَمَلُ مُسَخَّرٌ لنا وَوَزْنُهُ خمسة أطنان ، والفيل والحوت الأزرق والبقرة وحيواناتٌ أخْرى ضَخْمَة ، فلو أنَّها كانت مُتَوَحِّشَةٌ فهل نسْتَطيع أن نتعامل معها ؟ ومن المعروف أن مرضاً أصاب بعض البقَر في السنوات الأخيرة في بعض البلاد ، وهو عبارة عن اِعْتِلالٍ دِماغي اسْفَنْجي ، وبنتيجته صار سلوك البقرة عُدْوانياً إذْ أصبح عندها اِهْتِياج عضلي ، فهذه البقرة حينما جُنَّت من المُسْتحيل أن تنْتَفع بِها ، أحد إخْواننا حدَّثني عن بقرةٍ جُنَّت في غوطة دِمشْق قَتَلتْ رجلين وعطبَت الثالث ، فاضْطَرّ صاحبها إلى أن يقْتُلها بالرصاص ، فحين يقول ربنا عز وجل :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ وحين يقول سبحانه :

﴿ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ [يس : ٧٢] .

فإنما يشير إلى نعمة كبرى أنعم بها على الإنسان ، فَنِعْمَةُ التسْخير نِعْمَة كبيرة جداً ، فمثلاً عقْربٌ صغير من شِدَّة خوْفك منه تكاد تخرج من جِلْدِك ، وهذه الأفعى تَرْتَعِد ساعاتٍ طويلة من رؤْيَتِها ، أما

الجمل فإنك لا تخاف منه ، وكذلك البقرة ، فالتسْخير نِعمَة وهذه الحيوانات سخَّرَها الله لنا نألَفُها وتألَفُنا . أما الحيوانات غير المُسَخَّرة فإنها تُعَرِّفنا بقيمة التَّسْخير .

لو أنّ الله سبحانه وتعالى ركَّبَ في الغَنَم أخلاق الضّبع ، فهل نستَطيع أنْ نذْبَحها وأن نأكل من لحمِها وأن نُسَخِّرَها لنا ؟ إذاً فالله عز وجل تكْريماً لِهذا الإنسان الذي قبِل حمْل الأمانة سخَّرَ له ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه ، والله عز وجل سخّر لنا الحديد ، فكيف سخَّرَهُ لنا ؟ جعَلَهُ فِلزاتٍ ، فلو جعله حديداً صِرْفاً لكان من سابع المُسْتَحيلات أنْ نسْتَفيد منه ، لكنه جعله مع التراب ، تُعَبَّء التراب وتنْقُلُه إلى الفرْن العالي وهذا الفُرْن يصْهر الحديد وينقيه من الشوائب ، فالحديد مُسَخَّر ، والبحر مُسَخَّر ، فكيف سخَّرَهُ الله لنا ؟ إنّ في هذا الماء قوّةً تدْفع نحوَ الأعلى ، ولولا هذه القوة لما أمْكننا أن نركب البحر قال الله عز وجل : ﴿ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[الرحمن : ٢٤ـ٢٥] .

فهذه السُّفن كالأعلام فَلَوْلا قوة الدفع إلى الأعلى لما كان البحر مُسَخَّراً لنا ، ومن جعله مالِحاً ؟ مُلوحَتُهُ تسْخيرٌ لنا والسمك كذلك ، كيف تصْطاد السمك ؟ توضَعُ الشبكة على شكْل جِدار والسمك لا يرْجِع إلى الوراء فإذا جذب الصياد الشبكة التي كانت باتجاهه ، جَمَّعَ كلَ هذا السمك وكان صيده وفيراً ، ولو أنّ السمكة ترْجِع القهْقَرى لما أمْكَنَك أن تصْطادَها فكيف سُخِّرت لك ؟ سخرت بِهذه الواسِطة ؛ إذ ليس في استطاعتها الرجوع ، ولو تدَبَّرْت كل شيء سَخَّره الله لك لوجدت أمراً عجباً وتكريماً خصّك الله به . . .

أحْياناً تجد كلَّ الأشياءِ أحْجامها مُعْتَدِلة ، فالثِّمار دانِيَة فلو كانت الأشجار عِمْلاقة لما أمْكنك أن تَجْنِيَ ثِمارها ، ولو كانت هذه الفواكِه تحوي كل المواد المُغَذِّية ؛ وكان طَعمها مُراً ، لكانت بِهذه الحال غير مُسَخَّرة ؛ لكن الله جعل طَعْمَها طيِّباً وشكْلها جميلاً ورائِحَتَها عَطِرةً ومذاقَها حُلْواً ، وفيها معادن وفيتامينات وسُكَّريات ، وغيرها من الفوائد ، فَمَوْضوعُ التسْخير أمر جليّ واضح ، والكَوْنُ كلُّهُ مُسَخَّرٌ لنا ، وكذلك المِياه مسَخَّرة لنا ، ومن جعل الماء الأُجاج عذْباً ومُسْتَساغاً ؟ عن طريق التبخُّر والأمطار والأنهار والينابيع ، إنَّك لو فكَّرْت في خلق السموات والأرض لَوَجَدْتَ الهواء مُسَخَّراً لك ، فالله جعل نِسَب الهواء حكيمةً جداً .

لو رفعتْ نسبة الأكْسِجين أكثر لأحْرَقَ الهواء كل شيء ، ولو كان للهواء حركةٌ عنيفَةٌ لَدَمَّرَتْ كل شيء ، لكن الله جعل الهواء يتحَرَّك أحياناً حركَةً عنيفة ليريك حكمته أثناء سكونه! فالهواء مُسَخَّر والماء مُسَخَّر والنبات مُسَخَّر والمحاصيل مسَخَّرةٌ لك ، والفواكِهُ تَنْضج تباعاً ، أما المحاصيل فإنها تنضج في يومٍ واحد ، ولو أن المحاصيل تنْضج تِباعاً لَكانَ من المُسْتَحيل أنْ تَجْنِيَ المحاصيل ، ولو أنَّ الفواكِهُ تنْضج في يومٍ واحِدٍ لكان من المسْتَحيل أن تنْتَفع بِها ؛ يوجد إلهٌ عظيمٌ يُبدع كلَّ شيءٍ ، وهذا هو معنى سَخَّر لك النبات والماء والهواء وهذه الحيوانات .

إذاً : التسْخير هو التذليل ، والإنسان أحْياناً يمُرّ على الأشْياء مرور الكِرام ، ولا يَنْتَبهُ لِحِكْمَتِها البالِغة ، فهذا عُنْقود العِنَب لو أردْتَ أنْ تَقْطِفَهُ وجذبته نحوَ الأسْفل لعُصِرَ في يَدِك ولما انْقَطع ، فهو مُصَمَّمٌ

تضميماً رائِعاً ، ولكن لو جذبته عند قطفه نحْوَ الأعلى أصْبَحَ بِيَدِك بيسر وسهولة ، فمن سخَّرَهُ ؟ وهذا البطيخ كلُّه ماء فَمَن جعل له هذه القِشْرة السميكة ليمكن نقله من مكان لآخر ، ومن جعلَهُ بِهذه القِشْرة الكروِيَّة القاسِيَة فلا يسيل ماؤه ؟ الله عز وجل ، فالتسْخير قضِيَّة واسِعة جداً .

وردت مادة المُسخِّر في مواضِع كثيرة من كِتاب الله تعالى ، ففي سورة الرعد قال الله تعالى : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد : ٢] .

هل نسْتطيع أن نحْمِل هذا السَّقْفِ بِغَيْر أعْمِدة ؟ وهل هناك هنْدسَةٌ تُتيحُ لنا أن نبْنِيَ سَقْفاً بِغَيْر أعْمِدة ؟ مُسْتَحيل وإذا كان الأمر كذلك لكلَّفنا هذا الكثير ؛ سَقْفٌ بِلا أعْمِدةٍ ولا جُدْران يَعْتَمِد عليها هذا فوق طاقَةِ البشر ، فالله هكذا قال : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ هذه قِوى التَّجاذُب فالأرض مرْبوطةٌ بالشمس بِقُوَّةِ جذْبٍ تُساوي مليوني طنٍ ضَرْب مليون مليون طن ، أيْ رقم اثْنين أمامه ثمانِيَة عشر صِفْراً ، وهذه القوة تُمَثِّل مليون مليون حبْل فولاذي ، وقُطْر الحبْل خَمْسَةُ أمتار وكل حبْل يُقاوِم من قِوى الشدّ مليوني طن ، وكل هذه القوة لا نراها ، فهل تسْتطيع أنت أن تسير داخِل هذه الدِّعامة ؟ أعوذ بالله ، وهل بِإمْكانِك أن تصْنَع دِعامةً لا تُرى وتسير في داخِلِها ؟ دِعامةٌ لا تُرى! هكذا قال الله عز وجل : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ .

يعْني بِعَمَدٍ لا تَرَوْنَها ، وأنّ الكوْن كلّه مُتَرابِطٌ بِقوى التجاذب ، ولولا هذه القِوى لأصْبَح الكوْن كلُّهُ كُتْلَةً واحِدة ؛ قِوى تجاذب وقِوى نَبْذ ، حركةٌ شكَّلَتْ قِوى نبْذٍ ، والجاذِبِيّة هي التجاذب بين الكُتَل التي في السماء بِحَسَبِ حجومِها ومسافاتِها وأبْعادِها وحركاتِها وسكناتِها ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ أرْضُنا مُسَخَّرةٌ لنا فلو أنها تَفَلَّتَتْ من جاذِبِيَة الشمس لانتُهت الحياة عليْها ، لو أنها تَفَلَّتَتْ من جاذِبِيَة الشمس لأصْبَحت حرارتُها مئتين وسبْعين تحت الصِّفر ، وهو يعْني المَوْت المطلق لكل الكائنات الحيّة .

ما معنى مُسَخَّرة لنا ؟ أيْ مرْبوطَةٌ بالشَّمْس ، فبسبب هذا الجذب تنحرف الأرض في كل ثانية ثلاثة ميليمترات باتجاه الشمس حتى يكون مسار الأرض مُغْلقاً حول الشمس ، ولولا أنّ مسارها مُغْلَقٌ حوْل الشمْس لما سُخِّرت لنا ، حسناً ، لو أنها دارتْ بِسُرْعَةٍ كبيرة وصار الليل ساعةً والنهار ساعةً لكانت غير مُسَخَّرة ولو أنّ الدورةَ خمسُ سنواتٍ لصار الزمنُ خمسَ سنواتٍ نهاراً وخمس سنواتٍ ليلاً ولكانت غير مُسَخَّرة ، الحرُّ الذي بِجِهة الشمس ثلاثمئة درجة فوق الصِّفْر وفي الجِهة الأخرى مئتان وسبعون تحت الصِّفر ، لانتُهَتِ الحياة عندئذٍ ، فَمَعْنى مُسَخَّرة أنها تدور ، ومعنى مُسَخَّرة أنها تدور باعْتِدال ، ومعنى مُسَخَّرة أنها تدور بِمِحْور مائل ، ومعنى مُسَخَّرة خصائصها ثابِتة ، فهذه أوّل آية : ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ .

العلماء يقولون : الشمس مُتَّقِدة منذ خمْسَةِ آلاف مِلْيون عام ،

وقالوا : سوف تستَمِرّ ـ بِحَسَبِ دِراساتِهِم ـ إلى خمْسَة آلاف مِليون سنة أخرى ولِسان اللَّهب من الشمس طوله مليون كيلو مِتْراً ، هذه الطاقة من أين ؟ هل توجد مِدْفأة تعمل بلا وَقود ؟وهل هناك مَرْكَبَة تسير بِلا وقود ؟ وهل يوجد شيءٌ يشْتَعِل بِلا وقود ؟ خمسة آلاف مليون سنة مضت ولِخمْسة آلاف مليون سنة قادِمة وحرارتُها في باطِنِها عشرون مليون درجة وعلى سطْحِها سِتَّةُ آلاف! فَمِنْ أيْن هذه الحرارة ؟ ومن سَخَّرها لنا ؟ ضوء الشمس فيه دِفءٌ وثانِياً نور وثالِثاً تَعْقيم ؛ إذ يتعقم بشعاع الشمس كل ما يحتاج إلى تعقيم في محيطنا .

وذكر الله سبحانه الشمس والقمر لأنهما أظهر الكواكِب السيارة ، والتي هي أشْرف وأعْظم من الكواكِب الثوابِت ، فالشمس أمامنا مشاهدة ، والقمر أمامنا نراه ، والليل مُسَخَّر ، والنهار مُسَخَّر ، الله تعالى سَخَّر لنا الليل ، فهو سكينَةٌ لنا وظلام وهُدوء وراحة ونَوْمٌ وسِتْرٌ ، والنهار معاش ، ولولا دوْرة الأرضِ حول الشمس لما كان ليلٌ ولما كان نهار .

وفي سورة إبراهيم قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴾ [إبراهيم : ٣٢] .

أرَأَيْتُم إلى التسْخير ؟ جَمَعَ اسمَ المُسَخِّر ، والمسخَّر والمسخَّر له بآيةٍ واحدة : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴾ .

كلمة ﴿لكم﴾ بحَثْتُ عنها في القرآن الكريم بِبَرْنامج خاص

فَوَجَدْتُ أنها وردت أكثر من مئة وثمانين مرّة ؛ أنت أحْياناً تُقيمُ مأدُبَة على شَرَفِ إنسان ، فهذا الإنسان يجلس على هذه المأدُبة ويأكل ، فإذا طُرِق الباب وكان القادم ضَيْفاً تقول له هلُمّ وكُلْ معنا فَيَأكل ، لكن هذه المأدُبة أُقيمَت خِصيصى لِضَيْفِ الشَّرف ، أما الثاني فقد أكل عَرَضاً ، فَكَلِمة ﴿لكم﴾ تعني أنّ هذا الكَوْن مُسَخَّرٌ خِصّيصى لكم ، وليس المعنى أنَّك عِشْتَ على هذه الأرض فاسْتَفَدْت مما فيها ! بل كلُّ ما في الأرض من شيءٍ مُسَخَّرٌ للإنسانِ خِصيصاً وكلمة ﴿لكم﴾ تُفيد هذا المعنى ؛ ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴾ .

طبْعاً الفُلْكُ مُسَخَّرة حسب قانون أرْخَميدِس ، والأنهار مُسَخَّرة من خلال هذه الجبال التي جعلها الله مُسْتَوْدَعاتٍ للمِياه قال تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴾ .

فالله هو المُسَخِّر وأنت دائماً مُسَخَّرٌ لك ؛ المُسَخَّر له أشْرف وأعْظم من الشيء المسَخَّر .

وورَد التسْخير أيْضاً في آياتٍ كثيرة والنبي عليه الصلاة والسلام يقول :

فيما روى أبو أُمَامَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا رَفَعَ مَائِدَتَهُ قَالَ : « **الْحَمْدُ لله كَثِيراً طَيِّباً مُبَارَكاً فِيهِ ، غَيْرَ مَكْفِيٍّ ، وَلا مُوَدَّعٍ ، وَلا مُسْتَغْنًى عَنْهُ رَبَّنَا** » . [رواه البخاري] .

وقال تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ [الفرقان : ٦٣] .

طبْعاً ؛ العِباد جمْعُ عَبْدٍ ، والعبيد جمعُ عَبْدٍ ، ولكن العِباد جمْعُ عبدِ الشُكْر ، ولكن العبيد جمْعُ عَبْدِ القَهْر ، ونحن كلُّنا عبيدٌ لله ، بِمعنى أننا مقْهورون ، وبِمعنى أنّ حياتنا مُتَوَقِّفَةٌ على إمْداد الله ، وكذلك وجودنا ، وأنّ حياتنا وأرْزاقَنا لا تقوم إلا بالله ، وأنّنا بِحاجةٍ إلى الهواء ، ونحن مُفْتَقِرون إلى الله .

إذاً نحن عبيدٌ له ، أما العِباد فهم الذين عرفوه وأتَوْهُ طائعين وأحبُّوهُ وأقْبَلوا عليه وتَقَرَّبوا إليه ، وهذه العبودِيَّة لله عز وجل لها معنىً آخر ، فالنبي عليه الصلاة والسلام يُخْبِرنا أنَّهُ لا يسْتَغْني عن ربِّهِ أبَداً .

قال تعالى :

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴾ [الليل : ٥ـ١٣] .

بعض الناس يظن أنه يسْتَغْني عن الله فهو بِحُمْقِهِ أو بِغبائِه أو بِكُفْرِهِ أو بِجَهْلِه يرى أنَّهُ قويٌّ وغَنِيٌّ عن الله ، لكن الله سبحانه وتعالى يؤدِّبُه ويُحَجِّمه ، أما المؤمن فمُفْتَقِرٌ دائماً إلى الله عز وجل ، ولا تَنْسَوا أنّ الإنسان حينما يسْتَغني عن الله بحسب ظنه يَلْقى أشَدّ أنواعِ التأديب ولْيَكُن كائناً من كان ، ففي بذْرٍ أعلن الصحابة الكِرام فقْرَهُم إلى الله قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [آل عمران : ١٢٣] .

ومعنى الذل هنا الضعف والقلة مع الافْتِقار إلى الله تعالى ، أما في حُنَيْن فبدا لهم وكأنهم كثرة لاتهزم قال تعالى :

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ

كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة : ٢٥] .

فأنت حينما تستَغني ولو كان استِغناءً خَفياً ولو كان اِعْتِداداً بِالصحة أو المال أو القوة أو الذكاء ، فهذا كلُّهُ في ظاهره نوْعٌ من الاسْتِغناء ، والاسْتِغْناء مِن لوازِمِهِ التخلي ، فالله عز وجل يتَوَلاك أو يتخلى عنك يتَوَلاكَ إذا افْتَقَرْتَ إليه ، ويتَخَلى عنك إذا اسْتَغْنَيْتَ عنه ، وليس شرطاً أن تقول : أنا مُسْتَغْنٍ عن الله ، فحينما تعتمِد على شيءٍ من قُدراتِك الخاصَّة وتنْسى أنّ الله تعالى سَخَّرَها لك وأكْرَمَك بِها فهذا أحد أنواع الاسْتِغناء ، وتأْديبُهُ سريع ولا سِيَما المؤمن ، فالله عز وجل لا يسْمَحُ للمؤمن أن يغْفُلَ عنه لأنه يُحِبُّهُ ولا يسْمَحُ له أنْ يُشْرِك به ، فالله تعالى يخبر أنه أغنى الأغنياء عن الشِّرك والقلب المُشْتَرَك لا يُقْبِلُ الله عليه والعمل المُشْتَرَك لا يَقْبَلُهُ الله .

لِذلك أخطر شيء في الإيمان قضِيَّةُ الشِّرك الخَفيِّ ، فالإنسان أحياناً يشعُر أنه يَمْلِك شيئاً ، قد يشعر أنه يمْلِك المال أو القوة أو الذكاء أو طلاقَةَ اللِّسان ، فهذا الذي تشْعُرُ أنَّك تَمْلِكُهُ هو أحد أسباب الاستغْناء عن الله وأحد أسباب الشِّرك الخفيِّ ، فبِمُجَرَّدِ أَن تَشْعر أنَّك قادر على شيءٍ وأنَّك تمْلِك قدْرةً ذاتِية إما عِلميَّة أو مالِيَّة ، وقوة تسْتَعْلي بِها على الناس ، فالله عز وجل سريعاً ما يُؤَدِّبُك ويَتَخلى عنك ، فهذا التخلي هو التربية ، فكُلما كنت أكثر تَبحراً في الدين وأكثر توْحيداً لله وإخلاصاً له تجْعَل من نفسِك أكثر اِفْتِقاراً دائماً ، وهذا الِافْتِقار الدائم يَجْعَلُ الله منه سبباً لمَعونَتِك .

ورد في الأثر أنَّ النبي داود قال يا رب : كيف أشْكُرُك وشُكْري

لك نِعْمَةٌ منك عليَّ ؟ وسؤال داود يذكرنا بهذه الحكمة أيضاً : « إذا أراد ربك إظهار فضْلِه عليك ، خلق الفضْل ونَسَبَهُ إليك » ، بعد حين يشْعُر الإنسان أنَّهُ لا شيء ، وكلما ازْددت افْتِقاراً إلى الله زادك الله إمْداداً وقُوَّةً وعِلْماً وصِحَّةً ويقيناً وقُدْرَةً على التمييز ، وكلما اعْتَدَدْت بِقُدراتِك الذاتيَة تخلى الله عنك ؛ كيف أشْكُرُك وشُكْري لك نِعْمَةٌ منك عليَّ ؟ فقال الله تعالى : الآن شَكَرْتَني يا داود ، لأنّ العَجْزَ عن الإدْراك إدْراك ، وحين يقول الإنسان : سُبْحانك لا نُحصي ثناءً عليك أنت كما أثْنَيْتَ على نَفْسِك . فهذا شُكْر ، فحينما تعْجَزُ عن الشُّكر فأنت شاكِر ، وحينما تعْجَزُ أن تُعَبِّر عن شُكْرِك لله عز وجل فأنت عندئذٍ تشْكُرُهُ ، أما الغافِل فهو الكافِر .

ولقد ذكرت مراراً أنَّ الكَوْنُ مُسَخَّرٌ تسْخيرَيْن :

ـ تسْخير تعْريف .

ـ وتسْخير تكْريم .

وردُّ فِعْل التعريف أنْ تؤمن به ، وردُّ فِعْل التكريم أنْ تشْكُرَهُ ، فإذا آمنْتَ به وشَكَرْتَهُ حقَّقْتَ الهَدَفَ من وُجودِك ، لذلك يقول الله عز وجل :

﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء : ١٤٧] .

وبِالمُناسبة بِمُجَرَّدِ أنْ تَعْرِف هذه النِّعمة أنها من الله فهذا نوْعٌ من الشُّكْر ، فأَهْلُ الدنيا تجد أحدهم يسْتَمِع إلىٰ نشرة الأخبار الجوية مثلاً أنّ مُنْخَفَضاً جوِّياً في طريقِهِ إلى الشرق الأوسط ، فإذا لم يَخْطُر ببالِهِ أنَّ الله تعالى رحْمَةً منه بِالبَشَر ساق هذه المُنْخَفَضات لِتَكون في النِّهايَة

أمْطاراً تزوي الزرع ويشرب منها الإنسان ويسْقي بهائِمهُ ، فهذا التصور بِأنّ هذا مُنْخَفِضٌ يسير بِسُرْعة كذا إلى المكان الفُلاني ولا يَذْكُر الله معه فذلك نوْعٌ من الشِّرك ، لِذلِك فلا بد من أن تعْتَرِف بأن كلَّ شيءٍ يحيط بك نِعْمَةٌ عُظْمى يَنْبَغي أنْ تحْمَدَ الله تعالى علَيْها .

اسْتِنشاق الهواء نِعْمَة ، وكم من جِهازٍ في الإنسان يعْمَلُ بِانْتِظام ، فمثلاً هذه العَيْنُ تعْمَلُ بانْتِظام ، وهي من أكبَرِ النِّعَمِ التي أنْعَمَ الله بِها علينا ، ترى الألوان كلَّها والأشياء بِحَجْمِها ولا تَحْتاج إلى تَخْميض فِلْمٍ ولا إلى انْتِظار حتى ترى ، ولا أنّ الألوان تبدو لها باهِتَة ، فالعَيْن البشَرِيَّة تُفَرِّق بين ثمانمئة ألف نوع من اللون الأخْضر ، وتُفَرِّق بين درجتين من بين ثمانمئة ألف درجة ، فَهِيَ حسَّاسَةٌ جداً ، فالعَيْن نِعْمة والشَّم نِعْمة والسمع والنطق نِعمة والقلب والرئتان والأوعِيَة والأمعاء كلها نعم كذلك ، فالإنسان مغمورٌ بِالنِّعم وكلما فكَّر في هذه النِّعم أحب الله عز وجل . والنبي عليه الصلاة والسلام يروى عنه :

« أَحِبُّوا اللهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ مِنْ نِعَمِهِ ، وَأَحِبُّونِي بِحُبِّ اللهِ ، وَأَحِبُّوا أَهْلَ بَيْتِي بِحُبِّي » [رواه الترمذي] .

« أحِبوا الله لِما يغْذوكم من نِعَمِهِ » ، وحالةُ المؤمن دائماً الشُّكْر لأنّ الله عز وجل سخَّر له جِسْمَهُ وأنت شيء غير جِسْمِك ، والدليل قوله تعالى :

﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [فصلت : ٢١] .

فَجِلْدُك خلايا ، والخلايا نفْسٌ لها مسؤولِيَّة وتنطِق يوم القيامة وتشْهد ، فَجِسْمُكَ مُسَخَّرٌ لك ، وعظْمُ عُنُقِ الفخذ يتحَمَّل مئتين

وخمسين كيلو حُمولَة ، فالعظْمَان يتحملان نِصْف طن ، وهذا الحُوَيْن المَنَوي الذي هو كالماء مِن أين جاء بِهذه القساوة في العِظام ؟ هذا يعْني أنّ هناك في العِظام كِلْس قاس فَمَن أعْطاه هذه القساوة ؟ فالمواد الكِلْسِيَّة تترسَّب في العِظام وبِطريقةٍ لا يعْلَمُها إلا الله تعالى ، يُصْبِح هذا العظْم قاسياً ، بل إن ميناء الأسنان يأتي بعد الماس في قساوَتِه ، والعِظام لها متانَةٌ كبيرة .

انْظر إلى القصاب يرْفَع الساطور إلى أعلى ويَهْوي بِه بِكُلِّ قُوَّتِه لِيَكْسِرَ عظْماً من عِظام الخروف ما معنى ذلك ؟ أيْ أنّ الله عز وجل أعْطاك هَيْكَلاً عظمياً قوياً وعضلاتٍ تتَحَرَّكُ بِها ، ولولا العضلات لما كانت هناك حركة ولا مَشْي ولا تَكَلُّم ولا نُطْق ولا تَنَفُّس ولا نَبْض قلب ولتوقف كلُّهُ فالله تعالى أعْطاك عضلاتٍ تتحرَّك وهَيْكَلاً عظمياً هو قِوامُ جِسْمِك وأَعْطاك الله عز وجل أجْهِزَةً دقيقة جداً .

ولقد ذكرت مرةً أنّ في الدِّماغ جِهازاً يكْشِف تفاضُل وُصول الصَّوْتَيْنِ للأذُنَين ، فإذا دخل صوْتٌ من جهة اليمين قبل جهة الشمال مثلاً بِقدْر واحد على ألف وسِتمئة جزء بالمئة حينها يعْلَم الإنسان أنّ الصوت جاء من هنا ، فإذا كان يقود سيارة مثلاً فإنه يَنْحَرِف نحو اليسار استجابة لذلك الصوت ، فهذا جِهازٌ مُعَقَّد جداً وهناك جِهاز توازن السوائل ، وجِهاز ضبط ، فالإنسان يَنْطَوي على آلاف الأجْهِزة ؛ الغُدَّة النُّخامِيَةُ وزنها نِصْف غرام وتُفْرِز اثْني عشر هِرموناً .

هل علمت أنّ التسْخير يعني أنّ جِسْمَك مُسَخَّرٌ لك ، والطعام مُسَخَّر ، والشراب مُسَخَّر ، والأنعام مُسَخَّرة ، والبحار مُسَخَّرة ، والأمطار مُسَخَّرة ، والرياح مُسَخَّرة ، ولولا الرياح اللَّواقح ما أنتجت

النباتات ، ولا أثمَرت الأشجار ، قال تعالى :

﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ ﴾ [الحجر : ٢٢] .

والتسخير كذلك ورد في سورة النحل قال تعالى :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [النحل : ١٢] .

فلوْ أنّ الله تعالى جعل لكم النهار سَرْمَداً إلى يوم القِيامة مَنْ إلهٌ غير الله يأتيكم بِلَيلٍ تسْكُنون فيه ؟ ولو أنَّهُ جعل لكم الليل سرْمَداً إلى يوم القِيامة مَنْ إلهٌ غير الله يأتيكم بِنهارٍ تنْتَشِرون فيه ؟ إنه الله ، فالليل مسَخَّر والنهار مُسَخَّر ، وهذه دَوْرة الشمس والأرض آية صارخة ، وكذلك فَلَو دارت الأرض على مِحْوَر مُوازٍ لِمُسْتوى دورانِها لما كان هناك ليلٌ ولا نهار فالدِّقة التي جعلها الله بينهما تدلّ على حِكْمَةٍ بالغة وخلقٍ دقيق ، ولو أنّ المِحور عمودي على مُسْتَوى الدوران لما كان هناك فصول ، ولكنه مائل وهذا الميَلان يُسَبِّب الفصول وهذا هو التسْخير قال تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

فالله جعل القمر نوراً والشمس جعلها سِراجاً وهاجاً ، قرأت أن القمر يُعطي ثمانِيَة عشر بالمئة مما تعطيه الشمس فَيُمْكِن للقمر أنْ يُؤدي وظيفة إضاءة تُساوي ثمانِيَة عشر جزءاً بالمئة من الشمس ، وذات مرةً كنت مسافراً بالطائرة فرأيت في ليلةٍ مُقْمِرة من علٍ بلاداً ، قرًى ومدناً وسهولاً ، واستطعت أن أتبين كثيراً من مناظرها على ضوء القمر ، فالقمر مُسَخَّر وجعله الله تقْويماً للإنسان فالآية الكريمة :

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ .

قد تكون نجمةٌ مُتألِّقة حجمُها يزيد مئة مليون مرة على حجم الشمس ، وهناك نجوم تتّسع للأرض والشمس مع المسافة بينهما ، وهناك نجوم تبْعُد عنا ثلاثمئة مليون سنة ضوئيّة ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ .

وما ذرأ (أيْ : وما خلق) لكم في الأرض مُخْتَلِفاً ألْوانُهُ ، ففي الفواكِه تجد لوناً أصْفر مع خدٍّ أحمر ، أو أحمر داكِن ، وأخضر غامِق أوفاتِح ، فالفاكِهة ألوانُها من آيات الله الدالة على عظمتِهِ وألْوان الخُضَر والأشجار والجِبال وزرقة البِحار ، فهذا كلّه من فضْل الله عز وجل ، قال تعالى : ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [النحل : ١٣] .

فالبحر أربعة أخْماس الكرة الأرضية ، وعمقه في أخفض نقطة اثنا عشر كيلو متراً ، فالكَمُّ المائي كبير جداً ، فإذا كان أربعة أخْماس الكرة الأرضية على عُمْق متوسِّط خمسة كيلومترات ، فكم هي كُتْلة الماء في البِحار ؟ فالبحر الأبيض المتوسِّط يُعَدّ بُحَيْرة إذا ما قيس بالمحيطات . أما المحيط الهادي والأطْلسي وغيرهما فهي محيطات كبيرة جداً قال تعالى :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل : ١٤] .

فالسمك مخلوقٌ خِصِّيصى للإنسان ، وهناك مليون نوع من السمك في البحار ، ولولا أنّ الأسماك الكبيرة تأكل الصغيرة لصار البحر كلّه أسْماكاً وقال تعالى : ﴿ وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ هذا اللؤلؤ شيء دقيق الصنع والتكوين ؛ هناك حيوانٌ إذا شعر أنّ في محارِهِ جِسْماً غريباً مهما كان دقيقاً أفْرز عليه مادَّةً فوسْفوريَّة كلْسية يُدافِع بِها عن نفسِه ويُحَجِّم هذا الجِسم الغريب ، وهذه المادة الفوسْفوريَّة الكلْسِيَّة هي اللؤلؤ ، واللؤلؤ غالٍ جداً قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

أغلب البضائع هذه الأيام اسْتيراد وتصْدير ، تُنقل عبْر السُّفُن وهناك الآن بواخِر وناقلات نفط تَحْمِل مليون طن ؛ مُدُن تسير في البحار ، وهناك الآن معامِل لِصُنْع الستانلس هي بواخِر تأخذ المواد الأولِيَّة من أُسْترالْيا وفي طريقها إلى الشرق الأوْسَط تُصَنِّعُها وتبيعُها مُصَنَّعَةً خالِصَةً ، فالبواخِر مُدُنٌ تمشي في الماء قال تعالى : ﴿ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

أذْكُر مرةً أننا كنا في سَفَرٍ وكان الطريق طويلاً وساحِلِياً ومن الممكن أن نقْطَعَهُ في البحر ، كانت تقِف على مرأى منا بواخر تُستعمل ناقِلاتٍ للسيارات ، فيها سيارات كبيرة وشاحِنات و(بولْمانات) و(تكْسيات) تحمل عدداً كبيراً من السيارات ؛ كيف تتحرك هذه الباخِرة بِهذا العدد ؟ وكيف يحْمِلها الماء ؟ إذا قلتَ : البترول ؛ قلنا لك : من خلق البترول ؟ الله جل جلاله ، قال تعالى : ﴿ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

وقال : ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[النحل : ١٥] .

فالجبال يبدو أنها مُوَزَّعة توزيعاً دقيقاً جداً ، حيث إن الأرض تدور دَوْرَةً مُسْتَقِرة ؛ تجد بِناءً عمره سبعمئة سنة ليس به بأس ، ولو كانت هناك حركة تلامسه لانهَدم ، فالأرض مُتَحَرِّكة وكأنها ساكِنة وهذا من آيات الله الدالة على عظَمَتِه ، اسْتِقرارٌ مُطْلَق مع حركة عجيبة قال تعالى :

﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [النمل : ٦١] .

من جعلها مستَقِرة ؟ ومن جعل الأشياء تسْتَقِرّ عليها ؟ الله جل جلاله قال : ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [النحل : ١٥ـ١٦] .

كل شيء له علامة تميزه وتعلن عن حقيقة بواطنه ، إذا كان هناك جُرْثوم في جسم الإنسان ، فإنه ترتَفِع حرارته ، فارْتِفاع الحرارة علامة ، وإذا الفاكهة نضجت يصْفَرُّ لوْنُها وهذا اللون الأصْفر علامة ، وأحْياناً الزيتون يَسْوَدّ والحب يشْتَدّ والعِنب يصْفَرّ ، وكل شيء خلقه الله عز وجل جعل له علامةً تدلّ على باطِنِهِ ، حتى الأمراض كلها لها علامات ، ولولا هذه العلامات لما عرف الأطِباء الأمراض ، وكل شيء باطِن له علامة ظاهرة ، قال تعالى : ﴿ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [النحل : ١٦] .

وقال تعالى :

﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل : ١٨] .

أيْ أنتم عاجِزون عن إحْصاء النِّعم ، فَلأَن تكونوا عاجِزين عن شُكْرِها من باب أوْلى ، ولذلك ختمت الآية بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

وفي سورة الأنبياء قال تعالى :

﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧٩] .

أيْضاً هذه الآية وما بعدها تُبيِّن تسْخير الله تعالى لِهذا النبي الكريم .

وفي سورة الحج قال تعالى :

﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الحج : ٣٦] .

فهذه الناقة ؛ قرأت عنها بعض المقالات في مجلاتٍ عِلْمِيَّة أنها تستطيع أن تسْتَغْني عن الماء ثلاثة أشْهر ، فهي تسْتطيع أن تسْتَهْلِك ماء خلاياها ، وتسْتطيع أن تسْتغني عن الطعام أكثر من سِتة أشهر لأنّ سنامها مُدَّخرٌ غِذائِيٌّ لها ، فهذا الحيوان مُسَخَّرٌ للإنسان ولا سِيَما في الصحراء ، أَخْفافُها آية ، ولها رُموش تمْنَع دخول الغُبار إلى عَيْنِها ، وعَيْنُها آية تُريها البعيد قريباً والصغير كبيراً ، فعَيْن الناقة كالمِكْروسْكوب تماماً ، فَعَيْنُها آية ، وشَفَتاها آية ، وأَعْضاؤها آية ، وتجْلِس جِلْسَةً نِظامِيَةً وترْتاح ، ولها ثفنة في بَطْنِها وعلى يديها ورجليها ، جَلْسَتُها النِّظامِيَةُ تُتيح لك أن تُحَمِّل عليها ، وهي دانية من الأرض .

وربنا عز وجل يقول :

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ [الغاشية : ١٧] .

آية كريمةٌ ، قال تعالى : ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

إن بحثنا يتناول كلَّ حركةٍ من حركاتِك ؛ ويريك كل ما سخره الله لك من خلال ذلك ، خرجْتَ من المسجد ولَبِسْتَ حِذاءك من جِلْد الأنْعام فهذا الجِلد مُسَخَّرٌ لنا ، ركِبْتَ مرْكَبَةً تتحرَّكُ بِالبترول فالبترول مُسَخَّر لنا ، دخلت إلى البيت وشَرِبت كأساً من ماء فالماء مُسَخَّرٌ لك ، ومن جعلهُ عذْباً فُراتاً ؟ وكان من قبل مِلْحاً أُجاجاً فالماء مُسَخَّرٌ لنا ، رأيْتَ زوْجَتَك فمن سَخَّرها زوجَةً مُطيعَةً لك ، ورأيْتَ أوْلادك واسْتَلْقَيْت على فِراشٍ وثير فمن خلق الصوف ؟ واللهِ هذا الاسم العظيم ، اسْم المُسَخِّر يدور معك في كلِّ ثانِيَة من حياتِك ؛ فكَيْفَما تحرَّكْت وَجَدْت الأشياء مُسَخَّرة لك أعْظم تسْخير ، ألا تسْتَحْيي من الله ؟ :

إلى متى أنت بِاللَّذات مشْغول وأنت عن كلِّ ما قَدَّمْتَ مسؤول

تعصي الإله وأنت تُظهر حُبَّهُ هذا لَعَمْري في المقال بديعُ

لو كان حُبُّك صادِقاً لأَطَعْتَهُ إنّ المُحِبّ لِمن يُحِب مُطِيعُ

وفي سورة العنكبوت قال تعالى :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [العنكبوت : ٦١] .

وفي سورة لُقمان قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ [لقمان : ٢٠] .

أذكُر مرةً أنني كنت بالخليج ، وكان هناك سِباق للهُجْن يَعْتنون به كثيراً ، ولكنّ الذي لَفَت نظري أن الذي يرْكَب على هذه الناقة طِفلٌ صغير ، وهذا الطِّفل من شِدَّة الِاهْتِزاز يَنْعَطِب عمودُهُ الفقري ورأَيت العَكْس في هذا الموقف ، فالإنسان هنا مُسَخَّرٌ لِهذه الناقة ، والأصل أنّ الناقة هي المُسَخَّرة للإنسان ، فالإنسان حينما يُسَخَّر لِمَخْلوقٍ أدْنى منه ما عرف قيمَة نفسه وإنسانيته لِذلك الله عز وجل قال :

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [البقرة : ١٣٠] .

هناك أشياء كثيرة قد ترْفُضُها لأنها لا تُعْجبُك ولأنَّك تَحْتَقِرها ، إلا أنَّك إذا رفضْت الدِّين فإنَّك تَحْتَقِر نفْسَك قال : ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .

حينما يحتَقِر الإنسان نفْسَهُ يُعْرِض عن الدِّين ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ .

وفي سورة الزمر قال تعالى :

﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾ [الزمر : ٥] .

وفي سورة الزخرف قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ [الزخرف : ١٢] .

وهذه لفتة ألفت نظرك إليها فيما سخر الله أيها الإنسان ، لتعتبر وتشكر :

فمِن أجل أن تعرف قيمة البِتْرول ؛ سيارة فيها خمسة رُكاب وتحمِل أغراضاً وأمتعة ، وتسير في طريق صاعِد ، فلو أنَّها وقَفَت وأُطْفِىءَ مُحَرِّكُها وكَلَّفْناك أنْ تدْفَعَها في مسارها إلى الأعلى مع رُكابِها فهل تسْتطيع ؟ فلو كان هناك خمسة رجال أقوياء لما اسْتطاعوا تحريك هذه السيارة بِطريقٍ صاعِد ، لكن هذا البترول كيف ينْفَجِر وكيف يدْفع هذا الوزْن الثقيل من المركَبَة مع ما فيها من ركاب بِطريقٍ صاعِدٍ على نحو ما تعرف وتشاهد ؟ فسبحان الذي سخَّر لنا هذا ، وإذا ركِبت باخرة من الذي جعل الماء يحْمِلها ؟ الله عز وجل ، وكذلك الطائرة في الهواء ، وهناك دعاء قرآني كلما ركِبْت مرْكَبَةً أو دابَّةً أو سيارَةً تقول :

كما روى عليُّ الأزدي أَنَّ ابْنَ عُمَرَ عَلَّمَهُمْ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا اسْتَوَى عَلَى بَعِيرِهِ خَارِجاً إِلَى سَفَرٍ كَبَّرَ ثَلاثاً ثُمَّ قَالَ : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ . [رواه مسلم] .

اسم المُسَخِّر اسم يدور في حياتِنا كلِّها ولك أن تُفَكِّر فيه ، في كلِّ ثانِيَة ، فَكُلُّ شيء تراه أمامك مُسَخَّرٌ لك ، وكل ما تراهُ أمامك هو من نِعَم الله عز وجل ، وقد سخّره لك ، ولولا أنك ذو شأنٍ عند الله عز وجل لما سَخَّر الكوْن من أجْلِك قال تعالى : ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [النحل : ٥] .

لذلك فمُلَخَّص البحث : « أَحِبوا الله لِما يَغْذوكم به من نِعَمِه ، وأَحِبوني بِحُب الله ، وأَحِبوا آل بيتي بِحُبي » ، فإن فعلت كنت عبداً شكوراً .

* * *

المُرِيدُ

من أسماء الله الحُسنى المريد ، ولِهذا الاسم خُصوصِيَّةٌ كبيرة جداً وهو اسم كما يبْدو زائداً على الأسماء التِّسْعة والتِّسْعين التي وردت في الأحاديث الشريفة .

نبْدأ بِمعنى المُريد في اللغة ؛ المُريد اسم فاعِل من فِعْلٍ رُباعي : أراد يُريد فهو مُريد ، من مادة الرَّوْد ، والرَّوْد معناه الطلب ، أراد أيْ : طلب ، والفِعْل راد يرود ، والإرادة أيضاً هي المشيئة ؛ شاء وأراد بِمعنى واحد والإرادة من معانيها الفرعِيَّة السَّعْيُ في طلب الشيء .

قال بعض العلماء : « **الإرادة في الأصل إرادةٌ مُرَكَّبة من شهوة وحاجَةٍ وأملٍ ؛ هَدَفٌ أمامك وشهوة تُحَرِّكُك وحاجةٌ أنت محتاج إليها** » ، شهوةٌ وحاجَةٌ وأملٌ ؛ أو بِتَعْريفٍ آخر ، الإرادة : نزوع النفس إلى شيءٍ ، فمثلاً أردتُ أن أذهب إلى حلب ، وتاقَتْ نفسي أو نزعَتْ أو مالتْ أو اتَّجَهَتْ إلى أن تُسافِر إلى حلب ، إذاً نُزوع النفسِ إلى شيء ما يعني إرادة .

والمعنى الثاني الدقيق : الحُكْمُ على الشيء ، والحقيقة : النُّزوع إلى الشيء ، وهذا المعنى يَليقُ بالإنسان ، ولكن لا يليق بالواحد

الدَّيان ؛ شيءٌ بعيدٌ عنك تتَّجِهُ إليه ، شيءٌ ليس بين يدَيْك تبْحَثُ عنه ، مكانٌ بعيد تُسافِر إليه ، ومَنْصِبٌ رفيع تسْعى إليه ، ومكاسِب كبيرة تمْشي في طريقِها ، فالإرادة نزوعُ الإنسان إلى شيء هو معنًى أساسي من معاني الإرادة ولكن لا يليق إلا بالإنسان . أما الواحِد الديان فلا يُمْكِن أن نقْبل هذا المعنى بالنسبة لله عز وجل ، إذ بالنسبة لله جلّ جلاله ؛ إرادَتُهُ : أيْ حُكْمُهُ ، فإذا أراد الله كذا حَكَمَ على هذا الشيء بِكذا قال تعالى :

﴿ لَهُ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد : ١١] .

إذاً : إذا قُلنا الإنسان أراد : أيْ نزعَ إلى شيء واتَّجَهَ إلى شيء وأقْبل على الشيء ، وأغْلَبُ الظن أنَّ هذا الشيء بعيد عنه ، ولابُدَّ له من وسيلة ؛ فالله عز وجل مُنَزَّهٌ عن العِلَّة الغائِيَّة أي أنْ يتَّخِذ إلى غاياتِهِ وسيلةً ، أما الإنسان فيُكَمِّلُ ضَعْفَهُ بِوسيلةٍ ؛ فمثلاً مِن أجل أن يصِل إلى بلْدَةٍ بعيدة يتَّخِذ سيارة أو طائرة ، ومن أجل أن يصِل إلى الماء يجب أن يحْفِر البئر ، ومن أجل أن يأكل يجب أن يزْرع ، وهذه هي العِلَّة الغائِيَّة ، أما ربنا جلّ جلاله فهو مُنَزَّهٌ عن العلَّةِ الغائيَّة .

إذاً : من معاني الإرادة نُزوع النفس إلى شيء ، وأنَّ هذا الشيء بعيد ولابُدَّ لكي أصِل إليه من وسيلة ، والوسائل لا تُعَدّ ولا تُحصى ، فإذا كان النزوع مكانياً فإنه يحتاج إلى مَرْكَبة ، وإذا النُّزوع عِلمياً فهو يحْتاج إلى دِراسَة ، وإذا كان النزوع مالياً فهو يحتاج إلى عَمَل . فالإنسان حينما ينْزِع إلى شيء يبْحَث عن وسيلةٍ يُكَمِّل بها نقْصَهُ ، أنا

أريد أن أرى الخَلِيَّة ، فأنا عاجِز ، فأَسْتَخْدِم الميكروسْكوب لأرى الخليَّة ، فهنا نَزَعَت نفسي إلى أن أرى الخَلِيَّة فاحتجت إلى ميكروسْكوب ، فالنَّفْس التي نزعَتْ إلى شيء تتَّخِذ وسيلة ، وهذا من ضعفِ الإنسان . أما ربنا عز وجل فإنه إذا أراد شيئاً حَكَمَ عليه أنه هكذا قال تعالى : ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾ ، فإرادة الله هي الحُكْم .

إنَّ أُناساً كثيرين تَخْتَلِط عليهم الأمور ، الكوْن فيه أشياء مُسَخَّرة وأشياء مُخَيَّرة ، والإنسان مُخَيَّر ، والجماد مُسَخَّر ، والحيوان مُسَخَّر ، وكذا النبات ، فإرادة الله في المُسَخَّرات هي نُفوذ حُكْمِه . أما إرادة الله في المُخَيَّرات فهي تعني السماح لأن الله عز وجل حينما جاء بالإنسان إلى الدنيا حَمَّلَهُ الأمانة ، والأمانة من لوازِمِها حُرِيَّة الاخْتِيار ، والفِعْل بِيَد الله عز وجل فَكَيْفَ نُوَفِّق بين أنّ الفِعل بِيَدِ الله وأنّ الإنسان مُخَيَّر ؟ نقول : إذا تعلَّقَت إرادة الإنسان بِشيءٍ بمعنى أنه اخْتار ، تَعَلَّقَت إرادة الله بِتَحقيق هذا الشيء فإرادتُهُ سماح ، أَيُعْقَلُ أن يسْرِق سارِقٌ في الأرض خِلافَ مشيئة الله ؟ لا يُمْكِن وهل يُعْقَلُ أنّ الله أمرهُ أن يسْرِق ؟ قال تعالى :

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٨] .

كيف نُوَفِّقُ بين المعنَيَيْن ؟ أيَقَعُ في مُلْكِه ما لا يريد ؟ حاشا لله ، هناك شر يقع ، كيف يقع هذا الشر ؟ إرادة الله مع المُخَيَّر إرادة سماح ، لكن مع المُسَيَّر إرادة أمر ، فإذا اِقْتَرف أحدٌ مَعْصِيَةً معنى

ذلك أنّ الله تعالى سَمَح له ولماذا سمح له ؟ لأنه مُخَيَّر ولأنه جاء إلى الدنيا لِيَفْعَل أفعالاً اِخْتِيارِيَّة ، والاختِيار يُكَمِّل عمله ، إذاً يليق بالله عز وجل أن تكون إرادتُه في الكَوْن إرادة حُكْم ، إلا أنّ إرادَتَهُ مع الكائن المُخَيَّر من الإنس والجن إرادة سماح .

وهذا شيء آخر ، وهو معنى من معاني الإرادة ، قال تعالى :

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة : ١٨٥] .

الله عز وجل يأمركم أن تكونوا مُيَسِّرين ، أريد منك كذا يعني آمُرُك بِكذا ، فأول معنى عندنا هو : النزوع وهو مُتَعَلِّق بالإنسان ، والمعنى الثاني : الحُكْم وهو مُتَعَلِّق بالله تعالى ، والحُكم مع المُسَخَّرات أمر ومع المخَيَّرات هو السماحُ ، والآن هذا معنى فرعي من معاني الإرادة أراد الله كذا أيْ أمر بِكذا .

وإليك معنىً آخر من معاني الإرادة وهو القصْد قال تعالى :

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص : ٨٣] .

فالقصْد والأمر والحُكْم والسماح والنزوع هذه هي معاني الإرادة . لكن هناك آياتٌ كثيرة في كتاب الله تُوَضِّحُ تفاصيل هذا المعنى ؛ يقول الله عز وجل :

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام : ١٢٥] .

أنت إذا قرأت هذه الآية لعلك تظن أنّ الله شرح صدر إنسانٍ

للإيمان فآمن ، وضَيَّقَ صدْر إنسانٍ آخر فلم يُؤْمِن ، وكأنّ المعنى يوحِي بِالجَبْر ، والحقيقة خِلاف ذلك كما قلنا قبل قليل ، إذا أراد الإنسان شيئاً تعلَّقَت إرادة الله بِالسماحِ بأن يفْعَل هذا الشيء ، إذا أراد الإنسان شيئاً ولأنه مُنِح حُرِّيَّة الاختِيار ، ولأن الإرادة من صِفات الإنسان ، فإذا أراد الإنسان شيئاً تعلَّقَت إرادة الله بِالسماحِ بأن يفْعَل هذا الشيء إلا أنّ هناك تَحَفُّظاً واحداً وهو أنّ الإنسان مُخَيَّرٌ أن يفْعَل ما يشاء ، ولكنَّهُ لا يسْتَطيع أنْ يصُبّ اِخْتِياره على من يشاء ، فَلَهُ أن يسْرِق ولكن ليس له أن يسرِق ممن يشاء ، يسْرِق ممن يُسَيِّرُهُ الله تعالى لِسَرِقَتِهِ وهذا هو معنى قوله تعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام : ١٢٩] .

وهذا هو معنى قول الله تعالى :

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص : ٤] .

وهناك معنىً فرعِيٌّ آخر يجب أن أُضيفَهُ لِهذا المعنى ؛ لو أنّ إنساناً أراد شراً ؛ أراد أنْ يعصي مثلاً أو أن يأخذ مالاً ليس له ، أو أراد أن يفْعل فاحِشَةً ، فماذا يفْعل معه ربنا سبحانه وتعالى ؟ إن لم تكُن هذه الشهوة مُسْتَحْكِمةً ، وإن لم تبْلُغ هذه الشهوة درجة الحِجاب ، فالشهوات تتنامى في نفسِ الإنسان وهناك حدٌّ إذا وصَلَت إليه هذه الشهوة بَلَغَت حدّ الحِجاب وحَجَبَتْهُ عن كل شيءٍ ؛ حُبُّكَ الشيءَ يُعْمي ويُصِمّ ، فإذا بلغ الإصْرار على شهوةٍ مُنْحَرِفة درجةً عالِيَةً جداً تعلَّقَتْ إرادة الله بِهذا العبْد بِأن يسْمَح له بِأن يفْعَل ما اخْتار ، أما إذا كانت إرادتُهُ ضعيفَةً ، فالله سبحانه وتعالى لا يسْمَح له ، بل يُنَبِّهُهُ ويُحَذِّرُهُ

فصار هناك قَضِيتان : القضية الأولى أنّ الله لا يُطْلِق إنساناً وفْقَ إرادَتِه إلا إذا كانت الحِكمة المُطْلَقة أنْ يفعَل هذا الشيء ، إذ السماح بِيَد الله عز وجل ، فأنت تريد وأنا أريد والله يفعل ما يريد .

إذاً الإرادة التي يريدُها الإنسان إن كانت ليست في صالِحِهِ فربنا سبحانه وتعالى لا يسْمَحُ له أن يفْعَلَها ، أما إذا بلغَتْ إرادَتُهُ درجَةً عالِيَةً من الإصْرار فعِنْدئذٍ ربنا سبحانه وتعالى يسْمح له أنْ يُنَفِّذها ، لا على من يشاء الإنسان ولكن على من يشاء الله عز وجل ، فكنْ مطمئناً ، ولو أنّ إنساناً شِرِّيراً يَبْدو لك أنَّهُ مُخَيَّر وأنَّهُ طليق اليدين وأنه يفْعل ما يشاء ، فالله جل جلاله لن يُسْلِمَك لأحدٍ ، فهذا الشِّرير طليق اليدين لا يسْتطيع أن يفْعل شيئاً إلا إذا إرادَة الله عز وجل شاءت ، والله يسوق ظالِماً لِظالِمٍ ومُنْحَرِفاً لِمُنْحَرِف أو يسوق إنساناً لا يعْرِفُهُ لِيُؤَدِّب من يعْرِفُهُ ؛ إذا عصاني من يعْرِفني سلَّطْت عليه من لا يعْرِفْني ، فالإنسان مُخَيَّر والفِعل فِعْل الله وإرادة الله مع غير المُخَيَّر إرادة أمر لأنَّهُ مُسَخَّر ، أما إرادة الله مع الإنس والجن فهي إرادة سماح ، لأنّ الإنسان مُخَيَّر ؛ سماحٌ أن يفْعل حينما تَغْلو الشهوة ويغْلو الإصْرار إلى درجَة أن الحِكمة المُطْلَقة تنْقَلِب إلى عملٍ ، أما إذا لم يكن هناك إصرار ، فربنا عز وجل يصْرف عنه هذه الشهوة المُنْحَرِفة رحْمَةً به ، أما إذا أصَرّ عليها فإنه يُطْلِقُهُ إليها .

والمعنى الثاني : أنَّهُ حينما يُطلق الله هذا العبد لِفعل شيءٍ ما يُطْلِقُه على من يسْتَحِق أو على من يكون التسْليط عليهِ حِكْمَةً في حقِّهِ فهذا هو فِعْل الله عز وجل .

في ضوءِ هذه المقدِّمة قوله تعالى : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ ﴾ .

الإنسان أراد الهُدى وأرادهُ ابتِداءً بحثاً عن الحقيقة وطلب معرفة الله عز وجل ، وحيثما عُزِيَت إرادة الهِداية أو إرادة الضلال إلى الله عز وجل هي إرادة جزائِيَّة تأتي عَقب طلب هِدايَةٍ شخصيٍّ ، أو إضلال جزائي مبني على ضلال اختِياري .

القضِيَّة دقيقة جداً إذا عُزِيَت إرادة الهِداية أو إرادة الإضْلال إلى الله عز وجل فهي الإرادة الجزائِيَّة المبْنِيَّة على إرادةٍ اختِيارِية وفي ضوْءِ هذا التفسير : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ ﴾ الإنسان أراد الهُدى فشاءتْ إرادة الله أنْ يَهْتدي ؛ كيف يُعينُهُ الله على هذا الطلب الرفيع ؟ قال : ﴿ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ لأن القلب بين أصبعين من أصابع الرحمن فيشْرَح الله صدْرهُ للإسلام ، وماذا نُسَمي هذا الشرْح ؟ إنه مَعُونَةٌ من الله تعالى ؛ مثلاً أبٌ عِنده ولدان أحدهما طلب أن يدْرس فأفْرَدَه بِغُرْفَةٍ خاصَّة وأعْفاهُ من بعض المال وشَجَّعَهُ وكافَأَهُ فهذا تشْجيعٌ من الوالد لولده . والإنسان حينما يريد الهِدايَة ويصْدُق في طلبِها تتعَلَّقُ إرادة الله في أنْ يهتَدي ، والله يُشَجِّعُهُ على ذلك ، ويشْرح صدْره للإسلام ، وهذا شيءٌ ثابت فَبِمُجَرَّد أنْ تبْحَثَ عن الخير وعن الهِدايَة ، وبِمُجَرَّد أنْ تعْمَل عملاً صالِحاً تشْعُرُ بِراحَةٍ كبيرةٍ جداً ، وهذه الراحة تشْجيعِيَّة من الله عز وجل ، وقوله تعالى :

﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

طبْعاً يضِلُّهُ الضلال الجزائي المَبْني على ضلال اختِياري ؛ أراد الضلال فَسَمَحَ الله تعالى له به لأنَّهُ أصرَّ عليه ، فيجْعَل صدْره ضيِّقاً

حرجاً وهذا أيضاً تربيَة ، لو أنَّه شرح صدْرهُ للضلال لكان الله تعالى مُعيناً لِهذا العَبْد على الضلال أما الأمر فهو عكس هذا ، لو أراد الإنسان الضلال تضيق نفسُهُ وتتعَسَّرُ أمورُهُ ويُؤدَّب ويُعاتَب ويُوبَّخ ، قال تعالى : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

أَعَرَفْتُم الآن ما حِكمة الله في أنّ قلوب العِباد بين أُصبعين من أصابع الرحمن ؟ الحِكْمة أنّ القلب إذا كان بين أُصْبعين من أصابع الرحمن يُقَلِّبُهُ لِصالح عبْدِه المؤمن كما يشاء ، شاء الهُدى فشرح الله صدْرهُ للهدى ، وشاء الضلالة فضيَّقَ الله له صدْرهُ .

إذاً : شرْح الصَّدْر وتضييق الصدر لِصالح العَبْد ، فأنت مُخَيَّر إذا أَصَبْتَ في اختِيارك شَجَّعْناك ودَعَوْناك إلى مُتابَعَة الخير ، وأما إذا اخترْتَ شيئاً سيئاً وبَّخْناك وضَيَّقْنا عليك من أجل أن تكُفَّ عن هذا الشيء ، فهذه الآية أساسية : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

آيةٌ أُخرى وهي قوْله تعالى :

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [النساء : ٢٦] .

قد يبْحث الإنسان عن مَوْقِفِ إنْسانٍ آخر منه ويقول له : ماذا تريد أن تفعل بي ؟ وماذا تريد مني ؟ فَرَبُّنا عز وجل يُطَمْئِن عِبادهُ قال تعالى :

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء : ٢٧] .

يعني إرادَتُهُ مُتَعَلِّقة بِهِدايَتِكم ، فقوْلُه تعالى : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ ، هناك معنى دقيق ، ولأنكم مُخَيَّرون فَدَوْرُ المُرَبي مع المُخَيَّر التوْضيح ، فالداعِيَةُ مثَلاً بالنِّسْبة للمدْعُوِّين ؛ عليه أن يتركهم لاختيارهم فهم مُخَيَّرون ؛ يسْتَجيبون أو لا يسْتَجيبون ، يؤمنون أو لا يؤمنون ، يسْتَقيمون أو لا يسْتقيمون ؛ فما دوْر الداعِيَة في الدعوة إلى الله حِيال إنسانٍ مُخَيَّر ؟ عَلَيْهِ أنْ يُقْنِعَهُ بالإيمان ، فالإنسان مُخَيَّر ليس علَيْك هُداهم ، وإنك لا تهدي من أحببْت ، ولسْتَ عليهم بِمُسَيْطِر ، وما أنت عليهم بِوَكيل ، وما يوجد إجْبار ، إلا أنّ مُهِمّة الأنبياء والرسل ومُهِمّة الذين ينوبون عن رسول الله ﷺ في تبْليغ الحق ؛ البيانُ والتوْضيح لِتَحْمِل الإنسان على أنْ يقبل الحق .

أحْياناً البائِع يعْرِض على المشتري بضائع كثيرة ، ولو أنّ البائِع اسْتَحْسَن أنْ يبيعَه نوعاً من البضاعة وهي جيِّدة جداً وسِعْرُها رخيص وهذا الذي يشْتَري يُحِبُّهُ ، فإن البائع يُعينُهُ على أن يَخْتار ويقول له : اخْتر ما شِئت ، هذه هي الأنواع وهذه هي الأسْعار ، وأنت مُخَيَّر ، أما البائع الرحيم فيقول له : أنا سَأَنْصَحُكَ خُذْ هذه وهي جيِّدةٌ جداً وسِعْرُها مُناسِب وعلى الاسْتِعمال متينَةٌ ، فالبائع هنا تدخَّل ، فربنا عز وجل أعْطانا حُرِيَّة الاخْتِيار وأعْطانا عقْلاً في رؤوسِنا ، وكوْناً ينْطِق بِوُجود الله وعَدْلِهِ ورَحْمَتِهِ وكمالاتِهِ ، وأعْطانا شرْعاً دقيقاً وشَهَواتٍ نرْقى بِها ، وحُرِيَّة اخْتِيار نثمن بها عملنا ، فلو تركَنا لضاع منا كل شيء ، وعلى الرغم من أنه أعْطانا كلّ شيءٍ فإذا اتَّخَذْنا قراراً صحيحاً

شرح صُدورنا وشَجَّعنا وكافَأنا وأكْرَمَنا ، وإن اتَّخَذْنا قراراً خاطِئاً ضَيَّقَ صدْرنا وعسَّر أمْرنا وعاقَبَنا ونبَّهَنا ، فالله هو رب العالمين يُرَبِّينا ، ومن هنا كان القلب بِيَدِه من أجل أن يُرَبِّيَ عبْدَهُ ، فإذا اتَّخَذَ قراراً صحيحاً شرح الله صدْره ، فإذا أردْت أن تعرِف ماذا يريد الله جل جلاله منك ؟ فاسمع ما قاله الله تعالى : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ .

لذلك كن من الذين قال الله تعالى فيهم :

﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف : ٢٨] .

هذا كلام رب العالمين ، فالله تعالى قال : ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ .

ويطالعنا كذلك شيءٌ آخر ؛ وهو أنّ الإنسان أحياناً يُحَمِّل نفْسَهُ مالا تُطيق ، ويُحَمِّل نفْسَه من الأعْباء والذنوب والخطايا ما لا يُطيق أنْ يُواجِهَ بِها الله يومَ القِيامة ، فهو لا يدري ، وهو غافِل ، فجاءت الآية الكريمة :

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء : ٢٨] .

قد يحْمِل الإنسان من الأوْزار ما لا يُطيق وهو غافِل لكنّ الله يعلم ، فلو أنك رأيت إنساناً يشتري من بلدٍ آخر بِضاعةً ممنوعٌ نقْلُها إلى داخِل البِلاد ولن يستطيع إدْخالَها وبقيتَ ساكِتاً تكون من الذين

خانوهُ ، أما إذا أردت أنْ تنصَحَهُ ونبَّهْتَهُ إلى أنّ هذه البضاعة غير مسْموح أنْ تنقُلها إلى بلَدِك فقد خفَّفْتَ عنه ، لأنه سَيَدْفَعُ ثمنها وسوف تُصادر من قبل موظفي جمارك بلاده ، فالله عز وجل إذا رأى عبْداً يُحَمِّلُ نفْسه ما لا يُطيق من المعاصي والانْحِراف فهو الآن غافِل ، أما حينما يأتيه ملَكُ الموت فإنه يُصْعَق قال تعالى : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ .

ثلاث آياتٍ في سورة النساء ﴿ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ ، و﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ ، و﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ ﴾ ، يبيِّن لكم كي تتوبوا ، وإذا تُبْتُم خفَّف عنكم .

هناك آيةٌ أساسِيَّةٌ في هذا الموضوع ، يقول الله عز وجل :

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [يونس : ١٠٧] .

الشيء الذي يَلْفِتُ النظر هو قوله تعالى : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ ﴾فالخير مُراد من قِبَل الله عز وجل أما الشر فليس مُراداً ، لذلك لم تأت كلِمة يُرِدْك بِشَرٍ إنما قال : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦۚ ﴾ ، مثَلاً مُدير مدرسة يُمْكِنُهُ أن يُعاقِب طالِباً ويُمكن أن يفْصِله ، لكنّ الأصل في المدرسة هو تعْليم الطلاب وليس طرْدَهُم ؛ أردْنا من إنشاء هذه المدرسة تعليم الطلاب ، أما إذا شذ طالِب نفْصِلُهُ ، فالفَصْل غير مُرادٍ من قِبَل مدير المدرسة ، لكن الفصل أحْياناً عِلاجٌ طارىء نسْتَخْدِمُهُ ولا نُريدُهُ . وهذا الأب تجِدُهُ يُحِبُّ ابنه حُبّاً جمّاً فإذا أخطأ الولد خطأً كبيراً يحتاج إلى تأديب يضْرِبُهُ ، لكنه يتمنى ألاّ يضْرِبَهُ ؛

يضرِبُهُ لِيُؤَدِّبَهُ ، وهو يتألَّمُ أشَدَّ الألَمِ حينما يضرِبُهُ ، فالحِكْمَة اقْتَضَت أنْ يضربَهُ وهذا هو معنى قول الله عز وجل : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

يروى عنه عليه الصلاة والسلام : « **أُطْلُبوا الخير دهْرَكُم كله** » [رواه البيهقي] ، يعني طول دهْرِكم وهذا من أنْدَرِ الشواهد ؛ وهو أنّ ظرف الزمان قد يأتي له نائب فَدَهْرَكم تنوب عن ظرف الزمان والتقدير يعْني : أُطْلُبوا الخير طوال دهْرِكُم ، وتعَرَّضوا لِنفَحات الله ؛ إن طلبْتم الخير تعرَّضْتُم لِنَفَحات الله عز وجل : « **إن لربكم في أيام دهْرِكم لَنَفَحات ألا فَتَعرضوا لها** » [متفق عليه] ، فإن لله نفحاتٍ من رحْمَتِهِ يُصيب بِها من يشاء من عِبادِهِ ، واسْألوا الله أنْ يَسْتُرعوراتِكم وأنْ يؤَمِّن رَوْعاتِكم ، والرَّوْعَات جمْع رَوْعة وهي الخَوْف ، فَنِعْمة الأمن لا تعْدِلها نِعمَةٌ على الإطلاق ، فإذا كان هناك خوْفٌ وقلَقٌ تَنْقَلِب معيشَتُهُ إلى معيشَةٍ ضنْك والله عز وجل قال :

﴿ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾ [قريش : ٤] .

ويقول الله عز وجل في سورة هود :

﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [هود : ١٠٥] .

الاسْتِثناء هنا عائِد إلى العُصاة من المؤمنين ، لأنّ النار يدْخُلُها العُصاة ولا خلود لهم فيها ، أما الخلود فهو للكفار ، لكن من كان فيه ذرة من إيمان ففي النِّهاية يخرُج من النار .

قال تعالى : ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴾ [النجم : ٥٩ـ٦١] .

الإنسان في النِّهاية إما إلى شقاءٍ أبَدي وإما إلى سعادَةٍ أبَدِيَّة ، وهناك حالات خاصة ؛ مؤمنٌ مُقَصِّر ومات عاصِياً يَدْخل النار ، ولكن إلى حين ، وهذه الآية هي التي تؤكِّد هذا المعنى : ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ .

فمن كان في قلبِهِ مثقال ذرةٍ من خيرٍ يخرج في النِّهاية من النار وقد يبْقى ملايين السِّنين وقد يبقى آلاف ملايين السِّنين ، لكنه لا يخْلد في النار إلا مَن شرد على الله شرود البعير .

وفي سورة النحل قال تعالى :

﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل : ٤٠] .

حتى العلماء قالوا : « كن هي حركة . فيَكون حركتَان . وهناك ثلاث حركات ، إلا أنّ أمر الله تعالى أسْرع من هذا وليس فيه زمن ، فكلمة كن لِمُجَرَّد أن تتعلَّق مشيئة الله في أن يكون شيءٌ هو كائِن بلا تأخر » ، ولكن الأمر تقْريب لأذهانِنا قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ .

التطبيق العملي لِهذا الاسم العظيم هو أنَّك إذا تعامَلْت مع الأشْخاص فَهُم مَحْدُودُو القُدرات ، فقد يتمَنَّوْن أنْ يُعْطوك شيئاً ولا يسْتَطيعون ، لكن الله سبحانه وتعالى إذا أراد شيئاً قال لهُ كن فيكون ، فإذا كنت مع المُريد أو مع الفعال لِما يُريد تحقق لك كل شيء ، واسمع قوله تعالى :

﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [البروج : ١٦] .

وهناك شيءٌ آخر تطالعنا به الآية الكريمة : ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً

أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء : ١٦] .

فالقريَة حينما تفسُد يعاقب أهلها ، وبعض معاني هذه الآية أنّ آخر عِلاجٍ قبل أنْ يُهلِكَ الله هذه القرية يُؤَمِّرُ مُتْرَفيها ، فهو آخر عِلاجٍ وهو عِلاجٌ مُرٌّ ؛ أنْ يتأمَّر المُتْرَف الغافل المُنْحَرِف .

روي عن رَسُولُ اللهِ ﷺ : « إِذَا كَانَ أُمَرَاؤُكُمْ خِيَارَكُمْ ، وَأَغْنِيَاؤُكُمْ سُمَحَاءَكُمْ ، وَأُمُورُكُمْ شُورَى ، بَيْنَكُمْ فَظَهْرُ الأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ بَطْنِهَا ، وَإِذَا كَانَ أُمَرَاؤُكُمْ شِرَارَكُمْ ، وَأَغْنِيَاؤُكُمْ بُخَلاءَكُمْ ، وَأُمُورُكُمْ إِلَى نِسَائِكُمْ ، فَبَطْنُ الأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ ظَهْرِهَا » [رواه الترمذي] .

المعنى الأول : أنّ الله سبحانه وتعالى إذا أراد أن يُهْلِك قرْيةً لِعِصْيانِها وانْحِرافِها واسْتِغْنائِها عن منهج الله ، فهناك قِراءةٌ بتشديد الميم وهي قراءة علي وأبي العالية وأبي عمرو وأبي عثمان النهدي تُناسِب هذا المعنى هي : ﴿أَمَّرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ جعلْنا مُتْرَفيها أُمراء فَفَسَقوا فيها ، وبِالتالي هؤلاء الذين أمَّرَ عليهم المُتْرَفون وساموهُم سوء العذاب لم يتوبوا ، وقد تعْجَبُ أَحْياناً من مصيبَةٍ طاحِنةً حلَّتْ بِبَلَدٍ ثم ترى أهلها بعد ذلك أشد تَفَلُّتاً مما كانوا عليه من قبل ، وقد قيل : من لم تُحْدِث المصيبَةُ فيه موعِظةً فَمُصيبَتُهُ في نفْسِهِ أكبر ، فَقَرْيَةٌ انْحَرَفت واسْتَحَقَّت الهلاك وضلَّتْ عن سواء السبيل بِحَسَب قوانين الله عز وجل ، وآخر عِلاج : أَمَّرْنا مُتْرَفيها فَفَسَقوا فيها ، ولم يتب الذين كانوا متلبسين بالفسق والفُجور ، لم يعودوا عن ضلالتهم ، فَحَقَّ عليهم القَول فَدَمَّرْناها تدْميراً .

والمعنى الثاني : وإذا أردْنا أنْ نُهْلِك قرْيَةً قبْل أنْ نُهْلِكها نُنْذِرُها ونأمر مُتْرَفيها أنْ يسْتقيموا فلا يسْتقيمون ، ولِمَ قال الله مُتْرَفيها ؟

المُتْرَفون هم المُبَذِّرون الذين يعيشون لِشَهَواتِهم والأغْنِياء الذين يُنْفِقون أمْوالَهم على المعاصي والآثام والعُلُوّ في الأرض ، والترف في آياتٍ ثمانِيَة اِقترن بِالكفر ، والمُتْرَف هو إنسان يعيش للدنيا فقط ، وهؤلاء المُتْرفون معْقِدُ أنظار الناس ، والناس تَبَعٌ للأقوياء والأغنِياء ؛ ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ ، وهو المعنى الثاني فإذا أَرَدْنا أن نُهْلِك قرْيَةً لا نُهْلِكها ابْتِداءً إنما نُنْذِرها قبل أن نُهْلِكها ، والإنذار أمرْناهم أن يسْتقيموا من خلال كِتابِهِ وسُنَّةِ نبيِّه ونصيحة الناصِحين ودَعْوة الداعين وخُطَب الخُطباء وكُتُب المؤلِّفين أمرنا مُتْرَفيها ففسقوا فيها ؛ أمرْناهم بالطاعة ففَسَقوا فيها فحقَّ عليها القَوْل فَدَمَّرْناها تدْميراً .

ثم إنّ الشيء الذي يُمْكِن أن تسْتَفيد منه كثيراً من خلال البحث أنْ تُنَزِّهَ الله عما لا يليقُ به ، بِمعنى : إذا خطر ببالِك معنىً أنّ الله أراد الضلال للناس ، قال تعالى : ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً﴾ هذه الآية تحْتاج إلى شرْحٍ ؛ أراد الهلاك أو أراد الضلال يجب أنْ تعْلَم أنَّ الإرادةَ إذا كانت مُنْصَرِفَةً إلى الإنسان فهي إرادة سماح أو تأديب ، أما إذا عُزِيَ الإضْلال إلى الله عز وجل فهو الإضْلال الجزائي المبْني على ضلالٍ اخْتِياري .

وهناك شيءٌ آخر في هذا الموضوع وهو أنّ كلَّ شيءٍ أرادَهُ الله تعالى وقَع وهو الفَعَّالُ لِما يريد ، أما نحن فنتمنى ونريد ولا يُحَقَّقُ مما نريد إلا اليسير ، لأننا ضُعفاء ومحْدودون وكلُّ إنْسانٍ له قُدرةٌ مَحْدودَة ، أما ربنا عز وجل فهو فعَّالٌ لِما يريد ، والمعنى الثاني أنّ كلَّ شيءٍ أرادَهُ الله وقَع ، وأنَّ كلَّ شيءٍ وقع أرادَهُ الله فالأول واضِح ،

اقرأ قوله تعالى : ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ .

أما الثاني فأيُّ شيءٍ وقَع أرادهُ الله ، فالعِبارة هذه تُعْكَس أراد ووقع ووقع وأراد ، فإن أراد وقع وإنْ وقع الشيء أرادهُ الله ، فَهَذه الفِكْرة على إيجازها تَمْلأ قَلْبَكَ رِضا ، إنسان ارْتكب حماقة كبيرة وسافر بِوَقتٍ مُعَيَّن ، فأصيب بِمُشْكِلة لا نقول لو لم يُسافِر لم يُصَب ، إنما نقول : ما دام هذا الشيء وقع في مُلْك الله إذاً أرادَهُ ، فإذا كان مع الجماد أرادهُ فِعْلاً ، ومَع المُخَيَّر أرادَهُ سماحاً .

لذلك قالوا : لِكُلِّ واقِع حِكمة ، وقد يكون الإنسان غيرَ حكيم ، لكن ربنا عز وجل لِحِكْمَةٍ بالِغة يُوَظِّفُ شر الناس لخير مطلق ، فالشر لا وُجود له إلا في النفوس ، أما في العالم المادي فالشر هو مُداواة ، والشِّرير يريد أن يفعَلَ شيئاً مُزْعِجاً ويريد أنْ يُؤذي ، لكنه لا يُؤْذي إلا من يسْتَحِقّ الأذى ، أو لا يؤذي إلا من يسْتَحقّ التأديب ، أو لا يؤْذي إلا من يكون إيذاؤُهُ حِكْمَةً بالِغةً ، ففي الواقع المادي لا يوجد شرّ ، والشرّ المطلق غير موجود ، والشرّ من مخلوق مُخيَّر مقطوع عن الله في نفسه فقط ، أما الأفعال فهي أفعال الله عز وجل ، وكُلُّها تُوَظِّف الشر في الخير المطلق .

لذلك : كلُّ شيءٍ وقع أراده الله ، وهذه المَقولَة تُلْغي كلمة لَوْ ولِكلِّ شيءٍ حقيقة ، وما بلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يعْلم أَنَّ ما أصابَهُ لم يكُن لِيُخْطِئهُ ، وما أخْطَأَهُ لم يكن لِيُصيبَهُ ، وكلّ شيءٍ وقع أرادَهُ الله وكلّ شيءٍ أرادهُ الله وقع ، وإرادة الله مُتَعَلِّقَةٌ بالحِكمة المطلقة ، والإنسان أحْياناً يريد شيئاً لاحكمة فيه ، والسبب إما أنَّه وقع تحت إغراءٍ شديد فَطاشَ صوابُهُ أو تحت ضَغْطٍ شديد فاخْتَلَّت

رؤْيَتُهُ ، أو لأنَّهُ يجْهل ، والجهل والإغراء والضغط هذه تلغي حِكمة الإنسان ، لكن هذه المعاني التي تقع من الإنسان لا تليق بالله عز وجل ، لذلك يجب أن نقول إرادة الله مُتَعَلِّقةٌ بالحكمة المطلقة ، وحِكمتُهُ المطلقة مُتَعَلِّقةٌ بالخير المطلق . وإذا عقَلْتَ هذا فالمقولة ستجدها في آخر البحث مريحة ومطمئنة لنفس المؤمن . فإذا نظرت إلى كلِّ ما يجْري في العالم بادِىء ذي بدء تشْعُر بِراحَةٍ كبيرة ، والسبب أنَّ كلَّ شيءٍ وقع أراده الله ، ومعنى أنّ الله أرادهُ : أنَّهُ لو لم يقع على نحو ما وقع لكان الله تعالى ملوماً في ذلك ، ولَكان الذي وقع على نَحْوٍ آخر نقْصاً في حِكْمَة الله عز وجل فالذي وقع أراده الله ، والـذي أرادَهُ الله وقـع ، والإرادة الإلهِيَـة مُتَعَلِّقَـةٌ بـالخيـر المطلـق ، والحكمة المطلقة مُتعلِّقةٌ بالخير المطلق .

وآخر شيءٍ أشير إليه أنَّ لِكل واقِعٍ حِكمةً قد تُكْشَف بعد حين ، قد تنشأ مشكلة من سببٍ بسيط ، والإنسان لِضَعْفِ إيمانِهِ يقول ليت هذا لم يقع ؛ فالله عز وجل أراد شيئاً كثيراً مثلاً السيِّدة عائشة رضي الله عنها كانت في إحدى الغزوات مع رسول الله ﷺ ، فهِيَ كما يرْوي كُتابُ السيرة كانت خفيفة الوزْن ، فلما قادوا جمَلَها ظنوها في الهَوْدَج وساروا وقد خلفوها وراءهم ، فلما فاتَها الجيش الْتَفَت أحد الصحابة المُتَأخرين خلف الجيش وهو صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني فرآها فَعامَلَها كأُمِّهِ وغضَّ بصره عنها وسار بها حتى أدرك الجيش ، فأراد المنافقون أن يُثيروا فِتْنَة ، وحديث الإفك معْروفٌ وهو مذكور في سورة النور ، قد يقول أحدكم لو أنّ الذي قاد الجمل تَفَقَّدَها ، ولو أنّها اسْتَيْقَظت ولولم تغْفُ لما كان هناك حديث إفْك ؛ مشْكِلةٌ طويلة عريضة بَقِيَت قرابة شهر وبعض أهْل المدينة يُرْجِفون

فيها ، والمنافقون وجدوا مادة دسِمَة جداً ، وتكلَّموا وأخذوا حُرِّيَتَهُم ، والمؤمنون سكتوا وتألَّموا ووقعَت مشْكِلة وفِتْنَة ، هذا الحديث وهذه القضِيَّة الكبيرة سببُها غفْلَةٌ من السيِّدة عائشة رضي الله عنها ، والذي قاد الجمل لَيْتَهُ تفقَّدها ، ولمّا اسْتَيْقَظت وجدتْ نفْسَها بعيدةً عن الجيش ، صفوان بن المعطل في أعلى درجات الأدب والحياء ، فعل ما ينْبَغي أن يكون ، فصارتْ هناك مُشْكِلة ، فماذا قال الله عز وجل ؟ :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور : ١١] .

فالله تعالى اِمْتَحن الناس ، وكانت عَمَلِيَة فرْز وهذا هو الأمر الأول ، فالمؤمن ظنَّ بِنَفْسِهِ خيراً والمنافق عبَّر عن حِقْدِهِ وضغينَتِهِ وفَرَحِهِ ، والمؤمن سكت ، والكافر تكلَّم . والأمر الثاني : لِئلاً نتَوَهَّم أنّ الوحي قضِيَّة مُتَعَلِّقةٌ بالنبي ﷺ وأنه أمْرٌ سهْل ، فَلَوْ أنّ النبي ﷺ يمْلِك أمر الوحي لَحَلَّ المسْألة بِدقيقة واحدة وبِآية واحدة ، فالوَحْيُ تأخَّر قرابة شهر ، وليس مع النبي ﷺ أدِلّة إثبات وليس معه أدِلَّة نفْي ، والمنافقون يَمْرحون ويتكلَّمون ما يشاؤون ، والنبي عليه الصلاة والسلام يتألَّم أشَدّ الألَم ، والسيِّدة عائِشَة أصابَها مرضٌ شديد ، وأُمُّها مرْتَبِكة وأبوها مضطرب ، وكذلك رسول الله ﷺ في حيرة ؛ أَيُعْقَلُ أنْ تفْعل زوْجَتُهُ ما يقولون ؟ وما شُعور الزوج إنْ تحدَّث الناس عن زوْجَتِهِ أنَّها زانِيَة ؟ وما شُعور والِدة الفتاة ووالِدُها ؟ وما شُعور المؤمنين ؟ تقول : يا رب! لو أنَّها ما غَفِلَت لما وقع حديث الإفكِ كلِّهِ ؛ فما دام الشيء وقع نقول : قد أرادَهُ الله ، وقد يبْدو لك أنَّ شيئاً كبيراً وقع لِسَبَبٍ يسير وهذا السبب الصغير مُقَدَّر من الله عز وجل ؛ فقد اِمْتَحن

المؤمنين وفرزَهُم وارْتَقى بعضهم وسقط بعْضُهُم وظهرت نُبُوَّة النبي عليه الصلاة والسلام ، وظهر أنَّ الوحيَ شيء مُسْتَقِلٌ عن إرادة النبي ﷺ ولا يمْلِك له جلْباً ولا دفعاً ، وتأخُرُ الوحيِ أربعين ليلةً فيه حِكْمَةٌ بالِغة ، وقِسْ على هذا كلَّ شيء .

وفي صُلْحِ الحُدَيْبِيَة أمليتْ على النبي شروطٌ غير معْقولَة ، وافق عليها النبي ﷺ لكن الصحابة ما ارْتاحوا لِهذه الشروط ، سيِّدنا عمر قال : أوَلَسْنا مؤمنين ؟ قال النبي : بلى . أوَلَيْسوا مُشْركين ؟ قال النبي : بلى ؛ قال عمر : فعَلام نُعْطي الدَّنِيَّة في ديننا ؟! ثم ظهر فيما بعد أنَّ وثيقة صُلْح الحديبِيَة كانت فيها حِكمة ما بعدها حِكْمَة ، وكان فيها سِياسة ما بعْدها سِياسة ، وانْعَكَس الأمر على كُفار قُرَيْش .

أردت من هذا كلِّه أنَّ الشيء إذا لم يُعْجِبْك فانتظر ولا تتعجل في إبداء رأيك ، وما دام أنَّه وقع فقد أرادهُ الله ، وقُلْ هذه المقولة : لكل واقعٍ حِكمة وقد يكون الذي أوْقع هذا الأمر من الناس ليس حكيماً وقد يكون أحْمَق ومُنْحَرِفاً فَلأنه وقع فقد أراده الله ، أما عظمة الله عز وجل فتتبَدى في أنه يُوظِّف الأشياء غير الحكيمة في حِكمةٍ لا تعْلَمُها أنت ولِحِكْمَةٍ مطلقة .

فإنسان يفْحص صدر فتاة تطلب التوظيف ويُعْطي الفتاة نتيجة فحص فتاة أخرى مصابة بالسل ، فهذه الفتاة حينما تعلم أنَّها مُصابةٌ بِهذا المرض ، وقد ابْتَعَد عنها أهْلُها بسبب ذلك ، وعزلوها عنهم ، واسْوَدَّت الدنيا في وجْهِها ، فهذا الذي أعطى النتيجة مُتَسَرِّعاً ألم يقع في خطأ كبير ؟ بلى ، لكن هذه الفتاة حينما علِمت بِهذه النتيجة انْهارت أعصابها ، ثم أرادت أن تتوب إلى الله عز وجل فَتابَتْ وصلَّت

وتحَجَّبَتْ ثم علِمت بعد حين أنها صحيحة وليست مريضة ، فربنا وظَّفَ خطأً هذا المُوظَّف في الخير المطلق ، فهذه نقطة دقيقة جداً لكل واقِعٍ حكمة وما دام أنَّهُ وقع فاطْمَئِن ، والله عز وجل لا يريد إلا الخير ، أما الشرُّ المطلقُ في الكون فهو غير موجود ، ولا يُمْكِن أن يكون مع الله شرٌّ مطلق ، لكن أن يكون شرٌّ نِسْبي مُوَظَّفاً للخير المطلق فهذا موجود .

أخيراً ؛ ابنَ آدم اُطْلُبني تجِدْني فإذا وجدْتني وجدتَ كلَّ شيء ، وفي بعض الآثار القُدْسِيَة : « أنت تريد وأنا أريد ، فإذا سَلَّمْت لي فيما أريد كَفَيْتُك ما تريد ، وإنْ لم تُسَلِّم لي فيما أريد ، أتعَبْتُك فيما تريد ، ثم لا يكون إلا ما أريد » .

* * *

هُوَ اللهُ

و« هو »ضمير عائِد على الله جل جلاله ولِشِدَّة ظهوره فإذا قلت : « هو » أيْ هو الله ، وتقريباً لِهذا المعنى من أذْهانِكم نضرب مثلاً : قد يكون في بيْتٍ أو في معْمَل أو في مذْرسة ، أو في مُسْتَشْفى أو في مؤسسة شخصٌ كبير هو كلُّ شيء ، فَلَوْ تتَبَّعْت أقْوال من هم دونَهُ تجدهم يقولون : ذهب ، جاء ، وما أراد ، فكلُّ الأفْعال التي يُغْفَل فاعِلها يُقْصَد منها هذا المدير العام الذي هو كلُّ شيءٍ في هذه الدائرة ، « هو »من أسْماء الله الحُسنى ، وهو ضمير غائبٍ يعود على الله عز وجل ، وبِالمناسبة الضمائر لها في اللغة شأنٌ كبير ، فهي أسماء معْرِفة ، وكُلكم يعْلم أَنَّ بعض النُّحاة قالوا :

إنَّ المعـارِف سَبْعـةٌ فيهـا كَمُـل   أنا صالحٌ ذا مَا الفَتى ابني يا رجل

« هو »من الأسماء التي تُعَدُّ معْرِفَةَ سأُلْقي على مسامِعِكم نصاً من دون ضمائر من أجل أن تعرِفوا قيمة الضمائر :

« أرْسل قَيْصر ملِك الروم رسولاً إلى عمر بن الخطاب ، لِيَنْظر الرسول أفْعال عمر بن الخطاب ، ويُشاهد الرسول أحوال عمر بن

الخطاب فلما وصل المدينة سأل أهل المدينة : أين مِلِك أهْل المدينة ؟ فقال أهل المدينة : ليس لأهل المدينة مَلِك بل لأهل المدينة أمير » .

فهذا نصٌّ غير معْقول لأنه لم نسْتَخْدِم فيه الضمائر أما لو قلنا : أرسل قَيْصَر ملك الروم رسولاً إلى عمر بن الخطاب لِيَنْظر الرسول أفْعالَهُ ويُشاهِد أحْوالَهُ ، فلما دخل المدينة سأل أهْلَها أينَ مَلِكُكُم ؟ فقالوا : ليس لنا ملَكٌ بل لنا أمير .

شتان بين النص الأول والنص الثاني ، فالأول لا يُحْتَمَل لِكَثْرة التَّكْرار ، على حين أن النص الثاني يحْوي ضمائر مُسْتَتِرة وضمائر ظاهرة ، وأخرى تُشير إلى المُتَكَلِّم والمخاطب والغائب وضمائر مفْردة ومثناة وجمع ، فجاء سليماً ومقبولاً ومريحاً للذوق والفهم .

فالضمير اسم معرِفة ، يعود على معْرِفَةٍ أيْضاً ، فالذي يُشير إلى معْرِفة يعدّ معْرِفة ، « هو » ضمير عائِدٌ على الله جلَّ جلاله ومعناهُ حاضِر لا يغيب ، والله جل جلاله مع كلِّ إنْسان بِعِلْمِهِ ، ومع المؤمن بِتَوْفيقِهِ وحِفْظِه وتأييدِهِ ونصْرِهِ ، وهذه حقيقةٌ ذكرْتُها كثيراً حينما يقول الله عز وجل : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ ، « أيْ معكم بعِلْمِهِ مع العاصي والفاجر ومع الكافر ومع المُلْحِد » ، ولكن حينما يقول الله عز وجل : ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ و﴿أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ .

هذه معِيّةُ تأييد وحِفْظٍ ونصْرٍ وتوْفيق ، إلا أنَّ هذه المعِيّةَ لها ثمَنٌ كبير . وقال الله تعالى :

﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ

وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة : ١٢] .

ادْفع الثمن واقْبَض النتيجة ؛ فأَقِم الصلاة وآتِ الزكاة وانْصُر الحق وكُن مع المؤمنين ، فَسَوْف تقْطِف ثِمار هذه الطاعة مَعِيَّةَ ربك جل جلاله حِفْظاً وتأييداً ونصْراً وتوْفيقاً .

قال بعض العلماء : « هو » عند أهْل الظاهر مُبْتَدأٌ يحْتاج إلى خبر لِتَتِمَّ الجمْلة ، وعند أهْل القلوب لا يحْتاج إلى خبر فَهُوَ مُبْتَدأ وخبَر .

إذا جاء إنسان ، وقلنا من الذي جاء ؟ تقول : أحمد ، فَأحمد كلمة مُفْردة ولكنها تُشير إلى خبر ؛ الذي جاء هو أحمد ، فإذا قلت الله ؛ أي : خالِقُنا الله ، ومُرَبينا الله ، ومُبْدِعنا الله ، ومُوَفِّقُنا الله ، مُعطينا الله ، ورازِقنا الله ، ومُعِزُّنا الله ، فَكَلِمة الله لو جاءت مُفْردةً تعني خبراً فكلِمة (هو) عند أهل الظاهر تحْتاج إلى خبر وفي آياتٍ كثيرة : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحشر : ٢٢] .

لكن عند أهل الحقيقة « هو » لا تحْتاج إلى خبر ، فَهي مبتدأ وخبر لأنها تُشير إلى الله عز وجل .

وبَعْضُهُم قال : « هو » الهاء تخْرُج من أقْصى الحَلْق وهو آخر المخارج في الفم ، والواو تخرج من الشَّفَة ، ففيها آخر حرْفٍ وأوَّل حرْف قال تعالى :

﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد : ٣] .

حرف الهاء آخر حرفٍ في الحَنْجَرة ، وحرف الواو أوّل حرف بين الشَّفَتين وهو اسْتِنباط لطيف .

هناك أشياء كثيرة حول هذا الاسم ؛ قبل أن نَمْضي في الحديث عن تفاصيلِها يجب أنْ أَضَع بين أيْديكم الآيات الكثيرة التي وردت فيها كلِمة « هو » .

ففي البقرة قال تعالى :

﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] .

هُوَ تعود على الله جل جلاله ، وفي فاتِحة آل عِمران :

﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ [آل عمران : ٢] .

وفيها أيضاً قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران : ٦] .

ففي أثناء الحديث عن الله عز وجل تقول لأخيك المؤمن مثلاً : هو الذي أكْرَمَنا ، وهو الذي أَمَدَّنا ، وهو الذي وَفَّقَنا ، وهو الذي أعْطانا ؛ هو ربنا وخالِقُنا ومُعِزُّنا والمُوَفِّق والواحد الأحد ، وفي الكَوْن حقيقةٌ هي أصْل كلِّ الحقائق ، ومَوْجودٌ هو أصْل كلِّ مَوْجود ، وهو : الله عز وجل وأيُّ شيءٍ قَرَّبَك إلى الله عز وجل فهو الخير والصلاح والفلاح والنجاح ، وأيُّ شيءٍ أبْعَدَكَ عنه فهو الشر .

فَمُلَخَّص المُلَخَّص أنَّ الله سبْحانه وتعالى هو كلُّ شيءٍ ، فأيُّ شيءٍ قرَّبَك إليه فهو الخير والحق والنجاح والفلاح ، وأيُّ شيءٍ أبْعَدَك عنه

فهو الباطِل ، لذلك كثيراً ما يستَخدم المسْلِم في حديثِهِ اليَوْمي كلِمَة « هو » هو الله ، قال تعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران : ٧] .

وقال تعالى :

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران : ١٨] .

ومن ثَمَّ ؛ فلابُدَّ من ضرب بعض الأمثِلة ؛ لوْ أنَّ شرِكَةً تقَدَّمت بمُناقَصَةٍ كبيرةٍ جداً ، وأرادَت أنْ تُعرِّف الشركة بحَجمِها وقُدرَتِها وإبْداعِها وخِبرَتِها وإمْكاناتِها وحِكْمَتِها ، وتُقَدِّم صورةً للمشْروع وتقول هذه الشركة : هي التي صنعت هذا المصْنع ـ دقِّق ـ وهي التي أنْشَأتْ هذه المُنْشَأة ، وهي التي بنَتْ هذا الجِسْر ، وهي التي أنْشَأت هذا المُسْتَشْفى ، وهذا السَّدّ ، وهي التي فعلت كذا ، وهي التي فعلت كذا وكذا ؛ أَعَرَفْتَها من هي ؟ أَعَرَفْتَ حجمَها وإمْكاناتِها وقُدْراتِها ؟ هذا مَثَلٌ للتقْريب قال تعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد : ٤] .

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ .

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [غافر: ٦٨].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

أَعَرَفْتَهُ من هو؟ هو الله؛ الله هو الرزاق والخالِق والبارىء والمُصَوِّر وهو المعزّ والمذِلّ.

أعود وأُكَرِّر تقْريباً للحقيقة: في أيِّ مكانٍ أو مُجَمَّع أو دائرة أو مُؤَسَّسة قد يكون هناك شَخص مِلْء السمع والبصر وهو كلُّ شيءٍ ولا يُبْرَم أمرٌ دونه، وكثيراً ما نسْتَغْني عن ذِكر اسْمِه ونقول: «هو» هو الذي أراد، عَرَضْنا عليه الأمر فلم يُوافق، وتقول: سَيَأتي، وذَهب، فمن هو؟ مِن شِدَّة ظهورِه أغْفَلْتَ اسْمَهُ واسْتَعَضْت عن اسْمِهِ بِضَمير؛ فَلِذلك؛ الله جل جلاله عند المسلم وعند المؤمن حياتُهُ ومماتُهُ وتَوْفيقُهُ وتأديبُهُ، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًاۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ﴾[الأنعام: ٢].

وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلۡأَرۡضِۖ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ﴾ [الأنعام: ٣].

وقال تعالى:

﴿ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧].

وهناك آية أخرى:

﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧].

﴿وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٍ﴾ وقال تعالى:

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام : ١٨] .

أَعَرَفْتَهُ من هو ؟ هو القاهِر فوق عِبادِه وقال تعالى :﴿ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ويقول أيضاً :

﴿ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ [الأنعام : ٥٧] .

لو أنَّ الإنسان تتَبَّعَ كلِمة « هو » في القرآن الكريم لَجَمَّع من آياتٍ كثيرةٍ وردت فيها كلِمة « هو » بَحْثاً كبيراً ودقيقاً جداً فهو الذي فعل كذا وكذا ؛ هو الحكيم وهوالقاهِر وهو الرحيم والرزاق والجبار والمُتَكَبِّر والمُنتَقِم والمُذِلّ ؛ أَعَرَفْتَهُ ؟ هو الله جل جلاله ، قال تعالى :

﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام : ٥٩] .

وقال تعالى :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّىۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام : ٦٠].

والآيات التي تتحَدَّث عن اسم الله « هو » كثيرةٌ كثيرة بل إنَّ مُعْظم آيات القرآن الكريم تنْطوي على كلِمة « هو » . بعْد هذا الشرْح الطويل هل عرَفْتَ الله ؟ فإذا قُلْتَ عرَفْتُهُ فماذا فَعَلْتَ من أجْلِهِ ؛ هل والَيْتَ فيهِ ولِياً ؟ وهل عادَيْتَ فيهِ عدُوّاً ؟ وهل أَعْطَيْتَ لله ؟ وهلْ منَعْتَ لله ؟ وهل غضِبْت لله ؟ وهل رضيتَ لله ؟ وهل تحَرَّكْت لله ووقَفْتَ له ؟ وهل تَكَلَّمْت لله ؟ وهل سكَتَّ لله ؟ فالثمرة التي ينْبغي أنْ تَقْطِفها من

معْرِفة الله هي الخُضوع لله ، وكنت قد ذكرْت من قبل أنَّ التسْبيح هو التَّمْجيد والتَّنْزيه ، ولا معنى للتَّمْجيد وللتَّنْزيه دون الخضوع لله عز وجل كما أنَّه لا معنى أنْ تُطيل الحديث عن كلِمة « هو » دون أنْ تَخْضَع له .

كلِمة « هو » ورد كثيراً في سورة الأنْعام حتى زاد ذِكْرُهُ على عِشْرين مرَّة ؛ ولا بدّ أنْ أُعَرِّف القراء الكرام وأذكِّرهم أنَّ أسْماء الله الحسنى على نوْعَين : نوْعٌ وردت فيه أحاديث رسول الله ﷺ ، ونوْعٌ اسْتُنْبط من القرآن الكريم في الأنعام مثلاً عِشْرين مرة وردَتْ كلِمة هو وفي الأعراف قوله تعالى :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : ٥٧] .

وها نحن أولاء نقف عند التطبيق العمَلي ، لو نظرْت إلى السماء فَرأَيت فيها سحاباً مُمْطِراً ؛ ماذا تقول ؟ المؤمن يقول : هو الذي أرْسَل هذا السَّحاب ، وهو الذي أنزل هذا المطر ، وهو الذي حرَّك هذه الرياح وفَجَّر هذه الينابيع ، وهو الذي أنْبَتَ هذا النبات وجعل هذه الأشْجارَ تُثْمِر « هو » فلا يرى المؤمن في حياتِهِ إلا الله ، وهذه كما قال عنها العلماء وحدة الشهود ؛ كلما نما إيمانُك ترى الله وراء كلِّ شيء ، وكلَّما ضَعُفَ إيمانُك تُحْجَبُ عن الخالِق بِالخلق ويُحْجَب الإنسان عن المُنْعِم بِالنِّعمة ، فما الفرق بين المؤمن والكافِر ؟

الكافِر مع النِّعْمة ولكنَّ المؤمن مع المُنْعِم ، والكافِر يقول أنا

وفلان وعِلان وزَيْد وعُبَيْد ومال وطعام وشراب وبيْت ، أما المؤمن فيقول : هو الذي تَفَضَّل عليَّ بِهذا البيْت ، وهو الذي مَنَحني هذه الصِّحة ، وهو الذي أعْطاني هذا العَقْل ، وهو الذي أكْرَمني بِهذه الزوْجَة ، وهو الذي وهَبَني هؤلاء الأولاد ومَكَّنَني في الأرض ، وهو الذي رزقني ، وهو الذي عَرَّفَني ذاته ، وهو الذي دلَّني عليه فكُلُّ شيءٍ « هو » ، والكافِر لا يَفْتَأُ يقول : أنا أنا لِذلك أنا ونحن ولي وعِنْدي أربَعُ كلِماتٍ مهْلِكات وفيها شِرك ؛ أنا خيرٌ منه قالها إبْليس فأَهْلَكَهُ الله . ونحن أولو قوة وأُولو بأسٍ شديد ، قالها قوم بلْقيس فأهْلكهُم الله ، وقارون قال : إنما أوتيتُهُ على عِلْمٍ عندي ، فأَهْلَكَهُ الله عز وجل ، وفِرْعون قال : أليْسَ لي مُلْكُ مِصْر ، فأَهْلَكَهُ الله عز وجل ، إذاً المؤمن يقول : « هو » ، والكافِر يقول : « أنا » والمؤمن مع المُنْعِم ، والكافِر مع النِّعْمة ، والمؤمن نسب النِّعمة إلى المُنْعِم ، وتَجاوَز الخلق إلى الخالِق ، وعبَر من النِّظام إلى المُنَظِّم ، ودخلَ من التسْيير إلى المُسيِّر ، ورأى النِّهاية والأول والآخر ، ورأى الله أوَّل كلِّ شيء ، ورأى الله جلّ جلاله نِهايَة كلِّ شيءٍ .

قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ، هذه الكلِمة لها عند أهْل الحقيقة شأنٌ كبير « هو » ، فأحْياناً في اللغة العربِيّة قد يُحْذَف الفاعِل أوْ يُبْنى الفِعل للمجهول ؛ تقول : كُسِر الزجاج ، فالفِعل كُسِر فِعْلٌ ماضٍ مبني للمجهول ومتى يُبْنى الفِعل للمجهول ؟ .

قالوا : إذا لم نعْرِف الفاعِل ، أو إذا خِفْنا على الفاعِل ، أو إذا

خِفْنا منه ، فإنْ خِفْنا منه نُخْفهِ ، وإنْ خِفْنا عليه نبْنهِ للمجهول ، وإن كان مجْهولاً نبنه على المجهول ، أما في الحالة الغريبة جداً فإنه يُبْنى الفِعْل للمجهول حتى ولو كان الفاعل واضِحاً ، وكان وُجودُهُ صارِخاً قال تعالى :

﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ [الأنبياء : ٣٧] .

من الذي خلقَهُ ؟ هل يوجد إلهٌ غير الله ؟ لأنَّ الله هو الخالِق ولك أنْ تقول خُلِق الإنسان من عَجَل ؛ « فَخُلِقَ » تُشير إلى أنَّ الفِعْل مبْني للمجهول ، وإحدى العِلَلِ للبِناء للمجهول شِدَّةُ ظهور الفاعِل فَشِدَّةُ ظهورِهِ تدْعو لِبنائِهِ للمجهول ، أو لخفائِهِ نبْنيهِ للمجهول ، أو أنْ نخافَ منه أو أنْ نخافَ عليْه .

وبعد ، فإني أرْجو الله سُبْحانهُ وتعالى أنَّكُم إذا قرَأْتُم القرآن الكريم ووَقَفْتُم عند كلِمة « هو » أنْ تتذوَّقوا ماذا تعْني « هو » ، هو الظاهر والخالق والبارىء والمصوِّر والمُعطي والمانِع والرافِع والخافِض وهو المُعِز والمذِلّ وهو الكريم واللطيف والقهار وهو الجبار والمُنْتَقِم .

لذلك ، أَعْطَوْا لإنسان أُميّ مُسَجِّلة وجَعَلوها معه دائِماً وسَجَّلوا كلامَهُ خِلال أسْبوع ، ثم أَفْرغوا هذه الأشْرطة على ورق وحَذَفوا الكلمات المتكرِّرة فإذا بِهذا الإنسان ضعيف الثقافة ، ومحْدود التَّفْكير والتجارب والخِبْرات ، حياتُهُ رتيبة فلا يتكَلّم بأكثر من مئة وخمسين كلمة في حياتِهِ اليومية ؛ ثم أعْطَوْا هذه المُسَجِّلة لإنسان يحْمل شهادة عُلْيا ولترافقه خلال أُسبوع في حِلِّهِ وترْحالِهِ ، وفي بيْتِهِ وعملِهِ ، وفي لِقاءاتِهِ وفي الطريق وفي السَّفر ، وأَفْرغوا هذه الكلمات على ورق وحذفوا الكلِمات المُتكرِّرة ،فوجدوا أنَّ الإنسان المُثَقَّف يتكلَّم في

حياتِه اليوْمِيّة بألف وخمسِمئة كلِمة ، وهذا تماماً كما لو أعْطَيْنا إنساناً لَوْنَين وقُلْنا أرسُم هذا المنظر الطبيعي بِريشَتِك من خِلال هذين اللَّوْنَين ، جمالٌ عجيبٌ جداً يغيب عن هذه اللَّوْحَة لِقِلَّةِ الألْوان ، أما لو كان معه مئة لوْن فسوف يُعْطي كلَّ زهْرةٍ لَوْنَها ، وكلَّ حقْلٍ لوْنَهُ ، والشَّفق الأحمر لوَنهُ بِالتذْريج ، وللسماءِ زُرْقَتُها ، وللبحر ألْوان عديدة ، هذا فيما لو أعْطَيْناهُ ألْواناً كثيرة ، فالمُثَقَّف ثقافة عالِيَة يتحدَّثُ في أسْبوعِهِ أكثر من ألف وخمسِمئة كلِمة .

وبعد ؛ لو طبَّقْنا هذه التجرِبة على مؤمن وأرجو أن أكون صادقاً ولن أُبالِغ إذا قلت : لو سَجَّلنا كلامَهُ خلال أسْبوع ، في إقامَتِهِ وعَمَلِهِ وفي بيْتِهِ وفي الطريق ، وفي لِقاءاتِهِ وسَهَراتِهِ وفي ندَواتِهِ وسفَرِهِ ، لَوَجَدْنا أنَّ كلمة الله تتكرَّرُ في أسْبوعِهِ آلاف المرات ؛ يقول : الله أكْرمني ، والله فضَّلَها عليَّ ، وكان فضْل الله عليك عظيماً ، والله هداني ورزقني هذه البِنْت ، والله أكْرمني بِهذه الزوجة وبِهذا العمل ووَفَّقَني ، وهذا كلامٌ حقيقي وواقع وهو شُعور المؤمن ؛ ضَعْ هذه المُسَجِّلة مع إنسان بعيد عن الدِّين يقول : أنا عَمِلت ، وفلان أعْطَيْتُهُ ، وفلان خيره مني ، دائِماً يتكلَّم عن ذاتِهِ وعلى عطاياه وعلى ذكائِهِ وتَفَوُّقِهِ ، وذلك لأنَهُ مَحْجوبٌ عن الله عز وجل ، فَلَوْ كلَّفْنا طالِباً أنْ يُلْقي درْساً أمام أُسْتاذِهِ فهذا الطالب يفْقِد تسعين بالمئة من قُدراتِهِ ، لأنَّ كُلَّ عِلْمِهِ من أسْتاذِهِ ، فإذا أراد أنْ يتكلَّم بِعِلْم أُسْتاذِهِ أمام أسْتاذِهِ يَستحيي ، ومن هنا فالمُدَرِّسون أحياناً كثيرة يَفْقِدون جزءاً كبيراً من قُدراتِهم التدْريسيَّة حينما يُلْقون درْساً أمام أُسْتاذِهِم ، وهذا شيءٌ طبيعي جداً ، أما المؤمن فلا يسْتطيع أنْ يقول : أنا في حضْرة الله تعالى ؛ يقول : أنا ذكيٌّ فالله عز وجل قادِر بِساعة وبِخَثْرةٍ بالدِّماغ أن

يسلبه كبره وغروره بل حياته ، والأهْل يتَرَجَّوْن كلَّ الأشخاص من ذوي النفوذ كي يُدْخِلوا أباهُم إلى مُسْتَشْفى المجانين ، وقد يكون أبوهُم من فلتات الزمان بالذكاء ، تتجَمَّد نقطة دم بالدِّماغ فيفْقِد ذاكِرَتَهُ ويُصْبِح يتكلَّم كلاماً فيه هذيان ، ويخافون من الفضيحة ويتوَسَّطون لِيُدْخِلوهُ إلى مسْتَشْفى الأمْراض العَقْلِيَّة فَكَلِمة : أنا ، فيها تطاوُل على الله وشِرْكٌ خفِيٌّ .

مرةً ثانِيَة نقول : المؤمن ينسب النِّعمة إلى المُنْعِم وينتَقل من النِّعْمة إلى المُنْعِم ، أما الكافر فمخجوب بِالنعمة عن المُنْعِم ؛ لذلك روي عن رسول الله ﷺ أنه كانت تَعْظُم عنده النِّعمة مهما دقَّتْ ؛ سأل الواعظ ابن السمّاك أحد الخلفاء الكِبار الذين لا تغيب الشمس عن بِلادهم وقد حمل كأس ماء ليشربها ، وهو هارون الرشيد الخليفة العباسي ، فقد نظر ذات يوم إلى سَحابةٍ فقال يخاطبها : اذْهبي أنى شِئْتِ فسوف يَأتيني خراجُكِ أينما نزلت أمطارك ، فهذا الخليفة طلب كأسَ ماءٍ فقال له ابن السمّاك : يا أمير المؤمنين! بِكم تشْتري هذه الكأسَ إذا مُنِعت عنك ؟ قال بِنِصْفِ مُلْكي ، قال : فإذا مُنِعَ إخْراجُهُ ؟ قال : بِنِصْفِ مُلْكِيَ الآخر . فحينما يشرب الإنسان كأس ماء والطريق سالِك ، وحينما يُفْرِغُ هذه الكأس والطريق سالِك فليذكر أن هذه نِعْمَة كبرى لو مُنِعَها لاشْتراها بِكُلِّ ما يمْلِك ، وحين ينتقل الإنسان بِقُوَّتِه الذاتية دون أنْ يُحْمَل فهذه نِعْمةٌ كبيرة جداً ، فالإنْسان حينما يفْقِد الحركة يفْقِدُ كرامَتَهُ عند أقْرب الناس إليه ، وعند أعزِّهِم ، فأقْرب الناس إليه يتمَنى موْتَهُ ، يا رب! خَفِّف عنه : تقولُها زوْجَتُهُ وولَدُهُ ، فَمكانَتُك من حركتك ، من رِزْقِك ، فهم حوْلك مضْطَرِبون ، ولو حاوَلْتَ أنْ تأْخُذ مالاً منهم لَكُنْتَ ذليلاً ولَضَعُفَتْ مكانَتُك ، فمكانَتُك

من حركتِك وصِحَّتِك ومن عقْلِك ومالِك ؛ من منحك هذا المال ؟ ومن منحك هذه الصِّحة وهذا العقل ؟ إنه الله . والمؤمن كلَّما ارْتقى عند الله يعيش في نِعَمِ الله مغموراً بها سعيداً ، ومن عاشَ في نِعَم الله شاكراً ، زادَهُ الله نِعَماً وسعادة ، قال تعالى :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٧] .

فإذا أردت ضماناً لِبقاء النِّعْمة وضَماناً لازديادها فاشْكر الله عليها .

في سورة الحديد يقول الله عز وجل : ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

يُعَلِّق بعض المُفَسِّرين على هذه الآية فَيَقُول : الأول ليس قبْلَهُ شيء ، والآخر ليس بعده شيء ، والظاهِر ليس فوْقه شيء ، والباطِن ليس دونه شيء ؛ لا قبلَهُ ولا بعْدهُ ولا فوْقَهُ ولا دونه ، والأول والآخر اسْتِغْراقٌ للزمان ، والظاهر والباطِن اسْتِغْراقٌ للمكان ، والمكان مُسْتَغْرَق بالأول والآخر ، وهي حُدودُهُ فلَيْس قبلهُ شيء ولا بعْده ، فربنا سُبحانه وتعالى هو خالِق الزمان وليس فوْقَهُ شيء ولا تحْتَهُ شيء ، هو خالق المكان ، هذه الآية الدقيقة : ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

اسْتَغْرقت حدود المكان والزمان ، فالله عز وجل خالِق المكان والزمان ولا يُقال متى كان الله ؟ لأنه خالق الزمان وقوله : ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ تسْتَغْرِق الحقيقة الكامِلة ، قد تجد شخْصاً عنده بعض الحقيقة ، والآخر مُعْظم الحقيقة ، لكن الذي يَمْلِك الحقيقة كلَّها هو الله ؛ قد تَسْمع أحْياناً قصة انتَقِيَ منها أهمّ الأحْداث المُهِمَّة

وَرُصِفَتْ بعضِها إلى جانب بعض ، لكنَّكَ أنت لا تعْلم كُلَّ مُلابِساتِ القِصة ، والله وحْده يَعْلم الحقيقة الكامِلة ؛ صَدِّق أوْ لا تُصَدِّق أنه ليس في الكَوْن كلِّه أحد يعْلم الحقيقة الكامِلة حتى ولا الأنبياء ، ولا يَعْرِف الله إلا الله ، والأنبياء أعلى الناسِ معْرِفَةً على الإطلاق ، ولكنّ الحقيقة الكاملة والمُطْلقة لا يَعْلمها إلا الله .

أحْياناً يُتَّهَم إنْسان وهناك أدِلّة كثيرة تُؤيِّد اتِّهامَنا له ، ولكنّ الحقيقة الكامِلة عنه يَعْرِفها الله وحده ، فقد يكون بريئاً ، لِذلك من المحامد اللَّطيفة : « **الحمد لله على أنَّه موْجود ، والحمد لله على أنَّه يعْلم ، والحمد لله على أنّه يقْدِر ، والحمد لله على أنَّه مُطَّلع ، وأنّه سميع وبصير** » ، فهذا عزاء المؤمن وأكبر عزاءٍ له مهما كال له الناس التُّهَم ، هو اطمئنانه أنَّ الله يعْلم حقيقة حاله ، وما دام الله يعْلم فلا يهْتَمّ بِأَحَدٍ يتهمه ؛ وتراه يردد : الحمد لله على أنَّه موْجود والحمد لله على أنّه يَعلم والحمد لله على أنّه يقدر والحمد لله على أنَّه مُطَّلِع وأنّه سميع وبصير ، فقَوْله تعالى : ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ هذه الآية تُشير إلى أنّ الله تعالى فوْقَ المكان والزمان وهو وحْدَهُ يعْلم الحقيقة الكامِلة .

بعضُهم قال : إنه رأى الله من وراء كلّ شيء ، وبعضهم قال : إنه رأى الله فلم يرَ أحداً غيره في الوُجود . وهذه كُلُّها أقْوال تُشير إلى هذه الحقيقة العُظْمى ، حقيقة أنَّ الله سُبْحانه وتعالى مع كلّ مخْلوق ، لِذلك قوْلُهُ تعالى :

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص : ١] . تعْدِل ثُلُث القرآن ، والإنسان لو ألْقى كلِمة وسَجَّلها واسْتَمع إليْها ، يكون معه ما يُسَمى بالنقد الذاتي ، والإنسان إذا جلس مع أخيهِ المؤمن يستنصحه ؛ الأخُ المؤمن

مِرْآةٌ لأَخيهِ ، فَهذا سيِّدُنا عمر بن عبد العزيز اخْتار أحد العلماء الأتْقِياء الوَرِعين وجَعَلَهُ مُسْتَشاراً له وكان اسْمه عمرو بن مهاجر فقال له : إذا رأيْتني قد ملت عن الحق فَضع يدك في تلبابي ثم هُزَّني ثم قُل : ياعمر ما تصنع .

قد تجد أخاً يُؤْثِر المُجامَلة وآخر يؤثر المُناصَحة ، والحقيقة أنّ الحق وسطٌ بينهما ، فإذا لم يكن عند المرء مُجاملة إطْلاقاً فهو مُنَفِّر ، وإذا لم يكن عنده النصيحة فهو منافق ، فأنت اعْتَدِل بينهما والزم جانب المُجامَلَةِ أحْياناً ، فإذا قال لك : الحرارة أربعون وكانت خمساً وثلاثين فلَكَ أنْ تُجامِلَهُ ويُمْكِنُك ألا تُسَفِّهَهُ ، إذْ إنَّها لا تُقَدِّم ولا تؤخِّر فهناك أشياء كثيرة تُلْقى في المجالِس يخْتَلِفون عليها ويتشادّون بسببها ، وهي لا تُقَدِّم ولا تُؤخِّر فَيُمْكِنُكَ في هذا أنْ تُجامِل . فإذا قال لك : هذه الساعة غالِيَة مثلاً فقل له : لا علَيْك ، ولعلها كذلك ، ففي موضوع الدنيا لك أنْ تُجامِل ، أما إذا جرى هناك طَرْحٌ خِلاف الحق فَيَجب أنْ تنْصَح وألا تُجامِل ، فنحن لو كُنا يُحب بعضنا بعْضاً كما أراد الله عز وجل لَكُنا مُتناصِحين ، وهكذا ينْبغي أن نكون . وكل من عزا شيئاً من قُدراتِهِ لِذاتِه ينبغي أنْ نتلَطّف إليه ، ونقول له : لا تقُل هكذا ، بل قُلْ : هذا بِتَوْفيق الله وبِتأييد الله ؛ حدّثني مرةً أخ كريم وهو طبيب يعمل في المُسْتَشْفى ، قال لي : « إني أنْظر إلى النِّساء المُمَرِّضات وكَأَنَّهُنّ رِجال » فوجَدْت في هذا الكلام كِبْراً ؛ إذ يعني أنه ليس لأنوثتهن عليه تأثير ، فلا يجد ما يمنعُهُ أن يقلب نظره في إحداهن ، فقلْتُ له : ما بال سيِّدنا يوسف عليه السلام يقول :

﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ [يوسف : ٣٣] .

لقد أمرك الله أنْ تَغُضّ بصرك عن محارِم الله ، فلا تَقُل : أنا عندي إرادة قَوِيّة ، وإني أحبّ الله ورسوله ، وأنا مُتَمَسِّك ولا أتَزَعْزَع ؛ قُلْ : ربي جلّ جلاله أكْرمني ومكَّنني من غضِّ البصر ، ومنحني هذه النِّعْمة ولا تَقُل : أنا أدْعو إلى الله ، إنما قُل : الله شَرَّفني وسمح لي أن أدْعو إليه ، فَكُلَّما وحَّدْت الله وتبرَّأت من حولك جاءت عِبارَتُك أحْلى من العسَل ، وكلما غفلْتَ عن الله جاءتْ عِبارَتُك أَمَرّ من الحَنْظل ، فالتوحيد مُريح يبعث الاطمئنان النفسي والسكينة لصاحبه ، وأنا لا أقول لك : تواضَع فهذه هي الحقيقة ، فأنت لا شيء أبداً أمام الله سبحانه ، فالله هو كلّ شيء ؛ هو الذي أعْطاك هذا الذكاء ، ومنحك كل ما أنت به من نعمة .

ذكر لي أحد الإخوة أنَّهُ بِذكاءٍ نادِر بحسب زعمه ؛ تمكَّن ذات مرة من أنْ ينْجو من ورْطة كبيرة جداً ، فقلت له : هذا غلط ، وإنما قُل : بِتَوْفيق الله ، والله نجاني وعافاني ، أما إذا قُلْتَ بِذكاءٍ كبير فاحذر ، فالله غيور فأنت حينما تعْزو شيئاً إلى ذكائِك وقُدْراتِك وإنْجازاتِك فإن ربنا عز وجل لأنه يُحِبُّك فسوف يُؤَدبك ، فيَسْحَب من تحت قدمَيْك البساط ، قال أهل الأمثال في هذه المناسبة : « رقصت الفضيلة تيهاً بفَضْلِها فانْكَشفت عَوْرَتُها » . فإذا أحْسن الإنسان سكت ولم يُحدِّث أَحداً كي يبْقى مرموقاً موقراً ، ولكنه إذا حدَّثهم عن فعله لِيَسْتَعْلِيَ فقد أساء ، أما إذا أُحْسِن إليك فلا ينْبغي أنْ تسْكُت ، فهذا من الجحود ، وكان عليه الصلاة والسلام يُحَسِّن الحسنَ ويُصَوِّبُهُ ، ويُقَبِّح القبيح ويُوَهِّنُهُ ، أبو أيوب الأنصاري نزع من لحية النبي ﷺ ريشة وهو يطوف بين الصفا والمروة ، فقال ﷺ : « نزع الله عنك ما تكره » .

أقول لكم نصيحة : إذا فعَلْتَ خيراً فينبغي أنْ تنساه ، وإذا فُعِل معك خير ينبَغي ألا تنْساهُ أبداً ، وهذا من أخلاق المؤمن ، قال تعالى :

﴿ وَلَا تَنسَوُا ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة : ٢٣٧] .

فهناك من لدَيْهِ رغبة في إنْكار الفضْل وطَمْسِهِ وإغْفالِهِ ، أما المؤمن فلا يفْعلُ هذا ، فإذا فعلْتَ مع الناس معْروفاً يجب أن تشْعر أنَّك ما فعلْتَ معهم شيئاً ، فهم حينما سَمَحوا لك أنْ تفْعَل لهم هذا المعْروف تفضَّلوا عليك ومكَّنوك من عمَلٍ صالِح ، وبعض العارِفين بالله يقول : هذا الفقير الذي قبِلَ أنْ يَأْخذ مني مكَّنَ لي هذا العمل في الأرض وإلا فأنا محْرومٌ منه ، ويُعْطيه ويشْكُرُهُ ، والذي يأخذ ينبغي ألا ينْسى ، والذي يُعطي ينْبغي أنْ يَنْسى ، كلُّ هذا سُقْتُهُ تمْهيداً إلى أنَّك إذا تحدَّثْتَ أمام إخْوانِك ولم تعْزُ المحامد والفضائل إلى أصْحابِها ، يجب أنْ ينْصَحك أصْحابُك بأن تذكر الفضل لأهله ، وإذا فعلت خيراً فقُل هو الله المعطي والمانع والمعز والمذل ، والإنسان كلما تأمَّل في نِعَم الله عزَّ وجل زادَتْ محَبَّتُهُ لله ، وروي في الحديث الشريف : « **أحِبوا الله لِما يَغْذوكم به من نِعَمِه ، وأحِبوني لِحُبّ الله ، وأحِبوا آل بيْتي لِحُبي** » .

فمُلَخَّص هذا البحث ؛ راقِبْ نفْسَك حينما تتكَلَّم ؛ هل تقول أنا أم تقول الله ؟

أُذَكِّركم بِما أقولُهُ لكم كثيراً : أنت في كلِّ دقيقةٍ بين درْسَين بليغَيْن في كل منهما عظة بليغة ؛ درْسِ بَدْر ودرْسِ حُنَيْن ، فَصَحابة رسول الله ﷺ في بَدْرٍ افْتَقَروا إلى الله وقالوا : « الله » فَنَصَرهم الله عز

وجل وتَوَلاهُم ، وهُمْ هُمْ ، ومعهم النبي ﷺ ، وفي حُنينٍ قالوا : لن نُغْلب من قِلّة ، فتَخلى الله عنهم قال تعالى :

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ [التوبة : ٢٥] .

فمُلَخَّصُ المُلَخَّص : إذا قُلْتَ أنا تخَلى الله عنك ، وإذا قُلت الله تولاك ، فأنت بين التوْلِيَة والتخْلِيَة ، لكن أحْياناً بعض الناس يقول : الله ، بلسانه ويَقْصد حقيقة نفْسَهِ ، فهذا توْحيد مُغَلَّف بالشرك ، وهناك شِرك مُغَلَّف بالتوحيد بين المؤمنين ؛ فالمؤمن مُتواضِع لله عز وجل قَلْباً وقالِباً شكْلاً ومضْموناً ومُحْتَوى وإطاراً فهذا هو المؤمن .

فَلِذلك « هو » يجب أنْ تُديرَها على لِسانِك كثيراً ؛ هو الذي أعْطاني ، وهو الذي خلقني ، وهو الذي صَوَّرَني في بطْن أمي وأحْسَن خلْقي ، وهو الذي أعْطاني هذا الشكل الحسن ، والنبي عليه الصلاة والسلام كان يقول : « اللهم! حسَّنْت خَلْقي فحسِّن خُلُقي » [رواه احمد] ، جعَلَك كامِلاً وجعَلَ لك السمْع والبصر والفؤاد وأجْهِزة تعْمل بانتِظام ، فَيَجب أنْ تقول في اليوم : « هو » آلاف المرات ، وهو يعْني الله لأنَّهُ الحقيقة العُظمى في الكون ، والحق الصارخ وهو الذي ليس قبْله شيء ولا بعده ولا فوْقه ولا تحْتهُ وهو يعْلم كلَّ شيء ؛ جمع الزمان والمكان وكمال العِلم .

أسْماء الله الحُسنى تشْغل حيِّزاً كبيراً من حيِّز الإيمان والعقيدة وأصْل معرفة الله أنْ تعْرف أسْماءه الحسنى وصِفاتِه الفُضْلى ، وحديثنا

عن أسماء الله الحُسنى حديثٌ مُقتَضَب ، لأنّ الحديث عن الله عز وجل كما قال تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ [الكهف : ١٠٩] .

قد يستَخْدم الواحد منا دواة حِبر عامَيْن أو ثلاثة وكانوا قديماً يبيعون الحبر بعبوات سعة لتر ، وأعْرِف أسْرة من نَشْأتِها إلى عشْرين أو ثلاثين سنة وهذا اللتر يكْفي كلّ أفْراد الأسْرة لعام أو أكثر ، فكيف إذا كان هناك من الحبر خمسة أمْتار مُكَعَّبة فكم عالماً يكفي ؟ وكم أسرة تستعمله ؟. . . قال تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ .

فانظر إلى سعة علم الله تعالى .

وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان : ٢٧] .

فنحن نتحدَّث عن أسْماء الله الحُسنى حديثاً يسيراً ، لكن الله سبحانه وتعالى يعرف صدق التوجه فنرجو خلوص النيات ، وربنا سبحانه لن يحيط به حديث مهما تفرّع وطال ، ومعْرِفةُ الخلق له سبحانه معْرِفةٌ نِسْبيّة ، وحسبنا صدق التوجه والله الموفق .

* * *

المُصْطَفِيّ

مـن أسمـاء الله الحُسنـى المُصطفـي ، فهـو اسـمٌ مـن أسمـاء الله الحُسنى ، وهو زائدٌ على الأسماء الحُسنى التي رويت في حديث رسول الله ﷺ ، والتي بلغت في أحاديثه تسْعة وتسْعين .

الاصْطِفاء في اللغة تناوُل صَفْوِ الشيء ، كما أنّ الاخْتِيار تناول خيْرِه ، أنْ تأخذ أصْفى ما في الشيء فهذا اصطِفاء ، وأنْ تأْخذ أَخْيَر ما في الشيء فهذا اخْتِيار ، وصَفْوَة الشيء ما صفا وخلص ، والنبي عليه الصلاة والسلام صفْوَة الله من خلقِه ؛ من الذي اصْطفاه ؟ المصْطفِي الله جل جلاله هو الذي اِصْطفى النبي ﷺ وجعَلَه صفْوة خلْقِه ، وتقول : صَفا الجوّ أي ليس فيه لطْخَة غَيْمٍ ، سماءٌ صافِيَةٌ زرقاء ، واصطفاه أخذَ منه صفْوَه أيْ خِيارَه .

ولو اِصْطَفَيْت الفاكِهة أخَذْت أطْيَبَها وأكْبَرها ، إن كان الحجم فيها له ميزة ، أو أصْغَرَها إن كان الصِّغَر له فيها ميزة ، أو أشدّها زُهُوًّا إن كان اللون أجمل ما فيها ، والصَّفِيّ هو الحبيب المُصافي ، وصافاه مُصافاةً صدَقَه في الإخاء والموَدّة ، والعسَل المُصفى كما تعلمون الذي أزيل عنه الشمع والقذى ، واصْطَفَيْتَ كذا على كذا أيْ اخْتَرتَ كذا على كذا ، وهذه بعض معاني الاصْطِفاء في اللغة .

اصْطفاء الله بعض عِباده قد يكون بإيجادِه صافِياً وقد يكون باخْتِياره من بين عِبادِه المُتَفَوِّقين ، قال تعالى : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٣٣] .

موضوعنا هذا دقيق دقيق ، لو أن الله سبحانه وتعالى خلق في الإنسان الصَّفْوة والخِيرة عن غير قصْد من الإنسان ، وعن غير إرادةٍ واخْتِيار ، لما كان لِكلمة الاصْطفاء معنىً ، لكنّ لأن الله خلق الأنفس واحدة بخصائص واحدة ، ومن جِبِلَّةٍ واحدة ، ومن فِطرةٍ واحدة ، ولأن الله عز وجل خلق البشر جميعاً من طبيعة واحدة ، وخصائص واحدة ، وانْطلقوا بِحَسَب اخْتِيارهم وأهْدافِهم ، فإن الله تعالى بعد ذلك اِصطفى منهم خِيارَهم قال تعالى :

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

إذاً هناك بالاصطِفاء شيء كَسْبي وشيء وَهْبي ، وأوْضح مثَلٍ على ذلك : لوأردنا أن نعَيِّن إنساناً في وظيفة مرموقةٍ جداً ، وهذه الوظيفة تحتاج إلى لغةٍ وإلى قُدْراتٍ وقوة شخصية وإلى ثقافة عامة وإلْمامٍ بالعلوم والحقوق ، وأَجْرَيْنا مُسابقة واشْتَرطْنا فيها إجازة في اللغة الإنجليزية وإجازة في العلوم والحقوق وهَيئات معيَّنة ومَلَكات معيَّنة وخصائص ، فمن كل هذا الحشد نخْتار من بين المئة شخصاً واحداً ، وهذا كله كسْبي كَسبه المتسابِقون ، أما حينما نختار أحدهم ونُعْطيه مُهِمّة ومَرْكَبة وراتِباً ضَخْماً وصلاحِيات كبيرة فهذا وهْبي .

في الاصْطِفاء هناك جانب كسْبي وجانِب وهْبي ، ولو أن الاصْطِفاء كله وهْبي لفَقَد الاصْطِفاء معناه ، فَمَثلاً لو أعْطَيْنا الأسْئِلة لِطالِبٍ ثم طَرَحْنا السؤال على كل الطلاب ، فإذا بِهذا الطالب ينال الدرجات

التامة ثم عِنْدَئذٍ نقول : هذا نصْطَفيه! فهذا الاصْطِفاء لا معنى له ، إذْ ليس هناك تكافؤ فُرَص وليس هناك تساوٍ بين الطلاب ، أما حينما يتساوى الطلاب جميعاً في عدد الأسْئلة ونوعيتها ويفوز أحدهم بِالدرجة الأولى عن جدارةٍ وأهْلِيَّةٍ فعندها نقول : فلان اصْطَفَيْناه لِيُتابِع تعليمه في جامِعات الغرب .

فهذا الاصطِفاء له معنى ، إذاً عندما ينعدم تكافؤ الفُرَص ولم يتحقق التساوي بين الأفراد ، ولم تتوفر خصائص مُشْتَركة فالاصْطِفاء لا معنى له ، أكرر : الاصْطِفاء فيه جانِب كسبي وآخر وهْبي ، فالجانِب الكسبي أنّ الله سبحانه وتعالى عَلِم من بين خلقِه أكثرهم معْرِفةً ، وأكثرهم اسْتِقامة وتضْحيَةً وإيثاراً ، وأكثرهم قرباً وأكثرهم إقْبالاً فاصْطَفاه وجعله نبِياً ؛ لذلك روي عنه عليه الصلاة والسلام :

« إن الله اختارني واختار لي أصحاباً ، واختار لي منهم أصهاراً وأنصاراً ، فمن حفظني فيهم حفظه الله ، ومن آذاني فيهم آذاه الله » .

الاصْطِفاء فيه جانِب كسبي وآخر وهْبي ، فإذا ألْغَيْنا الكسبي أبْطَلْنا معنى الِاصْطِفاء ، وإذا ألْغَيْنا الوَهْبي أبْطَلْنا ميزات الاصْطِفاء يقول الله عز وجل :

﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة : ١٣٢] .

فما معنى هذه الآية ؟ معنى ذلك أنّ الدين صافٍ من كل شائِبة ومن كل ريْبٍ وشكٍّ وتطرّفٍ وغُلُوّ ومن كل بعدٍ عن الحقيقة قال تعالى :

﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة : ٢] .

وقال تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] .

﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ ، كل من يعتَقِد أن هذا الدين يحتاج إلى تبديل ، إلى إضافة أو تعديل ، أو حذف أو تغيير ؛ هو إنسان يرد كلام الله عز وجل ؛ إن الله اصْطفى لكم الدين فلا تموتُن إلا وأنتم مسلِمون ، أيْ إن القضايا التي عالجَها الدين قضايا تامّة وطريقة المعالجة طريقة كاملة .

وفي آل عمران قوله تعالى :

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ .

أيّة قِصةٍ تنال من الأنبياء وتجعلهم كبَقِيّة البشر ينْحَرِفون ويرْتَكِبون المعاصي والآثام كما ورد في الكتب القديمة المقدّسة التي نُحِلت وأُضيف عليها وحُذِف منها ، فهذه قِصصٌ باطِلة لا تقوم على أساس لأن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

اخْتارهم على عِلْمٍ ، أيْضاً اصْطفى النبي عليه الصلاة والسلام لِيَكون سيِّد البشر وخاتم الأنبْياء ولِيَكون صَفْوة البشر ، لذلك فالنبي عليه الصلاة والسلام حبيب الله وخليل الله وصَفِيُّ الله وخيرة الله من خلقه .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٢] .

فأول اصْطِفاءٍ صار لدينا واضِحاً جلياً ، ولكن هناك اصطفاء ثانٍ فما معنى الاصْطِفاء الثاني ؟ إن الله اصْطفاك وطهّرك واصْطفاك على نساء العالمين .

قال بعض المفسِّرين : « الاصْطِفاء الأول هو إصْطِفاء القُرْب من الله ، والاصْطِفاء الثاني أن هذه السيِّدة إِخْتَصَّها الله بأن تُنْجِب ابنها دون زواج » ، أنى لكِ هذا ؟ قالت : هو من عند الله .

وقال تعالى :

﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٤٤] .

لو أردنا أن نُوَسِّع الدائرة ؛ فأنت حينما تُخْلِص لله عز وجل ، وحينما تطلب العلم حثيثاً ، وحينما تعمل بِما علمت وتتقي الشبهات وتنطلِق إلى الله بِهِمَّةٍ عالِيَة ، فلعلّ الله يصطفيك ويسمح لك أن تُعَرِّف به وتدعو إليه ، وهذا شرفٌ عظيم ، فالإنسان الصادِق إذا دعا إلى الله لا يرى إلا أنّ الله تعالى تفضّل عليه وسَمَح له أن يَدْعُوَ إلى الله ، وأن يتحدّث عن الله وإلا كان في وضْعِ آخر .

﴿ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ .

هذه آية دقيقة في مفهومها ودلالاتها جداً ، أيْ أنّ مهِمَّة العبد تنتهي حينما يُطيع الله عز وجل ثم يتلقى الخير بِالشكر والامْتِنان ؛ تنتهي مهِمَّتُك عند الطاعة والشكر وما سِوى ذلك فهو من شأن الله لا من شأنِك .

﴿ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ .

طبِّقْ ما أمَرْتُك به ، ويُؤَيِّد هذا المعنى قولُه تعالى :

﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ [الزمر : ٦٦] .

فالإنسان أحْياناً يحْمِل هموم الأرض ، وأحْياناً يتمَزّق ألماً وحسرة لما يصيب المسلمين مثلاً ، ولكن لو عرف أنّه ليس مُكلَّفاً إلا أن يُطيع الله عز وجل وأن يشكُرَه لَحُلَّت مُشْكِلاته ؛ أنت تريد وأنا أريد والله يفعل ما يريد .

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [هود : ١٢٣] .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح : ١٠] .

﴿ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴾ [البروج : ٢٠] .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَـٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَـٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف : ٨٤] .

وقد يقول أحدكم : ما علاقتنا نحن بِهذا البحث ، إذْ الاصْطِفاء

للأنبياء ونحن لسنا أَنبياء ولا صِدّيقين ؟ فاسْتَمِع وأَبْشِر بِقولِه تعالى :

﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴾ [الحج : ٧٥] .

لا تجد إنساناً دعا إلى الله إلا وسَمَح الله له ؛ فإن كانت دَعْوَتُه صادِقة يُوَفِّقُه ويصرف قلوب الناس إليه ، ومن ثم تهفو إليه القلوب وتستَفيد منه ، وتنْعَقِد صِلَتُها بالله عن طريق تَوْجيهِهِ ، فهذا نَوْعٌ من الاصْطِفاء ، قال تعالى : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ﴾ [النور : ٣٦] .

أيْ أذِن الله تعالى أنْ تُرْفَع وأذِن لِمن فيها أن يذكروا اسمه ، دائماً الأشياء التي تخصّ الأنبياء يُمكن أن تُوَسَّع الدائرة لتشمل كل صادِقٍ ليعمل مثل عملهم ، ولعل الله سبحانه وتعالى يُطْلِق لِسانك ويُلْهِمك الصواب والكلام السديد والحِكْمَة وقَلْباً مُتَأَجِّجاً بالمشاعر الصادقة وتهفو إليه القلوب ، كل هذا نوعٌ من الاصْطِفاء ، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، قال تعالى :

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ .

﴿ وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ .

﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴾ .

كل تلك الآيات فِعْلها بصيغة الماضي إلا هذه الآية الله (يصطفي)

فَفِعْلها بصيغة الحاضِر ، وهو فعلٌ مضارع يدل على الاستِمرار ، فالله دائِماً يصطفي ، فإذا كنت من عباد الله الذين اصْطفاهم الله عز وجل ، وسَمَح لهم أن يَنْطِقوا باسْمِه ، وأن ينْقُلوا للناس الحقائق ، وأن يكونوا دعاة هداية لا دعاة ضلالة ، ومفاتيح خير لا مفاتيح شر ، فهذا من أعظم العطاءات .

سمعْت عن الذين اخْتَرعوا برامِج الحاسوب وتَفَوَّقوا جداً في مجالها ، كان أحدهم شاباً في مقتبل العمر يمْلِك ما يقارب التسعين مليار دولارٍ ، أما حينما يصْطفيك الله عز وجل لِتَنْطِق بالحق ولِيَكون عمَلُك في خِدْمَة الخلق ، فإن هذا الاصطفاء هو العطاء الكبير الذي يربو على كل المليارات قال تعالى :

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (٧) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَب ﴾ [الشرح : ١ ـ ٨] .

وقال تعالى : ﴿ وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى : ١ـ١١] .

هذا اِصْطِفاء ، وقال تعالى :

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر : ٧٢] .

وقال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة : ٦٧] .

ولم يقل يا محمد! بل خاطبه وناداه ياأيها الرسول! كل هذا اصْطِفاء ، ولقد أُسْرِيَ بالنبي ﷺ إلى بيت المقدِس وعُرِج به إلى السماء وعَلِم وهو في السماء أنه سيّد الخلق وحبيب الحق ، هذا كله من الاصْطِفاء ، بل قل : غاية الاصطفاء .

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ : « إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلاةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْراً ، ثُمَّ سَلُوا اللهَ لِي الْوَسِيلَةَ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لا تَنْبَغِي إلا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ » [رواه مسلم] .

أما البِشارة ، أَلَيْس بعد النبي ﷺ علماء أجلاء ، أليس هناك دعاة مُخْلِصون وفقهاء ومُحَدِّثون ، أَلَيْسَ هناك من دعَوا إلى الله ، كل هؤلاء بِالمعنى الواسِع اِصْطَفاهم الله وأجْرى على أيْديهم الخير وأَنْطَق لِسانهم بِالحق ، وجعل قلوب الناس تهفو إليهم ؛ هذا نوْعٌ من الاصْطِفاء .

لعلّ من أعظم طموحات المؤمن أن يَصْطَفِيَهُ الله عز وجل لِيَكون داعِيَةً إليه ؛ يا رب! لقد شَرَّفْتني بِمَعْرِفَتِك والدعْوَة إليك ، فإن علِمْتَ صِدْق نِيَّتي فاحْفظْها لي واحْفَظْني لها ، وإن علِمْتَ خِلاف ذلك فعالِجْني قبل أن أموت ، فَعَلى الإنْسان أن يطْمَح ؛ ما هو دوْرُكَ في الحياة ؟ هل هو الأكل والشرب والنوم والراحة واللهوُ واللَّعِب ؟ أم هو معْرِفة الله ؟ فلنُشَمِّرُ من أجل أن نُطيعَهُ ونتقرَّب إليه ؛ هذه بِشارة :

﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ .

هؤلاء الذين عكفوا على العِلْم وتَرَكوا مؤَلَّفاتٍ قيِّمة تجدها في كل

بيْتٍ ، الإمام النووي رحمه الله تعالى ألَّفَ كِتاباً بِالفِقْه يُعَدُّ فريداً في بابه وهو المجموع وألّف مُغْني المُحْتاج وألَّفَ كِتاب الأذْكار ورِياضِ الصالحين ، وهذا الإمام الشافِعي رضي الله عنه أوَّل من ألَّف في أصول الفِقْهِ وله كِتاب الأم وهو صاحب المذهب الشافِعي الذي يدين اللهَ به ملايين المسلمين اليوم في أصقاع الأرض ، فهؤلاء الذين اصْطفاهم الله ومكَّنَهم من العِلم وجعَلَ لهم بَصَماتٍ واضِحَةٍ في الحياة ، فهؤلاء أيْضاً بِالمعنى المُوَسَّع ممن اصْطفاهم الله عز وجل .

إذا كنت ممن اِصْطفاه الله عز وجل فلَقَد علِم فيك الإخلاص والصِّدق والحب والطاعة والوَرَع فكُنت ممن اِصْطفاهم الله عز وجل ، ماذا ينتظِرك في الدنيا والآخرة ؟ قال تعالى : ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النمل : ٥٩] .

فإذا كنت ممن اصْطفاه الله عز وجل فأنت في سلامٍ ؛ في سلامٍ مع نفْسِك ، وفي سلامٍ مع مَن هم حوْلَك ، وفي سلامٍ مع ربك ، وحياتك سلامٌ ، وتنْتَقِل بعْدها إلى دار السلام ، وتَتَّصِل نِعَمُ الدنيا بِنِعَمِ الآخرة .

ومِن تَكْرِمَة الله للنبي عليه الصلاة والسلام أنّ الله اصْطفاه واصْطفى له أصْحابَه ، فإذا كنت تعيش بِبَلَدٍ وحوْلَك مؤمنون أطْهار طيِّبون وأتْقِياء مخلِصون ومُحِبون ، فهذه حياةٌ مُتَمَيِّزَة وهذه الحياة قَدَّرها الله لك ، وليس هناك إنسان أسْعَد من مَنْ يعيش مع أناس يتفاهمون فيما بينهم تحدوهم في علاقاتهم مرضاة الله . ومع من يكون على شاكِلَتِه ومع الذي يُقَدِّر ما يُقَدِّر ويُبْغِض ما يُبْغِض ، لا تُصاحِب من لا يُنْهِضك حاله ، ولا يدُلُّك على الله مقالُهُ ، ولا تُصاحِب من لا يرى لك من الفضل مثل ما ترى له .

فمِن نِعَم الله الكُبْرى على المؤمن أنَّه يعيش بين المؤمنين ؛ هو طاهِرٌ بين الأطهار وهو صادِق بين الصادِقين وهو مُحِبٌّ لله ورسولِه ﷺ وهو بين المُحِبين ، فأَجْمَل ما في الحياة أن تعيش مع إنْسانٍ هو على شاكِلَتِك يفهمك وتفهمه ، هذه هي الحياة الحقيقية ، لذلك حينما اخْتار النبي عليه الصلاة والسلام سيِّدنا الصِديق لِصُحْبَتِه في الهِجْرة بَكى من شِدَّة الفَرَح ، قال تعالى :

﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

وإذا كانت موَدَّتُك وحُبُّك وطاعَتُك لله عز وجل فهذا خيرٌ لك ، أمّا أن تكون مودتك لإنسانٍ لئيمٍ قويٍّ لا يَعْرِف حجْم تضْحِيَتِك من أجْلِه فالفرْقُ كبير ؛ ﴿ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ؟ هذا اسْتِفهامُ إنْكارٍ ، وليْسَ هناك شيءٌ يجْمع بين متضادين ، قال تعالى :

﴿ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾ [القصص : ٦١] .

وقال تعالى :

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾ [السجدة : ١٨] .

وقال تعالى : ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [القلم : ٣٥] .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر : ٩] .

قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾[فاطر : ٣٢] .

فإذا أكرمك الله بالكِتاب تِلاوةً وفَهْماً وتطبيقاً ؛ فقد أوتيت خيراً

كثيراً ، ومن أوتِيَ القرآن وظن أن أحداً أوتِيَ خيْراً منه فقد حقَّر ما عظَّمَهُ الله فالقرآن غِنىً لا فقْر بعْده .

من العِباد حِيال الكِتاب مَن هو ظالِمٌ لِنَفْسِه ، ومنهم مَن هو مقْتَصِد في فِعْل الخيرات ، ومنهم مَن هو سابِقٌ بِالخيرات بِإذْن الله ، أتُلاحِظون الاصْطِفاء ؟

مثَلاً لدَيْنا مئة طالِبٍ على وشك أن يتخرجوا من الجامعة ، ونريد أن نصطفي واحداً منهم ليكون في منْصِبٍ رفيع لِيَكون عميد كلِيَّة مثلاً ، أو أُسْتاذاً في الجامِعة ، أو رئيس المجْمَع العلمي العربي ، فَحِينما يُصْطفى من بين المُتَفوِّقين فهذه هي الجِهَة الكسْبِيَة ، ويُمْنَح اِخْتِصاصات ومُكافآت وميزات وهذه الجهة الوَهْبِيَة ، وقد ذكرت وأعود وأذكر : ففي الاصْطِفاء جانِبٌ كسْبي وإلا لا معْنى للاِصْطِفاء ، وفي الاصْطِفاء جانِب وهْبي وإلا لا ميزَة له عِنْدئذٍ .

وفي القرآن الكريم يتحدّث الله عن الأنبِياء الكِرام في قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾ [ص : ٤٧] .

الأنبِياء مُصْطَفَوْن فَهُم قِمَمٌ في الكمال ونُخْبَةُ البشَرِيَّة وأعلام المجْتَمَع البشري وملوك البشر هؤلاء الصحابة الكِرام ، إنهم ملوك المسلمين بِالمعنى الروحي ، والأنبِياء والمُرْسلون صَفْوة الله من خَلْقِه ، قال تعالى :

﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [ص : ٤٥] .

رُؤْيَتُهم عميقة وأَعْمالُهم طيِّبة ؛ واذْكر عِبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيْدي والأبْصار ، فهم بِقَدْر ما هم مُتَفَوِّقون في رؤْيَتِهم بقَدْر ما هم طيِّبون في أعمالهم .

عُلُوّ الهمّة من الإيمان ، حينما يسْمح الله لك أنْ يصْطَفيك أو أن يُقَرّبك أو أنْ يُلْهمك أو أن يجْعَلَك تنْطِق بالحق أو أن يجعل هداية الناس على يَدَيْك ، أو أن تهْفو قلوب المؤمنين إليك فهذا نوْعٌ من الِاصْطِفاء ، وما عِند الله لا يُنال بِمَعْصِيَة الله ، ألا إنّ سِلْعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة ، وينبغي أن تتيقنوا أيها المؤمنون من أنه لا بد من الابْتِلاء ، والإنْسان كما تعْلمون يمُر بِمراحِل ثلاث :

- مرحَلَة يؤدّب .
- مرحلة يُبْتلى .
- مرحلة يُكرَّم .

ففي مرحلةٍ يؤدّب ، وفي مرْحلةٍ يُبْتلى ، وفي مرْحلةٍ يُكرَّم ، وهذه المراحل قد تتداخل وقد تتمايَز ، لكن لا بد من التأديب ولا بد من الابْتِلاء ولا بد من الإكرام والعطاء ، لأنّ هذه سُنّة الله في خلْقِه وقد ورد في تفسير قوْله تعالى :

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن : ٤٦] .

جنّة في الدنيا وجنّة في الآخرة .

وأما التطبيق العملي فما هو موْقِف المؤمن من هذا الاسم العظيم المُصْطَفي ؟ فَمَوْقِف المؤمن أنه يطْمَح في اِصْطِفاء الله له لِخِدْمة خلْقِه ، ومن هنا قال الله عز وجل :

﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة : ١١١] .

حينما اصْطفى الله عبْده المؤمن ، فهذا المؤمن باع نفْسَه لله ، أريد أن أُوَسِّع الموضوع ؛ الأنبياء مُصْطَفَوْن والرسل مُصْطَفَوْن وهم قِمَم البشر وصفوة البشر ، ولكن المؤمنين لهم قَدْرٌ يسير على قدْر إخلاصِهم وعلى قدْرِ طاعَتِهم لله ، فالله يُكَلِّف الإنسان أعْمالاً يُجْريها على يَدَيْهِ ويَرْفَعُهُ بِها ، فهذا نوْعٌ من الاصْطِفاء .

أعرف شخْصاً قرأ القرآن في الخامِسَة والخمْسين من عمُره وحَفِظَه وكان طُموحُهُ أن يكون إماماً في مَسْجِد ، وسُبْحان الله فلما قرأ القرآن وحَفِظه وعُيِّن إماماً لِمَسْجِدٍ جيِّد موقعه ورواده كثيرون ، صار يُصلي بالمصلين الصلوات الخمْس ، ثم أكرمه الله بأن صار يلقي بعد الصلوات كلِمَةً على الناس تعظهم ، هذا طُموحُهُ فاصْطَفاه الله عز وجل ، فالمعايير دقيقة عند الله تعالى وبِحَسَبِ صِدْق الإنسان وطاعَتِه لله يصْطَفيه ، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[السجدة : ٢٤] .

فالصَّبر إذاً طريق الاصْطِفاء هذا أوّلاً ، وقوله تعالى :

﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة : ١٢٤] .

فَتَطْبيق الأمر والطاعة مع الإخلاص ؛ سبيلٌ إلى الاصْطِفاء هذا ثانِياً ، وقوله تعالى : ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا﴾ [يس : ٢٠ ـ ٢١] .

فالترفُّع عن حُطام الدنيا وعن مَتاعِها ومالِها وعن مُكْتَسَباتِها سبيلٌ إلى الاصْطِفاء ؛ هذا ثالثاً ، وقوله تعالى : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران : ١٨] .

فطلبُ العِلم طريق إلى الاصْطِفاء ، تَصَوَّر إنساناً درس الابْتِدائي والإعدادي والثانوي ونال درجاتٍ عاليَة جداً ثم دخل كلِّيَّة الطِّب وتخرَّجَ بها ، ثم تابَع دِراسَتَهُ العُلْيا ، وعاد بِأكبر شهادة في العالم ؛ ماذا ينْبَغي أن يفعَل هذا الإنسان بعْد أنْ تخرَّجَ ونال الدرجة العُلْيا ؟ ينْبَغي أن يُطَبِّب الناس ويفتَح عِيادة وإلا فلا معْنى لهذه الدِّراسة .

دقِّق النظر وتأمل : أنت حينما تطلب العلم فإنك تُؤَهِّل نفسَك لِماذا ؟ للدعْوَة إلى الله ومن الذي سوْف يسْمَح لك أن تَدْعُوَ إلَيْه ؟ هو الله ، فالله عز وجل بِطريقةٍ أو بأُخرى ، على نحوِ معروفٍ أو غيرِ معْروف يُيَسِّر لك طريق الدعوة إليه لأنَّك تعلَّمْت العِلم فَصِرْتَ مؤَهَّلاً أن تدْعُوَ إلى الله ، فكل إنسان يطلب العلم بِإخلاص ويسْعى لِطاعته تعالى بإخلاص ويحرِص على رِضْوان الله وعلى القُرْبِ منه يصْطَفيه الله عز وجل ، ويُجْري على يَدَيْه الخير بل بِالتعْبير الشائع : « الله جبار الخواطِر » .

عندما يتعلم الإنسان يتعلَّم عِلْماً صحيحاً ويلْزَم مجالِس العِلْم ويجْلِس على رُكْبَتَيْه ويطْلُب العلم فلا بد من أن يصْطَفيه الله عز وجل بِالمعنى الواسِع فَيَجْعَلُه بطريقة ما باباً للخير ، لذلك روي أن من أدْعِيَة النبي عليه الصلاة والسلام : « **اللهم! ارزُقني طيِّباً ، واسْتَعْمِلني صالِحاً** » .

حدَّثوا عن بعض العلماء بأنه : اشْترى كَفَنَهُ والصابون الذي ينْبَغي أن يُغسَّل به من بلَدٍ ليس فيه مالٌ مُغْتَصَبٌ من شِدَّة الوَرَع .

فالإنسان عليه أن يدْعو : « **اللهم! ارزُقني طيِّباً ، واسْتَعْمِلني صالِحاً** » ما معنى : واسْتَعْمِلني صالِحاً ؟ أيْ : الله يصْطَفيك لِعَمَلٍ

صالِح ، وما معنى الحِكْمَة القائلة : إذا أردْت أن تعرِف مقامك فانْظر فيمَ اسْتَعْمَلك ؟ يعني أنّ الله اصْطَفاك ، قد تجد شخْصاً آتاه الله حِكْمَة يتصَرَّف في ضوئها ، وفهْماً دقيقاً وخِبْرات مُعَيَّنَة وعِلْماً ودعْوَةً وجاهاً وقوةً وطلاقة ، فكل إنسان يُهَيِّىء نفسه لِفِعْلِ الخير ، فالله جل جلاله لابد من أن يجْبر كسْرَه ويُجْري على يَدَيْهِ فِعْل الخير ، قد تقول : أنا من أنا حتى أُصْطَفى ؟ أنت إنسان ومُؤَهَّل أن تكون من المصْطَفين ، هذا بِالمعنى الواسِع ؛ إن قلت بالمعنى الواسِع هذا للمؤمنين ، وإن قلت بالمعنى الضَيِّق فهم الأنبِياء والمُرْسلون لأن الله يصْطَفي من الملائكة رُسُلاً ومن الناس ، فَلِمَ يطلق الله تعالى لِسانك ويجْعَل قلوب الناس تهفو إليك ؟ فهذا هو معنى الِاصْطِفاء وهو المعنى المُوسَّع ، فإذا مكَّنَكَ الله من بِناء مسْجِد فهذا نوع من الاصطفاء ، وأن تُطْعِم الناس من مالك الحلال فهذا نوع من الاصطفاء كذلك ، وإذا سَمَح لك أن تُعْطي وقدَّر لك مَن يأخذ وسَمَح لك ، فهذا كذلك نوع من الاصطفاء ، تكون في بيتٍ من بيوت الله وليس في ملهى من ملاهي الشياطين ، فهذا تكريم واصطفاء .

أنا لا أنْسى أني كنت مَدْعُواً ذات مرة لافْتِتاح مسْجِد ، وجلس بِجانبي مدير الأوقاف الذي سَيَفْتَتِح هذا المسجِد ، فقلت له أُشْكُر الله عز وجل على أنه قد قدَّر على يدَيْك أن تفْتَتِح هذا المسْجد ، إذْ هناك من يفْتَتِح الملاهي ودور القِمار ، قد تسعى وتهنأ فيكون عملُك مع العلماء ، فهناك من يعمل مع الساقطين ومع طبقاتٍ أخرى من الناس لهم انحرافاتهم فيشقى بهم ومعهم ، وهناك من يرْعى شؤون المساجد فليحمد الله ، وهناك من يرعى شؤون الملاهي ، وآخر يُفَكِّر كيف يدْعو إلى الله ، وذاك يُفَكِّر كيف يدعو إلى الشيطان وإلى المعاصي

والآثام ، فحين يُجَنِّد الإنسان نفسه لِطاعة الله يصْطَفيه الله تعالى ، فالله إذا أعْطى أذْهَش .

هل تجد إنساناً في الأرض أعَزَّه الله كالنبي عليه الصلاة والسلام ؟ شيءٌ غير معْقول أربعة ملايين إنسان يذهبون إلى الحج كل عامٍ ويزورون النبي عليه الصلاة والسلام ، ويَقِفون أمام مقامِه يبْكون ولم يلْتَقوا به ولا سمِعوا من كلامه مباشرة ولا نالوا من ماله ، وبينه وبينهم آلاف الكيلومتْرات ، فما الذي هداهم إلى أن يأتوا إلى مقامِه الشريف ؟

وطَلب العِلم وتبليغه طريق الاصْطِفاء ، قال تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [الأحزاب : ٣٩] .

فعليك ألا تخشى إلا الله ، فهذا طريق الاصْطِفاء ؛ فلا أريد أن يكون كلامي هذا نظرياً وإنما أريده عملياً ؛ كُن طموحاً ، لقد قلت مرة كلِمة مفادها : أحْياناً يتوَهَّم الإنسان أنّ الدعاة هم خطَباء المساجد دون غيرهم ! لا . . . أنت لدَيْك أقْرِباء وأصْدِقاء وجيران وزملاء وأولاد وإخوة وأخوات . . . ألا تسْتطيع أنْ تنْصَحهم وأن تجْلِس معهم وأن تُعَلِّمهم ، وبِهَدِيَّةٍ إليهم تكسب ودهم وقلوبهم وإصغاءهم لحديثك ، ولك أن تكون من المُصْطَفَيْن الأخْيار إذا كنت مُخْلِصاً لله الكبير ؛ إذاً طريق الاصْطِفاء يقوم أولاً على طاعة الله ثم على طلب وصدق نية وإخْلاص ، ويحتاج هذا إلى حُبٍّ وإلى شجاعةٍ وإلى جُرْأة فلَعَلَّ الله تعالى يصْطَفيك قال تعالى :

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾ [السجدة : ١٨] .

وقال تعالى : ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [القلم : ٣٥] .

إنسان همُّه الوحيد أن يُرَسِّخ الحق في المجْتَمع ، ويُدْخل السعادة على المؤمنين ، وآخر هدفه أن يبْني مجْدَه على أنقاض الآخرين وغِناه على فقْرِهم وحياته على موْتِهم وأَمْنَه على خوْفِهم ، شتانَ بين هذا وهؤلاء ! فلِذلك ضَعْ نفْسَك موْضِعاً يصْطفيك الله . وليس الوليُّ الذي يطير في الهواء ، ولا الذي يمْشي على وَجْه الماء ، ولكن الوليَّ كل الوليِّ أن يجدك الله حيث أمرك ويفْقِدُك حيث نهاك ، فإذا كنت في مَجْلِسٍ وكانت هناك غيبة سكتّ أو قُمْت وفارقت أهل المجلس ، فأنت الآن تَتَوَسَّل أن يصْطَفِيَك الله عز وجل والله تعالى من أسْمائه المُصْطَفِي ، فهو إذاً يصْطَفي ، وإذا اِصْطَفى مؤمناً فهو في سلامٍ معه ، والمؤمن في سلام إذا كان الله عز وجل قد اصْطفاه لكن الله قال :

﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ [العنكبوت : ٢] .

لابد من الابْتِلاء .

اسْم المصْطَفي من أسماء الله الحُسنى ، وهذا الاسْم مُرْتَبط أشدّ الارْتباط بِالمؤمنين ، وكلما جهِدوا بِطاعَتِه والفَوْز بِرِضاه اصْطفاهم وكرَّمهم وأجْرى على أيديهم الخير ، والغِنى الحقيقي أن يجْعَلك الله مِفْتاحاً للخير مِغْلاقاً للشرّ .

روي عن النبي ﷺ أنه قال :

إن الله عز وجل قال : **أنا خلقت الخير والشر فطوبى لمن قدرت على يده الخير وويل لمن قدرت على يده الشر .**

* * *

الدَّيَّانُ

من أسماء الله الحُسنى الدَّيان ، كثيراً ما يقول العلماء في كلِماتِهم : الواحد الدَّيان ، الذي يدين له الخلق أجْمعون ، والدَّيان هو اسم من أسْماء الله الحُسنى وهو زائِدٌ كما هو معلوم على الأسماء التِّسعة والتِّسْعين كما ورد هذا في أحاديث رسول الله ﷺ .

في اللغة الدِّين بِكَسْر الدال ؛ شيء ، والدَّين شيءٌ آخر ، فالدِّين هو الجزاء والمُكافأة ، والدِّين هو العِبادة ، والعِبادة خُضوعٌ لله عز وجل غاية الخُضوع مع غاية الحب ، وكلُّكم يعْلم أنّ في اللغة عِبادٌ وعبيد ، العِباد جمْع عبْدِ الشُّكر على حين أن العبيد جمع عبد القهر ، وكلُّ إنسانٍ عبدٌ لله عز وجل بِمعنى أنّ ناصِيَتَهُ بيد الله عز وجل وأنَّه مقْهورٌ في وُجودِه وفي اسْتِمرار وُجودِهِ وفي سلامة وُجودِه وفي كمال وُجودِه لله عز وجل ؛ وُجودُهُ مُتَوَقِّفٌ على إمْداد الله له ، وكذا اسْتِمرار وُجودِه وسلامة وُجودِه مُتَوَقِّفان على حِفْظ الله له ، وكمال وُجودِه مُتَوَقِّفٌ على إكْرام الله له .

إذاً عَبْدُ القهْر هو العبْد الذي لا يَمْلِك من أمْرِهِ شيئاً ، والعبد الذي هو في قَبْضَة الله ، وأقْرب شاهِد لِهذا الكلام أنَّ نُقْطَةَ من الدم إذا تجمَّدَت في أحد أوْعِيَة الدِّماغ انْقَلبَت حياة الإنسان إلى جحيم وصار

طريح الفِراش ؛ وإذا تجمدت في مكانٍ آخر يَفْقِد ذاكِرَتَهُ ولا يعْرِف أوْلاده ، وفي مكانٍ ثالث يفْقِد سَمْعَهُ وبصَرَهُ ، فالإنسان لا يمْلِك شيئاً ، قال تعالى :

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران : ٢٦] .

فهذا عبْد القَهْر فمن هو عبْد الشكر ؟ هو الذي عرف الله ابْتِداءً ، وعرف منهجَهُ اكْتِساباً ، وأقْبل عليه شَوْقاً ، وخضع لأمره عبوديةً ، فهذا عبْد الشكر ، وعبد الشكر يُجمع على عِباد ، قال تعالى :

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان : ٦٣] .

أما عبد القهر فيُجمع على عبيد ، قال تعالى : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ فصلت : ٤٦] .

فالعِباد شيء والعبيد شيء آخر ، والدِّين بِكَسر الدال العِبادة ويعني الخُضوع والطاعة ، والدِّين الطاعة والحِساب ، قال تعالى :

﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ [الغاشية : ٢٥-٢٦] .

من الذي يُحاسَب ؟ المقْهور ، أما القاهِر فلا يُحاسَب ؛ المُوظَّف إذا فرغ صنْدوقُهُ يُحاسب لأنّهُ مقْهور ، ولِماذا الصندوق مكْشوف ؛ يُحاسب ويوضَعُ في السِّجن ، فالذي يُحاسَب مقْهورٌ دائِماً ، فالدِّين الطاعة والحِساب والقَهْر ، والدِّين الغَلَبَة والاسْتِعْلاء ، والدِّين المِلَّة والمذهب ، تقول : فلانٌ دينُهُ الإسلام ؛ هذا ما ورد في معاجِم اللغة حوْل كلمة الدِّين ؛ الجزاء والمُكافَأة والعِبادة والطاعة والحِساب والقَهْر والغَلَبَة والاسْتِعْلاء والمِلَّة ، أما الدَّيان فَهُو اسمٌ من أسْماء الله

الحُسنى ، وقيل : هو القهار والحافِظ وهو القاضي :

إذا جـار الأميـر وحـاجِبـاهُ وقاضي الأرض أَسْرَفَ في القضاء
فـوَيْـلٌ ثـم وَيْـلٌ ثـمّ ويْـلٌ لقاضي الأرض من قاضي السماء

قال تعالى : ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج : ١٢] .

الإنسان حينما يتوَهَّم أنَّهُ طليق وأنَّهُ يفْعل ما يريد ، ففي ثانِيَةٍ واحدة تجده في قبْضَة الله .

الدَّيان صيغَة مُبالَغَة على وزْن فَعَّال وصيغة المُبالَغَة إذا اقْتَرَنَت باسمٍ من أسْماء الله الحُسنى لها معنى خاص ، وصِيَغُ المبالغة في أسماء الله عز وجل لا تعْني الذي نحن نعْنيه ؛ تقول : بالغ فلان أيْ يعُطي الأشياء حجْما زائِداً ، وفلان يزيد على الحقيقة أشْياء كثيرة ، أما المُبالَغَة في حقِّ الله عز وجلّ فهي التَّعْظيم ؛ فهي التَّعْظيم الكمي والتعْظيم النَّوْعي .

فالدَّيَان على وزْن فعَّال شدَّاد قهَّار وغفَّار ، ومعْنى الدَّيان الدقيق : الذي لا يُضَيِّعُ عمَلاً ، بل يجْزي عليه بِالخير أو الشَّر ، وقد ورد في الأثر :

« أنَّه ما أحْسن من مُسلمٍ أو كافر إلا وقع أجْرُهُ على الله في الدُّنْيا أم في الآخرة » .

فَأَيُّ عمَلٍ له جزاء ولو كان ابْتِغاء الدنيا فلَهُ جزاء في الدنيا ؛ أيُّ عمَلٍ على الإطْلاقِ ، صالِحاً كان أم طالِحاً ، صغيراً أو كبيراً ، لو أنَّ الإنسان ترفَّق بِنَمْلِةٍ وهو يتوَضَّأ فَنَجاها من الغرق فهذا العمل له جزاؤُهُ ، ولو رأى قَشَّةً في المسْجد فَحَمَلها ووضَعَها في جَيْبِهِ فهذا العَمَل له جزاؤُهُ ، ولو أنَّهُ قبّل ابنه فهذا العمل له جزاؤه ، الدَّيان هو

الذي لا يُضَيِّعُ عملاً ، قال تعالى : ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾[محمد : ٣٥] .

البِرّ لا يبْلى ، والذَّنْب لا يُنسى ، والدَّيان لا يموت ، اِعمَل ما شِئت كما تدين تُدان ، كنت مرَّةً مع أحد الأصْدِقاء فارْتَكَبَ حادِث سَيْر ، خلاصته أنه رجع إلى الوراء دون أنْ ينتَبه وكانت وراءه سيارة فَدَخَل في مؤَخَّرَتِها ، وكسر مصابيحَها ، وأتْلَف بعض أجْزائِها ، فَنَزَلَ صاحِب السيارة التي ضُرِبَت فَنَظَر إليه ثم قال : أنا أُسامِحُك فاذْهب وشأنَكَ مع السلامة ؛ لم أفهَم أنا سرّ ما جرى ! فإذا بي أرى مِن صديقي دمْعَةً تنْحَدِر على خَدَّيْه ، فقلت : لعله رجُلٌ مَيْسور الحال سامحك ، هلاً وفَّرْت على جيبك ألْف ليرة أو ألْفَيْن ؟ فقال : ليس الأمر كذلك ، بل إنني قبل عامَيْن كنت في بلَدٍ مُجاوِر فصدمتْ مرْكَبَةٌ سيارَتي وأصابَتْها بِالعَطَب ، وكان صاحِب المرْكبة الصادمة رجُلٌ ديِّن ومعه زوْجَتُهُ مُحَجَّبة ، وكذا بناتُهُ ، فما أردْت أنْ أُفْسِد عليهم نُزْهَتَهُم فقُلْت له : انطَلِق مع السلامة فأنا أُسامِحُك . فذاك العمل لم يضِع ثوابه بل بعد عامَيْن جنيت ثواب ما قدمت ، وهو ما رأيتَه الآن ! وعلى هذا فَقِسْ .

البِرّ لا يبْلى ، والذَّنْب لا يُنسى ، والدَّيان لا يموت ، اعْمل ما شِئت كما تدين تُدان ، وما أكْرَمَ شابٌ شَيْخاً لِسِنِّهِ إلا سَخَّر الله له من يُكْرِمُهُ عند سِنِّه ، فهذا شابٌ وقف بِمَرْكَبَةٍ عامة لِشَيْخٍ كبير قد تدور الأيام ويَمْضي على هذا الحادِث خَمْسون عاماً ، ولا بد من أنْ يَقِفَ يوماً شابٌ بِغايَة الأدب لِهذا الشَّيْخ الذي كان شاباً ويُقَدِّم له آيات التَّبْجيل والاحْتِرام ؛ بل إنَّ القَرْض يُؤَدى أضعافاً ، وما قَوْلُكم إنَّ الله سُبْحانه وتعالى وَصَف كلَّ عَمَلٍ صالِحٍ على الإطْلاق تجاه أيّ مَخلوقٍ

كائناً مَن كان بأنَّهُ إقراضٌ لله عز وجل قال تعالى :

﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة : ٢٤٥] .

حدَّثني أخٌ أنهُ جَهِد في إنْقاذ حياةِ هِرَّةٍ من المَوْت ، وفي اليوم التالي كاد ابْنُهُ أنْ يسْقُط تحت مَرْكَبةٍ وتَشْطُرهُ شَطْرَين ، لكِنَّ إنْساناً اندفع من مَحَلٍّ تِجاري قريب فأمسك ابنه وأنْقذه من الحادِث ، البِرّ لا يبْلى ، والذَّنْب لا يُنسى ، والدَّيان لا يموت ، اِعْمل ما شِئت كما تدين تُدان ، حتى قوْله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [فصلت : ٤٠] .

﴿ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ﴾ هو فعل أمرٌ يُفيد التَّهْديد فكُلُّ شيءٍ له ثمَن ، وكُلُّ عمَلٍ له جزاء ، إنَّ لِكُلِّ حَسَنَةٍ ثواباً ولِكُلِّ سيِّئةٍ عِقاباً ، وما من عَثْرَةٍ ولا اختِلاجِ عِرْقٍ ولا خدْشِ عودٍ إلا بِما قدَّمت أيْديكم وما يَعْفو الله عنه أكثر ، قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى : ٣٠] .

لكنَّنا نرى حوادِث كثيرة مُتَفَرِّقة لا نعْلم خلْفِياتِها ومُقَدِّماتِها ، ولا نعْلم الفُصول الأولى من هذه القِصَّة ، وقد تنْتهي هذه القِصَّة بِحادِث مُؤلم وبِمُصابٍ كبير أو بإتْلاف مالٍ ، وقد تنْتَهي بِتَدْمير إنسان ، ولكن لو أنَّ لك نَفَساً طويلاً ومُتابَعَةً دقيقةً ؛ وتَقَصَّيْتَ أحْوال ما يُصيب الناس ، لَوَجَدْت العجب العُجاب ، وَلَوَجَدْتَ يد الله تعْمل في الخَفاء ، وَلَوَجَدْت يد الله فوق أيْديهم قال تعالى :

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ

﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال : ١٧] .

قال العلماء : « الدَّيان في صِفَة الله عز وجل هو : المُجازي ، والذي لا يُضَيِّع عمَلاً ، بل يَجْزي بالخير والشرّ » ، وقيل : « هو فَعَّال ، من الفعل دان : دانَ الناس يدينهم أيْ قَهَرَهم على الطاعة » ، وهذا القَهْر قَهْرٌ تَرْبَوي ، فلو افتَرَضْنا : ابن مُشاكِس وأبٌ حازِم وهذا الأب حمَلَ ابنه على الدِّراسة إلى أنْ صار إنْساناً ذا مَكَانة مَرْموقَة في المُجْتَمَع ، والأب من رحمته الشديدة حمل ابنه على طاعته ، فهذا الحَمْل مُؤَداهُ إلى الخير ، عِنْدَئِذٍ ينْقلب الشعور بِالقهْر إلى شُعورٍ بالرِّضا والامْتِنان .

دِنْتُهُم فَدانوا ؛ أخْضَعْتُهم فَخَضَعوا ، وقد روي في الحديث الشريف .

عَنْ أَبِي يَعْلَى شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا ، ثُمَّ تَمَنَّى عَلَى اللهِ » [رواه ابن ماجه والترمذي] .

دان نفْسَهُ أيْ ضَبَطَها وأخْضَعَها ، وألْزَمَها كلمة التقْوى ، وحمَلَها على طاعة الله وجعلها مُسْتَقيمَةً .

العاجز يقول لك : نسْأل الله تعالى أنْ يرْحَمَنا وأنْ يَغْفِر لنا ونحن مُقصِّرون ، ونحن عبيد إحْسان ولسْنا عبيد امْتِحان ، ولا تَسَعُنا إلا رحْمة الله عز وجل ؛ يقول هذا وهو كلامٌ حق لكن يُراد به الباطِل ؛ فهو لا يخاف الله ، ولا يَنْزَجر ولا يأْتَمر بِما أمر الله ، ولا يحْمِل نفْسَه على طاعة الله ولا يَحْرِص على رِضْوانِه ، وهو يُطْلق لشهواتِهِ العِنان ويُرْخي لِنَفْسِه الحَبْل ، وهذا هو العاجِز الذي أتْبَعَ نفْسَه هواها وتمنى

على الله الأماني ، الكَيِّس من دان نفْسَه ، والقِصَّة المعْروفة .

السَّمَكاتُ الثلاث التي رآها أحدُ الصيادَيْن ، فقد توَعَّد أنْ يرْجِع مع صديقِه لِيَصْطاد هذه السَّمَكات ، فَسَمِعت السمكات قَوْلَهُما ، قال كاتب القصة : إحدى هذه السمكات كيِّسَة ، والثانية أكْيَسُ منها ، والثالثة عاجِزة ، أما أكْيَسُهُنّ فإنها ارْتابَتْ وتخَوَّفَتْ وقالت : العاقِل يَحْتاط للأمور قبل وُقوعِها ، ثمّ إنها لم تُعَرِّج على شيءٍ حتى خَرَجَت من المكان الذي يدْخل منه الماء من النهْر إلى الغَدير ، فَنَجَتْ . وأما الكيِّسَة الأقل عقْلاً وذكاءً فَبَقِيَت في مكانِها حتى عاد الصيادان ، فذَهَبتْ لِتَخرج من حيث خرجَت صديقَتُها فإذا بالمَكان قد سُدَّ ، فقالت : فَرَّطْت وهذه عاقِبَة التفْريط ، غير أنّ العاقل لا يقْنَط من منافع الرأي ، ثم إنها تماوَتَت فَطَفَتْ على وَجه الماء فأخذها الصياد ووضَعها على الأرض بين النهر والغدير ريثما ينتهي فيأخذها ، فَوَثَبَت في النهر فَنَجَتْ . وأما العاجِزة فَلَمْ تزَل في إقْبالٍ وإدْبار حتى صيدَتْ . وهذه السَّمَكات الثلاث تُمَثِّل ثلاثة نماذِج بشَرِيَّة ؛ إنسان يحتاط للأمور قبل وُقوعِها ، وإنسانٌ يحْتاط لها حين وُقوعِها وإنسانٌ لا يَحْتاط لها لا قبل وُقوعِها ، ولا حين وُقوعِها ، ولا بعد وُقوعِها .

قال تعالى :

﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف : ٢٨] .

روي عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ حَدَّثَهُمْ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَضَى بَيْنَ

رَجُلَيْنِ ، فَقَالَ الْمَقْضِيُّ عَلَيْهِ لَمَّا أَدْبَرَ : حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « رُدُّوا عَلَيَّ الرَّجُلَ » ، فَقَالَ : « مَا قُلْتَ ؟ » قَالَ : قُلْتُ : حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « إِنَّ اللهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ ، فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ : حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » [رواه أحمد] .

« إِنَّ اللهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ » ، الخُنوع والاسْتِسْلام والضَّعْف وعدم السَّعْي وعدم التدْبير ، وهذا النَّمط الكسول والمُسْتَسْلِم والمُسْتَخْذي ، هذا النمط يلوم الله عليه : « إِنَّ اللهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ ، فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ : حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » .

لو أنَّ إنساناً أُصيب بِمَرضٍ شديد جداً قبل الامْتِحان فماذاً يفْعل ؟ هذا قدَر الله عز وجلّ ، ولا تقُل حسْبيَ الله ونِعْم الوكيل إلا إذا غُلِبْت على أمْرك ؛ على الإنسان أنْ يسْعى وليس عليه إدْراك النَّجاح . واللهِ هذا الحديث وحْدَهُ لو فَهِمَهُ المُسْلِمون في شتى أقْطارِهم ولو فهِموا أبْعادهُ لَكانوا في حالٍ غير هذا الحال ، وينْتَفي عندئذٍ عنهم الكَسَل والتَّواكُل والاسْتِسْلام والانْهِزام والخُنوع والخُضوع ؛ ليس بِيَدك من الأمر شيءٌ ، وإنما بِيَد الله كلُّ شيءٍ ، فإذا كنت مع الله كان الله معك ، وإذا اسْتَعَنْتَ به أعانك ، وإن اسْتَنْصَرْتَهُ نصَرك ، وإنْ اسْتَهْدَيْتَهُ هداك ، وإن اسْتَرْشَدْتَهُ أرشَدَك ، وإنْ اسْتَلْهَمْتَهُ ألْهَمَك :

أوحى الله تعالى إلى داود : ما من عبد يعتصم بي دون خلقي ، أعرف ذلك من نيته ، فتكيده السموات بمن فيها ، إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً ، وما من عبد يعتصم بمخلوق دوني ، أعرف ذلك من نيته ، إلا قطعت أسباب السماء بين يديه ، وأهويت الأرض من

تحت قدميه ، وما من عبد يطيعني إلا وأنا معطيه قبل أن يسألني ، وغافر له قبل أن يستغفرني .

لذلك قالوا : إذا كان الله معك فَمَن عليك ؟ وإذا كان الله عليك فمن معك ؟! .

« الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ » ، أكثر الناس الآن يعيشون وقْتَهُم ولحظَتَهم ويوْمَهُم وساعَتَهم ويُعْطون أنفُسَهُم ما تشْتَهي ، أما الغد فلا يُفَكِّرون فيه إطْلاقاً ؛ فمِن علامات العاقل الفذ أنَّهُ يعيش الغد ، ومِن علامات الأقلّ عَقْلاً أنَّهُ يعيش الحاضِر ، ومن علامات الجاهِل أنَّهُ يتغَنى بِالماضي كما قال بعض شعراء بكر بن وائل :

ألْهى بني تغْلِبٍ عن كلِّ مكْرُمَةٍ   قصيدةٌ قالها عمرو بن كلثوم

فالجاهِل يتغَنى بِالماضي والأقل عقلاً يعيش لحْظَتَهُ ، والعاقِل جداً يعيش المُسْتَقْبل .

لذلك هناك من يُخَطِّط لِمُسْتَقْبَلِهِ ، وهناك من تكون حياتُهُ رُدود فِعْلٍ دائِماً ، يكون الفِعْل من خَصْمِهِ ويُفْرَض عليه مكان وزمان الفِعْل ، ومُهِمَّتُهُ ردّ الفِعل ؛ فهو إنسانٌ ضعيف لا يُخَطِّط للمُسْتَقْبل ، أما المؤمن فإنه يعيش المُسْتَقْبل وساعةَ فِراق الدنيا ، وهذه الساعة التي يغْفَل عنها الناس ، قال تعالى :

﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ [ق : ٢٢] .

أما الصالحون فقد قال أحدهم : والله لو كُشِفَ الغِطاء ما ازْدَدت يقيناً .

فالمؤمن يعيش المُسْتَقْبل والمصير ، وهذه الساعة التي لابد منها ما نجا منها أحدٌ ، لا نبيّ ولا ملِك ولا غنيّ ولا قويّ ولا ضعيف ولا صحيح ولا مريض ولا عاجز ولا وسيم ولا دميم. . . فالمؤمن يستعد لساعة المَوْت بِالعَمَل الصالح ؛ بإنفاق عِلْمِه ومالِهِ ووقْتِهِ وعضلاتِهِ وخِبْراتِه وطاقاتِهِ وبِكُل ما يمْلك ؛ يسْتَعِدّ لِهذه اللحْظة كي يكون القبر رَوْضَةً من رياض الجنّة ، فإن لم يسْتَعِدّ للقبر أصْبح القبر حُفْرَةً من حُفر النار ، قال تعالى :

﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر : ٤٦] .

حديث ابن عمر : « اللهم دِنْهُم كما يدينوننا » ، أيْ اجْزِهِم بِما يُعاملون به مَن قِبَلَهم ، طبْعاً كلمة : مالك يوم الدين كلمة كبيرة جداً ، فَيَوْم الدين يومُ الدَّيْنونَة وأسْماء الله الحُسنى كلُّها مُحَقَّقة في الدنيا . أما اسم العدل فيُحَقَّق في الدنيا ويبْدو أشَدّ جلاءً في الآخرة ؛ هناك تَسْوِيَة حِسابات ، وهناك غنيٌّ وفقير ، وهناك مُسْتَغِلّ ومُسْتَغَلّ ؛ ومُخْتالٌ ونصاب وطاغِيَة ، وظالِم ومظلوم ، وهناك من يغْتَصِب أمْوال الناس ، وهناك من يغْتَصِب أعْراضهم ؛ ويَحْتال عليهم بِذَكائِهِ أو بِقُوَّتِهِ ؛ والمُؤدَّى واحد إما احْتِيالاً أوْ قَهْراً ؛ فهذا الذي أخذ ما ليس له متى سَيُحاسَب ؟ .

سَمِعْتُ مرَّةً من أحد الدعاة مثلاً أعْجَبَني ؛ لو أنَّ أحداً كان في مَسْرَحِيَّة ـ ليس هذا من باب الإقْرار ـ ثمَّ أُرْخِيَ السِّتار قبل انتهاء فصولها لا تجد أحداً قام من مكانه ، لِماذا ؟ لأنه ما انتهت المَسْرَحِيَّة فكُلّ بداية لها نِهاية ، وكُلّ مُقَدِّمة لها نتيجة ؛ وهذا الذي اغْتَصَب

وسرق أمْوال الناس بِالباطِل متى توزن له الأعمال ؟ إنها توزن يوم الدِّين ؛ حيث تُوفَّى كل نفس ما كسبت ، هذا اليوم إذا غَفَلْنا عنه فنحن أشْقى الأَشْقِياء ، قال تعالى :

﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة : ٤] .

هناك سؤال وهو : أَلَيْسَ الله هو مالك الدنيا ؟ وهل معنى مالك يوم الدِّين أنَّهُ لا يمْلِك الدنيا ؟ الجواب : لا . فَهُو تعالى يمْلِك الدنيا والدين والآخرة ، لكن في الدنيا تجدُ من يَدَّعي أنَّه مالِكُها ، فَهُناك من يدَّعي أنَّ الأمر بِيَد فلان ، وأساساً مُعْظم الذين وقَعوا في الشِّرك الخَفيّ يَرَوْن الناس ولا يرَوْن الله عز وجل ، ويرَوْن أنَّ الأَقْوِياء بِيَدِهم الحلّ والعَقْد والعطاء والمَنْع والإعْزاز والإذْلال ، وبِيَدِهم الحياة والموت فيما يبْدو لهم ، وهناك مَن يدَّعي أنَّ الأمر بِيَده في الحياة الدنيا وهو المُشْرك ، لكن في الآخرة لا يسْتطيع أحَدٌ أنْ يدَّعي أنَّ الأمر بِيَدِه ، هناك آيةٌ تُشْبِهُ هذه الآية قال تعالى :

﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾ [الشورى : ٥٣] .

بِحَسَب الظاهر ، إن الأمور صارتْ إلى الله ؛ فَبِيَدِ من كانت ؟ كانت بِيَد الله أيضاً ، فما معنى هذه الآية إذاً ؟ في الدنيا الأمر بِيَد الله وحْده وليس لأحد من الأمر شيء ، إلا أنَّ هناك في الدنيا مَن يدَّعي من الناس أنَّ الأمر بِيَدِه . أما في الآخرة فيبْدو الأمر جَلِياً أنَّهُ بِيَد الله عز وجل ، ولا أحد يستطيع أن يدَّعي أنَّ الأمر بِيَدِهِ فَهِي قضِيَّةٌ نِسْبِيَّة .

إذاً مالك يوم الدِّين يومٌ لا يمْلِكُهُ أحدٌ . أما في الدنيا فقد تجد إنساناً قُتِل وآخر قُهِر وذاك أُخذ مالُهُ والقوِيُّ هو الذي أخذ ماله ؛أو

قتل أو قهر إلخ ، والقوي هو الذي قهره . . . هناك في الدنيا قد تجد من يدَّعي أنَّ الأمر بِيَدِه ، أما في الآخرة فلا يستطيع أحدٌ أنْ يدَّعي أنَّ الأمر بِيَدِه ، فهو مالك يوم الدين ، وهناك قِراءة مَلِكِ يوم الدِّين فالمالك هو الذي يمْلك ولا يَحْكم ، والمَلِك هو الذي يحْكُم ولا يمْلك ، والله مَلِكٌ ومالِك يَمْلِك ويحْكُم ، أنت أحْياناً تنتفع بشيء ولا تمْلكُ رقَبَتَهُ ، وقد تمْلِكُ رقبَتَهُ ولا تنْتَفِع به ، والشيءُ الثالث أنَّك قد تمْلِكُهُ وتنْتَفِعُ به ولا تمْلِكُ مصيرهُ ، لكنَّ الله سبحانه وتعالى مالك يوم الدين وملك يوم الدين ، ويمْلِك كلَّ شيءٍ خلْقاً وتَصَرُّفاً ومصيراً .

وهذا ابن عباس رضي الله عنهما يفسِّر معنى قول الله عز وجل ﴿ مَـٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ فيقول : لا يملك أحد في ذلك اليوم شيئاً كَمُلْكِهِم في الدنيا ، حيث كانوا يضعون أيديهم على الكثير ويمتلكونه ، ويوم الدين يوم الحِساب للخلائق ، وهو يوم الآخرة ، يدينُهُم بِأعْمالِهم ، إنْ خيراً فَخَيْرٌ وإنْ شراً فشَرٌّ إلا من عفا الله عنه .

العلماء يقولون : « **تخصيص المُلك بِيَوم الدين لا ينْفي ما عداه** » ، وهذه نُقْطة دقيقة جداً فإذا قلْنا : الله مالك يوم الدّين لا يعْني أنَّهُ لا يَمْلِك الدنيا ، لكن في هذا اليوْم يتَّضِح لكل إنْسان أنَّهُ تعالى مالك يوم الدين ، أما في الدنيا فيتَّضِح للمؤمنين فقط أنَّ الله مالك الدنيا ، فما الفرق بين المؤمن والمُشْرِك ؟ المؤمن يرى أنَّ الله وحْده هو الفَعَّال وحده ، ولكن المُشْرِك يرى أنَّ آلِهَةً كثيرةً تفْعل ما تريد .

أَيُّما أبْلَغ : أن تقول مالك أم ملك ؟ قال بعْضُهُم : إنَّ مالِك أبْلغ في مدْح الخالق من ملِك ، وملِك أبْلَغُ في مدْح المخلوقين من مالِك ، فالملِك لا يمْلك لكنَّه يحْكم ، فهو لا يمْلك سمْعه ولا بصره

ولا دِماغَهُ ولا شرايينه ولا دمه ولا قلْبه ولا أمْعاءه ، فهو لا يمْلك شيئاً لكنَّهُ يحْكم ، فإذا أردْت أنْ تمْدح إنْساناً فقُل له : ملِك ، أماْ إنْ أردت أنْ تثني على الله عز وجل فهو تعالى المالك ، قال تعالى : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ .

لذلك الأبْلَغُ في الثناء على الله عز وجل أنْ تقول : مالك يوم الدِّين ، والأبْلغ في مدْح الإنسان أن تقول ملِك ، في الحديث الشريف عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم : يأخذ الجبار سماواته وأرضه بيده وقبض يده وجعل يقبضها ويبسطها ثم يقول : « أنا الجبار أنا الملك أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ » قال : ويميل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن يمينه وعن شماله حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه حتى إني لأقول : أساقط هو برسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

كان في الأندلس ملِك شهير جداً ، كان ملِكاً على أكبر مُقاطعة في إسْبانيا ، اسمُهُ ابن عبَّاد وكان ذا عِزٍّ وشأنٍ وسُلطان ، وكان ذات يوم يتمشى في حديقة قصْره فرأى بِرْكَة ماءٍ وقد أثَّرت فيها الرِّيح فَشَكَّلت خُطوطاً مُتعارِضَة وكأنَّها زَرَد (كأنها حديد مزرود) ، فقال هذا الملك وكان شاعِراً : نسَجَ الرِّيح على الماء زرد ، فلَما أراد أنْ يُتَمِّمَ البيت ما اسْتطاع ، وتعَثَّرَتْ به شاعِرِيَّتُهُ ، وكانت وراءهُ جارِيَة فقالت له :

نسج الرِّيح على الماء زرَد   أي دِرْع لقتال لو جمَد

فَأُعْجِب بها وتَزَوَّجَها وأَكْرمها أيَّما إكرام ، فقد صارت زوْجة

ملِك ، واشْتَهَت يوْماً أنْ تعيش حياة الجواري كما كانت قبل أن يتزوجها الملك ، وأنْ تدوس في الطِّين فجاء لها بِمِسْكٍ وكافور ومزَجَهُما بِماء الوَرْد ، وجعل من المِسْك والورد طيناً ، وقال هذا هو الطِّين فَدوسي فيه ، ثمَّ جاء مِلِك من مُلوك إفْريقية اسْمه ابن تاشفين وغزا إسْبانيا ووضَع كلَّ ملوك دويلات إسبانيا العربية في السِّجن (مُلوك دُوَل الطوائف) ، والتاريخ يرْوي هذه القِصَّة فهذا الملِك صار سجيناً وصار فقيراً ومُعَذَباً ، وشَكَتْ بناتُهُ الجوع ، وزوْجَتُهُ العري ، وضاقَتْ به هذه الجارِيَة ذرعاً إلى أنْ صارَت تقسو عليه ، وقالت له مرَّةً : ما رأَيتُ منك خيراً قطّ ، فقال لها : ولا يوْم الطِّين ؟! فاسْتَحْيَتْ وسكَتَتْ .

لِهذا في بعض الأحاديث أنَّ النِّسْوة اللاتي رآهن أكثر أهل النار هن من يَكْفُرْنَ العشير إذا أحْسَنْتَ إلى إحْداهُنَّ الدهْر كُلّه ثم رأَتْ منك شيئاً قالت : لم أرَ منك خيراً قطّ ؛ وإنْ قُلْتَ لها كلِمة قاسِيَة فلن تنْسها إلى الأبد ، أما كلُّ الإكْرام فإنها تنْساه ، أجل تنساه المرْأة التي ما عرَفَتْ ربَّها ، وأَيُّما امْرأةٍ لا تشْكر لِزَوْجِها ـ وهي لا تسْتَغْني عنه ـ لم ترِحْ رائِحة الجنَّة .

عَنْ ثَوْبَانَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « **الْمُخْتَلِعَاتُ هُنَّ الْمُنَافِقَاتُ** » ، وَرُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « **أَيُّمَا امْرَأَةٍ اخْتَلَعَتْ مِنْ زَوْجِهَا مِنْ غَيْرِ بَأْسٍ ، لَمْ تَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ** » [سنن الترمذي] .

وروي أن النبي عليه الصلاة والسلام قال :

« **إني لأبغض المرْأة تخرج من بيْتها تجر ذيلها تشكو زوجها** » .
ومن صِفات المرْأة المؤمنة أنَّها سِتِّيرة .

ورد في الأثر القدسي :

« أنا الله لا إله إلا أنا مالك الملوك وملك الملوك قلوب الملوك بيدي ، وإن العباد إذا أطاعوني حولت قلوب ملوكهم عليهم بالرأفة والرحمة ، وإن العباد إذا عصوني حولت قلوبهم عليهم بالسخط والنقمة فساموهم سوء العذاب ، فلا تشغلوا أنفسكم بالدعاء على الملوك ، ولكن اشغلوا أنفسكم بالذكر والتضرع ، أكفكم ملوككم » .

وفي القرآن الكريم قال تعالى :

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٤٧] .

فالإنسان يوصَف بِأَنَّهُ ملِك وفي الحديث قال ﷺ :

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الأَنْصَارِيِّ قَالَ : سَمِعْتُ أَنَساً رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ : دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى ابْنَةِ مِلْحَانَ فَاتَّكَأَ عِنْدَهَا ثُمَّ ضَحِكَ فَقَالَتْ : لِمَ تَضْحَكُ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ فَقَالَ : « نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي يَرْكَبُونَ الْبَحْرَ الأَخْضَرَ فِي سَبِيلِ اللهِ ، مَثَلُهُمْ مَثَلُ الْمُلُوكِ عَلَى الأَسِرَّةِ » فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللهِ ادْعُ اللهِ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ ، قَالَ : « اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا مِنْهُمْ » ثُمَّ عَادَ فَضَحِكَ فَقَالَتْ لَهُ : مِثْلَ أَوْ مِمَّ ذَلِكَ ؟ فَقَالَ لَهَا : « مِثْلَ ذَلِكَ » ، فَقَالَتِ : ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ ، قَالَ : « أَنْتِ مِنَ الأَوَّلِينَ وَلَسْتِ مِنَ الآخِرِينَ » . [صحيح البخاري] .

هناك سؤال وهو : كيف نقول مالك يوم الدِّين ويوم الدِّين لم يأتِ بعْد ؟ يُجيب الإمام القُرْطبي عن هذا السؤال فيقُول : اعْلم أنَّ مالك

اسم فاعل من ملِك ومن ملَكَ يَمْلِكُ ، واسم الفاعِل في كلام العرب قد يُضاف إلى ما بعْده بِمَعنى الفِعل المُستقبل ، ويكون عندهم هذا كلاماً سديداً ومَعْقولاً صحيحاً كَقَوْلِك : هذا ضارِبُ زيْدٍ غداً ، أيْ سَيَضْرِبُهُ غداً ، واللغة الدارجة كذلك تُشير إلى هذا المعنى .

إذاً إذا قُلْنا مالِك يوْم الدِّين ، أيْ الله جلّ جلاله حينما يأتي ذاك اليوم فلا مالِك سِواه ، وعلى كلٍّ إنَّ لِكُلِّ سيِّئَةٍ عِقاباً ، ولِكُلِّ حسنَةٍ ثواباً ، واعْملوا ما شِئتم فالبِرُّ لا يبْلى والذَّنبُ لا يُنْسى والدَّيانُ لا يموت ، اِعْمل ما شِئت كما تدينُ تُدان ، والدَّيان هو الذي لا يُضَيِّع على مخْلوقٍ عملَهُ .

لي صديق يُقيم بِبَلَدٍ عربي له قريبٌ حالُهُ وسَط من حيث التَدَيُّن والأخلاق والاسْتِقامة ، وله أوْلاد أقَلُّ من الوَسَط من حيث البِرّ ، وهذا القريب أصيب بِمَرَضٍ قبل وفاتِه ، فَرَأى الناس من بِرّ أبْنائِهِ به الشيء الذي لا يُصَدَّق ، فلا هو يسْتَحِقّ هذا البِرّ ، ولا أولادُهُ في هذا المُسْتوى الراقي ؛ فمن الذي جعَلَهم يُقْبلون على خِدْمَتِهِ إقبالاً عظيماً ؟ فهو وسَطٌ في تدَيُّنِه واسْتِقامتِهِ وفي أُبُوَّتِهِ ، وأوْلادُهُ أقَلّ من الوسَط في أخْلاقِهم وتَدَيُّنِهم ، أما حينما مرِضَ مرَضاً عُضالاً فقد أقْبلوا على خِدْمَتِهِ إقْبالاً مُنْقَطِع النظير ، حتى أصْبَحَت خِدْمَتُهُم له مضرب المثل!.. فهذا الصديق بقِيَ أشْهُراً يُحَلِّل هذا الموضوع إذْ يصْعُبُ تفْسيرُه . فكان تفْسير هذا الخبر أنَّ هذا المريض كان باراً بِأبيه فبرّه أولاده ، البِرّ لا يبْلى والذنب لا يُنسى .

كلُّ عمَلٍ له جزاؤُهُ إنْ خيراً فخيرٌ ، وإنْ شراً فَشر ، الدَّيان هو الذي يدين خلْقه أيْ يُخْضِعُهُم أو يُجازيهم ويُكافِئهم أو يَحْمِلهم على

طاعَتِه أو يُحاسِبُهم ، فالله سُبحانه وتعالى هو المُحاسِب ، والشيء الدقيق أنَّ الله تعالى له أوامِر تَكْليفِيَّة وأوامر تَكْوِينِيَّة .

وهذا أخٌ كان له أُختٌ عانِس ويُبالِغ في إهانَتِها هو وزَوْجته ، وينفجر أمام أولادِهِ وزوْجَتِه عليها ويؤنبها ، وهذه الأخت صابرة ليس لها إلا هذا الأخ ، وفي إحدى الليالي كانت جالِسَة على الأرض وهو على كُرسي وزوْجَتُهُ إلى جَنْبِهِ ، فأراد أنْ يشْرب كأس ماء فَرَكَلَ أُخته برِجْلِه وقال : ائتِني بِكأس ماء ، وفي اليوم التالي سافر فوَقَعَ ضحية حادث فَقُطِعَتْ رِجْلُهُ التي ركل بها أخته من أعلى الفَخِذ ، فالله هو الدَّيان ، وهذا رجل آخر كان يقود مَرْكبة في الطريق ، فوَجَد كلْباً صغيراً يقْبَع على حافة الطريق ، ففَكَّر هذا السائِق أن يُجَرِّب براعَتَهُ في القيادة فقَطَع يدي الكلْب دون أنْ يقْتُلَهُ ، وأطْلق ضحْكَةً هستيرية ، أقْسَم لي رجل أعْرِفُهُ وهو عندي صادِق ـ وكان يرْكب مع هذا الإنسان ـ أنه في الأسبوع الثاني ، وفي اليوم نفسه من الأسبوع التالي انْفجرت معه عجلة السيارة فأَوْقَفَها على الطريق لِيُصْلِحها ، ورفع السيارة بِجِهاز الرَّفْع وفَكَّ العجلَة ، وفي أثناء فكِّ العجَلَة من مكانِها اخْتَلَّ جِهاز الرفْع ووقَعَتْ السيارة على يدَيْهِ عند الرّسغين ، وإلى أنْ وصَل إلى المُسْتشْفى اسْوَدَّت يداه فاضْطُرَّ الطبيب إلى قَطْعِهِما ؛ الله الدَّيان ، وهو الواحد الدَّيان ، والبِرُّ لا يبْلى ، والذَّنبُ لا يُنْسى ، والدَّيانُ لا يموت ، اعْمل ما شِئت كما تدينُ تُدان .

* * *

العَالِمُ

من أسماء الله الحُسنى العالم ، فالعالم اسمٌ من أسماء الله الحُسنى يُضمّ إلى الأسماء التِّسْعة والتِّسْعين التي وردت في حديث رسول الله ﷺ .

العالم من مادّة العِلْم ، والعِلْم إدْراك الشيء على ما هو عليه مع الدليل ؛ أكرِّر : إدْراك الشيء على ما هو عليه بالدليل . أو هو مَقولَةٌ مقْطوعٌ بِصِحَّتِها تُطابِق الواقع عليها دليل ، فَلَو لم يكن عليها دليل لكانت هذه المقولة تقْليداً ، ولو لم تُطابِق الواقع لكانت هذه المقولة جهْلاً ، ولو لم يكن مقْطوعاً بِصِحَّتِها لعُدَّت هذه المقولَةُ وهْماً أو شَكاً أو ظناً ، فالعِلْم ليس شكاً ولا ظناً ولا وهْماً ولكنَّه قطْعي ، والعِلم ما طابق الواقع وما كان عليه دليل ، وبِشَكْلٍ مُخْتَصَرٍ : إدراك الشيء على ما هو عليه بالدليل .

وإنني لا أُبالِغ إذاً قُلت : إنَّ من أخَصِّ مايخْتَصّ به الإنسان العِلْم ، وأكثر صِفات الإنسان مُشْتَركةٌ بينه وبين بقِيَّة المخْلوقات ، إلا أنَّهُ يتمَيَّز بِقُوَّةٍ إدْراكِيَّة ، وكَرَّمَهُ الله بِالعِلم ، وفي أثناء الحديث عن الكرامات يُعَدّ العِلم أعظم كرامة ينالُها الإنسان من الله عز وجل ، مع أنَّ هذه الكرامة ليس فيها خرْقٌ للعادات .

وبعد ، فإنَّ الله عالم يُحِبّ كُلّ عالم ، والناس رجلان : عالِمٌ ومُتَعَلِّم ولا خير فيمن سِواهُما ، كُن عالِماً أو مُتَعَلِّماً أو مُسْتَمِعاً أو مُحِباً ولا تكُن الخامِسَة فَتَهْلِك . فالعِلم إدْراك الشيء على ما هو عليه بدليل ، لو أنَّ الناس أدْركوا الحقائق على ما هي عليها ، لما اخْتَلَفوا ولما تحاربوا ولما تخاصَموا ولما عاشوا في شقاءٍ ما بعْده شقاء .

فالقضِيّة قضِيّة عِلْم بل إن الإنسان الكافر وهو في النار يتلوَّى من الحريق يُنادي ويقول :

﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الملك : ١٠] .

فالذي بينك وبين أهل الدنيا هو العِلم ، لِذلك إذا أَرَدْت الدنيا فعَلَيْك بِالعِلْم ، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعِلم ، وإذا أردْتهما معاً فعَلَيْك بالعِلم ، والعِلْم لا يُعْطيك بعْضَهُ إلا إذا أَعْطَيْتَهُ كُلَّك ، فإذا أعْطَيْتَهُ بعضك لم يُعْطِك شيئاً ، ويَظَلُّ المرء عالِماً ما طلب العِلم ، فإذا ظنّ أنَّه قد علِم فقد جهِل .

قال العلماء : العِلم عِلمان : إدراك ذات الشيء ، والحُكْمُ على الشيء ، تقول هذه طاوِلَة ؛فأنت تُدْرِك ذات الطاوِلة . أو تقول : هذه الطاوِلة مُتْقَنَةٌ فأنت بهذه العبارة أطلقت حكمك عليها ، إذاً : فإما أنْ تُدْرِك حقيقة الشيء وكُنْهَ الشيء وهوِيّته ، وإما أنْ تحْكُم على هذا الشيء فالعِلم عِلمان : إدراك الذات ، وإدْراك الصّفات .

والعِلم عِلمان أيضاً : عِلم نظري ، وعِلم عملي ؛ عِلم تَقْتَبِسُهُ بِإلْقاء السَّمْع أو إعْمال الفِكر أو قِراءة الكِتاب أو سماع المُحاضرة . وعِلْم تسْتَنْبِطه من الحركة والعمل ، فالعلم الذي تسْتنبِطه من الحركة والواقع العملي هو العِلم العملي ، والعِلم الذي تسْتقيهِ من الدروس

والكُتُب وإلْقاء المُحاضَرات هو العِلم النظري .

والعِلْم عِلمان مرة أخرى : عقْليٌّ وسَمْعي ؛ إما أنْ تصِل إليهِ بذاتِك وعن طريق التأمّل ، وإما أنْ تُصيخ السَّمع إلى غَيْرِك عن طريق التلقي ، فإما أنْ تُفكّر وإما أنْ تُصْغي ، قال تعالى :

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ .

تُفكّر ، وتتأمّل ، وتتدبّر ، أو تُصْغي ؛ تأْخُذُهُ جاهِزاً عن طريق السمْع وتَصْنَعُهُ أنت عن طريق العَقْل ، فَعِلْمٌ يُؤخذ عن طريق العقل ، وعِلمٌ يؤخذ عن طريق السمع ، وعِلْمٌ تتلقاهُ نظرِياً ، وعِلْمٌ تستَنْبطُهُ عملِياً ، وعِلم أساسُهُ إدْراك ذات الشيء ، وعِلمٌ أساسُهُ إدْراك صِفات الشيء .

وبِالمُناسَبة أقول : هناك قِيَمٌ كثيرة يتفاضل بِها الناس ؛ فالمال قيمَةٌ تفاضُلِيّة بين البشر ، والوَسامة والذكاء والقوة والوجاهَة والنَّسب فهذه كُلُّها قِيَمٌ تفاضُلِيّة ، ولكنَّ الله تعالى لم يَعْتَمِدْها في تنزيل الناس المنازل ،بل إنّ الله جلّ جلاله اعْتَمَدَ قيمة العِلم ، وهي التي رفع شأنها ، قال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر : ٩] .

وقال تعالى : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [المجادلة : ١١] .

وقيل : رُتْبَةُ العِلم أعْلى الرُّتَب ، والدليل أنَّ أقْوى إنسان فيما يبْدو لك في الأرض لا يستطيع أنْ يتَّخِذ قراراً إلا إذا سأل الخُبراء ؛ يُؤلِّف لجنة من كِبار العلماء في موضوعٍ ما ، ويطْرح عليهم سؤالاً فيُعْطونهُ خِيارات فيَخْتار من بين هذه الخيارات ، فَمَن الذي يَحْكم

العالم إذاً ؟ هم العلماء ؛ فالذي بِيَدِهِ إصْدار القرار يَحْتاج إلى خِبرة العالم .

وقد قال العلماء : « هناك فرْقٌ بين أن تُعْلِم وأنْ تُعَلِّم » ، فالإعْلام إلْقاء الفِكرة بِسُرعة . لكنْ علَّمْتُهُ : إلْقاء الفِكرة مع التَّكْرار ومع الإتْقان ومع التعْليم والتَّحْفيظ .

وقال بعضهم : التعليم تنْبيهُ النفوس لِتَصَوُّر المعاني ، أما التعلُّم فتنبُّهُ النفس لِتِلْك المعاني ، فالتَّنَبُّه الذاتي تعلّم ، والتنْبيه القسري تعليم ، وقد حلَّت نظريات التعلم مكان نظريات التعليم ، فالإنسان لا يتعلّم إلا إذا أراد أنْ يتعلَّم . وعُنْصر الاخْتِيار أساسي جداً في التعلّم ، لذلك بعض الجامِعات الآن تُعَلِّم الحقائق لا عن طريق التلْقين ، بل عن طريق البحث الذاتي ، والبحث العلمي ينمو في الجامِعات المتقدمة .

هذا الاسم العظيم اسم العالِم ورد في كِتاب الله عز وجل بِصِيَغٍ كثيرة ، قال تعالى :

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [الرحمن : ١-٢] .

أَيُعْقَل أنْ يُعلِّم الإنسانُ القرآن قبل أنْ يُخْلق ؟ قال بعْضهم : قُدِّم تعْليم القرآن على خلْق الإنسان تقْديماً رُتَبِياً لا تقْديماً زمنِياً بِمعنى أنّ الإنسان لا معنى لِوُجوده دون منهجٍ يسير عليه . فالإنسان الشارِد الضائِع الذي لا يعْلم هو دابّةٌ مُتَفَلِّتة ، وقيمة الإنسانِ بِالعِلم . دخل على مَجْلِس عمرِ بن عبد العزيز وُفودُ المُهَنِّئين ، وتَقَدَّمَهُم وفْد الحِجازِيِّين ، وتقَدَّم هذا الوفْدَ غلامٌ يافع لا تزيد سِنُّهُ على اثنَتَي عشْرة سنة ، فانْزَعَجَ الخليفة من هذا الغلام الذي يتَقَدَّم هذا الوفْد فقال :

أيها الغُلام اِجْلِس أنت ولْيَتَقَدَّم من هو أكْبرُ منك سِناً ، فقال هذا الغُلام : أصْلَح الله الأمير ؛ المرءُ بِأَصْغَرَيْهِ : قلبهِ ولِسانِه ، فإذا وهب الله العبْدَ لِساناً لافِظاً ، وقلْباً حافِظاً ، فقد اسْتَحَقَّ الكلام ، ولو أنَّ الأمر كما تقول لَكانَ في الأمة من هو أحقُّ منك بِهذا المجْلِس ، فَدُهِشَ الخليفة .

درواس بن حبيب وهو ابن ست عشرة سنة دخل على هشام بن عبد الملِك فانْزَعَج الخليفة وقال لِحاجِبه ، ما شاء أحدٌ أنْ يدْخل عليَّ إلاّ دخل ، حتى الصِّبْيان ؟! فقال هذا الصبيُّ الناشيء : أيها الأمير إنَّ دُخولي عليك لم يُنْقِص من قدْرِك شيئاً ولكِنَّهُ شرَّفني ، أصابَتْنا ثلاث سنين : سَنَةٌ أذابت الشَّحْم ، وسَنَةٌ أكلت اللحم ، وسَنَةٌ دقَّت العظم ، ومعكم فُضول مالٍ ، فإن كانت لكم فَتَصَدَّقوا بِها علَيْنا فإنَّ الله يجْزي المُتَصَدِّقين وإن كانت لنا فَعلام تحبسوها عنا ونحن أوْلى بِها ؟ وإنْ كانت لله فَنَحن عِبادُهُ ، فقال هشام بن عبد الملِك : والله ما ترك هذا الغلام لنا في واحِدَةٍ عُذْراً .

لِذلك قالوا : جمال الرجل فصاحَتُهُ ، وسيِّدنا عمر بن الخطاب عِمْلاق الإسلام والخليفة العظيم كهْف العدالة ، كان إذا مشى في الطريق من شِدَّة هَيْبَتِهِ تَفَرَّق الناس أمامهُ ، بل إنَّ الصِّغار إذا رأوْهُ تفرَّقوا ودخلوا إلى بُيوتِهم ، وذات مرّةً مشى في سكك المدينة ورأى غِلْماناً صِغاراً ، فلما رأوْهُ هربوا إلا واحِداً منهم بقِيَ رابِط الجأْش ، فلما وصَل إليه قال : يا غُلام لِمَ لم تهْرب مع من هرَبَ ؟ فقال : يا أميرالمؤمنين لسْتَ ظالِماً فأخْشى ظُلْمَك ، ولسْتُ مذْنِباً فأخْشى عِقابَك ، والطريق يَسَعُني ويَسَعُك ، فأعجب الخليفة بجرأته وحسن كلامه ، ثم إنّ الله عز وجل يقول :

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ١-٥] .

قال تعالى : ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ ﴾ ولِكرامةِ الإنسان على الله علَّمَهُ البيان (اللغة) ، والشيء الذي يأْلَفُهُ الناس لا يثير اهتمامهم لألفته لديهم ، ولا يوقظ فيهم حسَّ تعظيم الله الذي تكرم به عليهم . فأنت باللُّغة تتَّصِل مع كلِّ الناس ، فأنت صباحاً تستمع لِنَشْرة الأخبار وكلّ ما يجري في العالم فيتجمّع لدَيْك الكثير من المعلومات ، فمثلاً : هُنا سَقَطت طائرة وهنا مذبحة وهنا قامت حزبٌ أهْلِيَّة وهنا خُطِفت طائِرة وهنا عُقِد مؤتمر وهنا. . . ألَيْسَ كذلك ؟ بِهذه الأُذُن وبِهذا النُّطْق بِدقائِق معْدودات أحطت بالمعلومات كغيرك وفي بلاد متعددة ، فاللغة أداة اتِّصال بين أفراد النوْع ، ويُمْكن أنْ تُعَبِّر عن مشاعِرِك وعن أفْكارِك بِاللُّغة قال تعالى :

﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنعام : ٩١] .

لا زِلْنا في مادّة عَلِمَ والاسم هو العالِم ، قال تعالى :

﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٩] .

وقال تعالى :

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة : ٣١] .

فهذه كُلُّها أفْعال العِلم التي وردت في القرآن الكريم ، وسيِّدُنا

موسى لما التقى بالعبد الصالح استأذنه في مصاحبته ليتعلم منه على الرغم من نبوته وفضله ، قال تعالى :

﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ [الكهف : ٦٦] .

وقال تعالى :

﴿ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ .

ومن الجدير أن أذكر هذه الفِكرة : وهو أنَّ الله سبْحانه وتعالى له أسْماء كثيرة فَمِن أسْمائِه العليم وعلاَّم الغيوب ، ومن أَسْمائِه العالم ، ولِكرامَة الإنسان على الله أعْطاهُ قُوَّةً إدْراكِيَّة يُصْبِح بِها عالِماً ، ولقد بلغت كُشوفات الإنسان العلمية حدًّا يفوق الخيال .

فأنْشتاين هذا العالِم الفيزْيائي الذي اكْتَشَفَ ما يُسَمى بالنظريَّة النِّسْبيَّة ، وهي أنَّ الخطوط في الفراغ ليْسَت مُسْتقيمة لكِنَّها مُنْحَنِية ، وأنَّ كلَّ جسم يسير بِسُرْعة الضوء يُصْبِحُ ضوءاً ، والضوء كُتْلَتُهُ صِفر وحجْمُه لا نِهائي ، فأيُّ جِسْمٍ سار بِسُرعة الضوء صار ضوْءاً ، بل إنَّهُ إنْ سبَق الضوء تراجع الزمن ؛ إن سار الجِسم بِسُرعة الضوءِ صار ضَوْءاً وتوقَّفَ الزمن ، فإن قصّر عن الضَّوْء تراخى الزمن ، فَلو أمْكَنَك أنْ تنْطَلِق من مَوْقِع معركة اليرْموك مثلاً وأنْ تصْعَدَ إلى الفضاء الخارِجي بِسُرْعَةٍ أعْلى من سُرْعة الضَّوء بعد حين ترى المعْركة وهي تقع ، لأَنها حينما وقَعَت صدر عنها مَوْجات ضَوْئيَّة إلى الفضاء الخارِجي قبل ألف وأربعِمئة عام تقريباً ، فلو أنت سبقْتَ الضوْء لرَأَيْت هذه المعْركة كما هي وكأنَّها تقع الآن أمامك ، ولو سِرْتَ مع هذه المعركة لصارَت هذه المعركة أبَدِيَّةً وتوَقَّف الزمن ، ولو قصَّرْت عنها

لكانت رِحْلةٌ في الفضاء ساعة كألْفِ سنَةٍ على الأرض ، وهو بعض معاني قوْلِهِ تعالى :

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج : ٤٧] .

فإذا ركِبْتَ مرْكَبَةً فضائِيَّة وسِرتَ بِسُرْعَةٍ أقَلّ من الضوء قليلاً عندئذ تساوي الساعة في الفضاء الخارِجي مئة عام في الأرض ، فالله عز وجل سمَح لِهذا الإنسان أنْ يعْلم ، وإنَّ الله عالِمٌ يُحِبُّ العالِم ورُتْبَةُ العِلْم أعْلى الرُّتَب ، فَلِذلك حينما يُغْفِل الإنسان قيمة العِلم في حياتِهِ أو حين لا يعْتني بإدْراكِهِ ولا يعْتَني بالعِلْم ولا يطْلُبُهُ يَهْبِط عن مُسْتوى إنْسانِيَّتِهِ إلى مُسْتوى لا يليق بِه ، والشيء الدقيق أنَّ :

﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : ٧٦] .

يُرْوى قبل ستِّين عاماً فيما أذْكر أنَّ أحد شيوخ الأزهر قَدِم إلى الشام ، وشَيْخ الأزهر في مِصْر يُساوي مَرْتَبَةً علمية عالية ، وله أيضاً مرتبة إدارِية مرموقة في مستوى رئيس وزارة ، فَجَلَسَ في مجلس الشيخ بدْر الدين الحسني العالم المشهور بدمشق ، وكان يَمْلأ هذا الكرسي لأنّ مرْتَبَتَهُ العلمية العالية ، ومرتبته الإدارية تسمحان له بذلك ، فلما سَمِع عِلْم الشيخ بدْر الدين غَيَّر من جَلْسَتِهِ ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ .

وأحْياناً يكون الإنسان في مجلس لا يسْتطيع أحدٌ أنْ يرُدّ عليه فَيَتَكَلَّم بما يشاء ، فإذا اكْتَشَفَ أنّ في المجْلِس من هو أعْلم منه يسْكُت ولسان حاله يقول : سكَتُّ إجْلالاً لِعِلْمِك ، والإنسان من حِكْمَتِهِ البالِغة أنَّه إنْ كان في المجْلِس من هو أعْلم منه عليهِ أنْ يلْزم

الصمْت ، فإذا تكلّم في حضرة من هو أعلم منه فقد أساء الأدب ، ولكن الذي يعلم قد زانه أدب العلم ، فتراهُ يُصْغي للحديث بِسَمْعِهِ وبِقَلْبِهِ ولَعَلَّهُ أدْرى بِهِ .

من الآيات التي وردت فيها كلِمة العالِم قوله تعالى :﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ ، والنبي عليه الصلاة والسلام حدّثنا عما يقع في آخر الزمان وعن أحوال أهله فقال :

« **إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعاً ، وَهَوًى مُتَّبَعاً ، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً ، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ ، فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ ، وَدَعِ الْعَوَامَّ فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّاماً الصَّبْرُ فِيهِنَّ مِثْلُ الْقَبْضِ عَلَى الْجَمْرِ ، لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِكُمْ** » [رواه الترمذي] .

وإذا وُسِّدت الأمور لِغَيْر أهْلِها فانتَظِر الساعة ، وروي أن من علامات قيام الساعة أنْ يكون المطر قيْظاً ، والولَد غيْظاً ، ويفيض اللِّئام فيْضاً ، ويغيض الكِرام غيْضاً ، ومن علامات قيام الساعة أنْ يُصَدَّق الكاذِب ، ويُكَذَّب الصادِق ، وأنْ يؤْتَمَنَ الخائن ويُخَوَّن الأمين . أحاديث كثيرة نبَّأنا بِها النبي ﷺ قال :

« **صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلاتٌ مَائِلاتٌ رُؤوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ ، لا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلا يَجِدْنَ رِيحَهَا ، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا** » [رواه مسلم] .

كيف أنَّها كاسِيَة عارِيَة ؟ إما أنَّ ثِيابَها تشِفُّ عما تحتها فهي كاسِيَة فيما يبدو ، ولكِنها عارِيَة لما يشفُّ عمّا تحت ثيابها ، أو أنَّها ضَيِّقة

تصِف حجْمَ أعْضائِها فهي كاسِيَة عارِيَة ومائِلةٌ مُميلَة ، فالْعَنوهُنَّ لأنَّهن ملْعونات كما قال عليه الصلاة والسلام ؛ قال تعالى :

﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ [الجن : ٢٦] .

عن عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ : أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ : « يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ وَأَعُوذُ بِاللهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ ، لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلافِهِمِ الَّذِينَ مَضَوْا ، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمَؤونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ ، وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ وَلَوْلا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا ، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلا سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ ، فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ ، وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللهِ وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ إِلا جَعَلَ اللهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ » . [رواه ابن ماجه] .

أليس هذا الحديث من دلائل نُبُوَّة النبي عليه الصلاة والسلام ؟ فهذا الحديث من أروَعِ الأحاديث في دقة معانيه ووضوحها وما يشف عن غيب المستقبل ، وكأنَّ النبي عليه الصلاة والسلام معنا .

هذا الاسْم العالِم ورد كثيراً مع الغيب والشهادة فقد قال عز وجل : ﴿ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [الأنعام : ١٣] .

عالِم الغيب والشهادة فكُلّ ما هو واقع هو من عالم الشهادة ، وكلُّ ما لم يقع هو من عالَم الغيب . فالله سبحانه وتعالى عالم الغيب وعالِم الشهادة ؛ عالِم الغيب والشهادة فهُناكَ شيءُ يغيب عنك لِبُعْد مكانِه ، وهناك شيءٌ يغيب عنك لِبُعْد زمانِه ، فأنت الآن في الشام لا تدْري

ما هو الآن كائِنٌ في حلب ، وفي الساحة الفُلانِيَّة وفي المكان الفلاني لا تدْري ما يكون في حلب ؛ فهو من علم عالم الشهادة ولكنّه بعيدٌ عنك ، فالذي بيْنك وبيْنه مسافاتٌ طويلة هو من عالم الغيب غيب الحاضر ، فَهُناك غَيْب الماضي هو بُعْد زماني ، وغيْبُ المُسْتَقْبل بُعْد زماني ، ولكنّ غيْب الحاضِر بُعدٌ مكاني ، فالله سُبْحانه وتعالى عالِم الغيب والشهادة ، ومن هنا كان سيِّدنا رسول الله ﷺ إذا سافر دعا بِهذا الدعاء : « **اللهم! أنت الصاحب في السفر ، والخليفة في الأهل والمال** » ، هو معك لأنه عالِم الشهادة ، وهو مع أهْلِك لأنه عالم الغيب ، فإذا دعا الإنسان بِهذا الدعاء قبل أنْ يُسافر يُلْقي الله في قلْبِهِ الطُّمأنينة والسكينة ، لأنّ الله تعالى كما يقول :

﴿ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف : ٦٤] .

دخل مسلمة بن عبد الملك على عمر بن عبد العزيز في المرضة التي مات فيها فقال له ياأمير المؤمنين! إنك فطمت أفواه ولدك عن هذا المال وتركتهم عالةً ولا بد من شيء يصلحهم فلو أوصيت بهم إلي أو إلى نظرائك من أهل بيتك لكفيتك مئونتهم إن شاء الله ، فقال عمر : أجلسوني فأجلسوه ، فقال : الحمد لله ، أبالله تخوفني يا مسلمة ؟ أما ما ذكرت من أني فطمت أفواه ولدي عن هذا المال وتركتهم عالة فإني لم أمنعهم حقاً هو لهم ولم أعطهم حقاً هو لغيرهم ، وأما ما سألت من الوصاة إليك أو إلى نظرائك من أهل بيتي فإن وصيتي بهم إلى الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ، وإنما بنو عمر أحد رجلين : رجل اتقى الله فجعل الله من أمره يسراً ورزقه من حيث لا يحتسب ، ورجل غيَّر وفجر فلا يكون عمر أول من أعانه على ارتكابه ، ادعوا لي بني فدعوهم ، وهو يومئذ اثنا عشر

غلاماً فجعل يصعد بصره فيهم ويصوبه حتى اغرورقت عيناه بالدمع ، ثم قال : بنفسي فتية تركتهم ولا مال لهم ، يا بني! إني قد تركتكم من الله بخير إنكم لا تمرون على مسلم ولا معاهد إلا ولكم عليه حق واجب إن شاء الله ، يا بني! ميلت رأيي بين أن تفتقروا في الدنيا وبين أن يدخل أبوكم النار فكان أن تفتقروا إلى آخر الأبد خيراً من دخول أبيكم يوماً واحداً في النار قوموا يا بني عصمكم الله ورزقكم ، قالوا : فما احتاج أحد من أولاد عمر ولا افتقر .

وذكر أن أبا جعفر المنصور قال لعمرو بن عبيد عظني ، قال : بما رأيتُ ، أو بما سمعتُ ؟ فقال : بل بما رأيتَ ، فقال : توفي عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ وخلف أحد عشر ابناً ، وبلغت قيمة تركته سبعة عشر ديناراً ، فكفن بخمسة دنانير واشترى له موضع قبره بدينارين وأصاب كل واحد من أولاده ثمانية عشر قيراطاً ، ومات هشام بن عبد الملك وخلف أحد عشر ابناً فحصل لكل واحدٍ من ورثته مما خلفه عشرة آلاف دينار ، فرأيت رجلاً من أولاد عمر بن عبد العزيز قد حمل على مائة فرس في سبيل الله ، ورأيت رجلاً من أولاد هشام يسأل الناس .

بإمْكانِك أنْ تُسافِر وأنت مُطْمَئِنٌ إلى سلامة أهْلِك لأنَّك دعَوْت الله وهو الذي يعْلم الغَيْب والشهادة فيحْفَظهم في غَيْبَتِك ، قال تعالى :

﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة : ١٠٥] .

وقال تعالى : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [المائدة : ١١٦] .

أحد مصادر قوة المؤمن أنّ الله تعالى عالِم الغيب والشهادة ، فقد يُلْهِمُهُ أنْ يأْخذ الاحْتِياط من عدُوِّهِ لأنَّ الله يعْلم الغيب والشهادة ؛ يعْلم الشهادة التي يشْهَدُها المؤمن ويعْلم ما يغيب عن المؤمن ، مثلاً لو كان هناك فريقانِ ، وكلاهما يكيد للآخر ، وكلا أعضاء الفريقين لا يعلم ما يفْعل خصْمُهُ ، فإذا كان أحد الفريقَيْن مع الله ، فالله يعْلم ما يَفْعل أعْضاء الفريق الآخر ، فَيُلْهِم الأوّل أنْ يفْعل كذا وكذا لأنه عالم بتدبير خصمهم ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴾ [الحج : ٣٨] .

فإذا كنت مع الله فمن يسْتطيع أن يكون عليْك ؟ وإذا كان الله معك فَمَن عليْك ؟ لأن الله مع خصْمِك يَعْلَمُ سِرَّهُ ونَجْواه ويُلْهِمُك الصواب في كلِّ مَوْقِف وتأخذ لنفسك الحيطة وَتَحذر ، قال تعالى :

﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ﴾ [الرعد : ٩] .

الله جلّ جلاله هو العَلِيّ الأعلى الوهاب ، قال تعالى :

﴿ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [المؤمنون : ٩٢] .

وقال تعالى :

﴿ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ ﴾ [سبأ : ٢] .

فإذا تولى إنسانٌ أمْراً وغاب عن عِلْمِهِ فيجري على غير بصيرة ، فيُقال عنه : جاهِل وسَيَّبَ عملَهُ وضعيف الضبط وما اسْتطاع أنْ يضْبط أمورهُ ، أما الله سبحانه فَكُلُّ شيءٍ يدْخل إلى الأرض يعْلَمُهُ وكلُّ شيءٍ يخْرُجُ منها يعْلَمُهُ ولا تخفى عليه خافية ، وقال تعالى :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ : ٣] .

وقال تعالى :

﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٥٩] .

تصوَّر أنَّكَ تمْشي في بُسْتان أيام الخريف ؛ كم من ورقة تسْقط في الخريف ؟ إذا كان أرْبَعَةُ أخْماسِ الأشْجار أشْجارٌ مُتساقِطة الأوْراق ، فَكَم ورقَةً تسْقُط في الخريف ؟ عددها كبير جداً ، والصيغَةُ صيغة قصْرٍ . قال تعالى : ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾ فإذا كان يعْلم سُقوط كل ورقة ؛ ألا يعْلم ما يدور في ذِهْنِك ؟ وما تنْوي أنْ تفْعَل ؟ .

لِذلك. . . من الآيات التي تلْفِت النظر أنَّ الحجّ كلّهُ من أجْل أنْ تعْلم أنّ الله يعْلم أن المؤمنين سيملؤون جنبات هذا المكان المقدس ، ويكونون مصدر رزق لسكانه الذين سكنوه وهو غير ذي زرع ، والكَون كلُّهُ من أجْل أنْ تعْلم أنَّ الله يعْلم ، قال تعالى :

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق : ١٢] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ : ٣] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَـٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [فاطر : ٣٨] .

إن الله سبحانه يعلم ما تنطوي عليه النفْسُ البشريَّة ، وما تُكِنُّ وما تُسِرّ ، وما يَخْفى عليها وما تَخلم به وما يدْفعُها وبواعِثُها : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَـٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ . وهو سبحانه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء .

وفي الزمر قال تعالى : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَـٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴾ .

وفي سورة الحشر قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَـٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الحشر : ٢٢] .

وفي سورة الجمعة ، قال تعالى :

﴿ قُلۡ إِنَّ ٱلۡمَوۡتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنۡهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمۡۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [الجمعة : ٨] .

وفي سورة التغابن ، قال تعالى :

﴿ عَـٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [التغابن : ١٨] .

وفي سورة الجنّ ، قال تعالى :

﴿ عَـٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ [الجن : ٢٦] .

وقال تعالى :

﴿ ۞ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَـٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٥١] .

آياتٌ كثيرةٌ جداً وردَتْ فيها كلِمة عالِم ، وهناك علاّم وعليم ؛ علام الغيوب ، سميع عليم ، ويَبْدو أنّ أكثر الآيات التي وردت فيها

كلِمة العالِم وهو اسمٌ من أسماء الله الحُسْنى ورَدَت مُقْتَرِنة بِعالِم الغيب والشهادة ، أيْ أنَّ الغيب ما غاب عنك ، والشهادة ما تشْهَدُهُ ، فإذا وكَّلْتَ أمْرك إلى الله فهُو يُدافِعُ عنك فيما تشْهَدُهُ وفيما هو غائِبٌ عنك .

أمّا مُلَخَّصُ هذا البحث أو التطبيق العملي له فهو كما يلي :

راقِبْ نفْسَك ؛ فلو طرق بابك إنْسان كريم له هَيْبَة ومكانة وعالِم ووَقور ، ودخل إلى البيت فكيْفَ سَتَتَصَرَّف ؟ سَتَتَصَرَّف تَصَرُّفاً حكيماً ؛ تَنْتقي أجْمل الألْفاظ وأنت ترحِّب به وتحادثه ، وتَرْتَدي أجْمل الثِّياب ، وتَجْلِس أمامهُ جلْسَةً مُؤَدّبة ، فإذا كنت تهابُ رجلاً من بني جِلْدَتِك له مكانةٌ في قوْمِهِ وتتأدَّبُ في مَجْلِسه ، فَكَيْف إذا علِمْت أنَّ الله يعْلم ؟ وكيْف إذا علِمْت أنّ الله علاّم الغيوب ؟ وكيف إذا علِمت أنّ الله لا يخْفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء ؟ وكيف إذا علِمت أنّ الله أقْرب إليك من حبْل الوريد ؟ وكيْفَ إذا علِمْتَ أنَّ الله يحولُ بين المرْء وقَلْبِهِ ؟ وكيف إذا علِمْت أنَّهُ يعْلم السِّر وأخفى ؟ وكيف إذا علِمْت أنَّ الله يعْلم ما كان وما يكون وما سَيَكون ويعْلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون .

لذلك يروى عنه عليه الصلاة والسلام : « **أفْضل الإيمان أنْ تعْلم أنّ الله معك حيثما كنت** » . وهذا يَحْفز المؤمن إلى أن يعرف قدر ربه فيَهَابُه ويستجدي رحمته وتوفيقه .

هل يُمْكِنك إذا كنت ترْكب مرْكَبةً والإشارة حمْراء والشرْطي واقِف ، والضابِط موجود ، وشرطة الدراجات متربصون ؛ هل يُمكن أن تتجاوز الإشارة الحمراء ؟ لا . لأنك تعْلم أنَّك لن تنْجُوَ منهم

جميعاً ، فكيْف إذا علِمت أنّ الله معك دائِماً وأنَّك في قبْضَتِهِ ، ولن تسْتطيع أنْ تتفلّت من عِقابِهِ أبداً .

فيجب أنْ تعْلم أنّ الله يعْلم علماً مطلقاً ، فإذا علِمْت أنّ الله يعْلم ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ، اسْتَقَمْتَ على أمْرِهِ ، وإنْ اسْتَقَمْتَ على أمْرِهِ ، سَعِدْتَ بِقُرْبِهِ في الدنيا والآخرة .

* * *

المُبِينْ

من أسماء الله الحُسنى المبين ، وهو اسم كما هو معلوم زائد على التسعة والتسعين التي وردت في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول الله جل جلاله في سورة الرحمن : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ [الرحمن : ١-٤] .

البيان هو الإفْصاح والتعبير والكشف والإبانة والتوضيح ، ولأنَّ البيان يطرد الشيطان ؛ وضِّحْ ، بيِّنْ ، فصِّلْ ، ونوِّهْ ، واشْرح : ائتِ بالدليل .

لذلك فإن النبي عليه الصلاة والسلام حينما كان مع زوْجتِهِ صَفِيَّة مرّ به صحابِيان أنصاريان في الطريق فقال : « **على رِسْلِكما إنها صَفِيّة** » ، قالوا : سبحان الله! يا رسول الله ؟ قال : « **إنَّ الشيطان يَجْري من الإنسان مجْرى الدم** » .

« **البيان يطْرد الشيطان** » . وأنا أعرِف أُناساً كثيرين تجد أحدهم أكثر مُشكلَتِهِ في صمْتِهِ ؛ يسكت ولا يُوَضِّح ، قد يكون بريئاً وطاهِراً وسليم الصدر حسَنَ النيَّة ، لكنّ صمْتَهُ الدائم هو الذي يُثير حوْله الشبهات ؛ إذاً وضِّحْ ، بيِّنْ ، « **إنها صَفِيَّة** » . سبحان الله! يا رسول الله ؟ قال : « **إنّ الشيطان يجْري من الإنسان مجْرى الدم وإني**

خشيت أن يقذف في قلوبكما شراً » .

البيان هو الإظهار ، إظهار المقصود بِأبلغ لفظ ، وهو الفهم وذكاء القلب ، بل إنّ صِفَة البيان من امتِنان الله عز وجل على الإنسان ، ومن أَخصِّ خصائص الإنسان البيان والقُدْرة على التعبير ، والتعبير عن الأفكار وعن التصَوُّرات والمشاعر وعن العواطِف ، والتعبير عن الحاجات وعن الطموحات ، وكلُّ ما يَعْتلج في نفْس الإنسان من أفْكار وتصَوُّرات وأهْداف ، ومن مشاعر وعواطِف وخواطِر يمكِن أنْ يُعَبِّر عنها ، فالبيان من أخصِّ خصائص الإنسان ، فَيُمْكِن أنْ يُعَبِّر عنها بِلسانِه ، ويُمْكن أنْ يُعَبِّر عنها بِقَلَمِهِ ، ويُمْكن أنْ يُصْغي إليها بِأُذُنِهِ ، ويُمكن أنْ يفْهَمَها بِعقلهِ ، فإذا كان الكلام إلْقاءً وتَلَقِّياً بقِيَ مخصوراً في المُتعاصِرين ، أما إذا كُتِب وقُرِىء انْتَقَل من جيلٍ إلى جيلٍ ، ومن أمَّةٍ إلى أمَّة ، ومن قارَّةٍ إلى قارّة ، لِذلك قال تعالى :

﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ﴾ .

ثمانِيَةٌ وعِشْرون حرْفاً يُمْكن أنْ يُصْنع منها بلايين الكَلِمات ، وملايين وملايين الأفكار والمشاعر والمقولات .

من أسْماء الله الحُسنى المبين . واللغة تذكر أنَّ البيِّنة هي الدلالة الواضِحة ، قال تعالى : ﴿ لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ﴾[البينة : ١] .

هذه الآية إشارةٌ إلى مجيء سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام ؛ البيِّنة : الدلالة الواضِحة عَقْلِيَةً كانت أم مخسوسة ، وفِطْرِيَّةً كانت أم واقِعِيَّة ، وكل مثقّف يعْلم أنّ هناك دليلاً فطْرياً ودليلاً عَقْلياً ودليلاً نقْلياً ودليلاً واقِعياً ، وكنت أُكثر الحديث حول هذه الفِكرة .

الحق دائرة يتقاطع بها خط النقل مع خط العَقْل مع خط الفِطرة وخط الواقع ، الحق الذي ينْبغي أن تعتقِد به جاء بِهِ النقْل الصحيح ، وأيَّدَهُ العقْل الصريح ، واطْمَأَنَّتْ إليه الفِطرة السليمة ، وأكَّدَهُ الواقع المَوضوعي ؛ الحق هو الذي ينْبغي أنْ تعْتَقِده وتؤمن به وأن تُدافِع عنه ، وأن تُفْنِيَ شبابك من أجْلِهِ وأنْ تسْتَهْلِك عمرك الثمين في سبيلِهِ ؛ هو الذي جاء بِهِ النقل الصحيح ، وأَقَرَّهُ العقْل الصريح ، وأطمَأنَّت إليه الفِطرة السليمة ، وأكَّدَه الواقع الموضوعي . والحق هو الله ، والله من أسْمائِه الحق ، الله جل جلاله خلق الكوْن ، فالكون خَلْقُهُ ، وأنزل القرآن ، والقرآن كلامُهُ ، وجبل النفوس جِبِلَّةً خاصَّة ، فالفِطرة ما جبلنا عليه ، والعقل مِقْياسٌ أوْدعَهُ في الإنسان ، وخلق الواقع على نِظامٍ دقيق ، فالواقع خَلْقُه ، والقرآن كلامه ، والعقل أداةٌ أودعه فينا ، والفِطرة جِبِلَّة جُبِلْنا عليها ، فالحق - ولا بأس أن أكرر - هو الذي يأتي به النقل الصحيح مع العقل الصريح مع الفِطرة السليمة مع الواقع الموْضوعي .

سُمِّيَ الكلام بياناً لأنه يكْشِف عن المعنى المقْصود ؛ مثلاً طِفْلٌ صغير دخل في جِسْمِهِ من قِماطِهِ دبوس فبكى بُكاءً مُراً ، فحار أهْلُهُ في سبب البكاء ساعاتٍ طويلة ، أطْعموه فَلَم يقْبل ، وسَقَوْهُ فلم يقبل ، وحملوه فلم يسكت ؛ لو قال : إنَّ في جِسْمي دبوساً انْزعوه مني لانتهى الأمر ، عِوَض أربع ساعاتٍ من البكاء ، لكن الطِّفل الصغير لا يُبين ولا يسْتطيع أنْ يُعَبِّر عن حاجاتِهِ إلا بالبُكاء ، والبُكاء لغةٌ ضبابِيَّة عامّة ؛ فهو يبْكي يا ترى أجائِع هو أم عطْشان أم مُتَألِّم أم أصابه مَغْص هضمي ؟ لا ندْري ؛ فالبيان من أخص خصائص الإنسان .

وقال بعضهم : التِّبْيان هو الكشْف والإيضاح والتبْيين والتثبّت ، وقد وردت مادة البيان والإبانة في مواطن من القرآن الكريم ، قال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّـٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَـٰبِ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّـٰعِنُونَ ﴾ [البقرة : ١٥٩] .

الإنسان أحْياناً يتوَهَّم جهْلاً أو تجاهُلاً أو تقْصيراً في البحْث العِلمي أو غباءً ؛ يتَوَهَّم أنّ الدين لا يقوم على أيّ أساس ، بل إنَّ كلّ شيءٍ سِوى الدين لا يقوم على أساس ؛ لَسْتم على شيء ولسْتم على حقيقة ولا على بيِّنة ، ولسْتم على دليل ولا على برهان إلا بالدين ، من أخصِّ خصائص الإنسان أنَّهُ يمْلك الحجة البالِغة ، والدليل القاطِع ، ويتحرَّك وَفْقَ مبادىء ، ويتَّجِهُ نحوَ أهداف ثابتة ، ولا يُمكن أنْ يُفاجأ المسلم في وقْتٍ من الأوقات بأنه اعْتَقَد خطأً ما دامت عقيدتُهُ مُسْتَمَدَّةً من كِتاب الله وسُنَّة رسول الله ﷺ ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّـٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَـٰبِ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّـٰعِنُونَ ﴾ .

يقولون أحْياناً : إنَّ فلاناً إيمانُهُ في قلْبِهِ ولا يسْتطيع أنْ يجْهر بِهِ ؛ ما قيمة هذا الإيمان إذا بَقِيَ على شاكِلَةِ أُناسٍ مُتَفَلِّتين ؟ وقال : أنا إيماني في قلبي ! هذا كلام غير مقبول ، إنّ الإيمان إذا اسْتَقَرّ في القلب حقيقةً لابد أنْ يُعبّر الإنسان عن وُجودِهِ بِكلام ينْطِقُهُ ، أو بِسُلوكٍ يسْلُكُهُ ، أو بِدَعوةٍ ينْشُرها ، أو بِعَمَلٍ يُمارِسُهُ ، أو بِصداقَةٍ يُنْشئها ، أو بِخير يفْعَلُهُ ، وعلامة الإيمان التحرّك ، والإيمان حركة ولا يوجد مؤمن سكوني ، والمؤمن لا يكون سلبياً ، وليس هناك مؤمن لا يتمنى

هِداية الخلْق ، ولا يبْحث عن طريقةٍ يُعرِّف الناس إلى ربِّهم ، لذلك ما إنْ تسْتَقِرّ حقيقة الإيمان في قلْب المؤمن حتى يُعَبِّر عن إيمانِهِ بحَرَكة وبِدَعْوةٍ وكلام ونُصْح وأمْرٍ ونهْيٍ وإعْطاء وبِمَنْعٍ وبِصِلة وبِقَطيعَةٍ وولاءٍ وبراءٍ ، فلا بد من حركة قال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الأنفال : ٧٢] .

لذلك أنْ تَكتُم علْماً ولا تُبيِّنُهُ ، يعني أنك وقَعْت في كبيرةٍ من الكبائر ؛ فكِتْمان العِلْم أمر خطير ، وربنا عز وجل وصَفَ دُعاتِه الصادقين بِصِفَةٍ واحدة ، وهذه الصِّفة تُغْني عن آلاف الصِّفات ؛ فالداعِيَة الصادِق لا يخْشى إلا الله ، فَلَو خَشِيَ أحداً غير الله لتَكَلَّم بالباطِل إرْضاءً لِمن يخافُهُ ، ولَسَكَت عن الحق خوْفاً ممن يخافُهُ ، فإذا تكلَّم بالباطِل وسكَتَ عن الحق ماذا بقِيَ من دعْوَتِهِ إلى الله تعالى ؟! قال تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [الأحزاب : ٣٩] .

أذكر مرّةً أني قرَأتُ حدثاً واحداً لكِنَّهُ مُعبِّر ؛ وذو دلالة بالغة ، والي البصْرة جاءَهُ كِتابٌ من الخليفة يزيد يَأْمُرُه بشيءٍ لا يُرْضي الله عز وجل ، وكان عنده الإمام الحسن البصْري من الأئمّة الأعلام ومن التابِعين ؛ ووقع هذا الوالي في حَيْرة ، أَيُنَفِّذ أمْر يزيد ويُغْضِب الله عز وجل ؟ أم يرفُض أمْر يزيد فَيرضي الله ويُغْضِب يزيد ؟ ولعَلَّهُ يخْلَعُهُ من

عمَلَهَ ، فاسْتشار الإمامَ الحسَنَ البَصْري ، فقال هذا الإمام كلِمَةً تُكْتَبُ بماء الذهب ، قال : « إنَّ الله يمْنَعُك من يزيد ، ولكِنّ يزيد لا يمْنعك من الله » ، وفي الحديث الصحيح :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ عَلِمَهُ ثُمَّ كَتَمَهُ ، أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ » [رواه الترمذي] .

لكن بِالمقابل لو سُئلت عن شيءٍ وأنت لا تعْلَمُهُ قل : لا أدْري بِمِلء فمِك ولا تسْتحِ ، لأنّ نِصْف العِلم لا أدْري ، أحمد بن سنان قال سمعت عبد الرحمن بن مهدي قال : كنا عند مالك فجاءه رجل فقال : جئتك من مسيرة ستة أشهر حملتني أهل بلادي مسألة قال : سل فسأله عنها فقال : لا أحسن قال : فأي شيء أقول لأهل بلادي قال : تقول : قال مالك لا أحسن .

كُنْ مَوْضوعِياً فهذا النبي عليه الصلاة والسلام حينما كان يُسْأل عن أمر أو مسألة لم ينزل عليه الوحي فيه لا يُجيب وهو سيِّد العلماء وسيِّد الخلق ، من سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ عَلِمَهُ ثُمَّ كَتَمَهُ ، أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ .

لذلك قال العلماء : « أمانة الأنبياء أمانة التبْليغ ، أما أمانة العلماء فأمانة التبْيين ، فالأنبِياء أمانتُهم تبْليغ ، والعلماء أمانتُهم تبْيين » .

وفي الآية الكريمة قال تعالى :

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة : ١٨٥] .

بيِّنات كما قال عليه الصلاة والسلام :

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَمْرٍو السُّلَمِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ الْعِرْبَاضَ بْنَ سَارِيَةَ

قَالَ : وَعَظَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مَوْعِظَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ ، قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ هَذِهِ لَمَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا ؟ قَالَ : « قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا ، لا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إلا هَالِكٌ ، وَمَنْ يَعِشْ مِنكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلافاً كَثِيراً ، فَعَلَيْكُمْ بِمَا عَرَفْتُمْ مِنْ سُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ ، وَعَلَيْكُمْ بالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْداً حَبَشِيًّا ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ ، فَإِنَّمَا الْمُؤْمِنُ كَالْجَمَلِ الأَنِفِ حَيْثُمَا انْقِيدَ انْقَادَ » [رواه أحمد] .

فَلِلمؤمن ميزة قد يغْفَل عنها ، أنت على الحق ، ومعك الدليل ، والحجَّةُ القاطِعة ، وأنت تستنير بنورٍ من الله ، وتقْرأ الوحي الذي أُنْزِل على النبي عليه الصلاة والسلام والوَحْي نِداء السماء إلى الأرض ، فأنت حينما تجْلِس إلى آلَةٍ بالِغة التعْقيد وتُحاوِل أنْ تفهمها من خلال تحْريك الأزرار قد تُعْطِبُها ، وقد لا تفْهم حقيقة عمَلِها ولا طريقة اسْتِعْمالِها ولا طريقة إيقافِها ولا طريقة صِيانَتِها ، وقد تسْأل فتَأتيك أجْوِبَةٌ مُتناقِضة ، وقد تأتيك التعْليمات فلا تفْهَمُها ، وقد تسْأل من عنده مثل هذه الآلة ويَغْفَل عن بعض حركاتِها ، أما إذا جلسْت إلى مُختَرِعِها وصانِعِها وسألْتَهُ فجوابه صحيح ، حقٌّ مئةً بالمِئة .

لذلك هناك علوم تجْريبية ، وعلوم دينِيّة أصْلُها الوحيُ ، فالوَحْيُ قطْعِيٌّ في صِحَّتِه لأنه من عند الله عز وجل ولا يُنَبِّئك مثل خبير ، أحد الأطِباء وهو من العلماء اسْتَنْبَط من حديث رسول الله ﷺ أنَّ للإنْسان أنْ يشْرب ما شاء مع الطعام من قوْل النبي عليه الصلاة والسلام :

« مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ ، حَسْبُ الآدَمِيِّ لُقَيْمَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ ، فَإِنْ غَلَبَتِ الآدَمِيَّ نَفْسُهُ ، فَثُلُثٌ لِلطَّعَامِ ، وَثُلُثٌ لِلشَّرَابِ ، وَثُلُثٌ لِلنَّفَسِ » . [رواه ابن ماجه] .

وبَقِيَ هذا الطبيب وهو أستاذٌ جامِعِيّ يُؤكِّد لِطُلابِهِ خِلال عِشْرين عاماً أنَّهُ لا مانِع من شُرْب الماء مع الطعام بِالقدْر الذي تريد ، على حين أن بقِيَّة الأطِباء يُرَدِّدون نظرِيَّة درسوها في الجامِعات الغَرْبِيَّة ، من أنّ شرب الماء مع الطعام يُمَدِّد العُصارات الهاضِمة ويُضْعِفُ الهضْم ، فلا بد من أنْ تنْتظر ساعاتٍ ثلاث حتى تشْرب من الماء ما تشاء ، وهذا الأسْتاذ الذي اسْتَنبط من حديث رسول الله هذه الحقيقة يُدافع عن رأيِهِ بِشَكْلٍ مُخْتَصَر .

فالنبي ﷺ لا ينْطِق عن الهَوى ، إن هو إلا وحْيٌ يوحى ، والنبي ﷺ ينْطِق عن الوَحي والله الخبير . إلى أنْ ثبَتَ علْمِياً قبل سنَةٍ ونَيِّف وقد نُشِر هذا في مجلّة أبْحاث عِلْمِيَّة مرموقة جداً ، أنَّ شُرب الماء مع الطعام يُعين على الهضْم ، فمهما أكْثرت من شُرب الماء فلا يضرك ذلك لأنَّهُ يحُثّ العُصارات الهاضِمة على الإفْراز ، والطعام إذا تخَلَّلَهُ الماء أمْكن للعُصارات الهاضِمة أنْ تتَغَلْغَلَ في كلِّ أنْحائِهِ وأنْ تُعين على هَضْمِهِ ، فالأصْل هو الوَحي فَكُلّ شيءٍ يُخالِف الوَحي فيهِ خطأٌ ؛ بَدَتْ لك حقيقَتُهُ أو لم تبْدُ ؛ فالمؤمن يُصَدِّق الله عز وجل .

قال تعالى :

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة : ١١٨] .

المُشْكِلة حلقة مُفْرغة ، فالجاهِل ينتَظِر أنْ يَهْدِيَهُ الله وأنْ تأْتِيَهُ مُعْجِزة ، وأنْ يرى الله جهْرةً ، وأنْ يرى كِتاباً أُنْزل من السماء ، وأنْ يرْجِع ميِّتٌ من قبْرِهِ فيُحَدِّثه : ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ

تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴾ .

الحقيقة بيّنها وانتهى الأمر إلى ما هو في وضوح الشمس ، والكَون كلُّه ينْطِق بِعَظَمة الله ، وبِوَحْدانيّة الله ، وبِكمال الله ، والقرآن كلُّه ينطق أنَّه كلام الله من خلال إعْجازِهِ ، والقرآن ينْطِق أنّ هذا الذي جاءَهُ الكِتابُ هو رسول من عند الله ، فالله بيَّنَ وانتهى الأمر إلى غاية الوضوح ، قال تعالى :

﴿ إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ ﴾ [الليل : ١٢-١٣] .

فالله هدى الناس ، وبقِيَ أنْ تسْتَجيبوا أنْتم .

قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٤] .

بَقِيَ لك أنْ تستجيب ؛ هداك بِالكون ، وأعْطاك العَقْل ، وجَبَلَك على فِطْرةٍ سليمة ، وجعل الحوادث كلَّها تؤيِّد كلامه في القرآن ، بل إنّ حوادث الكَوْن تأويلٌ للقرآن الكريم ، النقْطة الدقيقة هنا أنَّك إذا أرَدْت الهدى وجَدْتَهُ في كلِّ شيء ، وإذا أعْرَضْت عنه لم تجِدْهُ في أوْضَح الأشياء ، فَهُناك من عاش مع النبي ﷺ ؛ ألَمْ يرَ النبي ﷺ وكمالَهُ ومنْطِقَهُ وأخْلاقَه ومُعْجِزاته ؟ ألَمْ يقْرأ هذا الكِتاب الذي أُنزل عليه ؟ ومع ذلك لم يؤمن ، وقد يأتي إنْسان في آخر الزمان ، ولم ير النبي ﷺ ولم يجْلِس إليه ولم يسْتَمِع إلى أقْوالِهِ ولم ير مُعْجِزاتِه والنورانِيات التي كانت تُشِعُّ منه ﷺ ، ومع ذلك يؤمن به ، قال تعالى :

﴿ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٩٧] .

والحقيقة أنَّ الإنْسان كلَّما ارْتقى يخافُ بِعَقْلِهِ ، وكلَّما هبط مُسْتواهُ يَخافُ بِعَيْنِهِ ، فالحيوان يخافُ بِعَيْنِهِ ، والإنسان الذي أنْكر إنْسانِيَّتَهُ وعطّل عقله ، لا يخافُ إلا بِعَيْنِهِ ، والكافر متى يَفْزع ؟ حينما يأتيه ملك الموت ، ومتى يخاف ؟ حينما يقترب أجلُهُ ، ومتى يضْطرب ؟ حينما تأْتيه المُصيبة ، أما وهو في البَحْبوحَة والرخاء فلا يُبالي إطْلاقاً بهذا الحق ؛ لذلك فالذي يخاف بِعَيْنِه أقلّ مرْتَبَةً من الإنسان الذي يخاف بعقله ، أما الذي يخاف بِعَقْلِهِ فهو الإنسان العاقِل .

وأما الأمر الثاني فقد قال تعالى :

﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة : ٢١٩] .

هناك معنى دقيق جداً ، أحْياناً يتناوَل الإنسان مادّة أوّلِيَة لِيُصَنِّعَها ، فهو لا ينْتَفِعُ بها إلا إذا صَنَّعها ، فالخشب مثلاً : لو اشْترى إنْسان شجرة ووضَعَها في البيت ماذا يفْعل بها ؟ إنَّ هذه الشجرة تُشْرح إلى ألواح ، وتصنّع قِطعة أثاث يستخدمها وتُطْلى بِطِلاء جميل ، فهناك مواد أوّلِيّة كثيرة جداً ليْسَت لها قيمة بِذاتِها إلا إذا صُنِّعَت ، وبعض النبات لا يُؤكل إلا إذا طُبِخ ، فهذه الآية دقيقة جداً ، يقول الله عز وجل : ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ ۖ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟

أَيْمَٰنِكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة : ٨٩] .

يجب على المؤمن أنْ يتناوَل هذه الآيات وأمثالها بالدراسة والتفكر فيها ، كي يعقلها ويستفيد منها ، ولتكون مُتَّكَأً للوُصول إلى الله عز وجل .

إذاً عليك مُهِمَّة ، فالشمس مَوْجودة وكلُّ إنسان يرى الشمس ساطِعة ، لكنَّك مُحْتاجٌ إلى أنْ تُفَكِّر فيها كآية من آيات الله ، بل إنَّ بعض الحيوانات حينما تميل الشمس للغُروب تتَّجه إلى إصْطَبْلِها ؛ البقر والدواب والأنعام حينما تميل الشمس إلى الغروب تتَّجه إلى إصْطَبْلِها ، معنى ذلك أنَّ الحيوان يُدْرِك أن الشمس مالَتْ للغروب أما الإنسان فعليه أنْ يُفكِّر من خلقها ومن كوَّنَها ومن رفعها ومَن جعلها مُلْتَهِبة ؟ . . ويدرك أنها مصْدر حرارة للأرض وإنارة : ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ .

ومعلوم يقيناً أنّ هناك في الكَون آياتٍ لا تُعَدّ ولا تُحْصى ، وأَينما اِلْتَفَت المرء وسار واتَّجَه وجلس ونظر رأى الآيات تُحيط به من كلِّ جانِب ، لِذلك فالعِبْرَة أنْ تعكف على هذه الآيات وتُفَكِّر فيها ، ومن هنا قال الله عز وجل :

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران : ١٩٠] .

هناك آيةٌ تحمل العظَةَ ، والدلالة واضحة جداً في سورة النِّساء ، يقول الله تعالى :

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء : ٢٦] .

البيان الإلهي من ثمرات إرادة الله عز وجل ؛ أحْياناً الإنسان يضْرب ابْنه ولا يريد أنْ يضْرِبه ، وأحْياناً يتناوَلُ الدواء وكان يتمنى ألا يتناوَلَهُ ، فلَيْسَ كلُّ فِعْلٍ مُتوافِقٌ مع الإرادة ، فالإنسان يفْعل أشْياء مضْطَرّاً لكنَّ هذه الآية دلالتها دقيقة جداً ؛ فالله يريد لِيُبَيِّن لنا ، ولِيُعَرِّفَنا ، وينْقُلَنا من الجهْل إلى العِلم ، ويُخْرِجنا من الظلمات إلى النور ، ومن الضَّياع إلى الوِجدان ومن الضلال إلى الهدى ، ومن الشقاء إلى السعادة : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

وقال تعالى :

﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٢٧] .

يقول لَهُ : لِمَ لا تُصَلي يا أخي ؟ فتجد الجواب : إلى أنْ يَهْدِيَني الله ، فهذا الكلام مُضْحِك ، وغير عِلمي ، فالله عز وجل خلقَكَ لِيَهْدِيَكَ .

الذي أراه أنّ الله سبحانه وتعالى رحْمَةً بِعِبادِه يُنَوِّعُ لهم أساليب الهدى ، وأوْدَعَ فيهم العُقول لِيَهْتَدوا ، وأوْدَعَ فيهم الفِطَر السليمة لِتَكون مِقْياساً لهم لأعْمالِهم ، وسَخَّر لهم السموات والأرض ؛ لِيَكون هذا الكون مظْهراً لأسماء الله الحُسْنى وصِفاتِه الفضلى ، وجعل أفْعاله مُتَطابِقَةً مع أقْوالِهِ كي يحْصل الانْسِجام في الكون ، فالله وعد المُرابي بِحرب قال تعالى :

﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٧٩] .

تجد دائماً وأبداً الذي يجمع المال الحرام يُدَمَّر مالُهُ ؛ توافُقُ أفْعال الله مع كلامِهِ شيءٌ مُهِمٌ جداً ، قال تعالى :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٩٧] .

حياة المؤمن طيبة ، وهو شيء جميل ينوه الله تعالى إليه في القرآن وتؤكده الدِّراسة المَيْدانِيَة ، فإذا اجْتَمَعْتَ مع الشباب المؤمن تجِدُهُم حقاً يعيشون حياةً طيِّبَة ، قال تعالى :

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه : ١٢٤] .

لو تتبَّعْتَ أحْوال أهْل الدنيا لَوَجَدْتهم يعيشون معيشَةً ضنْكاً ، تطابق أفْعال الله مع كلامِهِ نَوْع من البيان ، فالكلام نظري والتطبيق عملي .

ويقول الله عز وجل :

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ [المائدة : ١٥-١٦] .

كلِمَة سلام ؛ فالسلامُ مُريحٌ جداً ، والسلام الذي أرادَهُ الله عز وجل هو السلام الذي من أسْمائِهِ تعالى ، لأنّ الله جلّ جلاله أصْل كلِّ سلامٍ في الأرض ، والإنْسان قد يسْلم مع نفْسِهِ فهو مُطْمَئِنٌ إليها ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ [الفجر : ٢٧-٣٠] .

والإنسان قد يكون في سلامٍ مع من حَوْله ، وعلاقاته واضِحة ، وصادِقٌ ، وأمين ، وليس بينه وبين من حوْله مشْكِلة ، ومُرْتاح البال ، وهو في سلامٍ مع كل من يلوذ به ، والإنسان المُطيع في سلامٍ مع ربِّه .

من أسْماء الله المُبين يُبيِّن بأقْوالِه وأفْعالِه وأنوارِه وتجَلِّيه وخلْقِهِ والفِطَر والعُقول ، والله عز وجل يُعَلِّمنا دائِماً ، ومن هنا قال بعض العلماء تفْسيراً لِهذه الآية ولهم فيها وِجْهَة نظر ، قال تعالى :

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٨٢] .

يَفْهَمها بعض المُسْلِمين على الشكل التالي : إنْ اتَّقَيْتم الله يُعَلِّمْكم ، فَلَو كان المعْنى هكذا ، لَجاء النصّ على الشكل التالي : واتَّقوا الله يُعَلِّمْكم الله ، جواب الطَّلب ، أما الآية واتَّقوا الله ويُعَلِّمُكم الله ؛ يعْني : لِم لا تتَّقون الله ؟ والله يُعَلِّمُكم دائِماً ، يُعَلِّمكم بِالوَحْيِ والعقول والفِطَر وخلْقِه وأفْعالِه وأنْوارِه وبآلاف الطرائق .

وفي سورة المائدة يقول الله عز وجل :

﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ [المائدة : ٧٥] .

والحقيقة أنَّ التناقض بين ما يعْتَقِدُهُ الإنسان وبين سُلوكِهِ لا يُحْتَمَل ، تجد أُناساً يسْتَمِعون إلى خُطْبة في مسْجِد ، أو إلى كلِمة في عقْد قِران ، أو إلى موعِظة بمناسبة وفاة ويتأثَّرون بها آنياً ، فإذا انْطلقوا إلى بُيوتِهم كأن لم يسمعوا شيئاً ، وهذا شيءٌ مُريع ، أنْ تسْمع للحق وأنْ تفْعل عكْسَهُ ، وأن تأتي إلى بيت الله تستمع إلى الآيات

والأحاديث والأحداث وتهمل بيتك ويكون على خِلاف ما أمر الله تعالى ، وأنْ تطْلب العلم ولا تعْمل به ، وأنْ تتزَيا بزيِّ المسْلمين ، ولا تفْعل ما يفْعل المسْلمون وأن تدَّعي أنَّك مؤمن ولم تُدْرك حقيقة الإيمان ؛ فهذا هو الذي ورد في هذه الآية قال تعالى : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ ، أي ينصرفون عما فيها من بيان وإيضاح لحقائق الإيمان .

وفي سورة الأنعام قال تعالى :

﴿ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ [الأنعام : ١٥٧] .

شيءٌ عظيم ومفيد جداً أنّ الله سبحانه وتعالى أنزل كِتابه على النبيِّ ﷺ وفيه كلُّ الحق وفيه البيِّنات والنور والمنْهج ؛ ثم مِن العجيب جداً ألا يأخذ منا كلام الله تعالى مأْخَذَ التطبيق .

وفي سورة الأعراف قال تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأعراف : ١٨٤] .

من هو المجنون ؟ هو الذي عصى الله تعالى ، فالمجْنون الذي نراه في الطريق ليس مجْنوناً ، هذا مُبْتلى بِعُصاب ذِهني أو بِمَسٍ شيْطاني ، لكنَّ المجنون حقيقةً هو الذي عصى الله تعالى ، لذلك قال تعالى :

﴿ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ [القلم : ٢] .

وقال تعالى :

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾ [هود : ٢٨] .

المؤمن على شيءٍ من الهدى ، والمؤمن مُنْغَمِسٌ في رحْمة الله

تعالى ، لكنَّ هذه الرحمة عُمِّيَت عن الخلق ، والخلْق مادِّيون يُقيِّمون كلَّ شيءٍ بِمِقْياسٍ مادي ، فأنت مهما كنت على خلقٍ عظيمٍ ، وعلم غزير ، أو على معْرِفَةٍ بالله ، أو على إخلاصٍ شديد ، فلا تُقَيَّم إلا من خِلال دخْلِك عند هؤلاء المادِّيين .

وفي سورة يوسف عليه وعلى نبيِّنا أفضل الصلاة والسلام :

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [يوسف : ١] .

المبين يعني : الواضِح ؛ ولذلك ليس من المُناسِب أنْ تفْهم كلام الله فهماً لم يرده الله ، علماً بأن القرآن الكريم نزل بِلُغَة العرب وبِلِسَانٍ عرَبِيٍّ مبين ؛ هناك أُناسٌ يتعامون عن المعنى الجَلِيِّ الواضِح ويصْرِفون عنه النظر ، ويبْحثون عن معانٍ لا تُدْرَك إلا بِشِقِّ الأَنْفُس أو بالتَّكَلُّف الذي لا يُحْتَمَل ، ومن أخْطاء المُفَسِّرين أنْ تُؤول الآية لِغَير ما تُفْصِح عنه ، فهذه التأويلات التي ماأنزل الله بِها من سُلْطان هي التي شَتَّتَت المسْلِمين وفرَّقَتْهم ، مع أنَّ هذا القرآن نزل بِلِسانٍ عرَبِيٍّ مُبين ؛ بعض القِراءات المُعاصِرة فَسَّرت قوْله تعالى :

﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف : ٤٦] .

البنون : البِناء هل في العالم العربي من يفْهم كلمة البنون أنها تعني البِناء ؛ المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، وهذا القرآن نزل بِلُغَة العرَب ، فَيَنْبَغي أنْ نفْهَمَهُ وَفْق لُغَة العَرب .

وفي سورة النحل قال تعالى :

﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل : ٦٤] .

هناك اختِلاف أساسُهُ نقْص المَعْلومات ، وهذا اختِلافٌ طبيعي ، لكنَّ الوحيَ يحسُمُ هذا الأمر ، قال تعالى :

﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة : ٢١٣] .

وهناك اختِلاف أساسُه البَغْي والحسد قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾[آل عمران : ١٩] .

الاخْتِلاف الأول طبيعي ؛ وهو الاختلاف القائم على نقص المعلومات ، أما الاخْتِلاف الثاني فهو قَذِر أساسُهُ الحسد والبغي والعُدْوان ، أما الِاخْتِلاف الثالث فاخْتِلافٌ محْمود ، وهو التنافُس في حقْل الدين وفي دائرة الحق ، وفي سورة النور قال تعالى :

﴿ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [النور : ١٨] .

الحق واضِح لكنّ الناس في الدنيا نِيام وإذا ماتوا انْتَبَهوا ، وعند الموت يُكْشَف الغِطاء ، قال تعالى :

﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ [ق : ٢٢] .

وفي سورة النمل قال تعالى :

﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾ [النمل : ٧٩] .

أيها المؤمن لا تَخَفْ ، فإنّ النبي ﷺ خاطَب عدِي بن حاتِم فقال له : « يا عدي! هل رأيت الحيرة ؟ فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله ، ولئن

طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى ، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله فلا يجد أحداً يقبله منه ، وليلقين الله أحدكم يوم يلقاه وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له ، فيقولن : ألم أبعث إليك رسولاً فيبلغك ؟ فيقول : بلى . فيقول : ألم أعطك مالاً وأفضل عليك ؟ فيقول : بلى فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم ، وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد فبكلمة طيبة » قال عدي : فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله وكنت فيمن افتتح كنوز كسرة بن هرمز ، ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال النبيُّ أبو القاسم ﷺ : « يخرج ملء كفيه » . [رواه البخاري] .

فَتَوَكَّل على الله إنك على الحق المُبين ، وعلامة المؤمن الصادِق لو أنَّ الناسَ جميعاً تنكَّروا للدين ولم يعْبَؤوا به ولم يلْتَزِموا بِتعالِيمِهِ ، يَكْفيهِ أَنَّهُ على الحق المُبين ، والإنسان العاقِل لا يأخذ بِالكَثرة ، بل هدفه الحق ولو قلَّ ناصروه ، قال تعالى :

﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام : ١١٦] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ [النجم : ٢٨] .

وقال تعالى في سورة الحديد : ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الحديد : ١٧] .

فالآيات تحتاج إلى تفكُّر وإعمال عَقْل ، والآيات إنْ صَحَّ التعبير مواد أوَّلِيَّة تحتاج إلى تصنيع ، ولا بد أنْ تُصَنِّعَها بِعَقْلِك وبِفِكْرِك ،

ولا بد أنْ تتفكَّر فيها أو أنْ تتذكَّرها ، قال تعالى :

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ [القيامة : ١٦ـ١٩] .

أحْداث العالم كلِّهِ تتَّجِهُ لِتأْكيد ما في القرآن .

لا يغيب عن بالِكم أنّ العالم فيما سبَقَ شرْقاً وغرْباً ؛ كان شرْقاً يؤمن بِالمجْموع والقُيود ، وغرْباً يؤمن بِالفرْد والحُرِّيَّة ، والآن الشرق والغرْب عادا إلى الإسْلام قَهْراً لا عِبادةً ، واضْطُروا إلى أنْ يعودوا إلى أصول الدين ؛ فمثلاً هناك بِلادٍ طويلَةٍ عريضة عاتِيَةٍ بعيدة حَرَّمت الخمر ، والآن في بعض الجامِعات بِأمْريكا تُحَرِّم الاخْتِلاط بين الطلاب والطالِبات ، فَكُلَّما تقَدَّم العِلم ونضج في البشَرِيَّة اتَّجهُ قهْراً إلى تعاليم الدِّين لا إيماناً ولا تَعَبُّداً ، لِذلك الشرْق والغَرْب عاد إلى وَسَطِيّة الإسلام ، والشرق عاد مقْهوراً لا مُخَيَّراً ، والغرب سيعود كذلك ، وسوْف تَرَوْن بعد حين أنّ هذا الدين الإسلام العظيمَ هو دين المُسْتَقْبَل قال تعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة : ٣٣] .

قال تعالى :

﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ [القيامة : ١٨ـ١٩] .

حتى الآيات الكَوْنِيَة في القرآن الكريم ، كلما تقَدَّم العِلم تكشَّفت للعلماء حقائق الإعْجاز القُرآني العِلمي .

من أدْعِيَة هذا الاسم الجليل : اللهم أنت المُبين للحق ، والهادي إليه ، والمُوَفِّق لاتِّباعِه ، فاجْعَل بين أيْدِينا نوراً من قُرْآنِك ، وهِدايَةً

من بيانِك ، فإنَّك أنت الحق المُبين .

وليس هناك أسْعَد من إنسانٍ عرف الحق ، ونِعْمَةُ الهُدى أعْظم نِعْمة ، بل إنّ بعض العلماء قالوا في تفْسير قوْلِه تعالى :

﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [المائدة : ٦] .

قالوا : تمامُ النِّعمة الهُدى ، فاللهم اهدنا فيمن هديت ، وعافنا فيمن عافيت ، وتولنا فيمن توليت ، وصلِّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

* * *

مُؤتي الحِكْمة

مع اسمٍ جديد وأخير من أسماء الله الحسنى ، ومع الاسم المُتِمِّ للمئة ، والاسم هو : مُؤتي الحِكمة ، وهو اسم زائد على الأسماء التسعة والتسعين التي وردت في حديث رسول الله ﷺ .

أوَّلُ شيءٍ في هذا الاسم أنَّ الله حكيم ، ويُؤتي الحِكمة ، وحليمٌ يؤتي الحِلم ، ورحيم يؤتي الرحمة ، ومن هنا كان استِخْلاف الإنسان في الأرض ، قال تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٣٠] .

وقبل أنْ ندخل في تفاصيل هذا الاسم لابد من وَقْفَةٍ قصيرةٍ حوْلَ الحِكْمة ؛ الحِكْمة تَدُلّ على الترْجيح ، ولا ترْجيح بِلا مُرَجِّح ، يعْني أن هناك شيئاً يُمْكن أنْ يكون في أوْضاعٍ كثيرة . وأنت اخْتَرْت هذا الوَضْع المُناسِب ، فهذا العمل اسمه ترْجيح ؛ رَجَّحْتَ هذا المكان على هذا المكان فهذا الترْجيح يَحْتاج إلى مُرَجِّح ، وأَوْضَحُ مثَلٍ مِفْتاح الكهْرباء في الغرف فيُمْكن أنْ يوضَع في أسْفل الحائِط ، ويُمْكن أنْ يوضَع في أعلى الحائط ، أما حينما وُضِع في مكانٍ مُعْتَدِل يتناسَبُ مع

طول الإنسان وحرَكَة يدِهِ ، فإننا نقول : هذا المكان فيه حِكْمَة أو فيه تزجيح ، ولا ترْجيح بِلا مُرَجِّح .

ولعلّ دليل الحِكمة من أكبر الأدِلَّة على وُجود الله وعلى عَظَمَتِهِ ، فَمَثلاً الطير الصغير الذي في البَيْضة كيف سَيَخْرُج منها ؟ في وَقْتٍ مُناسِبٍ جداً ، وفي مكانٍ مُناسِبٍ جداً يَنْمو له على منقاره نُتوءٌ مُدَبَّب ويَثقب بِه جِدار البيْضَة ، وبعد حينٍ يتلاشى هذا النُّتوء ، ويعود مِنْقارُه إلى ما كان عليه . ففي الوَقْتِ المُناسِبِ ، وفي المكانِ المُناسِبِ وفي الحجم المناسب ، وفي الشكل المُناسب ، ظهر هذا النُّتوء ونقول : هذا الترْجيح يَحْتاج إلى مُرجِّح ، والعَقْل لا يقْبل أنّ هذا الشيء تَمَّ وَحْدَهُ .

الماء إذا برَّدْناهُ ـ شأنُهُ كشأنِ أيِّ عُنْصر ـ ينْكَمِشُ حجْمُهُ إلى درجة زائد أربعة ، وعندها تنْعكِس المسألة ، ولولا هذه الخاصَّة لما كان على الأرض حياة ؛ يتَمَدَّدُ الماء إذا بلغَ درجة زائِد أربعة ، حِكْمَةٌ مُطْلَقَة ولَوْلاها لما قامَتْ حياة ، فالحِكمة ترْجيح ؛ ولا ترْجيح بِلا مُرَجِّح .

قد يذهب إنسانٌ إلى بلدٍ في أقْصى الشمال من الكرة الأرضية وقد تصِل الحرارة إلى سَبْعين تحت الصِّفر ، كلُّ شيءٍ يُمْكن أنْ تُغَطِّيه ؛ تُغَطي يَدَيْك ورِجْلَيْك وجِهازك التنفُّسي وترْتدي الألْبسَة الصوفِيَّة والمِعْطف والقُبَّعة ؛ فَكُلُّ شيءٍ يُمْكن أن تُغَطيه إلا العَيْن إذا غَطَّيْتها فقَدْتَ القدرة على البصر بحجب العين ، والهواء الذي يُلامِسُها في درجة سبْعين تحت الصِّفر ، إذاً لا بدَّ من أنْ يتَجَمَّد ماء العَيْن ويفْقد الإنسان البصر ؛ فمن أوْدع في العين مادَّةً مُضادَّةً للتَّجَمُّد ؟ هذه حِكْمَةٌ

مُطْلَقَة ، ولولا هذه المادَّة لَفَقَد كلُّ الذين يعيشون في المناطِق الباردة أبْصارهم ، فلا تزجيح بلا مُرَجِّح ، ولا حِكْمة بِلا مُحْكِم ، ولا حِكْمَة بِلا حكيم .

فالله سُبْحانَهُ وتعالى هو الحكيم ، فَهُو تعالى حِكْمَتُهُ مُطْلَقَة ، أما الإنسان فحِكْمَتُهُ نِسْبِيَّة ، وأحْياناً يفْعلُ فِعْلاً غير حكيم بِسَبَب ضغْط أو إغراء أو بِسَبب جهْل ، فإما أنه تعرّض لضغط كبير ، فَتَكَلَّمَ كلِمَةً غير حكيمة ، أو وقف مَوْقِفاً غير حكيم ، أو سلَك طريقاً غير مَشْروع ، أو خضع لإغراءٍ شديد ، فاخْتَلَّ عَقْلُهُ وانْساقَ مع شهْوَتِهِ ، أو أنه يجْهل حقيقة هذا الشيء فيرْتَكِب حماقَة ، فالإنسان إذا بدا لك حكيماً فهُو حكيمٌ أحْياناً ، أما الحكيم مُطْلقاً فهو الله عز وجل ، لأنه مُنَزَّهٌ عن الضغط والإكْراه والجهْل ، فأَفْعالُهُ تعالى تُلابِسُها الحِكْمة المُطْلقة .

وهذه الحقيقة أنَّ كُلَّ شيءٍ وقع فله حِكمة ، حتى إنهم قالوا : لِكُلِّ واقِعٍ حِكْمة ، فِكْرة مُريحة جداً وبسيطة ، وهي أنَّكَ لن تُعاني أزْمة نفْسِيَّة ولن تُعاني حِقْداً ولا ضيقاً ولا كراهِيَةً ولا ندَماً ، لا تقول : لو أنَّني فعَلْتُ كذا وكذا ، فهذه الفِكرة البسيطة خلاصتها أن كُلَّ شيءٍ وقع أراده الله ، لأنه لا يليق بالله أنْ يقع شيءٌ لا يُريدُه ، وكُلُّ ما أرادَهُ الله وقَع ، وأَفعال الله مُتَعَلِّقَةٌ بِالحِكْمة المُطلقة ، والحِكمة المُطلقة مُتَعَلِّقةٌ بِالخير المُطْلق ، وبذا انتهى النَّدَم والحِقد وانتهت كلِمة ليْتَ .

لا تَقُل : لو أنَّني فعَلْتُ كذا وكذا ، ولكن قُل : قدَّر الله وما شاء فعل ، فإنَّ كلِمة لو تفْتَحُ عملَ الشيطان . أتَرى ما يحْدث في العالم ، هناك شرور ومجاعات وآثام وزلازِل وبراكين تنفَجِر وفَيَضانات وصقيعٌ

لا يُحْتَمَل ، وإتْلافٌ للمحاصيل وحُروبٌ أهْلِيّة ، فيجب أنْ تؤمن ، وهذا الإيمان يَحتاج إلى جُهْد ، أنَّ كُلَّ شيءٍ وقع لِحِكْمَةٍ بالِغةٍ مُطْلَقَة ، وهذه كُلُّها للخير المُطْلق ، ولكنَّك ترى رؤيةً مخدودة أنَّ الشر وقع مختاراً وتتألم ، ولكنَّ الله يُريد من أفْعالِهِ كلِّها الخير المُطلق .

تصَوَّر أنَّ غلاماً يَضْربه أبٌ شديد حازم ، وبعد أنْ ضُرب أكثر من مرة استقام وأقبل على دراسته ، ثم أصْبح هذا الغلام الطالب في مُسْتَقْبَلِهِ من ألْمَعِ الشَّخْصِيات ، بِالنظر القريب والقصير فهناك قَسْوة وشرّ ، وبِالنظر البعيد هناك خير كثير ، فبعد أنْ ضُبط هذا الغلام ودرس وأخذ شهاداتٍ عُلْيا وشغل مناصِب رفيعَة وصار دَخْلُهُ وفيراً ـ من جهة نظر دنيوية ـ فهذا حينما ينعَمُ بِبَحْبوحَة ومَكانَة اجْتِماعِيّة وبيْت مُريح ومرْكبة وزوْجة وتبجيل من قِبَل الناس ، سيُقَبِّلُ يد أبيه التي ضَرَبَتْهُ يوْم كانَ صغيراً ، فعلى المدى القصير قد يبْدو لك الشر ، أما على المدى البعيد فيبْدو لك الخير المُطْلق ، لِذلك أيُّ إنْسانٍ على وَجْهِ الأرض من آدم إلى يَوْم القِيامة حينما يقِفُ بين يدي الله عز وجل يُلَخِّص علاقة الله به بِكَلِمَةٍ واحِدة هي : الحمد لله ، قال تعالى :

﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [يونس : ١٠] .

أَرَأَيْت إلى هذه الفِكْرة ؛ إنها هي الحقيقة وإني بحكم المعاناة والمشاهدة أكاد أقول : إنَّ تِسْعة أعْشار الأمْراض الوبيلة أسْبابُها نفْسِيّة ؛ ضغْط نفْسي وقلقٌ وخوْفٌ وحَيْرة وحِقْد ، فإنْ آمنت بِهذه الحقيقة تشْفى من كلِّ أمْراضِك النَّفْسِيّة ، ولا ترى إلا أنّ يد الله تعْمل

في الخَفاء ولا ترى مع الله أحداً وتقول : الله هو كلُّ شيء وبِالتعبير الدارِج : ما في إلا الله ، واللهُ كبيرٌ ، وتتعامل معه وحْده وتُخْلِصُ له وتَمْحَضُهُ وُدَّك وحُبَّك وطاعَتَك ، وتُقَدِّم في سبيله حياتَك وشبابك ومالك وعِلْمك ولِسانك وقلمَك وخِبْرتك ، وهذا هو الإيمان . فَلِكُلِّ واقعٍ حِكْمة ولكن هذه الرؤية يصْعُب أن تُنْقَل بِصورَتِها اللفْظيَّة ، فالإيمان والسلوك في طريق الإيمان ومُجاهَدَة النَّفْس والهوى ولُزوم مجالِسِ العِلْم وتِلاوة القرآن ومَعْرِفة السنّة والاسْتِقامة والعمل الصالح ، وفي نِهاية هذا المَطاف سترى أنَّ يَدَ الله وحْدها تعْمل في الخفاء ، وفي نهاية النِّهاية ترى أنَّ يد الله فوق أيْديهم ، قال تعالى :

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال : ١٧] .

لذلك لا ألم ولا خَوْف ولا قلَق ، والحِكمة أن نضع الشيء المُناسِب في المكان المُناسِب ، في الحجم المُناسِب ، وفي الوقت المُناسِب ، وبِالقَدْر المُناسِب ، وبِالأسْلوب المُناسب ، واللهُ هو وحْده الحكيم ولا حكيم سِواه ، وحكْمةُ البشَر مُسْتَنْبَطةٌ من حِكْمةِ الله ؛ وحينما فتح النبي عليه الصلاة والسلام مكَّة فماذا قال أبو سُفْيان ؟ قال : بأبي أنت وأمي ماأوْصَلَك وأحلمك وأكرمك ، إنها كلمة لخصت صفات النبي ﷺ الإنسانية ، من فم رجل كان بالأمس العدو الألد .

ومن بعد ، فإنّ الله عز وجل يقول :

﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة : ٢٦٩] .

أجل إنه سبحانه يقول : ﴿خَيْرًا كَثِيرًا﴾ ، الخير الكثير لا بِحَجْمِ رصيدِك المالي ، ولا بِبَيْتٍ فَخْم ولا بِزَوْجَةٍ رائِعة ، ولا بِدَخْلٍ كبير ، ولا بِصِحَّةٍ جيدة ، إنما الخير الكثير أنْ تُؤتى الحِكْمة لأنّك بالحِكمة تسْعد ، وبالحِكمة تُصْلِحُ الزوجة السيِّئة ، وبالحُمْق تُفْسِد الصالح ، وبالحكمة تَجْلِب المال ، وبالحُمْق تُبَدِّد المال ، وبالحِكْمة تكْسِب الأصْدِقاء ، وبالحُمْق تُفرِّقُهم وتخسرهم : ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ ، فالله عز وجل حكيم ويُؤتي الحِكمة .

بعْضهم قال : الحِكمة ليْسَتْ كَسْبِيَّة ، فهي لا تُكْتَسَب ولكِنَّها تؤتى ، وبعْضُهم قال : المؤمن حينما يسْتقيم على أمْر الله ويُخْلِص له يُكافِئهُ بالحِكمة ، وإني لأسْتَنِد فيما أقول على قِصَصٍ من أزواجٍ وزوْجات ، ومن إخوة وأخواتٍ ، ومن شُركاء ، حُمْقٌ ما بعْده حُمْق ، وانْحرافٌ ما بعْده انْحِراف ؛ إنْسانٌ يُدَمِّر نفْسَهُ بِيَدَيْه ، ويُخَرِّب بيْتَهُ بِيَدَيْه ، ويُدمِّر سعادتَهُ بيَدَيْه لِعَدَم وُجود الحِكمة ؛ كأن يتفوّه بكلِمةٍ غير مُناسِبة ، وهذا الكلام مؤلم ويحمل نتائج قاسِيَة ، قيل :

إنَّ القلـوب إذا تنـافـر وُدُّهـا مثل الزجاجة كسْرُها لا يُجْبَرُ

هناك شيءٌ في الأدب يُسَمى التَّشْطير ، وهو أنْ يأتي شاعر فَيَجْعل من شَطْر البَيْت الشطْر الأول ويَصوغُ شَطْراً ثانِياً وشَطْراً ثالِثاً ويأتي بالشَّطْر الثاني ليجعله شطْراً رابِعاً :

إنَّ القلـوب إذا تنـافـر وُدُّهـا مثل الزجاجة كسْرُها لا يُجْبَرُ

فَأخذ أحدهم الشَطْر الأول من هذا البيْت ثم جعل من الشطر الثاني شطراً رابعاً ، فقال :

إنَّ القلـوب إذا تنـافـر وُدُّهـا عنـد الأكـارم جَبْـرُهـا لا يَعْسُـرُ
وقُلوب أرْذال الأنام إذا الْتوت مثل الزجاجة كسْرُها لا يُجْبَرُ

في بعض الأحْيان كلِمَةٌ تُنْهي شرِكة ، وكلِمَةٌ تُشَرِّدُ أسْرةً ، ومَوْقِفٌ تَخْسَر عملك فيه قال تعالى : ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ .

أحْياناً تجد إنساناً يعْمَل عملاً مرموقاً ، وله مكانة رفيعة ، ودَخْل كبير ، فَيَخون صاحِب العَمَل فَيُنْهي عَمَلَهُ بسلوك غير حكيم ، أو بكلام لا حكمة فيه ، ويُصْبِح مُتَشَرِّداً في الطرقات ، ارْتَكَب حماقة كبيرة ، وأرجو من كل أخ أن يصدِّق معي فأنا أُصَدِّق الله عز وجل : ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ .

في بَيْتِك قد تُؤتى الحِكْمة وتعيش مع الزوْجَةِ عُمُراً مديداً ، تسْعَدُ بها وتَسْعَد بك ، أما بِالحُمْق فتُطَلِّقُها وتَخْسَرُها وتَخْسَرُك .

أحْياناً تجد إنساناً يملك مالاً يُبَدِّدُهُ بِأساليب تافِهَة ، ثمّ يقعد ملوماً محسوراً إذ بدّد ثروته ، وأحْياناً يغْضب المرْء فَيُطَلِّق زوْجَتَهُ ويتسكع على أبواب المُفْتين عسى أن يجدوا له حلاً ، فالذي تساهَلَ معه منهم يشُكُّ في عِلْمِهِ ، والذي تشَدَّد عليه يشُكُّ في رحْمَتِه ، ومن بابٍ إلى باب ، ومن مُفْتٍ إلى مُفْتٍ ، وكان يُغْنيك ألا تُطَلِّق هذه الزوْجَة وأنْ تبْقي عِصْمَتُها بِيَدِك ، أما حينما طلَّقْتَها فقد أصْبَحت عِصْمَتُها بِيَدِها وأنت لا تدْري ؛ فالحِكْمَة ـ كما ورد ـ عِلْمٌ مُطَبَّق ، والله عز وجلّ قال :

﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ

﴿بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية : ٢٣] .

فقد تُحَصِّلُ عِلماً كبيراً ولا تكون حكيماً ، أما الحِكْمَة فهي أنْ تستفيد من عِلْمِك ، وأنْ تجْعَل من عِلْمِك عِلْماً عمَلِياً ؛ إذْ هناك عِلْم عملي وآخر نظري ، فأنت حينما تستَفيد من عِلْمِك تكون حكيماً ، فالحِكْمَة حقيقةٌ مُطَبَّقَةٌ في حيِّز الواقع ، والحِكمة إصابة الحقّ ، والحق ما طابق الواقع ، إذ الضلال أنْ تتوَهم شيئاً غير واقِعي ، وأن تظنّ شيئاً غير صحيح ، والمِقياس هو الواقع ، فالحِكْمة أنْ تكون واقِعِياً ، والإنسان إذا ابْتَعَد عن الواقع وقع في الوهْم وصارَتْ أفْكارُهُ وهْماً وظناً وشكاً وغلبة ظنٍّ ، أما الحِكمة فهي أنْ تبْلغ حدّ اليقين : ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ﴾ اسْمع إلى قوْله تعالى : ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان : ١٢] .

الحِكمة كلُّها أنْ تشْكر الله ، لأنّ الله أنْعم عليك بِنِعْمَة الإيجاد ، وأنْعم عليك بِنِعْمَة الإمْداد ، وأنْعم عليك بِنِعْمَة الهُدى والرشاد ، فالحِكْمَة أنْ تشْكر الله ، والكَوْنُ مُسَخَّر تسْخير تعْريف ومُسَخَّرٌ تسْخير تكْريم ، فإنْ آمنت وَشَكَرْتَ حقَّقْتَ الهَدَف من وُجودِك ، ألَيْس الله بِأَحْكم الحاكِمين فَحِكْمَة الحُكَماء مُسْتَمَدَّةٌ من حِكمة الله ، يُعْطي الحِكمة أو لا يُعْطيها ، والدليل أنَّهُ إذا أراد الله إنفاذ أمر أخذ من كُلِّ ذي لُبٍّ لُبَّهُ ، فهذا أبو لَهَب لو ذهب إلى النبي ﷺ وقال : يا رسول الله أشْهد أن لا إله إلا الله وأشْهد أنّ محمّداً رسول الله لنجا إلى الأبد ، ولما أنزل الله فيه ، قال تعالى : ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ

حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾ [المسد : ١ـ٥] .

فَطَريق الإرادة لأبي لهَبٍ بِيَدِ الله عز وجل ، ومن أجْل أنْ تعْلم أنَّ كُلّ مخْلوقٍ أمره بِيَد الله سبحانه ، فانظر حماقة هؤلاء السُّفهاء ، قال تعالى :

﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة : ١٤٢] .

فالله يُخاطِب الناس من أهل مكّة ، واليهود ، ويقول أنتم سُفَهاء وسَوْف تقولون هذا الكلام قال تعالى : ﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ .

حسناً ، هؤلاء الذين سُمُّوا سُفهاء ؛ لو فكَّروا قليلاً ثمّ سكتوا ، فَلَو أنَّهم سكتوا لأبطلوا كلام الله وردوه ، ولكنهم تكلموا وقالوا كما أخبرت به الآية ، من أجل أن تعلَم أنّ الله بِيَدِه كُلُّ شيء ، وبيده ناصِيَة كلِّ شيءٍ ، وإذا أراد الله إنفاذ أمر أخذ من كلِّ ذي لُبٍّ لُبَّهُ . والله عز وجل طليق الإرادة ولا شيءَ يقِفُ أمامه سُبحانه ؛ فهذا السَّفيه الذي وُصِف بِأَنَّهُ سفيه ، ولأنَّهُ سفيه سَيَقول كذا وكذا ، ولو أنه فكَّر قليلاً وسكت لألْغى مصداقية القرآن الكريم ولكن حاشا وكلاّ ، إذاً الحِكمة أنَّ كلَّ شيءٍ بِيَدِ الله يُؤتي الحكمة من يشاء أو يُؤتي الضلال من يشاء ، قال تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد : ١] .

فالكفار أعْمالُهم لا تُحَقِّق أهْدافَها ، ولا تصِل إلى غاياتِها ؛ فَحَرَكة الإنسان الكافِر عَشْوائِيَّة ، حَرَكَتُهُ كبيرة ، ولكن عندما يأتيه ملَكُ

المَوت ليتوفاه ويخرجه من الدنيا بعد أن بدأت تنْتظم حياته ويعْلو شأنُهُ وبعد ما أخذ يزْداد مالُهُ وقد تَمكَّن بِعَمَلٍ مرموق ، ومكانة وأصْحاب وأعْوان ، يقول له ملَكُ المَوت : قم مستسلماً واصحبنا ، فالحِكمة أنْ تأتي أعْمالك مُطابِقَةً لأهْدافِك ، لكن الإنسان أحْياناً يُنْجِزُ عمَلاً كبيراً دون أن يكون له غاية في مرضاة الله ، بل تكون غايته سمعة شخصية ، وعلواً في الأرض ، لذا يقول ربنا عز وجل :

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان : ٢٣] .

يقول الله عز وجل في سورة البقرة :

﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾

كنتُ قد ذكرْتُ من قبْل أنَّ الله سبحانه قد يُؤتي المال لِمَن يُحِبّ ولمن لا يُحِبّ ، فقد آتاه لِمَن لا يُحِبّ وهو قارون ، وقد آتاه لِمَن يُحِب وهو سيِّدُنا عثمان بن عفَّان رضي الله عنه ، فكان من أغْنى أغْنِياء الصحابة فقد جهَّز وحْدَهُ جيْش العُسْرة ، وهذا ابنُ عَوْفٍ كذلك من أغْنى أغْنِياء الصحابة ، فالله أعطى المال لِمَن يُحِبّ ولمن لا يحب ، وأعطى الملك لمن يحب وهو سيِّدُنا سُليمان ، ولِمن لا يُحبّ وهو فِرْعون ، ولكِنَّ العِلم والحِكمة لا يُعْطيهِما إلا لِمَن يُحِب ، قال تعالى في الحديث عن يوسف عليه السلام :

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : ٢٢] .

فالإنسان إذا تلقى العِلْم الصحيح وتفقَّه بِكِتاب الله وقرأ سُنَّة رسول الله ﷺ وسيرَتَهُ ، وقف على الحق وعرف مَوْقِعَهُ ، ولِماذا هو

في الدنيا ؟ ومن أين أتى ؟ وإلى أين سَيَذْهب ؟ وما غاية وُجودِهِ وماهِيَّتُهُ ؟ فهذا أوتِيَ الحِكمة ، فالمؤمن هدَفُهُ واضِح وهو مُطْمئِنّ ، لأنّه عرف حقيقة الحياة الدُّنيا ، وعرف حقيقة الكَون ، وحقيقة الإنسان ، وجَوْهَرَهُ قال تعالى : ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

والآية الثانِيَة هي قوله تعالى : ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ .

يدْعو الإنسان ربَّهُ فيَقول : يا رب سدِّدْ قوْلي ووَفِّقْني وألْهِمْني الصواب ، وما من دُعاءٍ أرجو أن تدْعو به أحب إلي من هذا الدعاء : اللهم ألْهِمْنا الصواب ؛ قد يقِف الإنسانُ أياماً مواقِفَ نبيلَة سليمة ، ويتكَلَّم الكلِمة الصحيحة ، ويتَحَرَّك الحركة المُناسِبَة ، ويغْضب في مَوْطن الغَضَب ، ويحلُم في موْطِن الحِلْم ، ويُعْطي في مَوْطن العَطاء ، ويُمْسِك عنْدما ينْبغي أنْ يُمْسِك ، فهذه المواقِف المُتَنَوِّعَة إذا كانت مُتناسِبَةً مع عِلَلِها وأسْبابِها يشْعر بِراحة ؛ فماذا يُقابِل الحِكمة ؟ الحُمق ، فالحِكمة يتْبَعُها راحة ، أما الحُمْق فيتْبَعُهُ ندَم ، قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ .

ولقد عرف كل مؤمن وسمع بِدُعاء الصالحين : « **اللهم اجْعل تدْميرهم في تدْبيرهم** » ، فبعض الناس يُفكِّر ويُفكِّر ، ويُفكِّر ويحسب ويجْمع ويطْرح ويقسم ، ثمّ يرتَكِب حماقَةً تُدَمِّرُهُ بِاخْتِياره ، لأنه ركن إلى ذاته واطمأن إليها .

فاعلم علم اليقين أنه : ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا

كَثِيرًا﴾ ، فإذا دخل الإنسان المسْجد قد لا يجِد مقْعداً ولا يتوقع راحة ولا استِضافة ، ولكن ما الذي يُعْطيه الله في المسْجِد عند سماعه خطبةً أو درساً ؟ الحِكمة ، تجِد أنَّك إذا دخَلْت المسْجِد تقول : اللهم افْتح لي أبْواب رحْمَتِك ؛ تجد نفسك بعد حين وبعد المثابرة على لزوم المساجد أنّك في بيْتِكَ حكيم ، وتجد نفسك في تجارتك موفّقاً وتعْقِد صفْقة مَعْقولة ، وبِالمُقابِل تجد من يعرض عن مجالس العلم وتلقي أسباب الحكمة ، يعْقد صفْقة يخْسر بها وتهْوي به ويُدَمَّر بتدبيره ، فالإنسان حين يكون مع الله فالله معه ، والحقيقة أنت أحَدُ شخْصَين : « **شخْصٌ يُلْهِمُه ربه سبحانه صلاحه وخيره ، لأنه انقاد لربه ، وشخْصٌ يُوَسْوِسُ له شيْطان ويأخذ بناصيته الخاطئة** » ، فالشيْطان يَدُلُّك على الشر وعلى المعْصِيَة ، ويُحَبِّب لك الدنيا ، ويُلْقي بينك وبين الآخرين البَغْضاء ويُزَيِّن لك الحرام ، قد تجد أشْخاصاً كثيرين عندهم زوْجات من الدرجة الأولى ، ومع ذلك يلهثون وراء سقط النساء ويسقطون في مستنقعات الزنى ، لأنَّ الشيْطان يُزَيِّن الرذيلة والفجور بعد أن اختارها لنفسه ويُزَهِّدُه بِزوْجتِه ، فهذا حُمْق ويُدَمِّر نفْسَهَ بنفسه ، يزهد بالطاهر والحلال والنقِيّ الذي لا شائِبَة فيه ، ويلهث وراء الحرام ، والدمار والعار ، كلُّ هذا دليل على عدم وُجود الحِكمة التي يسلك مسالكها : ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ .

تجد الإنسان يتسَرَّع دون تحقق ، فإذا به يقعُ في شرِّ عملِه ، وقد يحكم حُكْماً سريعاً على بعض أعماله فينْدم على ما فعل ، وقد يكون ردُّه أكثر مما ينْبغي فَيُفَجِّر المَوْضوع ؛ أراد أنْ يُصْلِح فأفْسَد ، وأن يُرَمِّم فَدَمَّر .

وبعد ، فيا أيها المؤمن كن حكيماً ، من علامة الحكمة فيك أنَّك لا تنْدم على فعل أو قول ، والنَّدم يُرافِق الحمق ، وعدم الحِكمة ، وفقد الحِكمة يعْني أنَّك مقْطوعٌ عن الحكيم ، ولا يوجد لك اتِّصال بربك ، إذْ لو كان هناك إقبال واتِّصال لآتاك الله من الحكمة ، فالله هو الحكيم ، وأيُّ عبْدٍ اتَّصل به يشْتَقُّ لنفسه من حِكْمَتِه ، الربيع بن خثيم رضي الله عنه سُرق بعض مالِهِ فماذا قال ؟ قال : اللهم إنْ كان غنياً فاغفر له وإن كان فقيراً فأغنه ، وهذا قول حكيم ، يرجو من دعائه هذا العوض من الله ، كما ينم عن صفاء القلب والطوية .

إني أعْرِف إنْساناً فَصَل مُوَظَّفاً عنده عن العمل وانْتَقَم منه انْتِقاماً شديداً ، بل أدَّى به الأمر إلى قتْلِهِ من أجل قضِيَّة تافِهَة ؛ غَضَبٌ شديد حَمَلَهُ على ارْتِكاب جريمة قتل ، وهذه الجريمة أَوْدَت به إلى السِّجْن ثلاثين عاماً ، أما لو كان حكيماً لَقال : قَدَّر الله وما شاء فَعَل ، والله هو المُعَوِّض ، ولرأى أنّ كلّ ذلك من حِكْمة أرادَها الله ، فَلَعَلَّهُ أكل مالاً حراماً من قبل ، فالله تعالى عاقَبَهُ وانْتهى الأمر به إلى السجن ثلاثين عاماً ، فالشيطان هو الذي يدْفعه إلى الحركات العَشْوائِيَّة ، قال تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ [مريم : ٨٣] .

حركة عشْوائِيَّة وطائِشَة ومُؤْذِيَة وهدَفُها الإيقاع بين الناس ، ذكرْتُ مرَّةً قِصَّة فريدة ، كانت امرأةٌ تعْمل بِالقضاء ، وكانت مُلمَّة بالقوانين ، وكان لها بيتٌ تملكه شركةً مع أخيها ، وكان معها وثيقة بِمِلْكِيَّة كامل البيت ، فتَوَهَّمت أنه بِإمْكانِها أنْ تأخذ منه البيْت بِطَريقَة ذَكِيَّةٍ جداً وبأُسْلوبٍ يحْتاج إلى خِبْرة ، والقِصة طويلة جداً واسْتطاعَت بمكرها

أن تلقي به في الطريق هو وأولاده وزوْجَتُهُ ، وأن تستولي على ملكية البيت وحدها ، عِنْدها أُصيبَتْ بِمَرضٍ خبيثٍ في أمْعائِها وانْتهى بها الأمر إلى الموت العاجل ، فَكان أخوها الوارث الوحيد لها ، فعاد إلى البيت واسْتَحَقَّت لعْنة الله والملائِكة والناسِ أجْمعين ؛ من الذي دفعها إلى هذا العمل ؟ فقدانها الحكمة ، فافترسها الشيْطان إذ أخْرَجَت أخاها الذي أعْطاها نِصف ثمن البيت تماماً ، ولكن ما خطر في باله أنْ يأخذ منها إيصالاً لاطمئنانه إلى علاقة الإخوة ؛ آلاف القِصص من هذا النوع .

فالإنسان وهو بعيدٌ عن الله تعالى أحْمَق ويرْتَكِب الحماقةَ تلو الحماقة ، فإذا به يتدَمَّر بسوء تصرفاته ، فالخُلاصة إذا كنت مع الله فأنت في ظِل الله ورِعايَتِهِ وحِمايَتِه وتَرْبِيَتِه ؛ تجد شخْصاً حياتُهُ مُتواضِعة ، ولكنّه حكيم وشخْصاً آخر حياته مترفة ، ولكنه موزع النفس مبدَّد الذهن ، ألا ترى أشْخاصاً جمعوا أموالاً طائِلة ثم كُشِف أمْرهم فإذا هم في السِّجن ، فالقضِيَّة هي قضِيَّة توْفيق من الله عز وجل : ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ .

فالإنْسان إذا خرج من بيْتِه فليقل :

« بِسْمِ اللهِ ، رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أَزِلَّ أو أُزَلَّ ، او أَضِلَّ أَوْ أُضِلَّ ، أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ ، أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ » [رواه النسائي] .

فقوله حكمة وصواب .

تحدُثُ معك أمور فتقول بعدها ما انْتَبَهْت ، لكن الله ألْهَمني وصَحَوتُ من غفلتي ، الفِكرة الدقيقة التي أريد أن أنبه إليها : أنْ تقِف

في الوَقْت المُناسِب وأنْ تُراجِع الأمر وأنْ تتريَّث وألا تحكم عشوائياً ، فَكُنْ مع الحكيم تغْدُ حكيماً وكُن مع العليم تغْدُ عليماً وكُن معْ الرحيم تغْدُ رحيماً ، فَكُلّ إنسان يرْتَكِب حماقة يكون وقتها غافلاً ، يعْني أنَّهُ وقْتَ ارْتِكابِه لها كان مقْطوعاً عن الله عز وجل : ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ .

قال تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [آل عمران : ٨١] .

الحكمة تُؤْتى تفضُّلاً من الله الحكيم ، والعلماء قالوا : « الكِتاب هو القرآن ، والحِكمة هي سُنَّة النبي عليه الصلاة والسلام » .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ .

أيها المؤمن اُطْلُب من الله عز وجل كُلّ يومٍ أنْ يُلْهِمَك الحِكمة ، وألا تقع في شرِّ عملِك ، وأنْ تفْعل الشيء الصواب وأن يسدد مسعاك ، والحِكمة ضالَّةُ المؤمن ، والحقيقة أنَّ الإنسان إذا افْتَقر إلى الله أُلْهِمَهُ الحِكمة ، فإذا اعْتَدَّ بِرَأْيِهِ تخَلى عنه فوقع في الشرّ ، ولكنّكَ إنْ تسْتَلْهِم الله يؤتِك الحكمة ، وإنْ تنْقَطِع عن الله ينفردْ بك الشيطان ويُوَسْوِس لك ثم يرديك .

بِرَبِّكم هؤلاء المُجْرمون يوم قتَلوا ضحيتهم أَما فكَّروا في المصير ؟ أربعة ذهبوا إلى صائغ في بعض الأبنِيَة في دِمشق وقَيَّدوه وأخذوا منه

ثلاثة عشر كيلو ذهباً ، وبعد أسبوع أُعْدِموا في قرْيَتِهم جميعاً ، هل معْقول أنْ يَخْسر الإنسان نفْسه من أجل كمِّية من الذهب تبقى لديه سبْعة أيام ؟ لذلك فالمُجْرم غَبِيّ ، طبعاً صعْبٌ أنْ ترْتَكِب جريمة فالقانون يرصدك ويلاحقك ، ثم إن ربك لبالمرصاد يجزي شر الجزاء .

أعْرِف شخْصاً اشْترى هذا الصحْن وأنا أقول دائِماً كُلَّما كثرت الصحون على السطوح قلَّت الصحون على المائِدة ، وكلما قلَّ ماء الحياء قلَّ ماء السماء ، وكلما رخُص لحْم النِّساء غلا لحْم الضأْن ؛ كان يُصلي الفجْر والعِشاء مع أهْله ، بعْدها أصْبح يسْهر إلى الخامسة صباحاً ، وبذلك صار صغيراً أمام أهْله ؛ أين الحِكمة ؟ .

وأعْرف رجُلاً هِوايَتُهُ أنْ يمْشي في الطُّرق المُزْدَحِمة ويُمَتِّع عَيْنه بالحَسْناوات ، فَأُصيب بِمَرض ارْتِخاء الجُفون ، فلا يسْتَطيع أنْ يرى إنساناً إلا إذا أمْسك جفْنه بيَدِه ، أين الحِكمة ؟ هل تُصَدِّقون فمن هو الحكيم ؟ الذي يُطيع أمْر الله عزّ وجل .

أَطِـعْ أمْـرنـا نـرْفـع لـك حُجْبَنـا   فـإنـا منَحْنـا الـرضـا مـن أحَبَّنـا
ولُـذْ بِحِمـانـا واحْتمـي بِجنـابِنـا   لِنَحْميك مما فيه أشْرار خلْقِنا
وعن ذِكْرنا لا يشْغلَنَّك شاغِلٌ   وأخْلِص لنا تلْقَ المَسَرَّة والهنا

اسْمعْ قِصص الناس تَرَ العَجَب ؛ أزْواج مُتَباغِضون ، وأعْمال مُنْحَرِفة وخُصومات ، ففي البيوت مُشْكِلاتٍ لا يعْلَمُها إلا الله ، ونُفور وعَصَبيّة لأنه مقْطوع عن الحكيم ، فَكلامُهُ قاسٍ ورُدود فِعْلِه عنيفَةٌ جداً ، فلا حبٌّ هناك ولا وِئام ولا تسامُح ولا سُرور ، تجد بيتاً يحْوي كلّ شيء إلا الحب ، فهو بِذلك خاوٍ من كل شيء ؛ فالإنسان

بالحكمة يسْعد ومن دون الحِكمة يشْقى ، سمِعْتُ أنّ أحد العلماء ألّف حَوْل هذه الآية كِتاباً من دَفّتِه إلى دَفّتِه : ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ .

وهناك زوْجاتٌ بِالحِكمة أصْبحن أودَّ وأرحم زوْجات ، كأنهن بالود والرحمة أمهات ، وهناك زوْجات بِالحُمق أصْبحن أسْوأ زوْجاتٍ كأنهن ثعابين ، كلّ هذا من الزوج ؛ فهذا كلّ يوم يقسو على زوْجته ويغلظ لها القول ، وليله نهاره وراء عُيوبِها ليحطَّ من شأنها ويُحَطِّمها حتى تصل إلى أن تُجابههُ وتردَّ عليه ردّاً عنيفاً ، فيدمّر الوُدّ الذي بيْنه وبينها ، أما المؤمن فيحْمد الله على كلّ شيء ، فلن تجد إنساناً له كمال مُطلق ، أما الحكمة فإنها تجْعل النَّقص كمالاً ، والحُمق يجْعل الكمال نقْصاً ، فانتَبِه ؛ اتِّصالُك بالله يُعْطيك الحكمة ، وذِكْرك الله عز وجل يُعْطيك الحكمة وتِلاوة القرآن تعطيك الحكمة ، والبطولة أن تسْعد في الدنيا والآخرة ، والسعادة أن تكون مع الحكيم ، وأنت تحْتاج إلى الحكمة كلّ ساعة ، بل كلّ دقيقة ، وبلا حِكمة يشْقى الإنسان ويَردى .

بِهذا نكون قد أنْهَيْنا الحديث حول هذا الاسم من الأسماء الحسنى المئة والله المُوَفِّق ، كما انتهينا من مجمل البحث الذي وفق الله إليه ، وهو دراسة أسماء الله الحسنى كما مرَّ بكم ، ونضرع إلى المولى سبحانه بالنفع والقبول .

وصلى الله على محمد الرسول وعلى آله وصحبه وسلم .

* * *

محتوى الجزء الثالث

* * *

الفهارس العامة

فهرس الآيات القرآنية الكريمة

(٣) سورة آل عمران

(٤) سورة النساء

(٥) سورة المائدة

(٦) سورة الانعام

(٨) سورة الأنفال

(٩) سورة التوبة

الآية	رقمها	الجزء/الصفحة
﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾	٧٨	٦١٨/١
﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ﴾	٨٤	٥١٥/١
﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾	٩٤	٥٩٥/٢ـ ٣٨٦/٣
﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم﴾	١٠٣	٥٠٧/١، ٦٢٠ـ ٣٦/٢، ٤٢١
﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾	١٠٥	٥٦٧/١ـ ٥٩٦/٢ـ ٣٨٧/٣، ٥٣٤
﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾	١١١	٤٦٥/٢، ٥٨٠ـ ٤٩٩/٣
﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ﴾	١١٥	٣٥٥/٣، ٣٦٥
﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾	١١٧	٤٦٢/٢، ٥٤٦
﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا﴾	١١٨	٢١٣/١، ٢١٤، ٣٤٩، ٦٠٠، ٦٠٣، ٦٠٤، ٦١٠ـ ٦٦٦/٢ـ ٣٠٩/٣
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ﴾	١٢٣	٦٤٥/١ـ ٧٦/٢، ٢٥١
﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾	١٢٨	٦٤٧/١
﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾	١٢٩	٢١٨/٢ـ ٢٩٩/٣، ٣٠٠

(١٠) سورة يونس

الآية	رقمها	الجزء/الصفحة
﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾	١	٥٢٧/١
﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾	٣	٣٩٣/٣، ٣٩٩
﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً﴾	٥	٣٠/٢
﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾	١٠	١٥٥/٢، ٦٩٥ـ ٥٦٤/٣
﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾	١١	١٦٢/١
﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾	٢٢	٦/٣
﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ﴾	٢٤	١٢٠/٢، ١٢١، ٣١٧ـ ١٦٩/٣
﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾	٢٥	٧١/١، ٩٠، ٦١٥، ٦١٦
﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾	٢٦	٩٠/١ـ ١٨٣/٢، ٣٤٤
﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾	٢٩	٥٩٥/٢
﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾	٣١	٣٩٤/٣، ٣٩٩، ٤٠٠

(١١) سورة هود

(١٢) سورة يوسف

(١٣) سورة الرعد

(١٤) سورة إبراهيم

(١٥) سورة الحجر

(١٦) سورة النحل

(١٧) سورة الإسراء

(١٨) سورة الكهف

(١٩) سورة مريم

(٢٠) سورة طه

(٢٣) سورة المؤمنون

(٢٤) سورة النور

(٢٧) سورة النمل

(٢٨) سورة القصص

(٢٩) سورة العنكبوت

(٣٠) سورة الروم

(٣١) سورة لقمان

(٣٢) سورة السجدة

(٣٣) سورة الأحزاب

(٣٧) سورة الصافات

(٣٨) سورة ص

(٣٩) سورة الزمر

(٤٠) سورة غافر

(٤١) سورة فصلت

(٤٢) سورة الشورى

(٤٣) سورة الزخرف

(٤٤) سورة الدخان

(٤٥) سورة الجاثية

(٤٦) سورة الأحقاف

(٥٦) سورة الواقعة

(٥٧) سورة الحديد

(٥٨) سورة المجادلة

(٥٩) سورة الحشر

(٦٠) سورة الممتحنة

(٦١) سورة الصف

(٦٢) سورة الجمعة

(٦٣) سورة المنافقون

(٦٤) سورة التغابن

(٦٥) سورة الطلاق

(٦٦) سورة التحريم

(٦٧) سورة الملك

(٦٨) سورة القلم

(٦٩) سورة الحاقة

(٧٠) سورة المعارج

(٧١) سورة نوح

(٧٢) سورة الجن

(٧٣) سورة المزمل

(٧٤) سورة المدثر

(٧٥) سورة القيامة

(٧٦) سورة الإنسان

(٧٧) سورة المرسلات

(٧٨) سورة النبأ

(٧٩) سورة النازعات

(٨٠) سورة عبس

(٨٦) سورة الطارق

(٨٧) سورة الأعلى

(٨٨) سورة الغاشية

(٨٩) سورة الفجر

(٩٠) سورة البلد

(٩١) سورة الشمس

(٩٢) سورة الليل

(٩٣) سورة الضحى

(٩٤) سورة الشرح

(٩٥) سورة التين

(٩٦) سورة العلق

(٩٧) سورة القدر

(٩٨) سورة البينة

(١١٣) سورة الفلق

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ﴾ ١ ـ ٥ ٢/ ٩٧

(١١٤) سورة الناس

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ ١ ـ ٢ ٢/ ١١٣

* * *

فهرس أطراف الأحاديث والآثار

- و -

- لا -

ـ ي ـ

* * *

فهرس أطراف آثار وأقوال الصحابة

- ح -

- ع -

- غ -

ـ ك ـ

ـ ل ـ

- م -

- ن -

- و -

- ي -

* * *

فهرس الأعلام

- ب -

- ت -

-ح-

-خ-

- د -

- ذ -

- ر -

- ع -

- ك -

- م -

* * *

فهرس القبائل والجماعات

فهرس الأماكن والبقاع

-ح-

-خ-

ـ د ـ

- ي -

* * *

فهرس القوافي الشعرية

ـ قافية العين ـ

ـ قافية الفاء ـ

ـ قافية الكاف ـ

* * *

فهرس المصادر والمراجع

١ـ القرآن الكريم .

٢ـ تفسير الطبري ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤٠٥هـ .

٣ـ تفسير ابن كثير ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤٠١هـ .

٤ـ تفسير القرطبي ، دار الشعب ، القاهرة ، ط٢ ، تحقيق أحمد عبد الحليم البردوني .

٥ـ صحيح البخاري ، دار ابن كثير ، اليمامة ، بيروت ، ١٤٠٧هـ ، ١٩٨٧م ، ط٣ ، تحقيق د . مصطفى ديب البغا .

٦ـ صحيح مسلم ، دار إحياء التراث العربي ، تحقيق فؤاد عبد الباقي .

٧ـ سنن الترمذي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، وآخرين .

٨ـ سنن أبي داود ، دار الفكر ، بيروت ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد .

٩ـ سنن ابن ماجه ، دار الفكر ، بيروت ، تحقيق فؤاد عبد الباقي .

١٠ـ سنن النسائي الكبرى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م ، تحقيق عبد الغفار سليمان البنداري ، سيد كسروي حسن .

١١ـ مسند الإمام أحمد ، مؤسسة قرطبة ، مصر .

١٢ـ موطأ الإمام مالك ، دار إحياء التراث العربي ، مصر ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي .

١٣ـ سنن الدارمي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٤٠٧هـ ، تحقيق فواز أحمد زمرلي ، خالد السبع العلمي .

١٤ـ مصنف عبد الرزاق ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٣هـ ، ط٢ ، حبيب الرحمن الأعظمي .

١٥ـ مصنف ابن أبي شيبة ، مكتبة الرشد ، الرياض ، ١٤٠٩هـ ، ط١ ، كمال يوسف الحوت .

١٦ـ صحيح ابن حبان ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٢ ، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م ، تحقيق شعيب الأرناؤوط .

١٧ـ صحيح ابن خزيمة ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ١٣٩٠هـ ، ١٩٧٠م ، تحقيق : محمد مصطفى الأعظمي .

١٨ـ المعجم الكبير ، الطبراني ، مكتبة العلوم والحكم ، الموصل ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م ، ط٢ ، تحقيق : حمدي السّلفي .

١٩ـ المستدرك على الصحيحين ، الحاكم ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١١هـ ، ١٩٩٠م ، تحقيق عبد القادر عطا .

٢٠ـ شعب الإيمان ، البيهقي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٠هـ ، ط١ ، تحقيق : محمد السعيد بسيوني زغلول .

٢١ـ مسند الشهاب ، القضاعي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م ، ط٢ ، تحقيق : حمدي السّلفي .

٢٢ـ الجامع الصغير ، السيوطي ، دار طائر العلم ، جدة ، تحقيق : عبد الرؤوف المناوي .

٢٣ـ كشف الخفاء ، العجلوني ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٥هـ ، ط٤ ، تحقيق : أحمد القلاش .

٢٤ـ الزهد ، عبد الله بن المبارك ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، تحقيق : حبيب الرحمن الأعظمي .

٢٥ـ **أسنى المطالب في أحاديث مختلفة المراتب** ، محمد السيد درويش الحوت ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٤٠٣هـ ، تحقيق : خليل الميس .

٢٦ـ **الفردوس بمأثور الخطاب** ، الديلمي الهمذاني ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٦ ، ط١ ، تحقيق : السعيد بن بسيوني زغلول .

٢٧ـ **علل الدارقطني** ، دار طيبة ، الرياض ، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م ، ط١ ، تحقيق محفوظ الرحمن زين الله .

٢٨ـ **تلخيص الحبير** ، ابن حجر ، المدينة المنورة ، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م ، تحقيق : السيد عبد الله هاشم اليماني المدني .

٢٩ـ **فتح الباري** ، شرح صحيح البخاري ، ابن حجر ، دار المعرفة ، بيروت ، تحقيق فؤاد عبد الباقي ، محب الدين الخطيب ، ١٣٧٩هـ .

٣٠ـ **شرح صحيح مسلم** ، النووي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٣٩٢هـ .

٣١ـ **السيرة النبوية** ، ابن هشام ، دار الجيل ، بيروت ، ١٤١١هـ ، ط١ ، تحقيق : محمد السعيد بسيوني زغلول .

٣٢ـ **الطب النبوي** ، ابن القيم ، دار الفكر ، بيروت ، تحقيق : عبد الغني عبد الخالق .

٣٣ـ **زاد المعاد** ، ابن القيم ، مؤسسة الرسالة ـ مكتبة المنار الإسلامية ، بيروت ـ الكويت ، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م ، ط١٤ ، تحقيق : شعيب الأرناؤوط ـ عبد القادر الأرناؤوط .

٣٤ـ **لسان العرب** ، ابن منظور ، دار صادر ، بيروت ـ لبنان ، ط١ ، ١٩٩٧م .

٣٥ـ **مجمع الزوائد** ، أبو بكر الهيثمي ، دار الريان للتراث ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، بيروت ١٤٠٧هـ .

٣٦ـ **شرح العمدة** ، ابن تيمية ، مكتبة العبيكان ، الرياض ، ١٤١٣هـ ، تحقيق : د . سعود صالح العطيشان .

٣٧ـ **الطب النبوي** ، ابن قيم الجوزية ، دار الفكر ، بيروت ، تحقيق : عبد الغني عبد الخالق .

٣٨ـ **بدائع الفوائد** ، ابن قيم الجوزية ، مكتبة نزار مصطفى الباز ، مكة المكرمة ، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م ، تحقيق : عبد العزيز عطا ، عادل عبد الحميد العدوي .

٣٩ـ **المستطرف في كل فن مستظرف** ، أبو الفتح الأبشيهي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٦م ، ط٢ ، تحقيق د . مفيد محمد قميحة .

٤٠ـ **القاموس المحيط** ، الفيروزآبادي .

٤١ـ **موسوعة النباتات المفيدة** ، فريد بابا عيسى ، دار عكرمة ، دمشق ، ٢٠٠٢م .

٤٢ـ **روائع الطب الإسلامي** ، القسم العلاجي ، الجزء الأول ، دار المعاجم ، ط١ ، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م .

٤٣ـ **الأنوار في شمائل النبي المختار** ، الحسين بن مسعود البغوي ، تحقيق : إبراهيم اليعقوبي ، دار المكتبي ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٩م .

٤٤ـ **الطب الوقائي بين العلم والدين** ، د . نضال عيسى ، دار المكتبي ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٧م .

٤٥ـ **أساسيات علم المفاصل** ، أنس القطيفاني ـ دانة الفقير ، جامعة دمشق ، ١٩٩٩م .

٤٦ـ **إعجاز القرآن في العلوم الجغرافية** ، محمد مختار عرفات ، دار اقرأ ، ط١ ، ٢٠٠٣م .

٤٧ـ **اعرف جسدك** ، سلسلة الثقافة العامة ، ترجمة العقيد ماجد العظمة ، سلسلة الثقافة العامة .

٤٨ـ **اعرف نفسك** ، د . فاخر عاقل ، دار العلم للملايين ، ط٣ ، ١٩٧٤م .

٤٩ـ **الأسودان التمر والماء** ، د . حسان شمي باشا ، دار المنارة (السعودية) ط١ ، ١٩٩٢م .

٥٠ـ **الأمراض الشائعة** ، د . محيي الدين طالو العلبي ، دار ابن كثير ، ط١ ، ١٩٨٩م .

٥١ـ **الأمراض النفسية وعوامل الشد إلى الخلف** ، د . مأمون حموش ، دار المأمون ، ط١ ، ٢٠٠٣م .

٥٢ـ **الإنسان بين العلم والدين** ، شوقي أبو خليل ، دار الفكر ، ط٥ ، ١٩٨٩م .

٥٣ـ **الإنسان ومعجزة الحياة** ، د . خلوق نور باقي ، مؤسسة الرسالة ، ط١ ، ١٩٩٨م ، ترجمة أورخان محمد علي .

٥٤ـ **الإيدز والأمراض الجنسية** ، د . محيي الدين طالو العلبي ، دار ابن كثير ، ط١ ، ١٩٨٨م .

٥٥ـ **الإيدز وباء العصر** ، د . محمد علي البار ـ د . محمد أيمن صافي ، دار المنارة ، ط١ ، ١٩٨٧م .

٥٦ـ **الأسرار الطبية الحديثة في السمك والحوت** ، د . حسان شمسي باشا ، دار المنارة (السعودية) ، ط١ ، ١٩٩١م .

٥٧ـ **الانفجار الكبير أو مولد الكون** ، أميد شمشك ، مؤسسة الرسالة ، ط١ ، ١٩٩٨م ، ترجمة أورخان محمد علي .

٥٨ـ **البدانة والسمنة** ، د . حلمي رياض جيد ، دار المعارف ، ١٩٦٩م .

٥٩ـ **التغذية والنمو** ، د . محمد غسان سلوم ، جامعة دمشق ، ط٤ ، ١٩٩٤م .

٦٠ـ **الجديد في أمراض التدخين** ، د . نضال عيسى ، دار المكتبي ، ط١ ، ١٩٩٤م .

٦١ـ **الجنين المشوه والأمراض الوراثية** ، د . محمد علي البار ، دار القلم ـ دار المنارة ، ط١ ، ١٩٩١م .

٦٢ـ **الحبة السوداء بين الدين والطب** ، د . عبد الرحمن النجار ، دار علوم القرآن ، ط١ ، ١٩٩٢م .

٦٣ـ **الختان بين الطب والشريعة** ، د . عبد الرحمن القادري ، دار ابن النفيس ، ط١ ، ١٩٩٦م .

٦٤ـ **الخنزير بين ميزان الشرع ومنظار العلم** ، د . أحمد جواد ، دار السلام (القاهرة) ، ط١ ، ١٩٨٧م .

٦٥ـ **الدخان أحكامه وأضراره** ، عبد الكريم محمد نصر ، ١٩٩٦م .

٦٦ـ **الدليل الطبي والفقهي للمريض في شهر الصيام** ، د . حسان شمس باشا ، دار السوادي (جدة) .

٦٧ـ **الدماغ بنيته ووظائفه** ، عمران المقداد ، جامعة دمشق ، ١٩٨٦م .

٦٨ـ **الدين في مواجهة العلم** ، وحيد الدين خان ، دار النفائس ، ط٤ ، ١٩٨٧م ، ترجمة ظفر الإسلام خان .

٦٩ـ **السجائر حلال أم حرام** ، د . عبد الصبور شاهين ، الدار الذهبية .

٧٠ـ **السواك في ميزان الصيدلة** ، علي الرغبان ـ فراس رزوق ـ مجاهد كرمان ، دار فصلت ، ط١ ، ١٩٩٧م .

٧١ـ **الشفاء بالحبة السوداء** ، فرح عبد الحميد القداحي ، دار الإسراء (القاهرة) ، ١٩٨٩م .

٧٢ـ **الشمس والقمر بحسبان** ، . . أحمد عبد الجواد ، دار هاشم الكتبي .

٧٣ـ **الطب الإسلامي** ، محيي الدين طالو العلبي ، ابن كثير ، ط١ ، ١٩٩٢م .

٧٤ـ **الطب المجرب** ، خالد سيد علي ، مكتبة دار التراث (الكويت) ، ط٥ ، ١٩٩٣م .

٧٥ـ **الطب النبوي** ، ابن قيم الجوزية ، دار الحكمة .

٧٦ـ **الطب النبوي في ضوء العلم الحديث** ، د . غياث حسن الأحمد ، دار المعاجم ، ط١ ، ١٩٩٥م .

٧٧ـ **الطب النبوي والعلم الحديث** ، د . محمد ناظم النسيمي ، الشركة المتحدة ، ط١ ، ١٩٨٤م .

٧٨ـ **الطب محراب الإيمان** ، د . خالص كنجو ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٧١م .

٧٩ـ **الطقس** ، أ . ج فور سدايك ، معهد الإنماء العربي (بيروت) ، ١٩٨١م ، ترجمة نبيلة (هيلين) منسي .

٨٠ـ **العلاج بالنبات** ، وديع جبر ، دار الجيل ، ط١ ، ١٩٨٨م .

٨١ـ **العلم في حياة الإنسان** ، د . عبد الحليم منتصر ، كتاب العربي ، ١٩٨٤م .

٨٢ـ **العلم في منظوره الجديد** ، روبرت م . أغروس ، سلسلة عالم المعرفة ، عدد ١٣٤ ، ترجمة د . كمال خلايلي .

٨٣ـ **العلم والدين مناهج ومفاهيم** ، د . أحمد عروة ، دار الفكر ، ط١ ، ١٩٨٧م .

٨٤ـ **العلم يدعو إلى الإيمان** ، أكريسي موريسون ، مكتبة النهضة المصرية ، ط٣ ، ١٩٥٨م ، ترجمة محمود صالح الفلكي .

٨٥ـ **العلوم في القرآن** ، د . محمد جميل الحبال ـ د . مقداد مرعي الجواري ، دار النفائس ، ط١ ، ١٩٩٨م .

٨٦ـ **الغذاء لا الدواء** ، د . صبري القباني ، دار العلم للملايين ، ط٣ ، ١٩٦٦م .

٨٧ـ **الفيزياء المسلية** ، ياكوف بيريلمان ، دار مير (موسكو) ، ط٥ ، ١٩٧٧م ، ترجمة د . سليمان المنير .

٨٨ـ **القرآن وعلم النفس** ، د . عبد العلي الجسماني ، العربية للعلوم ، ط١ ، ١٩٩٩م .

٨٩ـ **القرار المكين** ، د . مأمون شقفة ، دار حسان ، ط٢ ، ١٩٨٧م .

٩٠ـ **الكوكب الوطن** ، كيفن دبليوكيلي ، دار مير (موسكو) .

٩١ـ **الكون وأحجار الفضاء** ، محمد فتحي عوض ، دار الوثبة .

٩٢ـ **الكون والأرض والإنسان في القرآن العظيم** ، رجا عبد الحميد عرابي ، دار الخير ، ط١ ، ١٩٩٤م .

٩٣ـ **الله والعلم الحديث** ، عبد الرزاق نوفل ، دار مصر للطباعة ، ط٢ .

٩٤ـ **الله يتجلى في عصر العلم** ، نخبة من العلماء الأمريكيين ، دار إحياء الكتب العربية ، ترجمة د . الدمرداش عبد المجيد سرحان .

٩٥ـ **الميلاتونين هل هو الدواء السحري** ، د . حسان شمس باشا ، دار المنارة (السعودية) ط١ ، ١٩٩٦م .

٩٦ـ **النحلة تسبح الله** ، محمد حسن الحمصي ، ط١ ، ١٩٧١م .

٩٧ـ **النفس بين العلم والدين** ، محيي الدين ميقري ، مطبعة عكرمة ، ط١ ، ١٩٩٦م .

٩٨ـ **الوافي في تخطيط القلب الكهربائي** ، د . ضياء الدين الجماس ـ د . عبد الملك الكزبري ، مكتبة الرازي ط١ ، ١٩٨٧م .

٩٩ـ **الوجيز في أمراض الكبد** ، ليلى محمد أديب المؤيد العظم ـ نهى أحمد كامل ، جامعة دمشق ، ١٩٩٨م .

١٠٠ـ **بدائع السماء** ، جير الد هوكز ، ترجمة : د . عبد الرحيم بدر ، المكتبة العصرية (صيدا) ، ١٩٦٧م .

١٠١ـ **تشريح وفيزيولوجيا الإنسان** ، فاسيلي تاتارينوف ، دار مير (موسكو) ، ١٩٨٣م .

١٠٢ـ **جهاز التنفس** ، مجموعة من الأطباء ، جامعة دمشق ، ١٩٨٠م .

١٠٣ـ **حرب النجوم** ، عاطف معتوق .

١٠٤ـ **حركة الأرض ودورانها** ، محمد علي الصابوني ، دار القلم ، ط١ ، ١٩٩١م .

١٠٥ـ **خلق الإنسان بين الطب والقرآن** ، محمد علي البار ، الدار السعودية للنشر ، ط٤ ، ١٩٨٣م .

١٠٦ـ **دراسات حول الطب الوقائي** ، مجموعة من الأطباء ، مجلة الكتاب العربي (١٧) ، ١٩٨٧م .

١٠٧ـ **دليل الأنفس بين القرآن الكريم والعلم الحديث** ، توفيق محمد عز الدين ، دار السلام (القاهرة) ط١ ، ١٩٨٦م .

١٠٨ـ **دليل العائلة الطبي** ، جان غوميز ، دار الحوار ، ط٢ ، ١٩٨٨م .

١٠٩ـ **دور الجراثيم في حياتك** ، ليو شنيدر ، منشورات وزارة الثقافة ، ١٩٨١م ، ترجمة غسان مصري زادة .

١١٠ـ **رحلة الإيمان في جسم الإنسان** ، حامد أحمد حامد ، دار القلم ، ط١ ، ١٩٩١م .

١١١ـ **روائع الطب الإسلامي** ، د . محمد نزار الدقر ، دار المعاجم ، ط١ ، ١٩٩٥م .

١١٢ـ **سبعون برهاناً علمياً** ، ابن خليفة ، دار الإيمان ، ط٣ ، ١٩٨٨م .

١١٣ـ **شفاء التباريح والأدواء في حكم التشريح ونقل الأعضاء** ، الشيخ إبراهيم اليعقوبي ، مطبعة خالد بن الوليد ، ط١ ، ١٩٨٦م .

١١٤ـ **طبيبك معك** ، د . صبري القباني ، دار العلم للملايين ، ط٧ .

١١٥ـ **طعامك سليماً وسقيماً** ، د . ضياء الدين الجماس ، مركز نور الشام للكتاب ، ١٩٩٩م .

١١٦ـ **عظمة الرحمن في خلق الإنسان** ، علي الشيخ علي ، جامعة دمشق ، ١٩٧٧م .

١١٧ـ **علم النفس الإسلامي** ، محمد رمضان القذافي ، منشورات صحيفة الدعوة الإسلامية ، ط١ ، ١٩٩٠م .

١١٨ـ **غرائب مخلوقات الله** ، لطفي وحيد ، المكتب الجامعي الحديث ، ١٩٩٠م .

١١٩ـ **غريزة أم تقدير إلهي** ، شوقي أبو خليل ، دار الفكر ، ط٦ ، ١٩٨٧م .

١٢٠ـ **فيه شفاء للناس العسل** ، د . محمد نزار الدقر ، دار الكتب العربية .

١٢١ـ **قصة العناصر** ، ألبير دوكروك ، منشورات وزارة الثقافة ، ١٩٨١م ، ترجمة وجيه السمان .

١٢٢ـ **قصص وطرائف عن الفلزات** ، س . فينيتسكي ، دار مير (موسكو) ، ١٩٨٤م ، ترجمة : عيسى مسوح .

١٢٣ـ **كتاب المعرفة الحيوان** ، د . عبد المنعم عبيد ، شركة ترادكسيم .

١٢٤ـ **كتاب المعرفة جسم الإنسان** ، د . عبد المنعم عبيد ، شركة ترادكسيم .

١٢٥ـ **كتاب المعرفة النبات** ، د . عبد المنعم عبيد ، شركة ترادكسيم .

١٢٦ـ **ما هي نظرية النسبية** ، لانداو ورومر ، دار مير (موسكو) ط٤ ، ١٩٧٨م .

١٢٧ـ **ماذا في العلم والطب من جديد** ، مجموعة من الأطباء ، كتاب العربي (٢١) .

١٢٨ـ **مبادىء البيولوجيا** ، إرينا كروزينا ، دار مير (موسكو) ، ط٢ ، ١٩٨٢م .

١٢٩ـ **مبادىء التشخيص في الطب الباطني** ، مجموعة من الأطباء ، جامعة دمشق ، ١٩٩٩م .

١٣٠ـ **مع الطب في القرآن الكريم** ، د . عبد الحميد دياب ـ د . أحمد قرقوز ، مؤسسة علوم القرآن ، ط١ ، ١٩٨٠م .

١٣١ـ **مع الله في السماء** ، د . أحمد زكي ، دار الهلال (القاهرة) .

١٣٢ـ **معالجة التدخين بين الأطباء والمشرعين** ، د . ضياء الدين الجماس ، دار ابن حيان .

١٣٣ـ **معجزات الشفاء في الحبة السوداء والعسل والثوم والبصل** ، أبو الفداء محمد عزت محمد عرف ، دار تهامة .

١٣٤ـ **معجزات في الطب للنبي العربي ﷺ** ، د . محمد سعيد السيوطي ، مؤسسة الرسالة ، ط٢ ، ١٩٨٦م .

١٣٥ـ **مقدمة في علم الخلية والجنين** ، هاني رزق ، جامعة دمشق ، ١٩٨٦م .

١٣٦ـ **من أسرار وإعجاز القرآن الكريم** ، محمد أديب النابلسي ، مكتبة دار الصفا ، ط١ ، ١٩٩٩م .

١٣٧ـ **ممن علم الطب القرآني** ، عدنان الشريف ، دار العلم للملايين ، ط١ ، ١٩٩٠م .

١٣٨ـ **من علم الفلك القرآني** ، عدنان الشريف ، دار العلم للملايين ، ط١ ، ١٩٩١م .

١٣٩ـ **من علم النفس القرآني** ، عدنان الشريف ، دار العلم للملايين ، ط١ ، ١٩٨٧م .

١٤٠ـ **موسوعة الشباب** ، مجموعة من المؤلفين ، شركة ميدليفانت .

١٤١ـ **موسوعة النباتات المفيدة** ، فريد بابا عيسى ، مكتبة ابن النفيس ، ط١ ، ٢٠٠٢م ، ترجمة محمد خير جمعة .

١٤٢ـ **موسوعة بهجة المعرفة** ، الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان .

١٤٣ـ **موسوعة لايف الارض** ، آرثر بيزر ، مؤسسة تايم ، ترجمة محمد جمال الدين الفندي .

١٤٤ـ **موسوعة لايف البحر** ، ليونارد إنجيل ، مؤسسة تايم ، ترجمة د . عزت خيري .

١٤٥ـ **موسوعة لايف الكون** ، دافيد برجاميني ، مؤسسة تايم ، ١٩٧١م ، ترجمة نزيه الحكيم .

١٤٦ـ **موسوعة لايف جسم الإنسان** ، آلان أ . نورس ، مؤسسة تايم ، ١٩٦٨م .

١٤٧ـ **مولد طفل** ، روبرت لافون ، شركة ترادكسيم ، ١٩٧٧م ، ترجمة محمد نصر .

١٤٨ـ **نحل العسل في القرآن والطب** ، د . محمد علي البني ، مركز الأهرام ، ط٢ ، ١٩٨٧م .

١٤٩ـ وفي الصلاة صحة ووقاية ، د . فارس علوان ، دارس السلام (القاهرة) ، ط١ ، ١٩٨٩م .
١٥٠ـ معجزة القرآن ، محمد متولي الشعراوي ، المختار الإسلامي ، مصر .
١٥١ـ التوحيد عبد المجيد الزنداني ، التراث الإسلامي ، مصر .
١٥٢ـ الإعجاز الطبي في القرآن ، السيد الجميلي ، دار ومكتبة الهلال ، مصر .
١٥٣ـ الإسلام ملاذ كل المجتمعات الإنسانية ، محمد سعيد رمضان البوطي ، دار الفكر ، دمشق .
١٥٤ـ التمر دواء ليس فيه داء ، محمد عبد الرحيم ، دار أسامة ، بيروت .
١٥٥ـ تنبيه العقول الإسلامية لما في آيات القرآن من العلوم الكونية ، ترجمة : عبد الرحمن عيسى ، محمد نجيب المطيعي .
١٥٦ـ الإشارات العلمية في القرآن .
١٥٧ـ الإسلام والحقائق العلمية ، محمود القاسم ، دار الهجرة ، مصر .
١٥٨ـ القرآن وعلوم العصر الحديثة ، إبراهيم فواز عراجي ، دار النهضة العربية ، مصر .
١٥٩ـ الإسلام يتحدى ، وحيد الدين خان ، دار الجيل المسلم ، مصر .
١٦٠ـ الطب محراب الإيمان ، خالص جلبي ، دار النفائس ، بيروت .
١٦١ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، لأبي جعفر الطبري ، ط١/ ٨٨ ، دار الفكر ، بيروت .
١٦٢ـ زاد المسير في علم التفسير ، للحافظ ابن الجوزي ، ط١/ ٨٧ ، دار الفكر ، بيروت .
١٦٣ـ الجامع لأحكام القرآن ، للإمام القرطبي ، ط١/ ٩٥ ، دار الفكر بيروت .
١٦٤ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، للعلاَّمة الآلوسي ، ط١/ ٩٤ ، دار الفكر ، بيروت .

١٦٥ـ **البحر المحيط في التفسير** ، لأبي حيان الأندلسي ، ط١/ ٩٢ ، دار الفكر ، بيروت .

١٦٦ـ **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)** ، للإمام الرازي ، ط١/ ٩٥ ، دار الفكر ، بيروت .

١٦٧ـ **إحياء علوم الدين** ، للإمام الغزالي ، ط/ دار الحديث (د . د . ت) .

١٦٨ـ **جامع الأصول في أحاديث الرسول** ، للإمام ابن الأثير ، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ، ط٢/ ٨٣ ، دار الفكر ، بيروت .

١٦٩ـ **فيض القدير شرح الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير** ، للعلامة المناوي ، ط١/ ٩٤ ، دار الفكر ، بيروت .

١٧٠ـ **نيل الأوطار من أسرار منتقىٰ الأخبار** ، للعلامة الشوكاني ، ط١/ ٩٩ ، دار الكلم الطيب ، دمشق .

١٧١ـ **الإيمان** ، للإمام ابن تيمية ، تحقيق محمد الزبيدي ، ط١/ ٩٣ ، دار الكتاب العربي .

١٧٢ـ **شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل** ، للحافظ ابن قيّم الجوزية ، ط١/ ٩١ ، مكتبة السوادي ، جدّة .

١٧٣ـ **العقيدة الإسلامية وأسسها** ، عبد الرحمن حبنكة الميداني ، ط٧/ ٩٤ ، دار القلم ، دمشق .

١٧٤ـ **اشتقاق أسماء الله** ، للإمام الزجاجي ، ط٢/ ٨٦ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .

١٧٥ـ **تفسير أسماء الله الحسنى** ، للإمام الزجاج ، ط٥/ ٨٦ ، دار المأمون للتراث ، دمشق .

١٧٦ـ **الآداب** ، للإمام البيهقي ، ط١/ ٨٦ ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

١٧٧ـ **الزهد الكبير** ، للإمام البيهقي ، ط١/ ٨٧ ، دار الجنان ، بيروت .

١٧٨ـ **إعلام الموقعين عن رب العالمين** ، للحافظ ابن قيم الجوزية ، ط١/ ٩٧ ، دار الأرقم بن الأرقم ، بيروت .

١٧٩ـ **الرسالة القشيرية** ، للعلامة القشيري ، ط١/ ٨٨ ، دار الخير ، دمشق .

١٨٠ـ **الأذكار** ، للإمام النووي ، ط٧/ ٩٨ ، دار الهدىٰ ، الرياض .

١٨١ـ **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين** ، للحافظ ابن قيّم الجوزية ، ط٤/ ٩٧ ، دار الكتاب العربي ، بيروت .

١٨٢ـ **الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية** ، للعلامة الشعراني ، ط١/ ٨٥ ، مكتبة المعارف بيروت .

١٨٣ـ **شرح الشفا للقاضي عياض** ، شرحه الملاّ علي القاري ، ط/ دار الكتب العلمية ، بيروت (د . ت) .

١٨٤ـ **شرح العلامة الزرقاني على المواهب اللدنية للقسطلاني** ، وبهامشه زاد المعاد لابن القيّم ، ط١/ ٩٣ ، دار المعرفة ، بيروت .

١٨٥ـ **التوبة والإنابة** ، للحافظ ابن القيّم ، تحقيق الدكتور محمد عمر الحاجي وعبد الله بدران ، ط١/ ٩٩ ، دار المكتبي ، دمشق .

١٨٦ـ **أسماء الله الحسنىٰ** : للإمام النسائي ، تحقيق جمال نصر ، ط١/ ٩٣ ، مكتبة التراث ، القاهرة .

١٨٧ـ **أسماء الله الحسنى** : الأصول القيمية والمعاني السلوكية في الإسلام ، عبد العظيم فرج ، ط/ مطابع أطلس ، الرياض ٢ (د . ت) .

١٨٨ـ **أسماء الله الحسنىٰ (مقام الأسماء في امتزاج الأسماء)** الشيخ عبد الغني النابلسي ، تحقيق زينهم محمد عزب ، ط١/ ٨٠ ، دار القلم للتراث .

١٨٩ـ **أسماء الله الحسنى في القرآن الكريم** ، حسين محمد الشافعي ، ط١/ ٨٩ ، نهضة مصر .

١٩٠ـ **أسماء الله الحسنى** : معناها ، فضلها ، الدعاء بها ، الشيخ عبد الحميد كشك ، ط١/ المختار الإسلامي ، القاهرة .

١٩١ـ **أسماء الله الحسنى والآيات الكريمة الواردة فيها** ، حسنين محمد مخلوف ، ط١/ ٧٤ ، دار المعارف ، بيروت .

١٩٢ـ **أسماء الله الحسنى وصفاته في معتقد أهل السنة والجماعة** ، د . عمر سليمان الأشقر ، ط١/ ٩٤ ، دار النفائس ، عمّان .

١٩٣ـ **شرح أسماء الله الحسنى** ، للإمام الرازي ، تحقيق طه سعد ، ط١/ ٢٠٠٠ ، المكتبة الأزهرية للتراث ، القاهرة .

١٩٤ـ **شرح أسماء الله الحسنى على منظومة الشيخ عبد الغني النابلسي** ، لأحمد إبراهيم ملاّ محمد ، ط١/ ٩٤ ، دمشق .

١٩٥ـ **شرح أسماء الله الحسنى** ، أبو القاسم عبد الكريم القشيري ، تحقيق أحمد الحلواني ، ط٢/ ٨٦ .

١٩٦ـ **مختار الصحاح** ، الرازي ، دار العلوم ، تحقيق : د . مصطفى البغا .

* * *

محتوى الجزء الأول

* * *

محتوى الجزء الثاني

* * *

محتوى الجزء الثالث

* * *